

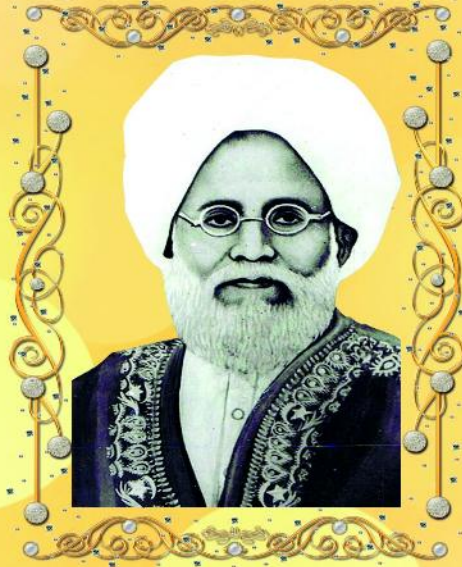
الرقم الدولي: ٢٣٢١-٧٩٢٨

مجلة الهند

مجلة فصلية محكمة

عدد خاص بمناسبة مرور مائة عام على وفاة العلامة شبلي النعماني

٤ - ٣ : ٤

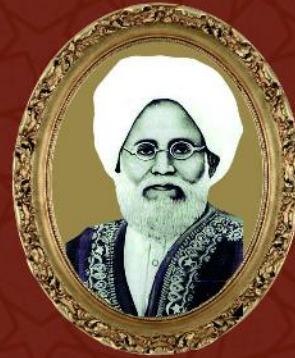


مولانا آزاد آنيديل إيجوكيشنال ترست
بولفور، بنغال الغربية، الهند

عدد خاص

٤ - ٣ : ٤

مجلة الهند



Special Edition

4:3-4

ISSN No. 2321-7928

4:3-4

Majalla-tul-Hind

Arabic Quarterly Journal

Special Edition on the Occasion of Shibli Centenary Celebration

Editor

Dr. Aurang Zeb Azmi

Asst. Editor

Md. Imran Ali Molla

Maulana Azad Ideal Educational Trust
Bolpur, West Bangal, India

ISSN: 2321-7928

الرقم الدولي:

مجلة الهند

مجلة فصلية محكمة

المجلد: 4 العددان: 3-4

يوليو- ديسمبر 2015م

الجزء الثاني للعدد الخاص

بمناسبة مرور مئة عام على وفاة العلامة شبلي النعماني

مدير التحرير

د. أرنك زيب الأعظمي

نائب مدير التحرير

محمد عمران علي ملا

تصدر عن

مولانا آزاد أنيديل إيجوكيشنال ترست

بولفور، بنغال الغربية

المراسلات المتعلقة بالاشتراك في الطباعة والنشر توجه إلى:

عنوان البريد:

مولانا آزاد أندييل إيجوكيشنال ترست،

بولفور، بنغال الغربية

رقم البريد: 731235

الهيئة الاستشارية

أ. د. بشرى زيدان (مصر)	أ. د. فيضان الله الفاروقي (الهند)
السيد محمد دانث الأَعْظي (البحرين)	د. صالح البلوشي (عمان)

هيئة التحرير

محمد عمران علي ملا (نائب مدير التحرير)	د. أورنك زيب الأَعْظي (مدير التحرير)
محمد معتصم الأَعْظي (عضو)	د. هيفاء شاكري (عضو)

عنوان البريد الإلكتروني:

aurang11zeb@yahoo.co.in (1)

azebazmi@gmail.com (2)

الاشتراك السنوي:

500 روبية (للطلاب) 1000 روبية (للأساتذة والمكتبات)

نشرها وطبعها محمد عمران علي ملا نائب مدير مجلة الهند، مولانا آزاد أندييل
إيجوكيشنال ترست، بولفور، بنغال الغربية، رقم البريد-731235

في هذا العدد

الصفحة

7-6	د. أورنك زيب الأعظمي	الافتتاحية مقالات وبحوث:
11-8	- السيد محمد حامد الأنصاري ترجمة: د. هيفاء شاكري	خطاب صاحب الفخامة نائب رئيس جمهورية الهند
27-12	- أ.د. رياض الرحمن الشيرواني ترجمة: د. أورنك زيب الأعظمي	العلامة شبلي (لمحة عن حياته ودراسة لخدماته)
51-28	- أ.د. أبو سفيان الإصلاحى ترجمة: د. محمد فضل الله شريف	عناية العلامة شبلي باللغة العربية وأدائها (في ضوء مقالات شبلي)
80-52	- أ.د. محمد يسين مظهر الصديقي ترجمة: د. أورنك زيب الأعظمي	العلامة شبلي خبيراً بالمصادر
91-81	- الشيخ بدر جمال الإصلاحى	عبد السلام الندوي
115-92	- الشيخ كلیم صفات ترجمة: محمد أحمد عبد الله	روايات الطبري في "سيرة النبي" للعلامة شبلي النعماني (دراسة تحليلية)

- 136-116 "الانتقاد على تاريخ التمدن الإسلامي"، - أ. د. مه جبين أختر
دراسة تحليلية
- 161-137 "الفاروق" والمؤلفات الأخرى حول ترجمة - الشيخ محمد ضياء الدين الأنصاري
الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه،
ترجمة: منير الإسلام بن نظام الدين
دراسة مقارنة
- 172-162 "تعليم المسلمين الماضي" أول كتاب - أ. د. ظفر الإسلام الإصلاحي
للعلامة شبلي خلال إقامته بعلي كره
ترجمة: د. أورانك زيب الأعظمي
(دراسة تعريفية)
- 187-173 العلامة شبلي النعماني ونظرة على - محمد تعظيم
أورانغ زيب عالمغير
ترجمة: عزيز الرحمن
- 203-188 الأفكار التعليمية للعلامة شبلي - أ. د. ظفر الإسلام الإصلاحي
النعماني وأهميتها في العصر الحاضر
ترجمة: د. هيفاء شاكري
- 211-204 نظريات شبلي التعليمية - د. وارث المظهري
ترجمة: محمد معتصم الأعظمي
- نظريات وأفكار العلامة شبلي**
- 220-212 قضية المنحول وكيف عالجه العلامة - أ. د. ظفر أحمد الصديقي
شبلي النعماني
ترجمة: أ. د. فيضان الله الفاروقي
- 241-221 قضايا المرأة وكيف عالجه العلامة - الشيخ كلیم صفات الإصلاحي
شبلي النعماني
ترجمة: زبیرة نيرة
- 253-242 العلامة شبلي النعماني - أ. د. عبد العلي
والمستشرقون، دراسة نقدية
ترجمة: د. هيفاء شاكري
- 270-254 العلامة شبلي النعماني وتاريخ الطب - د. محمد رضي الإسلام الندوي
ترجمة: محسن عتيق خان

275-271 - أ. د. فيضان الله الفاروقي
المقارنة بين الشعر العربي والشعر
الفارسي (في ضوء "شعر العجم"
للعلامة شبلي)

كتابات العلامة شبلي المترجمة

428-276 - العلامة شبلي النعماني المأمون

ترجمة: د. أورنك زيب الأعظمي

504-429 - العلامة شبلي النعماني تعليم المسلمين الماضي

ترجمة: د. أورنك زيب الأعظمي

531-505 - العلامة شبلي النعماني مكتبة الإسكندرية

ترجمة: د. هيفاء شاكري

548-532 - العلامة شبلي النعماني رواج المكتبات الإسلامية

ترجمة: د. هيفاء شاكري

561-549 - العلامة شبلي النعماني رواج البيمارستانات في الحكم

ترجمة: د. هيفاء شاكري

566-562 - العلامة شبلي النعماني علم الميكانيكا

ترجمة: د. هيفاء شاكري

576-567 - العلامة شبلي النعماني رأي راديكالي

ترجمة: د. هيفاء شاكري

استعراض الكتب

581-577 - أ. د. غلام يحيى أنجم مقالات شبلي في الاستشراق

والمستشرقين

الافتتاحية

بين أيديكم العدد الجديد لمجلة الهند ولقد ذكرنا في العدد الخاص بترجمة العلامة شبلي وأعماله أنه قد بقي لدينا مقالات قيّمة كما وصلت إلينا بعض البحوث حينما تم إصدار العدد الخاص الأول فوعدنا الكتاب أننا سننشر هذه المقالات في العدد القادم بإذن الله، وقد أنجزنا ما وعدنا وإليكم العددين للمجلة وعليهما ينتهي المجلد الرابع. نعتبر هذا العدد الجزء الثاني للعدد الخاص بترجمة وأعمال العلامة شبلي النعماني.

يحتوي هذا العدد على 25 مقالة ترتبط بموضوعاتها بحياة العلامة شبلي وخدماته وأفكاره في مختلف المجالات، إضافة إلى عرض شامل لبعض كتبه القيمة. وقد حاولنا أن نرتب هذه المقالات على حسب موضوعاتها.

يحتوي القسم الأول على ست مقالات مع ترجمة لخطاب نائب رئيس جمهورية الهند السيد محمد حامد الأنصاري والذي ألقاه في المؤتمر الدولي الذي عقد بمناسبة مرور مئة عام على وفاة العلامة شبلي النعماني والذي نظّمته دار المصنفين في أعظم جره (الهند).

والقسم الثاني للمجلة يحتوي على ست مقالات وهي دراسات نقدية لبعض أعماله المؤلفة ونظرياته في مجال التعليم والتربية.

وأما القسم الثالث فيحتوي على خمس مقالات في نظريات شبلي في مجالات أخرى مثل قضايا المرأة، وآراؤه عن المستشرقين، ونظرياته في الطب.

والقسم الرابع يشتمل على سبع كتابات مترجمة له والتي تعتبر روائعه التي أردنا أن نقدمها أمام قرائنا العرب حيث إنها تعتبر بحثاً محققاً ترتبط بالعالم العربي وتاريخه ولغته وثقافته.

العدد الخاص مجلة الهند

وأما القسم الخامس فهو عرض للإصدار الجديد عن العلامة شبلي النعماني وهو تعريب وترتيب للمختار من مقالاته في الاستشراق والمستشرقين، قامت بهذا العمل الجليل الدكتورة هيفاء شاكري.

وبمناسبة صدور العدد الجديد من المجلة نريد أن نبشّر قراءنا الكرام بأننا سنقوم بإصدار عدد ممتاز عن الإمام عبد الحميد الفراهي قريباً إن شاء الله تعالى ونأمل أن هذا العدد سيحظى بالمقالات المفيدة من قبل العلماء والباحثين المهتمين بهذه الشخصية العظيمة.

ندعو الله أن يتقبل منا هذا الجهد ويوفقنا لتقديم كل ما هو نافع ومفيد لقرائنا الكرام.

د. أورك زيب الأعظمي

خطاب صاحب الفخامة نائب رئيس جمهورية الهند

السيد محمد حامد الأنصاري رعاه الله تعالى

ترجمة من الأردوية: د. هيفاء شاكري¹

أتقدم بالشكر إلى أكاديمية شبلي والبروفيسور اشتياق أحمد الظلي على أنه دعاني لافتتاح هذه الندوة العلمية الدولية المنعقدة بمناسبة مرور مئة عام على تأسيس دار المصنفين أكاديمية شبلي، و لست بغريب على هذه الأرض المباركة:

اب یاد رفتگاں کی بھی ہمت نہیں رہی یاروں نے کتنی دور بسائی ہیں بستیوں

ترجمة: لقد فترت همتي لتذکر ما مضى، فقد سكن الأحبة في أماكن بعيدة.

كان العلامة شبلي النعماني شخصية موسوعية برزت على ساحة العلم والأدب في عصر حساس ومليء بالتحوّل بالنسبة لمسلمي الهند، كان عصرًا لم يواجه مثله المسلمون ولعلنا لا نقدر على إدراك ماهيته. فحياته، ورحلاته، ودائرة أحيائه وأكثر من تلك فضله وبراعته تشهد بعقل لا يعتكف في مكان. ولقد ترجم أبرز أعماله "الفاروق" إلى لغات عدة، والكتاب الثاني القيم للعلامة شبلي هو "شعر العجم" الذي يتحدّث عن تاريخ شعر إيران. قال فيه براؤن صاحب كتاب "Literary History of Persia":

"هذا أروع تحليل نقدي لشعراء إيران منذ فجر تاريخ شعرها إلى القرن السابع عشر للميلاد".

القضايا التي كان يواجهها العلامة شبلي إحداها كانت متعلقة بالتعليم في منظور الميل الخاص للحدّاتة، الذي ضرب على الهند وأهاليها بعد قيام الحكومة البريطانية، ولقد أسفر هذا التحوّل عن أثر نفسي شديد يعكس الشعور بالحرمان، وقد أعرب العلامة

¹ أستاذة مساعدة، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة المللية الإسلامية، نيو دلهي

العدد الخاص مجلة الهند

شيلي عن هذا الكرب الشديد في منظومة طويلة بعنوان "شهر آشوب إسلام" (مأساة الإسلام) فيبرز الشعور باليأس أشدّ فيما يلي من الشعر الأخير لهذه المنظومة:

جو ہجرت کر کے بھی جائیں تو شیلی اب کہاں جائیں کہ اب امن وامانِ شام و نجد و قبرواں کب تک

ترجمة: ولو هجرنا الوطن فإلى أين نتوجه فلقد أوشك الأمن والأمان في الشام ونجد والقبرواں أن يقضى عليه.

وبعد السنوات الطويلة قال متعاطف أجنبي ألا وهو ولفريد كينتويل اسمث (Wilfred Cantwell Smith) مدلياً برأيه عن هذه القضية:

"The fundamental malaise of modern Islam is a sense that something has gone wrong with Islamic history. The fundamental problem of modern Muslims is how to rehabilitate that history: to see it going again in full vigour, so that Islamic society may once again flourish as a divinely guided society should and must"

ترجمة: التوعك الأصلي للإسلام الجديد شعورٌ بأن التاريخ الإسلامي قد طرأ عليه أمر غير سديد فالقضية الأساسية للمسلمين الجدد هي: ما هي الطريقة لإصلاح هذا التاريخ فيمضي بنشاط تام لكي يتقدّم المجتمع الإسلامي مرة أخرى كمجتمع رباني.

هذان السؤالان واجبهما السير سيد أحمد خان وغيره من رجال ذلك العصر، ولو أن ردّ كل منهم كان مختلفاً إلا أنهم اتحدوا محتوياً فغلب الحركة والعمل القنوط والشكوى بعد قليل فأقام السير سيد "Mohamdan Anglo Oriental College" بعلي كره ولقد ارتبط العلامة شيلي بحركته هذه لحوالي 16 سنة فقد كانت خلفيات كليهما مختلفاً بعضهما عن البعض واتحدت أفكارهما في بعض القضايا بينما اختلفا في بعضها الآخر، وكذا واصل العلامة شيلي خدماته العلمية في ندوة العلماء وفي النهاية وضع حجر أساس هذه الدار الموقوفة على العلم والفض.

ولا تزال أكاديمية شيلي تؤدّي خدمات قيّمة للغاية في مجال العلم والتحقيق لاسيما سيرة النبي، وتاريخ الإسلام الابتدائي، والدراسات القرآنية، وتاريخ الهند بالتركيز على عهدها

العدد الخاص مجلة الهند

المتوسطة، واللغات الأردوية والفارسية والعربية وآدابها وتراجم الرجال فمجموعة إصداراتها تهت الأنظار وهي هدية ثمينة إلى المآثر العلمية في الماضي والحاضر. أيها الحضور:

لقد وقفت هذه الدار وأمثالها من الدور العلمية الهندية أنفسها في مجال تاريخ الإسلام وثقافته خاصة فالهند وأبنائها يعتبرونها، ولا حرج، جزءاً مهماً لتراثها وكذا نتوقع منهم أن يحتفظوا بهذا التراث ويضيفوا إلى فضله وقيمته زيادة ترفعه عظمة وشوكة ولا أرى دعماً أقوى له سوى أن يركّزوا على التعليم الذي قد تخلّفنا فيه بالرغم بالتشخيص المتواتر والصحيح. ولقد بيّن العلامة إقبال هذا الوضع قبل قرن في بيتين تالين:

آئینِ نو سے ڈرنا، طرزِ کہن پہ اڑنا منزل یہی کٹھن ہے، قوموں کی زندگی میں
یہ کاروانِ ہستی، ہے تیزگام ایسا قومیں کچل گئی ہیں، جس کی رواروی میں

ترجمة: المخافة من الدستور الجديد والاعتكاف على المطرد القديم منزلتان صعبتان في حياة الشعوب. فقافلة الحياة سيرها حثيث إلى حدّ لقد وطأت أقدام هذا السيرُ العديد من الأقسام.

ثم قدّم وصفة العلاج كما يلي:

اس دور میں تعلیم ہے امراض ملت کی دوا ہے خون فاسد کیلئے تعلیم مثل نشر

ترجمة: التعليم دواء لأدواء الملة في هذا العصر مثل آلة الجراحة للدم الفاسد.

ولقد نادى مولانا أبو الكلام آزاد الملة في الأيام الخالية لأكتوبر 1947م لأن يبسروا أنفسهم للأوضاع المتغيرة فعلينا اليوم أن نتدكّر كلماته التالية:

"أحبائي: بدلوا أنفسكم أساساً، وسايروا التغيرات ولا تقولوا: إننا لا نقبل أيّ تغيير".

ويخبرنا تحليل 67 سنة الماضية أننا لم يسعنا أن نواجه هذا التصدي كما ينبغي، ففشلنا في التسابق مع إخواننا المواطنين، وشكوناه إلى العادات والتقاليد الاجتماعية، الأمر الذي أسفر عن تخلفنا على كل المستويات.

العدد الخاص مجلة الهند

ولكل منطقة من مناطق بلادنا الواسعة الأطراف والمتنوعة الأجيال حق أن تطلب من الحكومة أربعة أشياء أساسية وهي كما يلي:

1. الأمن الاجتماعي والصيانة والاحتفاظ بالهوية (Identity).
2. التطور بالتعليم الملائم والسلطة (Empowerment).
3. المساواة في الوظائف والمشروعات الحكومية لأن الفرص الاقتصادية غير العادلة تعقب نتائج وخيمة وبالتالي فلا تكون المساواة في الحصول على القوة السياسية.
4. المساهمة الملائمة في الحكم.

أعرف أنه لا يخفى عليكم أن هناك نقائص في الحصول على الأمور المذكورة أعلاه فالأمر المهم هو السيطرة على هذه النقائص كائنين في نطاق الحقوق العدلية لقوانين البلاد والحياة والكرامة والمساواة واتخاذ خطوات جادة للطبقة المتخلفة اجتماعيًا وتعليميًا لإثبات الحقوق الاجتماعية. هذه قضية الحقوق وليست قضية أعمال الخير والتطوع فينبغي لنا أن نجاهد لها كائنين في نطاق الصبر والمصابرة.

فهدف "مع الكل وتنمية الكل" صحيح ويجدر بأن نثمنه ولا مناص له من أن يبتدئ المواطنون من نقطة مشتركة وسير مطلوب متصفين بالتكاتف والتضامن كما لا بد لنا من إيجاد هذه الصفة عن طريق الخطوات على كل من المستويات الحكومية والفردية والاجتماعية، التي تؤتي ثمارها على المدى البعيد. ولقد وضعنا المشاريع إلا أنها تحتاج إلى صياغتها في قالب العمل.

أهنتكم بهذه المناسبة السعيدة من أعماق قلبي وأشكركم جزيلًا على أنكم دعوتكموني لها متيقنًا أن هذه الدار ستقدم تطورًا هادفًا أكثر في السنوات القادمة بعدما أكملت مئة سنة من حياتها القيّمة.

وينبئنا التاريخ أن العالم يصبح مشيرًا إذا اشتدت الحاجة إليه ولعل الزمان يتطلب من هذه الدار أن توفر إرشادًا ملائمًا لفلاح الشعب ورفاهيتهم بجانب نثر الدرر العلمية والحكيمة.

عاشت الهند

العلامة شبلي النعماني (لمحة عن حياته ودراسة لخدماته)

- أ. د. رياض الرحمن الشيرواني¹

ترجمة من الأردوية: د. أورك زيب الأعظمي²

كان العلامة شبلي النعماني (1857-1914م) شخصية ذات شمولية عسى أن يجد البعض تعارضاً فيما بينها ولكن تنوع الشخصية هذه تلهمها جذباً ولفناً إليها؛ إنه كان يتمتع من ذوق الفنون اللطيفة بجانب كونه عالماً نحرياً، وكانت له رغبة خاصة بالمعقول ولذا فالتفت إلى علم الكلام وعلى هذا فقد اعتبره البروفيسور ظفر أحمد الصديقي أول متكلم، وعلاوة على هذا إنه كان مولعاً بالتاريخ والسير ولكن كاتب هذه الأسطر لا يفرق بين هذين العلمين، ولقد ترك بحوثاً وتحقيقات عديدة فيهما حتى قال حبيبه الواله مهدي إفادي إنه لا يقدم خطوة بدون التاريخ، ولقد عرفه الناس كمؤرخ إلا أن تلميذه البارّ سيد سليمان الندوي قال: إنه تسلّل من خلال التاريخ إلى علم الكلام لأن كتبه في التاريخ لا تخلو من علم الكلام، وخير مثال لديّ "الغزالي" و"رومي"، ولا شك أن درجته في كتابة الرسائل تبلغ ما بلغها الشاعر الأردوي غالب في عصره كما أن بعض رسائله شاهد عدل بروعة الإنشاء، ولو أن كتابة الرحلات بالأردوية كانت متوفرة من قبل إلا أن رحلته "سفرنامه روم ومصر وشام" تمتاز بأنه شاهد هذه الدول من حيث أنها قلب خافق للإسلام. وبما أنه كان كلفاً بالإسلام فكان يقلق بالاعتراضات التافهة للمستشرقين والمؤرخين الآخرين على الإسلام وأتباعه فكان يقوم بالرد العلي عليها، ولا شك أنه تجاوز

¹ سكرتير، مؤتمر المسلمين التعليمي لعموم الهند

² أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة المليية الإسلامية، نيودلهي

الحدود كما يقول بعض الباحثين فيرد عليه اعتراض بأن معاملته في التاريخ دفاعية ولكن الكاتب المتواضع لا يتفق مع هذا الرأي إلا قليلاً، فالجزية ومكتبة الإسكندرية مقالتان له تفقدان نظيرهما لا في الأردنية بل في لغات العالم كلها لاسيما قوله في الجزية "كانت الجزية تسقط عن الجنود غير المسلمين في الحكومة الإسلامية" شرح مقنع لاتهم عظيم وكذا الفاروق والمأمون والمجلد الأول لسيرة النبي تراث أردوي ثمين، وهل موقف العلامة شبلي في هذه الكتب واقعي أم دفاعي؟ فلو هذه الكتب وأمثالها تردّ الاتهام مع شرح الوقائع وتوفير الأخبار الصحيحة فهذه معجزة من ذكاء العلامة ذاته.

ولنلاحظ هنا أنه اختار عمر الفاروق من بين الخلفاء الراشدين كما انتخب مأمون الرشيد من بين خلفاء بني العباس فعلاوة على الصفات الأخرى كان عمر الفاروق قوي الاجتهاد بينما وضع مأمون الرشيد أساس حرية الرأي وانطلاق الفكر عن طريق القيام بالموازنة الموضوعية بين الأديان.

وعلاوة على هذه الجوانب يرغّب ذوقه الجميل إلى الشعر فقال الشعر بالأردوية والفارسية كلتاهما فشعره الأردوي وطني ومليّ بينما الشعر الفارسي يغلبه العشق فالعشق ليس من خلل العقل، ولا عزو الابتدال إليه دليل على صحة العقل فقد قال مولانا آزاد: لم ينته الشعر الفارسي على غالب بل على العلامة شبلي "وعسى أن يشمل هذا القول مبالغة ما إلا أنه متفق عليه أن ذوقه الشعري جرّه إلى تأليف كتاب قيّم رائع "شعر العجم"، ولو أن هذه الكتاب يشوبه مناقص بحثية ولكنه أحبي الشعر الفارسي في الهند وكما قال البروفيسور أصف نعيم الصديقي، رئيس قسم اللغة الفارسية بجامعة علي كره: إنما وقّره العلامة شبلي من منتخب أشعار الفارسية في شعر العجم يعجز الباحثُ البحثُ عن أمثالها في كتاب آخر وزدّ عليه إقامة مستوى عاليًا للغاية لشرح الشعر لم يقدر أحدٌ على اتباعه".

وقبل أن نقدّم خطوة نتوقف هنا فنرى أنما ناله العلامة شبلي من الأفضال من أي مصدر كانت علاوة على المصدر الرياني؟ فقد ولد العلامة في بندول محافظة أعظم كره الشهيرة في إنجاب الشخصيات في أول يونيو 1857م، كان العلامة من أصل

راجبوتي فأسلم جدّه شيف راج سنغ وتسمّى بـ"سراج الدين". كان أبوه يسمّى "شيخ حبيب الله" الذي كان إقطاعيًا يحترف المحاماة. نال العلامة شبلي دراسته الابتدائية في بندول وكانت أول مدارسه "مدرسة ناصر العلوم" ثم أرسل إلى غازيفور حيث تعلّم في "مدرسة چشمه رحمت" ثم رجع إلى أعظم كره والتحق بـ"مدرسة علوم إسلامية"، ومن أبرز أساتذته الشيخ فاروق التشرىاكوتي والشيخ فيض الله. ويرى كاتب هذه الأسطر أن جلّ فضل تربية العلامة شبلي بعد الله تعالى يرجع إلى الشيخ فاروق التشرىاكوتي سواء كان ميله إلى المعقول أو ذوقه للشعر الفارسي أو رغبته في الموسيقى فهذه كلها من أفضاله فكان الأستاذ والتلميذ يستيقظان معًا فكان الأستاذ (الشيخ فاروق) يسأل: شبلي! تودّ أن تسمع بهيرونين؟ فأستاذ رجل لا يدرسه مجرد العلوم الدينية والمنطق والكلام بل يسمعه الهيرونين في الصباح المبكر كذلك فهل لم يبرز شبليًا نعمانيًا فماذا يصبح؟ وإن لم يشر على عذراء محضرة مثقفة أن تحذق في الموسيقى فماذا كان يشير عليها؟

ولما قال خورشيد الإسلام إن شبلي كان أول "يونانيًا" في الهند لما كذب لأنه كان يطوي عقل يونان وحكمتها ومنطقها وفلسفتها في جانب وفي جانب آخر كان يتمتع من حسن الانتخاب والذوق اللطيف وعلاوة على ذلك فقد نهل من منهل الإسلام الصافي ولذا فكما رغب في علم الكلام ترك رسائل رائعة في الأردوية وشعرًا مثيرًا للعواطف في الفارسية فكما كان اليونان ينحتون أوثانًا جميلة بالإزميل والمطرقة كذلك كان العلامة شبلي يوقر ألقابًا جذابة ومؤثرة بقلمه المنحات، ومن فضله أنه طهر وجه الإسلام المنور من الغبار الذي رماه عليه الأعداء فلا أريد بهذا سوى القول بأن العلامة شبلي لم يكن شخصية لها جانب واحد بل كان شخصية متعدّدة الجوانب ومتكاملتها.

لم نتقدّم بقصة تعلّمه من أعظم كره وغازيفور فذكرنا حتى الآن أثر فاروق التشرىاكوتي عليه فبعد الفراغ منهما توجه نحو رامفور فتعلّم الفقه وأصوله على الشيخ إرشاد حسين الرامفوري ثم وصل إلى لاهور وتعلم الأدب العربي على الشيخ فيض الحسن السهارنفوري ودار معه حيث دار الشيخ فيض الحسن ثم حضر دروس المحدث أحمد علي السهارنفوري التي تعلّم فيها جامع الترمذي أشهر وأوثق الصحاح الستة.

كانت أسرة العلامة شبلي تعرف بحرفة المحاماة فحاولت أن تسيّره على هذا الصراط ولكن لم يوافق جفاف هذه الحرفة ذهن شبلي الطازج الندي ولقد اختاره الله لأعمال مهمة للغاية أداها بطريقة أو أخرى وهي التي نذكرها بمناسبة المئة سنة الماضية عليها. عمل العلامة شبلي في أربعة مراكز؛ علي كره وحيدرآباد وندوة العلماء (لكناؤ) ووطنه أعظم كره. عيّن أستاذًا للفارسية والعربية في كلية M.A.O في 1883م في عمره البالغ 26 سنة ومن قبلُ زار علي كره في 1881م وقدم قصيدته العربية في مدح العجوز المفعم بالشباب السير سيد أحمد خان الذي كان أكبر منه بأربعين سنة والذي امتحن موهبة الشاب شبلي حين زيارته الثانية في 1883م وفوّض إليه مكتبته الضخمة وسمح له التصرف فيها كيف شاء. قضى العلامة شبلي 15 سنة في علي كره فتعلّم بها كما علّمها فكان السير سيد يهدف بتأسيس هذه الكلية أن يحصل المسلمون على العلوم الجديدة عن طريق الإنجليزية لكي يأتهم الانطلاق في الفكر ولا يتخلفوا في الحياة عن غيرهم ولكنه مع ذلك كان يودّ أن يحصل المسلمون على ما يحصلون في حالة كونهم مسلمين ولا غير وعلى هذا فنظم تعليم العربية والفارسية والعلوم الدينية بجانب اهتمامه بالعلوم الجديدة فأقام بها العلامة شبلي موسّعًا آفاقه العقلية ومحاوّلًا تنمية البيئة الإسلامية البحتة في رحاب الكلية، وبما أنه كان أستاذ العربية فأحبّ أن يخلق طلاب العربية في أنفسهم صلاحية الحديث والكتابة بالعربية بجانب قراءتهم للكتب العربية ولذا فقام بتأسيس لجنة الأدب، وكذا رفاق البروفيسور في علي كره أفاد كلاً منهما فنشرت مؤلفات العلامة العديدة القيّمة حين إقامتها بعلي كره وقد أفاد العلامة علي كره على إهدائها إليها مادة ومزلة، ومن هو أعرف منه بأن القرآن الكريم ضروري للمسلمين ضرورة الروح للجسد بل أكثر منه لأن الروح في يوم أو آخر تفارق الجسد وأما القرآن الكريم فهو يضمن فلاح المسلمين في هذه الدنيا كما في تلك الآخرة وعلى هذا فقد بدأ بتدريس القرآن في رحاب الكلية، السلسلة التي نالت قبولاً عامًا، ولا يكون من غير المناسب لو ذكرنا هنا أن هذه المسؤولية قد حمّلت على السيد سليمان أشرف بعدما أصبحت الكلية جامعة وأما

خلفه المفتي عبد اللطيف فلو أنه لا يدرسه فيما بين الجمهور ولكنه يفيد بعلمه للقرآن نخبة من الطلاب فمعرفة للقرآن وعلومه لا نظير لها في هذا العصر.

ومعهد آخر لعلي كره بناه السير سيد أحمد تمتع من فيض العلامة شبلي ويسى هذا المعهد بمؤتمر المسلمين التعليمي لعموم الهند والذي كانت جلسته السنوية تنعقد في كل بقاع الهند القديمة ولقد زادت خطب العلامة شبلي ومنظوماته قدرًا وفائدة له وهي التي نفخت روحًا جديدة في جسد المؤتمر.

ونكثرت ذكر اختلاف السير سيد عن العلامة شبلي وكتب البروفيسور شان محمد في مقالته المنشورة في شهر أكتوبر لسنة 2014م لمجلة "تهذيب الأخلاق" الصادرة عن علي كره أنه قد اختلف عن السير سيد في بعض الأمور حتى أقرب رفقاءه، وقد كان اختلاف الشيخ سميع الله خان عنه شديدًا إلى حد أنه لم يلق السير سيد قبل موته لتسع سنوات ولا نستثني منهم مولانا حالي ومحسن الملك ووقار الملك سوى أن النواب وقار الملك كان يشدد عليه في بعض الأحيان بينما النواب محسن الملك ومولانا حالي لم يفته تكريم السير سيد، ومن أكبر أسباب الاختلاف (1) سيطرة الأساتذة الإنجليز على الكلية و(2) خبط السيد محمود وتضامنه معهم. وقد كتب البروفيسور شان محمد أن هذه الأساتذة الإنجليز يحاولون سرًا لتنصير الطلاب المسلمين. وأما عن العلامة شبلي فانزید إليهما سببين آخرين أولهما اختلافهما سياسيًا وثانتهما قلة الجو الديني في الكلية كما كان يرى العلامة شبلي فكان السير سيد يدير معهدًا قرّر أمامه مستواه مثل مستوى أوكسفورد وكيمبرج فكان يرى من الضروري له تواجد الأساتذة الإنجليز ومساعدة الحكومة كذلك حتى أن العلامة شبلي قد صالح الحكومة حينما انتسب بندوة العلماء وعلى كل حال نرى أن العلامة شبلي كان محققًا في خياله أن المسؤولين يتجاوزون الحدود في هذا الشأن ففي بداية عقد السنة 1890م جعل يبتعد عن الكلية إلا أنه ظل ينتسب بها رسميًا في حياة السير سيد ولكنه لم يرض أن يبقى فيها بعد وفاته في 1898م والسبب وراء هذا كبر السيد محمود وبعد فكر العلامة شبلي أن خلف السير سيد يفقد علو فكرته وانطلاقها فلو أنه يسير على سياسته ولكنه لا يتبعه في الشؤون التعليمية والاجتماعية، وحدث كما خمن العلامة

العدد الخاص مجلة الهند

شكلي فلم تتغير سياسة علي كره التي أسسها السير سيد في الفترة ما بين 1898م و1947م ولكنها لم تحقق أحلامه العلمية ففارقته في نضح عقله وبعد نظره، ولا نستثني منهم سوى حفيد السير سيد سر راس مسعود الذي أحب ذكرى جدّه خلال فترة إدارته للجامعة أي 1929-1934م.

وبعدما فارق العلامة شبلي علي كره قضى وقتاً قليلاً في ندوة العلماء ووطنه أعظم كره ولم تنقطع سلسلة تأليفه وفي 1901م وصل إلى حيدرآباد وبقي بها حتى 1905م، فوسّع بها نطاق أشغاله عملاً وكتابة فقدّم إليه نيابة الشؤون الدينية التي لم يقبلها وفي النهاية عيّن ناظماً للمعارف ولكن مدّ وجزر السياسة المحلية لم يدعها هذه الإدارة أن تقوم علي ساق وقدم إلا أنه خلال قيامه بحيدرآباد نشر مؤلفات الآخرين كما ألف ونشر كتباً قيّمة أمثال الغزالي وعلم الكلام والكلام وموازنة أنيس وديبر، وبفضل المنحة التي كان يحظى بها على هذه المؤلفات من قبل الحكومة المحلية ضمّت هذه الكتب إلى السلسلة الأصفية.

وحيثما كان لم يغفل عن إصلاح وتبديل المنهاج الدراسي للمدارس ولذا فقد ركّز نظرتة دائماً على ندوة العلماء فكان يحضر جلساتها ويعرض مقترحاته وفي النهاية جاءها في 1905م وأصبح مسؤولاً عن شؤونها التعليمية وبقي على هذا المنصب حتى 1912م.

وكما ذكرنا آنفاً أن فكرة العلامة تتمحور حول إصلاح وتبديل المنهاج الدراسي فكان يودّ أن يقع التبديل في كافة الفنون الآلية والعالية، ونعلم أن المدارس تهتمّ العلوم الآلية مثل النحو والصرف والمعقول، والكتب التي تدرّس فيها لا تفي حاجة العصر فكما كان العلامة يودّ التبديل فيه فكذلك كان يودّ أن يتم التركيز على العلوم العالية مثل التفسير والحديث وأصوله والفقه وأصوله والأدب والإنشاء العربي ثم تأتي قضية تعليم الإنجليزية بل كان بعيد نظر العلامة يتطلب تعليم السنسكريتية فكان يحاجّ لذا حينما كان في ندوة العلماء فقبلوا بعض مقترحاته كما رفضوا الكثير منها.

وما تمتاز به ندوة العلماء من العناية بالأدب والإنشاء العربي واللغة العربية الجديدة بمقابل المدارس الدينية والعربية يرجع فضلها إلى محاولات مضمّنة قام بها العلامة في

بداية عصرها فيقول السيد سليمان الندوي: كان الهدف ورائها تبشيريًا أي الرد على اعتراضات المستشرقين بالإنجليزية على الإسلام ولكن كاتب هذه الأسطر يرى أنه لم يكن الهدف الوحيد فحسب فكان العلامة شبلي يودّ أن يتعرف طلاب هذه المدارس على ما تخفيه هذه اللغات من الخزائن العلمية فهو كان يؤمن بـ"خذ ما صفا ودع ما كدر"، ويرى هذا الكاتب المتواضع أن كبارنا يقدّمون بلون ليس لونهم الأصلي ولعل هذا وقع مع العلامة شبلي كثيرًا فكان هو عالمًا كبيرًا ولذا كانوا يرونه بهذا اللون الخاص الذي قرّزناه لعلمائنا وحينما يجدونه بغير اللون الذي قرّروه فيتهم به مخالفوه بأمر لا تخطر ببالنا بينما يودّ مؤيدوه أن يخفوا لونه الحقيقي أو أن يأولوه تأويلات تغبّر صورته فيقوم أحدٌ فيجعله خصمًا للسير سيد ويقوم الآخر فيعلي صوته بالتزاع بينه وبين العلماء الآخرين بالندوة بينما يأتي أحد فيقول إن مؤلفاته قد أصابها الصدأ في هذه المدة القليلة وهناك آخر يعين هدفها هو الرد على اعتراضات المستشرقين بينما هناك رجال يرفعون أصابعهم إلى تقواه حتى يثيرون الغبار على أخلاقه ونرى أن هذه كلها نتيجة دراسة ناقصة لشخصيته المتكاملة.

وبجانب إصلاح وتبديل المنهاج الدراسي حين قيامه بندوة العلماء كان العلامة يدير مجلة "الندوة" ولقد أعانه في هذا العمل لفترات مختلفة رجال عدة لكن الإدارة لم تحوّل عنه وما حظيته هذه المجلة من سمعة وميزة في تلك الفترة لم تضاهها مجلة أخرى سوى مجلة "معارف" التي كان يدير تحريرها تلميذه الرشيد سيد سليمان الندوي والتي كانت أن تشرف على إنهاء المائة سنة لحياتها وهي لم تنزل تصدر بانتظام وتبقي مستواها إلى حدّ ما، وعلاوة على هذين خدم العلامة ندوة العلماء عن طرق مختلفة ولكن علمائها ذوي الأفكار السحيقة لم يصبروا عليه فاضطر إلى تركها في 1912م، فتكدّر صفوه من "الجديد" و"القديم" كليهما وحكم على أن يجمع نخبة تلامذته في دياره والتي نحتفل فيها بمئة سنة الماضية على وفاته.

يتسع نطاق مؤلفات العلامة شبلي من علي كره إلى حيدرآباد إلى لکناؤ وألف، كما ذكرنا، عن علوم وفنون مختلفة وأدّى حقها خيرًا، وقد اختلف في أن مآثرته تتعلق بأي فرع من فروع العلم فكان يقول حبيب العلامة شبلي مهدي إفادي أن

موضوعه المركزي هو التاريخ بينما يقول السيد سليمان الندوي إنه تسلل إلى علم الكلام عن طريق التاريخ لأننا نجد لمحات عن علم الكلام في كتبه للتاريخ. هذا صحيح لأن المباحث الكلامية تناولها العلامة شبلي بالبحث في الغزالي ورومي علاوة على علم الكلام والكلام. يرى البروفيسور ظفر أحمد الصديقي أن العلامة كان متكلمًا في الواقع، وأرى أنه يبدو منشئًا كبيرًا في كل موضوع تحدّث عنه، ولو أن روعته الإنشائية تبدو جليًا في بعض رسائله الأردوية ولكن نرى نماذج رائعة للإنشاء الجميل في كتابه الأخير "سيرة النبي" ف"ظهور قدسي" درة يتيمة للإنشاء كما يقول العديد من العلماء.

فقد روى العلامة شبلي العلم والأدب حيثما كان وزاد تراثه العلمي بمؤلفاته القيّمة فألف رسالة في التعليم الماضي للمسلمين حينما كان في علي كره ولقد كانت هي خطبة كتبها لتلقى في الجلسة السنوية لمؤتمر المسلمين التعليمي لعموم الهند، والكتاب الثاني للعلامة شبلي كان هو المأمون ففي هذا الكتاب ثبت العلامة منفردًا فقد كانت العامة والخاصة كلتاها تعرف هارون الرشيد، وقد انتشرت قصص عديدة عنه ولقد خلقت هذه القصص حبّه للعلم وأصحابه، وشكوته وجوده لهم. ويرى كاتب هذه الأسطر أن العلامة اختار مأمون الرشيد لكتابة السيرة لأن سعيه للعلم وجهده للوصول إلى الحق قد ألهياه، ويرى السيد سليمان الندوي أن العلامة كتب سيرته لأن بامر كتب سيرة هارون الرشيد التي اعترض فيها على الإسلام، والواقع أن معظم مؤيدي العلامة شبلي قد عرضوه في هذا اللون بأنه كان يترصّ للمستشرقين فينتقدهم كلما رأى اعتراضهم وثرثرتهم فكأن قلم العلامة شبلي شبّه بقلم المتنبي في الهجو، ومثل هذه الآراء قد وقّرت المثقفين الجدد الفرصة لاعتبار كتب التاريخ للعلامة دفاعية. والواقع أن العلامة قد أعجب ببحثه عن الحق فعزم على تأليف سيرته فإن جاء فيها الردود على اعتراضات بامر فزاد هذا علوًا في الكتاب فلا حاجة إلى اعتباره سببًا لتأليف هذه السيرة. والكتاب الثالث للعلامة شبلي هو سيرة النعمان الذي جعله "شبلي النعماني" من "محمد شبلي" فيقول السيد سليمان الندوي: إن هذا اللقب قد أعطاه أستاذه فاروق التشريياكوتي فإن اختار العلامة بنفسه هذا اللقب أو أعطاه أستاذه ولكن السبب وراءه تفقه كلا

العالمين (العلامة شبلي والعلامة فاروق التشرىاكوتي) في الدين أي لا نجد لأبي حنيفة مثلاً في التفقه في الدين لدى أي فقيه آخر.

ارتحل العلامة شبلي إلى تركيا في 1892م حينما كان هو مقيماً في علي كره ولم يكن هدفه سوى تبريد غليته العلمي ولقد أمرنا بـ"اطلبوا العلم ولو كان بالصين" فاستعير هنا بالصين مكان بعيد للغاية. يقول السيد سليمان الندوي إنه كان مضطرباً ليكتب الفاروق وكان ينوي جمع المواد له من حيث أمكن الحصول عليها فمكتبة القسطنطينية لم تنزل خزينة العلم منذ غابر الزمان لمن يريد البحث عن العلوم القديمة وليس الفرق بينهما سوى أنهم كانوا يرتحلون إليها في الماضي والآن توجد هذه الذخيرة متواجدة في البيت على الكمبيوتر إلا أن للسفر بركات وقد أمرنا في القرآن بـ"سيروا في الأرض" وكذا يرى السيد سليمان أن رحلته تلك كانت تهدف إلى إعادة الصحة الجيدة ولا نريد البحث عن تفاصيلها فلا نريد منها سوى ماذا حصل لنا من تلك الرحلة فقد استفاد منها العلامة بأشياء ضمنية ولقد تعلم التركية قليلاً كما استعرض مناهجها الدراسية وكذا كتب السيد الندوي أن زي الجامعة الإسلامية لعل كره قد اختاره السير سيد أحمد خان بمشورة من العلامة شبلي وكانت هذه نتيجة رحلته إلى القسطنطينية فقيامه بها واستفاضته منها قد زاد شعره الفارسي بهاءً ولقد أكرمه الحكومة التركية بوسامها العظيم "الوسام المجيدي".

ولقد ظفر العلامة شبلي بالوسام المجيدي من تركيا فكأن السير سيد أراد أن يفوز بشرف الحكومة البريطانية "شمس العلماء"، وقد ذكر السيد سليمان في "حيات شبلي" سبباً آخر له هو أنه أصبح مشكوكاً فيه لدى الحكومة البريطانية لارتحاله إلى تركيا ولقائه مع الخليفة والفوز بالوسام المجيدي فقام السير سيد بهذه المحاولة لإزالة شكها وإثبات وفائه لها وعلى كل حال فقد أصبح العلامة شبلي "شمس العلماء" ولو أنه لم يكن أقل من النير الساطع.

والآن قد تكدر صفو العلامة شبلي من علي كره، ويذكرون السبب وراء أنه لما تم احتفل بفتح الأتراك في الحرب قد حضره العلامة شبلي إلا أن السير سيد غاب عنه لو أن العلامة لم يزل يتحمله ولكن رحلاته المتكررة إلى حيدرآباد قد سببت رغبته فيها فقدّم بعض المقترحات لتحسين وضع دائرة المعارف، الأمر الذي أثر فيه جيداً

فقرّر له أصف جاه السادس عثمان علي خان منحة تعليمية شهرية قدرها 100 روبية هندية ثم زادها أصف جاه السابع مير عثمان علي خان مئة روبية أخرى فأصبحت المنحة مئتي روبية.

وخلال هذه الفترة بقي العلامة شبلي مضطراً لتأليف الفاروق فجمع المواد حيث توقّرت له حتى انتظر نشر بعض الكتب الجديدة فقصى أربع سنوات في تأليفه ولما نشر في 1989م اعتبره الناس درة يتيمة للعلامة شبلي ولقد ألّف العلامة شبلي هذا الكتاب، كما يحكي السيد سليمان الندوي، في ثلاثة مواضع؛ علي كره، وأعظم كره، وكشمير فأناه في كشمير. فمن ينكر أن جماله وطراوته رهينان بكشمير. هذه هي السنة التي تقطّعت فيها علاقة شبلي مع علي كره فتعتز علي كره أنها على الأقل ساهمت في تأليف أربعة كتب للعلامة ولو أن الفاروق طبع في كانفور. ولقد جمع الله تعالى في عمر الفاروق كلاً من الصفات الحسنة من الخطابة والفراسة والشجاعة والنظم والإدارة فكانت قوته للاجتهاد فاقدة النظر في صدر الإسلام، وهذا يعني أن المسلمين كانوا يحتاجون إلى الاجتهاد ولو أن الصحابة كانوا حاضرين ولم تمض مدة طويلة على وفاة الرسول صلّى الله عليه وسلّم وكان عمر الفاروق عادة ما يلي هذه الحاجة، ولتأليف سيرة هذه الشخصية الكبرى كانت الحاجة إلى قلم العلامة شبلي والذي أدّى حق الموضوع.

ولو أن العلامة شبلي لم يقم بحيدرآباد إلا قليلاً ولكنها مهمّة لنا لأنها أوجدت لنا كتباً قيّمة أمثال الغزالي وعلم الكلام والكلام وسوانح مولانا روم وموازنة أنيس وديير.

ولقد مضى أنفًا أن من كتب عن العلامة شبلي اختلفوا في درجته العلمية والأدبية ويرى هذا العاجز أن كمال شخصيته الحقيقي أنه نجح في مزج التاريخ بعلم الكلام، وخير مثال لذلك هو الغزالي الذي تم تأليفه قبل علم الكلام والكلام، وبما أن الغزالي كان متكلمًا فقد مسّت الحاجة إلى نقاش درجته الكلامية في سيرته فهذا الكتاب وما بعده من الكتب سوى سيرة النبي مما يرجع فضل تأليفها ونشرها إلى حيدرآباد ولو أن السير سيد أحمد خان قد طلب من العلامة شبلي أن يكتب الغزالي ولكن السؤال هنا عن طلبه؟ ونرى أن السبب وراءه ذوق السير سيد الكلامي فإن قمنا باستعراض أفكاره الدينية لاتضح لنا أنه كان بنفسه متكلمًا. وما هي حقيقة علم الكلام؟ هي

محاولة التطبيق بين الفكر الإسلامي والفكر الراسخ الحديث، ولقد تصدّى الإمام الغزالي للفلسفة اليونانية بينما السير سيد والعلامة شبلي تصدّيا لعلوم الغرب فقد حاول كل منهم للبحث عن العلاقة بين الدين والفلسفة والعلوم. كان العلامة شبلي عالماً متبحراً للدين وقد شدا العلوم الجديدة حين القيام بعلي كره، ومرّ ذكر أن شخصيته لم تكن ذات جانب واحد فكانت له رغبة سوية في العلوم العقلية والنقلية كلتيهما فالتفت في حيدرآباد إلى علم الكلام وعسى أنه تذكّر ما طلبه منه السير سيد فبدأ بهذا العمل من الإمام الغزالي.

ولقد كتب السيد سليمان الندوي، وأصاب، أنه كما انتهى الغزالي إلى علم الكلام قاطعاً مختلف مراحل حياته فكذلك يتحدّث هذا الكتاب عن علم الكلام للغزالي بدءاً من حياته إلى الأشياء الأخرى حتى تحدّث عن صفته متكلماً.

وطبقاً لما قال السيد سليمان أنه لما كان العلامة شبلي يؤلّف علم الكلام بدأ في نفس الوقت يجمع المواد للكلام كما كتب مقالتيين كان موضوعهما الغزالي والكلام فإن يبحث علم الكلام عن فلسفة علم الكلام القديمة فالكلام جانب جديد له ولكن هذا الجديد قديم في أيامنا هذه ولنلاحظ هنا كذلك شغف العلامة بالمعتزلة ولقد نشرت له مقالتيان في هذا الموضوع. وظل يؤلّف العلامة هذه الكتب الثلاثة معاً ونشر واحداً بعد الآخر بينما لم يتجاوز عمر العلامة 45 سنة. هذه الفترة فترة شغفه بالعلوم العقلية ولو أنه قد ابتدئ في علي كره إلا أنه بلغ الكمال في حيدرآباد ولو أنه أحيط به من التعقيدات العقلية في كلا الموضوعين.

ولقد التفت إلى سيرة مولانا روم لأجل أن مولانا رومي كان يبدو صوفياً ولكنه رزق ذوقاً لعلم الكلام ولا تخلو ملحمته عن هذا اللون، وعلاوة على هذا فلا يشك اثنان في كون مولانا روم شاعراً فارسياً كبيراً وأما رغبة العلامة شبلي في الشعر الفارسي فلا تسأل عنها فوجد في الملحمة نموذجاً أعلى للتصوف والكلام والشعر وعلى هذا فالتفت إلى الحديث عن الملحمة، ويمكن لنا أن ندرس هذا الكتاب من ناحية أنه يلقي ضوءاً فاضحاً على جانب العلامة شبلي النقدي.

ولقد ابتدأ تأليف هذا الكتاب في حيدرآباد إلا أنه صدر من مطبعة منشي رحمت الله رعد في 1904م حين غادرها العلامة لندوة العلماء وبما أن "حيات شبلي" تخلو من استخدام الواوين فيصعب لنا تعيين جملة وجمال الآخرين من الكتاب ولكن الجملة التالية ولو أنها للسيد سليمان أو للشيخ حبيب الرحمن الشيراني تنبئ عن الواقع "قد بورك حين التفت إلى التصوف لأن من نتيجة هذا الالتفات ذاك الكتاب (سوانح مولانا روم) الذي نحن بصدد استعراضه، ولقد أودع في شبلي هذا التدقيق بالنسبة لاعتباره كتابًا للتصوف أن مثنوي معنوي نموذج جميل لعلم الكلام" وأغلب الظن أن هذه الجملة من استعراض الشيخ الشيرواني لأن السيد سليمان أوضح فيما بعد أنه كما أن البحث عن المعقول جاء بالعلامة مدرسة الغزالي فكذلك جرّه البحث عن الغزالي إلى عتبة دار مولانا روم فكأن قول السيد سليمان الذي قد نقلناه فيما مضى بأن العلامة شبلي تسلل إلى علم الكلام عن طريق التاريخ" (ثم ألحقنا إليه التصوف) حق مئة بالمئة.

ولو أن العلامة بدأ يؤلف "موازنة أنيس وديبر" قبل "سوانح مولانا روم" ولكنه نشر بعده وتبع "الموازنة" "شعر العجم" في تأليفه وقد مضى قول الكاتب من قبل فأود أن أقول هنا بأن هذين الكتابين نموذج لنقد العلامة الأدبي مع الفرق بأن تاريخ الشعر الفارسي قد رافق نقده بينما رجح العلامة شبلي ميز أنيس على ميرزا ديبر في الموازنة وهذا الترجيح صحيح تمامًا لأنما نجده لدى أنيس من الخيال والقدرة على خيار الكلمات لا نحددهما لدى ميرزا ديبر إلا أن أنيس يعيبه أنه رسم شمالي الهند حينما ذكر العراق.

والمآثر الأخرى التي قام بها العلامة شبلي في حيدرآباد لا يعني هذا الموضوع ذكرها ولكن العلامة لم يطبع على الصبر على سياسة الدولة فاستقال عن منصبه في حيدرآباد في 1905م.

إن نطاق خدمات العلامة شبلي واسع للغاية فيشملة العديد من المؤسسات والمعاهد بما فيها "أنجمن ترقى أردو" (مؤسسة تطوير الأردوية) الذي كان قسمًا من أقسام مؤتمر المسلمين التعليمي لعموم الهند، انتخب العلامة شبلي أول سكرتير له واحتل هذا المنصب منذ 1903م حتى 1905م فما قدّمه العلامة من خدمات اللغة الأردوية وأدائها يطول بذكرها الخطاب.

في أي مكان نزل العلامة شبلي أو أي عمل كان يقوم به لم يغفل عن ندوة العلماء فكان يحضر جلساتها السنوية من حيث أقام بعيدًا عنها أو قريبًا منها، وكان العلامة يفكر في المناهج الدراسية للمدارس الإسلامية عامة وندوة العلماء خاصة، فكان يرى، وكان محققًا في رأيه، أن اللغة العربية تدرس في المدارس كلغة كلاسيكية فيركزون على النحو والصرف والعلوم العقلية فالعلوم التي هي الغاية لا تعطى من الفرصة ما تتطلبها.

لما أصيبت رجل شبلي بالجروح في 1907م كان مشغولًا بتأليف "شعر العجم" في أعظم كره، كان هذا الحادث شديدًا للغاية والكل يعرف بما حدث وكيف حدث كما أن بعضهم اختلفت آراؤهم ولكن بصرف النظر عن تلك التفاصيل كلها نود أن نقول إن هذا الحادث الكبير لم يعرقل سبيل عزائمه ولا سبيل تأليفه للكتب فلا شك أنه وقع طريح الفراش لمدة قليلة كما قضى بعض الوقت في المداواة ومنذ 1908م واصل أسفاره وأشغاله الأخرى فعلاوة على التأليف كانت الندوة محطة أنظاره وفي نفس السنة تم تحديد منحة دراسية شهرية لخمسين روبية من قبل الحكومة البريطانية، وكما مضى قولنا أن إدارة المعاهد والمؤسسات لا بد لها من دعم الحكومة مع الحذر أن لا يخل هذا الدعم بهدفها الأصلي، وما جَهِوا من محاولات لإزالة شك الحكومة في ندوة العلماء تتطلب الصفحات الطوال وتسبب في إعادة السخط والقلق، ولنكتف بأخبار تلك الفترة كانت مقيدة بأغلال عديدة ولنشكر الزعماء الذين حلوا هذه القيود وأزالوها.

لم يكن الأمر مجرد إزالة شك الحكومة والاستعانة منها ونيل العزة من قبلها بل الأصل كان الخلاه من النزاعات الداخلية والبراءة من الاتهامات المورودة من قبل أصحابها، وعلاوة على ذلك فلم يغفل العلامة عن رقي الندوة من كل جانب فكان يحضر كل جلسة سنوية لها ويزيدها عزة ووقارًا، وبجانب الندوة لم يتعد العلامة عن المعاهد التعليمية والثقافية الأخرى وبذل كل جهوده لرقمها وتقدمها وعلى هذا فواصل جهده لتحويل كلية M. A. O إلى الجامعة ولو أنه تقطعت علاقته معها عملاً.

في 1905م تعين العلامة شبلي أمينًا لندوة العلماء وبقي على هذا المنصب للعام 1912م ولقد قدم إليه هذا المنصب من قبل إلا أنه لم يحضر الآن توقع أنه سيجد فرصة كاملة لإعادة النظر في المنهج الدراسي ولكنه لم يوفق لتلك لأن عقول بعض

مسؤولي ندوة العلماء القديمة لم تكن راضية عن قبولها وعلى كل حال فكلما نجده من الطراوة والتفرد في منهاج الندوة الدراسي وأسلوب تدريسه يرجع فضل بدايتهما إلى العلامة شبلي ولو لا نوّد الخوض في التفاصيل الأخرى في هذا الشأن. لا ننكر أثر علي كره في فكرة العلامة الجديدة ولكن الأمر اللافت للأنظار هو أنه لما يئس العلامة شبلي من معاملة الشيخ حبيب الرحمن الشيرواني أحد أبرز أبناء علي كره مع ضمّ اللغة الإنجليزية في المنهاج الدراسي وعبر عنه في إحدى رسائله إلى الشيخ الشيرواني.

يروى السيد سليمان الندوي أن الذين غمرهم السرور من قرار العلامة شبلي في ندوة العلماء هم الطلاب فلما وصل إليها العلامة التفت إلى بعض طلابها الجواد وهذا من ميزات الأستاذ أن يطوّر في الطالب ما يشعر به من الميل سواء كان إلى الخطابة أو إلى الكتابة أو التدريس ويعينه في إتمامه قدر ما استطاع فلا شك أن العلامة شبلي كان يميز الجيّد من الرديء كما وفق مرافقة أستاذ مثله ويفوق الكل عجوز علي كره المفعم بالشباب فاستفاض عقل العلامة الحادّ فلم يتألأأ اسمه فحسب بل أمّد في تالأأ أسماء العديد من الطلاب ويكفينا دليلاً سيد سليمان الندوي ويمكننا أن نسّي الآخرين إلا أنّ ضيق الوقت يمنعنا عنه إلا أنه لا مناص من ذكر الشيخ عبد السلام الندوي والشيخ مسعود علي الندوي لأنه لا يتم بدونهما هذا "التثليث". ولتربية تلامذته استخدم العلامة كافة الأسباب التي كانت لازمة لها، وكذا لم تحرم مدرسة الإصلاح بسرائير مير، أعظم كره من عنايته وهو كان يودّ أن تكون هذه المدرسة جامعة بين القديم والجديد من العلوم، وهو الذي شجّع أحد أعزته الشيخ عبد الحميد الفراهي على خدمتها.

النزاع بين المسلمين تاريخه طويل وقد ابتدئ هذا من شهادة الخليفة الثالث عثمان بن عفان، ثم انتشر هذا النزاع في مختلف الدول وشعب الحياة، وكيف يمكن أن تبتعد عنه الندوة فأحاط بها النزاع ومن الأسف أنه تمركز حول العلامة شبلي ولا نريد أن نخوض فيه لأن قصته مرّ للغاية إلا أننا نشير إلى أن هذا النزاع ابتدئ حين تعيّن أميناً للتعليم وكان الاختلاف ذا وجهين وجه يحيط به اختلاف الفكرة ووجه يحيط به اختلاف الطبيعة فوقع هذا الاختلاف أولاً مع الشيخ خليل الرحمن السهارةنפורي الذي كان مديراً مؤقتاً للندوة وذلك في أمور عديدة ثم تولدت جماعة للمعارضين ولقد اعترف

بعض أتباع العلامة شبلي (مثل السيد سليمان الندوي) أن العلامة شبلي كان متخلفًا عن غيره من العلماء في الأمور الدينية ولكن هذا اتهام يوجّه إلى قاعد أو زعيم حينما يراد به عرقلة سبيله ومن لم يحط به هذا الاتهام فمن السير سيد إلى مولانا آزاد إلى إقبال وليس الأمر محدودًا في المتأخرين بل يتسع نطاقه إلى المتقدمين فلقد أجبر أبو ذر الغفاري على الانعزال لوجهات نظره الاقتصادية. كان العلامة شبلي رجلًا حساسًا فقد ترك علي كره لاختلافه كما ترك حيدرآباد ولعله كاد أن يترك الندوة من قبل ولكن قبوله فيما بين عامة الأساتذة والطلبة أصبح أغلاً في قدميه إلا أن السيل قد بلغ الزبي في 1912م فتركها العلامة شبلي ولو أنه لم يرغب عنها ففي 1914م لما اشتدّ مرض العلامة وكان هو مشغولًا بإنهاء أواخر أعماله أضرب الطلاب عن الدراسة في الندوة وقد حاول المعارضون أن يتهموه بهذا العمل ولكنه لم يختر الجانب السلبي فبمعونة من بعض كبار المسلمين أدّى دورًا إيجابيًا فيه. ومن أهم أسلحة الطبقة الخاصة من المسلمين هو التكفير وقد جرّبوه على العلامة شبلي وقد قدر أن ينتهي الإضراب وقد كان ما قدر إلا أنه بعد وفاة العلامة شبلي النعماني.

ومن الخدمات الدينية التي أداها العلامة شبلي هي الوقف على الأَوْلاد فلو أن السير سيد بادر بها ثم تبعه السيد أمير علي ولكن العلامة لعب دورًا كبيرًا لتكليله بالنجاح، ولو أن الحكومة البريطانية لم ترض أن تقبله فهذه المناسبة أول محاولة قدّموها هي إثبات أن هذه هي قضية المسلمين الدينية ولا مناص في هذا الشأن من الاعتراف بخدمة السيد محمد علي جناح الذي قدّم هذه القضية في المجلس المركزي ولكنه لم يقدر على تقديمها كما يرام لأنه لم يكن يعرف العلوم الدينية فاختلف العلامة عنه.

وبعدما يئس عن هذا الجانب أقام بوطنه في أعظم كره وهو محاط به من الأمراض وقد كان يطوي قلبه العديد من المشاريع التعليمية والعملية بالنسبة لوطنه ولكنه لم يجد الفرصة لإتمامها لكونه بعيدًا عنه ومن تلك المشاريع المدرسة الوطنية التي أصبحت مدرسة جورج فقد كلف بها العلامة منذ البداية وهي كانت على وشك الانحطاط وحصرت في مدرسة متوسطة فلما رجع إلى الوطن التفت إلى إتمام هذه المشاريع فلو أنه بقي ساعيًا لرقى الكلية واتخذ له خطوات عديدة إلا أن المنية لم

العدد الخاص مجلة الهند

تمهله وعلى كل حال فقد تم تأسيس كلية شبلي في 31/مارس 1940 على يدي حبيبه الحميم النواب صدريار جنگ الشيخ حبيب الرحمن الشيرواني وقد ترقّت هذه الكلية وأصبحت كلية وطنية عالية تشتغل بخدمة الوطن وأبنائها.

وعلاوة على تلك لم يزل يرسم العلامة دار المصنفين ولقد كتبنا عنها من قبل فالخدمة الأخيرة التي أداها العلامة للإسلام والعلم والمسلمين هي تأليف "سيرة النبي" ولقد أنهى العلامة مجلده الأول وكان يكتب المجلد الثاني إذ وافته المنية و"ختم عليه بالخير" فوقعت أنظاره لإتمام هذه الموسوعة على ثلاثة رجال: الشيخ عبد الحميد الفراهي، ومولانا أبو الكلام آزاد، والسيد سليمان الندوي ولكن هذا العمل المبارك قد كتب إتمامه في حق السيد سليمان كما كتب له إتمام مشروع دار المصنفين، وقد أدّى هذه الخدمة بأحسن ما يرام، ولكن مجلده الأول يعتبر أروع أعمال العلامة شبلي بالنسبة لمتنه ولغته معاً ولو أمهلت المنية لإتمامها لاحتل هذا الكتاب أعلى درجة فيما بين مؤلفات العلامة شبلي فقد كان له شغلان كبيران بعد القيام بأعظم كره ألا وهما سيرة النبي ودار المصنفين ولكن الأجل لم يمهله للمزيد وتوفّي العلامة شبلي في 18/نوفمبر سنة 1914م،
الهم اغفر وارحم وأنت خير الراحمين؟

عناية العلامة شبلي باللغة العربية وآدابها

(في ضوء مقالات شبلي)

- أ. د. أبو سفيان الإصلاحي¹

ترجمة من الأردوية: د. محمد فضل الله شريف²

كان للعلامة شبلي دور كبير وأيادٍ بيضاء في نشر اللغة العربية في الهند، فيرجع إليه الفضل في تأسيس لجنة الأدب وإخوان الصفا في كلية M.A.O، والكلية الولائية لتوسيع نطاق اللغة العربية وانتشارها³. وكان إيجاد تذوق اللغة الفارسية والأدب العربي في الطلاب أمراً صعباً، ولقد حاول العلامة جهده في هذا الجو المعاكس حتى اشتهر العديد منهم في هذه العلوم والفنون، من مثل المولوي بهادر علي صاحب والمولوي داؤد بهائي وغيرهما⁴.

أراد العلامة أن يجعل ندوة العلماء مركزاً للغة العربية الجديدة والأدب العربي، كانت مساعيه قد وُقِّعت بالنجاح وحالفه النصر في مشواره، وقد اكتملت هذه الأمنية في شخصيته بعدما رجع من مصر والشام، شعر العلامة بعد لقاءات واجتماعات مع العلماء في المدارس والجامعات في دينك البلدين أن اللغة العربية تتقلب وتتولد الآن من جديد، وتصوغ وتنشأ ألفاظ جديدة حسب مقتضيات العصر وتجاربه، وجعلت اللغة العربية تجذب وتضم الألفاظ المعربة والمترجمة في ذاتها من اللغات الأخرى بحيث وإن لم يطلع الهنود بهذه التقلبات فتقطع علاقتهم بأهل العرب⁵. ويفوت عنهم التجارب والتقلبات الجديدة حول اللغة، وما كانت تحظى ندوة العلماء من الصدارة

¹ أستاذ في قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة علي كره الإسلامية، علي كره

² أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة العثمانية، حيدرآباد.

³ حياة شبلي للعلامة سيد سليمان الندوي، مطبعة معارف، أعظم كره، 1970م، ص 159.

⁴ المصدر نفسه، ص 148-149

⁵ المصدر نفسه، ص 232-233

في اللغة العربية الجديدة يرجع فضله إلى العلامة ومساعديه.

والجدير بالذكر أنه قد بدأت سلسلة إرسال الجرائد والمجلات الصادرة من البلاد العربية إلى الهند، كان الفضل يرجع إلى شخصيته في هذه المهمة، أن الطلاب يعنون كثيرًا بأن المواد الفلانية تحتاج إلى النقل والترجمة¹. وقد ترجم العديد من المقالات والمواد العربية من المجلات العربية والمصرية ثم طُبعت ونُشرت في الندوة، والهلال والبلاغ وغيرها، وقد طبع العديد من المقالات والكتابات للأدباء المصريين وأهل الصلاح فهم في مجلة الهلال، قد ترجمت الأفكار والخواطر لكل من الأفغاني، والشيخ عبده، ورشيد رضا من وجهات مختلفة في مجلة الهلال، وإنما جاء الاهتمام والعناية إلى هذه الأعمال بعد إرشاد العلامة شبلي وإنارة الطريق نحو هذه الجهة.

يقول العلامة شبلي في مقالاته في مختلف المواضيع أن تُخلق في الطلاب القدرة الكاملة في النطق والكتابة في اللغة العربية، كما كان يكتب إلى عبد الحي بمناسبة "عليك أن تأمر الطلاب أن يتمرنوا ويتدربوا في الخطابة في العربية".

في عام 1932م صدرت مجلة "الضياء"، وكان يرأسها ويديرها مسعود عالم الندوي، إن هذه المجلة ما قامت بدورها في إشراف اللغة العربية وتنميتها فقط، بل إنها أبلغت العديد من المسائل العلمية إلى العلماء العرب². وكان تلميذه العبقري صنف كتابًا باسم "دروس الأدب واللغات الجديدة" إن هذا الكتاب ثبت نمطًا جديدًا ومنحت جهة جديدة للغة العربية، وخالصة القول أن العلامة وتلاميذه مارسوا أعمالًا قيمة في هذه اللغة والأدب العربي. إنه يكتب في رحلته إلى القسطنطينية:

"إنه لقي نحو عشرين ألقًا من طلاب العلوم العربية على الأقل في القسطنطينية، ولكن لم يتولد شخص ذو مواهب وجدارات إلى حد الآن، هذه حقيقة ساطعة أنه ما زال ينحط وينخفض المستوى العلمي في كل من مصر والشام والروم والهند"³.

¹ مكاتيب شبلي للسيد سليمان الندوي (تدوين)، طبعة ثانية، مطبعة معارف، أعظم كره

² أنظر للتفصيل، مسعود عالم الندوي حياته وأعماله للدكتور عبد المجيد الفاضلي، المكتبة المركزية اسلامي بيليشرز، دلهي الجديدة، يوليو 1998م، ص 92-98

³ مقالات شبلي للسيد سليمان الندوي (ترتيب)، مطبعة معارف، أعظم كره، 1375هـ / 1955م، ص 127-128

وقد ساءت أحوال جامعة الأزهر آنذاك، ولم يكن شيوخ الأزهر يتفكرون ويهتمون بمستقبل الطلاب، كان العلامة قد ألقى الضوء على أحوال مصر المتدهورة فقال "فما أيقنتُ بشقاوة المسلمين خلال رحلتي هذه بشيء إلا عند رؤية ظروف الأزهر السيئة، وهي جامعة تجمع الطلاب من أرجاء المعمورة، وكانت ميزانيتها السنوية تبلغ إلى نحو مائة ألف، وكان عدد الطلاب يتجاوز اثني عشر ألف طالب، وكم أمان تُعقد بها وآمال تعلق بها، ولكن الأسف أن هذه الجامعة أضرت المسلمين بدل أن تُنفعهم¹.

إنه يتفكر كثيراً في تنظيم المدارس العربية، وكانت مشكلات النظم والنسق، والمقررات الدراسية، والمسائل التربوية غير المقنعة فيها، فلما دُعي العلامة شبلي من ولاية بوفال حول تنظيم المدارس وتنسيقها، قدّم في تلك المناسبة مقترحاً حول إدخال التحسينات والتعديلات في المقررات الدراسية². وكانت آراء العلامة تحتل مكانة مرموقة حول المقررات الدراسية في ندوة العلماء، أنه تحمّل ولاقي عداوة الأعداء في هذا الصدد³.

إنه كان يقلق كثيراً عن عدم التفات المسلمين وإعراضهم عن اللغة العربية، وكان يقول: أُدرس الدين والإسلام بالكتب الإنجليزية والترجمات، وكان المثقفون من المسلمين الهنود يفهمون القرآن بالترجمات الإنجليزية، وكانوا يعتمدون في الفقه الإسلامي على الهداية المترجمة في اللغة الإنجليزية⁴. أنه كان يبكي ويحزن على جماعة المسلمين المثقفين في جانب ويثني على خدمات الندوة حول اللغة العربية في جانب آخر، وكان يقول: وكانت الندوة قد مرت على تأسيسها ثمانية أو تسعة أعوام، لا بد أن ينصف هنا، هل أنجبت أي مدرسة طلاباً يقدرّون على الخطابة الفورية في اللغة العربية؟ ويكتب هذه الرسائل العلمية على هذا النمط والأسلوب، والتي قد طبعت

¹ سفرنامه روم ومصر وشام لشبلي النعماني، مطبعة معارف، أعظم كره، الهند، 1940م، ص 202-203.

² حياة شبلي، ص 324-325.

³ انظر وجهة نظر شبلي حول التعليم (في ضوء الاختلافات) للدكتور عبيد الله الفراهي، فوتو ليتهاو

وركس، دلهي، سبتمبر 1998م، ص 58

⁴ حياة شبلي، ص 20-21

مرارًا وتكرارًا بمناسبة مختلفة¹.

قد بدا مما سبق أن العلامة شبلي كان يريد أن يرى اللغة العربية نامية ومتطورة، لأنه لا تتصور الثقافة الإسلامية بدونها، كما لا يطلع على المصادر الإسلامية غيرها، كان له إلمام بدقائق اللغة العربية وحكمها، أنه جعل القرآن معيارًا للأدب العربي، وكان له اطلاع واسع على الشعراء الجاهليين والمخضرمين، والإسلاميين، والأمويين، والعباسيين وكتابها، كما كان له عثور تام على المكاتيب والرحلات والخطبات للشعراء الجدد والمحققين، وكان حائرًا على عدم التوجه والتفات المدارس إلى فن الأدب، ويقول: "وكانت المدارس لا تتذوق الأدب، وأرباب الكليات لا يقرأون العربية، إن هذه اللقمة تلقى في أفواههم جبرًا يقيئونها ويبصقونها بعد الامتحان"².

استعرضت في مقالة "العلامة شبلي والأدب العربي واللغة" عن خدمات العلامة شبلي عن اللغة العربية والأدب العربي، وألقيت ضوءًا فاضيًا على مصنفاته العربية (1) الانتقاد على تاريخ التمدن الإسلامي (2) والجزية (3) وتاريخ بدأ الإسلام (4) وإسكات المعتدي على إنصتات المقتدي (5) وطبقات ابن سعد والخطوط العربية، وفي هذه المقالة يلقي الضوء على عناية العلامة شبلي بالأدب العربي في ضوء مقالاته كما يناقش الموضوع عن الشعر العربي والبلاغة والمصنفات العربية والشخصيات الأدبية، تشتمل هذه السطور على خواطر العلامة هذه.

يعتقد العلامة عن الشعر العربي أن قومنا صفر الأيدي عن الشعر العرب، وكان يحسب بنفسه: أنه إن كتب عن الشعر العربي قبل الشعر العجمي فيكون ذلك خيرًا له، ولكن الشعر العربي تتوسع أطرافها وجوانبها، وهو ملئ عن العواطف وأنه يعكس عن تاريخ العرب وثقافتهم، أنه قدم نموذجًا في ضوء كتاب "كتاب العمدة" لابن رشيق القيرواني، إن هذا الكتاب يحتل مكانة مرقومة من بين كتبه، وقال عنه ابن خلدون: إن هذا الكتاب ينفرد ويمتاز في موضوعه.

¹ خطبات شبلي للسيد سليمان الندوي، مطبعة معارف، 1965م، ص 64

² مقالات شبلي، مطبعة معارف، أعظم كره، 1369هـ/1950م، 29/2.

قد ابتدأت القصيدة في الشعر العربي بالمهلهل بن ربيعة وهو خال لامرئ القيس، وقد اعترف الفرزدق بأوليته هكذا¹: مهلهل الشعراء ذاك الأول².

وقد مضى امرؤ القيس قبل النبي - ﷺ - بأربعين سنة، يمكن أن المهلهل مضى في ذلك الزمن تقريبًا، وكان يعتقد العلامة عن الشعر العربي أنه يمتلئ بالعواطف الكريمة والرجولية، ليس كمثله الشعر الفارسي الذي يغلب عليه المدح والتملق، وكان العرب قومًا محاربًا وشجاعًا، يجمع شعرهم هذه التخييلات والأوهام، وإذا عاون شاعر أي قبيلة في الحروب الأهلية فيذكر قبيلتهم في شعره، كما يمدح امرؤ القيس بني تميم في شعره.

أقر حسا امرؤ القيس بن حجر بنو تميم مصابيح الظلام³ زيبر بن أبي سلمى أول شاعر يثني على هرم بن سنان؛ ولكنه أبقى وقاره وكرامته عن النذل والهوان، لما أمره السلطان أن يسلم عليه عند الدخول فيمنحه على ذلك الجوائز، فلما دخل بعد ذلك على السلطان قال: السلام عليكم إلا على السلطان.

ولما مدح النابغة الذبياني الأمراء والملوك فأصبح بذلك ذليلاً خسيئاً في المجتمع، وذهبت من حين ذلك هيبتة وعظمتها، ففي "كتاب العمدة" عنه: "فسقطت بمنزلته وكسب مألأ جسيماً"⁴.

وكان شعراء العرب يرون المدح والثناء أنهما يسببان للذلة والهوان والخذلان، ففي ذلك ذكر العلامة قصصاً عديدة، ومن ذلك قصة لبيد بن أبي ربيعة الذي اشتهرت ضيافته على ألسنة الناس، أنه يذبح في الضيافة مائة من الجمل، فلما قربت سلسلة

¹ المصدر نفسه، 2/30-31

² تمام الشعر هكذا: وأخو بني قيس وهو قتلته ومهلهل الشعراء، ذاك الأول (ديوان الفرزدق، شرحه وضبطه وقدم له: الأستاذ علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1407هـ/1987م، ص 493

³ ديوان امرئ القيس (تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم)، دار المعارف، مصر، 1957م، ص 141

⁴ العمدة، ابن رشيق القيرواني (حقيقه وفصله وعلق حواشيه: محمد محيي الدين عبد الحميد)، الطبعة الثانية، مطبعة السعادة، شوال 1347هـ/يونيو 1955م، ص 80.

العدد الخاص مجلة الهند

انتهاء الضيافة بسبب أحواله الاقتصادية فمنحه وأعطاه الوليد بن عليّة مائة جمل، لكي لا تنتهي هذه السلسلة، فعند ذلك دعا لبيد بنته فقال لها: عجزت الآن عن قرض الشعر فعليك أن تكتبي الشعر مني عمن أحسن إليّ، فكتبت قصيدة مطلعها:

إذا هبت رياح أبي عقيـل دعونا عند هبتها الوليدا
أغر الوجه أبيض عبشمياً أعان على مروتته لبيدا
أبا وهب جزاك الله خيراً نحرنا وأطعمنا الثريدا
وقالت في آخرها:

فعدان الكريم له معاد وظني بأن أروى أن يعود¹
فقال لبيد وهو يخاطب ابنته: بنتي! أنك قرضت أشعاراً جيدة، ولكن المصراع الأخير ينافي الغيرة، لما أنه يظهر ويبرز بذلك الحاجة.

ولما طلب عبد الملك من عمر بن أبي ربيعة أن يمدحه ويثني عليه، فقال له: إنني أمدح النساء لا الرجال، وكذلك لما طلب سليمان بن عبد الملك من الفرزدق أن يمدحه ويثني عليه فلم يجب دعوته، وكان آنذاك يحضر المجلس شاعر آخر، فبدأ يقول الشعر في مدح الملك، فأعطي له خمسة مائة دينار، وأمر الفرزدق أن يغادر إلى دار أبيه، فخرج الفرزدق من هناك غضبان وهو ينشد ما يلي:

وخير الشعر أكرمه رجالاً وشر الشعر ما قال العبيد²
يرى العلامة إنما شاع المدح في شعراء العرب باختلاطهم وامتزاجهم بالأعجميين، ولكنهم في بداية أمرهم لم يكونوا يثنون إلا على الأمراء والخلفاء والسلاطين ولا كانوا يأخذون أجورهم على ذلك، يقول مروان بن حفصة:

¹ مقالات شبلي، 32/2.

² لم يوجد هذا الشعر في ديوان الفرزدق

العدد الخاص مجلة الهند

ولقد جيت بألف ألف دعونا عند هبتها الوليدا

ما زالت أنف أن أولف مدحة ألاً لصاحب منبر أو سرير¹

يقول العلامة وهو يعبر عن أفكاره عن الشعر العربي: كان شعراء الفارسية يتزلعون في العلوم والفنون، على حين أن الشعراء الجاهليين لا يعلمون أي شيء، ولذلك يملأ الشعر العربي العواطف الصادقة، ولكن الشعر العربي أصبح خاليًا عن تلك العواطف الفطرية والصدقة والأمانة بعد انتشار العلم والثقافة، فأصبح مجموعة للتصنع والتكلف، فليلاحظ ذلك عند شاعر عظيم:

إذا مضر الحمراء كانت أرومي وقام بمجدي حازم وابن حازم

عطست بأنفي شامخا وتناولت يداى الثريا قاعدا غير قائم²

فقدم شاعرًا جاهليًا يظهر عواطفه هكذا:

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

إذا بلغ الفطام لنا صبي تخرله الجبابر ساجديننا³

يقول العلامة وهو يوازن ويقابل بين الشعر الفارسي والعربي: إن الشعر يعدّ بضاعة لنزهة النفوس، هذا ليس في إيران فقط؛ بل في الشرق الأوسط، أثبت ذلك أنوري في قطعته أن الشاعر لا ينال في المجتمع القدر أقل من الكتّاس، ولكن الشاعر العربي يُرى كممثل الرئيس الأعظم والعامل والفتاح، يمحو شاعر واحد عن لياقته ولباقته الشعرية عن معالم القبائل، وكانت قبيلة تُعدّ من الأشراف وكانوا يفتخرون على منزلة قبيلتهم. وكان جرير لا يرضى به، فقرض الشعر في هجوه وقال لولده: فأكثر الزيت في السراج لكي أسهر طويلًا للمطالعة والدراسة. فلما شرع في نظم الهجو فبلغ إلى ذلك المنظوم.

¹ مقالات شبلي، 34/2.

² المصدر نفسه، 36/2.

³ شرح المعلقات السبع، مكتبة الهلال، كيرالا، الهند، 1980م، ص 191 و203.

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعبا بلغت ولا كلابا¹

فوثب عن شدة وصرخ قائلاً: "والله أخزيتته لا يفلح أبداً" أعني أهلكت تلك القبيلة فلا يظهرها إلى يوم القيامة، فأصبح كذلك فإنه إن سئل عن أحد منهم من قبيلته فيعرض عن الانتساب إليها، فانعدمت وانمحت هكذا تلك القبيلة، وكانت بعض القبائل المجهولة وغير المقبولة تصبح مشهورة ومعروفة لدى الناس بوجود شاعر فيهم.

إن الشعر العربي يستوعب القوة والعظمة، وكان كل شعر يحتوي على مطلب وينتج نتيجة ما، وكانت قصيدة واحدة لعمرو بن كلثوم قد أنشأت وأيقظت الحمية والغيرة والجرأة فيهم لمائتي سنة، وكان يحفظ كل فرد من أفراد هذه القصيدة ويقراها في جمع حاشد من الناس، كان الأمير معاوية قد هياً نفسه للفرار والهروب في ليلة الهرير، ولكن أثبت الشعر التالي قدميه:

وقولي كلما جشأت وجاشت مكانك نحمدي أو تستريحي

لا وقع كلما مائر صالحات واحمي بعد عن عرض صحيح²

ويقول العلامة في تلك السطور: واندلعت كثير من نيران الحروب لأجل الشعراء، لأنهم تأبى نفوسهم الذل والهوان، فلما أعلن الملك المشهور في العرب عمرو بن هند: هل يوجد في العرب من لم ينكس ويطأ رأسه أمامي، فدله الناس على عمرو بن كلثوم، فاستدعاه وأمه في القصر، فلما دخلت أمه القصر قالت لها أم الملك: ارفعي لي هذا، فقالت لها أم عمرو بن كلثوم: فليعمل كل أحد عمله بنفسه، فلما كررت أم الملك الطلب، فصرخت أم عمرو بصوت عالٍ "وذلاه" فأيقن عمرو بن كلثوم أن أمه قد تعرضت للذل والهوان، واستهترت وأذلت، فعلى ذلك غضب عمرو بن كلثوم غضباً شديداً، فسل سيفه وقتل به الملك، فبذلك انفجرت المعركة بين الفريقين، فقتل من الفريقين ألوف من الناس، فنظم

¹ شرح ديوان جرير لمحمد إسماعيل عبد الله الصابري، الطبعة الأولى، مطبعة الصابري، بشارع الخليج المصري، رقم: 294، 1353هـ، ص 75

² مقالات شبلي، 38/2

عمرو بن كلثوم هذه القصة في قصيدة، وقدّمها في سوق عكاظ.

إنما الشعر العربي يخلو تمامًا عن المدح والثناء، ولكن توغّل المدح في الشعر بعد مجيء الإسلام بسبب انتشار الحضارة والثقافة وقيام السلطات الشخصية، ولكن الشعر الفارسي يقيم الوزن ويمنح الدرجة للمدح والثناء، والمبالغة والتكلف والتصنع من خصائصه وميزاته، ويجوز فيه أن يبلغ إلى حد في الممدوح، وإن يمدح في الشعر الإيراني لحمال فتستخدم الألقاب الملوكية له، ولكن الشعر العربي يخلو تمامًا عن ذلك، فلما أتى الأخطل:

وقد جعل الله الخلافة منهم لأبيض لا عاري الخوان ولا جذب¹
فلما طعن الأخطل في فكرته هذه؛ لأن هذا الوصف يلمس في عبد حقير، وقال العلامة مناقشًا الشعر العربي في المدح: ويتراءى به الخواطر الصادقة الصحيحة، وكان الشاعر العربي يدعو إلى الصداقة، إن هذا العنصر يوجد في الأشعار التالية:

أخي ثقة لا يهلك الخمرُ ماله ولكنّه قد يُهلك المال نائله
تراه إذا ما جئته مهتلا كانت تحطيه الذي أنت سائله
وقال زهير:

فمن مثل حصن في الحروب ومثله لإنكار ضيم أو لخصم يجادله
وفيهم مقامات حسان وجوهها وأندية بها القول والفعل²

فقدّم العلامة أمثلة لذلك، فذكر الشعر الفارسي تحته مشيرًا إلى أنه لا يخلو أيضًا عن الحقيقة والصداقة، فالشعراء الإيرانيون يذكرون علمهم وفضلهم وأسلوبهم وعلى حين أن الشعراء العرب جعلوا علو نسيمهم وجرأتهم وشجاعتهم ومأثرهم الحربية سببًا لفخرهم، وكما جعلوا السخاء وسيلة لرفعتهم وعلو شأنهم، ولكن جاء الإسلام يهدم

¹ أهاجي منتخبة للأخطل لفواد البستاني، الطبعة الثانية، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1963م، ص 29.

² ديوان زهير بن أبي سلمي (تحقيق وشرح: كرم البستاني)، مكتبة صادر، بيروت 1953م، ص 96

العدد الخاص مجلة الهند

جدران الحسب والنسب والافتخار عليهما، فتأثر بذلك الشعراء بعدهم كما يقول المتنبي:

ما بقومي شرفت بل شرفوا بي وبنفسي فخرت لا بجودودي¹

فقدم العلامة بعد ذلك أمثلة لشعراء العرب وهم يعبرون عن مشاعرهم وأعواطفهم
الحقيقة² فليلاحظ شعراً لامرئ القيس:

ما يُنكر الناسُ طراحين نُملكهم كانوا عبيداً وكنا نحن أرباباً³
ويعرب بشار بن برد عن عظمته هكذا:

إذا ما غضبنا غضبة مضرية هتكنا حجاب الشمس وأفطرت دما

إذا ما أعرنا سيدياً من قبيلة ذرى منبر صلى علينا وسلماً⁴

ومن يفتقر منا يعيش بحسامه ومن يفتقر من سائر الناس سائل

وأنا لنلهو بالحروب كما لهت فتاة بعقد أو سخاب قرنفل

هذه السطور تلقي الضوء على الفرق الواضح بين الشعراء الإيرانيين والعرب، ففي ضوء هذا دل العلامة على أن الشعر الفارسي قد تربى ونشأ في ظل الشعر العربي، ولكن الشعر الفارسي يختزن صفاتاً وخصائص يعوزها الشعر العربي، وذلك لأن ثقافة كل واحد منهما تستقل عن الآخر، وكان الشعراء العرب شجاعاً محارباً وحرّاً، لا يناصرون العداة عن أحد، وكانت الفصاحة والبلاغة قد توغلت وتأثرت في نفوسهم، ولذلك كانت "الحماسيات" تحتل مكانة رفيعة في الشعر العربي، وكان شعراء العرب يكتبون في ذلك أحوالهم الذاتية، الشعر الرزمي جدير بالذكر في الشعر الفارسي،

¹ ديوان المتنبي (تحقيق وشرح: كرم البستاني)، مكتبة صادر، بيروت، 1377هـ/1958م، ص 21.

² أنظر للتفصيل: مقالات شبلي، 48-45/2.

³ ديوان امرئ القيس، ص 279.

⁴ ديوان شعر بشار بن برد (جمعه وحققه: السيد بدر الدين العلوي)، دار الثقافة، بيروت، لبنان (بدون التاريخ) ص 199-200

شعر جزء بن كليب الفقي، مكتبة الإعزازية، ديوبند (بدون التاريخ، ديوان الحماسة، ص 36

ولكن هنا يكتب القصة معرضاً ومنحنيًا عن أحواله الذاتية.

يمتاز الشعراء العرب بأنهم جعلوا القول الحر موضوع نقاشهم، على حين أن الشعر الفارسي يبرز وجهه هكذا:

اگر شه روز را گوید شب است این بیاید گفت اینک ماه و پروین¹

وكان الشعراء العرب يتحملون المشاق ويكابدون الصعوبات للاحتفاظ على عزهم ورفعتهم فمثلاً لما رأى غني أنه قد أصاب شاعرًا المجاعة فأصبح خالي اليد، فأراد أن يمد يد العون إليه لكي يتقرب منه، فيلوم الشاعر على إرادته الماكرة هكذا:

بغی ابن کوز ولسفاهه کاسمها لیستاد منا آن شتونا لیا لیا

وأنا على عض الزمان الذي ترى نعالج من كره المخازي النواهيا

فلا تطلبها يا ابن كوز فإنه غدا الناس من قام النبي الجواريا²

كان الشعراء العرب يوضحون مآثرهم الذاتية بكل لهف وشوق على حين أن الشاعر الفارسي يعوزه ذلك، بل يركز كل عنايته على البيان، كان عرفي ونظامي يفتخران على أسلوب بيانهم وأدائهم، وكانوا يعتقدون أن الألفاظ والتراكيب تحضرهم بكل أدب، وهو يقول في موضع:

سربر زده ام بامه کنعان زیکه جیب معشوق تماشا طلب و آئینه گیرم

می گوئیم وانديشه ندارم زطريفان من زبیره را مشگرد بدر منیرم³

كان شعراء العرب يمتازون بحيث أنهم يمثلون الجبال، والصحراء الخضرة، والماء الجاري في شعرهم على حين أنه لا يوجد ذلك الوصف عند شعراء الفارسية، وإن كان شعراء الفارسية يذكرون الحدائق والبساتين كثيرًا في شعرهم، هذه الصناعة يخلو عنها الشعر العربي؛ لأن هذه الأشياء لا توجد لديهم، أنهم يناقشون في شعرهم الأشياء

¹ مقالات شبلي، 50/2

² شعر جزء بن كليب الفهقي، مكتبة الإعزاز، ديوبند (بدون التاريخ) ديوان الحماسة، ص 36

³ كليات عرفي شيرازي لغلام محسين جواهري (ترتيب)، (د.ت)، ص 157.

التي تتعرض لهم في حياتهم الواقعية، هذا الجانب يكشف القناع عن واقعيتهم. كان الشعر العربي يعبر عن عواطف الإنسانية الصادقة، وكان لمراثي العربية دور فعال في هذا الصدد، كان الشعر الفارسي تعوزها المراثي؛ ولكن لا يوجد هنا بون شاسع بين المراثي والقصائد، يثني الشاعر على حيٍّ في شيء يثني فيه على الميت، وكان شعراء العرب يرثون أولادهم، وأعزائهم، وأحبابهم، وأفراسهم، وحيواناتهم بحيث ينفعل بذلك القاريء ويتأثر به، يقول العلامة: لا يمكن أن يبحث في الشعر الفارسي أربعة أشعار تعبر تعبيراً حقيقياً عن العواطف الإنسانية، وكان الغزل الفارسي يحمل أهمية في نفس ذاتها؛ ولكن يمزجه التصنع والتكلف.

وكان العرب يطلقون على شعرهم اسم "الشعر ديوان العرب" هذه حقيقة ساطعة لا يختلف فيها اثنان: أن الشعر العربي تشير إلى معاشهم ومعيشتهم وسكونتهم وإقامتهم وحياتهم الاجتماعية والجوانب الأخلاقية ومهاراتهم الحربية، وعلى عكس ذلك أن الشعر الفارسي لا يُعلم بذلك أن أهل فارس يسكنون الأرض أم يعيشون في السماء؟¹.

أنه أشار على كثير من ميزات الشعر العربي قلما تجد هذه المحاسن عند الشعراء الإيرانيين، كما أوضح هذا الأمر أن الشعر الفارسي يحتوي على ميزات يخلو منها الشعر العربي، فمثلاً "المثنوي" صنف من الكلام لا يوجد له أي رمز في الشعر العربي، وهذا الصنف من الكلام يبيّن فيها مئات من القصص وألوف من الخواطر والأحاسيس والمشاعر، ولكن ذيل الشعر العربي خال عن الخواطر والأفكار الفلسفية على حين أن الشعر الفارسي جعلوه كل من ناصر، خسرو، عمر خيام، ومولانا روم وعرفي غنياً ثرياً بهذه الجهة، وكان يرى العلامة أن الشعر العربي يموت حتف نفسه عند الجوانب الأخلاقية التي يملكها الشعر الفارسي، كان الشعر الفارسي مشحوناً بالأفكار المتصوفة على حين أن الشعر العربي لا ترى فيه إلا ابن فارض ومحي الدين العربي، يبرز العلامة الجانب المهم للشعر الفارسي هكذا: لأن الشعر الفارسي يكثر عن الشعر العربي كمية، ولذا ما يضم الشعر الفارسي من مخاطر ومشاعر يخلو منها الشعر العربي، كما أن

¹ مقالات شبلي، 45-49/2

العدد الخاص مجلة الهند

الشعر الفارسي يملأه التشبيهات التي يعوزها الشعر العربي، كان الشعراء الفارسيون أبداعوا في لطافة التشبيهات وليونة الاستعارات بحيث لن يصل إليها الشعر العربي¹.

كان العلامة فارس اللسان والقلم كليهما بالنسبة لخدمته للغة والأدب، فلما أصبحت العربية هدف الناقدین، وجعل الناس يعرضون عنها رغبة إلى العلوم الحديثة وقالوا فيها أنها ليست لغة علمية فهاج بذلك غضب العلامة، فلما رأى مقالة في "علي جراه منتهلي" باسم "إحياء العلوم الدينية" أبدى فيه الكاتب خواطره عن العربية بأنها لغة سطحية، فرد على ذلك ردًا عنيفًا، وأجاب عنه في ضوء الدلائل العلمية القوية، جعل صاحب المقالة الشعر العربي هدف سهامه واستهزء به، فقال العلامة: ما يجمع الشعر العربي من أساليب البيان وطلاقة اللسان وما تحمل القوة في انعطاف الأحوال قلما يوجد ذلك في الشعر الآخر، وما يضم الشعر الصداقة والديانة يصعب وجوده في غيره، وما قدم شعراء العرب نماذج من الجرأة والشجاعة والبسالة يخلو عنها اللغات الأخرى؛ ولأن صاحب المقالة ليس له أي مس وعلاقة باللغة العربية ولذا لا يمكن أن يبرز له الأوصاف الأخرى.

قدم العلامة أشعارًا من "الحماسة" ليُعلم بذلك عن صاحب المقالة وعلو كعب اللغة العربية². فأملأ هنا أربعة عشر بيتًا؛ يكتب هنا منها خمسة أبيات فقط:

إذا ما أتت من صاحب لك زلة فكن أنت محتالاً لزلته عنذرا³
لكف عن شتم اللئيم تكرما أضر له من شتمه حين يشتم⁴
وإني لعبد الضيف ما دام نازلا وما شيمة لي غيرها تشبه العبادا⁵

¹ المصدر نفسه، 56-55/2

² انظر للتفصيل: مقالات شبلي، ص 170-196

³ هذا الشعر لسالم بن وابصة الأسدي، فانظر: ديوان الحماسة (علق عليه: مولانا إعزاز علي)، المطبع القاسمي (د.ت)، ص 171

⁴ هذا الشعر لموصل بن أميل المحاربي، المصدر نفسه، ص 171

⁵ هذا الشعر لمقفع الكندي، المصدر نفسه، ص 180

إذ المرء لم يدنس من اللوم عرضه فكل رداء يرتديه جميل
إذا سيد منا خلا قام سيد قول لما قال الكرام فعول¹

كما حاول العلامة أن يقدم أمام أهل العلم تاريخ الشعر العربي، كذلك يحاول أن يُعرض أمامهم الصورة الحقيقية للبلاغة والأدب، لأن علماء الإسلام كانوا يستندون في فن الشعر والبلاغة إلى ما يرى أرسطو، ولا يعلمون ما يحويه القرآن من الفصاحة والبلاغة، إنما رتب أرسطو أصول البلاغة وضوابطه في ضوء كلام الشعراء اليونانيين، ولذا لم ينطبق عليها الشعر العربي². إنما توجه العلامة إلى توضيح البلاغة وتشريحه بعد أن صدر كتاب تلميذه العلامة حميد الدين الفراهي باسم "جمهرة البلاغة" لأن هذا الكتاب يعترض وينتقد على أفكار أرسطو وتخيلاته، ويوضح ما فيه من الركاكة والضعف، إنما قطع العلامة الفراهي فيه مراحل البلاغة في روائع القرآن الكريم، ما يحتل هذا الكتاب (جمهرة البلاغة) من أهمية ومكانة يقدر ذلك بكلمات العلامة: "هذا التصنيف (خاصة في العصر الراهن) ضروري ولا بد للمسلمين كما أن العاطش يحتاج ويفتقر إلى الماء البارد³."

إن هذا الكتاب يشير أن أفكار أرسطو لا قيمة ولا وزن له، لأن أرسطو يوضح الشعر في ضوء كلام موحد وسونا كليس وهو تمثيل القصة سواء كانت صادقة أو كاذبة بحيث يُمثل أمام عينيه، وكان الهدف الأصلي في يونان من الشعر هو النزهة والتفرج فقط، ولذا يقول أرسطو: إن لم يحصل التمتع والنزهة بالصدقة والديانة فليرجع وليعتمد إلى الحذف والتغيير، ولذا يأتي الإطلاق عند أرسطو الشعر على الأكاذيب والخرافات، فأقام العلماء على هذا الأساس الفكرة "أحسن الشعر أكذبه"⁴. فنقل عبد القاهر الجرجاني في "أسرار

¹ شرح ديوان الحماسة للمرزوقي، نشره: أحمد أمين وعبد السلام هارون، الطبعة الأولى، مطبعة التأليف، 110/1. المصدر نفسه، 121/1

² انظر للتفصيل: مقالات شبلي، 17/2.

³ مقالات شبلي، 14/2

⁴ جمهرة البلاغة للمعلم عبد الحميد الفراهي، الدائرة الحميدية، الهند، 1360هـ، ص 6-7

العدد الخاص مجلة الهند

البلاغة" تتفرع مهمات البلاغة من مسائل التشبيه¹. ولذا أطلق العلماء على الاستعارة اسم البلاغة، ودلّوا على أن التمتع والنزهة إنما تنشآن في الشعر إذا كان ممزوجًا بالكذب واللاحقيقة، غلّط الفراهي أفكار أرسطو هذه، وأرشد إلى أن رأي أرسطو أن الإنسان أقوى وأزيد من الحيوان في المحاكاة؛ لأن طفلًا يمارس أعماله وأشغاله بنفسه؛ لأنه يحمل كلاً من الطاقات والخبرات الإنسانية؛ هذا ليس لأنه خلُق بفطرة المحاكاة.

يقول الفراهي: إن الإنسان يمتاز على غيره من الحيوانات بقوة النطق، الناطق في الأصل هو آلة العقل، فبذلك يقدّم أفكاره وتخيلاته (إنما كمال النطق يجمع شيئين، بأن يقدم الخواطر والمطالب بكل دقة وصحة).

لا يعتبر أرسطو النطق شيئاً، لأن النطق يؤدي المطلب، فاختيرت هذه الفكرة في "نقد الشعر" يقول أبو جعفر قدامة: "وإن كان شعر يشتمل على اللغو واللايعنية لا يتأثر ذلك على حسنه"².

ركّز الفراهي عنايته إلى النطق، والنطق اسم لكل من النطق والمعاني، ولكن القيمة الأصلية للمعاني، وإن كان الصوت جيداً ولكن المعاني لا تجود فلا تستقر في الذهن، إنما يطلق الكلام البليغ على كل كلام يتأثر به القلب ويتوغل فيه، إنما تنزل الأفكار والمعاني في القلوب لا الألفاظ والتراكيب، ولذا يمدح العرب الكلام نظراً إلى معانيه الجيدة كما يقول زهير بن أبي سلمى:

وذي نغمة للمثمّها وشكرتها
رفعت بمعروف من القول صائب
مصيب فما يُلمم وبه فهو قائله
وخصم يكاد الحق يغلب باطله
إذا ما أضل الناطقين مفاصله
وذي أخطل في القول يحسب وأنه

¹ أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجاني (وقف على طبعه وعلق حواشيه: السيد محمد رشيد رضا)، مطبعة الترقى، مصر، 1319-20هـ، ص 66-72
² جمهرة البلاغة، ص 9.

عبأت له حلما وأكرمت غيره وأعرضت عنه وهو باد مقاتله¹
يقول الفراهي مستدلاً بالقرآن الكريم: إن الله عز وجل جعل القول البليغ كل ما يستقر
في القلب ويثبت في قراره كما يقول الله عز وجل: "وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً".
وأمر الرسول أن يلحن القول ويقدم الكلام بحيث يتوغل في القلب، تؤدي هذه المعاني
الآية الأخرى: "ولله الحجة البالغة".

فقدّم الفراهي وهو يبطل فكرة أرسطو بأن المفهوم الحقيقي للبلاغة بهذه الألفاظ:
"وأثبت بهذه الخطابة الأمور التالية: ليس من محاسن الكلام الحكاية فقط، وليس
الغرض من الكلام أن يتلذذ به السامع؛ بل الكلام سعادة العقل ورسوله، وما يُتَلذذ
بالكلام ليس لأنه نوع من المحاكاة، والمحاكاة داخل في الفطرة الإنسانية؛ بل تحصل اللذة
من الكلام؛ لأن النطق قوة، وفي استخدام كل قوة يشعر الإنسان اللذة، فليست خاصة
بالإنسان المحاكاة؛ بل خاصته النطق، وإنما يتوقف حسن الكلام على الصداقة"².

يلقي العلامة في السطور الآتية على "جمهرة البلاغة" وهو يقول: وإنما القرآن الكريم أعظم
من حيث الفكرة حتى أصبحت معجزات موسى أمامه حقيرة تافهة، إنما جاء الاستعراض
من حيث الشعر والخطابة، وإنما يطلق الشعر أن يقدم الشاعر أحساسه ومشاعره
بكل دقة الفهم والشعور، وإنما الشعر اسم للإحساس والشعور، وإنما الشاعر يمضي من
أحوال الفرح والترج والغضب والاستعجاب، فيقدم كل ذلك بصورة الألفاظ، ومشاعر
الشاعر يهيج ويتحرك في القوة المتخلية، والنطق والصوت واللهجة في مرة واحدة،
والخطيب الأصقع لم يقل شيئاً من الشاعر، ولكن الأحاسيس والمشاعر لا يستولى عليه؛
لأنه يحرك المشاعر ويهيجها بمناسبة، ولذلك الخطيب يحس ويشعر كثيراً من الشاعر،
ولذا أطلق العرب على الشعر السحر وعلى الخطابة الحكمة، وجعل الفراهي الشاعر سريع
الانفعال وسليم الطبع.

وقال مضيئاً على ذلك وهو ينتقد على قول أرسطو: بأن الإنسان يصور ويمثل ما يخطر

¹ ديوان زهير بن أبي سلمى، ص 96-97

² مقالات شبلي، 32/2

العدد الخاص مجلة الهند

بباله بالمحاكاة، لكن هذا القول ليس بصحيح؛ والحقيقة الناصعة والساطعة في ذلك: إنما العواطف الإنسانية تهيج الحركة في القلب الإنساني، وإنما تشكل هذه الحركة وتلبس لباس الصوت، والرقص والدمع وغير ذلك، إنما هذه الحركات الإنسانية كمثال الألفاظ تدل على المفاهيم والمعاني، إنما هذه الحركات فطرية كالنطق¹.

إن كتاب "جمهرة البلاغة" يستأصل الأفكار البلاغية لأرسطو ويؤسس بناءً متيناً محكمًا للبلاغة في ضوء القرآن الكريم، لا يوجد لذلك مثيل في اللغة العربية، ويتأسف الفراهي على اتباع العلماء مذهب أرسطو وتتبعوا نظرياتهم.

كان لشبلي إمام ورسوخ في فن البلاغة، وكان له اطلاع واسع على مصادر البلاغة، وقد كتب كل من الجاحظ، ومحمد بن يزيد الواسطي، وعبد القاهر الجرجاني، والرماني، والخطابي، والزملكاني، والإمام الرازي، وابن سراقه، والقاضي أبو بكر الباقلاني في هذا الموضوع كتبًا عديدة، يقول العلامة: إني بحثت خلال رحلتي إلى فلسطين عن هذا الكتاب فما وجدته، وجدت كتاب الباقلاني فقط في مكتبة خديو، أنه أثنى على كتاب عبد القادر الجرجاني باسم "إعجاز القرآن" و"أسرار البلاغة" لأن ما تحتوي هذه الكتب من الدقائق واللطائف تهر بها العقول، ولحفته الحيرة، وعلاوة على ذلك كتب كثيرة تناقش أقسام الأدب والإملاء المختلفة، كما ألقى ابن أبي الأصبع الضوء على صنائع وبدائع القرآن الكريم، وجمع عز الدين مجاز القرآن، وقيد أبو الحسن الماودري أمثال القرآن، وصنّف العلامة السيوطي كتابًا باسم "الخواطر السوانح في أسرار الفواتح" يبحث هذا الكتاب عن أسلوب بداية سور القرآن الكريم، ورتب ابن قيم كتابًا باسم "كتاب التبيان" يبين أقسام القرآن².

يظهر من هذه السطور السابقة ما للعلامة من نبوغ في الفصاحة والبلاغة ورموزها ودقائقها. كتب العلامة شبلي مقالة باسم "حفلة ندوة العلماء السنوية ومعرض علي" قدم آراءه حول كتب البلاغة ضمنياً، ذكر أولاً كتاب "الخطابة" لأرسطو، وقال عنه: إنه أول كتاب

¹ فانظر للتفصيل: مقالات شبلي، 28-16/2

² فانظر للتفصيل: مقالات شبلي، 30-29/1

في الفن، وقد جاء الكلام عن تعريفه بسيطاً وتفصيلاً في كتاب "جمهرة البلاغة" بحث الفراهي عن محاسنه ومساويئه بأدلة قوية، ثم ألقى الضوء على كتاب "التبيان والتبيين" للجاحظ وقال عنه: عرض الجاحظ في كتابه مبادئ لهذا الفن لكي يؤسس بنيانه عليه، ثم ذكر كتاب ابن قدامة "نقد الشعر" وقال عنه: هذا الكتاب الموجز كأنه مقدمة لهذا الفن، ولكن ما يشتمل هذا الكتاب من مسائل البلاغة لا يتيسر ولا يتهيأ ذلك في آلاف من الصفحات في المقررات الدراسية، ثم ذكر عن كتاب العسكري "الصناعتين" و"دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة" للجرجاني، و"المفتاح" للسكاكي¹. ثم كتب عن محاسن تلك الكتب موجزاً.

كما ناقش العلامة في كتاباته عن كل من "هومر"، و"المتنبي"، و"غلام على آزاد البلجرامي" موجزاً، وإن يطالع ما كتب العلامة عنهم يعلم بذلك أنه إنما أنتجه قريحة شبلي وأفكاره العميقة، ونجد أمثلة كثيرة منتشرة في مقالاته توحى عن نبوغ العلامة في فن الأدب.

هومر كي ليد:

عد العلامة "هومر" من الشعراء العظماء على بسط المعمورة، يكتفي للإشارة على عظمة هذا الكتاب أن أرسطو ألف كتاباً في شرح أشعاره الصعبة، وقد التقط واستنبط أرسطو أصول البلاغة من كلام هومر، وكان الإسكندر يصحب كتاب هومر في كل من حله وترحاله، وكان يقول رينان: ينمحي بعد ألف سنة كل من المؤلفات ويبقى كتاب "هومر".

إنما سطر العلامة عن هذا الموضوع في باب ترجمة "هومر كي اليد"، ولم يترجم كلامه إلى مدة إلى العربية؛ لأن العرب لا يقيمون لكلام أحد في إزاء كلامهم وزناً ولا قيمة، ويحسبونه هيناً، بعد مضي مدة طويلة نقله إلى العربية البروفيسور سليمان البستاني، وكان البروفيسور يعدّ من العلماء البارزين والنايغين في الشام². وكان لهذا

¹ فانظر للتفصيل: مقالات شبلي، 105-106

² فانظر للتفصيل لحياة سليمان البستاني وخدماته: مقدمة الألياذه، سليمان البستاني، الطبعة الأولى، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1953، ص 195-206، فانظر أيضاً، سليمان البستاني والألياذه: جوزف الهاشم، الطبعة الثانية، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني، بيروت، إيلول

الشخص دور مهم في ترتيب الموسوعة العالمية في اللغة العربية.

والشيء الذي يثير اهتمام القراء أن البستاني أظهر وأبرز في الهوامش جوانب البلاغة في كلام هومر، وقام بمقابلة كلامه وموازنته بكلام العرب وقدم لها الأمثلة¹. وتنسجم أفكار هومر بخواطر الشعراء الجاهليين، ويرى خلال الموازنة والمقابلة أن الشعراء في العهود الجاهلية قد سرقوا بكلامه، ولكن هذا أمر صعب لأتهم لا يعرفون عن اسم يونان آنذاك². وكذلك كان الشعراء العرب لم يعرفوا بالسرقة.

المتنبى:

جمع العلامة أحوال المتنبى بكل ترتيب ونسق، ولو كان المتنبى قد مضى في القرن الرابع، وفي هذا الوقت قد فقد العرب أوصافهم، ولكن المتنبى قد نشأ وترعرع في جو البدو ما بين البدويين، ولذا نجد خصائص شعراء الجاهلية في كلامه، وأنه يظن نفسه شاعرًا عظيمًا، وهذا التعلي والتفوق حرّضه على أنه ادّعى النبوة، وادّعى عن شعره أنه معجز، ونجد في ترجمته أنه رتب كتابًا مقابل القرآن الكريم.

كما يسرد خلاله عن حكايات المتنبى المختلفة، كيف دخل في القصر، وكيف نال الدرجة والرفعة بسبب أبو العشائر، كيف قدّم قصائد مدحية في عظمة كافور في مصر، وما منحه وأعطاه الجوائز القيمة، ولكن هذه الجوائز لم تشف غلته، لأنه كان يحب أن يصبح حاكمًا أو واليًا لولاية أو لمديرية، كما يتضح ذلك من شعره التالي:

فارم بي ما أدرت مني فأنى أسدا لقلب آدمى الرواء

1960م (عدد الصفحات: 262) فليلاحظ أيضًا، سليمان البستاني، الألياذه هوميروس، ميخائيل صوايا، مكتبة صادر، بيروت (د.ت) (عدد الصفحات: 181)

¹ فانظر لذلك: سليمان البستاني، الألياذه هوميروس، الطبعة الأولى، المطبعة الكاثوليكية، بيروت 1955، م (عدد الصفحات: 56) فانظر الجزء الثاني: سليمان البستاني، الألياذه هوميروس، بقلم: فواد أفرام البستاني، الطبعة الأولى المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1955م، (عدد الصفحات: 56)

² انظر للتفصيل: مقالات شبلي، 189/4-191.

العدد الخاص مجلة الهند

فوادي من الملووك وإن كا
أبا المسك هل في الكأس فضل أناله
وهبت على مقدار كفي زماننا
إذا لم تنط ضيعة أو ولاية
ن لساني يرى من الشعراء¹
فإني أغنى منذ حين وتشرب
ونفسي على مقدار كفك تطلب
فجودك يكسوني وشغلك يسلب²
فلما رأى المتنبي أنه لا يتمكن أن يحصل بغتية غلبه اليأس والقنوط، فترك الحضور
في قصر كافور، وقطع علاقته ومودته به، ففرض الحظر على إيايه وذهابه من قبل
الملك نظرًا إلى جسارته وجرأته عليه، فعند ذلك هجا المتنبي الملك:

صار الخصى إمام الأبقين بها
ما كنت أحسبني أبقى إلى زمن
فاحر مستعبد والعبد معبود
يسئ بي فيه كلب وهو محمود³
غادر المتنبي من مصر لما رأى أنه لا يوافقه جوه ولا يرافقه مكانه، فبذل الملك جهوده
المضنية الجبارة للقبض عليه، ولكنه خرج من يده آمنًا شاملًا عن جميع الحوادث
والكرائب، فذكر ما عرضت الحوادث:

فلما إنخنا ركزنا الريا
وتبنا نقبل أسيافنا
ح فوق مكارمنا والعلا
ونمسجها من دماء العدا⁴
يكتفي ذكر قصة لتقدر بذلك عظمتة الشعرية ورفعة مكانته، وكان عدو المتنبي ابن
عميد سأله رجل من بلاط الملك: لما رأك مطرفًا رأسك؟ قال ابن العميد: أنه أرسلت
إلى ستين رسالة تعزية عن وفاة أختي، فتبتدئ كل رسالة بشعر المتنبي:

¹ ديوان المتنبي، ص 447

² ديوان المتنبي، ص 465-466

³ ديوان المتنبي، ص 486-487

⁴ ديوان المتنبي، 42/1

طوي الجزيرة حتى جاءني خبر فزعت فيه بأمالي إلى الكذب فلما أخبر ابن العميد بقدم المتنبي إلى أرجان، فأرسل حاجبه الخاص لاستقباله، فلما حضر البلاط الملكي، عظّمه ورفع مكانته، فبُسط له كرسي طرحت عليه الوسادة، قال ابن العميد: إني أشتاق للقاءك، فقدم المتنبي قصيدة، نقدم بيتين منها: وسمعت بطليموس دارس كتبه متملكاً مبتدياً متحضراً هذه حقيقة لا تقبل الجحود والنكارة كان المتنبي شاعراً عظيماً، يرى من أسلوب حياته وأطوار معاشه ومعيشته ومنهجه الشعري أنه يحمل فكراً رقيقاً وكان رجلاً عظيماً وقوراً، أنه يحسب حياته وشعره ممتازاً ومنفرداً عن غيرهم، ولذا لا يعتني ولا يقيم الوزن للأمراء والسلاطين، ولا يتحمل الذلة والحقارة في أي حال من الأحوال، وأنه يظهر شأن نفسه ورفعته هكذا:

الخيال والليل والبيداء تعرفني والحرب والضرب والقرطاس والقلم¹ فسرد العلامة في المقالة الحكايات والأشعار للمتنبي، ولكن هنا يقتضي التحقيق والنقد أن يذكر النكات والدقائق العلمية لكلامه ويذكر الأسباب التي ترفع مكانة المتنبي على معاصريه، وأن ما كتبه العلامة نبذة عن سيرته التي التقطت من كتاب "العمدة" و"خزانة الأدب".

لا يجحد أحد مكانة على آزاد البلجرامي العلمية، خاصة لا تتناسى أعماله السيرة والترجمة، فعرض العلامة حياته وخدماته العلمية عرضاً سريعاً جميلاً، وألقى الضوء على مصنفاته موجزاً، كما استعرض خدماته حول اللغة العربية والأدب، وإن كان هذا السرد والعرض أقل قليل نظراً إلى خدماته، ولكن هذا السرد مع إيجازه وتقصيره يحتوي على النكات الأساسية.

قال العلامة عن كتابه "سبحة المرجان" إنه أقام باباً أورد فيه تخيلات اللغة في اللغة العربية وذكر الصنائع الشعرية، ويبلغ عدد تلك الصناعات إلى ثلاثين وعشرين صنعة،

¹ المصدر نفسه، 423، و541 و111

وهو يختص باللغة الهندية، يعوزها اللغة العربية والفارسية، ويشارك في البواقي اللغات الأخرى، وازن آزاد البحور والقوافي الهندية بالعربية¹. وقد بسط الكلام في الحصة الثانية لـ"سبحة المرجان" المنتشرة في 128 صفحة، يقدر بذلك سعة نظره واطلاعه الواسع، خاصة نبوغه في الشعر العربي، يقول العلامة معترفًا لعلمية "سبحة المرجان".

علّق العلامة تعليقًا متوسطًا معتدلًا على شعره العربي، وإن لم يعرض شاعرًا هنديًا بإزاءه، ولكن إذا بحث عن لغته العربية وأدبه وشعره ووصف جماله يري ترجح كفته في ذلك الشأن، يقول العلامة شبلي:

"وإن كثّر كلام آزاد العربية، ولكن هذه حقيقة ساطعة كالشمس في رابعة النهار أنه يعدّ من الأدباء البارزين والنابعين في اللغة العربية، والرصيد الكبير من الكتب الأدبية النادرة بمراى منه، واللغات والمحاورات على طرف لسانه، ولكن يمزج كلامه العجمة بحيث يصعب أن يقال عنه العربي، وهو يفتخر بأنه انتقل الأفكار العجمية إلى العربية، ولكن الباحث يعلم أنه ليس من المحاسن؛ بل يعد ذلك من المساوي²".

وكان للعلامة علاقة مباشرة بعلماء مصر وأدبائه، بل يجدر أن يقال أن العلامة هو الذي عرّف الهنود من الأدب المصري الجديد، وكتب مقالة حول فريد وجدي³. وكان فريد وجدي أديبًا يعجب الإسلام، هو الذي عرض ذوق الإسلام الفلسفي أمام أرباب العلم وخاصة عند المستشرقين، لقي أسلوبه التحقيقي القبول والتقدير في الأوساط العلمية والإسلامية، وترجم كتبه إلى عدة لغات، تبدأ المقالة بتعريف موجز عن فريد وجدي، أنه كتب جوابًا عن كتاب قاسم أمين باسم "المرأة المسلمة"⁴. وأثبت بذلك أن له إطلاعًا واسعًا على الكتاب والسنة، ترجم كتابه إلى الأردية مولانا أبو الكلام نظرًا إلى أهمية

¹ انظر للتفصيل: مقالات شبلي، 96/82/5.

² انظر للتفصيل، المصدر نفسه

³ انظر للتفصيل: سبحة المرجان في آثار هندوستان للسيد غلام علي البلجرامي (تحقيق: الدكتور محمد فضل الرحمن الندوي)، الطبعة الأولى، مطبعة الكوثر، سرائر مير، أعظم كره، الهند، 1980م، 128-1/2

⁴ مقالات شبلي، 129/5

الكتاب¹. أُلّف في عام 1898م حول التوفيق بين المذهب والثقافة كتاب باسم "تطبيق الديانة الإسلامية على نواميس الطبيعة" حظي هذا الكتاب بالقبول التام والانتشار الواسع في الأوساط العلمية، أُلّف هذا الكتاب أولاً في اللغة الفرنسية، ولو ألقى النظر على كل من الكتب "الفلسفة الحقة في بدائع الأكوان، الحديقة الفكرية في إثبات الله بالبراهين الطبيعية، الإسلام في عصر العلم، سفير الإسلام إلى سائر الأقوام، كثر العلوم واللغة، وصفوة الفرقان في تفسير القرآن يترشح بها أن فريد وجدي درس حقائق الإسلام ودقائقه بكل نظرة غائرة عميقة، كما أحاط الجوانب الفلسفية لم يوجد له مثال عند كل من السيد قطب الشهيد، والشيخ أبو الأعلى المودودي، إن الإسلام دستور حياة، عرض له أولاً في صورة جديدة فريد وجدي، نظراً إلى خدماته وخصائصه ومحاسنه العلمية، يقول العلامة ذات مرة "لو كان في شبابنا في الهند أحد كفريد وجدي"².

اختتم العلامة مقالته بهذه الألفاظ: مع الاعتراف منا بمآثر وجدي ومحاسنه، نتأسف عليه بأنه لا يحيط بالتعليمات الإسلامية تمامًا؛ لأنه لما يكتب عن الكتاب والسنة يكشف لنا واضحاً قصور معلوماته عنهما.

نقول حول الرد على رأى العلامة عن فريد وجدي يمكن أن يصدر عنه الأخطاء، ولكن رأيه عن قصور معلوماته الدينية يقول بذلك من لم يقرأ كتب وجدي تمامًا، ولكن لا يليق أن هذه المقالة عن العلامة شبلي، ولكن قول العلامة أنه لما يكتب عن الكتاب والسنة يوضح تمامًا عن قصور معلوماته والإحاطة بعلمه بالكتاب والسنة، ولكن لا يتفق مع قوله لأنه عرض صداقة الإسلام وفلسفته بحيث لم يجد لذلك مثلاً في الأدباء الجدد، ولو قدم العلامة مثالين أو أربعة أمثلة من كتبه ليعضد ويقوي ذلك آراءه.

يبدو أمران خاصة من مقالات شبلي أنه كان له إطلاع واسع على الأدب العربي الجديد، وأنه كان يقلق للحصول على المواد الجديدة، عندما يعبر العلامة شبلي عن أفكاره

¹ انظر للتفصيل: المرأة المسلمة، قدّم فيه تصويراً صادقاً للمرأة المسلمة، ولكن اختار الأسلوب التقليدي في بعض الأمور

² مقالات شبلي، 5/138

العدد الخاص مجلة الهند

الجديدة وهو وحيد وفريد وجديد على صعيد الهند، قليل منهم من يعرف فريد وجدي، ومصطفى كمال، وقاسم أمين، خاصة أنه يرسم في رحلاته الأدب العربي الجديد والممثلين له، وهو شيء جديد، ولا ياباه أحد في العصر الراهن، كما ناقش العلامة الأدب العربي في كل من مقالاته وكتابات وكما وازن بين الشعر الفارسي والشعر العربي، وهو رأس مال القيمة في الحقل الأدبي، يقدر على هذه الموازنة كل من له نبوغ في اللغة العربية بجانب تضلعه في الشعر العجمي، وما كتب العلامة حول المتنبي وفريد وجدي وجيز تمامًا، ولم يدرس شعر المتنبي دراسة نقدية، بل التقط جميع المعلومات حول المتنبي من "كتاب العمدة"، رتب العلامة ما وجد المواد حول المتنبي في ذلك الكتاب بأسلوب أنيق، وعقب على خدمات فريد وجدي من غير دليل، ولو أمعنا النظر إلى خدمات العلامة في الأدب العربي القديم والجديد والمواد الإسلامية فنقول من غير تأمل ولا تردد إن العلامة شبلي قد نفخ روحًا جديدة في الأدب العربي الجديد في الهند.

العلامة شبلي خبيرًا بالمصادر

- أ. د. محمد يسين مظهر الصديقي¹

ترجمة من الأردوية: د. أورنك زيب الأعظمي²

ومن أهم وأبرز جوانب عبقرية العلامة شبلي براعته على مصادر ومآخذ المواضيع والمباحث فكانت سعتها وشمولها مثل سعة وتنوع موضوعاته، وقد شملت كافة العلوم الإسلامية وهي شاهد معجز بعقله الحاد وإدراكه الشامل علاوة على شهادتها باطلاعه الواسع فإن كتب في موضوع خاص فلا تحدث عنه ولا بلغ مصادره فحسب فإن تطرق إليه موضوعات أخرى عند الحديث عن موضوع خاص فذكر حين ذلك مصادر العلوم والفنون الأخرى، ولم يذكرها فقط بل استعرضها استعراضاً علمياً ونقدياً مهمّاً وكشف عن جوانب حسناتها وردائها فإلحاله إلى المصادر والمآخذ في المؤلفات والمقالات العلمية والتحقيقية الجديدة في اللغة الأردوية مدين بالعلامة شبلي وأما الزيادة علمياً فهي ممن قام بها العلامة شبلي على أصحابها، فما أنعمه العلامة شبلي من ذكر المصادر والمآخذ هي الدليل العلمي لأصحاب اللغة الإنجليزية واللغات الأخرى غير اللغات الأردوية والفارسية والعربية.

وعسى أن يزعم من لا يبعد نظره من الكتاب أن الإحالة إلى المصادر والمآخذ والاقْتباس والنقد والاستعراض مما نجده في آخر عمره، ولكن الواقع أنه لم يزل يختبر المصادر وينتقدها ويستعرضها منذ أن بدأ حياته العلمية الجديدة حتى أن وافته المنية فنجد في مداخل وتمهيدات مؤلفاته الأولى ذكراً واستعراضاً عامين للمصادر والمآخذ، واللذين قد تطوّرا عبر الزمان والممارسة حتى أصبحت تحقيقاً شاملاً مبرهنًا في

¹ كاتب هندي كبير للدراسات الإسلامية

² أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وأدائها، الجامعة المليية الإسلامية، نيودلهي

مقدمة "سيرة النبي" مما يفقد نظيره حتى الآن والحال أن المواد والاستعراض كلاهما قد اتسع نطاقه أكثر فقد كانت طريقة العلامة شبلي في الذكر والنقد متنوعة جداً، فطبّقاً للمتطلبات العلمية والتحقيقية العامة فكان يوثّق كل بيانه واستعراضه. وبالرغم من مباحث المدخل فهو يحيل إلى العديد من المآخذ في النص وينتقد رواياته المنكرة والمتضادة والمختلفة ويستعرضها ويلتزم بأصول الإحالة في الهوامش، وعلاوة على ذلك فهو يقيم تلك المآخذ وأصحابها، وفي هذه المقالة الموجزة نقدّم لمحات عن عبقرية العلامة شبيل في الإحالة والاقْتباس تحت عناوين خاصة والحال أن عبقريته في هذا المجال موضوع بحث جامعي.

ذكر المصادر في المقدمة والمدخل: ولا شك أن بعض العلماء والباحثين للعربية والفارسية أشاروا إلى مصادرهم في مقدماتهم ومدخلهم وكلماتهم الافتتاحية، ومنتشجاً من هذا التقليد الإسلامي فناقش العلامة شبلي مصادر موضوعاته الخاصة الأصلية في بحوثه وتحقيقاته العلمية فلا شك أن إحالة العلامة شبلي أحدث تقليد في اللغة الأردوية وإلى حد معلوم في مجال البحث والتحقيق في اللغة العربية والفارسية فهو لا يناقش المصادر الأصلية فحسب بل يحلّل التحقيقات الحديثة بناء عليها ويقارن بينهما، وأما الجوانب الأخرى فيأتي ذكرها تحت عناوين أخرى ففي هذه العجالة نقدّم مناقشة العلامة شبلي للمصادر والمآخذ في المقدمات والمدخل:

المأمون: طبقاً للعلامة شبلي الشارح والمؤرخ صدر المأمون في 1887م، هذا أول كتاب للعلامة شبلي وهو يضيف قائلاً: حفزني على تأليف المأمون كتاب هارون الرشيد للسيد بامر" ولما قرأ العلامة هذا الكتاب أحب أن يكتب المأمون فيقدم تريباً لسمّ السيد بامر ولكن لا تتفق مع الفكرة الثانية للشارح بأن كتاب العلامة شبلي يستطيع أن يثبت تريباً لكتاب السيد بامر عن هارون الرشيد فقد كانت وراء تأليف كتاب المأمون متطلبات علمية وتحقيقية أخرى (سيد سليمان الندوي: حيات شبلي، أعظم كره، 1983م، ص 172-173 نذكره فيما بعد بـ"حيات شبلي" فقط). يسّي العلامة شبلي "المأمون" في مواضع عديدة بـ"مأمون الرشيد" الذي هو على وزن "هارون الرشيد" ولعل ذهنه الشاعر قد تأثر به على غير وعي. والواقع أنه كان لكل خليفة

عباسي لقب يناسب خلفته وكان يختاره ذلك الخليفة عند تولّيه عرش الخلافة مثل الخليفة الأول الذي لُقّب بـ"السفاح" والثاني بـ"المنصور" والثالث بـ"المهدي" والرابع بـ"الهادي" والخامس بـ"الرشيد" وهكذا اختار عبد الله بن هارون الرشيد وولي العهد الثاني لقب "المأمون" فلا يصحّ القول بمأمون الرشيد إلا أن من حذا حذو العلامة شبلي ظلّه صحيحًا فشهره في كتاباته وهذا كما قال ابن خلدون¹، نقل بلا عقل فمثلاً أن السير سيد كتب في مقدمة "المأمون": "مأمون الرشيد بن هارون الرشيد" ولو أنه اكتفى بالمأمون فيما بعد إلا أن من قام بترتيب "المأمون" أو تعريفه أبقوا "مأمون الرشيد" فقد جاء ذكره في غير صفحة من "المأمون" المطبوع من أعظم كره².

وبعدما قام العلامة شبلي بتحليل عام للمصادر والمآخذ العامة في مقدمته قدّم نقدًا محللاً للمآخذ التاريخية الخاصة "من حسن الحظ أنما نجده من كتب التاريخ المشهورة والموثوق بها بالعربية عن أخبار المأمون التاريخية قد توقّر معظمها لي حين تأليف هذا الجزء ولكني اصّحّ معترفًا أن منزلة التطور التي بلغها فن التاريخ في عصرنا الحديث وما أضافه تدقيق أوربا من نكت فلسفية إلى أصوله وفروعه تعجز مؤلفاتنا القديمة عن بلوغ غايتنا". ثم ذكر العلامة شبلي أبرز كتب التاريخ الإسلامي مثل التاريخ الكبير لأبي جعفر الطبري، ومروج الذهب للمسعودي، والكامل لابن أثير الجزري، وابن خلدون، وأبي الفداء، ودول الإسلام للذهبي، وتاريخ الخلفاء للسيوطي، والعيون والحقائق، وأخبار الدول للقرماني، وتاريخ ابن واضح للكاتب العباسي، وفتوح البلدان للبلاذري، والمعارف لابن قتيبة، وإعلام الأعلام، والنجوم الزاهرة. هذه كتب التاريخ المفصّلة الموثوق بها التي تعتبر بارزة فيما بين الكتب التاريخية الإسلامية ولا نرجو المزيد عليها بالنسبة لأخبار الدولة العباسية لاسيما أخبار المأمون الرشيد ---" (المأمون، ص 9-10 ومن ميزة العلامة شبلي أنه يلخص أسماء الكتب في كثير من المواضع لسهولته مثل تاريخ الطبري الذي اسمه الكامل

¹ يبدو من هذا أن هذا الخطأ لم يرتكبه أتباع العلامة شبلي بل من سبقهم من الكتاب فلا يصحّ قول البروفيسور الصديقي بأنه مما شهره أتباع العلامة شبلي (الأعظمي)

² راجع الصفحات 8-10 وما بعدها

تاريخ الرسل والملوك وكذا تاريخ اليعقوبي الذي اسمه الكامل تاريخ ابن واضح. إنه يذكر ما توقّر له من الكتب وأصحابها).

سيرة النعمان: هذا كتاب علي بحت للعلامة شبلي كما يعتبره الكاتب ذاته وتلميذه الرشيد سيد سليمان الندوي والذي أتمّه حين تأليف كتاب "الفاروق"، وكتب العلامة شبلي بعدما صرح عن ذلك قائلاً: ما يحظى به الإمام أبو حنيفة من منزلة في الإسلام يمكن تقديرها من أن العلماء والمؤرخين ألفوا عن حياته قدر ما لم يؤلفوا عن أحد سواه --- وقد ألفه من كان يجدر بأن يتم تأليف ترجمتهم، وإن عادل أبا حنيفة أحد من علماء الإسلام فهو الإمام الشافعي. ومما تمّ تأليفه من تراجم الإمام أبي حنيفة وما عثرنا عليه بعد التحقيق ما يلي:

1. عقود الجمان للإمام أحمد بن محمد الطحاوي
2. قلائد عقود الدرر والعقيان للطحاوي (خلاصة عقود الجمان)
3. الروضة العالية المنيفة في مناقب أبي حنيفة النعمان للطحاوي
4. مناقب النعمان للإمام محمد بن أحمد بن شعيب (ت357هـ/967م)
5. مناقب النعمان للشيخ أبي عبد الله حسين بن علي الصميري (ت436هـ/1014م)
6. مناقب النعمان لأبي العباس أحمد بن الصلت الحماني (ت308هـ/1920م، وللإمام الزمخشري (ت538هـ/1143م)، وللإمام موفق الدين بن أحمد المكي الخوارزمي (ت568هـ/1172م)، وللإمام المرغيناني (ت506هـ/1112م)، وللإمام الكردي (ت820هـ/1417م)، ولأبي القاسم بن كاس، وللإمام ابن العوام، وللإمام السيواسي، وللإمام عبد القادر القرشي، (ت775هـ/1373م)، وللإمام محمد بن يوسف الدمشقي، وللإمام ابن حجر المكي وآخرين غيرهم.

ذكر في هذا الجدول مجموعة 27 مصدرًا (سيرة النعمان، أعظم كره، 1998م، ص 3-10 وقد نشر هذا الكتاب أولاً في 1891م كما ذكره الشيخ ضياء الدين الإصلاحي).

ولقد اعترف العلامة شبلي أن هذه الكتب المذكورة أعلاه لم تكن متوفرة في الهند ولكنه يمتلك عقود الجمان والخيرات الحسان كما رأى نسخة قديمة لقلائد العقيان "--- من أهم مآخذ كتابي هذا عقود الجمان" (سيرة النعان، ص 10-11) "لم أعر إلا على هذا الكتاب الكامل عن سيرة وترجمة الإمام أبي حنيفة ولكن هناك كتبًا موثوقًا بها للرجال والتاريخ جاء فيها ذكر الإمام أبي حنيفة وقد رأيتها ومن أبرزها التاريخ الصغير للبخاري والمعارف لابن قتيبة ومختصر التاريخ للخطيب البغدادي والأنساب للسمعاني وتهذيب الأسماء واللغات للنووي وتذكرة الحفاظ للعلامة الذهبي ودول الإسلام للذهبي والعبر في أخبار من غبر للذهبي وتهذيب التهذيب للحافظ ابن حجر العسقلاني و خلاصة تهذيب التهذيب للجمال للعلامة صفي الدين الخزرجي وذلك لأنها كتب ينحصر فيها فن الرجال ويرجع إليها عادة في دراية الحديث". وقد غير العلامة شبلي عناوين بعض كتب هذا الفهرست فإنه يسقط "ال" عادة كما كتب "أنساب" للسمعاني وهو "الأنساب" وقد أصبح هذا قاعدة عامة.

ولو أن الفاروق كتاب سبق الغزالي في التأليف ولكنه يرتبط بشدة بسيرة النبي لأسباب لذا فنبحث عنها فيما بعد بما أن فكرة العلامة شبلي وطريقة بحثه سواء فهمًا تقريبًا ولعل الغزالي أول كتاب للعلامة شبلي لم يتناول مصادره إلا بالإيجاز ولعله فعل لأنه باب من علم الكلام فتراجع أئمة علم الكلام جزء ثالث لمشروعاتهم وهذا الباب "فلما بدأ بترجمة الإمام الغزالي في هذا الجزء وطال حتى أصبح كتابًا" فنشر على حدة لأن إعداد الكتاب كله يحتاج إلى مزيد الوقت". "ولعل كتابًا مستقلًا لم يؤلف في ترجمة الإمام الغزالي ولكن أخباره توجد بقدر من التفصيل في كتب الرجال والتراجم ومما يجدر بها "تبين كذب المفتري فيما نسب إلى أبي الحسن الأشعري" و"طبقات الشافعية" "---- وبعدهما قدر قيمة هذين الكتابين ذكر بعض مؤلفات أوربا في الإمام الغزالي لأنه كان موضوع البحث فيها" فيوجد منها كتابان أحدهما كتاب "Al--Gazali" للبروفيسور غوشي (Pr. Gosehe) والآخر كتاب "الربط بين فلسفة اليهود والإسلام" للبروفيسور (S. Munch) "----" فالكتاب الأول باللغة الألمانية فلم أقدر على الاستفادة منه وأما الكتاب الآخر فاستفدت منه وأحلت إليه في غير موضع ---" (الغزالي، أعظم كره، 1956م، ص 2-3، ومكاتيب

العدد الخاص مجلة الهند

شبلي، أعظم كره، 1966م، 1/116) "حياة الإمام الغزالي التي يوجد فيها استعراض كامل لأنه موجد علم الكلام الجديد --- رسالته إلى الشيخ حبيب الرحمن الشيرواني المؤرخة في 10/ يوليو، 1899م وما بعدها من الرسائل).

وبعدما حلل تحليلًا موجزًا جيدًا جذب الشعر الفارسي وغلبة التمدن الإيراني قال عن التراجم: للشعراء تراجم عديدة ولكنها مثل مجموعات شعر خطية ذكر فيها مختار أشعار الشعراء فأخبار وتراجم الشعراء أقل قليل وأما تطور الشعر عبر العصور والأسباب وراء هذا التطور فلا نجد له ذكرًا وكذا أشار إلى عدم الاستعانة من كتب أوروبا الحديثة كما ذكر عراقيل في هذا السبيل ثم ذكر فهرسًا لما أخذ شعر العجم في صورة جدول جاء فيها اسم الكتاب واسم الكاتب وكيفيه وذكر الكاتب في النهاية والانتقاد عليه وفيما يلي جدول العلامة شبلي:

1. لب الباب لعوفي يزدي	2. چهار مقالة لنظامي العروضي السمرقندي
3. تذكرة دولت شاه السمرقندي	4. تاريخ آل غزنين للبيهي
5. عرفات الأوحدي	6. ميخانه لعبد النبي فخر الزماني
7. تذكرة الشعراء لميرزا طاهر النصيرابادي	8. مآثر رحيمي لعبد الباقي النهاوندي
9. مرآة الخيال لشير خان اللودي	10. هفت إقليم لأمين الرازي
11. تذكرة مير تقي خان الكاشي	12. تذكرة سامي لسام ميرزا الصفوي
13. رياض الشعراء لواله الداغستاني	14. سرو آزاد للمولوي غلام علي آزاد
15. يد بيضاء وخزانه عامرة للكاتب المذكور أنفًا	16. مجمع النفائس لخان آرزو
17. مجمع الفصحاء لهدايت قلي خان	18. ذكر عام لكليات الشعراء ودواوينهم

وأما في خانة الكيفية فاستعراض العلامة شبلي مهمّ علاوة على ذكر الكاتب كما اعتبر چهار مقالة رسالة موجزة ولكن محتوية على معلومات مفيدة واعتبر كاتبه

شاعرًا فحلًا كما أشار إلى كثرة أخطاء تذكرة دولت شاه بجانب اعتباره صحيفة ذات معلومات مفيدة وممتعة وهكذا عدّ "هفت إقليم" موثوقًا به، وهذه الكيفية الموجزة يمكن لنا تقدير منزلته العلمية (شعر العجم، أعظم كره، 1972م، 1/1-6 ثم ذكر كتب الباحثين الأوروبيين عن الشعر الفارسي والأدب الفارسي فاعترف بفضلهم ومنهم بما أنهم نشروا مصادر جيدة ومنهم وار مستيتير، ووالن تن زوكوسكي، وبراون ولقد أطنب ذكر الكاتب الأخير وأشار إلى أنه استفاد من بعض مؤلفاته).

وفي مدخل الفاروق استعرض تحت عنصر التاريخ تاريخ الشعر والتمدن استعراضًا عامًا بالنسبة للتطور، وبما أن تاريخ الخلافة له مناسبة فنية خاصة بسيرة النبي صلى الله عليه وسلم كما له معها علاقة تدرجية فأرى في العرب تطورًا عاجلاً عامًا لفن التاريخ وذكر تقليد "أيام العرب" في عرب الجاهلية وضبط سلسلة كتب تاريخية لأوائل العرب فذكر فيه جهودًا تاريخية لملوك الحيرة وكتاب التيجان لابن هشام وكتب التاريخ لعبيد بن شريه بخصوص كتاب الملوك وأخبار الماضين، وكتّاب الحوليات أمثال عوانة بن الحكم (ت147هـ/764م) وأبي مخنف الكلبى وغيرهما وكتّاب السيرة أمثال محمد بن إسحاق وموسى بن عقبة وكتب ورسائل الواقدي بصورة موجزة ثم ذكر فهرسًا موجزًا للكتب عن سير وتراجم الصحابة فذكر في الجدول كتب نجيع المدني والنصر بن مزاحم الكوفي وسيف بن عمر الأسدي والمعمر بن راشد الكوفي وعبد الله بن سعد الزهري وأبي البحري وهب بن وهب وأبي الحسن علي بن محمد المدني وأحمد بن الحارث الخزاز وعبد الرحمن بن عبده وعمر بن شبه كما قام باستعراض موجز وممتع مثلما قال في سيف بن عمر "مؤرخ مشهور جدًا"، وفي المعمر بن راشد الكوفي "أستاذ الأستاذ للإمام البخاري"، وأحمد بن الحارث الخزاز "تلميذ المدائني"، وعبد الرحمن بن عبده "مؤرخ موثوق به"، وعمر بن شيبه "مؤرخ شهير". وقد شكّا شبلي "أنه ولو أن هذه المؤلفات لا توجد اليوم ولكن الكتب التي ألفت في هذا العصر أو فيما بعد بقليل عيال عليها أو جاء معظمها فيها" ثم ذكر مؤلفات تلك القدامى بقليل من الاستعراض ومنهم من يلي:

1. ابن قتيبة الدينوري صاحب كتاب "المعارف"

2. أبو حنيفة الدينوري صاحب "الأخبار الطوال"

3. ابن سعد صاحب "طبقات"
4. أحمد بن أبي يعقوب بن واضح صاحب "تاريخ اليعقوبي"
5. أحمد بن يحيى البلاذري صاحب "فتوح البلدان" و"أنساب الأشراف"
6. أبو جعفر محمد بن جرير الطبري صاحب "تاريخ الطبري"
7. أبو الحسن علي بن حسين المسعودي صاحب "مروج الذهب" و"كتاب التنبيه والإشراف"

وما قام به العلامة شبلي من الاستعراض على كثير منها مهمّ وممتع فقال "ابن قتيبة كاتب شهير وموثوق به ويقول بثقته المحدثون وكتاب "المعارف" فيه معلومات مفيدة، وأبو حنيفة الدينوري كاتب شهير بينما ابن سعد مؤرخ موثوق به ولو أن أستاذه الواقدي ضعيف الرواية --- يشهد كتاب اليعقوبي بأنه كان من كبار الكتاب. والبلاذري معترف به في جماعة المحدثين لانطلاق فكرته وصحة روايته، والطبري يعترف بإمامته في الحديث والفقه، والمسعودي إمام لفن التاريخ ولم يولد مؤرخ منطلق الفكر كمثلته في العالم الإسلامي وهو كان ماهراً لتاريخ أمم العالم الأخرى ولو عثرنا على كافة مؤلفاته عن التاريخ لما احتجنا إلى أحد غيره".

والواقع أن مقدمة المآخذ للفاروق كان مقدمة العمل الجليل المسمى بسيرة النبي فنجد في مباحثهما وأفكارهما تشابهاً كبيراً فلا شك أنما قام به العلامة شبلي من تحليل المصادر والمآخذ في الفاروق قد فصله في مقدمة سيرة النبي تفصيلاً وبرهنة وبرهنة ففي مصادر السيرة نجد عهداً للقدامى وقد ألفت كتب في العهد الأول إلا أنها لا توجد اليوم ولكن موادها توجد في كتب العهد الثاني ثم ناقش خصائص واجتهادات القدامى والمتأخرين مما قد قام به في القسم النقدي كما قام بذكر أفكارهم وتحليلها، وكذا أكد في سيرة النبي تحت "بداية فن السيرة والتراث الابتدائي" على الجزء الثاني للمبحث فناقش سبب وجوده، وهكذا ناقش أيام العرب وغزواتهم تحت عنوان المغازي فقال إن عملية التأليف بدأت لأجل الحكومة" فذكر الإمام الزهري كما ذكر عبيد بن شريه وسعيد بن جبير وعمر بن عبد العزيز وغيرهم. ثم ركّز على المغازي فاعتبر مغازي الإمام الزهري كتاباً خلق عهداً وفناً جديداً تناول من خلاله بالنقد والتحليل موسى بن عقبة

ومحمد بن إسحاق وابن هشام والواقدي وابن سعد والتاريخ الصغير للإمام البخاري والتاريخ الكبير للطبري فذكر في صورة جدول فهرس كتب كافة كتّاب ومدوّني السيرة النبوية فذكر بالتحليل جدول 31 كتابًا من مغازي عروة ابن الزبير إلى مغازي محمد بن عائذ الدمشقي وقرّرها من كتب القدامى. ثم قدّم فهرسًا مقننًا لما بعدها من الكتب لاسيما الشروح في صورة بيانية وقد جاء فيها الروض الأنف للسهيبي وسيرة الدمياطي وسيرة الخلاطي وسيرة الكازروني وسيرة ابن أبي طيّ وسيرة المغلطي وشرف المصطفى للنيدشافوري وشرف المصطفى لابن الجوزي والاكتفاء للكلاعي وسيرة ابن عبد البر وعيون الأثر لابن سيد الناس وشرحه نور النبراس وسيرة الحافظ العراقي المنظومة والمواهب اللدنية للقسطلاني والزرقاني على المواهب وسيرة الحلبي. ونظرًا لأصول الرواية والكتابة ذكر الكتب الخاصة بالرجال بما فيها تهذيب الكمال للمزي وتهذيب التهذيب لابن حجر وغيرهما ثم ناقش تطوّر الدراية ثم عقد عنوانًا للتحليل فحدّد قيمة مأخذ السيرة الفنية (سيرة النبي، أعظم كره، 1983م، 1/12-47 وما بعدها، والفاروق، ص 2-19 وقد اشتركت المباحث في كلا الكتابين إلا أن سيرة النبي قدّم تفصيلًا زائدًا كما أضاف شيئًا إليه ولكن لا نسمّيه سوى التطور في الفكرة ولو قام أحد بالموازنة النقدية بين هذين الكتابين لجاؤا بشيء ممتع وكذا نشرت بداية مقدمة سيرة النبي في الهلال والتي عادت ببعض الانتقادات عليها فقام العلامة شبلي ببعض الإصلاحات فزادها كما نقصها فلا بدّ للباحث عن حياة وأفكار شبلي من مقارنتهما وقد حذف العلامة شبلي بعض الأشياء من أسماء تلك الكتب من مثل إسقاط اللام من العناوين "الروض الأنف" و"المواهب اللدنية"¹.

تصنيف المآخذ والمصادر: إن العلامة شبلي يصنّف المآخذ والمصادر كعالم واسع الاطلاع وككاتب منطلق الفكر وكمحقق ذي نطاق أوسع طبقًا لأهميتها ومنزلتها. ونعرف نحن جميعًا أن لكل فن مصادر أولوية كما لها مآخذ ثانوية ولا يشمل النوع الثاني الكتب الحديثة ولكن أي المصادر الأولوية لها درجة أمّ الكتاب، وهذا من ميزة

¹ ولكن هكذا يحدث في الأدب الأردوي (الأعظمي)

العلامة شبلي أنه صنّف في كل كتاب له وفي كل مقدمة وفي بعض الأحيان على الهامش هذه المصادر وناقش الوجوه لهذا العمل.

ولقد علّق على بعض مآخذ المأمون المفهّسة وقرّر صنفها وقدرها فقال معلقاً على التاريخ الكبير للطبري: هذا كتاب ضخم موثوق به، وهذا هو مصدر ابن الأثير وابن خلدون وأبي الفداء --- والبلاذري مؤرخ قديم كان حيّاً في عهد الخليفة العباسي المتوكل بالله المتوفى في 447هـ، نشر تاريخه في ألمانيا" وكذا علّق على التاريخ الكامل المطبوع من مصر فقال إنه تاريخ شهير ومفيد للغاية" (المأمون، هامش الصفحة 10 وما بعدها وقد طبعت سنة وفاة المتوكل بالله خطأ فسنة وفاته الحقيقية هي 247هـ/861م).

وبعدما تناول مآخذ سيرة النعمان بالاستعراض العام قال: ولو أن الخيرات الحسان مشهور للغاية لأجل نسبته إلى ابن حجر المكي ولكنه ليس بتأليف مستقل بل هو ملخّص عقود الجمان وقد اعترف بذلك كاتبه في مقدمته ويبدو من مقدمة قلائد العقيان أن معظمه مأخوذ من كتاب القاضي الصميري (الصيمري)، وعقود الجمان الذي هو كتاب جامع للغاية من مؤلفات الحافظ أبي المحاسن محمد بن يوسف بن علي الدمشقي الصالحي نزيل برقوقية --- والذي كان تلميذاً للإمام السيوطي وممتازاً في فن الحديث ومن حواشي الإمام الموفق الخوارزمي". (سيرة النعمان، ص 10-11).

منايع المصادر والكتب: ومن أعظم تقليد تطوّر العلوم والفنون بل من أعجب التقاليد أن العديد من المآخذ والمصادر كانت تنحصر في مصدرين أو أكثر من المصادر السابقة ولا نتحدث هنا عن الكتب التي تدلّ على اعتبار الكتب المتأخرة كمأخذ بل عن التقليد الذي يدلّنا على مأخذ كتاب قيّم كبير وهكذا يتبع في العلوم العديدة من مثل النثر والشعر، والعلم والأدب، والتاريخ والسيرة كما يحدث في مختلف أنواع علم أو فن إلا أن البحث عنها لا يمكن إلا بمن له خبرة تحقيقية ولقد قام العلامة شبلي باكتشاف أمور عديدة لاطلاعه الواسع على المآخذ والمصادر.

ولقد اعترف الإمام الغزالي في كتابه القيم "إحياء علوم الدين" الذي يذكره العلامة شبلي عادة بـ "إحياء العلوم" بعدد مصادره ومآخذه فعلاوة على القرآن والسنة أحصى العديد من كتب التصوف والأخلاق فقام العلامة شبلي بالبحث عن مصادره وحصرها في ثلاثة: الرسالة القشيرية للإمام القشيري، وقوت القلوب للشيخ أبي طالب المكي، والذريعة إلى علم الشريعة للإمام الراغب الإصفهاني فقوت القلوب مصدر أولوي له ولو قمنا بالمقارنة بينهما، كما يقول العلامة شبلي، لتخلصنا إلى سرقة الإمام المحترم للمصدر الأخير فلا نجد فرقاً لكلمة أو كلمتين في العديد من أسطر "الإحياء" ففي بعض الأحيان يضع مرادفاً لكلمة" وقد استدلل على قوله بالمقارنة بين جمل كلا الكتابين فاستنتج أن "إحياء العلوم" مأخوذ إلى حد بعيد من قوت القلوب والرسالة القشيرية والذريعة للراغب الإصفهاني" وقد صرح في الهامش أن العلامة ابن السبكي أشار إلى كون الرسالة القشيرية وقوت القلوب من مصادره "وأما كون الذريعة مأخذاً له فيبدو من المقارنة بينهما وقد جاء في كشف الظنون أن الإمام الغزالي كان يدرس الذريعة كثيراً ---" (الغزالي، 50-51، الهامش: 1)

ومصدر "شاهنامه فردوسي" الأصلي هو شاهنامه لدقيقي والتي بدأت على تشجيع من نوح بن منصور فقال العلامة شبلي: لما تأثر الفردوسي من شاهنامه دقيقي أراد أن يكتب شاهنامه فوضعه كأسوة له" (شعر العجم، 1/40 وما بعدها، 1/100 وما بعدها) وكذا اعتبر العلامة شبلي مصدراً لشاهنامه كتب العرب التاريخية التي ترجمت إلى العربية من الفارسية أو كتب بالعربية ذاتها (شعر العجم، 1/108 وما بعدها) ولكن هذه الكتب التاريخية كانت مأخذ للمعلومات لا لشاهنامه ذاتها.

مناقص المآخذ القديمة: كان العلامة شبلي النعماني المفتخر بتراته العلمي والفني وبمآثر سلفه الصالح خبيراً وناقداً معاً، إنه كان رافع راية القديم الصالح والجديد النافع وعلى فطرته المتوازنة والمقتصدة فكان يكشف عن مساوئهما فإنه كان عارفاً بمناقص المآخذ القديمة وقد جعله أصول وأعمال فن التاريخ الغربي الحديث أبعد غوراً فإنه كان يرفع القناع عن مناقص ومساوئ وزلات مصادر السيرة والتاريخ القديمة والمصادر الإسلامية الأخرى وكان يصحح عما كان يعرقل سبيله في اكتشاف المرء وعهده ورسم شخصيته.

فبعدهما ذكر فهرست مصادر ومآخذ المأمون وأثنى عليها يشير إلى مناقصتها من بعيد ---
"ولكنه إذا أراد أحد بعد قراءة هذه الكتب التاريخية كلها أن يعلم ماذا كانت حضارة
عصر ومعيشتته وماذا كانت نظم الحكومة وقوانين فصل القضايا، وكيف كان خراجها
وكيف كانت قوته العسكرية، وماذا كانت وظائف الحكومة فلم يقدر على الحصول
عليها وكذا إذا أراد أحد أن يتعرف على طرق وتقاليد الحاكم وسجاياه وعاداته بكل
التفاصيل لصعب عليه العثور عليها فالوقائع التي فصلها هي عن تولي عرش الحكم
والنزاعات الداخلية وفتوح البلدان والثورات الداخلية وعزل العمّال ونصّبها، ولقد
جمعت هذه الوقائع بأسلوب غير علمي يصعب للمؤرخ العثور على أسبابها وعللها
واستنتاج أمر تاريخي دقيق". ثم ذكر الأمثلة من عهد المأمون (المأمون، ص 10-11،
أسباب الثورات، سلسلة الوقائع، التدقيق الفلسفي واستنباط نتائج التاريخ).

وبعدما ذكر أهم مصادر سيرة النعمان وشكا عدم توفيرها علّق العلامة شبلي: لقد
رأيت تلك الكتب في رحلتي إلى روما ومصر ولكني لم أجد منها ما يزيدني علمًا أو يفيدني
في تأليف هذا الكتاب" (سيرة النعمان، ص 10، الهامش)

وقال العلامة شبلي بعدما نقل تعاريف التاريخ: ونظرًا لهذه التعاريف لا بد من أمرين
للتاريخ أولهما ذكر كل نوع من وقائع العصر الذي نريد ذكر أوضاعه أي نجمع المعلومات
عن كل من الحضارة والمعيشة والأخلاق والعادات والدين والآخر هو البحث عن السبب
والمسبب في كل منها والواقع أن كتب التاريخ القديمة خالية عن كليهما" ثم فصل القول
بأن هذا النقص لا ينحصر في كتب التاريخ الإسلامية بل يوجد في كتب التاريخ الآسيوية
كلها ولم يكن بد من أن يكون هكذا" لأن التاريخ كان يرتكز على السلطان والذي يسمّى
الآن Rex-Centric. ولقد قدّم العلامة شبلي خطوة وادّعى عدم اكتمال تاريخ كل قوم
وملة، ودعواه هذه صحيحة لأنها موزعة في مختلف الأقسام لعلاقتها بها وهي لم تكن
توجد في مآخذ التاريخ فحسب" (الفاروق، ص 9-10)

وبعدما ذكر العلامة شبلي المآخذ التاريخية العامة للإسلام تناول بالنقاش مآخذ الفاروق
وقال إن التراجم لا توقّر لنا واقعة كل نوع" إلا أن الكتب الأخرى يمكن بها سدّ ذلك
النقص مثلما يوقّر لنا المعلومات عن نظم الدولة الأحكام السلطانية للماوردي ومقدمة

ابن خلدون وكتاب الخراج، وعن قسم العدل والقضاء أخبار القضاة لمحمد بن خلف الوكيح، وعن أوائل الفاروق كتاب الأوائل للعسكري ومحاسن الوسائل، وعن الخطب العقد الفريد والبيان والتبيين، وعن الأخلاق والعادات سيرة العميرين لابن الجوزي، وعن فقهه واجتهاده إزالة الخفاء للشاه ولي الله الندوي. (الفاروق، ص 13-14)

وعلاوة على المؤلفات القديمة قد أشار العلامة شبلي إلى مناقص الكتب المأخرة لاسيما عن سيرة النبي إلا أنه يعترف بأن أصحاب المصادر القديمة كانوا أسارى على يدي طريقتهم الخاصة وكانوا مضطرين إلى ذلك، وأما العلامة شبلي فقد استفاد من أصول التاريخ الجديدة وربط التاريخ بكلا الأصلين الرواية والدراية. وتوجد في المصادر القديمة مناقص أخرى أشار إليها العلامة شبلي مما يدلنا على طريق سوي.

المقارنة بين المأخذ والمصادر: ولقد التفت العلامة شبلي إلى مصادر ومأخذ السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي لمجرد ولعه بالفن، ولهذا سبب آخر وهو أنها كثير عددها وقد تطوّر هذا الفن في كل عصر كما أصابه التدهور فيما بعد، وأقام العلامة شبلي عهدًا للتطور في بحثه عن مأخذ سيرة النبي كما اكتشف عهد الزوال فيعتبر العلامة شبلي القرن الرابع/القرن العاشر عهد القدامى الذي كان عهد التطوّر على الرغم من المناقص التأليفية، ويبتدئ عصر المتأخرين من القرن الخامس والذي هو أول خطوة لزوال فن التاريخ ولو أن عددًا كبيرًا من المؤرخين كانوا فيما بين المؤرخين بمن فهم ابن الأثير والسمعاني والذهبي وأبو الفداء والنويري والسيوطي وهؤلاء كانوا مشهورين للغاية ولكنهم لم يمتنوا على التاريخ كفن فضيّعوا خصائص القدامى ولم يخلقوا شيئًا جديدًا ثم قارن العلامة شبلي خصائص القدامى وخرافات المتأخرين والذي هو شيء جديد بالنسبة للمأخذ والمصادر (الفاروق، ص 8، ولقد ذكر العلامة شبلي عهد التطور والزوال في مؤلفات ما قبل هذا العهد إلا أنه بحث موجز).

وقد عقد عنوانًا بـ"تذكرة" في مقدمة سيرة النبي فقال: ولو أننا نجد اليوم المئات من الكتب في سيرة النبي ولكن كلها تنتهي على ثلاثة أو أربعة كتب وهي سيرة ابن إسحاق والواقدي وابن سعد والطبري، وما جاء بعدها من الكتب هي متأخرة عنها وما ذكر فيها من الوقائع كلها مأخوذة منها ---- ومنها الواقدي الذي يستحق ألا ننظر إليه البتة فينتفح المحدثون على أنه كان يضع الأحاديث من لدنه ويشهد بذلك تأليف الواقدي

ذاته --- ومن سوى الواقدي يجدر أن نثق بهم"، ولقد ضعّف العلامة شبلي رواة ابن إسحاق بكل من التفصيل، والبكائي ولوله منزلة إلا أنه أسفل من المحدثين --- وأما ابن سعد فنصف ما يرويهِ من الواقدي فدرجة تلك المرويات هي درجة ما يروي الواقدي، ومن بقي من الرواة بعضهم ثقة وبعضهم غير ثقة، وكذا كبار شيوخ الطبري مثل سلمة الأبرش وابن سلمة ضعفاء ---" (سيرة النبي، 1/48-49 وما بعدها، وقد اعتبر ثلاثة كتب مصادر لفن السيرة في مجموعة رسائله ألا وهي ابن هشام وابن سعد والطبري، 20/1)

وضمن مصادر ومآخذ الفاروق الخاصة أثنى على إزالة الخفاء للشاه ولي الله الدهلوي بالنسبة لفقهِ واجتهاد عمر فقال: لقد ناقش الشاه ولي الله بأسلوب اجتهادي لا يمكن لنا أن نزيد عليه" وقد استفاد العلامة شبلي من إزالة الخفاء أكثر من استفادته من مؤلفاته الأخرى ولو أنه التفت عن بابه في تصوّف الفاروق، وفي جانب آخر أشار إلى اعتبار الشاه ولي الله كتاب رياض النضر لمحب الطبري مأخذًا ثم قال: فيه كثير من الموضوعات فصرفت عنه الذكر صفحًا" (الفاروق، ص 14 وما بعدها، وعلى نفس السبب لم يلتفت العلامة شبلي إلى روايات ابن عساكر وحلية الأولياء، ص 17 لأنها لم تكن صحيحة بل مثل هذه الروايات مما خلقه مجالس السمر ويشهد بها أنها لم ترو في الكتب الموثوق بها أو تقل روايتها" (استعراض شبلي هذا ممتع وسنتناوله بالبحث فيما بعد إن شاء الله)

وقد وضع العلامة شبلي أصلًا في مقدمة الفاروق الأولى ومقدمة سيرة النبي المفصّلة، وهو أنه كلما استخدم المحدثون والمؤرخون الدراية قل في الروايات الشك فقد ذكر كل من ابن عساكر وابن سعد والبيهقي ومسلم والبخاري أخبار فدك والقرطاس وسقيفة بني ساعدة ولكنه كلما اختلفت أصولهم لينة وشدة قلّت أمور تثير الشك والسؤال حتى نجد مثل هذا الفرق بين مسلم والبخاري وسنتناول هذا بالتفصيل في مناسبة إن شاء الله" استعراض شبلي هذا كما يشير إلى دقته فكذلك يدعو إلى دراسة مقارنة لأحاديث الصحيحين ولا شك أن هذا الفرق نشعر به في مسلم (الفاروق، ص 16 ثم ناقش العلامة شبلي الكتب الجديدة لأنها مليئة بالفلسفة والإنشاء --- ولكن من واجب المؤرخ الحقيقي أن لا يتجاوز ذكر الواقعة كما هي" إلا أنه يعدّ التحليل من واجبات المؤرخ)

وقد ناقش العلامة شبلي أصول الرواية والدراية وقام بالمقارنة بين المصادر الأولية للسيرة والحديث وقال إن الروايات الضعيفة تكثر أو تقل قدرما يشتد استخدام هذه الأصول وعلى هذا فنجدها شديدة في أبرز وأقوم مؤلفات الحديث (سيرة النبي، 71-49/1 وما بعدها، وقد ذكرت الأمثلة على هذا من مختلف الكتب)

ومن جهات مقارنة شبلي للمصادر والمآخذ أنه يذكر مختلف المصادر في المتن أو الهامش ثم يقوم بالتطبيق بينها أو يشرحها أو يبيتها كما يشير إلى تفرّد مأخذ أو مأخذين، وقد تحدثنا عن هذا في المأمون حين ذكر الإحالة وهكذا يدل على الفرق بين متون النصين مثلما فعل باتفاقيات تقسيم المملكة المذكورة في كتاب أخبار مكة للأزرقي وتاريخ اليعقوبي وستجد أمثلة كثيرة على هذا في المأمون (المأمون، ص 31 الهامش: 1 وص 90-91 الهامش: 1 وهذا المبحث مهم للغاية)

وقد طوّر العلامة شبلي في "الغزالي" هذه الطريقة للنقد والتحليل وقد أصبحت فكرته وكتابه ككتابه ناضجة فمثلاً أن الإمام الغزالي قد عدّ من طلبته 300 طالب في كتابه "المنقذ من الضلال" بينما زعمهم العلامة مرتضى البلغرامي أساتذة فطبّق العلامة شبلي بينهما بأن الطلاب الذين كانوا يتعلّمون عليه يصبحون أساتذة وكانوا يسمّون معلّمين ولم يشير إلى كون الأمراء والرؤساء من بينهم سوى العلامة البلغرامي" وكذا قال عن عرفانه إن المؤرخين قد اختلفوا في حالته هذه ولكني اتكلت على كتابات الإمام الغزالي ذاتها والتي جاءت في سيرته الذاتية "المنقذ من الضلال" وأما تعليقات العلامة شبلي على اعتراضات معارضييه فهي رائعة وكذا قام العلامة شبلي بالدراسات المقارنة بين مختلف الروايات والوقائع (الغزالي، ص 12 و 17، الهوامش: 22)

ومثل هذا الجانب نراه في الفاروق وسيرة النعمان وسيرة النبي وشعر العجم فمثلاً أن العلامة شبلي يذكر مختلف الأقوال عن رواية أبي حنيفة عن الصحابة مباشرة ثم يوضّح أنه لا بد من كون الراوي بالغاً من العمر 20 لدى أصحاب الكوفة وعلى هذا فلم يرو أبو حنيفة عنهم وكذا يردّ الروايات التي تدلّ على كون الإمام أبي حنيفة من التابعين بناء على عدم روايته من الصحابة مباشرة، وأما دراسة شبلي لواقعة القرطاس عند موت الرسول الخاتم صلّى الله عليه وسلّم فهي تبني على دراية نقدية

للروايات وهي رائعة إلى حد بعيد وهكذا نجد العلامة شبلي يناقش ما حدث مع عمر الفاروق لما بلغه نعي الرسول العربي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومما يعجبنا أن العلامة شبلي قام بالتطبيق بين الروايات في كتابه "سيرة النبي" فما قام بترجيح البعض وما قال بالتعددية مثل ما كتب عن رفقاء النبي في أول رحلته إلى الشام، وقصة بحيرا الراهب، وزواجه من زينب، وما سواها من الوقائع والأحداث (سيرة النعمان، ص 18-19، وأيضًا ص 26-27، و32، و45 وما بعدها، والفراروق، ص 54-58 ولترجع مقالة هذا العاجز عن خطبة عمر الفاروق المنشورة في مجلة "معارف" الشهرية، أعظم كره، يونيو، 2007م، وسيرة النبي، 1/178-181، 441 وما بعدها)

(الألف) دراسة نقدية وتحليلية للمصادر الأولية: وبجانب الإشارة إلى مناقص المصادر والمراجع نرى في كتابات العلامة شبلي دراستها التحليلية والنقدية وذلك لأنهما متلازمتان، ولقد صرح العلامة شبلي غير مرة في المأمون وسيرة النعمان وغيرها من السير والتراجم أنه يمكن أن نستفيد من هذه المصادر القديمة في السير والتراجم وكذا استفاد منها هو بنفسه لأنها هي التي تحوي معلومات ضرورية ولكن تلك المصادر لا تكفي الجزء الثاني للبحث لأنها تفقد المعلومات التي يحتاج إليها المحقق، وقد قرأنا شكوى العلامة شبلي ما عاناه من المشاكل في إعداد الجزء الثاني من المأمون وهو يقول في سيرة النعمان: أخذت الجزء الأول من كتابي هذا والذي يحتوي على معلومات عن حياة أبي حنيفة عن تلك الكتب ولكن الجزء الثاني الذي يتحدث عن اجتهاد الإمام أبي حنيفة وأسلوب استنتاجه لا تفيه هذه الكتب كلها لأنه لم تكن تكتب السير والتراجم في القديم أن تحتوي على كافة قضايا الشخصية مع ترجمتها ولا شك أننا نجد في المناظرة وحماية الحق كتبًا يمكن بها استعراض تلك القضايا والمسائل في ضوءها" ثم ذكر اعتراضات ابن أبي شيبه وأجوبة قاسم بن قطاوبغا (ت879ه/1474م) والرد المنخول لشمس الأئمة الكردي وكتب الشيخ أكمل الدين البابري (ت786ه/1384م) والشيخ أبي عبد الله الجرجاني (ت397ه/1007م) والانتصار لإمام أئمة الأمصار للمؤرخ سبط بن الجوزي وكتابه الآخر الذي قال عنه صاحب "كشف الظنون" (هذا الكتاب فاقد النظير في الموضوع) والانتصار والترجيح لعمر الموصلي وكتاب الإبانة لأبي جعفر أحمد بن عبد الله

ثم أشار إلى فقدانها واعتبر رسالة العلامة الكردي غنيمة باردة فقال: قد أخذت بعض الأشياء منها وأما الباقي فهو مما تتبعته وحققته ---" (سيرة النعمان، ص 11-13 وقد اختار العلامة شبلي طريقتين لنقد الكتب والمصادر وتحليلها أولاهما أنه يدلي برأيه وأخراهما يستدل برأي عظيم كعادة من سلف من المحدثين والمؤرخين وللعلامة شبلي طريقة ثالثة لتصحيح والنقد وذلك أنه ربما يردّ من سلفه).

ولقد كتب العلامة شبلي دراسة علمية نقدية ولو موجزة على مأخذين لترجمة الإمام الغزالي أولهما كتاب ألفه العلامة المحدث ابن عساكر الدمشقي والواقع أن هذا الكتاب في سيرة الإمام الأشعري ولكنه يشمل تراجم الأشاعرة المشهورين وهذه المناسبة ذكر ترجمة الإمام الغزالي، وبما أنه يحيل إلى عبد الغافر الفارسي الذي كان معاصرًا للإمام الغزالي ولذا فكل ما كتبه يوثق به ---" والمأخذ الثاني مما كتبه العلامة ابن السبكي الذي كان محدثًا كبيرًا ولقد ألف هذا الكتاب بحيث لا يعادله كتاب في الرجال فكل ما قرره من المعلومات عن الإمام الغزالي لا يوجد في كتاب غير هذا دع أن يزيد على هذا فقد اتكلت على هذين المصدرين في ترجمة الإمام الغزالي. وأما أصول الإمام الغزالي ومسائله فيكفيني مؤلفاته التي أملك قدرًا كبيرًا منها" (الغزالي، ص 2، وكذا يمتعنا استعراض العلامة شبلي لثلاثة مأخذ إحياء العلوم للغزالي "فلو أن قوت القلوب قد وضع كافة عناوين الأخلاق إلا أنه تأليف يغلبه النصح والوعظ ويوجد في الذريعة لمحات للفلسفة ولكنها قليلة ومع هذا فهي مغلوقة بالروايات الدينية حتى لا يكاد يراها البشر"، الغزالي، ص 46)

وبجانب السيرة والترجمة فقد اختار العلامة شبلي نفس الطريقة في تحليل المصادر النقدية في التاريخ والأدب والشعر فقد قام العلامة شبلي بنفس التحليل العلمي في مصادر ومأخذ كتابه الشهير "شعر العجم" ورواياته وأخباره، فاعتبر مجمع الفصحاء لهدايت قلي خان "أوثق ترجمة لزمانه" (15/1) وهو كتاب ألف بالفارسية في زمن قاجار، وكذا قال مناقشًا علم وفضل السلطان محمود الغزنوي "إن جواهر مضيئة الذي أوثق مصدر لتراجم فقهاء الأحناف فأعدّه من الفقهاء لأنه ألف كتابًا مفصّلًا في

العدد الخاص مجلة الهند

الفقه (شعر العجم، 51؟1) ويوجد في ديوان الشاعر عنصري 172 شعراً بينما يوجد في تذكره دولت شاه 180 شعراً (1/59، وكذا 1/67، 84 وما بعدهما)

ونجد لديه تحليلاً نقدياً للعديد من مصادر ومآخذ سيرة النعمان والفاروق وسيرة النبي وشق رواياتها ولقد قال العلامة شبلي بتلمذ أبي حنيفة لكل من الإمام باقر والإمام جعفر والاستفادة منهما وعلى هذا فهو يفند رأي الإمام ابن تيمية بعدم تلمذه لهما وكذا ذكر أن يثبت أن الإمام أبا حنيفة تلمذ للإمام الأوزاعي في فن الحديث (سيرة النعمان، ص 40-41 وما بعدهما وكذا لا نتفق مع رأي العلامة شبلي هذا كما قال بعض الأحناف إن الاستفادة شيء آخر غير التلمذ (الفاروق، ص 60 وما بعد مناقشة شبلي لخلافة أبي بكر الصديق وكذا مناقشته لفتح الباري ومسند أبي يعلى وغيرهما، والتطبيق والترجيح بين مصادر ومآخذ الفتوحات الفاروقية، سيرة النبي، 1/240 وما بعدها، وتحليله النقدي للطبري وابن سعد والكتب الأخرى للتاريخ في حديثه للغرانيق العلى وهامشه)

تحليل نقدي لآراء العلماء عن المآخذ: ومن الطبيعي أن الناس يقبلون كل ما روي في المصادر والمآخذ الأصلية ظانين أنها صحيحة وأما بالنسبة للثقات من الكتب والمؤلفين فيقبلهم القراء لفضلهم وتكريمهم ولاسيما إذا وثق بمصدر خاص عالم من العلماء أو شهد بثقته ولكن العلماء والمحققين لا يقبلون سوى رأي صح أو سدّ فيردون ما لا يصحّ لديهم من الآراء والأفكار فكان العلامة شبلي من عظماء العلماء والباحثين الذين يختلفون عن آراء الكبار ويفندونها إذا احيج إليها ولم يكن يفصل عن شيء لإثبات فكرته بل كان يفعل ذلك لكي يكتب تاريخاً صحيحاً وكان يستدلّ على ما كان يرى. إنه كان ينتقد عن طريقتين: لتصحيح الرواية والواقعة وتضعيف وتوثيق مأخذ أو مصدر من قبله. كان صاحب كشف الظنون مفرساً كبيراً وخبيراً بالعلوم والفنون ولكن العلامة شبلي اختلف عن رأيه أو خبره فمثلاً أن صاحب كشف الظنون نسب واقعة لكتاب الحكيم المشهور الفارابي إلى عهد منصور بن نوح وكتب أن هذه الواقعة المذكورة في معظم الكتب كما قلت فردّه العلامة شبلي بناءً على تفاوت سني وفاة الفارابي (ت339هـ/950م) والمنصور (ت350هـ/961م) وقال إنها تتعلق بعصر قبل وما يرى صاحب كشف الظنون لا يصحّ (شعر العجم، 1/23،

العدد الخاص مجلة الهند

الهامش:1) ولقد اختلف العلامة شبلي عن العديد من العلماء والناقدي المصادر وبيّن خطأهم (189/1-190، الهامش:1 وكذا واقعة توبة الحكيم سنائي واجتنابه عن كتابة القصيدة، واستدراك فرشته على رواية نفحات الإنس، وما سواهما من الأمور)

ونجد كذلك أنه يسلك نفس الطريق في كتب التاريخ ونقده للعلماء والمؤرخين حتى يشتدّ في بعض الأحايين؛ وقد أنكر الإمام ابن تيمية مأخذ وروايات الإمام جعفر أستاذ أبي حنيفة فاعتبره العلامة شبلي سوء أدب لابن تيمية وتعلّيه وكذا انتقد مأخذ يعتبر مسند الخوارزمي مسند الإمام أبي حنيفة، وانتقد الشاه ولي الله على أنه شدّد عليه وضعّفه (سيرة النعمان، 41، 106، وكذا الصفحة 108، وكذا عدم موافقته على نقد كتب الرجال الشديد على أبي مطيع البلخي وإنكار كون فقه أكبر من مؤلفات أبي حنيفة وغيرهما) وهكذا اختلف العلامة شبلي عن تحليلات وانتقادات العديد من المهرة في كتابيه الفاروق وسيرة النبي ونجد أمثلته في الغزالي وعلم الكلام وما سواهما من الكتب فمثلاً أنه نقل رواية محب طبري في الفاروق بأن عمر الفاروق كان يمنع مسؤوليه عن توظيف النصارى ومن الأسف أن الشاه ولي الله قد قبل هذه الرواية ولكن من قرأ كتاب "رياض النضرة" لمحّب طبري يقدر في أول وهلة منزلة رواياته، (263/2)

الموازنة بين المآخذ القديمة والكتب الجديدة: قافلة العلم والتحقيق تسري دائماً من القديم إلى الحديث وإلى الأحدث وتزداد يوماً فيوماً، وكان العلامة شبلي لاطلاعه الواسع وحدة ذهنه يقف عليها وكان دائماً يوازن بين القديم والجديد، ويمكن لنا أن نشاهد هذه الموازنة بين المآخذ والمصادر في كافة مؤلفاته ومقالاته ولك أن تقرّأ كتبه المأمون وسيرة النعمان والغزالي والفاروق وسيرة النبي وشعر العجم وعلم الكلام وغيرها من الكتب والرسائل وكذا نجده يقارن بين منزلة المآخذ وقيمتها وحدثة المعلومات والتحقيقات فمثلاً أنه قارن، في كتابه شعر العجم، بين أفكار العرب القدامى والفلسفي الجديد جون استورت مل في تعريف الشعر وفي النهاية يحكم قائلاً: ولو أن تعريف السيد مل ينحصر في التدقيق الشديد ولكنه يضيّق نطاق الشعر وإن اعتبرناه مستوى لما بقي بأيدينا من الشعر الفارسي والأردوي والواقع أن نطاق الشعر ليس

بضيق كما فهمه السيد مل ولا واسعاً إلى قدر ما يراه علماء الأدب عندنا" (شعر العجم، 13-10/1 وما بعدها ثم نقل حقيقة الشعر من كتاب "جمهرة البلاغة" للإمام عبد الحميد الفراهي واعتبره تعريفاً لطيفاً نادراً وقبل ذلك أثنى على تحقيقات الباحثين الأوربيين أمثال وارمسيتر ووالنتن زدوكوسكي ونولديكه وسرغورائي وبراون الذين قد ذكرناهم في مآخذ المقدمة وكذا أشار إلى غيرها من التحقيقات الجديدة)

وفي الغزالي نقل تحليل جورج هنري حين الموازنة بين فلسفات إحياء العلوم والفلسفي الأوربي ديكرت وقال إنه ولو ترجم إحياء العلوم إلى اللغة الفرنسية في زمن ديكرت الذي يعتبر مؤسس الفلسفة الجديدة للأخلاق في أوروبا لقال الناس إنه سرق فلسفة الإحياء (الغزالي، ص 47 أخذاً من تاريخ الفلسفة، لندن، 50/2) وقد ذكر آراء العديد من العلماء وتحقيقاتهم في الغزالي ثم قارن بينهما، وقد حاولت جماعة من المستشرقين بمن فيهم شيلدن إيموز (Sheldon Amos) أن يثبتوا أن الفقه الحنفي مأخوذ من قانون الروم فانتقدهم العلامة شبلي موازناً بين المأخذين (26، 202 وما بعدهما) وقد أثنى على بحوث وتحقيقات المستشرقين في الفاروق وسيرة النبي كما وازن بينهم وانتقد أفكارهم وتعايرهم نقداً لاذعاً.

عجز التحقيقات الحديثة: ومن المباحث الرغيبية لدى العلامة شبلي المقارنة بين المصادر الأولوية والمصادر الثانوية، الأمر الذي يثبت أنه كان يحوي بكافة مصادر البحث الذي كان ينويه كما كان يقدر قيمتها فكما أثنى على البحوث والتحقيقات الحديثة كمثل ما قدمها المستشرقون فكذلك تأسف على فقدهم بصيرتهم العلمية وعجز تحقيقاتهم وينتقد شديداً كل ما صدر قديماً أو حديثاً من البحوث والتحقيقات المليئة بالعصبية، ونرى هذا الجانب العلمي والنقدي للعلامة شبلي في كافة مباحثه العلمية الفنية وهي شاهد عدل على موضوعية بحوثه وتحقيقاته.

فمثلاً أن العلامة شبلي انتقد شديداً البروفيسور براون وسرجان مالكم وغيرهما من العلماء والباحثين بالنسبة للدراسات الفارسية فقد جعل الكاتب الأخير في كتابه عن تاريخ إيران ما وقع عاماً كواقعة حدثت بأن العرب الفاتحين قد دمروا معالم الحضارة

والثقافة الإيرانية خلال هجومهم عليهم وأشعل النار في كتبهم القديمة ولم يكتبوا شيئاً عن تاريخ وثقافة إيران ذاتها، وبعد مضي أربعمئة عام قام منصور الأول أو منصور الثاني بإحياء محامد أسلافه لأنهما كانا من نسل بهرام چوبين فقال العلامة شبلي إن مالكم لا تصح كلمة منه فقد بدأت ترجمة الأعمال الإيرانية وكتابة البحوث العلمية والفنية منذ الخلافة الإسلامية فقد قام جبلة بن سالم كاتب هشام بن عبد الملك بترجمة الكتب الفارسية إلى العربية كما قام بهرام بن مروان وعبد الله بن المقفع بترجمة الكتب في تاريخ إيران ونظم الدولة ثم قدّم العلامة فهرساً للعديد من الكتب وأثبت أن الطبري والمسعودي وأبا حنيفة الدينوري واليعقوبي قاموا بوضع الكتب الضخمة في تاريخ إيران وترك تراثاً علمياً هائلاً وهذا هو التراث العلمي الذي أمّد دقيقي في كتابة شاهنامه ومن ثم فردوسي في كتابة شاهنامه، وكذا انتقد عدم فهم البروفيسور براون الشعر حينما كتب عن شاهنامه فردوسي (شعر العجم، 102/1 وما بعدها، هذا مبحث طويل يقدّم ما وجّهه العرب لإحياء حضارة وثقافة إيران فيقول براون: الشعراء الذين تأخروا عن فردوسي كانوا أعلى منه خيالاً وفكراً" فردّ عليه العلامة شبلي بشعر فارسي يقطع دابر البحث (شعر العجم، 123/1، وقال العلامة شبلي عن فردوسي: فردوسي أخذ كثيراً عن كتب تاريخ إيران التي ترجمت إلى العربية إلا أن تكبره الوطني لا يصبر على منة العرب تلك"، 108/1 ونجد كثيراً من مثل هذه الاستعراضات في كتابه "شعر العجم")

تطور تاريخ فن التاريخ: ولأجل معرفته عن تطور ورقي الحضارة الإنسانية كان العلامة شبلي عارفاً بدوق مختلف الأزمان وعلى هذا فهو يعترف علناً بأني لا أريد من هذا الانتقاد على من سلف من الكتاب فما قدّموه يمتن به المتأخرون ولكن الزمان يترقى فمن ينكره ومن يقول بقرار الزمان وفوق ذلك أن البديهي أن لكل زمن ذوقاً خاصاً فما صرف عنه النظر القدماء طائنين أنه لا يعينهم مرغوب فيه في هذا الزمان - --" هذا الذي سلكه العلامة شبلي في الجزء الثاني للمأمون (المأمون، ص 11)

ولقد تناول العلامة شبلي بالبحث والنقاش تطور ورقي فن التاريخ في المأمون وسيرة النعمان والفاروق حتى في سيرة النبي ونجد بياناته واضحة للغاية في بداية هذه الكتب كما نجد أثرها بيّناً في أواخرها ولقد اعتبر العلامة شبلي المؤرخ المسعودي وابن خلدون خبيرين

بتطور التاريخ ولكنه يثني كثيرًا على البحوث والتحقيقات التي جاءت من الغرب لأنها يرجع إليها فضل تأسيسه، ولقد افتخر العلامة شبلي بتحقيقاته وبعثه حين البحث عن مساوئ المصادر والمآخذ القديمة ورجع فضله إلى الأصول الجديدة وهو على الحق لاسيما تعلم العلامة شبلي كثيرًا في أصول كتابة السيرة وتدوين التاريخ على "الأجانب" (الغرب) وأعمله في كتبه ورسائله، ونرى العلامة شبلي يكرّر منتهم هذه وإن رأينا في هذا المنظور وجدناه يتعرف على تطور ورفق التاريخ وتعريفه على من عاصره من الكتاب والباحثين، ولقد اعترف علماء الغرب باستفادتهم من المؤرخ اليعقوبي وابن خلدون في فلسفة التاريخ وأصول التاريخ والحضارة والحال أن علماء الشرق لا يهتمون بهذه الأصول الحديثة لتدوين التاريخ والسيرة وعلى هذا فهم بعيدون عن التحليل والنقد.

تطور أصول التاريخ الجديدة: كان شعور العلامة شبلي بالتاريخ وإدراكه لرفق التاريخ كلاهما ناضجًا للغاية ولو أنه لم يكن مؤرخًا مدبرًا، ولكنه كان على معرفة تامة للمصادر القديمة والتحقيقات الأوربية الحديثة، الأمر الذي جعله مؤرخًا كبيرًا، ولو أنه لا يذكر كثيرًا إمام التاريخ والاجتماع ابن خلدون ولكنه متأثر تمامًا بفكرته التاريخية وتحليله الاجتماعي فلما يقول العلامة النعماني: إن كل واقعة من تاريخ العالم مرتبطة بسلسلة العديد من الوقائع المختلفة فالبحث عن هذه النزاعات واستنباط النتائج التاريخية بأسلوب ملؤه التدقيق الفلسفي هما روح التاريخ وهذا الذي يفتخر باختراعه أوربا ---" (المأمون، ص 11)

فالبحث عن السبب والمسبب وفهم سلسلة العلة والمعلول وتفهمها للناس أصل تاريخي مرغوب فيه للعلامة شبلي ويتناول هذا الأصل بالبحث والنقاش في كتبه العديدة لاسيما المأمون والغزالي والفاروق وسيرة النبي، ففي مكان يشير إلى واجب مؤرخ أساسي أن يكتب الوقائع بأسلوب بسيط ولا يمزجها بالفلسفة والفكرة بجانب التطبيق بين المصادر والروايات وذلك لأن الاستنباط التاريخي من المواد لن يمكن بدونها كما لا يمكن بناء الشخصية والسيرة، وإعادة عهد الحضارة، وعلى هذا فيعدّ العلامة شبلي من أصول التاريخ الجديدة أن يفحص المؤرخ كل ما توفر له من روايات المآخذ الموجودة ولذلك فهو لا يكتفي بالمصادر والمآخذ التاريخية بل يستفيد من مختلف الكتب والرسائل التي لا بد

للحضارة، وما قدّمه من بحث مشبع عن المصادر والمآخذ في الفاروق قد برز في صورة مقدّمة عظيمة لسيرة النبي تبقى رائعة إلى يومنا هذا. ونظرًا لأصول التاريخ الجديدة هذه فاستفاد منها في الجزء لكتب التراجم والسير وأما جزؤها الثاني فهو مبني عليها فقام بتحليل المواد العديدة من مثل القرآن الكريم والحديث النبوي والفقه والكلام والشعر العربي وما عداها من العلوم الإسلامية.

الطرق العديدة لإحالة شبلي إلى الكتب: ولقد اختار العلامة شبلي طرقًا مختلفة للإحالة إلى المصادر والمآخذ واقتباساتها وترجماتها، وأحدث طريقة في عصره والتي تبقى إلى الآن هي نظام الهوامش (Reference System) ويتبعها الناس كثيرًا، وله طريقة وهي خاصة ذكر المصدر والكتاب في المتن وهو يشمل بيان المؤرخ والمترجم والمحدث، والطريقة الثانية هي أنه يذكر المصدر في بداية المتن أو وسطه، والطريقة الثالثة هي أنه يذكر الحادث كله بلسانه ثم يشير إلى مصدر أو أكثر في الهامش، والطريقة الرابعة هي أنه ينتقد بيانات المتن والهامش ونجد أمثلة عديدة لذلك في كافة مؤلفاته وربما اتفق أنه نسي المصدر كله فوضعه مرتبه السيد سليمان الندوي أو من قام بترتيب كتبه ثم صرّح عن هذا كما أن هناك مواضع جانب العلامة شبلي ومرتب كتبه ذكر الهامش أو ذكروه ولكن في نقص (المأمون، ذكر المآخذ في المتن، ص 25 كتب الأصمعي ونجد كثرة كاتبة لمثل هذه الإحالات بل في كل كتاب له، لم يذكر، ص 37-59 وما بعدها، كما فاتته ذكر العديد من المصادر لا في المتن ولا في الهامش)

(لم يحل إلى مصدر حين البحث عن تلمذ أبي حنيفة للإمام باقر وجعفر الصادق في سيرة النعمان، 40-41 وما بعدهما، ونجد في الغزالي والفاروق وسيرة النبي عديدًا من المصادر المذكورة بينما نفقدها في بعض الأماكن ونفس الأمر حدث مع كتب أخرى)

ومن جهات إحالة العلامة شبلي الممتعة أنه يقوم بالمقارنة بين معلومات مصدريه أو أكثر فمثلاً أنه ذكر نص الاتفاقية التي كتبها هارون الرشيد لقسمة السلطنة فيما بين أولاده الثلاثة وقال شبلي إن الأزرق قد ذكر هاتين الاتفاقيتين في كتابه "تاريخ مكة" بينما نقلهما اليعقوبي بشيء من الاختلاف (المأمون، ص 31، الهامش: 1) ولشبلي إحالة مقارنة وهي "لم يقل أحد من مصنف العيون والحداثق والكامل ومقدمة ابن خلدون وأبي الفداء عمّ قتل الطاهر ولكن هذا من عادات المؤرخين العرب أنهم يكتبون

الأحداث بأسلوب بسيط ولا يناقشون هذا إلا ابن خلكان الذي فصل هذا الحادث وبما أن أحال إلى تاريخ موثوق به ألا وهو تاريخ هارون بن عباس بن مأمون الرشيد فما كتبه هنا أخذته منه" (المأمون، ص 90-91)

دراسة المصادر التحليلية في اكتشاف شخصية العهد: سواء كانت ترجمة شخصية أو اكتشاف العهد أو رسم الحضارة والاجتماع لا يفيد المأخذ القديم البتة كما يقول العلامة شبلي إلا أنه يمكن أن نستفيد منه عن طريق تحليل رواياتها ومعلوماتها وكذا حدث. وفي هذا الأمر يعترف العلامة شبلي بإفادة تطور فن التاريخ والسيرة وطريق أوربا للتحليل والكتابة في هذا الشأن، وفي ضوء أصول التاريخ الجديدة هذه وتحت ظلال فكرته المحللة والناقدة عقد باباً آخر في كتابة السيرة والتاريخ ففي البداية كما يكتب سيرة الشخصية البسيطة ويجد فيه المصادر القديمة مفيدة للغاية بينما يجد في الأخير أنها لا تفيد وقد أشار إليهما في كافة مؤلفاته بصراحة.

فهو يقول في المأمون: "--- قسمت هذا المؤلف إلى جزئين؛ ففي الجزء الأول ذكرت الأحداث العادية التي نجدها عادة في كتب التاريخ أي مولد المأمون وولايته للعهد وتوليّه للعرش والنزاعات والثورت الداخلية وفتوح الدولة ووفاته وأما الجزء الثاني فهو يفصل تلك الأشياء التي نقدّر بها نظم المأمون السياسية وأوضاعه الاجتماعية. ولو أني لم أتكلم على كتب التاريخ المخصوصة في البحث عن الأحداث لدى إعداد هذا الجزء فأخذتها حيث وجدتها في التراجم والطبقات والجغرافيا المحلية والرحلات والخرائط إلا أني قد حذرت كل الحذر في أن أكتب كل ما أكتبه في ضوء الروايات الصحيحة الموثوق بها ---" وبعدما شكنا مناقص المؤرخين القدامى قال في الجزء الثاني للمأمون: ولو اضطرتت إلى تصفح الآلاف من الصفحات للعثور على أوضاع الصنف الثاني ولكن المواد التي قد تجمعت لي أظنها كافية لي وأشكر القدامى على أنما بيدي مما وقروه هم أنفسهم --- إلا أنهم قد خلفوا ورائهم مشقة التدقيق والحصول على المعلومات عن مختلف الأحداث المبعثرة والخاملة الذكر" (المأمون، 11، 124-125)

وفي الواقع أن المؤرخ يضطر إلى كتابة التاريخ واكتشاف الحضارة وبنائها في ضوء دراسة المصادر التحليلية ولقد عمل شبلي هذه الطريقة بكل جرأة في كتبه من المأمون إلى سيرة النبي وتعرض لمن كان يعلق بالروايات والحال أن هؤلاء النقاد والمعترضين عليه قد

استفادوا من طريقته هذه إلا أنهم لم يشكروا إحسانه إليهم، وفي الغزالي استفاد العلامة شبلي من كلتا الطريقتين فلم يجمع المعلومات في الغزالي من مختلف المصادر فحسب بل قام بالتطبيق بين اختلافها وتنوعها أو انتقدها وقام بتصحيحها، وأما الجزء الثاني للغزالي فقد تناول فيه مؤلفات الإمام الغزالي بالبحث وناقش نسبتها الصحيحة إليه كما ذكر خصائصه وأفكاره، ولم يستفد فيها من كتب التاريخ فحسب بل استفاد من كتب العلوم الإسلامية الأخرى (الغزالي، ص 1-30، 31-حتى النهاية والهوامش عليها، وخصائص إحياء العلوم)

ونفس الطريقة اتخذها العلامة شبلي في سيرة النعمان فقسمه في جزئين فالجزء الأول مأخوذ من عامة كتب التراجم ومؤلفات أبي حنيفة الأخرى بينما الجزء الثاني فلم يستفد فيه من هذه المصادر بل استفاد فيه من كتب المناظرة والنقد " وما بقي فهو من تتبعه لكتب الحديث والفقه " ثم بيّن طريقة تحقيقه وكتابته وعلاوة على المدخل قام في الجزء الأول عامة وفي الثاني خاصة بدراسة تحليلية للمصادر (سيرة النعمان، ص 11-13، بحثه عن عدم كون زوطي بن ماه رقيقاً، ص 14-17 وبحثه عن عدم روايته من الصحابة، ص 18-22، بحثه عن تابعية الإمام أبي حنيفة، وتعلم أبي حنيفة علم الحديث والفقه وأساتذته)

وكذا قسم الفاروق وسيرة النبي إلى جزئين يشتملان على الوقائع البسيطة واكتشاف العهد، ففي الفاروق حلّل المصادر في البحث عن الأخلاق والأفضال علاوة على تحليل أسباب الفتوح ونظم الدولة والمال والجيش ونفس الأمر نجده في كلا المجلدين لسيرة النبي فقداختار طريقة التحليل في الوقائع وأسبابها وهكذا نجد في هذين الكتابين الرائعين نماذج لتحليل ونقد المصادر والمعلومات ومن مباحث الجزء الثاني لسيرة النبي تحليل مآخذ حياة الأمن الإسلامية، وفود العرب، والعبادات والمعاملات والمناهي والشمائل والعادات (الفاروق، 1-202، من 2 حتى النهاية، نظرة سارحة على الفتوح، مختلف أقسام نظم الدولة، أشغال التعليم والدين، الإمامة والاجتهاد، وسيرة النبي، 170/1-199 وما بعدها و129-1/2 وما بعدها، أبواب بناء وإكمال الشريعة، 100-150، والعادات والمجالس، 212-235)

كلمات النقد والتحليل: هذا من عجيب الفطرة أن وضع الأصول سهل قدوماً وإعمالها صعب فقد اعترف الناس كلهم بنجاح ابن خلدون في وضع أصول فلسفة التاريخ والاجتماع ولكنه لم يقدر على إعمالها في كتابة تاريخ الإسلام واعترض عليه الناس لذكر الأحداث بدون النقد والتحليل، وكذا اتهم المؤرخون الآخرون بكسر أصول التاريخ، ولقد أثنى على المؤرخ المسعودي حتى ابن خلدون كما أثنى عليه العلامة شبلي ولكنه لم ينفلت من نقد ابن خلدون كما انتقد الطبري واليعقوبي وغيرهما وكذا الأمر مع العلامة شبلي الذي تعرض لنقد الناس لأجل مخالفة الأصول التي وضعها ولأجل الزلات التي مرّ بها (ابن خلدون، مقدمة، مطبعة مصطفى محمد بمصر، د.ت، 3-5 وكذا مقدمة في فضل علم التاريخ، وفصوله المختلفة، 9-35)

ونقد شبلي ينقسم في قسمين؛ قسم يملأه العداوة والبغضاء والعصبية المذهبية وقسم آخر يتعلق بتصحيح الوثائق فالنقد الثاني نسميه بالنقد التحقيقي الخالص ولقد قام الكتاب بنقد كل ما كتبه العلامة شبلي لاسيما التاريخ الإسلامي والعبقرية الإسلامية، وقد أثبت شبلي بصارته النادرة ودقة نظره وسعة فكرته ولطافة تحقيقه خلال دراسة المصادر وتحقيقها ولها نماذج لا تحصى في كتاباته ولا شك أنه يجمع المعلومات من خلال دراسته للآلاف من الصفحات وزدّ عليها تحقيقه وبحثه فنرى ناقدية قائمين في ظلال القمة التي بلغها هذا الكاتب المثالي، إن العلامة شبلي قام بتحزيب المصادر ونقدها وتحقيقها والبحث عن منزلتها العلمية والفنية، ولقد برع في ترجمة الشخصية وعهدها، ومن أهم مآثره وأبرزها تحليل المعلومات المجموعة وتنوير الجوانب الخفية للسلف وإحياء العهد وحضارته ومعيشته.

ومن بين زلات العلامة شبلي ميله الطبيعي وذوق عهده طبقاً للأصول التي وضعها، إنه كان يهوي الرسول وأهل بيته وكانت هذه عادة زمانه فكان الأشراف يحبون النبي وأهل بيته كما كانوا يبغضون الأمير معاوية ومن والاه حتى خالفوا الخليفة الأموي الثالث عثمان بن عفان بدل تأييده وتعظيمه ولم ينصفوا مع كل من رافق خلفاء العصر الأموي من العمّال والعلماء والأدباء فصرفوا النظر عن كل ما كانت تؤيدهم وتعلي قدرهم فلم يقوموا بتحليل ونقد ما لا يحصى من روايات المصادر والمآخذ التي تصدّقها كتب الحديث

والسيرة الموثوق بها فلو أن العلامة شبلي خالف كل من خالف عمر بن الخطاب وأبا بكر الصديق ولم يسلك طريق البحث والتحقيق في أمر من خالف عثمان بن عفان وغيره من الخلفاء الأمويين فما عبّر عنه من محبة الأمير علي على انتخاب عثمان بن عفان في كتابه المأمون هو نوع من البحث والتحقيق ولو أنه يخالف الإجماع، إنه لم يكرّم من جاء بعد الخلفاء الراشدين من خلفاء الإسلام كما كان يعتبر حياتهم لهوًا ولعبًا والواقع أن هؤلاء الخلفاء لم يبلعوا منزلة الخلفاء الراشدين ولكنهم على ذلك كانوا خلفاء الإسلام ولننظر إلى ما قال في سيرة النعمان وهو أخطر جملة صدرت من قلمه: ولو أن أبا حنيفة بلغ في الفقه والاجتهاد مبلغاً أعلى إلا أنه لا يبلغ شأو جعفر الصادق فالحديث والفقه بل كافة العلوم الإسلامية نبعث من أهل البيت --- "إن العلامة شبلي اتهم الإمام ابن تيمية بسوء الأدب والأثرة لمجرد أنه أنكر روايات تشهد بتلمذ أبي حنيفة لجعفر الصادق والحال أنه بنفسه لم يشهد على ما قال بدليل، وكذا ولو لم يكن العلامة شبلي قائلًا باستحقاق خلافة آل أبي طالب إلا أنه كان يعترف بفضلهم وإمامتهم واستحقاقهم مقابل الخلفاء الأمويين والعباسيين ولهذه الفكرة يغض الطرف عن كافة المصادر.

وربما يجري العلامة شبلي مع العامة في روايات وأخبار المصادر العامة فما يطويه العلامة شبلي من رأي عن محمد بن عمر الواقدي ومنه التاريخية لا يبني على التحقيق فيقول العديد من روايات وأخبار المصادر والمآخذ بأنه كان "أمير المؤمنين في الحديث" وإمامًا وقدوة للسيرة والتاريخ ولم يثن عليه العديد من العلماء والمحدثون فقط بل وثّقوا رواياته وأخباره للسيرة وأما العلامة شبلي فقد ضعفه لأن العديد من علماء فن الرجال ضعفوه فاعتبر العلامة شبلي قولهم مما اتفق عليه المحدثون والالتهام الثاني الذي يوجّهه إلى الواقدي أنه يخوض في الجزئيات التي لن يراها حتى الرواة والحال أن هذه الجزئيات توجد لدى الآخرين بينما هي مؤيدة من قبل مسند الإمام أحمد بن حنبل، ونرى العلامة شبلي أنه يتكل على علماء فن الرجال وناقدي الرواة، كعادة الآخرين، في كتابيه الفاروق وسيرة النبي ولقد استدرك ابن خلدون المؤرخ اليعقوبي كما أثنى عليه ووضع بجانب الواقدي بينما العلامة شبلي يمدحه، إنه لا يحقق متن المصدر إلا إذا قام بمناقشته مثلًا أن الإمام ابن إسحاق والإمام ابن هشام قد جرحا أو ضعفوا العديد من الروايات والأخبار

في السيرة النبوية ولكن العلامة شبلي يرويه ظاناً أنها صحيحة وعلى هذا فلا يصدق في تصوير الشخصية وسيرتها ومعاملتها وعهدها، وهو الذي قبل العداوة بين بني أمية وبني هاشم ثم روى الوقائع منذ العصر الجاهلي حتى العصر الإسلامي بينما يصرف النظر عن الروايات الصحيحة، وكذا بين أن أبا حنيفة والإمام مالك قد عانا من أنواع الظلم مما لا يصح، وكذا ربما يقبل الرواية الناقصة في مدح حبيبه ولا يتأذى لتصحيحه كمثّل رواية السيوطي في كون مجرد ثلاثة خلفاء من حفاظ القرآن وهكذا لا يصحّ رأيه حين الأخذ على القاضي ابن أبي ليلى الذي يخالف الإمام أبي حنيفة.

ونجده يفرّق بين الصحابة والتابعين الفقهاء وغير الفقهاء وبين الصحابة والرواة العجائز والشباب وهكذا لا يستقيم على الصراط المستقيم، ومن هذا نراه يختلف عن الجمهور في بحث مراسيل الصحابة ولقد أبدى العلامة شبلي قوة بيانه واستدلّاه في العديد من مواضع الفاروق وسيرة النبي وسيرة النعمان فمثلاً حين البحث عن رفع اليدين رفض رواية ابن عمر مقابل رواية ابن مسعود لمجرد أنه كان أصغر منه سنّاً والحال أنه كان عالماً كبيراً للسنن النبوية، والواقع أن العلامة شبلي جانبه الصواب فكلتا الروايتين صحيحة وهذا مثال لتسوع وتنوع السنن، وكذا نقده لابن عباس في حديث القرطاس لصغر سنه ولغيوبته يحتاج إلى التحقيق، وأما نظريته في تضعيف روايات صفار الصحابة، التي اختارها في سيرة النعمان وسيرة النبي لا تصح، وهكذا لا يصح قوله في كون كافة روايات حلية الأولياء من أسمار المجالس كما تفرّقه بين صحيح البخاري وصحيح مسلم لا يصح وأما الشاه ولي الله فهو كان يعتبر الموطأ الكتاب الحقيقي.

ولا شك أن العلامة شبلي عبقرى زمانه في بحث المآخذ والمصادر وقبول وردّ أخبارها ورواياتها وتحليلها واستعراضها، وعلى الرغم من زلاته فيها قام العلامة شبلي بتحليل نقدي للمآخذ والمصادر الإسلامية، وإليه يرجع فضل جمع المعلومات من مختلف المصادر ووضعها في محلها، وهذه ميزة لا نجد لها مثلاً فيمن عاصره ولا من تلمذ له ولا من اختار طريقه في البحث والتحقيق، ومن أبرز مآثره استعراض وتحليل الروايات ومن خلاله اكتشاف الشخصية وعهدها، الميزة التي نراها في الجزء الثاني لكافة مؤلفاته، وقد قدر عليه بدراسته لأصول الغرب التاريخية وتطبيقها على أصول تاريخ الإسلام وهكذا

العدد الخاص مجلة الهند

ففاز بالجمع بين الجديد والقديم والذي يقدم تعبيرًا حقًا للتاريخ، ولاسيما ارتباط الواقعة بسببها والبحث عن العلة والمعلول مما لا نجد لها لدى مؤرخ آخر غير شبلي. ولقد صحّ العلامة شبلي في اعتباره الإمام الطبري بالطبري المحدث، وجمعه بين التاريخ والحديث وهو الذي أنعم عليه طريقة ذكر أسباب الوقائع، ولم يذكر العلامة شبلي ابن كثير وغيره من العلماء المتأخرين كما لم يذكر مآثرهم بأنهم يجمعون مصادر الحديث والتاريخ، وعلى كل حال فقد جعله علماء الحديث والسيرة والتاريخ ولاسيما فلسفة التاريخ لابن خلدون والشاه ولي الله قد جعلته إمام العصر الحديث للدراسة التحليلية.

الشيخ عبد السلام الندوي

(لمحة عن حياته وخدماته)

- الشيخ بدر جمال الإصلاحي¹

ولاية أوترا براديش التي كانت مسقط رأس الشيخ عبد السلام إن لم تكن أكبر ولايات الهند ولكنها أكثرها سكاناً. أنجبت رجالاً ذوي علم وعقل وثقافة، وأصحاب فكر في مجال التعليم وتفهم القرآن والحديث كالعلامة محمد فاروق التشريياكوتي والعلامة فيض الحسن السهارنفوري والشيخ محمود حسن الديوبندي والعلامة شبلي النعماني والإمام عبد الحميد الفراهي والشيخ محمد أسلم الجيراجفوري والشيخ عبد السلام الندوي علماء عباقرة امتازوا وتخصّصوا في مجال العلم والأدب والفن ولهذه الولاية أهمية كبرى في حقل السياسة والكفاح ضد الإنجليز وإنقاذ الوطن من براثنهم الغاشمة.

وتنقسم هذه الولاية إلى منطقتين: شرقية وغربية. والمنطقة الشرقية ينتشر فيها الفقر، لأنه لا توجد فيها المصانع ولا يجد سكانها أسباباً لكسب المعيشة وأرضها أيضاً أقلّ خصباً من أرض المنطقة الغربية، وأكثر سكانها من ذوي مستوى مادي بسيط ولذا فهم ينتقلون إلى بلاد أخرى لكسب المعاش والحصول على القوت، فكانوا يسافرون قبل قرن إلى ملايو (ماليزيا وسنغافورة الحاليتين)، والآن هم يسافرون إلى البلاد الخليجية كالمملكة العربية السعودية ودبي والكويت وعمّان وإلى غيرها من البلاد العربية الأخرى.

ولكن أهالي هذه المنطقة قد فاقوا لاعتنائهم بتلقي العلم وتقدّموا في هذا المجال فأقاموا معاهد كبيرة للعلوم والفنون مثل كلية شبلي الوطنية في مدينة أعظم كره وكلية محمد حسن في مدينة جونفور ودار العلوم بندوة العلماء في لكاناؤ ومدرسة

¹ أستاذ اللغة العربية وأدائها في "مدرسة الإصلاح" بـ"سرائمير"، أعظم كره

الإصلاح ومدرسة بيت العلوم في سرائ مير وجامعة الفلاح في بلرياغنج وجامعة الرشاد في أعظم كره، وكذلك مدارس منو ومباركفور وشاه غنج وغيرها من الكثرة الكاثرة من المدارس الدينية والحكومية على السواء.

وقد أنجبت هذه المنطقة كثيرًا من العلماء والشعراء والأدباء، برز بعضهم واشتهروا في الآفاق فيجمل بي أن أذكر أسماء بعضهم كالشيخ عبد السلام الندوي والعلامة إقبال خان سهيل واحتشام حسين وكيفي الأعظمي وكبير أحمد الجائسي وغيرهم.

وقد اشتهر كثير من المدن والقرى لهذه المنطقة في العلم والثقافة كلكناؤ وفيض آباد وجائس وموهان وبلغرام وأعظم كراه وبلريا غنج وسرائ مير وبندول وجيراجفور وعلاؤ الدين فتي ومباركفور ومنو وتشرياكوت وغيرها.

وإن قرية علاؤ الدين فتي لها فخر وميزة لأنها كانت مولدًا ومسقط رأسي لبطلنا الشيخ عبد السلام الندوي وهي قرية صغيرة على بعد خمسة عشر كيلومترًا من مدينة أعظم كره، وكان بطلنا هذا رجلًا فريدًا بين أقرانه، كان يعيش بالبساطة، ويحبّ القناعة والفقر، وكان مصداقًا للحديث النبوي "كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل"، وكان رجلًا علميًا مفكرًا، كل حين كان يفكر في حلّ المسائل العلمية والتاريخية، كان له نظر عميق في العلوم العديدة لاسيما التاريخ والأدب.

يتشابه أسلوب كتابته بكتابة أستاذه العلامة شبلي النعماني وبكتابة الشيخ أبي الكلام آزاد مع أنه كان مصنفًا مفظورًا ومجددًا في التحقيق والانتقاد وقد تأثر بشخصيتهما تأثرًا كبيرًا، وكذلك يحبّانه ويقدرانه لأنه كاتب بفطرته، كان يمسك القلم ويكتب بدهاء دون تكلف، كأن الله خلقه للكتابة والإنشاء. عاش أربعًا وسبعين سنة (من 1883م حتى 1956م) ولكنه قد ملأ المكتبة العلمية في هذه المدة القليلة وكان من معاصريه الشيخ حسين أحمد المدني والشيخ محمد أسلم الجيراجفوري والشيخ أبو الكلام آزاد والشيخ سيد سليمان الندوي وغيرهم من أفاضل العلماء.

وكان متعمقًا في قضايا العلم، وغواصًا في بحر أفكاره ولكنه ما كان زاهدًا محضًا وتاركًا دنياه، يتمتع بجمال الأشياء وحسنها، وربما يلبس أثوابًا ملونة، وكان يقدر على قول الشعر أيضًا ولكنه ما كان مشغولًا به عن التفكير في المعاني والإنشاء والكتابة.

وكان يفكر في المسائل العلمية وخاصة عندما كان يخرج للتنزه في الشوارع ولا يدري بأي مكان يمرّ وبمن يمرّ ولم يزل يغيب في أفكاره العلمية¹.

قد ولد الشيخ عبد السلام الندوي في السادس عشر من فبراير سنة 1883م في قرية علاؤ الدين فتي من مديرية أعظم كره وينتهي إلى أسرة إقطاعية متوسطة كانت تمتهن الزراعة وتشتغل بتجارة الزيت والسكر.

وأغلبية أسر المسلمين في أعظم كره ينتمي نسبهم إلى قوم "راوت" من الهندوس، قد اعتنقوا الإسلام في عهد السلاطين المسلمين في الهند، فقد تشرف بالإسلام رجل من آبائه².

وما راج التعليم عند مولده في ضواحي قرينته إلا في قريتي "بندول" و"جيراجفور". وكان جدّه الشيخ بدهو (Buddhū) أميًا لا يعرف الكتابة والقراءة ولكنه كان ذا جاه ونفوذ بفضل إقطاعيته وتجارته وكان يعدّ من الأثرياء وذوي الجاه والسلطة. وقد تعلّم والده الفارسية حسب ما كان رائجاً في زمانه، لأن الفارسية كانت رائجاً آنذاك في الهند، وتعلّم الحساب لأغراض تجارية. وقد تعلّم عمّه المسّي "نور محمد" العربية والعلوم الدينية، وكان متشوقاً بالمطالعة، وقد مهر في العلوم الدينية وأنشأ كتيبات دينية بفضل مطالعته.

وقد بدأ الشيخ عبد السلام الكتابة والقراءة في بيته وعيّن والده لتعليمه الشيخ السيد إمداد علي فكان يأتي كل يوم إلى بيته ويعلمه ويؤدّبه فحصل منه الأردوية والفارسية والحساب وقراءة القرآن.

وكان عمره آنذاك يتراوح بين الثالثة عشر والرابعة عشر وكان محبباً لدى والده وجدّه وعزيراً عندهما و زوجته والده بنت عالم كبير موثوق به يسمّى "الشيخ عبد الله الجانديباروي" الذي تعلّم وأتمّ المقررات الدراسية على يد عالم كبير معروف ألا وهو الشيخ عبد الحيّ الفرنغي محليّ، وبعد التكميل مارس التدريس في أمكنة متعدّدة وكان له تجربة ومهارة في التعليم والتدريس، وكان يمارس تعليم أولاد أسرته وقرينته في بيته، فمكث الشيخ عبد السلام الندوي لدى صهره الشيخ عبد الله سنتين وأتمّ الدراسة الفارسية.

¹ كچه ياديس كچه باتين، ص 123-125

² عبد السلام ندوي، حيات اور علي فتوحات، ص 9

العدد الخاص مجلة الهند

ثم سافر إلى كانفور وهناك بدأ بتعلّم العربية ثم سافر إلى آغره وهناك كان الشيخ رمضان يعلم العربية والفقّه في جامع كانفور، فدرس عليه "شرح الجامي" في النحو و"القدوري" في الفقه ثم ذهب إلى غازيفور حيث تلمذ على الشيخ شبلي الجيراجفوري وتعلّم الكتب المتوسطة في العلوم العربية وقرأ في المنطق "مير زاهد" على الشيخ لعل محمّد الذي كان مدرّسًا في مدرسة "چشمه رحمت" وهذه هي المدرسة التي تعلّم فيها الشيخ شبلي النعماني.

كان الشيخ عبد السلام مشغولًا بالتعلّم في غازيفور إذ فشا وباء الطاعون وعمّ في أنحاء الهند، فانقطع عن حصول العلم سنتين ثم ذهب إلى لكتناؤ والتحق في الفصل الخامس العربي بدار العلوم بندوة العلماء، لكتناؤ سنة 1906 م وتخرّج منها في 1909 م ثم أتمّ فضيلة الأدب في سنة 1910 م¹.

وكان بفطرته أديبًا، وقد تفرس ذلك العلامة شبلي النعماني (وكان العلامة آنذاك في ندوة العلماء أستاذًا في القسم العربي) فأوصى إلى المسؤولين أن يقرّروا الشيخ عبد السلام أستاذًا للأدب العربي في ندوة العلماء ثم اشتغل العلامة شبلي النعماني بتأليف كتابه الشهير "سيرة النبي" فجعله مساعدًا له في ذلك وفي هذا الزمان دعاه الشيخ أبو الكلام آزاد إلى كولكاتا لإدارة صحيفته "الهلال" فكان يفكر للذهاب إلى كولكاتا ولكن كان مترددًا ومتذبذبًا ولم يستطع أن يصمّم على السفر.

ولما التحق الشيخ عبد السلام بدار العلوم بندوة العلماء تفرّس العلامة شبلي الذي كان مسؤولًا عن الشؤون التعليمية فيها تفرّس لصلاحه وذكاءه فقرّبه إليه واعتنى بتعليمه وتربيته. و كان يوجد هناك كثير من مواطنيه وأهل قبيلته كالشيخ حفيظ الله مدير الدار والشيخ شبلي النعماني مسؤولها عن الشؤون التعليمية².

هكذا قد اجتمع في نادبة العلامة شبلي بضع تلامذة وذوو صلاحية كبيرة في التصنيف والتأليف والإنشاء كما كتب السيد سليمان الندوي "وقد اشترك في هذه النادية عضو، وهو الشيخ عبد السلام وله قدرة موهوبة على الإنشاء والكتابة والتصنيف".

¹ عبد السلام ندوي، حيات اور علمي فتوحات، ص 12

² مشاهير أهل علم كي محسن كتابين، ص 118

و فيما يلي عرض للعلاقة التي كانت بين الشيخ عبد السلام والعلامة شبلي النعماني وكيف أنشأه العلامة شبلي النعماني وربّاه واعتنى بتعليمه، وهي اقتباسات من مجلة "الندوة" و"مكاتيب شبلي" و"حيات شبلي" ومشاهير أهل علم كي محسن كتابين" وغيرها.

ومن يكون له إلمام بكتبه يعرف جيدًا أنه كان ذا ذكاء فائق وفكر عميق وله أسلوب منفرد في الكتابة والأدب والإنشاء. قد وقف حياته لخدمة العلم والأدب وما أراد شيئًا في حياته سوى العلم، وقد ظهرت فطانتها منذ صغره وقد تفرّس ذلك منه أستاذه الجليل العلامة شبلي النعماني وكان يحبه لصلاحه ويمدح مقالاته فهو يقول:

"إن عبد السلام ذو عقل وفطنة وهو يقدر أن يكون مصنعًا"¹.

ولما التحق الشيخ عبد السلام بندوة العلماء كان العلامة شبلي النعماني مسؤولًا عن الشؤون التعليمية فتفرّس ما كان فيه من الذكاء والفطنة فجعل يربّيه ويشجّعه على تلقّي العلم والدراسة والإنشاء والكتابة وضمّه إلى زمرة الأذكياء من الطلبة، يقول الشيخ السيد سليمان الندوي:

"قد أضيف إلى هذه الزمرة عضوٌ وهو الشيخ عبد السلام كأنه خلق على الإنشاء والكتابة"². وكان العلامة شبلي النعماني يربّيه على تصحيح المقالات والكتابة ولما أراد أن يطبع مقاله "مآثر رحيمي" في مجلة "الندوة" يرشده إلى تصحيحها في رسالته التي وجهها إليه 16/ مايو سنة 1907م:

"عليك أن تعتني بتصحيح مقالي "مآثر رحيمي" ولو طبعت بدون اهتمام لأتأسف كثيرًا"³.

وكان العلامة شبلي يعتمد عليه ويثق به في الشؤون العلمية والتأليفية وجعله نائب المدير لمجلة "الندوة"، يقول في رسالة أرسلها 8/ سبتمبر سنة 1912م إلى الكاتب محمد أمين ناظم رياسة بوفال:

¹ مكاتيب شبلي، 239/2

² حيات شبلي، ص 423

³ مكاتيب شبلي، 172/2

العدد الخاص مجلة الهند

"هو (عبد السلام الندوي) وسيع النظر له ملكة الاستخراج مجيدٌ في العربية ذو صلاحية كبيرة"¹. ولما دعاه الشيخ أبو الكلام آزاد إلى كولكاتا في سنة 1912م لإدارة صحيفته "الهلال" أجازته العلامة شبلي النعماني واثقًا به على استعداده، لهذه المسؤولية، قد كتب العلامة إليه في الثالث من مارس سنة 1914م من إله آباد:

"إني أجزئك أن تذهب إلى كولكاتا لإدارة صحيفة "الهلال" ولكن ينبغي لك أن لا تضع فيها بل عليك أن تكتب باسمك ما تكتب فيها"².

قد تمت كل دائرة علمية أو صحافية أن ينسلك الشيخ عبد السلام بها، لأنه ما كانت توجد كمثلها شخصية عبقرية في جميع أنحاء الهند فأرادت ندوة العلماء أن ينسلك في زمرة أساتذته، ودعاه الشيخ أبو الكلام آزاد لإدارة صحيفته "الهلال" ولكنه أثر دار المصنفين (أكاديمية شبلي) الواقعة في مدينة أعظم كره، وهذه الأكاديمية قد أقيمت على ذكرى أستاذه الجليل العلامة شبلي النعماني فأعطاهما الوقار والعزّ والشهرة فذاع صيتها في جميع أنحاء العالم بفضل سعيه ولها أهمية كبرى للتأليف والتصنيف في العلوم الإسلامية ولاسيما في التاريخ الإسلامي وسيرة علماء الإسلام.

وكان الشيخ عبد السلام مقيمًا في كولكاتا لدى الشيخ أبي الكلام آزاد وقد عطلت صحيفته "الهلال" إذ فجع بمفاجأة رحلة أستاذه العلامة شبلي النعماني في 18/ نوفمبر، 1914م وقبل وفاته بقليل قد رتب العلامة أهداف دار المصنفين وأغراضها وأعدّ جماعة من تلاميذه لتكميل بقايا شؤونه من التصنيف والتأليف فقام تلاميذه المخلصون للقيام بمقاصده فانسلك الشيخ عبد السلام بهذه الجماعة المخلصة وكتب إلى الشيخ السيد سليمان الندوي:

"إني معترف أنك خليفة أستاذي بلا فصل وأعهد إليك أنك ستجدني إن شاء الله وفيًا لك كما كنت لأستاذي الجليل فاحسبني خادمًا وفيًا وإني أعمل لدار المصنفين بكل أمانة ووفاء تحت إشرافك".

¹ المصدر نفسه، 242/1

² المصدر نفسه، 176-175/2

العدد الخاص مجلة الهند

فجاء الشيخ عبد السلام إلى دار المصنفين والتحق بها في أوائل 1915م وخدم لها إلى وفاته في 4/ أكتوبر سنة 1956م فأمضى مدة أربعين سنة في التصنيف والتأليف.

وقد ذكر غير واحد من المؤلفين كتابات الشيخ عبد السلام المطبوعة بالتفصيل وأبدوا آرائهم وانتقدوها وهنا نذكر بعض مؤلفاته المطبوعة.

وقد دخل الشيخ عبد السلام الندوي في مجال التصنيف والكتابة سنة 1906م عندما كتب أول مقالاته على موضوع التناسخ ونشرت في مجلة "الندوة" التي كانت تصدر من دار العلوم باندوة العلماء بلكناؤ وقد تأثر شبلي النعماني بهذه المقالة وأحبها ومنحه جائزة ثمينة.

ثم بعد ذلك كتب مقالات وكتبًا كثيرة لا يمكن أن تعدّ وتحصى، وقد اشتهر منها كتاب "إقبال كامل" و"شعر الهند".

(1) إقبال كامل: أَلّف هذا الكتاب في سنة 1948م وهو يحتوي على ترجمة شاعر الشرق العلامة إقبال وأفكاره بالتفصيل وعرف شعره وفلسفته.

(2) شعر الهند: وألّف الجزء الأول من هذا الكتاب في سنة 1925م، قدّم فيه تراجم الشعراء القدماء والجدد وذكر التغيرات والتقلبات التي طرأت حينًا بعد آخر على الأدب الأردوي، وعرض الموازنة والمقابلة بين كلام الشعراء المعروفين.

وأما الجزء الثاني فقد طبع أول مرة سنة 1926م ذكر فيه جميع أصناف الشعر الأردوي كالغزل والقصيدة والمثنوي والمرثية وغير ذلك وانتقدها من حيث التاريخ والأدب.

(3) سيرة عمر بن عبد العزيز: أَلّفه في سنة 1919م، وبيّن فيه ترجمة الخليفة الأموي الراشد وأعماله الجليلة وعهد حكومته الراشدة بالتفصيل.

(4) أسوة الصحابة: طبع الجزء الأول لهذا الكتاب في سنة 1920م وبيّن فيه عقائد الصحابة والصحابييات وأخلاقهم وحسن عبادتهم وحسن معاشرتهم وذكر فيه

أن حياتهم كانت نموذجًا للتعاليم الإسلامية وكانت توافق الكتاب والسنة في جميع شؤونها ونواحيها.

وأما الجزء الثاني فقد نشر سنة 1922م وبيّن فيه الشيخ الندوي أعمال الصحابة والصحابيات الجليلة وحسن سياستهم وخدماتهم العلمية وفتوحهم وكيف أقاموا الدولة الإسلامية على منهج الكتاب والسنة وحافظوا على الإسلام وعلى العلوم الإسلامية.

(5) الإمام الرازي: طبع هذا الكتاب في 1950م وقد ذكر فيه فلسفة ونظرية الإمام الرازي في أهمّ مسائل التفسير مع حياته الحافلة بالخدمات العلمية والمؤلفات الجليلة القيّمة.

(6) الحكماء في الإسلام: طبع الجزء الأول من هذا الكتاب في 1953م وهو يحوي المآخذ للفلسفة اليونانية وتراجم الحكماء في الإسلام إلى القرن الخامس الهجري وأحوالهم وأعمالهم بالتفصيل.

وأما الجزء الثاني فقد طبع في 1956م وذكر فيه تراجم الحكماء المتوسطين والمتأخرين وأحوالهم وخدماتهم بالتفصيل¹.

(7) مقالات عبد السلام: طبعت هذه المجموعة في 1968م وهي تحتوي على نحو ثلاثين مقالة مختارة وهذه المقالات قد نشرت أولاً في مجلة "معارف" وهي تتضمن الأدب والانتقاد وقد أظهر الشيخ الشاه معين الدين الندوي رأيه في هذه المقالات كما يلي: "وعلاوة على الكتب القيّمة الجليلة فقد كتب الشيخ عبد السلام مقالات كثيرة، وكان مجاله الخاص الشعر والأدب وكان ناقدًا ومؤرخًا وكان يعرف كل جهات الشعر والأدب وأطرافهما".

¹ كچه يادیں كچه باتیں، ص 132-133

- كما كان الشيخ عبد السلام مصنفًا بارعًا وناقداً ماهراً ومؤرخاً صادقاً كذلك كان مترجمًا ماهراً فقال بترجمة كتبٍ عربية متعددة ذات أهمية كبرى مثل:
- (8) تاريخ التشريع الإسلامي: كان أستاذه المبجل العلامة شبلي النعماني يتمنى أن يدوّن أحد من تلامذته تاريخ الفقه الإسلامي في الأردية فلما نظر إلى "كتاب التشريع الإسلامي" وجدّه موافقاً لتمني أستاذه فترجمه بالأردوية السلسلة الفصيحة باسم "تاريخ فقه إسلامي".
- (9) ابن خلدون: ألف هذا الكتاب الدكتور طه حسين والذي يشتمل على حياة ابن خلدون وشرح فلسفة العمران. كتبه بالفرنساوية وحصل به على شهادة الدكتوراه من جامعة سربون، نقل هذا الكتاب القيّم إلى العربية في مصر ثم ترجمه الشيخ عبد السلام الندوي بالأردوية السلسلة لإفادة غير الناطقين بالضاد.
- (10) انقلاب الأمم: كتبه عالم فرنساوي بالفرنساوية، قد بيّن فيه الأصول النفسية وشرح القوانين الأخلاقية التي تتعلق بعروج الأمم وزوالها. يشتمل الكتاب على خمسة أبواب وفي كل باب فصول متعدّدة.
- قد ألحق المترجم بهذا الكتاب مقدّمة ذكر فيها حياة المصنّف ثم بيّن فلسفة عروج الأقسام وزوالها وبمناسبة ذلك ذكر آراء بعض علماء الإسلام ولاسيما أفكار العلامة ابن خلدون. قال الشيخ أبو الكلام آزاد عن ترجمة هذا الكتاب بعد قراءتها:
- "قد ترجم الشيخ عبد السلام ترجمةً فصيحةً مؤثرة، وأحسن وإني مسرور جداً بأن نشر كتاب علي نفيس بالأردوية".
- (11) اسلامي قانون فوجداري: ألف الشيخ سلامت علي خان كتاباً على موضوع قانون الجزاء سمّاه "كتاب الاختيار" قد جمع فيه قضايا قانون الجزاء من كتب الفقه واستقصى مسائلها، فترجمه الشيخ عبد السلام الندوي بالأردوية وسمّاه "اسلامي قانون فوجداري".

(12) تاريخ الحرمين: جمع عباس حلي باشا الثاني خديو مصر وكتب بأمره محمد لبيب مشاهداته في الحرمين وفي الأمكنة المقدسة الأخرى باسم "الرحلة الحجازية" فترجمه إلى الأردوية الشيخ عبد السلام باسم "تاريخ الحرمين" وحذف لدى الترجمة بعض الأشياء كما أضاف إليها أشياء أخرى.

وكذا ترجم كتبًا متعددة غيرها و أتركها خوف الإطالة.

وكان الشيخ عبد السلام سليما إلا أنه كان يشكو في بعض الأحيان الاختلاج، فشخص له الأطباء التنزه والمشي على الأقدام صباحًا ومساءً فكان يخرج كل صباح ومساءً ويمشي على أربعة أميال أو خمسة وكانت صحته جيدة قبل وفاته وكان قد عزم على لقاء أبي الكلام آزاد واستعدّ للسفر ليهدي إليه بعض كتبه ويتباحث معه في بعض القضايا العلمية وحدد تاريخ السفر إلى دلهي حيث كان يسكن صديقه القديم أبو الكلام آزاد وزيرًا للتعليم لجمهورية الهند.

في الثالث من أكتوبر سنة 1956م أنهى جميع أعماله، وخرج أيضًا في المساء للتنزه كما كانت عادته وتعمّن ونام كعادته واستيقظ في الساعة الثانية والنصف للتبول وما كاد يخرج من دورة المياه حتى ابتلي فجأة بأزمة قلبية وخرّ مغشيًا عليه وكان هناك البروفيسور خورشيد النعماني والشاه معين الدين الندوي نائمين فاستيقظا لصوت سقوطه على الأرض وفزعا وأمسكاه وأضجعاه على السرير ولكنهم لفظ أنفاسه الأخيرة ونام إلى يوم القيامة¹ نومًا عميقًا، فإننا لله وإنا إليه راجعون. يَتَأَيُّهَا النَّفْسُ الْمُظْمِنَةُ^(٧) أَرْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً^(٨) فَأَدْخُلِي فِي عَبْدِي^(٩) وَأَدْخُلِي جَنَّتِي^(١٠)

و له كتب كثيرة غير هذه أترك ذكرها لأن مقالتي هذه لا تتحمل التطويل.

وقد اعترف الشيخ السيد سليمان الندوي في كتابه الشهير "حيات شبلي" أن الشيخ عبد السلام قد ساهم في إعداد هذا الكتاب كما قال:

"قد جمع الشيخ عبد السلام أحوال أسرة العلامة شبلي ورتّب رسائله لأنه كان من قبيلته ومن مواطنيه"².

¹ مولانا عيد السلام ندوي، حيات أور علي فتوحات، ص 51

² حيات شبلي، ص 424

المصادر والمراجع

1. البروفيسور محمد شميم الجيراجفوري: كچه ياديس كچه باتيس (ذكريات وأحاديث)، إيجوكيشنل بيلشنغ هاؤس، دلهي، 2002م
2. الشيخ السيد سليمان الندوي: حيات شبلي، دار المصنفين، أعظم كره، 1999م
3. الشيخ شبلي النعماني: مكاتيب شبلي (إعداد: السيد سليمان الندوي)، دار المصنفين، أعظم كره، 1972م
4. الشيخ محمد عمران خان الندوي: مشاهير أهل علم كي محسن كتابين (مؤلفات ورسائل أثرت في العلماء المشهورين)، مكتبة جمعية التعاون، دار العلوم، 1946م
5. مولانا عبد السلام ندوي، حيات أور علمي فتوحات (مجموعة مقالات النوة العلمية حول حياة الشيخ عبد السلام الندوي وخدماته)، بيكيجنغ برنترس، مومباي، 2001م

روايات الطبري في "سيرة النبي" للعلامة شبلي النعماني (دراسة تحليلية)

- الشيخ كليم صفات الإصلاحي¹

ترجمة من الأردوية: محمد أحمد عبد الله²

إن مآثره عصره المتفردة الفخمة الهامة لأواخر حياة المؤرخ الإسلامي العلامة شبلي النعماني هي "سيرة النبي" - المجلد الأول والمجلد الثاني - التي تحيط دائرتها العلمية والتحقيقية والأدبية وفوق كل ذلك دائرة سمعتها وعظمتها التأليفية بالعالم كله. ويندر في بيئة يدرس أهلها ويكتبون وينطقون باللغة الأردوية أن لا يقف أحد منهم على اسم "سيرة النبي". وكيف لا؟ فإنها تفاصيل أوراق الحياة الطيبة لتلك الشخصية التي أعلن الله بذكرها مع ذكره في بقاع العالم كله فقال عزّ من قائل في كلامه المجيد: وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ³، إنها تذكرة معتبرة وموثوق بها في اللغة الأردوية وأدائها لذلك الإنسان الكامل. كل عباراتها وسطورها بل كل ألفاظها مأخوذة ومستنبطة من المصادر العربية الموثوق بها. يأخذ هذا الكتاب الفاخر العديم النظير من القرآن المجيد والروايات الصحيحة من الصحاح الستة وكتب السير والمغازي لابن إسحاق وابن هشام والإمام الزهري وموسى بن عقبة وابن سعد والإمام البخاري وعروة بن الزبير والشعبي ووهب بن منبه وأبو معشر نجيح وعبد الله بن جعفر المدائني وعلي بن مجاهد وزيايد بن عبد الله بن الطفيل البكائي وسلمة الفضل الأبرش وأبو محمد يحيى الأنصاري ومحمد بن عمر الواقدي ويعقوب الزهري وعبد الرزاق بن همام ومحمد بن

¹ كاتب هندي له مساهمات قيّمة باللغة الأردوية

² باحث، مركز الدراسات العربية والإفريقية، جامعة جواهر لال نهرو، نيودلهي

³ سورة الشرح: 4

عيسى الترمذي وغيرهم من علماء السير، وعبد الرحمن السهيلي وعبد المؤمن الدمياطي وعلاء الدين الخلاطي والغازروني والمغلطائي والحافظ أبو سعيد عبد الملك النيشابوري وابن الجوزي وأبو الربيع سليمان الكلاعي وابن عبد البر وابن سيد الناس وزين الدين العراقي والقسطلاني ومصنّف سيرة الحلبية وغيرهم من أصحاب السير المتأخرين. وتم فحصه في ضوء فن أسماء الرجال وفن الحديث والسير وأصول الرواية والدراية. وعني عناية تامة بأن لا يأتي ذكر أي واقعة أو قول بدون هامش يأتي بالمصادر. وقام أثناء التعليق على السيرة بالاستعراض النقدي في ضوء مؤلفات سيرهم لأمّهات كتب الحديث والسيرة والبحث على مراتبها وفروقاتها الثنائية وعدم الاعتناء بمؤلفات السيرة في كتب الحديث وتدليس أصحاب السير واختلاف المراتب في الروايات ومعيار الشهادة وقبول ورفض روايات الرواة الحديثي السن وأثار الأسباب الخارجية على فن التاريخ والرواية والقياس والدراية وطريق دراية المحدثين وأهمية ومنزلة الرواية بالمعنى ورواية الأحاد ومؤلفات سير الأوروبيين وطراز فكرهم فيه.

ومن الواضح أن الكتاب الذي عني في ترتيبه وتأليفه بجميع ما له وما عليه من الجوانب الملحوظة لا شك في كونه موثوقاً به ويمكن أن يقال بدون خوف وتردد بأن المأثرة التي تكون دائرتها واسعة وبسيطة جداً يلزم أن يقصّر فيها ابن آدم بسبب كونه إنساناً. ومن لا يقبل ذلك فهو لا ينصف في قوله وعمله.

وبعض النظر عن جميع الأقوال والهوامش هناك كتاب هام في تاريخ الإسلام "تاريخ الأنبياء والملوك" الذي يُعدُّ في السيرة مصدرًا موثوقًا به، وأحال إليه أهم أصحاب السير المتقدمون والمتأخرون في تحقيقاتهم وتسلموا بأهميته في هذا الصدد، وعني به العلامة شبلي عناية خاصة. ويمكن أن يرى استعماله في سيرة النبي في أماكن مختلفة. وليس هذا فحسب بل لو قيل أنه استفاد من الطبري أكثر بكثير من كتب السير والمغازي الأخرى بعد القرآن والسنة لكان أصوب. فما كانت أسبابه؟ إن هذا لا يتعلق بتحقيقنا هذا بل هذا يحتاج إلى مقال مستقل. والغرض منه هنا هو الإخبار عما كانت منزلة الإمام الطبري لدى العلامة شبلي والمحققين الآخرين وما هي منزلة الروايات التي أوردتها شبلي في سيرة النبي. هل تناول كلها بدون البحث والتحقيق أم بعد الفحص والتدقيق في

ضوء الجرح والتعديل وفن الأصول والدراية؟ وقبل الخوض في مثل هذه المباحث يجدر بنا ذكر أخبار الإمام الطبري بالإيجاز.

موجز أخبار الإمام الطبري:

الاسم الكامل للإمام أبي جعفر الطبري هو محمد بن جرير. وشجرة نسبه كما ذكر ابن خلكان هي أبو جعفر جرير بن يزيد بن خالد الطبري¹.

ولد الإمام الطبري في المدينة الشهيرة طبرستان أمل في أوائل القرن الثالث الهجري (عام 225هـ). وحصل على العلوم الابتدائية في بيته وحفظ القرآن وهو في السابع من عمره. واستأذن من والده الكريم فتعلم من مشائخ أمل والري ونواحيهما. ثم اختلف إلى الكوفة ومصر وفسطاط والشام وغيرها. وتعلم من الأساتذة الكبار المشهورين من مثل محمد بن حميد الرازي ومثنى بن إبراهيم والأيلي وأحمد بن حماد الدولابي ومحمد بن بشار وهناد بن السري وأبو كريب محمد العلا الهمداني وغيرهم. كتب صاحب معجم الأدباء في رغبته وجهده للحصول على العلم أن الطبري كان يستفيد من مشائخ وأساتذة الري ونواحيها في وقت واحد. فبعدما تنتهي دروس الشيخ أحمد بن حماد الدولابي الذي كان مقيماً في ضواحي الري كان يهرول ليشارك في دروس مشائخها². ولم يحظ بهذه الرغبة في الحصول على العلم إلا قليل من الطلاب.

رجع الطبري إلى وطنه طبرستان بعد الحصول على العلوم. وأنداك كان يسود الرفض والتشيع في طبرستان. وكانوا يسبون ويلعنون ويطعنون الصحابة الأجلاء رضوان الله عليهم أجمعين. فبدأ ابن جرير يبين فضائل ومناقب الشيخين فخالفته الحكومة الحاكمة. وبالنتيجة غادر الإمام الطبري وطنه إلى بغداد حيث قضى طوال حياته في خدمة علوم الدين. وأرادت الحكومة أن تمنحه الوزارة والمناصب الرسمية ومنصب القضاء خاصة والمال والثراء عامة بسبب ما تمتع به من العلم والفضل والمنزلة العالية ولكنه كان أبيضاً وغيوراً فرفضها كلها. وتوفي الطبري كما في رواية ابن خلكان

¹ وفيات الأعيان لابن خلكان، 232/1 (لم يذكر المطبع وسنة الطباعة)

² معجم الأدباء، 430/1، مطبوعة هندية بالموسكي، مصر، سنة 1913م

يوم السبت آخر النهار ودفن يوم الأحد في داره ببغداد في السادس والعشرين من شوال سنة عشر وثلاث مائة - رحمه الله¹.

رغبة الإمام الطبري الشديدة في روايات السيرة:

يعرف أهل العلم أن الإمام الطبري كان شغوفاً بتاريخ الأنبياء والرسول. وكل صفحة لتاريخ الطبري يشهد بذلك. ويتعلق جميع صفحات المجلد الثاني والثالث والرابع سوى الأول من تاريخ الطبري بالسيرة النبوية على الخصوص². وليس من الخطأ لو قيل إن مآثرته هذه تعبير لرؤيا أبيه. كتب صاحب معجم الأدباء على لسان الإمام الطبري: "وأنا ابن تسع سنين ورأى لي أبي في النوم أنني بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان معي مخللة مملوءة حجارة وأنا أرمي بين يديه فقال له المعبر إنه إذا كُبر نصح في دينه وذبح عن شريعته فحرص أبي على معونتي على طلب العلم وأنا حينئذ صبي صغير".

إن هذه الرؤية كانت مميّدة لشغف الطبري بسيرة الأنبياء وخاصة بسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم. وتسبب التأثير الروحاني الذي أثر في الطبري في إحلاله منزلة خاصة في علم الحديث والسيرة والقراءة ولذلك ألف مصنفًا شهيرًا باسم "تاريخ الطبري".

على كل حال، لا شك في أن الإمام الطبري كان عالمًا كبيرًا موثوقًا به في التفسير والقرآنيات وتاريخ الإسلام وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم. ويشهد بذلك ما خلف وراءه من التراث. يعتبره ابن خلكان من الثقات ومن العلماء الموثوق بهم في التاريخ ونقل الروايات ومن الأئمة المجتهدين³.

ونسب صاحب معجم الأدباء القول إلى كتاب الفرغاني "كتاب الصلة" أن الطبري توفي وعمره 86 سنة وخلف وراءه أوراقًا من تأليفاته لو عدها شخص لعلم أن الطبري كان يحرر أربع عشرة صفحة يوميًا. وذلك فضل الله الخاص وكرامة من الله سبحانه⁴.

¹ وفيات الأعيان لابن خلكان، 232/2-233

² المصدر نفسه

³ وفيات الأعيان لابن خلكان، 232/2

⁴ معجم الأدباء، 264/2

منزلة تاريخ الطبري ومصادره:

من المصادر الأساسية المهمة في سيرة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ القرآن المجيد وكتب الأحاديث والمغازي والسير والتواريخ أيضًا. ومع أن مؤلفات القدامى الإسلامية ليست كتب السير أساسيًا بل هي وسيلة لبيان أحوال ووقائع حكام العالم الإسلامي والشخصيات التاريخية المهمة والبلدان الإسلامية ومع ذلك اهتم المؤرخون بتحرير حياة الشارع الطيبة ومآثره الذهبية مع ذكر ظهور الإسلام الميمون ونتيجة لذلك وردت سيرة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مختصرة في أماكن ومطولة في أخرى مثلًا ابن الأثير والتاريخ اليعقوبي وأبو الفداء ابن كثير وتاريخ الإسلام للذهبي ومروج الذهب وابن خلدون وما إلى ذلك من الكتب العظيمة تتعلق أساسيًا بموضوع التاريخ ولكن فيها سيرة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أيضًا. ولا شك في أن هذه الكتب تحتل منزلة المآثر والمصادر في السيرة إلا أنها لن تبلغ منزلة كتب الحديث والسير.

وهنا يجدر بالذكر أيضًا أننا لو قمنا بفحص مصادر تلك الكتب التاريخية علمنا بأن أكثر مصادرها هي كتب الأحاديث والمغازي والسير الموثوق بها الشهيرة. ولذلك استفاد منها جمهور المحققين والمهريين في السيرة في تحقيقات السيرة. ومن مصادر السيرة تلك تاريخ الطبري أيضًا. كان قد جمع الطبري في تاريخه المواد الضرورية من الروايات الشفوية وسافر لذلك إلى أماكن بعيدة واستفاد من المصادر والمراجع الأدبية سوى المذكورة مثلًا كتاب أبي مخنف وكتاب عمرو بن شيبان "أخبار أهل البصرة" وغيرهما كما استفاد دون ذلك من سيرة ابن إسحاق والواقدي وابن سعد وهشام الكلبي¹. فلذلك لو قمنا بمطالعة الروايات والمحتويات المتعلقة بالسيرة في الطبري بالاستيعاب لعلمنا أن الطبري بذل قصارى جهوده في ترتيب وتبويب ذلك الجزء والحصول على المواد المطلوبة فيه. وهذا الجزء طويل جدًا يسع مجلدين ونصف مجلد. وهو تحقيق الدكتور محمود الحسن أيضًا. فذكر الدكتور أن الطبري حرّر جميع ما حدث في حياته منذ ولادته إلى وفاته من الوقائع الصغيرة والكبيرة ونقل كل الروايات حيثما وجدها. معظم مصادر هذا الجزء هو القرآن وكتب الأحاديث

¹ أردو دائره معارف إسلاميه، دانش غاه بنجاب لاهور، 404/12، باكستان

العدد الخاص مجلة الهند

والسير والمغازي التي تم تأليفها في القرن الأول. جعل الإمام الطبري روايات أصحاب السير الكبار العظام عروة بن الزبير وابن شهاب الزهري ومحمد بن إسحاق ومعمربن راشد والواقدي أهم مصادره التي استفاد منها. ومن نتائج جهود الإمام الطبري الممدوحة أن أجزاء عدد من الكتب النادرة بقيت مصونة عن الأيدي المخربة على مرّ الدهور¹.

وينبغي ذكر كلام الدكتور أنور محمود خالد في مصادر ومواد الطبري وميزاته:

"من ميزات الطبري أن الروايات التي فيها ذكر أحوال الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والخلفاء الراشدين هي مبنية على مواد مأخوذة مباشرة من المصادر القديمة جداً. ولذلك بعد الطبري جعل المؤرخون مثل ابن الأثير وابن خلدون وأبي الفداء وغيرهم هذا الكتاب مصدر مؤلفاتهم²."

منزلة الإمام الطبري وتاريخ الطبري عند العلامة شبلي:

بعدما ذكرنا ما قاله أصحاب السير القدامى عن الطبري وعن مكانة التاريخ الاستنادية ينبغي نقل رأي مؤلف سيرة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الصدد، فهو – العلامة شبلي – يقول:

"في سلسلة التاريخ أشمل كتاب جامع ومفصّل هو كتاب الإمام الطبري "التاريخ الكبير". إنه يحتل مكانة مرموقة يعترف بها جميع المحدثين ويعترفون بفضله وكماله ووثوقه وسعة علمه .. يقول المحدث ابن خزيمة: أنا لا أدري في الدنيا أكبر عالم منه (الطبري)³. اتهمه (الطبري) بعض المحدثين بأنه كان يضع الحديث للشيعيين ولكن ردّه العلامة الذهبي قائلاً: "هذا رجم بالظن الكاذب بل ابن جرير من كبار أئمة الإسلام المعتمدين"⁴.

¹ عربون مين تاريخ نكاري كا ارتقا للدكتور محمود الحسن، صفحة 187، بإحالة أردو نثر مين سيرت رسول للدكتور أنور محمود خالدي، ص 142، إقبال أكاديمي باكستان، لاهور، 1989م

² أردو نثر من سيرت رسول، ص 143-144

³ سيرة النبي لشبلي النعماني، 20/1 (الطبعة الجديدة)

⁴ ميزان الاعتدال، 35/3

أحال العلامة شبلي إلى موضوعات ملا علي القارئ وهو ينقل حادثة عجيبة تتعلق بالطبري ويتضح منه وضوحاً كاملاً بأن الإمام الطبري كان يغضب على رواية الأحاديث الموضوعة وكان يتحمل المصائب التي يواجهها بسبب نطقه بالحق. يذكر أن واعظاً في بغداد روى حديثاً أن الله تعالى سوف يُجلس الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على العرش معه يوم القيامة. فعندما سمعه الإمام الطبري غضب عليه وكتب على بابه فقرة "لا ثاني لله" فغضب عامة البغداديين ورجموا على بيت الإمام الطبري أحجاراً غشيت جدران البيت¹.

فيمكن أن يقال في ضوء بيانات المحدثين والعلامة شبلي أن العلامة شبلي كان يعدّ الإمام الطبري إماماً موثقاً به. ويسلم كتابه "تاريخ الأنبياء والرسل والملوك" مصدراً أصلياً للسيرة. فلذلك عدّ الطبري وتاريخه معتبرين وموثوقاً بهما حيثما ذكر المصادر الأولية للسيرة وبحث عنها في المقدمة، يكتب في مكان:

"مع أن هناك مئات من المؤلفات في السيرة ولكن سلسلة جميعها تنتهي إلى ثلاثة أو أربعة كتب فقط وهي سيرة ابن إسحاق والواقدي وابن سعد والطبري. والكتب الأخر سوى ذلك متأخرة منها والوقائع المذكورة فيها أكثرها مأخوذة منها"².

وأضاف: "ينبغي الإغفال عن الواقدي منهم. وقام الإمام مالك وبعض المحدثين بالجرح على ابن إسحاق إلا أن منزلته العليا تضعه في مكان يروي البخاري في رسالته "جزء القراءة" عن طريقه ويعدّه صحيحاً. ولم يكلم أحد في ابن سعد والطبري. ولكن الأسف أن استنادهما لا تؤثر في استناد مؤلفاتهما. ليس هذان ممن شاهدوا الحادثة ولذلك كلما يحدثونه يحدثونه عن طرق الرواة. وكثير من رواتهما ضعفاء وغير موثوق بهم في الرواية. وكبار شيوخ الطبري في الرواية مثلاً مسلمة أبرش وابن مسلمة وغيرهما ضعفاء في الرواية. وبناء على هذا لا تساوي ذخيرة السيرة كتب الحديث على الإطلاق إلا أن الروايات التي تبلغ درجة القبول بعد التحقيق والتنقيد جديرة بالحجة والاستناد³.

¹ سيرة النبي لشبلي النعماني، 37/1 (طبعة جديدة)

² المصدر نفسه، ص 36

³ سيرة النبي، ص 35

"هناك ثلاثة كتب؛ ابن هشام وابن سعد والطبري كمصادر أصلية في السيرة"¹.

بما أن الطبري لم يقم بترتيب المعلومات التي جمعها في شكل بيان مسلسل للوقائع التاريخية بل رأى أن يكتب البيانات المختلفة بعينها ولو كانت متناقضة. ولذلك هو لا يتحمل مسؤولية صحة تلك الروايات أيضاً². وكان العلامة الطبري خبيراً بهذا النقص ولذلك كان يقول إنه يجب أن لا تؤخذ منه إلا الروايات الصحيحة بعد التحقيق والتنقيد. ويقول في مكان إنه يبدو من مطالعة كتب السيرة أن أصحاب السير قليلاً ما استخدموا الأحاديث في مؤلفات سيرهم بل لم يعنوا بالأحاديث ومنهم ابن جرير الطبري، فهو يكتب:

"من العجب الشديد أن المؤلفين الكبار العظام مثلًا الطبري وغيره الذين ألفوا في السيرة لم يستفيدوا من كتب الحديث في أكثر الأماكن"³.

ولكن بما أن المتأخرين استفادوا من تاريخ الطبري ونقلوا رواياته بعد التحقيق والتنقيد. وسلك العلامة شبلي أيضاً مسلكهم في تناول روايات الطبري التي تستوفي شروط الصحة في ميزانه ومعياري استناده. وفي قبول روايات الطبري له أصله الشهير أنه لا يقبل إلا الروايات التي يؤيدها القرآن والحديث وكتب السير والكتب الأخرى المهمة والموثوق بها. والذين لا يفرقون بين فن السيرة وفن الحديث ولا يسلّمون السيرة فنّاً مستقلاً بل يفهمون أن السيرة هي بعينها فن الحديث لا يعتبرون الطبري من الموثوق بهم بل يغضبون عليه بسبب الكتابة العاجلة وتناقض الروايات وعدم التطبيق بين الروايات المتناقضة ويرفضون قبول الروايات الصحيحة ولا يباليون بأن يقوموا بالإنصاف مع الطبري. ولو أقرّوا بأن فن السيرة فن مستقل عن فن الحديث وأنه لا حاجة إلى هذا الاعتناء الشديد بأخذ روايات السيرة وقبولها، الاعتناء الشديد الذي يجري في فن الحديث فيتضح الأمر لهم أن الإحساس بعدم قبول روايات أوردها

¹ مكاتيب شبلي، ص 202، مطبع معارف بريس، أعظم كره، 1966م

² أردو دائره معارف إسلاميه، 405/12

³ سيرة النبي، 83/1

الطبري في تاريخه ليس ذلك من العدل. يقول جامع السيرة الشيخ سيد سليمان الندوي في هذا الصدد قولاً معقولاً ومناسباً بأن فن الفقه مستنبط من القرآن والحديث ولكن لا يمكن أن يقال عنه إنه القرآن أو الحديث أو مثلهما¹. والسيرة أيضاً فن مستقل وليست فن الحديث نفسه. وكان أصحاب السير القدامى يراعون بهذا الفرق الأساسي وكانوا يعلمون أن التفاصيل الجزئية المطلوبة في وقائع السيرة لا تبلغ المعيار الأعلى لفن الحديث مثلاً ابن إسحاق وابن هشام وابن سيد الناس والدمياطي والحلي وغيرهم الذين كانوا يعترف بهم كأساطين السيرة وهؤلاء لم يعنوا ولم يراعوا مثل ما عني وراعى المحدثون كالإمام البخاري والإمام مسلم والإمام مالك في جمع الحديث وترتيبه. عرف العلامة شبلي بهذا الفرق جيداً ولذلك كان يقبل روايات الطبري التي كانت تبلغ درجة الصحة بعد التحقيق والتنقيح على أصول الدراية. وهذا صحيح.

وفي الأوراق التالية يأتي الكلام عما ورد في سيرة النبي للعلامة شبلي -المجلد الأول والثاني- من هوامش الطبري كلها في مختلف الصفحات وفي جميع الوقائع. ولا بد من التوضيح هنا أنه كتب الهوامش التي أضافها سيد الندوي أو أضافها الآخر عند المراجعة إلا أنه أبقى هوامش الطبري المخرجة في البحث لأنها هي التي استفاد منها العلامة شبلي نفسه، أشار المحشون إلى الصفحات فقط. ويبدو من مطالعة هوامش الطبري المندرجة في سيرة النبي بالاستيعاب أن العلامة شبلي تناول فقط روايات الطبري المتعلقة بالسيرة التي تتعلق كثيراً ما بالأخلاق وفضائل الصحابة والغزوات وعاداته صلى الله عليه وسلم وما لحقه من الأذى في مكة وغيرها. أما الروايات التي تجرح صفاء الإسلام فلم يتعرض لها في البحث والتحقيق.

المجلد الأول لسيرة النبي:

أتى العلامة شبلي بذكر الإمام الطبري أولاً وقبل كل شيء في بداية فن السيرة ورأس المال المحرر للمجلد الأول من سيرة النبي فكتب أن جميع المحدثين يعترفون بفضل الطبري وكماله ووثوقه وسعة علمه²، وتاريخه الشهير "تاريخ الرسل والملوك" كتاب

¹ المصدر نفسه (حاشية)

² المصدر نفسه، ص 19

جامع في سلسلة التاريخ، وجميع كتب التاريخ الموثوق بها والمفصلة منها مثلًا تاريخ الكامل وتاريخ ابن أثير وتاريخ ابن خلدون وتاريخ أبي الفداء وغيرها مأخوذة من كتاب الطبري ومختصرة منها¹. ذكر شبلي أن سلمة بن الفضل الأبرش الأنصاري من رواة الطبري² وتاريخ الطبري من أمهات كتب السيرة³ وشيوخ الروايات سلمة بن الأبرش وابن سلمة بالنسبة للطبري⁴ وعدم مبالاة الإمام الطبري بالروايات الموضوعية الموجودة في كتب السيرة والمأخوذة من كتب الحديث⁵ وذكر نشر بارث ونولده تاريخ الطبري منذ 1879م إلى 1892م⁶ وذكر العلامة شبلي الطبري أيضًا مع ذكر كتب السيرة الأخرى أثناء الإشارة إلى أصول تأليف سيرة النبي وترتيبه وأن روايات ابن سعد وابن هشام والطبري كانت تنال الاهتمام الكبير في الوقائع العامة اليومية ولكن الوقائع الموجودة فيها أخذت من الطبري بعد التحقيق والتنقيح من جميع النواحي كما فحص جميع أسماء الرواة واحدة تلو أخرى في ضوء فن أسماء الرجال⁷. وذكر العلامة شبلي في تحقيق نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم رواية الطبري التي وردت فيها الأسماء لأربعين نسلاً من معد إلى إسماعيل عليه السلام وكتب في تلك الصفحة أيضًا أنه كان يهودي في مدينة تدمر اسمه أبو يعقوب الذي أسلم بعد مدة وقال إنه يمتلك شجرة نسب عدنان التي كان كتبها كاتب رسول أرمياها فيها أربعون اسمًا من عدنان إلى إسماعيل عليه السلام⁸ وفي هامش تذكرة هاشم ذكر وقوع القحط وإطعام هاشم أخبارًا مكسرة في المرق. وفي الطبري ذكر أن هذه حاشية الشيخ

¹ المصدر نفسه

² المصدر نفسه، ص 23

³ المصدر نفسه، ص 34، (فن سيرت پر تبصره)

⁴ المصدر نفسه، ص 35

⁵ المصدر نفسه، ص 37

⁶ المصدر نفسه، ص 38

⁷ المصدر نفسه، ص 69

⁸ المصدر نفسه، ص 114، وانظر أيضًا الطبري، 118/3

سيد الندوي التي أضافها من قبله¹ وفيها ذكر بيت خديجة رضي الله عنها الذي كان على اسمها والذي اشتراها الأمير معاوية رضي الله عنه فيما بعد وبني فيه المسجد². وفي صدد الرواية الشهيرة "تلك الغرائيق العلى وإن شفاعتمن لترتجى" انتقدها العلامة الطبري والزرقاني وجميع أصحاب السير القدامى الشهير³. ويظن العلامة أن هذه الرواية مع كونها موثوقاً بها عند أكثر أصحاب السير والمحدثين ولكنها بما أنها تجرح نبوة النبي صلى الله عليه وسلم وثقته وهو الذي لا يغيب عن عين الله سبحانه في كل آن وفي كل مكان ولا يمكن أن تصدر عن لسانه مثل هذه الكلمات التي تؤدي إلى الشرك فهذه الرواية مع جميع دلائل الصحة غير موثوق بها. وبين العلامة في هذا الصدد عادة الكفار العامة الشهيرة وهي إثارة الضجيج أثناء تلاوته صلى الله عليه وسلم القرآن لكي ينسوه أو يحدثوا الاضطراب في التلاوة كما جاء ذكر ذلك في القرآن عينه، وأن قريشاً عندما كانوا يطوفون الكعبة يرددون هذه الكلمة على لسانهم "واللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى فإنهن الغرائيق العلى وإن شفاعتمن لترتجى". ومن الواضح أن النبي صلى الله عليه وسلم عندما قرأ هذه الآية من سورة النجم قرأها كافر وأضاف الألفاظ الأخرى مع صوت النبي صلى الله عليه وسلم وظن الناس الذين كانوا على بعد منه صلى الله عليه وسلم أنه صلى الله عليه وسلم قال ذلك. وعندما ذكر ذلك بين يدي المسلمين فقالوا إن شيطاناً مريداً أضاف تلك الفقرة مع صوت النبي صلى الله عليه وسلم. وبسبب ذلك اضطربت الروايات فورد في بعضها أن شيطاناً أخرج هذه الألفاظ من فيه. وفي تأييد ظنه نسب العلامة الإحالة إلى ابن سعد أيضاً⁴. وذكر العلامة حادثة اتحاد جميع القبائل ضد بني هاشم ومحاصرتهم في شعب أبي طالب عند ازدياد إقبال الإسلام ضد اعتداءات متنوعة ظالمة⁵ ذكره ابن هشام

¹ المصدر نفسه، ص 117، وانظر أيضاً الطبري، 130/3

² المصدر نفسه، ص 133، وانظر أيضاً الطبري، 130/3

³ المصدر نفسه، ص 171-172

⁴ المصدر نفسه، ص 172

⁵ المصدر نفسه، ص 174، وانظر أيضاً الطبري، 1189/3

وابن سعد وغيرهما أيضاً. وتفصيل قيام الأعداء أنفسهم بتحرير بني هاشم من الحصار بعد ثلاث سنوات متتابعة وتمزيق الميثاق أيضاً موجودة في صفحة 1198 - 1196 في المجلد الثالث من الطبري وموجودة في ابن هشام وابن سعد أيضاً¹. وحادثة رمي التراب على جبين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبكاء فاطمة أثناء غسل رأسه صلى الله عليه وسلم وحادثة استهزاء الطائف به في الأسواق ورمي الحجارة إليه وحادثة السب والشتيم والتصفيق عليه صلى الله عليه وسلم موجودة في صفحة 1199 في المجلد الثالث من الطبري - وتفصيل ذلك موجودة عند ابن هشام والمواهب اللدنية وغيرهما أيضاً². وفي الصفحة 1205 في المجلد الثالث من الطبري أن النبي صلى الله عليه وسلم جال بدءاً في مختلف القبائل لإشاعة الإسلام وترويجه كما توجه إلى بني عامر فقال له واحد منهم: إذا ناصرناك وغلبنا هل يكون زمام الحكومة في أيدينا؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: الله أعلم. فقالوا: نحن نقاتل العرب ونغلبهم ويحكمهم غيرنا! لا حاجة لنا إليه!³ وكان سويد بن الصامت الأنصاري شاعراً ومحارباً ممتازاً وكان لديه نسخة أمثال لقمان وكان يظنه كتاباً سماوياً. وذات مرة قصد الحج فزاره الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه فقرأ الأنصاري الأمثال اللقمانية فقرأ الرسول صلى الله عليه وسلم بعضها من أي القرآن الكريم فاستحسنها وقبل الإسلام من أعماق القلب وأصبح معتقداً⁴. أخرج ابن هشام أيضاً هذه الرواية ونقلها صاحب البداية والنهاية أيضاً في تاريخه. وفي الطبري روايات فيما أنه صلى الله عليه وسلم ذهب إلى سفير الأوس إياس بن معاذ وقرأ بعضاً من أي القرآن بين يديه فحث قبيلته ورغبها في اعتناق الإسلام فرماه أمير القافلة أبو الحسيس بالحصى. وتوجد في كتب الحديث والسير أيضاً أن الكفار عندما حاصروا بيته صلى الله عليه

¹ المصدر نفسه، ص 175

² المصدر نفسه، ص 178

³ خرج الإحالة سيد سليمان الندوي وتوجد هذه الواقعة في ابن هشام أيضاً التي خزجها العالم ضياء الدين الإصلاحي رحمه الله، انظر الصفحة 181

⁴ الطبري، 1260/3

وسلّم أنام صلّى الله عليه وسلّم عليّاً رضي الله عنه على فراشه ثم خرج. وحبس الكفار عليّاً رضي الله عنه في الحرم ثم تركوه بعد لحظات - خرج سيد الندوي إحالة الطبري في الصفحة 1234 في المجلد الثالث وسيرة النبي برقم الصفحة 194. وكان الرجلان كلثوم بن هدم وأسعد بن زرارة من قبيلة الأنصار بشيرين لقبيلة بني النجار¹، روى الطبري أنهم طلبوا منه صلّى الله عليه وسلّم بعد وفاتهما تولية منصبهما فأجابهم النبي صلّى الله عليه وسلّم أنه بشيرهم وأصبحت تلك القبيلة تحظى بهذه السعادة². وفوجئ النبي صلّى الله عليه وسلّم بوفاة الصحابي أسعد الأنصاري رضي الله عنه فحزن حزناً شديداً فطعنه المنافقون أنه لو كان نبياً لما صدمته وفاته فقال لهم: لا أملك قوة - إلا بالله - تنفعني إياي وأصحابي³. وأجمع المحدثون أكتعون على أن بداية المغازي من رجب من العام الثاني من الهجرة الذي وقع فيه أن النبي صلّى الله عليه وسلّم بعث عبد الله بن جحش واثني عشر صحابياً معه إلى بطن نخلة ما بين مكة والطائف برسالة فيها أن يقيموا في نخلة ويراقبوا أهل مكة. وحدث فجأة أن بعضاً من عظماء قريش مثل عمر بن الحضرمي وعثمان ونوفل وغيرهم كانوا يرجعون من الشام ومعهم أموال التجارة فهاجمهم عبد الله بن جحش وأخذ الغنائم إلى المدينة فغضب النبي صلّى الله عليه وسلّم وقال إنني لم أؤذنكم ذلك وأنكر قبول الغنائم وغضب عليه الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين أيضاً وأغضب ذلك أهل قريش أيضاً وتسبب لهم في أخذ الثأر. نقل العلامة شبلي هذه الحادثة من الطبري ونقل رأي الطبري فيها أيضاً. وهو أيضاً يظن أن غزوة بدر والحروب بعدها تتعلق بتلك الحادثة وتلك هي أول الغزوات⁴. وقطع سيف عكرمة بن أبي جهل عضد معاذ رضي الله عنه إلا الشريط وكان معاذ رضي الله عنه يقاتل في تلك الحالة ويده تعرقله في القتال فوضع رجله على اليد وقطعها بالسيف لكي يخلص نفسه من اليد المقطوعة. أخرج

¹ المصدر نفسه

² المصدر نفسه، ص 213، وانظر أيضاً الطبري، 1261/3

³ المصدر نفسه، ص 223، وانظر الطبري، 1275/3

⁴ المصدر نفسه، ص 223، وانظر أيضاً الطبري، 1330-1329/3

الطبري هذه الحادثة العجيبة العجيبة وأخذها العلامة. وهي تقدم مثلاً أعلى على عاطفة الاستشهاد¹. وإن البخاري الذي كان خصماً حريفاً مكرهاً في الحرب توجد رواية قتله في الصفحة 1324 في المجلد الثالث من الطبري². وقد قسم النبي صلى الله عليه وسلم أسرى غزوة بدر بين الصحابة لكي يستخدموا منهم. ونقل العلامة من الطبري واقعة أبي عزيز أخي مصعب بن عمير أن الأنصار الذين أسروه كانوا يكتفون أنفسهم بالتمر ويطعمونه الخبز أيضاً. ونقل سيد سليمان الندوي من الطبري أن عمر رضي الله عنه شاور النبي صلى الله عليه وسلم إخراج نابين من الأسفل لسهيل بن عمرو – أسير بدر الذي كان يهجو رسول الله صلى الله عليه وسلم – فأنكر النبي صلى الله عليه وسلم³. وكان صهر النبي صلى الله عليه وسلم أبو العاص زوج زينب رضي الله عنها من أسرى بدر، إنه سأل زوجته زينب رضي الله عنها مال الفدية فأرسلت عقدها الذي أعطاها خديجة رضي الله عنها في نكاحها. فاستأذن النبي صلى الله عليه وسلم الصحابة رضي الله عنهم وأرجعه إليها وعفا عن زوجها⁴. وأراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يكلم الأنصار قبل وقوع غزوة بدر فقال سعد وأنصاري مكرم رضي الله عنهما – لم يصرح شبلي اسمه ولم يصرح سيد الندوي وأصحاب التخرج الآخرون – إننا لا ننتهي إلى قوم موسى الذين قالوا: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون، والله لو أمرتنا لدخلنا النار وولجنا البحر. أخرجها الطبري في الصفحة 1302 للمجلد الثالث وأخرجها ابن هشام أيضاً⁵.

أحال العلامة شبلي في صدد غزوة بدر إلى رواية الطبري مع رواية ابن حنبل وابن شيبه والبيهقي يثبت منها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان قد خرج من المدينة عندما

¹ المصدر نفسه، ص 223

² المصدر نفسه، ص 236، وانظر أيضاً الطبري، 1344/3

³ المصدر نفسه، ص 236، وانظر أيضاً الطبري، 1344/3

⁴ المصدر نفسه، ص 238، وانظر أيضاً الطبري، 1338/3، وتوجد هذه الرواية في أبي داود أيضاً.

⁵ المصدر نفسه، ص 245

سمع هجوم مكة على المدينة¹. علمًا بأن العلامة شبلي ذكر بعض الحروب قبل غزوة بدر² لأنه كان يعدّ هذه الغزوة حربًا دافع فيها المسلمون من أنفسهم وذكر لذلك أسبابًا عديدة أيضًا من كتب التاريخ والسير الموثوق بها. استخدم العلامة شبلي الطبري مصدرًا في أماكن خاصة حين ذكر الأسباب لا نذكرها هنا خوفًا من الإطالة³. أخذ العلامة رواية غزوة السويد من الصفحة 1367 والصفحة 259 في المجلد الثالث للطبري كما أخذ رواية مشاركة بعض نسوة الحرم وقائمة أسماءهن⁴. أخرجها الزرقاني أيضًا⁵. وأخذ العلامة من الصفحة 1389 من المجلد الثالث للطبري رواية فيها ذكر مشاركة عبد الله بن أبي ابن سلول مرة أولى في المشورة التي أقيمت بمناسبة غزوة أحد. قام بتخريجها سيد الندوي⁶. وأخذ من الصفحة 1391 من المجلد الثالث للطبري رواية قيام رافع بن خديج على أباهيمة ولكن أحال سيد الندوي إلى ابن هشام والبداية وغيرهما أن رافعًا شارك في الغزوة بسبب مهارته في الرماية لا بسبب قيامه على أباهيمة⁷. والرجل الشهير من المدينة أبو عامر الذي كان يظن أن الأنصار سوف يتفرق عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما ينظرون في ميدان الحرب تمثل في غزوة أحد وكان معه مئة وخمسون رجلًا⁸. وأخذ من الصفحتين 1410 و1411 والصفحة 269 من المجلد الثالث للطبري رواية صعود النبي صلى الله عليه وسلم على جبل أحد مع أصحابه وصعود أبي سفيان أيضًا وهو يتابعه صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم عندما رأهم يصعدون فرمى عمر وبعض الصحابة رضي الله عنهم على أبي سفيان وأصحابه. وأخذ من الصفحات 1421-1425 من المجلد الثالث

¹ المصدر نفسه، ص 251، وانظر أيضًا الطبري، 1289/3

² المصدر نفسه، ص 256، وانظر أيضًا الطبري، 1285/3

³ المصدر نفسه، ص 357

⁴ الطبري، 1289/3

⁵ الطبري، 1389/3

⁶ المصدر نفسه، ص 263

⁷ المصدر نفسه، ص 264

⁸ المصدر نفسه، ص 265، وانظر أيضًا الطبري، 1399/3، وتوجد هذه الرواية في ابن هشام أيضًا

للطبري أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شاور الصحابة رضي الله عنهم أن لا ترى صفية نعش حمزة رضي الله عنه ولكنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أجازها عندما التمسته. وعندما رأت صفية حمزة أرجعت واستغفرت له. وذكر قصة امرأة عفيفة أنصارية سألت عن حال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع أنها كانت قد سمعت استشهاد أبيه وشقيقه وزوجه وقالت: كل مصيبة بعد جليل¹. ويثبت من كتب الحديث صحيح البخاري وصحيح مسلم أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هاجم فجأة في غزوة بني المصطلق أو غزوة مريسيع وهو يخالف أصول الحروب الإسلامية. ولذلك قام العلامة شبلي بتحقيق دقيق وكتب وهو يحيل إلى فتح الباري لابن حجر أنه لا ترجيح لرواية السيرة على رواية الصحيحين ولكن رواية الصحيحين أيضًا منقطعة في ضوء أصول الحديث. وأثبت العلامة من الصفحة 1515 من المجلد الثالث للطبري ومن ابن سعد وغيرهما أن بني المصطلق كانوا عارفين بالهجوم ولذلك لم يزل أهل المريسيع يرمون السهام فهاجمهم المسلمون فجأة واحدة وزلزلوا أقدامهم. وقد اختلف عنه سيد سليمان الندوي فقال إن هذه الرواية غير منقطعة². وحاصر قريش واليهود وبعض قبائل العرب المدينة من جهات ثلاث لمدة شهر تقريبًا فواجه الصحابة رضي الله عنهم المجاعة ثلاث مرات وخيّل إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه من الممكن أن تفتقر عزيمة الأنصار فأراد أن يعاهد بني غطفان بشرط أن يعطيهم ثلث إنتاجات المدينة. ولذلك طلب سعد بن عبادة وسعد بن معاذ رضي الله عنهما وشاورهما فقالا لو أمرك الله فلا مجال للإنكار وإذا كان رأيك فنرى أن الإسلام عندما كان ضعيفًا فلم ندفع الخراج ثم قوي الإسلام ونحن الآن في قوته فلماذا ندفع ثلثها. ثم أخذ ورقة المعاهدة ومحاها بيده. ذكر الطبري ذلك في الصفحة 1474 من المجلد الثالث³. ووصول علي رضي الله عنه إلى حصون قريظة وتخريبه إياها وسب أهل قريظة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كل

¹ المصدر نفسه، ص 292

² المصدر نفسه، ص 294، 295

³ المصدر نفسه، ص 302

ذلك المذكور في الصفحة 1485 من المجلد الثالث¹. وكان ذلك دفاعًا عن المسلمين. وفي الطبري أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذهب إلى بيت زيد لأجل اللقاء به فلم يجده ورأى زوجته زينب تلبس ثيابها فحضر زيد رضي الله عنه في خدمة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال لو أحببت زينب لأطلقها لك². انتقد العلامة شبلي الطبري على ذكر هذه الرواية وقال إنني أجبرت قلبي على ذكرها و"نقل الكفر ليس بالكفر" وجعل المسيحيون هذه الرواية مصدر استنادهم ولكنهم لا يعلمون أن هذه الرواية فيها حسب أصول الفن خطأ وهو أنها مروية عن الواقدي وهو كذاب ولم يعتبرها المحدثون بل انتقدوها نقدًا عنيفًا³. وأخذ التفاصيل من الصفحة 1559 من المجلد الثالث للطبري عن رسائل الدعوة إلى الإسلام التي أرسلت إلى قيصر الروم وملك ملوك العجم وعزيز مصر ورؤساء العرب. ويوجد ذكر ذلك في ابن هشام أيضًا⁴. ولا توجد لدى الإمام البخاري والإمام مسلم وغيرهما شيء من روايات فيها ذكر قبول النجاشي الإسلام على دعوة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وذكر إرسال ابنه مع الستين شخصًا في خدمة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وذكر وفاة النجاشي في عام 9 من الهجرة⁵. وكتب العلامة وهو ينقل عن الطبري أن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دعا عزيز مصر إلى الإسلام فلم يسلم وأرسل أمتين مارية قبطية وسيرين في خدمة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقبل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مارية قبطية وأعطى حسان بن ثابت رضي الله عنه سيرين. ذكر الطبري أن مارية وسيرين كانتا شقيقتين وكانتا قد أسلمتا بسبب أن علمهما حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه أثناء السفر وقبل وصولهما في الخدمة النبوية. ولذلك نكح النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مارية قبطية

¹ المصدر نفسه، ص 309

² المصدر نفسه، ص 315، وانظر أيضًا الطبري، 1461/3

³ المصدر نفسه

⁴ المصدر نفسه، ص 329

⁵ المصدر نفسه، ص 335، وانظر أيضًا الطبري، 1502/3

بسبب قبولها الإسلام فدخلت في حرم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كزوجة لا كأمة¹.
وخرَجَ سيد الإحالات وخرَجَ بعضًا منها العالم ضياء الدين الإصلاحي رحمه الله.

وكتب أصحاب السير أن غزوة ذي قرد وقعت قبل وقوع خيبر بسنة ولكن ذكر الإمام البخاري أنها وقعت قبلها بثلاث سنوات وأيده ابن حجر. ونقل سيد سليمان الندوي رواية من الطبري تصرح بأن غزوة ذي قرد وقعت قبل خيبر بثلاثة أيام فقط². ونقل شبلي من الطبري رواية فيها ذكر إتيان غطفان أهل خيبر لنصرهم في حرب خيبر ورجوعهم³. ونقل من الطبري رواية فيها أن أبا بكر وعمر وغيرهما رضي الله عنهم رجعوا جبانًا في معركة خيبر قبل تسخير حصن خيبر. ونقد هذه الرواية نقدًا حديثيًا وروائيًا ودرائيًا وكتب أن رواية فيها هروب عمر رضي الله عنه ورواها راو ينتهي إلى مدرسة فكرة شيعية لا تعتبر تلك الرواية⁴. ثم ذكر في الصفحة القادمة من الطبري رواية فيها أن الشجاع مرحب عندما واجهه علي رضي الله عنه ضربه علي رضي الله عنه بالسيف ضربًا شديدًا قطعت الرأس وبلغت الألسن وبلغ صوت الضرب إلى العسكر⁵. انتقد هذه الرواية نقدًا تحقيقيًا وكتب أن قتل الشجاع كان حادثة عظيمة. ولذلك بالغ حب العجائب في إشاعة الشائعات تجاه هذه الحادثة أن مرحبًا عندما قتله علي رضي الله عنه هاجم عليهم اليهود هجومًا عامًا واتفق أن سقط ترس علي رضي الله عنه من يده فاجتث الباب الحجري للحصن وجعله ترسًا له. ولما حاول أبو رافع وسبعة أشخاص معه أن يحملوه فلم يستطيعوا أن يحركوه من مكانه. أخرجها ابن إسحاق والحاكم أيضًا. ولكن نقل من العلامة السخاوي والعلامة الذهبي أن هذه الروايات قصص سوقية منكورة ثم نقد رواة الإمام البخاري وأبي داود

¹ المصدر نفسه، ص 236، وانظر أيضًا الطبري، 1591/3

² الطبري، 1502/3

³ المصدر نفسه، ص 344، وانظر أيضًا الطبري، 1575/3

⁴ المصدر نفسه، ص 346، وانظر أيضًا الطبري، 1579/3

⁵ المصدر نفسه، ص 347، وانظر أيضًا الطبري، 1579/3

والدارقطني وغيرهم وحرر أن هذه الرواية لا تبلغ درجة الاعتبار¹. وذكر رواية من الصفحة 1451 من المجلد الثاني لمسند الإمام أحمد بن حنبل والصفحتين 1583 - 1584 من المجلد الثالث للطبري أن زوجة سلام بن مشكم شقيق الشجاع مرحب ألقى السمّ في طعام رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وأصحابه رضي الله عنهم أجمعين². ويثبت من معظم أرباب السير ومن رواية الطبري أن كنانة بن أبي الحقيق عندما لم يخبره صلّى الله عليه وسلّم عنون الخزانة حكم النبي صلّى الله عليه وسلّم أن يؤذى إيذاءً شديداً. وكان زبير رضي الله عنه يحرق الزند ثم يكويه به حتى وشك أن يموت فأمر النبي صلّى الله عليه وسلّم نهائياً أن يقتل³. واستفاد من رواية الطبري الأخرى أنه لم يقتل كنانة بن أبي الحقيق بسبب أنه لم يخبر عنون الخزانة بل قتل بسبب أنه قتل الصحابي محمود بن مسلمة رضي الله عنه. ولذلك أمر النبي صلّى الله عليه وسلّم أن يقتل قصاصاً⁴. أخرجها ابن هشام أيضاً. وكتب عليه مزيداً وهو يبحث عنها بحثاً درائياً أن هذه الرواية ذكرها الطبري وابن هشام عن ابن إسحاق ولم يصرح ابن إسحاق أحداً من الرواة السابقين. وقد صرح المحدثون بأن ابن إسحاق كان يروي المغازي النبوية عن اليهود. ولا بد أن تعتبر هذه الرواية من تلك الروايات. وهذا هو السبب أن ابن إسحاق لا يسمي أولئك الرواة. ومما ينافي رحمة العالمين صلّى الله عليه وسلّم أن يؤذي أحداً مثل هذا الإيذاء بسبب أنه لا يخبر عنون الخزانة وأيضاً الذي لا يتعرض تعرضاً مطلقاً لمن ألقى في طعامه السم. فهل يمكن أن يأمر بإحراق أحد على أنه لم يخبر عنون بعض الفلوس⁵. وفي السطور التالية قام العلامة ببحث علمي وأسلوب منفرد يجذب انتباه القراء كلياً. نقض بنو بكر العهد بعد صلح الحديبية وهاجموا خزاعة وعاونهم قريش علناً. كتب العلامة نقلاً من الطبري أن

¹ المصدر نفسه، ص 347، 348، وانظر أيضاً الطبري، 1589/3

² المصدر نفسه، ص 350

³ المصدر نفسه، ص 351، وانظر أيضاً الطبري، 1582/3

⁴ أيضاً، صفحة 351، 352، وانظر أيضاً الطبري، المجلد الثالث، صفحة 1582

⁵ المصدر نفسه، ص 352، وانظر أيضاً الطبري، 1582/3

عكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية وسهل بن عمرو وغيرهم تنكروا في زهيم وقتلوا مع بني بكر بالسيوف وأجبروا خزاعة أن يلتجأوا إلى الحرم¹. وأخذ العلامة شبلي كثيرًا من تفاصيل فتح مكة من صحيح البخاري وأخذ بعض الوقائع من الطبري أيضًا مثلًا إخبار عمر رضي الله عنه النبي صلى الله عليه وسلم عندما رأى أبا سفيان والتماس عباس رضي الله عنه لخلاص سفيان وقوله لعمر: لو كان أبو سفيان من قبيلتك لما كنت غليظ القلب كما أنت الآن، ثم قول عمر رضي الله عنه: لعلي ما كنت أسرّ بقبول والدي الإسلام مثل ما سررت بقبولك الإسلام² ونقل من الطبري تلك الروايات التي فيها ذكر بيع الرجال معه صلى الله عليه وسلم في موضع الصفا بعد فتح مكة ثم بيع النساء وكيف كان ذلك³ ثم بيع أم معاوية هندة من بين النساء وكلامها مع النبي صلى الله عليه وسلم وفرار صفوان بن أمية إلى جدة وإرجاعه إلى مكة وتقديم عمامة رسول الله صلى الله عليه وسلم كعلامة الأمانة وذهاب أم حكيم إلى اليمن لإرجاع عكرمة بن أبي جهل⁴ وتفاصيل الوقائع الجزئية لمعارك هوازن وثقيف⁵ وانهزام المسلمين في معركة حنين وزلزال أقدامهم ولكن الرواية التي فيها ذكر استقامة بعض الصحابة الكرام في ذلك الحين التي لم يستطع شبلي أن يكتبها كتب سيد الندوي جامع السيرة في ذلك المكان حاشية طويلة واستفاد من روايات الطبري أيضًا في تحقيق وجوه انهزام المسلمين في حنين⁶ ونقل العلامة شبلي في ذكر محاصرة الطائف من الصفحة 1669 من المجلد الثالث للطبري وابن إسحاق أن عروة بن مسعود وعيلان بن سلمة تعلموا فن صناعة آلات تخريب الحصون مثل الدبابة والصنبور والمنجنيق في جرش مديرية اليمن⁷. وكانت في أسرى حرب الأوطاس شيما رضي الله

¹ المصدر نفسه، ص 362، وانظر أيضًا الطبري، 1620/3

² المصدر نفسه، ص 365، وانظر أيضًا الطبري، 1632/3

³ المصدر نفسه، ص 370، وانظر أيضًا الطبري، 1664/3

⁴ المصدر نفسه، ص 378، 379، وانظر أيضًا الطبري، 1546-1545/3

⁵ المصدر نفسه، ص 378-379، وانظر أيضًا الطبري، 1657-1655/3

⁶ المصدر نفسه، ص 380، وانظر أيضًا الطبري، 1660/3

⁷ المصدر نفسه، ص 385

عنها أخت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الرضاة أيضًا التي ادعت عند أسرها أنها أخت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأتي بها إلى الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للتصديق فقالت إنك عضضت ظهري وها هي علامته فدمعت عيناه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بفطر المحبة وأجلسها بكل عزة واحترام ثم أرسلها إلى وطنها حسب مشيئتها. أخذ هذه الرواية من الصفحة 1669 من المجلد الثالث للطبري وابن سعد كليهما¹. وأخذ تفاصيل وقائع سراح أسرى حنين وكانوا ستة آلاف تقريبًا من ابن سعد والصفحة 1676 من المجلد الثالث للطبري². ونقل سيد الندوي من الصفحة 1722 من المجلد الرابع للطبري رواية فرضية الزكاة وتعيين العمال للحصول عليها وصلاة الجنابة على النجاشي في الغيبوبة في سنة 9 من الهجرة تحت الوقائع المتفرقة أخيرًا من ذكر غزوة تبوك³. وكتب العلامة وهو ينسب القول إلى الطبري أن غرض بعث السرايا إلى أطراف مكة كان هو الدعوة إلى الإسلام لا الحرب والقتال⁴ ونقل العلامة من الطبري عبارة رسالة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقت إرسال سرية ابن جحش⁵. واستخدم خالد بن الوليد رضي الله عنه عند ما أرسل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سرية كعب بن عمير رضي الله عنه وعندما بلغه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما فعلت تلك السرية توجه نحو القبلة ثلاث مرات وهو يقول يا الله أنا بريء منه وبعث عليًا رضي الله عنه أن يؤدي دية طفل - مأخوذة من الصفحة 430 - وكتب العلامة وهو ينسب القول إلى الطبري أن غرض بعث السرايا إلى أطراف مكة كان الدعوة إلى الإسلام لا الحرب والقتال⁶. توجد هذه الرواية الشهيرة بألفاظ مختلفة في كتب الحديث أيضًا. وتم أسر ابنة حاتم الطائي في حرب حنين فأتي بها إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأقامها النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ناحية من المسجد بسبب عزتها

¹ المصدر نفسه

² المصدر نفسه، ص 389

³ المصدر نفسه، ص 406-407

⁴ المصدر نفسه، ص 430، وانظر أيضًا الطبري، 1649/3

⁵ المصدر نفسه، ص 440

⁶ المصدر نفسه، ص 430، وانظر أيضًا الطبري، 1651/3

وكرامتها ثم أرسلها إلى وطنها اليمن بعد بضعة أيام مع زاد السفر. أخذ العلامة هذه الرواية من الطبري¹. وأخرجها ابن سعد أيضًا.

المجلد الثاني لسيرة النبي:

ما أضاف سيد الندوي في هذا المجلد وما في هذه الإضافات من إحالات الطبري تحريرًا إياها يتم استعراض مراجع الطبري التي أخذها العلامة شبلي في كتابه. لم يكن استعراض سيد لإحالات الطبري إلا سببًا لإطالة البحث وخارجًا عن الموضوع ولذلك تركناها.

بدأ العلامة شبلي المجلد الثاني لسيرة النبي بعنوان "تبليغ وإشاعة الإسلام". والباب قبله إضافة سيد. الندوي وأول إحالة الطبري في هذا المجلد هو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسل بعض قطع من الجيش إلى نواحي مكة للدعوة والإرشاد إلى الله ولم يأمرهم بقتال ولكن ذهب خالد فقاتل قتالا شديدًا فأظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم براءته من عمله هذا وبعث عليًا رضي الله عنه لأداء الدية حتى أداء دية الكلاب². في هذا المجلد ذكر قبول أهل الحجاز الإسلام في سنة 9 من الهجرة بعد فتح مكة³ وأول من حفظ القرآن في صنعاء وهو عطاء بن مركبود ووهب بن منبه⁴ وذكر حضور كبار رؤساء بني تميم الأقرع بن حابس وزبرقان عمرو بن الأهتم ونعيم بن يزيد وغيرهم في ضمن وفود العرب في الخدمة النبوية⁵ واستئذان عقد المفاخرة في جناب النبي صلى الله عليه وسلم وانتقاؤه ثابت بن قيس لإجابة عطار التميمي. والمفاخرة الشعرية موجودة في الصفحة 1714 من المجلد الرابع للطبري⁶. وعندما حضر وفد ثقيف في خدمته صلى الله عليه وسلم قَدَّم شروطًا اشترطها لقبول

¹ المصدر نفسه، ص 435، وانظر أيضًا الطبري، 3/1649-1651

² سيرة النبي، 2/17-18 وانظر الطبري، 3/1649-1651

³ المصدر نفسه، ص 20، وانظر أيضًا الطبري، 4/1706

⁴ المصدر نفسه، ص 23، وانظر أيضًا الطبري، 4/1763

⁵ الطبري، 4/1711

⁶ المصدر نفسه، ص 30

الإسلام فلم يقبلها النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأخيراً استردوا شروطهم وسألوه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن أصنامهم فقال إنها سوف تكسر. فلذلك بعدما رجع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى السفارة أرسل أبا سفيان ومغيرة بن شعبة رضي الله عنهما إلى الطائف لكسر صنمها الأعظم "اللات". وعندما أراد مغيرة رضي الله عنه كسرها خرجت نساؤهم من البيوت باكيات حاسرات رؤوسهن منشدات أشعاراً. أخرجها من الصفحة 1192 من المجلد الرابع للطبري¹. والباب الكامل "تأسيس الحكومة الإلهية" إضافة لذلك أغفلها. وعندما وصل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المدينة أقام في قباء وغادرها يوم الجمعة وصلى صلاة الجمعة في حي بني سالم. وقعت الواقعة في أواخر ربيع الأول سنة 1 من الهجرة. ويتضح منها أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَّى صلاة الجمعة أول مرة في حي بني سالم². وسنّ صلاة العيد في سنة 2 من الهجرة³. ونزل حكم صلاة الخوف في سنة 5 من الهجرة⁴. أخرجها أبو داود وابن سعد وغيرهما أيضاً.

أثبت العلامة شبلي من الصفحة 1281 من المجلد الثالث للطبري أن أداء صدقة الفطر واجب يوم عيد الفطر⁵ كذلك تعيين العاملين على الزكاة في سنة 9 من الهجرة⁶. وقام سيد الندوي باستعراض نقدي لرواية الطبري في تحديد تاريخ وفاة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ⁷. وأخذ من الطبري حادثة ضرب عمر رأس الشخص الذي أخبره بوفاة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ⁸. وألقى العلامة نظرة ناقدة على روايات الطبري عن المواشي فحرر أن الطبري ذكر أسماء هذه المواشي كلها وأحوالها

¹ المصدر نفسه، ص 37

² المصدر نفسه، ص 90، وانظر أيضاً الطبري، 1256/3-1257

³ المصدر نفسه، ص 91، وانظر أيضاً الطبري، 1281/3

⁴ المصدر نفسه، ص 91، وانظر أيضاً الطبري، 1454/3

⁵ المصدر نفسه، ص 94

⁶ المصدر نفسه، ص 94-95 وانظر أيضاً الطبري، 1281/3 و1815/4

⁷ المصدر نفسه، ص 132-134، وانظر أيضاً الطبري، 1281/3، و1722/4

⁸ المصدر نفسه، ص 142، وانظر أيضاً الطبري، 1817/4

بالتفصيل ولو كانت معتبرة لكانت أبهج ولكن جميع الروايات في هذا الباب تنتهي إلى الواقدي بلا استثناء وقام المحدثون الكبار غير الطبري اليعمري والمغلطائي والحافظ وغيرهم بتوفير أمثال هذه التفاصيل ولكن بما أن هؤلاء المحدثين لا يكتبون الأسانيد في أكثر الأحيان وهم موثوق بهم يعتبرها أكثر الناس وقائع صحيحة ولكن بعد البحث والتحقيق يتضح لنا أن سلسلة جميع الروايات تصل إلى الواقدي فقط. ولذلك عدّ العلامة شبلي هذه الروايات كلها غير موثوق بها¹ وأخذ ما ثبت من كتب الأحاديث من تفاصيل المواشي². وأخذ واقعة بيع هند من الصفحة 1643 من المجلد الثالث للطبري - خرّجها العالم ضياء الدين الإصلاحي رحمه الله - ولم يكتب العلامة شبلي أية إحالة لها.

ولم تمر أية إحالة للطبري نقلها العلامة شبلي بعد تفاصيل هذه الوقائع.

خلاصة البحث:

بعد ذكر الاستعراض النقدي لروايات الطبري في سيرة النبي للعلامة شبلي اتضح وضوحًا كاملاً أن العلامة نقل في كتابه سيرة النبي تلك الروايات التي تؤيدها وتوثقها كتب السير والأحاديث الأخرى الموثوق بها. ولو كان أيّ سقم أو ضعف في رواية ما فحصها وحقّقها في ضوء أصول الدراية. ولم يقبل العلامة جميع الروايات مغمضاً عينيه عنها بل نقد الطبري أيضاً عند الحاجة. وبما أن تاريخ الطبري كتاب في التاريخ أساسياً ولذلك لم ينقل منه العلامة إلا الوقائع التي تتعلق بالتاريخ مباشرة. وليس الطبري مصدر الكلام والعقائد والفقه والفلسفة بل مصدرها هو كتب الحديث والفقه. ويتضح منه أن ما في المجلد الأول والثاني من سيرة النبي للعلامة شبلي من الإحالات المأخوذة من الطبري وكتب السير الأخرى معظمها موثوق بها. وبناء على هذا إنه كتاب عظيم موثوق به لا نظير له في لغة أردو وآدابها. (مجلة "جهات الإسلام" النصف سنوية)

¹ المصدر نفسه، ص 147

² المصدر نفسه

"الانتقاد على تاريخ التمدن الإسلامي"

دراسة تحليلية

- أ.د. مه جبين أخترا¹

الحمد لله الواحد القهار، والصلاة على النبي المختار، وعلى آله وأصحابه الطيبين الأخيار، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم القرار. أما بعد:

فكانت شخصية العلامة شبلي النعماني شخصية عبقرية معروفة في العرب والعجم، قضى حياته في الاشتغال بالعلم والأدب والتاريخ والدراسات الإسلامية، فقام بتأليف كتب علمية قيمة، وفيما يأتي نحاول تعريف كتابه "الانتقاد على تاريخ التمدن الإسلامي" الذي هو في الأصل ردّ على مفتريات وشكوك جرجي زيدان التي تضمنها كتابه "تاريخ التمدن الإسلامي".

كان العلامة شبلي عالماً باللغتين العربية والفارسية، ومما يدلّ على إجادته اللغتين ما قام بهما بتأليف كتب عديدة قيمة، فقد ألف باللغة العربية أربع مؤلفات، وأول كتاب قام بتأليفه "إسكات المعتدي على إنصتات المقتدي" كان باللغة العربية، كما أن كتابي "تاريخ بدء الإسلام" و "كتاب الجزية" باللغة العربية أيضاً، وفيما يأتي سنقص على كتابه باللغة العربية "الانتقاد على تاريخ التمدن الإسلامي".

كتاب "الانتقاد" هو في الأصل ردّ على كتاب "تاريخ التمدن الإسلامي" لجرجي زيدان، وجرجي زيدان إذ جمع في كتابه أحداث التاريخ الإسلامي في الظاهر؛ فإنه هدف وراء تأليفه تشويه صورة التمدن الإسلامي، يقول العلامة سيد سليمان الندوي:

¹ أستاذة، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة العثمانية، حيدرآباد

العدد الخاص مجلة الهند

"وحيث كان المؤلف مسيحيًا فلم يأل جهدًا في تشويه التمدن الإسلامي بقلمه، إلا أنه اختار في ذلك أسلوبًا يتراءى في الظاهر حسنًا، ولكن في داخله نوعًا من الفضاحة"¹.

جرجي زيدان: كان جرجي زيدان من سكان الشام وكان مؤرخًا وأديبًا مسيحيًا متعصبًا، وأصدر في مصر مجلة باسم "الهلال"، إنه درس التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية بوجه خاص، وخصّ هذا الموضوع بمقالاته وكتاباتة؛ لكنه كان في الأصل مؤلفَ روايات، فبلغ عدد رواياته إحدى عشرة رواية، قدّم فيها شخصيات التاريخ الإسلامي وأحداثه أمثال "قتادة وغسان" و"أرمانوسة المصرية" و"أبو مسلم الخراساني" و"عباسة أخت الرشيد" وغيرها من الشخصيات بصورة قصصية، واختار جانبًا من جوانب التاريخ الإسلامي أو عصرًا من عصوره موضوعًا في رواياته.

ففي رواية "قتادة وغسان" كتب تاريخ العرب وأخلاقهم وحضارتهم، وبداية الإسلام، والنبوة، وتاريخ بداية الإسلام بأسلوب جذاب يستهام القارئ بسحره، غير أنه يرى في ذلك أن النبي ﷺ لم يكن أميًا؛ بل تعلم من بحيرة الشامي ثم فكّر في إدعاء النبوة.

والرواية الأخرى هي "أرمانوسة المصرية" صوّر فيها جرجي زيدان وضع مصر وحضارتها وأخلاقها زمن فتح المسلمين لها، وبين الأسباب والعوامل التي فتح بها مصر، إلا أن في هذه الرواية من الخرافات أيضًا ما يتجلّى على القارئ أن المسلمين لم يفتحوا مصر بفضل قوتهم؛ بل الأقباط هم الذين قاموا بدورهم من مكائدهم في ذلك، ولما استولى المسلمون على مصر قضوا على جميع المآثر العلمية لمصر والإسكندرية، ولم يجاوزوا الأقباط على حسن عملهم أحسن الجزاء.

ومن روايات جرجي زيدان رواية "أبو مسلم الخراساني" أيضًا، وهي تتناول التفاصيل عن أسباب انحطاط بني أمية وبناء دولة العباسيين وقوتها، وقد حاول جرجي زيدان في هذه الرواية بيان أن الدولة العباسية قامت بفضل أبي مسلم الخراساني إلا أن المنصور العباسي الذي كان سفاكًا نسي إحسان أبي مسلم وقتله خدعًا.

¹ حيات شبلي، ص 578

وفي رواية "عباسية أخت الرشيد" بيان فضل البرامكة وذكائهم وحسن إدارتهم إلا أن جرجي زيدان أظهر أحاريم الخلافة في ثوب فساد الخلق، وصرف كل قوته في إثبات هارون الرشيد وحشياً ومترقاً وقاتل المحسن.

في الواقع كان جرجي زيدان من الكتاب المصريين الذين كانوا يتعقبون تشويه صورة الإسلام والحضارة الإسلامية، فكانوا يختارون لذلك أسلوباً جذاباً، ثم يدسون فيه سموم أهدافهم بصورة لا يدركها ولا يخالفها عامة الناس.

فكان جرجي زيدان يمشي وراء هذا الهدف في مجال التأليف والكتابة فما عدا الروايات هناك كتب له أخرى كلها تنم عن هذه الحقيقة، ومن تلك الكتب كتابه "تاريخ التمدن الإسلامي" الذي يشتمل على خمسة أجزاء، واشتهر ونال قبولاً بوجه خاص، ومن أكبر أسباب قبوله وذيوعه ما كان يهدف جرجي زيدان من أنه أُلّفه لا كمؤرخ؛ بل من حيث أنه مسيحي، فترجمه المستشرق المعروف البروفيسور ماركوليوث (جامعة أوكسفورد) باللغة الإنجليزية، يقول العلامة سيد سليمان الندوي: "بأن هذا الكتاب ترجم باللغات الأردية والفارسية والروسية واللغات الأخرى الأروبية"¹. وحاول من حاول في الهند ومصر إدخال هذا الكتاب في المنهج الدراسي، وفي مصر حاول جرجي زيدان نفسه غير أنه فشل هذا الاقتراح بجهود بعض العلماء"².

جرجي زيدان والعلامة شبلي: كانت تأتي إلى العلامة شبلي المجلات والصحف العربية من مصر والبلاد العربية، فكان على علم ومعرفة بعلمائها وكتابها؛ بل كان ببعضهم على صلة علمية، ومنهم جرجي زيدان، وحسبما يقول العلامة سيد سليمان الندوي كان يجري بينهما تبادل الرسائل"³.

وقد ذكر جرجي زيدان أيضاً علاقته مع العلامة شبلي واعترف بأنه استفاد كثيراً بكتابات في تأليف كتابه "تاريخ التمدن الإسلامي"، يقول:

¹ مجلة "الندوة"، أكتوبر، 1908م وقد ترجم الشيخ أسلم الجيراجفوري الجزء الثالث من كتاب تاريخ التمدن الإسلامي باللغة الأردية بعنوان "علوم عرب".

² مقدمة مجلة "المنار"، 1/15، يناير 1912م.

³ حيات شبلي، ص 578

"فإذا رأينا في كتب الأفرنج مآثر منسوبة إلى العرب لم نجد لها ذكراً في كتبهم ضعفت ثقتنا في صحتها إذ قد تكون منقولة عن بعض الرحلات الأفرنجية في العصور الوسطى وأكثرها يحتاج إلى تمحيص... وقفنا على كتاب في اللغة الهندوستانية (الأردية) للنعماني سمّاه رسائل شبلي ذكر فيه فصوله في مدارس العرب ومارستانهم ومكاتيبهم وكتبهم ذيلها بالإسناد، وهو كتاب جليل، وبعد الاطلاع على آراء العلماء وأبحاثهم في هذا الموضوع رجعنا إلى المصادر العربية، فتفحصناها بإمعان وتدقيق فعثرنا فيها على ما أدهشنا من ضخامة ذلك التمدن خصوصاً في العلم والأدب مما ستره مفصلاً في هذا الجزء"¹.

ولما صدر الجزء الأول من تاريخ التمدن الإسلامي أرسل جرجي زيدان نسخة منه إلى العلامة شبلي، فأثنى عليه العلامة بقدر ما، وحيث كان العلامة شبلي يرى لازماً على المؤرخ أن يذيل كتابه بالمصادر والمراجع نبّه جرجي زيدان إلى هذا الأمر، وبالتالي عمل به جرجي زيدان في الجزء الثاني من الكتاب، يقول:

"وهذا ما نهينا إليه صديقنا النعماني العالم الهندي في الكتاب الذي نشرنا في مقدمة الجزء الماضي إذا اقترح علينا أن نذيل صفحات كتابنا هذا بالمآخذ التي تنقل عنها وقد أطلعناه"².
غير أن جرجي زيدان عمل بالغش في هذا الأمر أيضاً كما تعود ذلك، يفصل ذلك العلامة شبلي قائلاً:

"لما أرسل المؤلف إلى الجزء الأول من هذا الكتاب أثنت عليه إجمالاً، إلا أنني كنت أعرف طبيعة المؤلف فكتبت إليه رسالة طلبت فيها أن يشير إلى المراجع، وعليه فذكر المؤلف رسالتي هذه في الجزء الثاني من كتاب "تاريخ التمدن الإسلامي" كما ذكر المراجع وفقاً لما نهت إليه في الأجزاء الماضية، غير أنه احتال في ذلك حيث لم يشر إلى الطبعة، وأكثر الكتب تطبع مراراً في مصر، وعلى ذلك لما قابلت ما ذكره المؤلف بالكثرة من ابن الأثير والمسعودي وغير ذلك من المراجع فما وجدت تلك العبارات في النسخ الموجودة لدي، ويمكن أن يقول المؤلف إنه أحال إلى نسخة أخرى من المراجع، وعليه فبقي

¹ تاريخ التمدن الإسلامي، 3/3-5

² المصدر نفسه، ص 4

الستار على كثير من خيانة المؤلف، ومراجعته التي وافقت النسخ الموجودة لدي ما وجدتها إلا خاف المؤلف فيها خيانة جلية"¹.

أسباب تأليف الانتقاد: لأجل الخيانة العلمية والكذب والافتراء ضد الإسلام لم يكن بدّ من الانتقاد والرد على جرجي زيدان بأسلوب علمي والإشارة إلى شكوكه وتقديم الصورة الصحيحة للتمدن الإسلامي، التي حاول تشويهها جرجي زيدان، فنيه العلامة شبلي أولاً برسالة وأمر تلميذه العلامة سيد سليمان الندوي بكتابة مقالات بهذا الصدد، نشرت في مجلة "الندوة" في لکناؤ (أكتوبر، 1908م، وأغسطس، 1910م) وكان العلامة شبلي لكثرة أشغاله لا يستطيع أن يخصص وقته لهذا الأمر، إلا أن أحداثاً وقعت في سنة 1911م (كما يقول سيد سليمان الندوي) ألجأته إلى كتابة انتقاد علمي مفصّل².

وفي الوقت نفسه طلب العالم المصري الدكتور محمود لبيب من العلامة شبلي رسالة في الآلات الإسلامية في حين قد أرسلها العلامة إلى جرجي زيدان، فكتب العلامة شبلي إلى جرجي زيدان رسالة طلب فيها أن يسلم تلك الرسالة إلى الدكتور، كما نيه إلى بعض خيانتة العلمية، ثم كتب الدكتور لبيب إلى العلامة شبلي رسالة أخرى لفت نظره إلى الخيانة العلمية لجرجي زيدان ما أكد قصده للرد والانتقاد³.

وخلال هذه الفترة حدث أن الدكتور يوسف هارويز حاول تعيين بعض أجزاء تاريخ التمدن الإسلامي المترجمة إلى اللغة الإنجليزية في امتحانات "المولوي" و"الفاضل"، فكتب العلامة شبلي في 49/ أغسطس عام 1911م رسالة إلى المولانا أبي الكلام آزاد:

"لا تعدي ضرر تاريخ التمدن الإسلامي حتى أرسل الدكتور هارويز البروفيسور بجامعة علي كره اقتراحه إلى الجامعة بإدخاله في المنهج الدراسي لآتحانات "الفاضل" و"العالم"، فأثر ذلك في نفسي فبدأت أكتب شاغلاً عن كل أمر مقالة على افتراءاته، وبلغت إلى الآن عشرين صفحة، وسأكتبها باللغة العربية ثم أنشرها في الجرائد العربية"⁴.

¹ مقالات شبلي، 4/139

² حيات شبلي، ص 579

³ انظر مجلة "الندوة"، أكتوبر 1908م، ص 16-19

⁴ مكاتيب شبلي، 1/280

فكانت ترجمة تاريخ التمدن الإسلامي باللغة الإنجليزية من أهم عوامل كتابه "الانتقاد"، يكتب العلامة شبلي إلى الشيخ رياض حسين خان في رسالة:

"ترجم الجزء الأول فقط من كتاب جرجي زيدان إلى اللغة الإنجليزية، وقام بترجمته ماركوليوت الذي هو من ألد أعداء الإسلام، والحق أن هذه الترجمة الإنجليزية هي التي دفعتني إلى كتابة الرد"¹.

بالإضافة إلى هذه الأسباب كان هناك عامل أساسي أكبر دفعه إلى الرد هو حماسه وحميته الدينية، فلم يستطع أن يحتفل أي نقد وشك في الإسلام والتاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، فأثاره ما كتب جرجي زيدان من الهفوات والتلبيسات، وتهايا مع كل أشغاله للرد، يقول في كتابه "الانتقاد" بأسلوب حماسي:

"هل كنت أرضى بأن تمدحني وتهجو العرب فتجعلهم غرضاً لسهامك ودرية لرمحك ترميمهم بكل معيبة وتعزو إليهم كل دنية وشر حتى تقطعهم إرباً إرباً، وتمزقهم كل ممزق، وهل كنت أرضى بأن تجعل بني أمية لكونهم عربياً بحثاً من أشرف خلق الله وأسوأهم يفتكون بالناس، ويسومونهم سوء العذاب، ويهلكون الحرث والنسل ويقتلون الذرية وينهبون الأموال وينتهكون الحرمات ويهدمون الكعبة ويستخفون بالقرآن، وهل كنت أرضى بأن تنسب حريق الخزانة الإسكندرية إلى عمر بن الخطاب الذي شهدت بعدله الأرض والسماء، وهل كنت أرضى بأن تمدح بني العباس فتعدّ من مفاخرهم أنهم نزلوا العرب منزلة الكلب؛ حتى ضرب بذلك المثل وأن المنصور بنى القبة الخضراء إرغاماً للكعبة وقطع المبرة عن الحرمين استهانة بهما، وأن المأمون كان ينكر نزول القرآن وأن المعتصم بالله أنشأ كعبة في سامراء وجعل حولها مطاقاً واتخذ منى وعرفات"².

وكان السبب الأساسي مع هذه الأسباب خيانة جرجي زيدان العلمية مما أثار العلامة شبلي على كتابة الانتقاد، يقول:

1. إن المؤلف ألف هذا الكتاب في الظاهر كمؤرخ لا كمسيحي، وبهذه الظاهرة يقدم كتابه إلى العالم الإسلامي.

¹ المصدر نفسه، ص 190

² الانتقاد على تاريخ التمدن الإسلامي

2. لا يهدف الإساءة إلى بني أمية بالذات، ولكنه يقصد العرب عامة، فيصرح بأن دولة بني أمية كانت عربية محضة بنيت على العصبية والشدة، ثم يمدح الحكومة العباسية؛ لكن لا على أساس أنها عباسية؛ بل لأنها كانت في الأصل إيرانية.
 3. إنه حاول في ستار بني أمية الإساءة إلى جميع مسلمي القرن الأول كل إساءة، فكان لزامًا على كل مسلم أن يرد على هذه التهم.
 4. كل ما حط هذا الكتاب من شأن التاريخ من التحريف والتعصب والكذب والخداع استعمله المؤلف في بيان أحداث بني أمية، فكان الكتاب جديرًا بالعناية¹.
 5. ولما طبع العديد من أجزاء تاريخ التمدن الإسلامي بدأ العلامة شبلي انتقاده، واستغرق فيه إلى حد أنه ذهل عن الدنيا وما فيها حتى نزل الماء في عينيه، وكاد أن يتأثر به بصره، يقول في رسالة إلى مولانا أبي الكلام آزاد:
"كنت في البداية أثناء أسبوع مستغرقًا في كتابة الرد على تاريخ التمدن الإسلامي إلى حد أنني شعرت بنزول الماء في عين واحدة، فلا أستطيع أن أنظر بها الكلمات، وأما العين الصحيحة فيعود عليها أيضًا الحمل الكثير، وعلى ذلك قلّ عمل القراءة والكتابة، وانتهى أمر الكتاب إلى ستين صفحة، ولا أزال أتحسر على ذلك، إذا سلب سلاح الجندي فكيف يكون أمره"².
- وقد شهد اضطراب العلامة شبلي وعنايته الفائقة بالرد على جرجي زيدان العلامة سيد سليمان الندوي بعينه فقال:
- "والغالب أن العلامة (شبلي) اشتغل بهذا العمل بكل جهد منذ شهر أغسطس عام 1911م الذي استمر عدة شهور، والرجوع إلى آلاف الصفحات من عشرين المراجع التي أشيرت إليها في أصل الكتاب، والبحث عن الطباعات المختلفة ثم التنقيب فيها عن إحالات المؤلف لم يكن أمرًا هينًا، كان شهر رمضان وحبس موسم المطر وما زال العلامة يتعب نفسه مع كل ذلك في مراجعة الكتب ودراستها، وهو صائم، مما حدث به نزول الماء في عينه وكاد أن يفقد بصره، وبالرغم من ذلك كان مستمرًا في عمله وأنها"³.

¹ مقالات شبلي، 4/154-156

² مكاتيب شبلي، 1/282

³ حيات شبلي، ص 580-581

العدد الخاص مجلة الهند

ولما أكمل العلامة شبلي كتابه "الانتقاد" فأول ما عمل أنه ترجمه ولخصه باللغة الأردنية، ونشر ذلك في مجلة "الندوة" بلكناؤ في عدد أكتوبر عام 1911م بعنوان "تمدن اسلام مصنفه جرجي زيدان كي پرده دري" ثم انضم إلى الجزء الرابع من مقالات شبلي، يقول هو نفسه:

"كتبت المقالة باللغة العربية وفصلتها تفصيلاً، ثم لخصتها باللغة الأردنية بأسلوب عام"¹.

والمقالة بالعربية نشرت في مطبعة آسي بلكناؤ في شهر يناير عام 1914م، وتحمل مصاريفه ألباؤه وتلامذته وهو نفسه².

أرسل العلامة شبلي بعض أجزاء الانتقاد إلى سيد رشيد رضا المصري مدير مجلة "المنار" المصرية، فأثنى عليه كثيراً، يكتب العلامة شبلي في رسالة إلى الشيخ رياض حسن خان خيال:

"الرسالة تنشر، وقد أرسلت بعض مسوداتها إلى سيد رشيد رضا مدير مجلة "المنار"، فشكرني كثيراً وكتب إليّ أنه حاول ترغيب علماء مصر في ذلك؛ ولكنهم لم يتجرؤا على ذلك، فتطبع في "المنار" هذه الرسالة في حلقات، ومما يسرنا أن شرف الهند بقي في مصر"³.

وحسب قول الشيخ حبيب الرحمن خان الشيرواني كتب سيد رشيد رضا هذه الكلمات أيضاً: "أنا أيضاً كنت أريد أن أرد على جرجي زيدان، إلا أن مكايده كانت منتشرة ومشتتة ما لم يكن في وسع جمعها ثم الرد عليها، فأنت تغلبت عليها وقمت بالرد عليها"⁴.

يقول رشيد رضا نفسه:

"الشيخ شبلي علامة العصر والمصلح الشهير، ومؤسس جمعية ندوة العلماء ومدير المجلة الممثلة عنها، قد بدأ يكتب في هذا الوقت الرد على تاريخ التمدن الإسلامي، وكتب إلينا أنه يطبعه في لكناؤ، ولا يزال يرسل إلينا ورقاته المطبوعة تدريجياً لنطبعها في

¹ مقالات شبلي، 4/133

² حيات شبلي، ص 581.

³ مكاتيب شبلي، 2/581.

⁴ حيات شبلي، ص 581

المنار، ونقد مثل هذا العالم والمؤرخ في الأصل ثروة علمية قيمة لنا بل لصديقنا وصديقه جرجي زيدان أيضًا فبادرنا إلى طبعها¹.

فنشر سيد رشيد رضا في "المنار" أولاً أجزاء "الانتقاد" بالحلقات، ثم نشره بمقدمة في ثوب الكتاب عام 1912م، الموافق عام 1330هـ من مطبعة المنار.

وبعد أن تمّ نشر الكتاب كتب جرجي زيدان رسالة إلى العلامة شبلي أعرب فيها عن تأسفه على عدم مراعاته علاقته القديمة، ووعد أنه يغير في الكتاب ما يرضى به، إلا أنه طلب منه أن ينكر انتساب الكتاب (الرد) إلى نفسه، ولكن العلامة شبلي لم يرد عليه بشيء². وكانت رسالة جرجي زيدان هذه بقيت محفوظة إلى عام 1916م في دار المصنفين³.

وفي الوقت الحاضر ما زالت الحاجة ماسة إلى الطبعة الجديدة للانتقاد، فقامت دار المصنفين بأعظم كره بنشر الطبعة المحققة بتحقيق ومراجعة الشيخ محمد عارف العمري.

بعض مباحث الانتقاد

كتاب "تاريخ التمدن الإسلامي" في الظاهر تاريخ للحضارة الإسلامية؛ ولكن الواقع أنه يصور الإسلام والحضارة الإسلامية أسوأ تصوير، فلم يقصر في استخفاف العرب وإذلال الخلفاء العباسيين لا سيما خلفاء بني أمية، وألصق بالمسلمين أنواعًا من التهم، والمفتريات الخسيسة، فرأى أنهم كانوا جائرين وأعداء للعلم ومرتكبين للمظالم الوحشية، حتى أثبت أن المسلمين أنفسهم كانوا مستحقين بدينهم والشعائر الإسلامية.

وقد قام العلامة بالردود على كل مكائد جرجي زيدان وشكوكه ومفترياته المنتشرة في مئات الصفحات من الكتاب المشتمل على خمسة أجزاء واحدًا واحدًا بأسلوب علمي جامع فضحت به كل هفوات جرجي زيدان، وأثبت العلامة بالدلائل أن هدف جرجي زيدان من وراء تأليف الكتاب كان استخفاف العرب وهجاءهم، ونسب احتقار الدين

¹ مقدمة مجلة "المنار"، 1/15، يناير 1912م

² مجلة "البصير"، ص 120

³ المصدر نفسه

العدد الخاص مجلة الهند

إلى الخلفاء العباسيين والأمويين، والطعن العام على المسلمين، وإثبات العرب أعداء العلم، ونسب إحراق المكتبة الإسكندرية إليهم¹.

وقد مثل العلامة شبلي في كتابه "الانتقاد" على أهداف جرجي زيدان السابقة بالعديد من الأمثلة، وهنا نقف على بعض مباحث "الانتقاد" ليتجلى ما قام به من الجهود العلمية الدقيقة وتتضح مكانة هذا الكتاب.

إذلال بني أمية: ما قصر جرجي زيدان في إذلال بني أمية حيثما سنحت له الفرصة، فلم يترك في ذلك كل ما يحقق غرضه من الكذب والافتراء والغش والمكر والسخافة إلا وقد استباحه، يقول العلامة شبلي:

"من أكبر أهداف المؤلف إذلال بني أمية وهجاؤهم، وقد صرف في ذلك كل ما في وسعه، واستعمل كل أسلوب يستطيع من الكذب والتحريف والتمويه والغش والتدليس والخداع².

وعلى عكس بني أمية فقد مدح جرجي زيدان بني العباس بقدر ما، وهو على أساس أن بني أمية كانوا من العرب الخالص بينما كانت حكومة بني العباس عجمية وإيرانية³. كان جرجي زيدان من ألد أعداء العرب، فبذل كل ما في وسعه في تحقيرهم، وإذ قد هجا بني أمية فكان وراءه إذلال العرب، وقد أبصر به عين العلامة شبلي الثاقبة، يقول:

"إن تحقير بني أمية ليس هدفاً أساسياً للمؤلف؛ بل الأمة العربية كلها عرضة له، ولما خاف حدوث رد الفعل فيما لو اختار الأسلوب العام احتال بتلبيس الحق بالباطل فقسم حكومات المسلمين على ثلاثة عصور: عصر الخلفاء الراشدين، وعصر بني أمية، وعصر بني العباس، ثم أثنى على العصر الأول كما مدح العصر الثالث أيضاً في الظاهر، ولما شعر بأن المسلمين قد فرحوا على مدح الخلفاء الراشدين الذين هم قوادهم في الدين، وهكذا على مدح بني العباس الذين هم صلة المسلمين بهم على أنهم ينتمون إلى أسرة النبي ﷺ نسباً وتطورت وانتشرت بفضلهم الحكومة الإسلامية

¹ مقالات شبلي، 156-154/2

² المصدر نفسه، ص 54

³ تاريخ التمدن الإسلامي، 103/4

والحضارة الإسلامية، وبهذا المدح والثناء اختدع المسلمون، ثم اتجه المؤلف إلى عصر بني أمية وطعنهم بكل جراءة لما قد اطمأن بأنه لا يحسبه أحدًا متميزًا، ولا متعصبًا، فنسب إلى بني أمية كل رذيلة وسعى في تجريدهم من كل فضيلة¹.

حاول جرجي زيدان إثبات أن فكرة القومية العربية بلغت في عصر بني أمية ذروتها وأنهم يحتقرون غير العرب، فرد عليه العلامة شبلي وأثبت أن الأسس التي بنى عليها جرجي زيدان فكرته هذه ليست إلا مجرد أقوال بعض العرب المتعصبين، فلا يجوز عليها تعميم التاريخ، ومن طبيعة جرجي زيدان في تدوين التاريخ أنه يشرح الكل على أساس الجزء، ولا شك أن هذا يخالف طبيعة التاريخ، يقول العلامة شبلي فيما يستعرض شكوك جرجي زيدان:

"لا يخفى على من يطلع على تاريخ العجم والعرب أن الفرس كانوا قبل الإسلام يستصغرون العرب، ولما جاء الإسلام ورفع شأن العرب جعلهم يعادلون الفرس، بل نزعوا السيادة من الفرس فكان ذلك مفخرة للعرب، إلا أن الإسلام لا يسمح بالفخر والكبر، لكن كان من العرب والفرس من بقيت في صدورهم بعض العداوة السابقة مما أدى إلى وجود طائفتين متقابلتين؛ إحداهما الشعوبية التي كانت تحتقر العرب وتقدهم، وألف كبيرهم أبو عبيدة كتبًا عديدة طعن فيها جميع شعوب وقبائل العرب.

والطائفة الأخرى هي متعصبوا العرب الذين كانوا على ضد الأول، وقد عقد العلامة ابن عبد ربه في كتابه "العقد الفريد" بابًا مستقلًا جمع فيه أقوال هاتين الطائفتين وأدلتهما، فاتخذ المؤلف تلك الأقوال للعرب أساسًا طعن به كل العرب².

مبحث الموالي: افترى جرجي زيدان أن تعامل بني أمية مع الموالي كان تعاملًا مهينًا، فردّ عليه العلامة شبلي وأثبت أن الأساس الذي بنى عليه جرجي زيدان هذا المفترض مبني في الأصل على المبالغة، يقول:

"إن إكرام الموالي كان من ديدن العرب عامة وقريشها خاصة، لم يكن الإكرام للموالي وأكثرهم عند جفاة بناتها كما لم يكن الإكرام للعرب عند الشعوبية وأكثرهم العجم،

¹ الانتقاد، ص 3

² المصدر نفسه، ص 4-5

كان نافع بن جبير وأمثاله من جفاة العرب، فلا يصح الاستدلال بأقوالهم على استحقر العرب للموالي والعجم¹.

وقد نقل العلامة شبلي في الرد على هذا المفترى بعض الوقائع الدالة على إكرام العرب للموالي وإحسانهم إليهم من كتب التاريخ الموثوق بها². وأثبت أن الموالي قد حازوا في عصر بني أمية على مناصب عليا وحظوا بالمكانة الرفيعة³.

مفترى إهانة الدين: اتهم جرجي زيدان أيضاً بني أمية بأنهم كانوا يتهاونون بالدين، ويسمع هذا الصدى في مواضع عديدة من الكتاب، كما أنه كتب هذا الموضوع بعنوان مستقل أيضاً، وهو الاستهانة بالقرآن والحرمين⁴. وفي كل ذلك يكشف عن اتجاهه بهذا الصدد.

كتب جرجي زيدان في الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان أنه لما وصل إليه خبر تعيينه وكان يتلو القرآن إذ ذاك، طوى القرآن وقال هذا آخر لقاء.

أثبت جرجي زيدان بأن هذا السلوك من الخليفة استخفافاً بالدين، إلا أن الأمر لواقع على عكس ذلك، يقول العلامة شبلي:

"لما وصل إلى عبد الملك خبر تعيينه الخليفة، وكان مشغولاً بتلاوة القرآن خاطبه متحسراً ونظراً إلى مسئوليات الخلافة الجسيمة قائلاً إن هذا آخر لقائه معه، وعنى بذلك أن ما تعودته في السابق من العبادة والتلاوة يصعب إبقاءه على حاله، ولم يقل به استخفافاً بالدين، ومما يدل عليه ما نراه أيام الخلافة أنه كان يهتم بالفرائض والسنن، ويصلي ويصوم ويحج"⁵.

كما يتهم جرجي زيدان المسلمين بالاستهانة بالكعبة وغيرها من الشعائر الإسلامية يقول: "فأنشأ فيها كعبة وجعل حولها طوافاً واتخذ مني وعرفات"⁶.

¹ المصدر نفسه، ص 15

² المصدر نفسه، ص 13-15

³ المصدر نفسه، ص 9-10

⁴ المصدر نفسه، ص 4/38

⁵ المصدر نفسه، ص 29

⁶ تاريخ التمدن الإسلامي، 32/2

ويقول في مكان آخر:

"فحبب بعضهم إلى المنصور أن يستبدل الكعبة بما يقوم مقامها في العراق وتكون حجًا للناس، فبنى بناء أسماه "القبة الخضراء" تصغيراً للكعبة، وقطع المبرة عن المدينة"¹.

وقد ردّ العلامة شبلي على هذه المفتريات أيضًا وأثبت أنها غير موجودة في كتب التاريخ، والذي استدل به جرجي زيدان في ذلك ما جاء في الطبري من خطبة محمد النفس الزكية الذي كان مخصصًا للمنصور، يقول العلامة شبلي بأنه هذه كلمات مخاصم للمنصور، هل تدل على ثبوت حادث تاريخي"²؟

وأما قطع المبرة عن المدينة فلم يكن على الاستهانة بالمدينة؛ بل كان سببه كما قال العلامة شبلي:

"الواقع محمد بن عبد الله كان يفكر في الخلافة منذ فترة، فلما خرج على المنصور مجاهرًا وكان بالمدينة المنورة قطع المنصور المبرة عن المدينة"³.

الافتراء بما يتعلق بنظام المحاصل: طعن جرجي زيدان نظام المحاصل أيضًا وصور به المسلمين صورة كاذبة للظلم، يقول:

"وكان عمال بني أمية يجورون على أصحاب الأرمين من أهل الذمة في التحصيل ونحوه"⁴.

ويقول في مكان آخر:

"وإذا أتى أحدهم بالدراهم ليؤدي ما في خراجه يقطع الجابي منها طائفة ويقول: هذا رواجها وصرفها"⁵.

هذا وهناك شكوك أخرى أيضًا كتبها جرجي زيدان، وأهم ما يتعلق بنظام المحاصل من القضايا قضية الجزية.

¹ المصدر نفسه، ص 30

² مقالات شبلي، 4/142

³ المصدر نفسه

⁴ تاريخ التمدن الإسلامي، 2/19

⁵ المصدر نفسه

الجزية: ما زال الكتاب والمؤرخون الأوروبيون يختارون أسلوبًا عدوانيًّا فيما كتبوا عن الجزية عند المسلمين، فأطالوا الكلام في ذلك وبالتالي طعنوا المسلمين بأنواع من الطعن، والعلامة شبلي أول من قام بالردود المدللة على شكوك الأوروبيين الواهية فيما يتعلق بالجزية، فأثبت في كتابه العلمي بكل دراسة وتمحيص عن جوانب الجزية أنها لم تكن ضريبة جديدة وجائرة؛ بل كانت رحمة لغير المسلمين¹.

وحيث أن العلامة شبلي قد كتب في كتاب الجزية دراساته العلمية القيمة المفصلة فاختر في هذا الرد أسلوب الإيجاز، بدأ كلامه بتعريف الجزية وأثبت أن هذه الضريبة ليست من إنشاء المسلمين؛ بل سبقهم في ذلك أنوشيروان ثم أبقاها المسلمون، وتفاصيل أخرى للجزية على النحو التالي كما يقول العلامة شبلي:

"ليعلم أن الجزية ليست إلا ضريبة عسكرية، والذين يعيشون في ظل الحكومة الإسلامية منهم من يتحملون أنفسهم مسئولية دفاعهم وسلامتهم فلا يؤخذ منهم الجزية، وأما الذين وقع استثناءهم من مسئولية الدفاع فعلمهم أن يؤدوا قسطًا من المال ليسد به الحاجات العسكرية، وأول من فرض هذه الضريبة أنوشيروان كما كتبه ابن الأثير في تاريخه، ثم مشى عليه عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -، وعلى هذه القاعدة إذا دخل غير مسلم في الجيش الإسلامي كما كتب البلاذري والطبري في تاريخهما فلا يؤخذ منه الجزية، وعلى هذا لما دخل بعض النصارى في الجيش الإسلامي في عهد عثمان - رضي الله عنه - أعفيت عنهم الجزية، وهكذا تعفى الجزية عن غير مسلم في حالة الفقر كما أعفى عمر - رضي الله عنه - الجزية عن نصارى ثعلب على أنهم كانوا فقراء؛ بل ساعدهم بأموال الزكاة".

والحاصل أن الجزية ليست خطأً فاصلاً بين الكفر والإسلام؛ بل الواقع الثابت أنه كان يسكن في بداية الإسلام كثير من النصارى والمجوس واليهود في ظل الحكومة الإسلامية، وكانوا فلاحين أو موظفين حكوميين، ولا يودون أن يخاطروا بأنفسهم

¹ كتاب الجزية، ص 1

للدفاع، فأخذت منهم هذه الضريبة العسكرية، لا يجوز لمسلم في الحكومة الإسلامية أن يتحاشى عن الدفاع والسلامة؛ بل يجب عليه ذلك رضي به أو لم يرض.

وهكذا كانت الجزية في البداية خطأ فاصلاً بين الحاكم والرعية ثم تحولت شيئاً فشيئاً ذريعة للفرق بين المسلم وغير المسلم"¹.

بعد هذا التمهيد استعرض العلامة شبلي شُبة جرجي زيدان، ونقل هنا بعض الأمثلة؛ كتب جرجي زيدان أن بني أمية كانوا يشددون على غير المسلمين في جباية الجزية حتى يجبوا الجزية بعد قبول الإسلام أيضاً، كما أعفيت الجزية في أول الأمر عن الرهبان فصار الناس يختارون الرهبنة؛ حتى فرضت عليهم أيضاً"².

ذكر هذه الفرية جرجي زيدان نقلاً عن المقريزي، إلا أن الواقع أن المقريزي لم يذكره أصلاً، يقول العلامة شبلي إن جرجي زيدان إذ نقل هذا الأمر عن المقريزي فقد خان خيانه؛ فإن المقريزي لم يذكر كلمة أن الناس كانوا يختارون الرهبنة خوفاً من الجزية"³.

ثم استعرض العلامة شبلي ما حدث في عهد بني أمية من بعض مظاهر عدم الحيطة في جباية الجزية، ومن ثم طعنهم جرجي زيدان، وأثبت أن الذين حاولوا ذلك خالفهم جمهور العرب والعلماء والخليفة نفسه، وذكر مكر جرجي زيدان أنه كتب هذه الأحداث بأسلوب يبدي كأن هذه كانت طريقة بني أمية عامة يقول في هذا الصدد"⁴.

"حدث في عهد بني أمية المثوية هذا الأمر عدة مرات فقط، ولكن عمر بن عبد العزيز منع عنه في عهده، ثم في عهد يزيد بن عبد الملك لما أراد يزيد بن أبي مسلم أن يفعل مثل هذا الأمر قامت الثورة ضده وأيدها العرب عامة، والحاصل أنه لم يستبحه أحدٌ من خلفاء بني أمية، وإن فعله العمال فمنعهم الخليفة نفسه أو خالفهم جمهور العرب.

¹ الانتقاد، ص 32-33

² تاريخ التمدن الإسلامي، 20/2

³ الانتقاد، ص 35

⁴ مقالات شبلي، 4/173

ولكن المؤلف لم يذكر في كتابه منع الخلفاء أو غضب جمهور المسلمين وحمائهم للمظلومين، وذكر هذه الوقائع العديدة بأسلوب كأن هذه الظاهرة كانت رائجة في عهد بني أمية¹.

كتب جرجي زيدان في عمرو بن العاص - رضي الله عنه - أنه جمع بالجزية والخراج مبلغاً باهضاً من المال قدره اثنا عشر مليوناً، إن العلامة لم يلتفت إلى ما رماه جرجي زيدان من تهمة الطمع، غير أن المعلق على تاريخ التمدن الإسلامي الدكتور حسين مونس أثبت في ضوء تقارير إحصائية أن الجباية لم تزل تنقص في عهد بني أمية ثم يسأل جرجي زيدان قائلاً:

"إن الجباية كانت تناقص أيام بني أمية ولم تكن في زيادة، فأين ذهب إذن المال الذي كان يجبي بالعسف وأين ضريبة الرهبان؟"².

وقد ردّ العلامة شبلي على شبهه وافتراءات أخرى لجرجي زيدان أيضاً وأثبت أن ما ذكر جرجي زيدان من طريقة جباية الجزية القاسية لا علاقة لها بالواقع، وإنما هو كذب وافتراء منه³.

الالتهام بعبادة العلم: اتهم جرجي زيدان المسلمين بعبادة العلم أيضاً، فيدل أسلوب بعض كلمات الكتاب على أن المسلمين كانوا أعداء العلم، وعمل جرجي زيدان كل ذلك بكل دهاء وذكاء، يرى العلامة شبلي أن الأذكى من الناس والمتيقظين أيضاً لا يستطيعون أن يدركوا حقيقة ما عمله جرجي زيدان فضلاً عن عامة الناس⁴.

ومن أهم مباحث هذا الموضوع قضية إحراق المكتبة الإسكندرية التي طعن بصددها عثمان بن عفان - رضي الله عنه - أنه أحرق المكتبة الإسكندرية التي كان ذكرى البطليموس، وقد تم دراسة هذا الموضوع في أوروبا، وكان العلامة شبلي أول مؤرخ قام

¹ المصدر نفسه، ص 175

² تاريخ التمدن الإسلامي، 53/2

³ الانتقاد، ص 26 و36

⁴ المصدر نفسه، ص 53

بالرد عليه بالدلائل؛ بل أثبت أن المسيحيين أنفسهم قبل فتح المسلمين للإسكندرية دمروها وزعمائهم الدينيون قد شاركوا في تدميرها"¹.

وبعد هذه الدراسة العلمية جعل الكتاب والمؤرخون الأوروبيون أيضاً يعترفون بأن اتهام المسلمين بتدمير المكتبة الإسكندرية غير صحيح، إلا أن جرجي زيدان بصرف النظر عن هذه الحقائق يقدم هذا الموضوع بكل جراءة قائلاً إن المؤرخين المسلمين عبد اللطيف البغدادي، وجمال الدين القسبي لما اعترفا بذلك لزم على المسلمين أن يتحملوا هذا الاتهام، يقول العلامة شبلي رداً عليه:

"إن كتب التاريخ الموثوق بها كلها ساكتة عن ذكر هذه الحادثة، نعم قد ذكرها البغدادي والقسبي إلا أنه يجب الانتباه إلى أنهما من القرن السادس والسابع ولا يذكر أن مرجع الرواية"².

وكتب الدكتور حسين مونس فيهما أنهما لا تقبل روايتهما؛ لأنهار حالتان، كتبا كل ما سمعاه من الأخبار أثناء رحلتها إلى مصر"³.

وكتب العلامة شبلي في هذا الموضوع أيضاً بالإيجاز لعله فعل ذلك فيما كتب مقالة بعنوان "المكتبة الإسكندرية" وعلى كل حال فهذه المباحث الأساسية الهامة يرتفع شأن كتاب الانتقاد، نرجع الآن إلى استعراض جرجي زيدان من حيث كتابته التاريخ.

تدوين جرجي زيدان للتاريخ: إذا درسنا تاريخ التمدن الإسلامي دراسة عميقة وجدنا أن جرجي زيدان لم ينصف ضوابط تدوين التاريخ، إنه لم يفعل ذلك بلا عمد بل فعله عمداً.

ومما يعلم أن ذكر المآخذ والمراجع له أهمية خاصة في كتابة التاريخ، فيعده يصعب التمييز بين الكذب والصدق، وجرجي زيدان يكتب تاريخ التمدن الإسلامي إلا أنه لا يهتم بذكر المآخذ والمراجع، فيبدو كأنه ينكر أهميتها في الأصل، فيأتي العلامة شبلي ويوجهه من الهند إلى أهمية هذا الأصل بكتابة رسالة إليه، فيعترف ويلتزم به، ثم

¹ مقالات شبلي، 115/6

² الانتقاد، 64-65

³ تاريخ التمدن الإسلامي، 51/3

بالرغم من ذلك جعل يخون ولا يذكر المطبعة وسنة الطبعة، ولا يأمن في البحث عن المراجع، ويذكر منها ما لا يوثق به، كمثل ما يتهم المعتصم بالله باستحقاق الكعبة ويذكر خطبة حريفه محمد النفيس الزكية مرجعاً فيه، يقول العلامة شبلي إن هذه الكلمات عدو المنصور هل يمكن بها الاستدلال على حادث تاريخي¹.

وبصدد المأخذ والمراجع يخون أيضاً بأنه يذكر مرجع حادثة من الحوادث ويترك وسائرها ويوحي أنها أخذت من المرجع نفسه، وليس الواقع كذلك، يقول الشيخ سيد سليمان الندوي:

"يكتب في ضمن فقرة حوادث عديدة صحيحة ومحرفة ثم يذكر في الحادثة الأخيرة مرجعاً، فيفهم جمهور الناس أنه مرجع الحوادث كلها فلا يمكن ردها، والواقع أن المرجع يتعلق بالحادثة الأخيرة فقط"².

يهتم جرجي زيدان المسلمين عامة وعمر بن الخطاب خاصة بأنهم كانوا أعداء العلم، يستدل على ذلك بأقوال عبد اللطيف البغدادي وجمال الدين القسطنطيني التي يقرر عدم صحتها المسلمون والكتاب الأوربيون، ومع ذلك فالبروفيسور ماركوليوث وغيره من بعض الكتاب يوقرون تاريخ التمدن الإسلامي ويساهمون في نشره بالترجمة الإنجليزية، فما هذا سوى العصبية العمياء.

لا بدّ في كتابة التاريخ من المحايدة، وإلا فلا يمكن الإنصاف مع التاريخ، لكن جرجي زيدان لم يكن في كتابة تاريخه محايداً، فقام في عدة مواضع ببعض المناقشات التي تكشف عن انحيازه وعصبيته، وجمع العلامة شبلي بعض قرائن انحيازه³.

كل عصر من عصور التاريخ يحمل من المحاسن والمساوي ما يذكره المؤرخ سرداً إلا أنه يراعي العدل حيث لا يطغى أحد منهما على الآخر، ولكن جرجي زيدان لم يراع ذلك عمداً كمثل ما إذا حدث أن خان عامل من عمال بني أمية في جباية الخراج جعل يطعن جميع عمال بن أمية ويثبت أن عهد بني أمية كله ملئ بالقبائح، وهكذا إذا حاول شخص فرداً أن

¹ مقالات شبلي، 4/142

² مجلة "الندوة"، أكتوبر 1908م، ص 17

³ مقالات شبلي، 4/154-157

يعمل ما يخالف الإسلام فيما يتعلق بالجزية ولم يؤيده أحدٌ ولا عمل به، فجرجي زيدان يظهره كحادثة مسلمة، وهكذا يبدي نظرية فرد واحد كأنها نظرية القوم كلهم، ويشبه عمل فرد بطريقة عامة للمجتمع، يقول العلامة سيد سليمان الندوي:

"يستنبط من حادثة شخصية لخليفة أو أمير قاعدة عامة ثم يظهر أنها سلوك جميع المسلمين¹. لا بد في الأحداث من شرح الأسباب والعلل لتتضح الخلفية، إلا أن جرجي زيدان يعرض عنها ولأبينها، يقول العلامة سيد سليمان الندوي:

"قد حدثت في التاريخ الإسلامي بعض الأحداث التي يبدو أنها كريمة ومبغوضة؛ لكن إذا تجلت أسبابها وعللها ظهرت معقولة ومناسبة، ولكن جرجي زيدان كثيراً ما يتحاشى في مثل هذه المناسبة عن ذكر المصالح والأسباب"².

وذكر العلامة سيد سليمان الندوي نقصاً آخر أيضاً من جرجي زيدان لكتابة التاريخ قائلاً:

"إذا ذكر جرجي زيدان حسن نظام للمسلمين أو صنعة متطورة للعهد الإسلامي ذكر أيضاً معه التطور المعاصر في نفس المجال، ويقصد بذلك أن لا يقع في أذهان القراء أي وزن للتطور الإسلامي"³.

وبالجمله صبغت المعرفة التاريخية لجرجي زيدان بلون العصبية، فأشار العلامة شبلي إليها، بأن كتابة تاريخه ليست إلا عبارة عن الكذب والافتراء، والخيانة والتحريف في نقل الروايات، وزيادة منه في حادثة صحيحة تتغير بها صورتها، والاستدلال والاستنباط الخاطئ"⁴.

أسلوب كتاب الانتقاد: الأسلوب الذي اختاره العلامة شبلي في كتابه "الانتقاد" وسبقت بعض نماذجه فيما مرّ يوافق أسلوب المتقدمين، وإن كان العلامة شبلي خبيراً بالأسلوب

¹ مجلة "الندوة"، أكتوبر 1908م، ص 17

² المصدر نفسه، ص 16

³ المصدر نفسه، ص 18

⁴ مقالات شبلي، 4/134

العدد الخاص مجلة الهند

الجديد يمكن الإشارة إليها، فحاول سيد رشيد رضا بإحداث بعض التغيرات في بعض الأساليب العجمية في الطبعة المصرية للكتاب كي يجعله موافقاً للأسلوب الجديد.

كان العلامة شبلي متبعاً في العربية أسلوب الجاحظ واهتم بذلك في تأليف "الانتقاد"، حيث كان "البيان والتبيين" و"كتاب الحيوان" للجاحظ قيد دراسته أثناء تأليفه، ولذلك امتاز الانتقاد بحسن أسلوب الكتابة، يقول العلامة سيد سليمان الندوي:

"تمتاز هذه الرسالة في اللغة العربية بجودة الكتابة، كان العلامة متبعاً في الكتابة العربية أسلوب الجاحظ، وأثناء كتابة هذه الرسالة ما زال يدرس "البيان والتبيين" و"كتاب الحيوان"¹.

وقد كتب سعيد الأنصاري مقالة على موضوع الكتابة العربية للعلامة شبلي ذهب فيها إلى أنه اتبع أسلوب الجاحظ². حتى العلامة شبلي نفسه كان يفتخر بكتابة الانتقاد، يكتب في رسالة:

"الرد على جرجي زيدان باللغة الأردية ليس أمراً يذكر، ولما كان المخاطب عربياً فبذلت كل جهدي في الكتابة العربية، وبلغ الكتاب مائة صفحة، والمادة العلمية فيه مما يقدر به المصريون الهند"³.

والحاصل أن كتاب الانتقاد عمل مجيد علمي للعلامة شبلي، وهو في الأصل تريباق للسم الذي نفثه جرجي زيدان، وصدق فيما قال العلامة سيد سليمان الندوي:

"عمل نشر هذا الكتاب عمل التريباق على ما نفث تاريخ التمدن الإسلامي من سموه في الهند ومصر وأنحاء العالم الإسلامي، وقضى على فتنة كبيرة للأبد والحمد لله على ذلك"⁴.

¹ حيات شبلي، 581

² مجلة "البصير"، ص 125

³ مكاتيب شبلي، 258/2

⁴ حيات شبلي، ص 582

المصادر والمراجع

1. جرجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي، الهلال، مصر، 1904م
2. الشيخ محمد أسلم الجيراجفوري: علوم عرب (ترجمة)، مطبعة إنستيتيوت، على كره، الهند
3. العلامة سيد سليمان الندوي (ترتيب): مكاتيب شبلي، دار المصنفين، أعظم كره، 1928م
4. العلامة سيد سليمان الندوي: حياة شبلي، دار المصنفين، أعظم كره، 1984م
5. العلامة شبلي النعماني: كتاب الجزية، مطبعة مفيد عام، آغره، 1894م
6. العلامة شبلي النعماني: مقالات شبلي، مطبعة معارف، أعظم كره، 1956م
7. مجلة "البصير" الشهرية الصادرة عن الكلية الإسلامية، بشيونت (عدد خاص بالعلامة شبلي النعماني)
8. مجلة "المنار" الشهرية الصادرة عن مصر
9. مجلة "الندوة" الشهرية الصادرة عن لكاناؤ، الهند

"الفاروق" والمؤلفات الأخرى

حول ترجمة الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه، دراسة مقارنة

- الشيخ محمد ضياء الدين الأنصاري¹

ترجمة من الأردوية: منير الإسلام بن نظام الدين²

اتفق جمهور العلماء على أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه هو أفضل البشر بعد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بالتحقيق وكذا اتفقوا على أن أمير المؤمنين الثاني والشهيد في محراب المسجد النبوي والذي دعا له النبي صلى الله عليه وسلم عمر الفاروق رضي الله عنه، أفضل البشر بعد أبي بكر الصديق رضي الله عنه على الإطلاق. كانت له الأسبقية في العديد من الشؤون الدينية، وما قام به من الخدمات للإسلام والمسلمين بعد دخوله في الإسلام، هي فاقدة النظر وسرمدية الزمان، خالدة على صفحات التاريخ الإسلامي، وهي ستبقى منارة نور ومصدر فيض لأتباع دين الحق. كانت شخصيته جذابة إلى حدّ لم يجلس معه أحد ولم يستظل بصحبته إلا وأولع به وكلف تاركاً وراءه أفخم أبلطة العالم.

وكان نموذجاً جميلاً للشجاعة والتفكير والحكم وسداد الرأي والزاهد والتقوى والعاطفة لخدمة العباد والأثرة ومحبة الرسول وبالجملة فقد كان كلّ جانب من حياته فاقد الندد، وكما وصفه الشيخ حبيب الرحمن خان الشيرواني:

"إذا استعرضت حياة الفاروق الأعظم رضي الله عنه، من أي ناحية كانت، سواء من ناحية القيادة والحكم أو من ناحية الفروسية والإقدام أو من ناحية التشريع

¹ مدير سابق، مكتبة خدابخش الشرقية العامة، بتنه، بهار

² أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وأدائها، الجامعة العالية، بنغال الغربية

والتقنين أو على أساس القيم الإنسانية ونظرت إليه بنظر المادح له أو الآخذ عليه وإلى أي مدى أقيمت النظر عليه، فإنك لا تجد فيها غير الحسن واللياقة".

إن إسهاماته الرفيعة ومآثره الجليلة ومحامده الدينية سواء كان باعتباره محبًا وخليلاً للرسول صلى الله عليه وسلم في حياته أو بعد وفاته مشيراً ومساعدًا لخليفة المسلمين الأول أبي بكر الصديق رضي الله عنه وبعده نائبًا عنه وأميرًا للمسلمين هي أشرق سناء من الشمس والأكثر تشعبًا، لا يسهل لأحد الاطلاع عليها أو العثور عليها وإن أكبر دليل على علو شأنه وتفوقه على غيره هو أن الخليفة الأول أبا بكر الصديق رضي الله عنه كان قد استخلفه، عندما كان يلفظ آخر أنفاسه وبين سبب انتخابه أمام ربه سبحانه وتعالى قائلًا: يا رب: قد وليت أمر المسلمين إلى من هو أفضل البشر على وجه الأرض".

إن سيرته الذاتية وما تتضمنه هي من العديد من أعماله أحق بأن يستمر تجديد ذكراها حتى قيام الساعة وبدراسة جوانب حياته وحتى قصة سعاده بالإسلام يزداد إيمان المؤمن قوة. وإن من منن أسلافنا والأقدمين من علمائنا على الأمة الإسلامية بل على البشرية جمعاء أنهم دونوا كل شيء يتعلق بسيرة عمر الفاروق رضي الله عنه، فنجد تفاصيل حياته ووقائعه في المصادر العربية للسير والتاريخ ومن هنا تم نقلها من العربية إلى اللغات الأخرى.

أما المؤلفون والمؤرخون بالأردنية، فهم أيضًا نالوا حظهم من تقديم السيرة الفاروقية بشكل مرتب وأخص هؤلاء الكتاب بالذكر: المنشئ سراج الدين أحمد والعلامة شبلي النعماني وعابد علي بيغ قزلباش والحكيم محمد عبد الوحيد الفاروق والميرزا حيرت الدهلوي والسيد فاضل الحيدرآبادي وليس من شك في أن المنشئ سراج الدين أحمد هو أول من كتب حول هذا الموضوع، لكن العمل الذي قام به العلامة شبلي النعماني في هذا المجال، هو أهم وأوثق جميع الأعمال ذات الصلة وسيؤيد هذا القول ما سيقدم في السطور الآتية بإسهاب وتفصيل. وللوصول إلى النتيجة لا بد لنا أن نستعرض أولًا ما جاء في هذا الباب، ثم ندرسها دراسة مقارنة مع "الفاروق" للعلامة شبلي النعماني. وإليك قائمة الكتب ذات الصلة حسب الترتيب الزمني.

1. سيرة الفاروق: المنشي سراج الدين أحمد، راولبندي، عام 1893 م.
2. الفاروق: شبلي النعماني، عام 1898 م.
3. شوكت فاروق: الحكيم محمد عبد الوحيد الفاروق، عام 1901 م.
4. الفرق: عابد علي بيغ قزلباش، عام 1907 م.
5. تذكرة سيدنا عمر الفاروق: محمد حسام الدين فاضل القادري، عام 1354 هـ.
6. حضرت عمر فاروق كا انصاف (العدل الفاروق): نديم صهبائي الفيروزپوري، (ب، ت)
7. حضرت عمر الفاروق: آغا رفیق البلند شہري، (ب، ت)
8. عمر الفاروق: محمد علي، (ب، ت)
9. حضرت عمر کے سرکاری خطوط (رسائل عمر الرسمية): خورشيد أحمد فاروق، عام 1959 م.
10. فاروق أعظم عمر الفاروق: مجيب الرحمن شامي (ترتيب)، عام 1993 م.

1. سيرة الفاروق للمنشي سراج الدين أحمد

كما أسلفنا القول بأن أول كتاب نشر حول حياة عمر الفاروق رضي الله عنه بالأردوية هو "سيرة الفاروق"، كتبه المحامي الشهير المنشي سراج الدين أحمد (1867-1925 م). كان المنشي سراج من محبي السير سيد خان ومن الذين ظلوا منتسبين بالفعل إلى الحركة التعليمية، التي كان أنشأها مؤسس مدرسة العلوم، علي كره خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي وكان يشتغل محامياً في راولبندي ومن هواياته: الأدب والصحافة. فإنه أصدر عام 1886 م مجلة "سرمور" ثم أخرج عام 1895 م الأسبوعية "تشودھوين صدي" (القرن الرابع عشر) من راولبندي، التي نالت الشهرة الواسعة لدى الطبقة المثقفة وله إنتاجات أخرى غير "سيرة الفاروق" مثل "حياة صلاح الدين" عام 1897 م و"التعليم" عام 1996 م و"حقيقت خلافت اور مسلمانوں کا فرض" (الخلافة وواجب المسلمين) عام 1916 م. وكذلك قام بجمع وترتيب ونشر محاضرات السير سيد أحمد خان وكان يتبادل الرسائل معه فرسائله المنشورة تتضمن 16 رسالة، تنسب إلى المنشي سراج الدين أحمد، الأمر الذي يدل على العلاقات الودية التي تطورت بين هاتين الشخصيتين.

عندما قرّر العلامة شبلي تأليف كتاب "الفاروق" وأعلن عنه في الطبعة الأولى لكتابه "المأمون"، حصلت له شهرة قبل أن يبرز إلى حيز الوجود، لكن عنت له أحداث أدته إلى شدة التأخير في تأليف هذا الكتاب وإخراجه، فانتهازاً لهذه الفرصة أسرع المنشي سراج الدين أحمد في كتابة "سيرة الفاروق" ونشره بشكل غير متزن. وبهذا الطريق أصبح تأليفه المذكور أول كتاب أردوي للسيرة الفاروقية، إلا أنه لم يثبت له المصداقية والواقعية. فقد أبدى السير سيد احمد خان بالذات عدم ارتياحه على هذه المغامرة العلمية المهملة للمنشي سراج الدين أحمد وحرّر مقالاً نقدياً مسهباً حول هذا الموضوع ونشره في مجلة "إنستيتيوت غزيت" الصادرة عن علي كره بتاريخ 10/مارس عام 1893م وأبدى عدم إعجابه بهذا الكتاب قائلاً:

"تسجيل حياة عمر الفاروق رضي الله عنه ليس أمراً هيناً، مثلما اعتقده رفيقنا المنشي سراج الدين أحمد، لكنه يضيق صدري، عندما تلصق معه تهمة سوء النية. أعتقد أنه رجل صالح، يبدي اهتمامه بالمصلحة القومية، فلا حرج في أن أقول إطلاقاً بأنه ارتكب أخطاء في هذا الكتاب. فعل ما لم يكن من المفروض أن يفعل ولم يكن هذا العمل في مستطاعه وأعتقد أن مثل هذا العمل لا يليق بممدوحنا وحيد العصر العلامة شبلي النعماني أيضاً ولكن مما يتهم به المنشي سراج الدين أحمد من سوء النية وهوى النفس، هو أمر لا نحبه ولا نعتبره صواباً".

أما ما يتعلق بأسلوب الكتاب، فليس فيه تحقيق ولا أدب والنص خالٍ تماماً من الانطلاق والانسحاب الطبيعيين وفقد أهميته ومكانته خاصة بعد ظهور كتاب "الفاروق" للعلامة شبلي النعماني، بحيث لم يظهر له طبعة أخرى، بينما ظهرت عشرات الطبعات على الأقل لكتاب العلامة شبلي.

2. شوكتِ فاروقي للحكيم محمد عبد الوحيد الفاروقي

هذا كتاب ثالث حول حياة عمر الفاروق رضي الله عنه حسب الترتيب الزمني، يتقدمه كتاب "الفاروق" لشبلي وبما أنه هو موضوع بحثنا في هذا المقال فسوف نبدي رأينا عنه في نهاية هذا المقال ويعني هذا بالطبع أن كتاب "شوكتِ فاروقي" يطرح الحديث عنه في المرحلة الثانية. يلقي هذا الكتاب الضوء الإجمالي على حياة خليفة المسلمين الثاني عمر

الفاروق رضي الله عنه وأهم ما وقع في عصر خلافته الراشدة من الفتوح والشؤون الإدارية والاجتماعية والاقتصادية. ونجد في معظم الأماكن إشارات إلى المصادر المستفاد منها. تم تأليف هذا الكتاب الوجيز في خمسين صفحة بهدف التعريف بعمر بن الخطاب رضي الله عنه على الطبقة المثقفة من عامة الناس، لكن الأسلوب الكتابي والمطبعي ليسا موضع اهتمام وجاذبية، فلذلك لم يتمكن من نيل الاستجابة العامة.

3. تذكرة سيدنا عمر الفاروق لمحمد حسام الدين فاضل القادري

كان صاحب الكتاب المؤقر من علماء حيدرآباد المعروفين وأولياها الكرام وكانت له حلقة كبيرة من معتقديه ومريديه وكان واعظاً وأديباً وشاعراً، يلقب بـ"فاضل" في الطبقات الأدبية. ألف العديد من الكتب الهامة، من أبرزها: "دلائل ختم النبوة" و"سعادة دارين" و"تذكرة سيدنا أبوبكر" و"تذكرة سيدنا عمر" و"تذكرة حسن" و"تذكرة حسين" وغيرها من الكتب، التي طارت شهرتها في أوانها، غير أن هذه الكتب كلها تحتل مكانة "الكتب التعريفية" فحسب وليس من بينها كتاب ضخم أو طويل حول موضوعه. وكتاب "تذكرة سيدنا عمر" أيضاً رسالة وجيزة تعريفية ولكن أسلوبه علمي جذاب.

يحتوي هذا الكتاب ذكر حياة الخليفة الراشد الثاني وأهم الأحداث التي وقعت في فترة خلافته بإيجاز، تعزز هذه المعلومات بمصادر موثوق بها. ومن أكثر هذه المصادر ذكراً واستعمالاً: الطبقات لابن سعد وإزالة الخلفاء وحياة الحيوان وتاريخ الطبري وفتوح البلدان وكنز العمال و"History of Islam" الإنكليزية، بالإضافة إلى الصحيحين للإمام البخاري ومسلم رحمهما الله. وأقيمت كذلك لمختلف الأحداث والوقائع عناوين ملائمة لها. فعلى سبيل المثال: اسم صاحب السيرة ونسبه وولادته وقصة إسلامه ولقبه "الفاروق" ومناقبه ووفاته وجهوده في نشر الإسلام وخلافته وانتصاراته وكذلك خلقه وزهده وحبه للرسول صلى الله عليه وسلم ومكانته العلمية وخدمته لخلق الله وعدله ومساواته ومعالجته مع القحط والمجاعة وهيبته وشجاعته واستشهادته في سبيل الله وغيرها كثير.

وبما أن صاحب الكتاب شاعر أيضاً، فإننا نراه ينقل أبياته في موضعها بمناسبة عدة. وإليكم اقتباس من آخر كتابه، الذي يصف فيه قصة استشهادته قائلاً:

"أصيب بجرح في 26/ ذي الحجة عام 23 الهجري وانتقل إلي جوار ربه أول ليلة شهر محرم الحرام وفي اليوم الأول من شهر المحرم دفن في حجرة النبي - صَلَّى الله عليه وسلّم- بحيث أن رأسه كان بجانب أبي بكر الصديق رضي الله عنه وركبتي الرسول صَلَّى الله عليه وسلّم.

"استعرضوا مدى سعادة حظ الشيخين رضي الله عنهما، تجدوا أنّ كفي الرسول صَلَّى الله عليه وسلّم تظلان لحدّهما".

بلغ من عمره 63 عامًا ومدة خلافته: عشرة أعوام ونصف سنة ويوم، قال ابن أيمن رضي الله عنه: "اليوم ضعف الإسلام".

ثم ذكر مصدر "حياة الحيوان" وفيه: ويوم توفي، غشيت الظلمة على الأرض، والصبى كان يسأل أمه وهو مذعور: أماه: هل قامت الساعة، فكانت تجيب: لا يا بني، بل استشهد أمير المؤمنين رضي الله عنه".

ثم أنهى كتابه بمنظومته الطويلة في مدح الفاروق الأعظم رضي الله عنه.

4. حضرت عمر كما انصاف (العدل الفاروقي) لنديم صهبائي الفيروزبوري

صاحب هذا الكتاب كاتب مكثر وبارع في إلباس المواقف المختارة للأنبياء عليهم السلام لباس الأسلوب القصصي. قد ألف الكتب العديدة من هذا النوع، أخصها بالذكر: قصص يوسف وإبراهيم وسليمان عليهم السلام وبلقيس ملكة سبا وقصة أهل الكهف ومعجزات الأنبياء عليهم السلام وذكر ليلة الإسراء والمعراج وواقعة أصحاب الفيل وغير ذلك كثير. أما ما يتعلق بعدل عمر الفاروق رضي الله عنه، فإنه بين في هذا السياق قصة، تخبر بتجريم عمر الفاروق رضي الله عنه ابنه أبا شحمة في قضية "الزنا" وجلده حدًا، ثم لفظ آخر أنفاسه من جراء عدم التحمل لهذا العقاب وذلك بأسلوب قصصي مؤثر للغاية. ومن خلال هذه القصة أثبت المؤلف بخلو العهد الفاروقي من التمييز الطبقي أو العنصري، حتى أن ابن الخليفة أيضًا كان يعاقب على جنايته باعتباره رجلًا عاديًا.

هذا بالإضافة إلى العديد من الوقائع التي تتجلى فيها مكانة عمر الفاروق رضي الله عنه وحبّه للعدل والمساواة ومؤسساته نحو البشرية.

أما أسلوبه في الكتابة، فهو لا يتعدى السطحية المطلقة، ولكي يجعل النص مؤثراً والأحداث مؤلمة، لجأ الكاتب في معظم المواضع إلى مقطوعات شعرية، مستواها متدهور للغاية. هذا النوع من الكتب لا تلتزم في عامة الأحوال بتقييد المصادر والمراجع. ومن الضغث على الإبالة أن هناك عديداً من الجزئيات الإضافية تقحم ضمن الأحداث متعة للأحاديث بهدف تحويل القصة إلى أكثر تأثيراً وألذ متعة.

5. حضرت عمر فاروق: لأغا محمد رفيق البلند شهري

كان صاحب الكتاب يتشرب قلبه بحب الخلفاء الراشدين وكان راسخاً متعمقاً في أعمالهم النضالية وخدماتهم لعامة الناس وفتوحات زمن حكمهم وكان يعتقد من واجبه التعريف بهذه الأوضاع والوقائع على عامة المسلمين، فألف كتباً مستقلة حول حياة وأعمال هؤلاء الخلفاء الأربعة، نالت القبول الواسع بين الناس. لكن يظهر من دراسة هذه الكتب أن أسلوب المؤلف غير علمي وغير أدبي، إلا أنها بدون شك توقظ الشعور الديني والحماس الإسلامي في نفوس الناس. وبالإضافة إلى ذلك فقد ألف محمد رفيق بلند شهري أيضاً كتاباً مختصراً بعنوان "آفتاب رسالت" حول حياة الرسول الطيبة وأسلوبه في هذا الكتاب أيضاً لا يختلف شيئاً عن غيره من الكتب.

6. رسائل عمر الحكومية لخورشيد أحمد فارق

مرتب هذه الرسائل البروفيسور خورشيد أحمد فارق ظل أستاذ الأدب العربي بجامعة دلهي لفترة طويلة، ثم أحيل معاشه أستاذاً جامعياً، كانت من هواياته الخاصة غير التدريسية: الكتابة والتأليف، صدرت له كتب عدة حول التاريخ الإسلامي ولكن أسلوبه الكتابي غير نزيه ويتعدى الاعتدال والوسطية تجاه الرسول وأصحابه صلى الله عليه وسلم ولذلك ظلت كتاباته عرضة للنقد والتجريح.

الكتاب المتقدم ذكره ليس من كتب السيرة الذاتية للخليفة الراشد الثاني، وفيما يبدو، هو لا يدخل في نطاق بحثنا ولكن لا مجال فيه للشك أنه هو أهم كتاب عن عهد الخلافة الفاروقية، تتجلى فيه عبقرية عمر الإدارية، فرأينا من المناسب أن نناقش هذا الكتاب أيضاً في هذا المقال، الكتاب الذي يختلف تماماً عن غيره من إنتاجات البروفيسور خورشيد.

لا شك في أن الرسائل التي بعثها عمر رضي الله عنه إلى عماله ومحافظيه وقواد جيشه وملوك البلاد الأخرى، كلها قد حفظتها كتب التاريخ العربية بمتونها المضبوطة. نقل هذه الرسائل البروفيسور خورشيد فارق إلى الأردية بمراجعة مصادر التاريخ العربية ونشرها بين الأوساط المتحدثة بالأردية، فكان مجهوده هذا بدون شك عملاً يحبذ به ويستحق الاحترام والتقدير.

يبلغ عدد هذه الرسائل 425، يبين المرتب قبل كل رسالة خلفيتها والتفاصيل ذات الصلة بها، يعلق بمطالعتها في الذهن كل ما يتعلق بالرسالة المذكورة. تم نقل هذه الرسائل من كتب التاريخ الموثوق بها وذكرت المصادر والمراجع المستفاد منها أيضاً. يحتوي نص الكتاب الترجمة الأردية لهذه الرسائل فحسب، ولكن النص العربي قد أضيف كملحق في نهاية الكتاب، يقدر به بسهولة صحة الترجمة الأردية وعدم صحتها. وفي مقدمة هذا الكتاب قد أبدى المرتب رأيه بصدد مصداقية هذه الرسائل وعدم اعتباريتها قائلاً:

"سألني أحد أصحاب المن والفضل علي عن قطعة رسائل عمر الفاروق رضي الله عنه ونحلها ومن الطبيعي أن هذا السؤال يكون قد نشأ في أذهان القراء الحذرين، الذين قد طالعوها في مجلة "البرهان" ودراسة هذا الكتاب أيضاً ستثير نفس السؤال، فأدعو هؤلاء الناس من التخبط في مسالك الجدل والمماحكة إلى اختيار المنهج القويم، الذي أرشدنا الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم إليه في حياته فقال: "إذا انتسب أمر إلي، فانظروا فيما إذا كان يتطابق محتواه مع روح القرآن وتعليمه أم لا؟، إن كان كذلك، فاعتقدوا أن هذا الذي قلته وإلا فاعتبروه زيفاً" فهذا هو الميزان الذي يقاس به رسائل عمر الفاروق رضي الله عنه". نشرت هذه الرسائل أولاً بالأقساط في مجلة "البرهان" ثم جمعت في كتاب وطبعت.

7. فاروق أعظم لمجيب الرحمن شامي

هذا ليس كتاباً مستقلاً، بل هو مجموعة من المقالات المختلفة، أوضح هذا الواقع ناشر المكتبة في مقدمة هذا الكتاب بما يلي:

"شخصية عمر الفاروق رضي الله عنه الجبارة في غنى عن أي تعريف أو ترويج، فالتعريف به ليس إلا إضاءة القنديل أمام الشمس، لم ينجب العالم مفكراً عظيماً

العدد الخاص مجلة الهند

وإداريًا كبيرًا وقائدًا للجيش جليلاً مثله، الأمر الذي اعترف به المؤرخون غير المسلمين بصراحة ووضوح شديدين. كل ما قام به المرتب في هذا الكتاب هو أنه جمع لك كتابات المؤرخين الشهيرين ورجال التحقيق المعترين بهدف تقديم خارطة وثائقية ومرتبّة، مما يسمي "العهد الإسلامي" وما اعتبره العالم خير نموذج للنظام الإسلامي إلى الناس".

يبلغ عدد هذه المقالات 23 مقالاً، تم تقسيمها في العناوين التالية:

1. اللقاء (مقالة)	2. أوضاعه (مقالة)
3. الترتيبات الحكومية (مقالتان)	4. الاقتصاد (مقالة)
5. الفتوح (مقالتان)	6. الإصلاحات (مقالة)
7. الآداب (مقالة)	8. ما يروى عنه (مقالة)
9. الاجتهادات (مقالة)	10. الأقوال (مقالة)
11. الانطباعات (مقالة)	12. الشهادة (مقالة)
13. الكتاب الفريد (مقالة)	

ومن بين الكتاب الذين دبجوا أقلامهم في هذا الكتاب، عباقرة الرجال أمثال الدكتور محمد حميد الله، والمولانا سعيد الأنصاري الندوي، ونواز الروماني، وشمس نويد العثماني، وأبو محمد إمام الدين الرام نغري، ومحمد يوسف السنت فوري، وعلي الطنطاوي، ومحمد حسين هيكل، والبروفيسور محمد سليم مير، وغلام أحمد فرويز، ونبى أحمد سها، والشاه معين الدين الندوي، والعلامة شبلي النعماني، والدكتور ظهور أحمد أظهر، وحبیب عاصم، والبروفيسور خورشيد أحمد فارق، والبروفيسور خالد همايون، ومحمد أسلم دوغر، والمولانا أبو الكلام آزاد، والشاه حسين عطا. هؤلاء كلهم أدباء كبار ومؤرخون معروفون، لهم أسلوبهم الخاص ولهم تعمق في التاريخ وهم وحيد عصرهم في كتابة سير الرجال. وعلاوة على ذلك، قد ذيل المرتب في معظم الأحيان بحواش توضيحية، أضفت على الكتاب فائدة ونفعًا، فمثلاً ذكر الدكتور محمد حسين هيكل في مقاله بعنوان "كيف حكموا على القلوب" معاهدة رسول الله صلى الله عليه وسلم للولاء مع اليهود وفيه يقول:

"وفور وصوله المدينة المنورة، قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بمعاهدة الولاء مع اليهود ولكنهم نكثوا هذا العهد وخانوا الرسول صلى الله عليه وسلم، فتم إجلاؤهم من المدينة، ومع ذلك واصلوا عداوتهم مع الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضوان الله عليهم أجمعين، فأجلاهم في النهاية من معظم القرى اليهودية الواقعة في شبه جزيرة العرب. أليس هذا دليلاً على أن استيطان اليهود في مستعمراتهم لم يكن ذمة يعهد بها والمصادقة مع اليهود لم يكن إلا مجرد مبادرة سياسية، تم إطلاقها في بداية عهد "المدينة المنورة" بالنظر إلى مصلحة من مصالح الدولة، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم عندما أدرك أن هذه المبادرة لا يقتضيها أنفع مصالح الدولة، نبذها وتبنى طريقاً آخر".

ومبدئياً رأيه على هذا الاقتباس، ذي له بحاشيته قائلاً:

"كان اليهود بأنفسهم قد وفروا تبريراً لهذا القرار، فخيانة اليهود هي السبب وراء تغيير موقف الدولة الإسلامية، فلا يبقى أي عهد في محله، إذا خانته الطرف الآخر، لأن المعاهدة لا تتحقق إلا من الطرفين، وإذا لم يؤد طرف مسؤوليته، فلماذا يلتزم الطرف الآخر بأداء مسؤوليته".

وفي بعض الأماكن أصبحت هذه الحواشي أمتع وأكثر فائدة. فعلى سبيل المثال، يستعرض مقال العلامة شبلي النعماني بعنوان "كيف فرضوا هيمنتهم في المجالات الإصلاحية والبنائية والاختراعية بالتفصيل ما عمّر أو جدد تعميره من المدن والأقطار وأخصها بالذكر: مدن البصرة والكوفة والفسطاط" فزود المرتب في سياق ذكر "البصرة" بهذه المعلومات الأتية:

"يرى اللغويون على سبيل الإطلاق أن مدينة "البصرة" سمّيت به، لأن البصرة تطلق بالعربية على الأرض البطحاء والرملية، وأرض البصرة من هذا النوع، ولكنه ما جاء في "معجم البلدان" من قول المجوسي هو أقرب إلى القياس وعنده كانت هذه الكلمة في الأصل "بس راه" وهذا يعني بالفارسية "طرق عدة" وبما أن هناك مفترقات للطرق، متجهة إلى جميع الجهات، كان الأعاجم يسمونها بالبصرة وليس أصدق دليل على هذا من أن المباني التي بنيت في عهد ملوك العرب في هذه المنطقة، قد سمّيت بالفارسية مثلاً: "خورنق" وكان في الأصل "خورنكاه" و "سدير" وهو في الأصل "سه در".

تتضمن هذه المجموعة مقالاً للأستاذ على الطنطاوي وهو يدور حول أسرة وعائلة عمر الفاروق رضي الله عنه ويتحدث عن أبنائه: عبد الله بن عمر وعبد الرحمن الأوسط (أبو شحمة) وعبيد الله وعاصم ويقدم بإيجاز قصة إقامة الحد على أبي شحمة عقاباً لشرب الخمر. يقول الطنطاوي فيه:

"عبد الرحمن الأوسط، كنيته أبو شحمة، كان عمرو بن العاص قد أقام عليه الحد جنائية لشرب الخمر في مصر ثم أرسله إلى المدينة المنورة، فأقام عمر الفاروق رضي الله عنه مرة أخرى عليه الحد تأديباً، ثم أصابه مرض".

كتب المرتب على الصفحة 37 من كتابه حاشية توضيحية وذكر مقتبسات من مقال الشاه بليغ الدين، تتعلق بهذه القضية، مفادها أن أبا شحمة لم يشرب الخمر، بل كل ما شربه هو النبيذ، فيه قليل من السكر والنبيذ في الواقع شراب التمر، يخمر من شدة الحرارة. وبعد أن شرب هذا النبيذ، ثمل أبو شحمة وأدرك خطأه، فأقبل هو بنفسه إلى حاكم مصر عمرو بن العاص رضي الله عنه واعترف بجريمته فأقام الحاكم الحد عليه وتعامل باللين والمجاملة معه لزهده وتقواه، لكن خليفة الدولة عمر الفاروق رضي الله عنه لما اطلع على هذه الحادثة، دعاه إليه وأقام الحد عليه من جديد، فأصابه مرض ثم توفي بعد شهر.

هذه التفاصيل كلها تردّ على نديم صهبائي قوله بأن أبا شحمة قد أقيم عليه الحد عقاباً لتورطه في "الزنا" وأن هذه الجنائية صدرت منه بسبب تَعُودِهِ بِشْرَبِ الخمر وكذلك تردّ عليه قوله بأنه أصابته المنية أثناء جلده.

وأما العلامة شبلي النعماني، فإنه لم يتصد لشيء من هذه الواقعة في كتابه على الإطلاق.

8. الفاروق للعلامة شبلي النعماني

لا شك في أن كتاب "الفاروق" للعلامة شبلي النعماني هو أجمع ما كتب حول حياة عمر الفاروق رضي الله عنه وإسهاماته المتنوعة بالأردنية تفصيلاً وإسهاباً وأوثقها مادة وموضوعاً وأوسعها رواجاً وقبولاً ولسنا نبالغ إذا قلنا إن هذا الكتاب يعدّ من بين الكتب الأكثر تداولاً وتجاوباً ومصداقية، التي كتبت حول هذا الموضوع في مختلف لغات العالم ويكفي لتقدير أهمية هذا الكتاب وقبوليته بين المثقفين أن تم نقله إلى

اللغة "البشتو" والتركية والفارسية والإنكليزية ونشرت حسب معلوماتنا على الأقل عشر طبعات لهذا الكتاب بالأردنية من مختلف المطابع، فهناك قلة قليلة من الكتب الأردنية، نالت حظها من القبول مثله.

لم يكن الأدب التاريخي والسيرى متوفرًا بكثرة حتى أعقاب القرن التاسع عشر الميلادي، وما كان متوفرًا، لم يكن مبنياً على الأصول العلمية والنقدية ولم يكن يحمل في طيه ميزات وخصائص الكتابة مثل روعة اللغة وسلاسة الأسلوب. ولم تكن هذه الكتب تستلفت انتباه القارئ على الإطلاق. كان الأسلوب الكتابي أسلوبًا جافًا ممضًا وخاليًا تمامًا من تنقيح وتحقيق المصادر المتوفرة، ونتيجة لذلك، لم يكن بوسع الأدب التاريخي والسيرى بالأردنية أن يواجه الأدب الغربي وبالتالي لم تكن الإنتاجات الأردنية محل اهتمام الطبقة المثقفة وجل عنايتها كان منصبًا في إنتاجات الكتاب الغرب، فنشأت عنها نزعة عامة ولم تزل آثارها تبدو حتى اليوم وهي أن كل ما يكتبه المؤلفون الغرب، يتسم بالصحة والتصديق بدون تردد، فاستغل هؤلاء الكتاب الغرب سلوكنا هذا وقدموا صورة تاريخ الإسلام والمسلمين مشوهة إلى العالم. ونحن الشرقيين كنا مصابين بمركب النقص فأصبحنا تدريجيًا مشردي الأذهان.

كان شبلي أول كاتب، كسر هذا الطلسم الغربي وقدم إلى أهل العلم والتحقيق الصورة الصادقة الصحيحة للإسلام والمسلمين، وبهذا الطريق، وضع هو أرفع وأسند مستوى لكتابة التاريخ والسير ووضع أساسه على المناهج الحديثة العلمية والنقدية ولكنه لم يقلد هذه الأصول والمناهج تقليدًا عشوائيًا، بل قام ببحثها وتنقيحها وميز بين العناصر الصحيحة وغير الصحيحة واستفاد من جوانب إيجابية لها. فنحن لا نجد إلا أن نسلم بذكاء شبلي النادر وبصيرته التاريخية. يقول أختار وقار عظيم:

"كان أمام شبلي لدى كتابة التاريخ أمران أو قل هدفان: الأول أنه كان يقصد إزالة سوء التفاهم، الذي كان المؤرخون غير المسلمين قد أذاعوه وروجوه ضد المسلمين ولا شك في أن هذا كان عملاً دقيقاً. لم يكن شبلي يقصد إضفاء لون جديد على فن التاريخ ولكنه كان يقوم بتنقيح تاريخ الإسلام المشوه والممزوج، كتب بأسلوب غير متزن ولا شك في أن هذا العمل من متطلبات أساسية للتاريخ.

وأما الهدف الثاني فهو أن شبلي كان يطمح بإخراج المسلمين الهنود من هوة الشعور بمركب النقص، الذي قد أصيبوا به بهزيمتهم في حرب الاستقلال عن طريق تجديد ذكريات مآثر أسلافهم وأبائهم المسلمين، ولكنه للحصول على هذا الهدف لم يخلط الحقائق التاريخية بالباطل. كان من دون أدنى شك من المؤرخين العظام الذين لم يتصالحوا أبدًا مع الأصول والمناهج الفنية لكتابة التاريخ".

ولتحقيق هذا الهدف المنشود، بدأ نشر سلسلة من أبطال الإسلام، فكتب "المأمون" عام 1887م و"سيرة النعمان" عام 1892م و"الفاروق" عام 1898م و"الغزالي" عام 1901م، وعلاوة على ذلك، ألف كتابًا بعنوان "نظرة على أورنغ زيب عالمغير" ساعد في إزالة سوء التفاهم الذي أشاعه المؤرخون غير المسلمين إزاء الملك المغولي أورنغ زيب عالمغير رحمه الله. يشمل كتاب "الفاروق" جزأين، تم طبعهما في فترات مختلفة. نجد في الجزء الأول الأسلوب التقليدي المطرد لكتابة سير الرجال، أي يتضمن هذا الجزء جميع الوقائع من اسم ونسب وولادة الخليفة الراشد الثاني عمر الفاروق رضي الله عنه حتى واقعة شهادته، كما يتحدث عن فتوح عهد خلافته بالتفصيل، بينما ذكرت بمناسبة عديدة مصادر التاريخ العربية الموثوق بها، لكن صفحاته الأولية تستحق المطالعة خاصة، حيث أنها تشمل استعراضًا مفصلاً للظروف الاجتماعية والثقافية للعرب الجاهليين المقيمين في شبه جزيرة العرب كمدخل في صلب الموضوع وتحتوي أيضًا ذكر ما طرأت بعد ظهور الإسلام من التغيرات الانقلابية المبشرة، وعلاوة على ذلك، تم إلقاء نظرة إجمالية على فن التأريخ وأجري النقاش حول أصول فن التاريخ ومبادئه وواجبات تسجيل التاريخ، كما تكشف خصائص كتب المتقدمين والمتأخرين منهم حول موضوع السيرة وتم البحث عن أسلوبهم الكتابي ومنهجهم في التحقيق ومدى مصداقيتهم. وكذلك قد أزاح شبلي الستار في هذه المقدمة عن الخيانة التاريخية للكتاب الغرب وعدم التزامهم بالوسطية.

كان يقول: "إن مصنفات المؤرخين الأوروبيين تبدو مثل حقول الزعفران" و"هم يبنون مئات من القلاع الوهمية". وأيضًا "ولهنات وزلات المؤرخين الأوروبيين دفتر كبير، هم يحبرون النقاد على تقليب الأوراق من أجل تحقيق كلمة لهم" و"هؤلاء (الأشقياء)

يكتبون الكذب، لكن لا يخلو كلامهم من مصدر أو مرجع". كان شبلي يعتقد أن التحقيق الصحيح والنقد الإيجابي أمران لا مفر منهما لاختبار أي حادث تاريخي، وكان للرواية والدراية مستوى أرفع في نظره وكتابه "الفاروق" يتطابق تمامًا مع ميزان هذا النقد، إذ راعى فيه الأصول الأساسية لفن التأريخ وقام بالجرح والتعديل كليًا في ثنايا هذا الكتاب كله، إلا أن فيه موقفين، قد أدى فيهما شبلي حق البحث والتحقيق وتبلغ فيهما بصيرته التاريخية وطبيعته التحقيقية أوجهما. فالموقف الأول في هذا الكتاب هو موقف "حديث القرطاس" والموقف الثاني هو موقف "صحيفة بني ساعدة"، التي تمت التسوية فيها في قضية الخلافة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم مباشرة. وخلاصة حديث القرطاس أن الرسول صلى الله عليه وسلم قبل وفاته بثلاثة أيام، أمر أثناء مرض الموت أصحابه بإحضار القلم والحبر وقال: سأكتب لكم أمرًا، لن تضلوا أبدًا بعدي، ما تمسكتم به، وحينئذ قال عمر رضي الله عنه لمن حضر في المجلس بأن الرسول صلى الله عليه وسلم يعاني الآن من وطأة المرض وكفى بنا القرآن هاديًا. فظن بعض منهم أن الرسول صلى الله عليه وسلم يهذي من شدة الوجد (أعاذنا الله من ذلك). روي هذا الحديث عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه وذكر في باب كتاب العلم للجامع الصحيح للإمام البخاري والصحيح للأمام مسلم رحمهما الله ولكن بطرق متعددة، ففي الجامع الصحيح للإمام البخاري روي هذا الحديث عن سبعة طرق. نقل هذا الحادث المؤرخون المسلمون من الصحيحين بدون أدنى تأمل في المزيد من التحقيق والبحث، فنشأت في نفوس ضعاف الإيمان سيول من سوء التفاهم، حتى أن بعض الناس اعتبروه من "سوء الأدب" لعمر رضي الله عنه في شأن النبوة. هذا في جانب، وفي جانب آخر دار الجدل حول ما إذا كان الأنبياء عليهم السلام يصدر منهم الهراء والهديان: مجادلات ومناقشات، بذل حولها العلماء جل طاقتهم بدون أن يتمكنوا من تقديم حل مقنع لهذه القضية الدقيقة والحساسة للغاية. وشبلي أيضًا تأمل في هذه القضية بجدية واستجمع جميع مواهبه للبحث عن حل صحيح لهذه القضية. فاستعرض كل جزء من هذا الحادث بالتفصيل ونظر إلى جميع جوانب هذا الحادث كناقذ عدول رواية ودراية، ثم توصل كمحقق منصف

ومؤرخ أمين إلى نتيجة أن في رواية هذا الحادث غموضًا، وبما أن الراوي لم يكن حاضرًا في موقع الرواية، فقد يحكم على الرواية بكاملها بالضعف. هو يقول:

"فكيف يستدل بالرواية التي ترك الراوي بذاته خصائص ضرورية لا يستغني عنها لرواية الحديث. وزاد على ذلك أن مثل هذا الحادث جليل الشأن، عظيم الحظ، لم يروه من الصحابة الكرام رضي الله عنهم إلا عبد الله بن عباس رضي الله عنه وكان عندئذ لم يبلغ من عمره إلا الثالثة أو الرابعة عشر عامًا، وفوق ذلك كله أن الراوي لم يكن حاضرًا في موقع الحادث، فلا يبقى إذن إلا أن يفهم كل شخص مدى مصداقية هذه الرواية.

وبعد هذا النقاش الطويل، يصدر العلامة شبلي بصفته محبًا صادقًا للرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ومولعًا شغوفًا بشخصية عمر الفاروق رضي الله عنه وكتبت مسؤولًا للسيرة ومستعينًا بكياسته الإيمانية قرارًا في هذه القضية البالغة الخطورة:

"قد يكبر على رجل قصير الباع والنظر أن تكون رواية البخاري ومسلم موضع شك وشبهة، إلا أنه يجب عليه أن يفهم بأن تشكيك راوٍ من رواة البخاري ومسلم، لم يقدر على حفظ الرواية بجوهرها هو أسهل من أن ينسب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم الهراء والبهتان وإلى عمر الفاروق رضي الله عنه سوء الأدب".

وأعتقد أيضًا أنه لا حرج هناك في التسليم بهذا الحل، بل الفائدة تعود علينا بابتعادنا عن الفوضى العلمية الجسيمة. أما كتاب السير الآخرون فهم لم يولوا الاهتمام اللائق بهذا الحادث وبسبب موقفهم هذا، نشأ سوء التفاهم لدى الناس، حتى أن الدكتور محمد حسين هيكل لم يلق النظر على جزئيات هذه الرواية وضعفها، فإنه بين هذه الواقعة في كتابه الوقيع "عمر فاروق الأعظم" بما يلي:

"لما اشتد برسول الله مرضه الأخير أشار إلى رجال من المسلمين كانوا في البيت حوله فقال: "إئتوني بدواة وصحيفة، أكتب لكم كتابًا لا تضلوا بعده أبدًا" واختلف الحاضرون، يقول بعضهم: "قربوا ليكتب لكم كتابًا لا تضلوا بعده" ويخالفهم آخرون على رأسهم عمر فيقولون: "إن رسول الله قد غلبه الوجع، وعندكم القرآن، وحسبنا كتاب الله" ورأى النبي خلافهم فقال: "قوموا، ما ينبغي أن يكون بين يدي النبي خلاف" ولم يكتب، ولعله قد تأثر برأي عمر أكثر مما تأثر برأي غيره، لما عرف من صدقه في إخلاصه وصراحته في رأيه".

ليت هيكل مثل العلامة شبلي كان قد تفكر في هذه القضية الدقيقة بجدية وقام بمحاكمتها بالتفصيل ثم حدد الهيئة الصحيحة للرواية، فإن الأمر إذن قد أصبح أكثر تحقيقًا وصوابًا.

والحادث الثاني يتعلق باجتماع الصحابة الكرام رضوان الله عنهم أجمعين في سقيفة بني ساعدة وعلى رأسهم أبو بكر وعمر واختيارهم أبا بكر خليفة لهم وذلك بعد وفاه الرسول صلى الله عليه وسلم مباشرة وقبل تدفينه. فهذا الحادث أيضًا شكّل نزاعًا فيما بين المسلمين وكما يقول شبلي النعماني:

"مما يدعو إلى الدهشة والاستغراب أن الرسول صلى الله عليه وسلم لما انتقل إلى جوار ربه، وقع النزاع في أمر الخلافة فيما بين المسلمين، حتى أنهم لم يؤجلوا هذه القضية لتدفين جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم. من ذا الذي يقدر أن ينتقل الرسول إلى رفيقه الأعلى والذين يزعمون حبهم وعشقهم لله وللرسول صلى الله عليه وسلم أكبر وأكثر من كل شيء، يتركوا الرسول صلى الله عليه وسلم وشأنه بدون التجهيز والتكفين وينشغلوا بحل قضية الخلافة، كي لا يحتل منصب الحكم أحد غيرهم.

ومما يزيد الدهشة أن هذا العمل صدر من النفوس الطيبة مثل أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، اللذين يعدّان من النجوم اللامعة لسماة الإسلام. ومما يضيف على هذا العمل كراهية وشناعة هو أن الناس الذين كانت لهم قرابة مع النبي صلى الله عليه وسلم: أي أسرة علي وعائلة بني هاشم، قد تأثروا بهذا الموقف جدًّا وشغلوا أنفسهم في تجهيز وتكفين الرسول صلى الله عليه وسلم وبالتالي لم يلتفتوا إلى هذه القضية".

تناول العلامة شبلي هذه المسألة أيضًا بالتفصيل وبعد أن استعرض جميع مناحي هذه القضية، توصل إلى النتيجة أن:

"وأخيرًا بقي السؤال عما حدث: هل كان مهملاً أم مفيدًا؟، في وسع كل من له إلمام بأصول التمدن أن يدرك هذا الواقع. عندما توفي الرسول صلى الله عليه وسلم، كانت المدينة المنورة مكتظة بالمنافقين، الذين كانوا يتوقعون منذ فترة طويلة أن يهدموا الإسلام سرعان ما لفظ الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم آخر أنفاسه. وفي هذا

الوضع الرهيب هل كان على المسلمين أن ينشغلوا بالرتاء والتأبين والنعي على وفاة الرسول، أم أن يهتموا فورًا بحل أمر الخلافة، لكي يستطب لهم الأمر. وازداد هذا الوضع تدهورًا وخطورة عندما بدأ الأنصار النقاش حول هذا الموضوع بدورهم، فكان من اللازم في هذا الوقت الحرج أن يرد على دعوى الأنصار للخلافة وأن يتم انتخاب من هو أليق بهذه المهمة بأسرع ما يمكن من الوقت. وكان أبو بكر هو الأكبر سنًا والأقوى تأثيرًا من بين من حضر في هذا الاجتماع فكان من المقرر أن يتم انتخابه، لكن المسلمين قد وقعوا في نزاع وجدال مع الأنصار، كان قد أطال الجدال والنزاع وأوشك أن تستل السيوف من أعمادها، ففطن عمر رضي الله عنه لهذا الوضع واندفع يضع يده في يد أبي بكر قائلاً بأني أول من يبايعك في أمر المسلمين، وإذا به امتدت أيدي عثمان بن عفان وأبو عبيدة بن الجراح وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهم للبيعة، ثم تداعت وتتابع الجماهير من الناس مبايعة على يد أبي بكر الصديق رضي الله عنه. وبهذه العملية انسد السيل الجارف وانشغل الناس مطمئنين بأعمالهم".

هذا يعني أن العلامة شبلي يعتقد أن اجتماع الصحابة الكرام بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم مباشرة في سقيفة بني ساعدة واختيارهم أبا بكر خليفة لهم كان قرارًا صائبًا لا حرج فيه وأن ما قام به عمر رضي الله عنه بهذا الصدد، كان في أوانه ينم عن كياسته وبعد رؤيته للغاية. ولا شك في أن اعتقاده هذا كان مبنياً على حقيقة أن المسلمين كان قد تفرق شملهم واندفعوا في الحرب الأهلية، لولا عمر رضي الله عنه فعل ما فعل.

هذا الحادث أيضًا لم يسترع انتباه كتاب السير الآخرين، حيث أنهم لم يولوا اهتمامًا خاصًا به، بل اكتفوا بإلقاء نظرة عابرة عليها بدون بحث وتمحيص.

قد بين شبلي للاطلاع على مدى صحة الوقائع أمرين أو منهجين: الرواية والدراية. يقول بصدد "الرواية" أنها تعني نقل الرواية بواسطة من شهدها بنفسه وأن تكون الرواية متصلة الإسناد من أول راوٍ لها إلى آخرها، ثم يجري البحث عن جميع رواة الحديث في صدقهم وأمانتهم وقوة حفظهم.

ويقول بصدد الدراية أنها تقصد نقد الحادث في ميزان الأصول النقدية ومن خصائص شبلي أنه يراعي هذه الأصول النقدية في البحث والتنقيب عن الوقائع ولا يهملها أبدًا. وخير نموذج لهذه الدعوى هو تحقيقه المفصل في رواية "القرطاس".

أما الجزء الثاني لكتاب "الفاروق" فهو أكثر وأجود تحقيقًا من الجزء الأول، يدور حول الترتيبات والتنسيقات الاجتماعية والدينية خلال فترة الخلافة الفاروقية، ثم يتحدث مفصلاً عن منجزات عمر الفاروق العلمية وقيمه الخلقية والسلوكية. يمثل هذا الجزء حسب قول المؤلف نفسه مجهوده ومسعاها المشكور إزاء تأليف هذا الكتاب. بدأ هذا الجزء باستعراض انتصارات حربية تحققت في العهد الفاروق وقد تقدمت تفاصيلها في الجزء الأول. أما هذا الجزء الثاني فهو يتحدث عن الأسباب والعلل وراء هذه الانتصارات الباهرة، كما هو يكشف الستار عن الإشاعات والأقاويل التي روجها المؤرخون الغرب بهذا الصدد ويقدم الصورة الصحيحة الصادقة بالأدلة والبراهين. هكذا أثبت المؤلف في هذا السياق أن عمر الفاروق رضي الله عنه هو أكبر فاتحي العالم فيقول بعد إلقاء الضوء على تفاصيل هذه الفتوحات الإسلامية وأسبابها:

"وفي ضوء تفاصيل هذه الوقائع كلها، يتجلى بوضوح أنه لم يعرف تاريخ العالم بعده فاتحًا يعادل عمر الفاروق رضي الله عنه".

ثم نعر في هذا الجزء على معلومات تتعلق بالنظام الحكومي للعهد الفاروق مثل الشؤون الإدارية وقسم الإيرادات المالية ونظام العدل والمساواة وقسم الشرطة وإدارة بيت المال ووزارة المرافق العامة ونظام الجيش ومنهج التعليم وحقوق الذميين. وأهم هذه المعلومات كلها تلك التي تتحدث عن نظام العدل في العهد الفاروق. فإنه ذكر في هذا السياق رسالة عمر الفاروق رضي الله عنه إلى حاكم الكوفة أبي موسى الأشعري ثم قارنها مع "الأصول الاثني عشر" لمملكة الروم وأثبتت بالبراهين أن هذه القوانين الفاروقية هي أفضل وأجمع من تلك التي وضعتها مملكة الروم، إذ أنها تهتم بالأصول المتشعبة للمدنية والتحضر على مستوى أكبر. كان عمر الفاروق يولي اهتمامًا خاصًا بمصلحة "القضاء" ويضمن في جميع الأحوال بتحقيق العدل لدى كل

مواطن سويًا بدون أي نوع من التمييز ولا شك في أن منهجيته ورقابته الصارمة على هذه المصلحة قد أنتجت عن نتائج إيجابية وبعيدة المدى وكما يقول شبلي:

"ومن معطيات ما وضع ونفذ عمر الفاروق رضي الله عنه من القوانين الصارمة ذات الصلة بالقضاة وإجراءاتهم أن ظل القضاة أبرياء من تهمة الجور والظلم، لا فقط في عهد خلافته، بل حتى العهد الأموي".

بعد ذلك نجد بحثًا دقيقًا لحقوق الذميين في هذا الجزء، ففي هذا المجال أيضًا استخدم العلامة شبلي ذكاهه وبصيرته التاريخية وأثبت في ضوء المصادر التاريخية الموثوق بها أنه ما قام به عمر الفاروق رضي الله عنه من السلوك غير الانحيازي مع الطبقة المغلوبة أو المهزومة وما أقرّ لها من حقوقها المدنية، لا تستطيع أن تقدم نظيره الدول الأوروبية، التي تعتز بحضارتها وثقافتها والمحافظة على الحقوق البشرية، فلذلك نرى أن مواطني الدول المغلوبة كانوا مولعين شغوفين بالغزاة المسلمين، عندما كانوا يرون بأعينهم حسن سلوكهم وطيبة خلقهم وصدق قولهم، فيقول شبلي:

"كانت مملكتا الروم وفارس حتى في فترة ازدهار حكمهما لا تستطيعان أن تقاوما الغزاة المسلمين بفضل ما تعودوا عليه في صحبة مؤسس دين الإسلام من الحماس الديني والعزم الراسخ والجرأة وطموح الهمة والشجاعة وغيرها من الخصائص، التي ازدادت قوة واشتعالًا بقيادة عمر الفاروق رضي الله عنه. غير أن هذه الخصائص، رافقتها خصيصة بارزتان، ساعدتا لا فقط في نيل الفتوحات الإسلامية، بل في إقامة الدولة الإسلامية. وكان في طبيعة هاتين الخصيصتين: صدق المسلمين وأمانتهم، فبعد أن فتحت لهم أي منطقة، كان ساكنوها يحبون المسلمين وصدقهم إلى حد كانوا لا يطمعون أبدًا في انهيار حكومتهم، بالرغم من اختلافهم في الديانة، فلما غادر المسلمون المناطق السورية إبان معركة اليرموك دعا المسيحيون لربهم أن يعيدهم في هذه المناطق مرة أخرى وقالت اليهود رافعة التوراة في أيديهم بأن القيصر لن يدخل هذه المنطقة ما دمنا أحياء".

وفي نهاية هذا الجزء تم ذكر الأحوال الذاتية لعمر الفاروق وعاداته وأخلاقه، فألقى فيه شبلي الضوء على مختلف نواحي حياته وقارنه مع كبرى شخصيات العالم، ثم أثبت أن ما كان يتصف عمر رضي الله عنه به من الخصال والفضائل، لم يتصف به أحد غير الأنبياء قائلًا:

"يعرف من له اطلاع على أسرار نواميس الطبيعة جيدًا أن الفضائل البشرية لها أنواع، ولكل فضيلة منى مختلف، يحدث في أغلب الأحيان أن يكون الرجل لا نظير له في العالم في ميدانه الخاص، ولكنه في نفس الوقت لا ينال حظًا من الفضائل الأخرى. فالإسكندر المقدوني كان أكبر فاتحي العالم بلا شك، ولكنه لم يكن حكيماً. وأرسطو كان أكبر حكماء العالم، غير أنه لم يكن فاتحاً. اتركوا وشأن عظام الخصال، من الصعب جدًا أن تجتمع في شخص واحد جميع صفات الفضائل. هناك أبطال كثيرون، كانوا نموذجًا للشجاعة، ولكنهم لم يكونوا على خلق عظيم. والكثيرون كانوا أصحاب الخلق الرفيع، غير أنهم لم ينالوا حظًا من الكياسة والتدبير. والآخرين كانوا يجمعون بين هاتين الصفتين، إلا أنهم كانوا محرومين من العلم والفضل.

والآن انظروا في شخصية عمر الفاروق وجوانبه المتعددة، تجدوا أنه كان إسكندر المقدوني وأرسطو الحكيم، وكان المسيح الطيب وسليمان الملك، وكان تيمور الحاكم وأنوشيروان العادل، وكان أبا حنيفة الفقيه وإبراهيم الأدهم الزاهد.

ثم انظروا إليه من ناحية القيم الخلقية، تروه ليس هناك أحد يماثله غير الأنبياء: الزهد والعفاف، الحلم والتواضع، البساطة والسهولة، الصدق واتباع الحق، الصبر والرضا، الشكر والتوكل، هل كانت تتوفر هذه الصفات في أمثال لقمان وإبراهيم الأدهم وأبي بكر وشبلي ومعروف الكرخي بقدر ما كانت تتوفر من النبوغ والكمال في شخصية عمر الفاروق رضي الله عنه؟"

الدراسات المقارنة ومنهج التحليل التقابلي بين كبار شخصيات العالم صفة يمتاز بها العلامة شبلي من غيره من كتّاب السير، الطريقة التي تستقر بها مكانة صاحب السيرة وأهميته في نفوس القراء بشكل مؤثر إيجابي وهذا هو المقصود من كتابة السير

والتاريخ. وليس من شك في أن رسم صورة صاحب السيرة بطريقة تتجلى بها جميع جوانب شخصيته عمل صعب المراس، لا يتأتى بمجرد التلاعب بالألفاظ والإطراء الزائد أو اللجوء إلى المدح والثناء أو إبداء معجزات ما فوق الفطرة أو بصورة أخرى بمجرد التجريح والنقد اللاضروي وإظهار العداة والكراهية. بل من اللازم ومن واجبات كاتب السيرة أن يبدي رأيه مستنداً إلى الشواهد القاطعة وأن يقوم بالتحقيق الشامل في جميع ملابسات صاحب السيرة، إيجابية كانت أو سلبية، مستعيناً بأصول "الرواية والدراية" كليهما، ثم يقدمها إلى القراء مضبوطة ومتسلسلة الأجزاء وعليه أن لا يفرض رأيه على ذهن القارئ، بل يدعه يحدّد قيمة العمل في ضوء دراسته، وعلى هذا الأساس عندما ننظر إلى كتاب "الفاروق" للعلامة شبلي، نجد أنه نجح كلياً في القيام بهذا الجانب الفني ولذلك لا نرى أحداً يتردد في التسليم بأفضلية "الفاروق" على جميع ما كتب بالأردوية حول حياة عمر الفاروق رضي الله عنه. بل إنها تتفوق في بعض الجوانب على كل من كتابي "عمر الفاروق الأعظم" للدكتور محمد حسين هيكل و"شهيد المحراب عمر بن الخطاب" للسيد عمر التلمساني. وكان شبلي بذاته يحب كتابه هذا أكثر من إنتاجاته الأخرى ما عدا "سيرة النبي".

9. الفرق لعابد علي بيغ قزلباش

لقد صح ما كان السير سيد أحمد خان أبداه في زمن تأليف كتاب "الفاروق" من التشوش العلمي بعد ظهوره في حيز الوجود إلي حد ما، وأصبح الكتاب عرضة للنقد والتجريح من قبل الطبقات المحددة وتم اتخاذ خطة للرد عليه وعهد هذا الأمر إلى العالم الشهير والكاتب المعروف المرزا عابد علي بيغ قزلباش، فكتب استعراضاً مفصلاً لهذا الكتاب ثم نشره في كتاب باسم "النظر السموق في سيرة الفاروق" أو "الفرق". هذا الكتاب مثل منقوده "الفاروق" يشتمل على جزأين ضخمين، ففي الجزء الأول 292 صفحة وفي الثاني 672 صفحة، البالغ عدد صفحاتهما جملة 968، مقارنة لـ"الفاروق" البالغ عدد صفحاته في جزأين 580. وهذا يعني أن هذا الاستعراض أصبح أضخم بكثير من أصله. ومن خلال مطالعة أولى صفحاته يمكن لنا الاطلاع على ميول وآراء المعلق وبقدراً تتقدم في دراسة هذا الاستعراض، نشعر

العدد الخاص مجلة الهند

بشدة في إحساساته ومرارة في أسلوبه، فعلى سبيل المثال، لتراجع أولاً عدة مقتبسات من مقدمة هذا الاستعراض، يقول في ثناياها:

"من الواقع أن العديد من الأبصار كانت معلقة في انتظار نشر كتاب "الفاروق" وذلك أن صاحب الكتاب لم ينشر إعلاناً في "المأمون" فحسب، بل قدّم المؤلف المحترم في "سيرة النعمان" شخصية عمر بن الخطاب بهدف أن تجعل رأس الخلفاء المعروفين من جديد في فترة، ساد تيار المناظرة بالأردوية بين أهل السنة والشيعة. ويضيف قائلاً:

"كان موقف السير سيد أحمد خان إزاء الأمة المسلمة الهندية أهل السنة أو الشيعة أن تعيش معاً متحدة ومتعاونة ومتناسية النزاع المسلكي العريق بصدد أمر الخلافة. وكان بعد رؤيته وحزمه مانعين من ظهور أي تصنيف، يضي لونهاً جديداً على النزاع المسلكي بين أهل السنة والشيعة ولكن جرأة المؤلف قد ضمته في جماعة السلسلة الأصفية، عندما قام بتأليف "الفاروق" وقطعت أسباب علاقته مع كلية عليجراه للمسلمين، التي نشأ المؤلف وترى في بيتها تعلمًا واكتسابًا وفي عبارة أخرى، أنه زاد فتيلة قنديله، التي نما وارتقى في ظله إحراقًا واشتعالًا".

"من الأسف أن "الفاروق" طبع ونشر بعد وفاة السير سيد أحمد خان، فلئن نشر في حياته، فقد كنا اطلعنا على رأيه، وهو يكتب مقالاً تحقيقيًا ضد هذا الكتاب حسبما كان أبدى نيته في حياته".

ثم يقول وهو يلقي نظرة إجمالية على الجزء الأول لـ"الفاروق" قبل الخوض في صلب الموضوع: "بدأت حالياً مراجعة الجزء الأول لـ"الفاروق" بعد الحصول على هذه النسخة بغاية من الصعوبة، ولا شك في أن المؤلف رتب هذا الكتاب بسليقة فائقة ولم يحاول مجرد تطوير مبحث أفضلية عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالنسبة لإطار المذهب الشيعي، بل إنه سعى في إثبات أفضليته على نبي الإسلام -عليه الصلوة والسلام- ونسبة أساس الدين الإسلامي- وهو التوحيد وترك الوثنية- إلى أسرته وابن عمه زيد. ولو اتبع المسلمون أهل السنة والشيعة خطوة آثار المؤلف، لأمكن لهم أن يتفادوا من الجدليات التي تفترض

برسالة النبي الكريم وكونه ابن عم لعلي رضي الله عنه وبالتالي تثبتت أفضلية علي المرتضى رضي الله عنه وبهذا الطريق لا بد لهم من التسليم بضعف رسالة محمد صلى الله عليه وسلم والإقرار بأن عمر وأسرته كانت معلم الرسول، الأمر الذي سيقتضي أن أسرة عمر هي أشرف من أسرة النبي الكريم صلى الله عليه وسلم".

رد المعلق المؤقر على العلامة شبلي النعماني كتابه حرفاً وحرفاً وأنكر كل ما كتب عن شخصية عمر الفاروق وشجاعته ونجابته وعقليته الفريدة وعبقريته الإدارية ومكانته القيادية وكريم خلقه وما يتعلق بعدله وإنصافه وما يتسم به من السمات الفطرية الصادقة، ولكن مما يؤسف له أن المعلق قد اتخذ لنفسه منهجاً غير علمي خلاف ما اتخذته العلامة شبلي في كتابه من المنهج العلمي والطريقة البحثية. فقد لجأ المعلق في استعراضه إلى التعبير عن مشاعره لا غير، قلما تنم عن صدق المعلق وإخلاصه، فمثلاً قد قام شبلي في بداية الجزء الثاني من "الفاروق" باستعراض إجمالي لفتوحات عهد الخليفة الراشد الثاني، ولكن المعلق قد مارس نقداً طويلاً لهذا الجزء مشيراً إلى أن الإسلام نال في زمن النبي صلى الله عليه وسلم القوة والغلبة لا بفضل عمر، بل بسبب علي المرتضى رضي الله عنه. فيشرح قائلاً:

"يبدأ المؤلف الجزء الثاني بإلقاء نظرة إجمالية على الفتوحات التي تحققت في عهد عمر الفاروق رضي الله عنه، وبحث في بدايته بالنسبة إلى المصنفين الأوروبيين قائلاً: لماذا قلب عدد من ساكني البادية في الدولتين الروم وفارس رأساً على عقب؟ وأبدى رأيه بأن: "كانت مملكتنا الروم وفارس حتى في فترة ازدهار حكمهما لا تستطيعان أن تقاوما الغزاة المسلمين بفضل ما تعودوا عليه في صحبة مؤسس دين الإسلام من الحماس الديني والعزم الراسخ والجرأة وطموح الهمة والشجاعة وغيرها من الخصائص، التي ازدادت قوة واشتعالاً بقيادة عمر الفاروق رضي الله عنه. غير أن هذه الخصائص، رافقتها خصيصتان بارزتان، ساعدتا لا فقط في نيل الفتوحات الإسلامية، بل في إقامة الدولة الإسلامية. وكان في طليعة هاتين الخصيصتين: صدق المسلمين وأمانتهم، فبعد أن فتحت لهم أي منطقة، كان ساكنوها يحبون المسلمين وصدقهم إلى حد كانوا لا يطمعون أبداً في انهيار حكومتهم" وسبق أن ارتأينا أن الفتوحات التي تحققت في عهد عمر الفاروق رضي الله عنه، كانت تعمل وراءها قوة

التدبر التي قد تحققت في عهد الرسالة بفضل التعليم المحمدي وقوة ساعدي حيدر كرم الله وجهه والتي أدت إلى اتقاد روح الحماس الإيماني والعزم الراسخ والجرأة وطموح الهمة والشجاعة في نفوس المسلمين، ولكن هذه الأمور كلها تكون من الصحة والقطعية، إذا لم تتعد حدودها، ولكني مع الأسف لا أستطيع أن أتفق على أن الحركة التي أطلقها النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، قد أصبحت أكثر نشاطاً وحيوية بفضل عمر رضي الله عنه. وما نسب إلى عمر رضي الله عنه عقيدة من تقوية الحركة وتنشيطها، السبب الأصلي وراء ذلك كله هو أن علي المرتضى رضي الله عنه لم يقم بفض الخلافة الأولى أو الثانية، بل أقرها على حالها مؤكداً على جدارته بها وأنقذ المسلمين من الخوض في حرب أهلية محتملة الوقوع، عندما لم يبد أي نوع من المعارضة على احتلال غيره منصب الخلافة ولم يحدث الفوضى في جماعة المسلمين. وهذا هو ما نعتقده ولم نزل نعلنه منذ مدة غير قليلة".

وبالإضافة إلى ذلك، هو يعتقد أن عمر رضي الله عنه لم يؤسس أي دولة بقوة ساعديه وفي الختام هو يصل إلى النتيجة أن:

"يمكن أن تتم المقارنة بين ما كتبه المؤلف من ترجمة عمر الفاروق رضي الله عنه وما توصل إليه من النتائج من خلال تغيير نوعية هذه الوقائع وبين ما عبرت عنه في هذا الاستعراض من المعطيات الصحيحة وبدراسة هذه الموازنة يتبين أن الخصائص والسماوات التي أراد المؤلف نسبتها إلى عمر رضي الله عنه، لم تكن هذه أوصافاً ذاتية له".

لو درسنا "الفاروق" واستعراضه "الفرق" دراسة تحليلية موضوعية، لوجدنا أن هناك بوناً شاسعاً بين هذين الكتابين، ف"الفرق" ليس فيه سمة التحقيق ولا موضوعية تاريخية، ولا نجد فيه شيئاً يستند إلى المصادر الموثوق بها ولا فيه روعة بيانية ولا انطلاقة في الأسلوب، بل يغلب عليه طابع الأسلوب القديم، يمجه الذوق السليم، ولذلك لم ينل هذا الاستعراض قبولاً عاماً ولا تداوله الناس اليوم، بينما كتاب "الفاروق" يعرفه كل من هبّ ودبّ في أرجاء العالم.

المصادر والمراجع

1. رسائل شبلي، دارالمصنفين، أعظم كره، 1928م
2. شبلي مؤرخاً، دار الاعتقاد للنشر، 1979م
3. الفاروق، المكتبة العلمية، دلهي، عام 1951م
4. مجلة "علي كره إنستيتيوت غزت الصادرة عن جامعة علي كره الإسلامية، علي كره، الهند
5. مقالات الشيرواني، مطبعة الشيرواني، علي كره، الهند، 1946م

"تعليم المسلمين الماضي" أول كتاب للعلامة شبلي خلال
إقامته بعلي كره
(دأرسة تعريفية)

- أ. د. ظفر الإسلام الإصلاحي¹

ترجمة من الأردوية: د. أورك زيب الأعظمي²

يعرف العلامة شبلي النعماني (1857-1914م) كاتبًا كبيرًا للسيرة ومفكرًا عظيمًا وماهرًا للمعارف ومؤلفًا شهيرًا، ولحياته القصيرة فترات أمضاها إما في علي كره أو حيدرآباد أو لكاناؤ أو أعظم كره إلا أن الفترة التي قضاها في علي كره مهمة لأن العديد من مؤلفاته القيمة كتبت بها (ولا شك أن سيرة النبي عمل رائع للعلامة شبلي لن يعادله أي أعماله) ولقد أنفق العلامة شبلي حوالي 15 سنة في علي كره كأستاذ مشهور لكليتها الشرقية (M.A.O) وكان يؤلف بها الكتب بجانب تدريس الطلاب³ فكتب حول المواضيع العديدة بما فيها تعليم المسلمين⁴ فالكتاب الذي نودّ دراسته يتعلق بهذا الموضوع ويحتل أهمية خاصة لأنه أول كتاب منشور للعلامة شبلي خلال فترة قيامه بعلي كره ولنعلم أن أول عمل صدر للعلامة شبلي بعد انتسابه إلى الكلية هو "مثنوي صبح أميد" (ملحمة فجر الأمل) والذي نشر في 1886م ولقد اعتبره تلميذه البار

¹ أستاذ، قسم الدراسات الإسلامية، جامعة علي كره الإسلامية، علي كره

² أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة المليية الإسلامية، نيو دلهي

³ ليراجع للتفصيل: تعليم عهد إسلامي ك هندوستان مين، ص 18-43

⁴ تم ترتيب مقالات شبلي عن التعليم في المجلد الثالث لمقالات شبلي

السيد سليمان الندوي، وصدق في تعبيره، وصفاً جميلاً لحركة علي كره التعليمية¹ والكتاب الذي نحن بصدد التعريف به تمت كتابته، على إشارة من السير سيد أحمد خان، كمقالة للجلسة الثانية لمؤتمر المسلمين التعليمي (المنعقدة في 27/ديسمبر 1887م بباره دري، قيصر باغ، لکناؤ فلما ألقىت هذه المقالة في هذه الجلسة أعجبوا بها وطار صيتها في كل أنحاء البلاد وكما قال السيد سليمان الندوي "هذا أول صوت بلغ أذان المسلمين عن مآثر أسلافهم فضجت الهند كلها بهذه الخطبة وهذا أول أفق أشرقت منه شمس سمعة العلامة شبلي النعماني"² ثم نشرت هذه المقالة في صورة كتاب على عناية من السير سيد أحمد خان.

هذا الكتاب الوجيه المحتوي على 80 صفحة رائع جداً وتبدو أهميته من خلفية ترتيبه وطبعه وذلك أن نشر التعليم لاسيما حل قضية تعليم المسلمين كان نقطة مركزية لمشروع السير سيد وبعدما وسّع نطاق هذا المشروع وبثّ الوعي في القوم طلب من حواشيه من الكتاب والمخترين أن يكتبوا عن الموضوعات التعليمية ما يقدم في الجلسة القادمة للمؤتمر فاختار العلامة شبلي لنفسه موضوع "تعليم المسلمين الماضي"³ فلم يحبه السير سيد فحسب بل أعلن عن كاتمها أنه سيقدم مقالته بهذا الموضوع في الجلسة القادمة للمؤتمر فكتب العلامة شبلي رسالة إلى أحد أحبّته في 8/مايو 1887م أخبره فيها بهذا الإعلان وأبدى عن عزمه على بذل ما وسعه من الجهد لكتابة هذه المقالة فهو يكتب إلى أحبّ تلامذته الشيخ محمد سميع من نيني تال (Naini Tāl) حيث نزل مع السير سيد: إن مؤتمر المسلمين التعليمي سينعقد هذه السنة في لکناؤ وقد أعلن بأن شبلي سيقدم مقالة طويلة في موضوع "تعليم المسلمين الماضي" ولعلي سأكتب هذه المقالة بكل جهد مضمّن وأوقّر فيها معلومات نادرة⁴ وكذا

¹ حیات شبلي، ص 139

² المصدر نفسه، ص 171

³ خطوط سر سيد، ص 70

⁴ مكاتیب شبلي، 83/1

أخبر بها السير سيد عن إعداد هذه المقالة وتقديمها في الجلسة كل عضو للمؤتمر¹ ولما قدّمت المقالة إلى السير سيد بعد إتمامها فقال السير سيد إن العديد من الكتاب قد وعدوا أنهم سيكتبون مقالاتهم لهذه الجلسة ولم يوفوا بها فلما أتمها العلامة شبلي صدّق ما قال الله تعالى: "والموفون بعهدهم إذا عاهدوا"². فلما نالت المقالة قبولاً عامّاً بعدما ألقاها العلامة شبلي في الجلسة فنشرها السير سيد بكل عناية من قومي بريس، لكتناؤ في يونيو، 1888م وتبدو عنايته بنشر هذه المقالة أن أولى مراحل نشرها بدأت في يناير، 1888م ولو أنها صدرت في يونيو نفس العام فيكتب العلامة شبلي إلى أخيه محمد إسحاق في رسالة مؤرخة في 14/يناير، 1888م: لقد نجح المؤتمر أكثر مما ظننا ولو أنك لم تحضره ولكني أكّدت على أكبر حسين (المرادبادي) أن يخبرك بكل ما حدث، وستنشر مقالتي على حدة وستشمل ستة أجزاء وأما القصيدة فستنشر مع هذه المقالة والتقرير كليهما³ وتبدو أهميتها لدى السير سيد من أنه اعتنى بإرسال نسخة من هذه المقالة إلى كل من أعضائه وقال: لقد نشرت مقالة الشيخ محمد شبلي الرائعة التي كانت حول تعليم المسلمين الماضي وأرسلت إلى كل عضو للمؤتمر⁴ يبدو من بعض القرائن أن السير سيد لم يزل يرسل نسخها إلى مخيري الكلية وقتاً لآخر فلما أراد النواب عماد الملك السيد حسين البلغرامي أن يصبح عضواً للمؤتمر في نوفمبر، 1889م فأخبره السير سيد بتفاصيل فعاليات المؤتمر كما أرسل إليه هذه الرسالة قائلاً: لقد اختار الشيخ محمد شبلي مقالته التاريخية في تعليم المسلمين الماضي، والتي نرسلها إليكم وأظن أنه أعد شيئاً جيداً رائعاً⁵ ولا يخلو من الأهمية أنه لو ذكرنا هنا أن هذه الرسالة طبعت في يونيو، 1888م وكتب عليه السير سيد استعراضاً مفصلاً في غضون شهر تقريباً نشر في

¹ مكاتيب سر سيد، ص 174-175

² علي كده إنثيثوت كزث، 23/55، 10/يوليو، 1888م، ص 773-774

³ مكاتيب سبلي، 1/23-24

⁴ مكاتيب سر سيد، ص 174

⁵ خطوط سر سيد، ص 136

العدد العاشر ليوليو، 1888م لعللي كره إنستيتيوت غزت. هذا استعراض جامع يلقي الضوء على هذه الرسالة فنودّ أن نقتبس منه فيما يلي:

"ولو أن هذه الرسالة في مجرد 80 صفحة ولكنها تحفل بمعلومات عن تعليم المسلمين الماضي بحيث لا نجد قدرها مجموعة في كتاب واحد ولقد كتب المؤلف في موضع أني لم أظفر بما احتاج إليه من التفاصيل للكتابة عن هذين المبحثين وتلك هي ترجمات الفلسفات اليونانية، وأسماء المترجمين ومؤلفاتهم، وتفصيل دور العلوم والمدراس الإسلامية، وطرق تدريسهم، والمناهج الدراسية، ومما شابهها من المعلومات التي لم أعرّ عليها في كتاب خاصّ بها" والواقع كذلك ولكننا نثني على جهد الكاتب الجهد وبحثه المضني بأنه جمع هذه المعلومات من أماكن عديدة فتارة اضطر إلى كتاب التاريخ لخلفاء بني أمية وبني العباس وتارة أخرى إلى سير الأمراء وتارة ثالثة إلى تراجم العلماء وحتى أجبر على قراءة أخبار الشعراء وكذا جمع ما وجده لدى العلماء الغرب بالاعتراف بمنتهم تلك وهكذا فنجح في نيته".¹

والأهم من ذلك أنه انتقد، من بعض الجوانب، أنشطة المؤسسة التي أقامها السير سيد فلم يقبلها السير سيد عن رضى فحسب بل كتب في استعراضه: ولقد أورد الكاتب اعتراضاً صحيحاً على مؤسستنا، لا نصرف النظر عنه"². والواقع أننا لا نجد أحداً قبل النقد والاعتراض على كتاباته خاصة إذا كان الناقد أصغر منه سنّاً وقدرًا ومن الأسف أن بعض الكتاب وصفوا اعتراض شبلي هذا على السير سيد هو البداية للتراع بينه وبين السير سيد والحق خلاف ذلك. وهكذا أن أهمية هذه الرسالة تبدو في نظر السير سيد من أنه لم يزل يعلن في مجلته أن من اشترى عشرين أو ثلاثين أو أربعين نسخة من هذا الكتاب فهو يعطى تخصيصاً معيّنًا وكان يكتب اسمه تحت هذا الإعلان³ وليس هذا فقد بل تم استعراض هذه الرسالة في مجلات وصحف أخرى ولما قرأ الناس استعراضها في مجلة "دلگداز" الشهرية الصادرة عن لکناؤ تاقت أنفسهم

¹ علي گده إنستيتيوت گزت، 55/23، 10/يوليو، 1888م، ص 773-774

² المصدر نفسه والصفحة ذاتها

³ ولنشر الإعلان راجع: علي گده إنستيتيوت گزت، 55/23، 7/يوليو، 1888م، ص 763-764

لشرائها وكما قال الشيخ عبد الحلیم شرر: هذه المحاضرة شيء جديد وممتع للمسلمين ولذا فلما استعرضتها مجلة "دلگداز" تهافت الناس على قراءتها¹.

وبصرف النظر عن هذه الأمور تبدو أهمية هذه الرسالة من قراءة محتوياتها ولا شك في أن كتاب العلامة شبلي الأول خلال قيامه بعلي كره يحتل منزلة كبرى نظراً لسعة مباحثه، ومستوى بحثه، وجودة لغته وجدة أساليبها فلقد صح السير سيد حينما اعتبره "يتيمة الدهر" و"فاقد النظير"² وإن هذه الرسالة تتصف بالتاريخ باعتبار احتوائها ونعرف جيداً أن التاريخ والسير موضوع محبوب للعلامة شبلي ويشهد به كافة كتبه القيّمة لاسيما التي صنّفت في علي كره من مثل المأمون وسيرة النعمان وسفرنامه روم ومصر وشام والفاروق والجزية ومكتبة الإسكندرية وإسلامي شفاخان (المستشفيات في العهد الإسلامي) وحقوق الذميين ومن الممتع أنه لما أمره السير سيد بكتابة "تعليم المسلمين الماضي" اعتبره تاريخياً ولو أنه لم يره في صورة تامة كما يبدو من رسائله المرسله إلى أعضاء المؤتمر³. فيمكن أن نستنتج من هذا أنه لما أمر السير سيد العلامة شبلي بكتابة هذه الرسالة أرشده إلى أمور ضرورية وعلى كل حال فقد سلّم جانبها التاريخي ويؤيد ما قلنا رأي الشيخ عبد الحلیم شرر عن هذه الرسالة فهو يقول مشيراً إلى أشغال العلامة شبلي التأليفية بعلي كره: لما أمره السير سيد إلى موضوع التاريخ والنقد والتحقيق فيه وأجمل نموذج له رسالته "تعليم المسلمين الماضي" التي كتبها لتقدّم في الجلسة الثانية والثالثة لمؤتمر المسلمين التعليمي⁴. ولا يخلو من الإمتاع لو ذكرنا هنا أن العلامة شبلي النعماني قد صرح في كتابه "علم الكلام" (المطبوع في 1902م) عن جانب كتبه التاريخي فقال: لقد عيّنت موضوع مؤلفاتي منذ فجر تألّيفي هو التاريخ فما صدر من قلبي حتى الآن كان موضوعه

¹ ماهنامه "دلگداز"، 12/16، ديسمبر، 1914م، 285

² علي كره إنتيشيوت كزث، 55/23، 7/يوليو، 1888م، ص 764، مكاتيب سر سيد، ص 176

³ مكاتيب سر سيد، ص 174-175

⁴ دلگداز، ص 285

العدد الخاص مجلة الهند

التاريخ¹ وعلاوة على ذلك لنعلم أن كلمة "الماضي" المذكور في موضوع المقالة تدل على تاريخيتها والأهم من تلك أنه ثابت من النظر على محتوياتها.

يبدو من النظرة الخاطفة على هذه الرسالة أنها عالجت ما يلي من الأمور:

1. ما هي العلوم التي أوجدها المسلمون وما هو الدور الذي لعبه القرآن في ترويجها؟
2. ما هي علوم الأجانب التي استفاد منها المسلمون ثم كيف طوّروها من لدنهم؟
3. ما هي الخطوات التي اتخذوها لترويج العلوم العقلية في المسلمين في العصر العباسي؟
4. كم كتابًا ترجم إلى العربية من اليونانية والفارسية والسانسكريتية وكم مترجمًا قام بهذا العمل وفي عصر كم خليفة تم هذا العمل؟
5. كم مدرسة أقيمت في عهود التاريخ الإسلامية الأولى وأين أقيمت ومن بناها وفي عصر كم خليفة أقيمت؟
6. من كان يعلم في هذه المدارس ومن كان عميدها وكم عالمًا تخرّج منها وكم مألًا صرف لرواتب أساتذتها ومنح طلابها؟
7. أي منهج دراسي كانوا يتبعونه وكم مقرّرًا دراسيًا كان فيها؟

وفي بداية استعراض هذه الرسالة لخص السير سيد محتوياتها وهذا الملخص جامع للغاية فهو يقول:

"لقد أجاد الكاتب عن عدد العلوم التي تم إيجادها في الإسلام وكم علمًا طوّروه وكيف انتشرت هذه العلوم وكيف كان تدرسيها ثم ماذا أضاف إليها بنو أمية وبنو عباس وكيف نقلوا علوم اليونان إلى لغتهم ثم كيف طوّروها فبلغوا بها ذروة لو كان اليونان أحياءً لهبتوا ولرأوا أن البذرة التي بذروها في الأرض كيف نمت وعلت فأعطت ثمارها وكذا أشار إلى العلوم التي لم يمتها عليهم غيرهم بل هم الذين أوجدوها"².

¹ علم الكلام، ص 11 (مقدمة)

² علي كده إنثيوت كزث، 55/23، 10/يوليو، 1888م، ص 773-774

ولنوضح هنا أن جانباً مهمّاً لهذا الكتاب هو إلقاء الضوء على أنه لما أخذ المسلمون علوم الأجنبي كيف كانت وكيف أصبحت بعد أن اعتنوا بها وكان العلامة شبلي يعرف أنه لم يسعه توضيح هذه القضية ففصلها وأراد أن يؤلف كتاباً منفرداً بها فيقول في الهامش تحت الموضوع: لو وجدت الفرصة لكتبت رسالة توضح هذه القضية أي كيف كانت العلوم حينما أخذها المسلمون وكيف أصبحت بعد عنايتهم بها وستقدّم هذه الرسالة إن شاء الله في الجلسة القادمة للمؤتمر¹ وعلى كل حال فيمكن بهذا القول تقدير أهمية هذه الرسالة وكم من بحث فتح بابها هذه الرسالة.

وملقياً الضوء على خدمات المسلمين في نشر العلوم والفنون ومنهجهم الدراسي القديم في هذه الرسالة لقد ركّز العلامة شبلي على نقاط تالية:

1. أن القرآن لعب دوراً رياديّاً في إيجاد العلوم العديدة
2. أن المسلمين لم يستحيوا من الاستفادة من الأجنبي واعترفوا بما تعلّموا عليهم
3. العلوم التي تعلّمها المسلمون على اليونان وغيرهم طوّروها وبلّغوها إلى ذروة الكمال
4. أن المدارس لها دور قيادي في ترويج العلم في المجتمع الإسلامي ولا يخلو منه أي عهد من عهود الإسلام

5. أن الحكام والأغنياء المسلمين جادوا بالأموال في إقامة المدارس وتنظيمها والجانب الآخر لهذه الرسالة أسلوبها التحقيقي فالواقع أنما بذله العلامة شبلي من جهود جبارة في جمع المعلومات من مختلف المصادر ثم رتبها ترتيباً حسناً يجدر بأن نثني عليه ولقد استفيد من مختلف المصادر في إعداد هذه الرسالة، كما أشار إليه السير سيد، بما فيها تراجم الخلفاء والأمراء والعلماء والكتب المنظومة ومؤلفات الغرب عن علوم اليونان وفنونهم².

ولا يخلو من الأهمية لو ذكرنا هنا أنما قام به السير سيد من سعة نطاق مصادرها ليس بخطأ كما يبدو من نظرة سارحة على مصادرها لأنها يضمّها سير الخلفاء والأمراء، وتراجم

¹ مقالات شبلي، 17/3 (هامش، رفق/1)

² علي كده إنثيثوت كزث، 55/23، 10/يوليو، 1888م، ص 773

العلماء وكتبتهم، وكلام الشعراء، وكتب المؤلفين الأوربيين بل قد أخذ على بيانهم في غير موضع كما يبدو من دراسة هذه الرسالة، وبدا لي من النظرة العاجلة على هذه الرسالة أن 41 كتابًا استفاد منها العلامة شبلي في إعدادها بما فيها 34 كتابًا بالعربية، و3 كتب بالفارسية، و4 كتب بالإنجليزية، وقد أشير إلى 33 كتابًا منها في الهامش بينما البقية جاء ذكرها في المتن وكذا وفرت معلومات تفصيلية لمعظم هذه المصادر، ولنعلم أن العلامة شبلي قد أحال إليها في الهامش بصورة منتظمة فيثبت من هذا أن العلامة قد استخدم طريقة Reference التي تعتبر منة القرن التاسع عشر والقرن العشرين للميلاد وهذه كلها شاهد عدل على سعة اطلاع العلامة شبلي، وودوقه التحقيقي، ورؤيته النقدية ولا شك أننا لا نصرف الذكر عن تأثير بيئة علي كره العلمية الجديدة فيه.

وعلاوة على ذلك فالرسالة لها أهمية نظرًا للغتها وأساليبها فما نشعر به من تأثير أسلوبها بجانب بساطة لغتها وجمالها يدلّ على ما كانوا يستخدمونها من اللغة وأساليبها في البيان عن أي موضوع علمي، يقول السيد صباح الدين عبد الرحمن مشيرًا إلى هذا الجانب من الرسالة: قدّمت هذه الرسالة في حين لم يكن تاريخ النثر الأردوي بطويل ولكن قوتها وإنشائها يدلان على أن الأردوية كانت تنمي اللغة وأساليبها التي كانت ضرورية للبحث عن موضوع علمي خالص¹. وفوق تلك أننا كنا نشعر به من التكلف والتصنع في النثر الأردوي للقرن التاسع عشر يخلو منه هذا الكتاب الذي هو أول كتاب للعلامة شبلي خلال فترة قيامه بعلي كره.

ويشهد بقبول رسالته هذه أنها ضمت إلى مجموعة مقالاته تامة أو غير تامة. وتفصيل ما قلنا كما يلي:

1. رسائل شبلي: رتّبها العلامة شبلي وطُبعت من مطبع العلوم، علي كره، دت، ص 264-301
2. مقالات شبلي (المجلد 3): رتّبها السيد سليمان الندوي، دار المصنفين، أعظم كره، 1955م
3. انتخاب مقالات شبلي: رتّبها علاء الدين خالد، أردو أكاديمي، كراتشي، 1960م
4. انتخاب مقالات شبلي: رتّبها رضي كاظمي، أردو بيلشرز، لكتاؤ، 1973م

¹ مولانا شبلي نعماني پر ایک نظر، ص 15-16

5. انتخاب مضامين شبلي: رتبها رشيد حسن خان، مكتبه جامعة، نيودلهي، 1972م¹

ويناسبنا أن نوضح هنا أن جزء مقالته "تعليم المسلمين الماضي" الذي هو عن المدارس ودار العلوم قد نشر على حدة في المجلد الثالث لمقالات شبلي² فيخطر ببال القراء أنها مقالة أخرى بينما "المدارس ودار العلوم" و"تعليم المسلمين الماضي" جزءان لمقالة واحدة كما يتضح من طبعتهما من قومي بريس (لكناؤ) فالجميل أن ينشر الجزءان في صورة مقالة واحدة لا كمقالتين على حدة.

وفي الأخير أن هذه الرسالة تعلمنا درسًا أنه إذا زلّ المرء في مكان فليعترف بها وليقم بإصلاحها فلقد اعترف العلامة شبلي في مكانين بهذا ولعله فطن له حينما كان يعيد نشرها في مجموعة رسائله فقام بإعادة النظر في كتابته وتفصيل ما قلنا كما يلي:

الألف: قال مسلطاً الضوء على مناهج مدارس تركيا التعليمي في مكان من هذه الرسالة تحت عنوان "المدارس الإسلامية ودور العلوم":

"كانت رواتب الأساتذة في عهد الأتراك هائلة فكان ينال المدرّس في المدارس الكبرى من 60 درهماً إلى 80 درهماً"³

فأوضحها في "مقالات شبلي":

"لقد رجعت عن هذا الرأي حين رحلتي إلى تركيا فالذي نسمّيه درهماً هو نقدٌ والذي يسمّونه "قرشاً" وهو يقدر بأنتين وهكذا فلم تثبت هذه الرواتب هائلة"⁴.

الباء: وكتبتاً عن تاريخ المدارس الإسلامية في الهند قال عن الهند في العهود المتوسطة:
"لنقل بدون خوف عن الهند أنه لم يقم مبنًى في صورة مدرسة"⁵.

¹ آثار شبلي، 511-510، و516-515

² مقالات شبلي، 77-37/3

³ رسائل شبلي، ص 290، مقالات شبلي، 66/3

⁴ رسائل شبلي، ص 290 (هامش، رقم: 1) ومقالات شبلي، 66/3 (هامش، رقم: 1)

⁵ رسائل شبلي، ص 298، ومقالات شبلي، 73/3

فقال في الهامش مشيرًا إلى خطأه:

"إني اعترف بأن تحقيقي هذا لم يثبت صحيحًا ولقد بني العديد من المدارس في الهند إلا أنها حرمت وجودها"¹.

فيرى الكاتب المتواضع أن هذا اعتراف بواقع عظيم لا يفتح بابًا جديدًا للتحقيق فحسب بل يدلّ على الأمانة في التحقيق، وتهمّ أمثلة الاعتراف بالواقع هذه من قبل العلامة شبلي من أن مثل هذه الأمثلة لا نراها إلا نادرًا وبعبارة أخرى لا نجد من الكتاب والباحثين اليوم إلا قليلًا ممن يعترف بخطأه بعدما ظهر لهم، اللهم وفقنا اتباع هذا التقليد الجميل الذي أقامه كاتب وباحث كبير كمثل العلامة شبلي النعماني.

وبالجملة فكتاب العلامة شبلي الموجز "تعليم المسلمين الماضي" مهمّ من مختلف الجهات ونرى صادقًا ما أبداه السيد عمير الصديق الندوي من انطباعه عن هذا الكتاب: نحتاج إلى أن نعيد النظر إلى هذا الشبلي الذي قدّم في أول وهلة كتابًا باسم "تعليم المسلمين الماضي" الذي ولو صرفنا النظر عن كافة مجهوداته لكفت هذه الرسالة مقدّمة عظمتها المنفردة"² وفي الواقع أن هذا الكتاب الموجز يرجع المسلمين إلى ماضيهم بالنسبة لنشر العلوم والفنون وترويج التعليم ثم يجعلهم معتبرين بها ويدعوهم لوضع المشروعات للمستقبل كما يحرضهم على نشر العلوم والفنون بدون تفريق ويدرسهم للكتابة في الموضوعات المهمة بأسلوب علمي حديث فالحاجة ماسّة إلى أن نقوم بدراسة مباحث هذا الكتاب النقدية ويقدم إلى القراء بترتيب علمي حديث، وفوق تلك أن هذه الدرة اليتيمة والفاقدة النظير تدعو مسلمي العصر الحديث للتفكير في عظمة وجلالة مآثر أسلافهم لترويج التعليم وتطوير العلوم والفنون ثم النظر في درجتهم وحالتهم في هذا الشأن، اللهم اجعلنا مخلصين نياتنا لخدمة العلوم الدينية فنوقف حياتنا لخدمة الدين الحنيف، آمين!

¹ رسائل شبلي، ص 298 (هامش، رقم: 1) ومقالات شبلي، 74/3 (هامش، رقم: 3)

² راشترية سهارا (طبعة لكناق)، 28/نوفمبر، 2014م، 9

المصادر والمراجع

1. جريدة "راشترية سهارا" (الظهير القومي) اليومية الصادرة عن أوترا براديش
2. سر راس مسعود (ترتيب): خطوط سر سيد (رسائل السير سيد)، نظامي بريس، بدايون، 1931م
3. سيد سليمان الندوي (ترتيب): مكاتيب شبلي (رسائل شبلي)، مطبعة معارف، أعظم كره، 1971م
4. سيد سليمان الندوي: حيات شبلي (ترجمة شبلي)، دار المصنفين، أعظم كره، 2001م
5. سيد صباح الدين عبد الرحمن: مولانا شبلي نعماني پر ايک نظر (نظرة على العلامة شبلي نعماني)، مطبعة معارف، أعظم كره، 1985م
6. شبلي النعماني: علم الكلام، دار المصنفين، أعظم كره، 2003م
7. شبلي النعماني: رسائل شبلي (مقالات شبلي المختارة)، مطبع العلوم، علي كره، د.ت
8. ظفر الإسلام الإصلاحی: تعليم عهد إسلامی کے ہندوستان میں (التعليم في الهند خلال الحكم الإسلامي)، دار المصنفين، أعظم كره، 2007م
9. علي كره إنسٹیٹیوت گزت الصادرة عن علي كره
10. مجلة "دلگداز" الشهرية الصادرة عن لکناؤ
11. محمد إلياس الأعظمي: آثار شبلي (دراسة تحليلية لمآثر شبلي)، دار المصنفين، 2003م
12. مشتاق حسين (ترتيب): مكاتيب سر سيد (رسائل السير سيد)، فريندس بك هاؤس، علي كره، 1960م

العلامة شبلي النعماني ونظرة على أورنغ زيب عالمغير

- د. محمد تعظيم¹

ترجمة من الأردوية: عزيز الرحمن²

كتب العلامة شبلي النعماني في موضع "إذا ما تم إعداد قائمة لسوء الفهم الغريب للعالم فيلزم أن يتم وضع التصريحات الخاطئة لأوروبا ومؤرخيها في المقدمة"³. وكان يرى أن "بعض الأحداث تنال شهرة مرموقة بسبب مؤقت وبناءً علمياً يؤمن الناس بها ولا يتوجه أحدٌ إلى نقدها وتحقيقتها، حتى تصبح من الممارسات العامة شيئاً فشيئاً". ومع ذلك فإن من أسرار فلسفة التاريخ أن الأحداث التي تنال شهرة أكثر تتعرض لصحتها لخطر الشك". لذا يجب أن يتم البحث عن الأدلة التي تصادق على حقيقتها"⁴. وفي الواقع، هذا ما حدث مع أورنغ زيب خلال تدوين تاريخ الهند، وأن المستعمرين البريطانيين عند سعيهم لتبرير نظام حكومتهم وقمع المظاهرات المناهضة لهم وبغية تشيئتها خاصة عقب حركة التحرير الهندية الأولى عام 1857م، وذلك بموجب سياسة "فرّق تسد"، قاموا بتدوين تاريخ الهند من منظور النظرية الاستعمارية وحاولوا أن يثبتوا تفوق حكومتهم على الحكومات السابقة، ولأجل ذلك وصفوا العصر الاستعماري بطريقة لا تبدو أنها الأفضل بل تعدّ نعمة أيضاً، وتقضي على اتحاد الهنود وهكذا كان التاريخ أفضل أداة لتلبية هذا الغرض، لأن موضوع التاريخ هو آلة يمكن من خلالها أن تتحد الأمة والدول وكما يمكن بواسطتها غرس بذرة التنافر والانشقاق التي تنمو بها شجرة متينة. ولأجل هذه الغاية، قدّم الإنجليز لاسيما العصور الوسطى كعصر مناهض للهندوس والحكام الأجانب. وطبقاً للإنجليز، كانت حكومتهم مبنية على الاستغلال والعداء الديني، لذا استخدموا مصطلح المسلم الهندي بدلاً عن العصور

¹ الجامعة المليية الإسلامية، نيودلهي

² باحث، مركز الدراسات العربية والإفريقية، جامعة جواهر لال نهرو، نيودلهي

³ دراسة فكرية وفنية لنثر السير سيد أحمد خان ورفقائه المعروفين، ص 170

⁴ نظرة في أورنغ زيب عالمغير، ص 4

العدد الخاص مجلة الهند

الوسطى. ومع ذلك، قدّموا صورة الملكين المغوليين العظيمين وهما الملك أكبر وأورنغ زيب بكونهما مخالفين للتعاليم الإسلامية والمسلمين ومناهضين للهند على التوالي بشدة حتى كلما نسمع أسماءهما تتجلى أمامنا الصورة المذكورة أعلاه. وكان لا يراد به إلا تصعيد الكراهية بين المسلمين والهندوس وتقسيم الهند وفق الخطوط الطائفية لكي يسهل عليهم بسط نفوذهم وحكمهم على الهند واستغلالها، يقول الدكتور أوم براكاش براساد: "إنك لا تجد شريكاً أكبر في تاريخ الهند من راون وأورنغ زيب". هذه هي الصورة التي قدّمها علماؤنا، ولم يكن أورنغ زيب بريئاً من الأخطاء، من سجن والده وقتل إخوته، فلا يمكن أنه يكون بريئاً، ولكن هل كان بمثابة شيطان في تاريخ الهند؟ قام بتوسيع رقعة الهند من منطقة كابل إلى منطقة كافييري، وربط كل أجزائها وكان يحب رومانسية الهند وثقافتها وحياتها الإنسانية، مهما يكن فلا يمكن أنه يكون شيطاناً.

إنه ساهم في توسيع الخارطة لتصبح أكبر من "أشوك والملك أكبر"، ولد في هذا البلد وقضى طفولته، وشبابه وشيخوخته فيها، وتلوّن بلون تربتها، وهذا الحاكم الهندي الخالص لم يكن سيئاً إلا إذا اضطررنا إلى أن نراه في مرآة اليوم ...

إلى متى سنظل ننظر إلى التاريخ من خلال المرآة المدنسة؟ وإلى أي وقت يتشاجر الناس فيما بينهم مثل الحيوان بواسطة تقديم القصص المصنوعة أمام الجيل القادم في شكل التاريخ؟¹ لذا يكتب العلامة شبلي: إن حل هذه المشكلة فرض تاريخي². وفي العصر الذي ترعرع فيه شبلي وترسخ شعوره، كان هو العصر بذاته الذي كان فيه الاستعمار البريطاني منهمكاً في استغلال الهند وزرع بذور الانتشار فيها بكل إمكانيتها.

كان العلامة أول مؤرخ حاول أن يطرح صورة جديدة وقدّم الملك أورنغ زيب في صورة أخرى مخالفة لصورة المسلم السني المتشدد من خلال استخدام ذات المصادر التي استخدمها المؤرخون الأوروبيون لتقديم الملك أورنغ زيب وشخصيته بكونه مسلماً سنياً متشدداً.

وفيما يتعلق بوجهات نظر شبلي التاريخية والفلسفية، يذكر العلامة شبلي في كتابه "الفاروق": "إن هدف التاريخ هو العثور على الحوادث والظروف التي تساعد في التحقق

¹ أورنغ زيب زاوية نظر جديدة للدكتور أوم براكاش براساد (بالأردوية)، مكتبة خدا بخش والمكتبة الوطنية، بتنة، 1990م

² نظرة في أورنغ زيب عالمغير، ص 6

من الأسباب التي ساهمت في ظهور العصر الجديد ومدى تأثيره بنتائج العصر الماضي¹. كان شبلي ينظر إلى المستقبل الذي يعتبر صورة مستمدة من الماضي، وعنده ينتقل التقليد والتقاليد العامة من خلال التراث وكما يرى أن تكون كل الخطوات على أساس الماضي². يقول شبلي عند كتابة التاريخ: يلزم أن يتم مراعاة أمرين هامين، الأول: العصر الذي يكتب عنه فيدرج كل نوع من الأحداث مثلاً التمدن، والثقافة، والأخلاق، والعادات، والأديان يعني التركيز الكامل على كلها. والثاني: ينبغي أن يسعى للحصول على الأسباب والمسببات³. ولأجل التحقق من صحة الأحداث هناك طريقتان وهما "الرواية والدراية". وكان علم الحديث وعلم الرجال معروفاً عند المسلمين. لذا، استخدم المؤرخون المسلمون طريقة الرواية تنقيداً بشكل وافر ولكن تجاهلوا طريقة الدراية، وهم يرون من الدراية العقل السليم وفي ضوء الأصل العقلي فحص الوقائع ودراية المصادر وكانوا يتفقدون بالقياس والاجتهاد عند تصريح الأحداث بموجب أصول الأسباب والعلل⁴.

ويذكر ضياء الحسن الفاروقي بأن العلامة شبلي لم يكتب كثيراً عن الهند، لأنه اعتبر العالم الإسلامي وطنه وتاريخه التاريخ القومي، حيث يذكر في مقدمة كتابه "المأمون": "كتب الكثير عن الهند، وألقي الضوء على أعمال المغول والتيمور كثيراً، ولكن تاريخ الهند هو جزء قليل من تاريخنا القومي"⁵. لهذا السبب فإنه كتب كثيراً عن الإسلام وأثره خارج الهند، ورسالته "نظرة على أرونغ زيب عالمغير" (بالأردوية) هو كتاب وحيد ألفه عن تاريخ الهند، وإلى جانبه هناك بعض المقالات مثلاً مقالة "همايون نامه لغلبدن بيغم" ومقالة "تذك جيهانغيري لجهان غير" ومقالة "مآثر رحيمي لعبد الباقي" ومقالة "زيب النساء" ومقالة "انطلاق المسلمين العلمي وكفر إخواننا الهندوس وأثر تمدن الحكومة الإسلامية في الهند"⁶. كلها باللغة الأردوية.

¹ الفاروق، ص 38

² مقالات يوم شبلي، ص 11-12

³ الفاروق، ص 29

⁴ المصدر نفسه، ص 40-41

⁵ المأمون، ص 2

⁶ مؤرخو العهود المتوسطة في الهند، ص 399

انظر الآن إلى كتاب شبلي "نظرة على أورنغ زيب عالمغير"، حاول فيه الرد على التهم التي تم توجيهها إلى أورنغ زيب بناءً على المصادر المعاصرة التي استخدمها المؤرخون الأوروبيون لتوجيه التهم إلى أورنغ زيب، وفي المقدمة أوضح شبلي "يتطلب التاريخ التحقيق، وبدون الأدلة لا يليق بنا أن نثق بصداقة الأحداث¹. ومع أنه لا يوجد أي قصة إيفاء للعهد في هذه قضية أورنغ زيب وشيفاجي فإنه لو كان عامله معاملة حسنة لأصبح مطيعاً؟ وفي هذه التهمة يقدم شبلي دراسة مدللة وتحليلية، وأثبت في ضوء الحقيقة بأن هذا كان مستحيلاً، لأن حياة شيفاجي كانت مليئة بالمكر والخداع، ويذكر بأنه لا توجد أية قصة إيفاء للعهد في حياة شيفاجي. فقد قتل أفضل خان بالخدعة، واضطلع في المؤامرة السيئة مع منطقتي بيجابور وغولكندا، فمن هذه الحوادث لا يمكن أن نتوقع النتائج الجيدة هكذا³.

استسلام شيفاجي نتيجة محاولة مرزا الملك جي سينغ وتقديمه في البلاط ثم منحه منصب خمسة آلاف الذي اعتبره الكاتب "الفنستن" في كتابه الدرجة الثالثة، يكتب شبلي أن المؤرخ الشهير لا يعلم أنه في ذلك الوقت لم يكن منصب الملك جي سينغ أكثر من منصب خمسة آلاف، ثم نتيجة للفوز العظيم تم زيادة ألفين في منصبه فأصبح هو سبعة آلاف⁴. ومع أنه أوضح شبلي بعد أنه قدّم الأمثلة أن في عهد الملك "جهانغير" والملك "شاهجهان" أن منصب خمسة آلاف قد منح للملوك المشهورين من شعب راجبوت.

وحلّل شبلي الخلاف بين أورنغ زيب وشيفاجي بالأدلة وفي هذه المسألة تظهر بصيرة شبلي التاريخية وطريقة الاستدلال. ولا يوجد فيه الطريق الدفاعي بل يرى المؤرخون الجدد علاقة أورنغ زيب وشيفاجي هكذا. في الحقيقة، إذا كان الملك أكبر لم يصبر وسط الهند المتحدة المغولية على منطقة "تشتور" كولاية مستقلة ولم تصبر الهند الجديدة على ولاية حيدرآباد وإقليم كشمير فكيف يقبل أورنغ زيب قربة حدود الدولة المغولية قوة تشنّ على الدولة المغولية والتي تسبب انتشار الفوضى على الحدود المغولية، وجاء قتل "سانها" في سياق هذه السياسة. هل في العصر الحاضر لا يحاكم الإعدام على أعداء الدولة وعامل

¹ نظرة على أورنغ زيب عالمغير، ص 4

² المصدر نفسه، ص 31

³ المصدر نفسه، ص 34

⁴ المصدر نفسه، ص 29

سأهو ولد سانها معاملة حسنة، ويعترف شبلي بأن أورنغ زيب لم يتخذ أية سياسة قوية ضد شعب مراتا، وعندما فعل ذلك كأن الوقت قد مضى، حتى ذلك الوقت قد استطاع شعب مراتا أن يندشروا الفوضى في منطقة الدكن، فلتصفية ذلك قضى أورنغ زيب نصف فترة من حكمه في منطقة دكن. وكما أحسّ شبلي بأن شعب مراتا كانوا أصبحوا شعبًا حيًا، ويذكر "حصل شعب مراتا على القوة الكاملة في عصر شاهجهان، وانتشروا من منطقة الدكن إلى منطقة مدراس، وكان في سيطرتهم مائة من الحصون القوية وعلاوة على ذلك أصبحوا شعبًا حيًا وهذا كان لهم قمة التطور"¹. وبعد موت "شيفاجي"، و"سانها"، و"راجا رام" و"سانتا" انتشر شعب مراتا. ويكتب شبلي: لم يكونوا إلى الآن شعبًا أو حكومة بل كانوا قراصنة رحلًا ويتجولون هنا وهناك². ولأجل قمعهم قضى أورنغ زيب نصف حياته. وهناك فرق آخر بين أكبر وأورنغ زيب فإن شعب راجبوت كان شعبًا حيًا وضمّهم أكبر إلى حكومته واستخدم قوتهم لإرساء جذور الدولة المغولية، ولكن في عصر أورنغ زيب لم يتم هذا الأمر في شأن استخدام شعب مراتا.

وتحت عنوان أورنغ زيب واستياء الهندوس، كتب شبلي "ما ذكره المؤرخون الأوروبيون من أسباب استياء الهندوس اختلطت فيها الأشياء يعني اختلطت الأمور الدينية والسياسية لذا يجب التحليل والتحقيق في الأمر ويتحدث عنها منفصلاً³. ويتضح من هذا أن شبلي ما كان يرى خلط الدين بالسياسة ولكنه بنفسه حاول إثبات أورنغ زيب حاكمًا إسلاميًا كما يكتب "شارك كثير من ملوك شعب راجبوت مع أورنغ زيب عالمغير في مهمات منطقة الدكن، وبكل الخلوص والشجاعة حاربوا ضد شعب مراتا، علمًا بأنهم كانوا يعتنقون دينًا واحدًا. وإذا كانت الحكومة إسلامية اليوم فيكون ذلك صادقًا"⁴. وحيث لم يدع عالمغير الخلافة الإسلامية ولكنه كان ملكًا مسلمًا، فكان عليه أن يقوم بإبقاء القيم الإسلامية في الحكومة بقدر ما تحتاج أن توجد نظرًا لكونها

¹ المصدر نفسه، ص 46

² المصدر نفسه، ص 47

³ المصدر نفسه، ص 50

⁴ المصدر نفسه، ص 61

حكومة إسلامية¹ أو كان شديدًا ولكن هذه الصفة تليق بالخليفة عمر الفاروق رضي الله عنه، ولكن لا تستطيع أن تمكن للجلوس على ملوكية الملك شاهجهان².

وفي الحقيقة كان أورنغ زيب ملكًا، ودون أصولًا في حكومته فضلًا عن قوانين الشريعة. ونظرًا للحفاظ على العدل والقانون من ناحية أصدر حكمًا بتدوين "فتاوى عالمغرية" ومن ناحية أخرى تم تدوين القوانين الهندوسية تحت عنوان "مت اجهرا" في عصره لكي يمكن إقامة العدل وانحرف عن السلوك الدكتاتوري وحاول إبقاء تفوق القانون بطريق غير مباشر. ويمكن أن يحصى كثير من أفعال أورنغ زيب إسلامية كانت أو شرعية وهي من الممكن أنها كانت جزءًا من فطرته، ولكن في الواقع كان ملك الهند التي تعيش فيها أغلبية السكان غير المسلمين ومنذ اليوم الأول كان الهندوس جزءًا للحكومة لذا لم يكن من الممكن تأسيس الحكومة على الأساس الديني فقط، وفي الحقيقة إن الإسلام هو الدين الوحيد الذي قدم الضوابط والأصول الدنيوية والسياسية إلى جانب الدين ذلك نموذج بنفسه. بل العالم الحديث رجع إلى القوانين الإسلامية في العديد من المعاملات، وفي العهد الوسطى رأى الملوك المسلمون إلى القوانين الإسلامية بسبب عدم وجود هذه القوانين في عهدهم ولكن في الأماكن التي كانت فيها الأقوام الأخرى في الأقلية مع الشعب المسلم فانحصروا على القوانين الإسلامية إلى الحد الأقصى وجعلوا الضوابط وخاصة عند جمع الضرائب، وكانت هذه القوانين في الممارسة بعد الخلافة الراشدة. عندما جاء المسلمون إلى الهند فجلبوا الضرائب التي كانت مصطلحاته إسلامية ولكن لم يتم الحصول عليها من الناحية الإسلامية بل كان المراد منها الإضافة في أموال الحكومة، لذا نرى في كل العصر الضرائب التي لا تنحدر من أصول إسلامية. ولم يتم تشكيل الحكومة الإسلامية بعد الخلافة الراشدة أساسًا بل جاءت الملوكية وفيها يعتبر رضا الملك درجة القانون، وكان ضروريًا استخدام المصطلحات الإسلامية لكسب الشعبية، لكي يكون من الممكن استغلال العواطف عند الحاجة على أساس الدين.

¹ المصدر نفسه، ص 125

² المصدر نفسه، ص 135

وبالرغم من أنه أغلق أورنغ زيب بعض الأبواب غير الإسلامية، استمرّ في الحصول على الضرائب مثل ما كانت تحصل في الحكومة المغولية يعني نصف كل المنتوجات وهو يختلف من العشر والخمس الإسلاميين.

وكانت انتفاضة شعب راجبوت في الحقيقة انتفاضة شعب مراتا، وعلاوة على شعب راثور كانت قبائل شعب راجبوت الأخرى مع أورنغ زيب، حلّ العلامة شبلي انتفاضة راجبوت بالطريقة التفصيلية ويكتب: "يقول المؤرخون الأوروبيون: لم يقدّم أحد من شعب راجبوت بحماية أورنغ زيب، ولكن في الواقع شارك ملوك شعب راجبوت الكبار فضلاً عن جيش راجبوت مع أورنغ زيب في المهمات العسكرية حتى النهاية وكانوا اليد اليمنى للمسلمين في هزيمة شعب مراتا"¹. يكتب المؤرخ المعاصر "ايشور داس ناغر" حول انتفاضة شعب مراتا بالتفصيل في الفتوحات العالمية ولا يصرح بعمليات أورنغ زيب من الناحية الدينية، اعتبر المؤرخون الجدد "ايشور داس" أهم المصادر عن انتفاضة شعب مراتا. وقدّم العلامة شبلي قائمة الأمراء ردّاً على تهمة إخراج الهندوس عن الوظيفة بالطريقة المدلّلة ويبيّن أن عدد الأمراء الهندوس ازداد في عهد أورنغ زيب وكانوا من أصحاب المناصب الهامة². وهكذا كانت الحقيقة، وأعد السيد أطهر علي قائمة كاملة للأمراء الهندوس في عصر أورنغ زيب وأثبت فيها أنه في عصر حكومته الأول والذي يمتد من 1658م إلى 1678م، كان عدد الذين يحملون المناصب براتب خمسة آلاف أو أكثر منها، 51 إجمالاً وبمن فيهم كان عدد الهندوس عشرة، وفي عصر حكومته الثاني والذي يمتد من 1679م إلى 1707م، كان عدد الذين يحملون المناصب براتب خمسة آلاف أو أكثر منها 79 إجمالاً وبمن فيهم كان عدد الهندوس 26³. وفي هذا الموضوع لا يتحدث العلامة شبلي عن جزية أورنغ زيب ويذهب قائلاً "لم تكن الجزية أمراً سيئاً بل كانت سبب الرحمة لصالح الأمم الأخرى وكما لا شك في أن الهندوس لا يرضون بها"⁴.

يكتب "ايشور داس ناغر" في الفتوحات العالمية حول الجزية: أنه عيّن "عنايت الله خان" على مراقبة عملية جمع الجزية ومع ذلك أمره أن لا يأخذها من الموظفين الحكوميين، وكما

¹ المصدر نفسه، ص 60

² المصدر نفسه، ص 68

³ الأمراء المغول في عهد أورنغ زيب، ص 292، 261، 61

⁴ نظرة على أورنغ زيب عالمغير، ص 70

شدّد على أخذ الجزية حسب الشريعة، ووفقًا للشريعة فإن الغني الذي يمتلك ممتلكات ألفين وخمسة مائة روبية فعليه أن يدفع 48 درهمًا أي 13 روبية، والأشخاص من الطبقة الوسطى الذين تصل ممتلكاتهم إلى 250 روبية إجمالًا فعليهم دفع 24 درهمًا أي ست روبيات ونصف والفقراء الذين كانت ممتلكاتهم لا تتعدى 52 روبية ويقدرّون على تحمل نفقات عائلاتهم فعليهم ثلاث روبيات، وكما لا يلزم على الأعمى والأعرج والمسكين دفع الجزية، وحسب المرسوم الملكي، عين السيد عنايت الله خان العاملين لجمع الجزية في جميع أنحاء الدولة¹. ويتضح من صراحة "إيشور داس" بأن الجزية لم تكن ضرورية على غير المسلمين كلهم ولا تؤخذ الإجراءات القاسية مع جميع الناس، ويكتب "أخبر ناظم حيدرآباد بأنه بسبب الفقر لا يستطيع شعب حيدرآباد دفع الجزية، وعندما يطلب منهم الجزية فهم يفرون، فأمر جلالة الملك أن لا يؤخذ جميع أنواع الجزية لعام واحد وطالهم بالعيش في قريتهم والزراعة في أراضيهم والاهتمام في مهنتهم"². وكما يتضح من بيان "إيشور داس" كانت الحكومة تتعامل معاملة لينة عند جمع الجزية، ويتضح أيضًا أن الزراعة كانت أكثر أهمية عند أورنغ زيب من الجزية، لأن دخل الحكومة عن طريق الزراعة كان الدخل الأساسي للحكومة المغولية، فإعفاء الجزية لا يزعجه للحفاظ على الزراعة. فمن جهة أخذ أورنغ زيب الجزية ولكنه عفا عن العديد من الضرائب التي لم يتطرق إليها المؤرخون عامة من جهة أخرى، يكتب العلامة شبلي "في عصر جميع الملوك كانت هناك عشرات من الضرائب فضلًا عن الجزية فقيمتها جيمعًا تتساوى قيمة الجزية، على سبيل المثال ضريبة المسكن وغيرها كان عددها حوالي 80 كان دخل هذه كما كتب "السيد قاضي خان"، أكثر من عشرة ملايين، وأوقف الملك أورنغ زيب عالمغير جميع هذه الضرائب"³.

وكان العلامة شبلي النعماني لا يعتبر انهدام المعابد الهندوسية من قبل أورنغ زيب شيئًا جيدًا، ويكتب "تتجلى هذه التهمة في قائمة التهم الموجهة إلى أورنغ زيب، وبدون شك فإنه إذا دمر معابد شعبه في حالة الأمن والسلام، فإن هذا يعني أنه لم يكن يفهم حقيقة الإسلام، فمن يحب الإسلام أكثر من الخلفاء الراشدين فهم فتحوا الآلاف من المدن،

¹ فتوحات عالمغيري، ايشور داس ناغر، روتوغراف رقم 42- آر، جامعة عليكره الإسلامية، ص 74 ب، 75 الف

² المصدر نفسه، ص 112 الف

³ نظرة على أورنغ زيب عالمغير، ص 113

وحاربوا في معظم أجزاء العالم ولكن لم يرتكبوا جريمة هدم المعابد، وخلافًا لذلك فإن عمل أورنغ زيب عالمغير لا شك في أنه لم يتبع الطريقة الإسلامية في هذا الصدد¹.

يذكر العلامة شبلي تدمير المعابد الهندوسية في هذا الموضوع من الناحية السياسية ويفصل الدين عن السياسة، ويرى أن هدم معبدي بنارس وماثورا مرتبط بارتباط الهندوس بالاضطرابات في تلك المنطقة، وتم هدم المعبد الذي بناه "ترسينغه ديوبنديله" بعد نهب أبو الفضل، وحسب العلامة شبلي تم بناؤه بأموال المسلمين². وفي هذا يقدم شبلي كأدلة اضطرابات الناس من مجموعة "جات" في تلك المنطقة، والتي اعترف بها المؤرخون الجدد فيما بعد، ولكن يضيف شبلي كلمة، ذلك المعبد تم بناؤه بأموال المسلمين، وفي الحقيقية يبدو هذا متناقضًا فإن حكومة أورنغ زيب كانت حكومة إسلامية عند العلامة شبلي بلا شعور وهذا يتجلى في كتابه بعض الأحيان، وحيث أنه يعترف أن الحكومة المغولية كانت غير إسلامية وكما كانت في الحقيقة، ومع ذلك يذكر أن أورنغ زيب قد عاش 25 سنة في منطقة الدكن حيث كانت آلاف من المعابد الهندوسية فيها ولا توجد كلمة واحدة في أي تاريخ يدل على أنه هدم أي معبد هندوسي³. ولا يذكر شبلي المعونات التي قدمها أورنغ زيب للمعابد الهندوسية المختلفة.

ويكتب العلامة عن معاملة أورنغ زيب مع والده وإخوته: "وهذه نقطة سوداء في أوصافه". وهو متهم بارتكاب جريمة قتل إخوته وكما كان والده الشهير وراء القضبان تحت ظلمه، وبدون شك يلزم علينا أن نحقق هذه الجريمة بدون تعصب وبكل هدوء وينبغي لنا أن نقوم بالعدالة بدون الظلم والتعيز⁴. ثم قدم قائمة الكتب التي اعتمد عليها عند وصف هذه الحوادث، وهي "عالمغير نامه"، و"مآثر عالمغيري"، و"منتخب اللباب"، و"واقعات عالمغيري"، و"سفر نامه برنير" و"فياض القوانين"، وكما يكتب: "وفي الكتاب الأول والثاني جاء الذكر بالتفصيل وهما مفيدان للغاية للدفاع عن أورنغ زيب عالمغير، ولكن لا نستثني كتاب "عالمغيرنامه" لأنه يبدو أن عالمغير كتبه بنفسه وأن جزء المآثر الذي اختلف فيه

¹ المصدر نفسه، ص 73

² المصدر نفسه، ص 78

³ المصدر نفسه، ص 76

⁴ المصدر نفسه، ص 79-80

الوقائع، تم أخذه من كتاب "عالمغير نامه"، فنحن نقتبس من تلك الكتب في الأمور التي يتماشى فيها المؤرخون الآخرون، فيصعب علينا التفريق السني والشيعي وكما نحسب هؤلاء أعداء الأمة من المذمومين الذين يخلقون التفرقة بين الفرق الإسلامية، حتى جعله بعض الناس وسائل لاكتساب الرزق. ولكنه نظرًا لمبادئ كتابة الوقائع يجب أن أقول إن أورنغ زيب كان من أهل السنة وجميع مؤرخيه مثلًا "نعمت خان عالي"، و"كاظم شيرازي"، و"عاقل خان" و"خافي خان" كانوا من أهل الشيعة، فلا يقصد هذا أن لا يقبل بيان هؤلاء المؤرخين بسبب اختلاف مسالكهم أو أفكارهم بل يقصد به أن اختلاف المسلك يؤثر بدون سبب على المؤرخين الآسيويين، وفي الحقيقة لم ينجح المؤرخون الأوروبيون من ذلك التأثير، ويوجد الفرق بينهم من حيث الأسلوب فالمؤرخون الأوروبيون يستخدمون التعبير بجمال يخلو منه أسلوب المؤرخ الآسيوي¹.

وإذا كان اختلاف المذاهب أساسًا لعدم قبول قول "نعمت خان"، و"كاظم شيرازي"، و"عاقل خان" و"خافي خان" وغيرهم، فإن شبلي أيضًا لا ينجو من هذه التهمة بأنه كان مسلمًا من أهل السنة، وأورنغ زيب كان من أهل السنة المتشددين، ولكن شبلي في الأمور الأخرى يرد على تهم المعارضين المطروحة على أورنغ زيب من خلال تقديم أقوال المؤرخين أنفسهم كدليل.

ويكتب العلامة شبلي في 17 من شهر رمضان 1658م/ 1068هـ، بعث أورنغ زيب عالمغير الأمير "محمد سلطان" إلى القلعة الملكية للسيطرة عليها ويذكر أمام "الملك شاهجهان": يا أيها المحترم، لا تخرج من القلعة وهذه الحادثة الأخيرة التي تعتبر نقطة سوداء في أخلاق أورنغ زيب عالمغير النيرة.² واعترف بهذا العلامة شبلي بكل أمانة، ويكتب: حينما أعلن "مراد" و"شجاع" عن ملوكيتهما في ولايتهما فلم يتخذ أي إجراء بل كتب إلى "مراد" وهو جلاله الملك حي الآن³. ولكن أعلن أورنغ زيب عن ملوكيته في حياة الملك شاهجهان، وكانت هذه الانتفاضة المفتوحة لأن الملك الحالي حي وتجري الحرب مع واليه أو أميره.

¹ المصدر نفسه، ص 81

² المصدر نفسه، ص 84

³ المصدر نفسه، ص 85-86، 103

ويكتب العلامة شبلي "أن المؤرخين الأوروبيين يكتبون عامةً أن أورنغ زيب قام بإبرام عهد مع "مراد" بأنه سيترك السلطنة له وسيذهب لأداء مناسك الحج بعد استئصال جذور "دارا شكوه"، ويكتب السيد "برنير" لذلك كان يخاطبه عالمغير بلفظ "حضرت"، ويبدو مما كتب السيد "خافي خان" بأن "مراد" كان يأمل الحصول على السلطنة ولكن ذلك خطأ تاريخي عظيم، ولا شك في أنه تم إبرام اتفاقية بين الأشقاء الثلاثة، في الرسائل التي كتب "مرزا مراد" إلى "عالمغير وشجاع" أشار إليه حيناً لآخر وحصيلة ذلك عندما يشن "دارا شكوه" حرباً على أحد منا علينا أن نتعاون مع بعضنا البعض¹. ووفقاً لـ"عاقل خان" يتحدث عن تقسيم السلطنة ويعتبر اتفاقية ملوكية مراد للأوروبيين بهتاناً، ولعله لم تمر على شبلي صفحة 17 الف، وب 18 الف، و31 الف من كتاب "فتوحات عالمغيري"، وصفحة 12 ب، 374 نسخة دلوكشاوور من المجلد الأول لكتاب "آداب عالمغيري" وصفحة 35، 14 و15 من كتاب "واقعات عالمغيري" والتي كتب فيها عن تلك الاتفاقية وتفصيل الرسائل والشرائط التي جرت بين عالمغير والأمراء، وجميع المؤرخين يكتبون "أورنغ زيب قد أثار في "محمد مراد بخش" الحرص على السلطة وكتب أني أعبد الله في ركن صامتاً، وسيكون هذا سعادة لي، وبعدما تم اللقاء بين أورنغ زيب ومراد في منطقة "أجين" أقسم حلف الأخوان على القرآن وقزراً أن يجلس على السلطة "مراد" ويحمل أورنغ زيب مسؤولية أمور الوزارة والإدارة، في كتاب "آداب عالمغيري" توجد الاتفاقية التي ذكر فيها عن تقسيم السلطنة بين الأخوين، في هذا المكان لا يحلّل العلامة شبلي ذلك الحدث بكل نزاهة.

وتوجد تناقضات في آراء شبلي. على سبيل المثال أنه يكتب "من المستحيل أن ينكر أن أورنغ زيب كان رجلاً عادياً، وكان يتنفر من الحفلات الاجتماعية والرقص والموسيقى والخمر ويظن أن هذه الأشياء تنعكس سلبيًا على الأخلاق"². ولكنه كان ماهراً في استخدام آلة فيينا³. وفي الشباب سقط أورنغ زيب في حب "زين آبادي" ووفق قول "حميد الدين خان" صاحب كتاب "أحكام عالمغيري" بأنه رضي بشرب الخمر على

¹ المصدر نفسه، ص 106

² المصدر نفسه، ص 76

³ مآثر عالمغيري، ص 470 ونظرة على أورنغ زيب عالمغير، ص 127

إرضاء زين أبادي، واستبدل أورنغ ويب "هيراياي" بـ"زين أبادي" من خاله "يوسف خان"¹. وفي منطقة "ديبال بور" بعد هزيمة "جسونت سينغ" على أيدي أورنغ زيب عندما وصل "جسونت سينغ" إلى وطنه فيكتب العلامة شبلي "أن هذا الحدث يليق أن يكتب في التاريخ بحروف من الذهب حينما هرب الملك ووصل إلى وطنه فمنعته زوجته من أن يقترب منها واعتبرت بأن الهارب من الحرب لا يليق بأن يجامعها". ونقل العلامة شبلي هذا النص من كتاب "منتخب اللباب" لخافي خان (المجلد الثاني صفحة 43) والذي يبدو خبرًا سوقيًا لأنه وقع في عام 1658م/1068هـ وتوفي الملك "جسونت سينغ" عام 1679م/1089هـ، وكما قام شعب راثورا بالانتفاضة نتيجة عدم الحصول على المنصب لولد الملك "جسونت سينغ" الذي كان عمره سنة واحدة². وإذا كانت هذه هي الحقيقة فمن أين جاء الولد، وهذا تناقض كبير.

قدّم العلامة شبلي تحليلًا أنيقًا عن معاملات "أورنغ زيب" و"دارا شكوه" بعد مقتل دارا شكوه، ويكتب "يقبل المؤيدون والمعارضون أن دارا شكوه لم يكن يستحق أن يتقلد زمام الحكم للدولة التيمورية بسبب تكبره وسوء تديبه، ولا ينكر أحدًا أنه هو الذي بدأ الحرب مع الإخوان، فأجبر عالمغير ومراد وشجاع على صد هجماته، والتهمة ليست بأنه تم تقديم دارا شكوه في الديوان بعد اعتقاله ولكن الاعتراض هو أنه كان من الممكن أن يتم وضعه في مكان منفرد في الإقامة الجبرية، ولو أنه كان رجلًا سيئًا إلا أنه كان أخاه بل أخاه الأكبر، وكان من الممكن أن لا تكون صورة أورنغ زيب سيئة لهذه الدرجة إذا لم يلطخ أورنغ زيب يده بدمه.

ولا شك أن هذا الاعتراض يبدو في الظاهر قويًا ولكن في الأسرة التيمورية بل في جميع الملوكية الآسيوية لم يتم إخلاء السبيل عن كل شخص يتطلع إلى الحكم حتى في حالة السجن والإقامة الجبرية ومع أنه توجد منهم مجموعة من مؤيديهم دائمًا، وهم لا يجلسون صامتين حتى انتهاء جميع الإمكانيات³. وأضاف كاتبًا "طالما يبقى دارا شكوه حيًا فتبقى الثورات والاضطرابات فتحرم البلد من الأمن والسلام، لذا فعل أورنغ

¹ أحكام عالمغيري، ص 33

² نظرة على أورنغ زيب عالمغير، ص 56

³ المصدر نفسه، ص 98-99

زيب مثلما ورث عن والده الملك شاهجهان، علمًا بأن الملك شاهجهان قتل أخويه (داوربخش وشهريار) وأولادهما (هونشغ وغيره)، فكان عالمغير أولى بفعل ذلك¹.

وكما كان العلامة شبلي يشعر بقوة بأن الحروب التي جرت بين دارا شكوه وأورنغ زيب كانت للحصول على الحكم وأن الأمور تتعلق كليًا بالسياسة، لذا لا يذكر الفتوى التي أصدرها أورنغ زيب عن ردة دارا شكوه، بل يقدمه كمتطلع إلى السلطة والملوكية.

وأما عن "مراد" فيكتب العلامة شبلي: "كان مراد اليد اليمنى لعالمغير، وفي حرب جسونت سينغ قلبت شجاعته وقوته الأمر ضد نصر دارا شكوه، وإنه منذ البداية كان مطيعًا لعالمغير وهو ينفذ جميع الأمور وفق رضى عالمغير، وبالمقابل سجنه عالمغير هذا الشجاع والمطيع حتى توفي"². وخافي خان لا يقدم التفصيل المطلوب عن هذه الحادثة، كما كتب شبلي نقلًا عن عاقل خان، وحيث ايشور داس ناغر يكتب هذه الواقعة بالتفصيل في كتاب "فتوحات عالمغيري"، وكما يعترف وينتقد شبلي هذه الحقيقة قائلاً ومن الحقيقة أن مراد قد سجن وفق كتابة عاقل خان، أي دعاه أورنغ زيب بحجة الألم في بطنه ثم عندما ذهب للاستراحة أخذ سلاحه عن طريق إحدى الجاربات ثم أرسل الشيخ مير وغيره إليه وسجنه وهذا العمل يجوز في القانون السياسي، لأن الحرب مع مراد كان من نتائجها سفك دماء الآلاف، وإذا فعل عالمغير ذلك وحاربه بالسيف مثل الذين سفكوا الدماء ولا يدبر التدبير على مراد ويستخدم السيف عليه كنا سنقدر طريقة رجولته ولكن في الحقيقة لم يدع عالمغير أنه يستحق المدح أكثر من الخليفة المنصور العباسي الذي قتل أبو مسلم الإصفهاني مؤسس الخلافة العباسية بالحيلة"³.

وفي الأخير ألقى شبلي الضوء على شخصية عالمغير، ويكتب "رغم جميع الميزات هذه كان هناك عيب في شخصية عالمغير أنه لم يكن يبالي بأحد أمام شجاعته واستقلاله ولهذا السبب لم يكن له صديق"⁴. وبذل جهوده في مطاردة شعب مرهتا أكثر مما

¹ المصدر نفسه، ص 99

² المصدر نفسه، ص 100

³ المصدر نفسه، ص 102

⁴ المصدر نفسه، ص 134

يحتاج، وكانت طبيعته بسيطة جداً، وإن الصورة التي قدّمها معارضوه تعكس العداوة والتمييز. ويكون من المبالغة أنه كان خاليًا من الضعف الإنساني، ورغم جميع هذه الميزات التي كانت فيه نعطيه الدرجة في قائمة السلاطين التيموريين التي كانت له. ولم يولد أحدٌ بعده في العالم الإسلامي مثله¹. وكان من ضروريات البصيرة التاريخية للعلامة شبلي أن يظهر الأفكار المذكورة أعلاه بالوضوح، ينظر "جادونات سركار" إلى أي نقص أخلاقي في شخصية عالمغير بحسن النظر ويعترف ببساطته وقدرته من حيث الإنسان والحاكم ويشير إلى ضعف غير ديني يوجد في إدارة حكومته وهو المركزية المتجاوزة عن اللازم².

وعند الكتابة عن أورنغ زيب وضع كل شخص أمامه المنظور الديني قصداً أو بدون قصد إما انتقده أو دافع عنه، وكان الحكام المسلمون قبل أورنغ زيب "المسلمين من أهل السنة المتشددين" ولكن المؤرخين لم يتعاملوا معهم مثل ما تعاملوا مع أورنغ زيب. في الحقيقة كان يعمل الاستعمار الغربي وراء كل هذا الذي كان يقصد تقسيم الهند على الخطوط الطائفية المختلفة وكذلك أراد أن يثبت عهده أفضل من العهود الماضية لكي لا تتحد الأصوات التي ترفع ضدهم. في الحقيقة بعد حرب الاستقلال الأولى عام 1857م ضد الاستعمار حيث ولد احساس اليأس الشديد في المسلمين من القارة، ومن ناحية كان ماضهم المنور وعلامات السلطنة المغولية ذي العظمة المنتشرة في جميع القارة. ومن ناحية أخرى كان المسلمون متخلفين على المستوى الاقتصادي وعلى المستوى النفسي كانوا يشعرون محرومين. علماً أنه في عام 1857م كان عمر السير سيد أحمد خان 40 عامًا وهي السنة التي ولد فيها العلامة شبلي النعماني. وأن عصر شبلي وعلاقته بالتاريخ كان عصر فشل المسلمين في حرب الاستقلال عام 1857م وفي الحرب العالمية عام 1914م، في هذا العصر كانت مقتضيات الحال شديدة ومقتضيات المستقبل معقدة لذا كان الرجوع إلى الوراء والاشتياق إلى الماضي والترشد من دروس الماضي كان أمرًا صعبًا، ولكن العلامة شبلي قد نجح في هذا الامتحان³.

¹ المصدر نفسه، ص 135

² تاريخ أورنغ زيب، 479-475/5

³ مقالات يوم شبلي، ص 13

ولغرض تربية الجيل الجديد الفكرية والتعارف على العظمة كرز شبلي كتابة تاريخ المسلمين حسب مقتضيات العصر الراهن لكي يتمكن المسلمون من قراءة هذا التاريخ في الحالات المتغيرة برغبة ونشاط، كما قال الشيخ محمد إكرام: "إن شبلي عرف المسلمين الهنود بالتاريخ الإسلامي الصحيح وبسبب كتبه (الفاروق، والمأمون، والغزالي وسيرة النعمان) قد حصل المسلمون المثقفون الهنود على معلومات كثيرة عن هذه الشخصيات"¹. وكما قال الدكتور السيد محمد عبد الله: "إنه دون تاريخ الأشخاص الذين كانوا نصيب العصر، وأنه قدم النتائج التي ظهرت من الأعمال الشخصية بدلاً عن إبراز الجوانب الشخصية، وما كان شبلي كاتباً مؤرخاً دائماً، نظر إلى بعض الأجزاء الهامة من التاريخ. وإبراز تلك الأجزاء من التاريخ كان هدفه الوحيد. واستفاد العلامة من فلسفة "السيد كار لائل"، وعند كار لائل كان محور التاريخ الشخصيات الهامة والمعروفة وأفكارهم وأعمالهم الإنسانية تخلق التغيير والنهضة في التمدن وتسبب التغيرات المتنوعة"².

وإزدادت أهمية شبلي بصفته مؤرخاً في هذا العصر لأنه أول مؤرخ هندي قدّم أورنغ زيب في الصورة الجديدة وعن طريق المقارنة والتحليل قدّم صورته الجديدة، وعلى طريقة شبلي عمل المؤرخون الماركسيون والجدد مثل "أطهر علي" قدّم أحوال الأمراء الهنود الكاملة عند تقديم القائمة الكاملة للأمراء من عصر عالمغير وكتب "السيد ستيش تشاندرا" مقالة حول تنفيذ الجزية، حيث لا يعتبر شبلي في كتابه "نظرة على أورنغ زيب عالمغير" عن الترتيب الزمني والتاريخي للحوادث بل يدافع بطله الملك أورنغ زيب عن التهم الموجهة إليه مع بصيرته التاريخية في المنظور التاريخي، وتختلف عنده جدية التهم، ويرد ويقدم الجواز وفق ترتيبه، وفي الحقيقة أزال العلامة شبلي الأوهام التي خلق الإنجليز عن أورنغ زيب في ضوء الحقائق، ومع ذلك يمكن لنا أن نختلف عن الشرح والتوضيح الذي قدّم العلامة شبلي ولكن من الصعب أن نستبعد أن شبلي قد أعطى لمطالعة الملك أورنغ زيب جهة جديدة.

¹ موج كوثر، ص 226

² دراسة فكرية وفنية لنثر السير سيد أحمد خان ورفقائه المعروفين، ص 161-165

الأفكار التعليمية للعلامة شبلي النعماني وأهميتها في العصر الحاضر

- أ. د. ظفر الإسلام الإصلاحي¹

ترجمة من الأردوية: د. هيفاء شاكري²

يعتبر العلامة شبلي النعماني من الشخصيات المشهورة والمفكرين البارزين من شبه القارة الهندية الذين صرفوا أغلب مراحل حياتهم في رفاهية الأمة والشعب واعتبروا هذا المجال أفضل مجال لاستغلال قدراتهم. أولى العلامة شبلي اهتمامًا خاصًا لمشكلة التعليم من بين مشاكل المسلمين الفردية والاجتماعية وقد كان اهتمامه بالتعليم لسبب بينه شيخي وأستاذه السيد ضياء الدين الإصلاحي رحمه الله والذي خدم دار المصنفين حيث يقول: "يعتبر التعليم اللبنة الأولى لعلو وعظمة الشعب وبه يرتقي الشعب ذهنيًا وعقليًا وخلقياً وبه يحصل على أشخاص مؤهلين يخرجونه من قاع المذلة ويصلون به إلى أعالي القمم"³.

كان العلامة قد تشرب العلوم الشرقية، وكانت له نظرة جيدة على العلوم العصرية، وقد وجد الفرصة لمراقبة المدارس ومراكز التعليم العصري وفهم نظامها بشكل دقيق والنظر إلى مناهجها وطرق تدريسها عن كثب. كان يفكر باستمرار في مشاكل المسلمين التعليمية وحيث ما كان يذهب العلامة كان يحب أن يطلع على نظام التربية والتعليم للمدارس القديمة والجديدة يتعرف على إيجابياتها وسلبياتها ويشير إلى مواضع

¹ أستاذ، قسم الدراسات الإسلامية، جامعة علي كره الإسلامية، علي كره

² أستاذة مساعدة، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة المليية الإسلامية، نيو دلهي

³ مسلمانون كي تعليم لضياء الدين الإصلاحي، دار المصنفين، أعظم كره، 2007م، ص 130

الإصلاح فيها، وهكذا كانت له نظرة ثاقبة وعميقة على مشكلات التعليم، وما قدّمه من أفكار في هذا الشأن كانت نتيجة اطلاعه الواسع، وطول الباع، والمشاهدة العميقة للجو التعليمي. لم تكن أفكاره التعليمية مفيدة ومهمّة ومضبوطة في زمانه فقط إنما تحتفظ بمعنوياتها إلى الآن ونقدّم هنا دراسة موجزة على أفكارها من هذه الناحية. ونركّز على جانب معيّن وهو بيان وجهة نظره في أهداف المسلمين التعليمية وما قدّمه من برنامج عملي للوصول إلى هذه الأهداف. وقبل أن نخوض في دراسة أفكار العلامة شبلي التعليمية هناك نقاط مهمة من المناسب أن نشير إليها والتي تعتبر مفيدة ومهمّة في عصرنا أيضًا:

- إن مشكلة المسلمين التعليمية ليست مشكلة فردية ولكنها ترتبط بحياة الأمة ومشكلاتها الاجتماعية لذلك علينا أن لا نغفل عن هذا الجانب في مجال تربية وتعليم المسلمين.
- إن ضرورة وفائدة نوعي التعليم القديم والجديد معترف بهما لكنهما يحتاجان إلى التطوير في الوقت الحالي.
- في الزمن الذي ينتشر فيه التعليم الحديث بعلومه وفنونه، نحن أحوج إلى نشر التعليم الديني وتوسيعه والعمل على تقويته. حتى يكون هناك العدد الكافي من مهرة التعليم الديني، وبالتالي يشاركون أكثر وأكثر في حل مشاكل الأمة الاجتماعية.
- إن عملية إصلاح التعليم القديم والجديد تحتاج إلى إدخال العلوم العصرية في مناهج المدارس الدينية، وتدرّس العلوم الإسلامية في مدارس المسلمين الحديثة.
- بجانب التعليم الديني ما هو ضروري جدا هو تدريس اللغة الإنجليزية، لأن بدون ذلك لا نستطيع أن نتعرف على الاعتراضات التي وجهها علماء الغرب والمفكرون الجدد، وكذلك لا نملك بدون القدرة على الرد عليهم. بجانب ذلك نحتاج إلى المهارة في اللغة حتى نجهز موادا صحيحة ومستندة عن الإسلام في اللغة الإنجليزية، لأننا إن لم نفعل ذلك إتجه المتعلمون للتعليم العصري إلى المواد التي

أعدّها الآخرون للحصول على المعلومات عن الإسلام وتعاليمه. وبالتالي لن يمكنهم الحصول على المعلومات الصحيحة عن الإسلام وشريعته.

- يجب وضع نظام تعليمي بحيث يكون التدريس لكل اختصاص على حدة، ويختار الطلاب ما يميلون إليه من المواد لأن الحاجة إلى الاختصاص تزداد يوماً بعد يوم.
- لإبراز القدرات الذهنية للطلاب وصقل مهارات الاستدلال علينا أن ندرّجهم على المناقشة مثل ما كان رائجاً في طريقة التعليم القديمة.
- لا ننكر عن حاجة الإصلاح في التعليم القديم، لكنه لا يخلو من الفائدة، لأن المستفيدين به يرتبطون به في قضايا الأمة الاجتماعية.
- بالرغم من الضرورة الكبيرة إلى التعليم الجديد فإن المسلمين بحاجة إلى نظام تعليمي يغلب عليه الفكر الإسلامي وبجانب ذلك تكون هناك مواد تتعلق بالعلوم العصرية حسب الضرورة. إن الإطار الذي يعمل فيه التعليم القديم والتعليم العصري مختلفان ونحتاج إلى أن نخفف من البعد بين المستفيدين من طريقتي التعليم ونخلق بينهما انسجاماً حتى يقوم الفريقان بالعمل مع بعضهما لرفاهية المجتمع ويتعاونان فيما بينهما.

إن الأفكار التعليمية للعلامة شبلي تعتبر مرآة لمقتضيات العصر ونستطيع أن نلاحظ ذلك من الواقع الذي لا يختلف فيه أحد الآن، وهو هل التعليم العصري ضروري أم لا. ومن ينكر ذلك لا يلقى إليه بال لأن التطور الحالي وقضايا العصر الجديد جعلت التعليم العصري أمراً ضرورياً لا بد منه وإنكار ذلك يعتبر إنكاراً للواقع البديهي¹.

ويبقى السؤال: هل التعليم القديم ضروري للمسلمين أم لا؟ وقد ردّ على هذا السؤال بثلاث إجابات وهي مهمة جداً ويختفي الجواب على السؤال الأساسي في الإجابة على هذه الأسئلة، بمعنى أن التعليم القديم ضروري لأنه يحتوي على التعليم الديني كجزء

¹ مقالات شبلي، مطبعة معارف، أعظم كره، 1955م، 3/139-140

أساسي ولا يكتمل تعليم المسلمين بدون ذلك. وكانت هذه الأسئلة الثلاثة هي (1) هل قومية المسلمين تعتبر شيئاً آخر غير الدين؟ (2) إذا كان الرد: لا، فكيف تكون قوميتهم ثابتة بدون الدين؟ (3) إذا كانت هناك حاجة للدين فكيف ينكر التعليم الديني بدون التعليم القديم؟¹ ومن الممكن أن يبرز هنا سؤال وهو أنه إذا أدخلنا بعضاً من التعليم الديني مع التعليم الإنكليزي أو الحديث فهل يؤدي ذلك إلى حل قضية تعليم المسلم؟ وقد ردّ على ذلك بأن الهدف من التلعيم لدى المسلمين هو الحفاظ على العلوم الإسلامية وشرح العقائد والأحكام وبيانها وخلق القدرة على إزالة الاعتراضات التي وجّهت إليها ومن الصعب أن نخلق هذه القدرة بالتعليم الديني الجزئي. وهو يطرح السؤال مباشرة بأنه هل يمكن أن نحافظ على القرآن والسنة بهذا القدر من التعليم؟ وهل يستطيع المتعلمون بهذا القدر أن يشرحوا القضايا الصعبة، ثانياً، هل يمكن للمتعلمين إلى هذا القدر أن يكونوا أئمة وخطباء ومفتين، وهل يتأثر بهم العامة من الناس؟² وهذا يوضح أن شبلي كان يمتلك فكرةً ذا نطاق واسع بالنسبة للتعليم القديم وكان يتمنى ويجتهد من أجل نظام تعليمي للمسلمين حيث يصبح المستفيدون منه مهرة في العلوم الإسلامية والشرقية. ولا يعني ذلك أنه كان مقتنعاً بالنظام السائد والتعليم الديني والمدارس آنذاك وأنه لم يكن يشعر بالحاجة إلى الترميم والإصلاح. وكان فكره في ذلك "إن التعليم القديم يحتاج إلى إصلاح وإضافات كثيرة ولكن للأسف فإن العلماء الكبار لا يشعرون بالحاجة لذلك" ونحن نطرح عليهم الأسئلة التالية:

- ألسنا بحاجة إلى معرفة الهجمات التي يوجهها كتاب الغرب إلى الدين؟
- إذا لم يتعرف العلماء على هذه الأفكار فهل نستطيع أن نمنع انتشارها بين طبقة المسلمين الذين تعلموا بطريقة التعليم الحديث.
- إن الرد على الاعتراضات الأوروبية بشكل عام وعلى الإسلام بشكل خاص تعتبر مسؤولية من؟

¹ المصدر نفسه، 140/3

² المصدر نفسه، 140/3

- وإذا لم يتعرف العلماء على هذه الأفكار فكيف يمكنهم الرد على ذلك؟
- أ لم يتعلم العلماء السابقون الفلسفة اليونانية ثم قاموا بالرد على اعتراضاتها وإن كان ذلك يجوز في ذلك الزمن فلم لا يكون جائزاً الآن؟¹

وفي النهاية ذكر العلامة شبلي أن الرد يكمن في أن الحاجة ماسة للتعرف على الأفكار الجديدة وتعلم اللغة الإنجليزية والعلوم الإنجليزية بجانب التعليم القديم. وكان يعتبر المعرفة الكاملة باللغة الإنجليزية ضرورية للعلماء والمتخرجين من المدارس الدينية من ناحية وأن الحاجة قد ازدادت لتكون هناك مواد جيدة مدعمة بالأدلة تنطق بالعلوم الإسلامية من ناحية أخرى ولذلك لا يمكن إيقاف انتشار التعليم الجديد بين المسلمين الآن ولا يقل عدد الذين يريدون المعرفة الصحيحة بالقرآن والسنة والأحكام الإسلامية بين المتعلمين بالطريقة التعليمية الحديثة. وعندما لا يجدون كتباً من قبل المفكرين المسلمين فإنهم يتجهون إلى الآخرين لشفاء غليلهم العلمي، فعلى سبيل المثال إذا أرادوا معرفة القرآن الكريم قرأوا ترجمة سيل (Sale) وإذا أرادوا التعرف على الفقه الإسلامي استندوا إلى ترجمة هملتن (هداية). وقد انتقد العلامة هذه الظاهرة بشدة بأن المتعلمين الجدد سيعتمدون على الكتب الإنجليزية وترجمة الكتب الإسلامية لمعرفة دينهم، فماذا تكون قيمة علومنا الدينية، وطرح السؤال بأنه أليس هذا دور العلماء بأن يجهّزوا مواد إسلامية مفيدة باللغة الإنجليزية².

وهنا نعتبر من المفيد أن نذكر تساؤل السيد سليمان الندوي على إدخال اللغة الإنجليزية في منهج دار العلوم بندوة العلماء وردّ العلامة شبلي على ذلك. يذكر مؤلف حيات شبلي: "في عام 1908م على الأغلب سألت العلامة عن إجبار كل طالب للغة العربية على تعليم اللغة الإنجليزية، فمثلاً من يريد أن يكون مفتياً ماذا ستفيدة اللغة الإنجليزية، قال إنك تذكر كلاماً غريباً، إذا عرف الفقهاء في الماضي اللغة الإنجليزية

¹ المصدر نفسه، 142/3

² حيات شبلي للسيد سليمان الندوي، دار المصنفي، 2006م، ص 20-21

ونقلوا الفقه الإسلامي إليها لم تكن هناك التراجم الخاطئة مثل الهداية وغيرها من الكتب من قبل الإنجليز وغير المسلمين ما يستند إليها في المحاكم اليوم¹.

ومن المهم جدًا أنه بالرغم من شعور العلامة شبلي بالحاجة الماسة إلى الإصلاح والترميم في مناهج التعليم الديني إلا أنه كان يقول علانية بأن التعليم بشكله الحالي (يعني بدون الترميم والإصلاح) لا يقل فائدة. لأن نطاق الأعمال الدينية واسع جدًا. إن نشر الأحكام الإسلامية بين المسلمين في القرى عمل عظيم جدًا. نحتاج إلى الآلاف من العلماء والوعاظ ونحتاج إلى الأشخاص القادرين على الإمامة والخطابة وإصدار الفتاوى ولا يقوم بهذه الأعمال إلا من تعلم بالطريقة القديمة. وحسب مبادئ توزيع الأعمال يجب أن تبقى هذه الأمور في أيديهم وعلينا أن نساعدهم ونحترمهم ولا نعتبرهم أدنى درجة في أي حال من الأحوال²، وإضافة إلى إدخال تعليم اللغة الإنجليزية إلى المدارس بشكل جيد شدد شبلي على جعل تعليم هذه المدارس أكثر إفادة وعملية من خلال إدخال اللغة الهندية والسنسكريتية والفلسفة الجديدة والعلوم الطبيعية إلى مناهجها وحاول أن يقوم بتطبيق ذلك في دار العلوم بندوة العلماء. إضافة إلى ذلك كان له رأي مهم آخر وهو أنه نظرًا للظروف المعاصرة يجب تغيير طريقة التعليم والتدريس في المدارس ويجب أن يعرف الطلبة على العلوم الحديثة حسب مقتضيات العصر، وإنهاء الثنائية في النظام التعليمي والجمع بين الصالح القديم والنافع الجديد³. وقد ركز العلامة شبلي على الاختصاص في مراحل التعليم العليا فعلينا الاهتمام بالتعليم الاختصاصي لكل فن على حدة حتى ننتج مهرة في الفنون المختلفة، إضافة إلى تقديم الخدمات الجليلة في مجالهم، يمكن أن يخدموا الأمة كذلك. وكانت نظريته واضحة جدًا حيث يحصل الطالب على الفن بعينه ويختص فيه مرتفعًا عن السطح العام وهذا لا يمكن إلا بالحصول على كل علم مستقلًا والتركيز عليه⁴. وفي الحقيقة كانت هذه هي الطريقة الرائجة والمقبولة في العهود الوسطى

¹ المصدر نفسه، ص 135

² مقالات شبلي، 143-142/3

³ مسلمانون كي تعليم، ص 153

⁴ مقالات شبلي، 129/3

حيث كان لكل فن موضوع يحصل عليه وبطريقة اختصاصية بأستاذ خاص لذلك الموضوع. وهذا هو السبب في وجود كثير من المتخصصين لكل فن في تلك الفترة¹ وقد أحب طريقة المناقشة والمناظرة التي كانت رائجة في المدن الكبرى لتطوير قدرات الطلاب وكانت تعقد مجالس مختلفة تتعلق بالموضوعات المتعددة، ويشترك فيها الطلبة والعلماء ويختار عالم ممتاز كحكم لهذه المناظرة، وكان رأيه أن هذه المناقشات تؤدي إلى تطوير القدرة الذهنية وقوة تقديم الأدلة للطلاب، بل قد تكون أكثر فائدة من المناهج التعليمية نفسها². لذلك نحتاج إلى إحياء هذه الطريقة في العصر الحاضر. إضافة إلى ذلك فإن من الجوانب التي مدحها العلامة شبلي في منهج الدرس النظامي جانب وجود الكتب المعقدة لكل فن وموضوع في هذا المنهج، ونتيجة لذلك فإن الطلاب الذين يدرسون هذه الكتب بعد فهمها تصبح قدرة الاطلاع لديهم جيدة ويزداد مستوى الفهم وبالتالي يستطيعون دراسة وفهم أصعب الكتب بسهولة³، نفهم من ذلك أن شبلي كان يرى أن إدخال مثل هذه الكتب في مناهج المدارس مفيد وإن اختيارنا لهذا الجانب من منهج الدرس النظامي يعطي نتائج مثمرة في العصر الحديث.

وكان العلامة شبلي وحسبما ذكر سابقًا يشعر بالحاجة إلى الإصلاح في نصابي وطريقي التعليم وكان يعتقد أن أصحاب الفكرين مقتنعون بما لديهم ويعتبرون أنفسهم ناجحين حسب ثقهم بأنفسهم لذلك لا يطلبون الإصلاح ولا يجتهدون له ولكن الحقيقة أنه نظرًا لمقتضيات العصر وضرورة الأمة نحتاج إلى الإصلاح وتغيير طريقة التدريس في نوعي التعليم⁴. وكان يعتقد أن التعليم الديني ضروري للمسلمين مع التعليم الحديث لأن تعلمهم لا يكتمل بدونه ويبقى السؤال عن حجم ونوعية هذا التعليم وقد ردّ على ذلك أنه من الواضح لي أننا لا نتوقع من المتعلمين عن طريق التعليم الحديث أن يقوموا

¹ ليراجع: تعليم عهد إسلامي ك هندوستان مين لظفر الإسلام الإصلاحي، دار المصنفين، 1907م، ص 44-73

² مقالات شبلي، 82/3

³ المصدر نفسه، 100-99/3

⁴ المصدر نفسه، 140/3

بالإمامة والوعظ والإفتاء لذلك يجب أن نهتم بالتعليم الديني مع التعليم العصري بالقدر الذي يجعل الطلبة يتعرفون على قضايا الشرعية وتاريخ الإسلام ومن المناسب لذلك أن نجهز سلسلة دينية مختصرة شاملة تكون مناسبة يتم تدريسها في المراحل الدراسية من المدرسة إلى الكلية وأوضح ذلك بالتفصيل حيث يتم تدريس العقائد والفقهاء والتاريخ الإسلامي لطلبة التعليم العصري وذكر أنه من الأفضل تدريس العقائد والفقهاء وتاريخ الإسلام في المرحلة المدرسية أما في المرحلة الجامعية فيتم تدريس الكتب المؤلفة من قبل الإمام الغزالي وابن رشد والشاه ولي الله باللغة العربية ولا تزيد هذه المجموعة عن مئتين من الصفحات¹. ويظهر من هذا التفصيل أن شبلي كان يفكر في منهج مختصر وشامل وذي مستوى رفيع للمواد الدينية في المدارس الحديثة، وإدخال كتب الإمام الغزالي وابن رشد والشاه ولي الله في المنهج الجامعي لا يخلو من الأهمية.

وجهة نظر شبلي في تعليم طلبة الجامعة التعليم الديني وتربيتهم الأخلاقية مهمة جداً حيث اعتبر الكتب غير كافية لذلك. إن تدريس الكتب الدينية لا يترك في نفوسهم أثراً دينياً ولا يلزمهم بالتقيد بأمور الدين، إن هناك أموراً يجب مراعاتها حتى يتم تطبيق ذلك.

- خلق جو من عظمة الدين ومكانته في مفاهيم التعليم الحديث، وبذلك تتركز في ذهن الطلاب أهمية الأمور الدينية وتخلق في نفوسهم حب العمل لذلك.
- من الأهمية امتحان المواد الدينية وجعل درجاتها مهمة مثل درجات المواد الحديثة (معنى ذلك في الأغلب أن تحسب درجات المواد الدينية والنتيجة النهائية مثل المواد الأخرى).
- يتم تعيين العلماء والأساتذة الماهرين في تدريس المواد الدينية برواتب جيدة.
- تشجيع الطلاب الذين يلزمون بالأمور الدينية والرفع من ثقتهم.
- إضافة إلى الأمور السابقة (وهذه النقطة اعتبرها شبلي أهم النقاط، يجب الاهتمام بالتعليم العالي الديني لبعض خريجي الجامعة ومنحهم المكافأة لذلك²). والظاهر أن هذا يعني حصولهم على التعليم في المدارس الدينية.

¹ المصدر نفسه، 141/3

² المصدر نفسه، 142-141/3

قدّم العلامة شبلي أفكارًا مفيدة ومناسبة للإصلاح في نظامي التعليم (القديم والجديد) وشدّ على أن المسلمين يحتاجون إلى هذين النوعين، والمتعلمون بالطريقتين هم الجزء الأساسي للأمة، ويجب أن يكونوا أيدي متكاتفة مع بعضهم، حتى تفيد قدراتهم الاجتماعية في خدمة الأمة¹. إن وجهة نظر شبلي مهمة في أن مجال عمل الطبقتين مهم، وعلينا العمل مع التقريب بينهما، لذلك تجب تربية الطلاب بحيث يبتعدون من العصبية وضيق الفكر، ولا يشعرون بكونهم أعلى رتبة من الآخرين، وكان يرى أن القيام بتغيير ظاهرة مخالفة الفريقين لبعضهما أو كونهما غريبين عن بعضهما لدرجة أن يصعب التفاهم وتبادل الآراء بينهما، ضروري جدًا².

ويظهر من هذه الأفكار أن العلامة شبلي كان يشدّد على التواصل والتعاون بين الطبقتين (أصحاب التعليم القديم والجديد) أكثر من المزج والخلط بين الطريقتين حيث يقوم كل فريق بأداء مسؤولياته في إطاره، فيستفيد الناس ويقل بينهما الخلاف. هذه الأفكار للعلامة شبلي في الربط بين الفريقين والاستفادة من قدراتهما في المصلحة الاجتماعية تحمل أهمية كبرى في العصر الحديث، حيث تزداد الحاجة إلى أصحاب الفريقين والتطابق بينهما في ضوء مقتضيات العصر الحديث.

من المعروف أنه في العصر العلامة شبلي كانت هناك جهود جبارة لنشر التعليم الحديث بين المسلمين وكان هذا النوع من التعليم يروج فهم شيئاً فشيئاً، وكان لحركة السير سيد دور أساسي في هذا المجال، وكان هناك تشديد على اكتساب التعليم الحديث نظرًا لمقتضيات العصر وضرورة الملة، وفي هذه الظروف إذا نادى شخص بتطوير التعليم الديني أو الشرقي والاهتمام به في الجامعات أو تشكيل برنامج حكومي أو غير حكومي في هذا المجال، كان بعض الناس ينتقدونه ويكتبون مقالات في مخالفة هذا النداء متعذرين بأن ذلك سيؤثر على التعليم الحديث الذي يحتاج إليه أكثر، وبدأ المسلمون ينجذبون إليه. لكن العلامة شبلي لم يكن يؤيد ذلك، وكان يعتقد أن التعليم الشرقي أو الديني

¹ المصدر نفسه، 143/3

² المصدر نفسه، 143/3

والتعليم الحديث مسلكان وطرق مختلفة، وإذا تطورنا الأول فلن يضر ذلك الثاني، وقد فهم المسلمون جيداً أهمية وفائدة التعليم الجديد وهم ينجذبون إليه، ولكن بالرغم من ذلك تبقى أهمية التعليم الديني الشرقي في محلها وسوف تبقى إلى الأبد. ونجد أمثلة لذلك في العصر الحديث أيضاً. ففي أوروبا تطور التعليم الحديث بشكل كبير ولكن هناك طبقة كبيرة من المجتمع تقوم بنشر تعاليم الدين وبذلك يقومون بالحفاظ على التعليم الديني والمواد الدينية، وفي بلادنا نجد مثلاً لذلك فرقة (آرية)، فهم متقدمون في التعليم العصري ولكنه في الجانب الآخر يقومون بإنشاء (غروكل) (مدارس دينية) حيث يعلمون دينهم واللغة السنسكريتية، والهدف من ذلك الحفاظ على نشر الدين والمواد المتعلقة به. والسؤال هناك هل قللت هذه المراكز من التعليم الحديث بين فرقة الآرية أو أثرت على التعليم؟ وفي نظر شبلي فالجواب هو لا بالتأكيد، في الحقيقة أن العلامة شبلي كان يقصد من ذلك بيان ضرورة التعليم الديني ومراكزه بين المسلمين بالرغم من أن التعليم الحديث أصبح ضرورياً ورائجاً بينهم، والحقيقة أن هذه الضرورة باقية على حالها وستبقى كذلك. كان يعتقد أن التعليم الديني بمثابة العمود الفقري للمسلمين وهناك حاجة ماسة لماهري هذا النوع من التعليم للمجتمع الإسلامي مهما تزايد الإقبال على التعليم الحديث. ولا يرتبط التعليم الشرقي أو الديني بالحياة الشخصية أو الفردية للمسلمين إنما ترتبط له قضايا حياتهم الاجتماعية فكان يقول بوضوح:

"إذا كانت أوروبا بحاجة إلى البطارقة بالرغم من هذا الإقبال على الدنيا، وإذا كان الآريون بحاجة إلى المدارس الدينية (غروكل) بالرغم من مهارتهم في العلوم الحديثة فالمسلمون أيضاً يحتاجون إلى التعليم العربي والديني وسيبقى هذا التعليم إلى الزمن الذي من الضروري أن يبقى فيه الشعب المسلم"¹.

وقد ذكر السبب في كون هذا النوع من التعليم ضرورياً مهما كانت حالته سيئة فإنه يشتمل على الأشياء التي تعتبر أساس القومية المسلمة وتضمن دينهم وأديهم والتطور والنمو، يقول "أنا أعتقد وأتمسك بهذا الاعتقاد بكل قوة أنه مهما بلغ المسلمون من

¹ المصدر نفسه، 148/3

الرقى في العلوم الغربية لا يمكن أن نسمي ذلك رقيًا للمسلمين إذا لم يكن فيه أثر للتعليم الشرقي. لا شك أن الحالة التي علمها التعليم الشرقي بشكله الحالي مزرية جدًا ولكنه يشتمل على أشياء تعتبر أساس القومية المسلمة والتعليم الذي لا يشتمل على هذا الأساس لا يمكن أن يحافظ على أي شيء من دين المسلمين وقوميتهم وتاريخهم"¹.

وفي الأخير من الضروري أن نوضح أن جانبًا مهمًا من الأفكار التعليمية للعلامة شبلي هو أنه ربطه بالضروريات القومية والاجتماعية للمسلمين، وقدم الفكرة المثيرة بأنه ليس المطلوب من تعليم المسلمين هو بناء حياتهم الفردية فقط بل إكمال الضروريات الدينية والثقافية والقومية وحل كثير من القضايا الاجتماعية، وذلك يرتبط بتطوير التعليم العالي للمسلمين. وفي نظره يعتبر هدفًا كبيرًا وسببًا مهمًا للتعليم بأن يتم تجهيز أفراد يدعون إلى الدين ويشرحون الأحكام الإسلامية ويبلغونها للناس، بمعنى أن يتم ترتيب نظام تعليمي ينتج أشخاصًا يدعون إلى الدين بكل سلاسة ويمثلون الإسلام وشرائعه. وتنشأ فيهم مهارة بحيث يردون بالأدلة على الاعتراضات الموجهة إلى الإسلام ويجتهدون مواد دينية تواكب احتياجات العصر. وقد شدد العلامة شبلي في كتاباته على هذه الأهداف للتعليم بسبب خلفية معينة، حيث كانت الحركة الأرية قوية في الأجزاء المختلفة من البلاد، وكانوا ينشرون دينهم وعقائدهم وتقاليدهم خاصة في المناطق القروية، وجانب مهم من نشاطاتهم كان إيجاد سوء الفهم ضد الإسلام ضمن الأشخاص الذين يعتنقون الإسلام. وحسب قول العلامة شبلي فإن زعماء هذه الحركة كانوا يؤثرون على الناس بسبب نشاطهم وقناعاتهم، وكان وعاظهم ومبلغوهم مثقفين وبسطاء في حياتهم وكانت طرقهم سهلة، كانوا يتجولون بين القرى، يأكلون الحمص وينامون تحت الأشجار ليلاً². كان العلامة يمدح فيهم هذه الأوصاف بسبب الظروف الخاصة في تلك الفترة وكان يقول علانية بأنه يجب أن يوجد في المجتمع المسلم أيضًا أفراد وعلماء يتصفون ببذل الجهود والإيثار والإخلاص لكي ينتشروا في القرى وقيموا هناك مراكز تعليمية وتبليغية، ولتحقيق هذا الهدف شدد العلامة على أمور معينة في المدارس وهي:

¹ سفرنامه روم ومصر وشام للعلامة شبلي، مطبعة معارف، 1940م، ص 186-187

² حيات شبلي، 561-562

العدد الخاص مجلة الهند

- الاهتمام بالتعليم الإنجليزي والسنسكريتي الجيد للذين يتعلمون العربية.
- تأسيس قسم في المدارس لنشر الإسلام وحفظه لتربية الدعاة والمبلغين.
- إنشاء فروع لهذا القسم في المناطق المختلفة وتعيين وعاظ دائمين حتى يقيموا في القرى لشهر أو شهرين وينشروا العقائد والأحكام الإسلامية وخاصة ضمن الذين اعتنقوا الإسلام حديثاً.
- وإلى الوقت الذي لا يكون فيه تعيين وعاظ ومبلغين دائمين ممكنًا، يكون هناك بديل مؤقت. ويجب تربية الأئمة والمؤذنين لذلك. ويجز ذلك منحه باللغة الأردية يمتد لسنة أو سنتين، وإضافة إلى تعليمهم القرآن الكريم يتم تعليم العقائد والمسائل الفقهية باللغة الأردية السهلة، ثم يرسلون إلى مساجد القرى حيث يقومون بتعليم الأطفال ونشر الإسلام¹.

لم يكن شبلي رجل كلمة فقط إنما كان رجل عمل أيضًا فقد حاول أن يطبق هذه الأفكار بشكل عملي في ندوة العلماء وأسس فيها عام 1908م قسمًا مستقلًا باسم قسم نشر الإسلام والحفاظ عليه.

وتم تعيين العلامة شاه سليمان الفلوري أمينًا عامًا للقسم ولكن بسبب بعض الظروف لم يستطع القسم المضي في عمله². ثم أنشأ لنفس الهدف مجلس نشر الإسلام والحفاظ عليه خارج نطاق الندوة وعيّن السيد سليمان الندوي كمنظم مشارك بها. وقد قام بنشاطات واسعة منها تجهيز التعداد السكاني للمسلمين الجدد، توفير المعلومات عنهم، الاهتمام بترويج ونشر الإسلام في الأماكن التي يقطنونها، وتنوير المسلمين بشكل عام عن القضايا المتعلقة بهم عن طريق المقالات والرسائل والدعايات والكتيبات، ولتحقيق ذلك طلب من أصحاب العلم والخير أن يقوموا بالتبرعات والتعاون فيها. وكانت كل هذه الأمور تتم تحت مراقبة شبلي وحسب

¹ المصدر نفسه، ص 562-564

² المصدر نفسه، ص 557-558

العدد الخاص مجلة الهند

إرشاداته¹. وكان الهدف من ذلك كله أن يكون هناك مركز يجهّز دعاة الدين الذين يعرفون اللغات المحلية والعلوم العصرية بجانب التعليم الديني والشرقي، حتى يواجهوا المبلّغين الآريين في إشاعة الدين والمستوى العلمي، وكان يرى أن يهتم المركز بترويج الإسلام وأحكامه في القرى والأرياف خاصة ضمن المسلمين الجدد.

وبغض النظر عن هذه الأفكار التي ترتبط بتجهيز أفراد للدعوة إلى الدين والدفاع عنه كان العلامة يريد أن يلحق نظام تربية المبلّغين والذين كان يدعوهم بخدام الدين بالمدارس. في الحقيقة كان يريد أن يجعل تربية خدام الدين جزءًا أساسيًا لنظام المدارس وكان يريد أن يرّمم ويضيف إلى مناهج وطرق تدريس هذه المدارس لهذا الهدف. والسبب الآخر للتشديد على تدريس اللغة الإنجليزية والهندية والسنسكريتية إضافة إلى العربية والفارسية هو تمكين طلبة هذه المدارس من خدمة الدين والتبليغ عنه بطرق مختلفة. من الواضح أن العلامة شبلي يكرر مثال الوعاظ الآريين لتجهيز خدام الدين وتوعيدهم على البساطة والإثارة والقناعة، ونذكر ما قاله السيد ضياء الدين الإصلاحي في هذا الصدد، يقول: "بسبب الظروف الخاصة في الهند كانت فكرة (غروكل) تسيطر على فكر شبلي، وإلا أين نجد الإثارة والبساطة والقناعة أكثر من حياة الرسول الكريم وصحابته الكرام"².

وفي أول خطوة لتجهيز خدام الدين نظر إلى مدرسة الإصلاح والتي كانت تتقدم تحت قيادة العلامة حميد الدين الفراهي وإدارة العلامة محمد شفيع بعد انتقالها من مجلس إصلاح المسلمين. كانت هذه المدرسة تقع في قسبة سرائ مير (أعظم كره) وكانت معروفة ببساطتها وتقيدها بالقوانين. وقدم شبلي في رسالة إلى الفراهي في 1910م فكرة تحويل هذه المدرسة إلى (غروكل) حيث تكون مدرسة دينية خالصة ويكون هدفها الحياة البسيطة والقناعة وخدمة الدين. وقد اشتهر هذا الجزء من رسالته للعلامة الفراهي ويذكر كثيرًا كمرجع:

¹ المصدر نفسه، 565-575

² مسلمانون كي تعليم، ص 157-158

"هل تستطيع أن تقيم في مدرسة سرائ مير لبضعة أيام، وقد أحضر إليها أيضًا، ويتم تنظيمها وتنسيقها، يجب أن تكون مدرسة دينية خالصة على شكل غروكل بمعنى يكون الهدف هو الحياة البسيطة والقناعة وخدمة الدين"¹.

لا يعرف ماذا كان ردّ الفراهي ولكن من المؤكد أن العلامة شبلي كان نشيطًا لتأسيس جماعة خدام الدين وكان يعمل لذلك بكل جدية، وكان يريد أن يبدأ المشروع في مدرسة من المدارس، لذلك بدأه في ندوة العلماء واستعدّ بعض الطلبة لذلك. وقبل أن يدخلهم في ذلك الصف كان يستأذن أولياء أمورهم، وقد وضع بعض المبادئ لحياتهم اليومية، فعلمهم أن يتبعوا البساطة في المأكل والمشرب والملبس، وأن يناموا على الأرض وأن يتبعوا الأحكام الإسلامية كاملة، ويجعلوا التقوى والقناعة شعارهم². إن نظام تربية خدام الدين بدأ في يناير عام 1912م وبعد ذلك بشهر تقريبًا عبّر شبلي عن سروره بتأسيس هذا النظام وذكر دوره بطريقة مختصرة وذكر أنه يعلم بأن هؤلاء الطلبة سيكونون أكفاء لنشر الإسلام في القرى بعد إتمام تربيتهم³. وطبعًا بعد انفصال شبلي عن الندوة عام 1913م انقطع العمل على تربية خدام الدين لكن الفكرة كانت قد تعمّقت في ذهنه ولم يغفل عنها. وعندما جعل أعظم كره مركزًا لأعماله بعد الانفصال عن مسؤوليات الندوة تجددت الفكرة في ذهنه. بأن ينظم برنامج تربية خدام الدين في مدرسة الإصلاح وتنظم المدرسة بطريقة تصبح بها مركزًا لدعاة الدين الذين يشرحون ويمثلون التعليمات والتقاليد الإسلامية ويواجهون الأنشطة المخالفة للإسلام. ويظهر من رسالته التي وجّهها إلى الفراهي في 23 أكتوبر 1913م أن يجعل من مدرسة الإصلاح سرائ مير أو دار المصنفين أعظم كره مركزًا يهتم بالتعليم العالي الديني والديني، وينظم برنامج تربية خدام الدين وتكون فيها مكتبة جيدة⁴. وفيما بعد يظهر من رسالته إلى العلامة مسعود علي في أكتوبر 1914م أنه كان يريد أن تكون مدرسة الإصلاح

¹ المصدر نفسه، ص 160

² مكاتيب شبلي، دار المصنفين، أعظم كره، 1971م، 33/2

³ حيات شبلي، ص 576

⁴ مكاتيب شبلي، 36/2

للتعليم الابتدائي ودار المصنفين للتعليم العالي الكامل. وبذلك كانت هناك صورة شاملة في ذهنه لجامعة إسلامية ويظهر ذلك في كلماته:

"تكون دار المصنفين للتعليم العالي الكامل، وسرائير مير للمرحلة الابتدائية مكونات لجامعة إسلامية ونحتاج إلى التطبيق"¹.

من ينكر الأفكار التي قدّمها شبلي لتعليم المسلمين ونظام التعليم في المدارس وجعل التربية والتعليم ذا هدف واضح، لكن فكرته المذكورة مؤخرًا (إعداد خدام الدين وجعله جزءًا أساسيًا لنظام التعليم في المدارس) كانت في بداية تطبيقها عندما رحل العلامة عن هذه الدار الفانية في 18 نوفمبر عام 1914م (اللهم اغفر وارحم وأنت خير الراحمين) ولم يتقدّم العمل حسب خطته كما كان يريد.

يتبين من التفصيلات السابقة أن العلامة شبلي كان يملك تصورًا جامعًا للتعليم، وكان يرى أن التعليم ليس فقط وسيلة لتطور ونمو الحياة الشخصية للفرد ولكن ترتبط به ضروريات حياة المسلمين الجماعية. ولذلك كان يعتقد بضرورة اكتساب العلوم والفنون المختلفة للمسلمين، ويولي أهمية كبيرة في تشكيل نظام تعليمي لهم يواكب ومتطلبات العصر. وإضافة إلى ذلك يظهر جانب مهمّ لأفكاره التعليمية من خلال الأسطر المذكورة السابقة وهو أنه بسبب الظروف الخاصة لتلك الفترة وشروط المبلغين غير المسلمين كان يريد أن يرتبط تعليم المسلمين وخاصة النظام الخاص بالمدارس بهدف عظيم وهو التبليغ ونشر الإسلام وأحكامه وتعاليمه بطريقة مناسبة ومواجهة العناصر المخالفة للإسلام وإعداد أفراد مخلصين ومجتهدين لخدمة الدين. ولا شك في أنه كان يعتبر المدارس أفضل مراكز لتعليم وتربية هؤلاء الأفراد، ومن وجهة نظره هذه أشار مرارًا وتكرارًا لأصحاب المدارس بالإصلاح والرفق بها، ولا شك أيضًا في أنه في سياق الظروف الحالية لشبه القارة الهندية والقضايا التي تواجه الأمة الإسلامية، تحمل هذه الأفكار أهمية كبيرة. لأنه في الظروف الحالية ازدادت حاجة المجتمع المسلم أكثر وأكثر إلى أشخاص ماهرين في العلوم والفنون المختلفة وخاصة في العلوم الإسلامية والعصرية. يواجه الإسلام ونظام الحياة فيه

¹ المصدر نفسه، 47-46/2

اعتراضات وشبهات جديدة، والدعاية ضد القرآن الكريم والنبي والشريعة الإسلامية تزداد شدة. وقد اجتمعت لذلك كل القوى ممثلة في (الكفر ملة واحدة). وفي هذه الظروف لا نحتاج أن نشرح كم ازدادت الحاجة لمن يدافع عن الإسلام ويخدم الدين. والحقيقة أن العلامة شبلي وفي الظروف الخاصة لعصره شدّد بشكل خاص على أنه لا يكفي التعليم الشرقي فقط للمسلمين ولا التعليم الحديث فقط لإكمال ضرورياتهم الفردية والاجتماعية. ولكنهم يحتاجون إلى نظام تعليمي يتركب من التعليم الشرقي والحديث¹. يقول ضياء الدين الإصلاحى مؤيداً ومعلّقاً على ذلك: "في الحقيقة كان يريد أن يسدّ الفاصل بين القديم والجديد ويربطهما مع بعضهما، لأنه كان يعتقد أن التعليم القديم فقط ليس حلاً لمشاكل المسلمين وقضاياهم، وكذلك ليس التعليم العصري فقط علاجاً لآلامهم وأمراضهم، إنما العلاج يكمن في جمعهما ومزجهما معاً"².

على كل فإن الأفكار التعليمية للعلامة شبلي تظهر عملية ومناسبة أكثر لظروفنا الحالية لأن الضرورة إلى مزج نوعي التعليم والتعاون بين المستفيدين من النوعين ازدادت أكثر لحل قضايا المسلمين الاجتماعية والمالية، وفي جانب آخر تتعقد قضية المزج والترابط والتعاون أكثر وأكثر. الشيء المهم أن العلامة شبلي شدّ الانتباه إلى هذه القضية وقدم الحلول أيضاً حسب مقتضيات العصر ولا تقل أهمية تشديده على ترتيب وتنظيم المدارس بحيث يتم إعداد جيل من الأفراد الذين يقومون بنشر الدين الإسلامي والدعوة إليه وشرح وتمثيل الأحكام الإسلامية وتعاليمه بطريقة أفضل.

ومن ينكر بأن الظروف في شبه القارة الهندية بل في العالم كله تقتضي بأن يكون ضمن المسلمين وبكثرة أفراد مخلصون ومجتهدون يقومون بخدمة الدين، ولا شك أن فكرة العلامة شبلي بأن المدارس الدينية هي التي يمكن أن تكون مركزاً ممتازاً لإعداد هؤلاء، فكرة صائبة.

¹ المصدر نفسه، 2/135

² مقالات شبلي، 3/163

نظريات شبلي التعليمية، دراسة تحليلية

- د. وارث المظهري¹

ترجمة من الأردوية: محمد معتصم الأعظمي²

ممن أنجبتهم الهند في عصرنا الحديث من الرجال العباقرة الأفذاذ الذين قد وجّهت أفكارهم ونظرياتهم أنواعاً من الأثر العميق الواسع النطاق في الاتجاهات الفكرية للمسلمين في هذه المنطقة يتصدّره العلامة شبلي. إنه كان شخصية متعددة الجهات والصفات حتى أنه جمع في شخصه أوصافاً مختلفة تبدو أنها متضادة فإنه كان شاعراً وأديباً وملكماً ومنطقياً ومؤرخاً وكاتباً للسير وماهراً للتعليم، وقد خلف في كل من هذه المجالات ما حير العقول وميّزه عن غيره من العلماء والباحثين، وعلى كل حال فبالرغم من هذه كلها أنه كان مفكراً إسلامياً فوعيه الديني والمتصف بالحدائث كان أعلى مما لمعاصريه وكان يتصف بالاعتدال والإعجاب عنه، وكانت شخصيته جامعة للقديم والجديد فكأنه كان عالماً للدين مفكراً يحبّ الحدائث والانطلاق في الخيال. إنه قد درس تاريخ الفكر والتعليم الإسلامي بإمعان ودقة ثم زادها تحليلاً ذاتياً يندر نظيره فيما بين علماء القرنين التاسع عشر والعشرين وزد على ذلك اطلاعه على ما كان يحدث في العالم الإسلامي لاسيما ما قام به علماء أوروبا وما كانوا يقومون به من جهود علمية جبارة عن الإسلام والمسلمين، فكرته الدينية توافق والوعي الديني العميق والتيار المعاصر، الأمر الذي لا ودعه صريعاً لتقدم أوروبا العلمي والحضاري ولا حصيراً بأيدي التقليد الأعمى.

¹ مدير تحرير مجلة "ترجمان دار العلوم" الشهرية الصادرة عن نيو دلهي

² باحث، مركز الدراسات العربية والإفريقية، جامعة جواهر لال نهرو، نيو دلهي

ومن جوانب أفكاره منهاج المسلمين الدراسي في الهند؛ إنه كان يؤمن بأنما ترك المسلمون على شفا حفرة من الانحطاط الحضاري مقابل الأمم الأخرى في هذا العصر يشمله تخلفهم في مجال المعارف فلن يمكن لهم أن يسيروا على طريق الرقي الحضاري ما لم يلتفتوا إلى التعليم كما يرام ولن يمكن لهم القيام بدورهم العالمي المطلوب في أمور الدين والدنيا فهو كان يعتبر التعليم بناء رقي المسلمين ودرجته الأولى لهم فنراه يصب الدموع على تخلف المسلمين مقابل غيرهم من الأقاليم فلما زار الروم ومصر والشام في 1892م شهد بعينه وضع مسلمي تركيا ومصر التعليمي السيء أحيط به من الهم فأعرب عن حزنه هذا بكل شدة كما يلي: والواقع أن العالم الإسلامي كله يمارس منهاجاً دراسياً سيئاً صاغراً حتى لا يود المسلمون أن يرغبوا في معلومة جيدة ولا أمر بديع سوى بعض الكتب المقررة للتدريس، الأمر الذي كان أن يقضي على مادة الحداثة والإبداع فيهم، ولا نأمل المزيد على ما نراه منها"¹.

وقد ركّز عنايته في هذه الرحلة على الأنشطة التعليمية وطريقتها وأخيلتها، وطوّف في المكتبات والمدارس كما بحث عن الكتب المطبوعة والمخطوطة لكي يستفيد منها ويخبر عنها الطبقة المثقفة للهند. كان للعلامة شبلي عقل متفتح وذهن منطلق، وكان يرغب في التعرف على التطورات العلمية والأدبية رغبة ملؤها قلق وهيام.

البيئة التي تولد فيها العلامة شبلي وترعرع فيها وبلغ أشده كانت مليئة بالمأساة فقد تشتت نظام المسلمين التعليمي على أيدي الحكم البريطاني الظالمة، هذا في جانب وفي جانب آخر فقد سطت القداماة والردالة على ما كانوا يقومون به من الأنشطة العلمية والتعليمية حتى لن ترجى تربية النشء الجديد طبق مقتضيات المعاصرة تربية فكرية فكان يفكر العلامة في إحياء نظام التعليم القديم المزود بالعلوم الجديدة لكي تواجه التحديات الجديدة وتفيد الأمة المسلمة المرحومة.

¹ سفرنامه روم ومصر وشام للعلامة شبلي (1999م)، ص 84

الحاجة إلى إصلاح خطة التدريس في المدارس ودور العلامة شبلي النعماني فيه

في عصرنا الحديث نسمع دويّ الإصلاح في كافة الأوساط العلمية والفكرية بشأن خطط ومناهج دراسية للمدارس الإسلامية، ويشملها دائرة المدارس ذاتها وقد تم الاتفاق على أن إصلاح مناهج وخطط التدريس أمر تحتاج إليه المدارس الإسلامية اليوم، وبدونه لن يمكن سير قافلة الفكر الإسلامي على جادتها المطلوبة ولا أن يواجه النشء الإسلامي الحديث تحديات العصر الحاضر، ولو أنصفنا لوجدنا أن العلامة شبلي قد بلغ عقله هذه الغاية قبل أيامنا بقرن ويشهد بها مقالاته وخطبه ورسائله التي قد وصلت إلى الطبقة المثقفة ومن بين هذه المقالات مقالته الرائعة المعنونة بـ"تعليم المسلمين الماضي" وهي باللغة الأردوية والتي ألقاها في جلسة مؤتمر المسلمين التعليمي المنعقد في 1887م¹ والآن هي منقولة في مجموعة مقالاته بالأردوية. وبفضل هذه المقالة التي نشرت فيما بعد في صورة كتاب على حدة، قد حاول العلامة شبلي أن يوقن المسلمين أن ماضيهم هو الأسوة لهم فليخرج المسلمون من قعر المذلة والصغار وليفتخروا بماضيهم ويعملوا طبقاً له فإن حاولوا الرجوع إلى ماضيهم الزاهر لتالوا من العلى ما قد حرموا منها هذه الأيام.

كان العلامة شبلي يرى التعليم بمجموعه فكان يرى أن العلوم كلها مفيدة للناس على السواء فلم يكن يؤيد من يفرّق بين العلوم الدينية والعلوم العصرية إلا أنه يرى أن خطة التدريس لا بد أن تبني على الدين وروحه كما أن لا يرى صحيحاً من يقول بالتركيز على فوائد الآخرة والغفلة عن فوائد الدنيا التي خلقت لنا فهو يخالف من يقول إن التوفيق بين الدنيا والدين فكرة باطلة وعلى هذا فهو يخالف المولانا الرومي الذي يعظّمه العلامة والذي يقول إن فكرة العلاقة مع الله جنباً بجنب العلاقة مع الدنيا شيء باطل². بينما يؤكّد القرآن على عدم الغفلة عن نصيب المرء من الدنيا فيقول: وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا " (سورة القصص: 77) ويؤكّد على

¹ حيات شبلي للسيد سليمان الندوي (2008م)، ص 159

² خطبات شبلي (1990م)، ص 88

الجمع بين فوائد الدين والدنيا (في الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً) (سورة البقرة: 201) وكما كان العلامة شبلي يطلب من العلماء أن يلتفتوا إلى نيل العلوم الدينية كان يرجو ممن قد تلقى العلوم الدينية أن ينتفعوا من علوم الدين وفوائده.

"قد حدث فيما بين المسلمين جماعتان مختلفتان فالثقافتان فالثقافتان القدامى الذين يرون أن الاشتغال بعلوم الدين يعرقل سبيلهم إلى الرقي في الدنيا رغبوا فيها بينما يرى المثقفون الجدد أن الاشتغال بعلوم العصر لا تدعمهم العلوّ في العلوم الدينية رغبوا عنها فتشبهوا بذيل العلوم الدنيوية"¹. فكان العلامة شبلي يشكو إلى العلماء أنهم قد حصروا أهداف التعليم فأروا أن التعليم الديني لا يتعدى الصلاة والزكاة والصيام فرغبوا عن الخوض في الأمور الأخرى ظانين أن لا حق لهم للخوض فيها².

كان العلامة شبلي من المتدرّبين بيد النظام التعليمي القديم للمدارس فإنه كان قد حلب أشطره وعلى هذا فكل ما كتبه أو قال عن إصلاح المنهاج الدراسي متوازن ولو أنه كان يؤيد التعليم الحديث إلا أنه كان يعضد تقوية النظام الديني القديم، وكان يعتبر ضياعه ضياع أثاث الملة الجوهرية. يقول:

"ولو أنني أحب التعليم الجديد من أعماق قلبي ولكني مؤيد أعى للنظام التعليمي القديم وأرى أن التعليم القديم واجب لا بد منه لإبقاء قومية الإسلام"³.

والواقع أنه كان يعتبر نقص المنهاج الدراسي هو السبب الرئيس لانحطاط المسلمين العلمي والفكري في الهند ولقد صرح عنه على رؤوس الأشهاد⁴ وقد كان السبب الأصلي وراء إقامة ندوة العلماء إصلاح المنهاج الدراسي السائد، وقد كرّر العلامة شبلي ذكر

¹ المصدر نفسه، ص 88

² المصدر نفسه، ص 29

³ سفرنامه روم ومصر وشام، ص 67

⁴ مقالات شبلي (1955م)، 3/128

هذا الهدف فشجّع المسؤولين عنها والمخيرين للأمة المحمدية¹ فيقول في خطاب ألقاه في 1907م بمناسبة تكريم الطلاب بعمامة العلم والفضل:

"لقد وقع التغيير في المقررات الدراسية للعلوم الدينية منذ بروز الإسلام إلى يومنا فاليوم نحتاج إلى التغيير فيها طبقاً لحاجة العصر، وفقدان هذا الأمر هو الذي لا يدع الآلاف من المدارس الإسلامية في الهند أن تخدم الوطن"².

كان العلامة شبلي رزق الاجتهاد فكان يطوي بين جنبه التفكير ما وراء التقليد مثل الغزالي وابن تيمية فما أمكن له أن يعتبر التقاليد بديلاً للأفكار الدينية ويعدّ العدوان عليها جريمة، ولقد شكا العلامة شبلي هذا المرض المزمن فيما بين العلماء ففي جانب يتأسف على هزء المثقفين الجدد بهؤلاء العلماء وفي جانب آخر يجبر العلماء على إدراك ما يتطلب منهم العصر وأن يغيّروا في أنفسهم فهو يقول: الجزء الكبير من حياة القوم بأيدي العلماء ولهم الخيار التام للحكم عليه"³. فالمقتضيات الاجتماعية اللازمة راجعة إلى العلماء إلا أن ضيق نظرهم قد قلّص سيطرتهم هذه، والسبب في هذا الضيق، كما يرى العلامة شبلي، قصر باعهم في التعليم فيسألهم العلامة قائلاً: هل العلماء يؤهّلون بأداء أي مهمة من مهام العصر الحاضر وهل هم ماهرون في التاريخ الإسلامي ---"⁴. وعلى هذا فهو يتأسف عليهم ويرشدهم إلى التغيير في مناهجهم التعليمي:

"أيها العلماء: الأجانب يقدّمون محاولات باهتة بالنسبة لعلومنا وفنوننا فهل يجدر بنا أن ندرّس بعض الكتب الخاصة ونقف حياتنا عليها"⁵.

¹ المصدر نفسه، ص 126

² خطبات شبلي، ص 60

³ المصدر نفسه، ص 30

⁴ المصدر نفسه، ص 62

⁵ المصدر نفسه، ص 46

ولقد خالف العلماء ما أكد عليه العلامة شبلي من التغيير في المنهاج الدراسي للمدارس ولكنه لما أسفر عن نتائج جميلة قلّت معارضتهم وجعل العديد من المدارس تقبل رأيها وذلك لأنه كان مما اقتضاه العصر الحاضر، وهذا من عادة الزمن أن الناس يخالفون من يعتدي على التقليد ثم يؤيدونه إذا رأوا نتائجه الحسنة بل ربما يمدحونه على فعله هذا، يقول السيد سليمان الندوي:

"قام العلامة شبلي بكتابة مقالات قيّمة دعا فيها الناس إلى إصلاح المنهاج الدراسي للمدارس فثار العلماء عليه ولكنه لما بنيت دار العلوم بندوة العلماء وبرزت لها نتائج جميلة أصغى الناس إلى رأيه واتسع نطاق أثره من الهند إلى بنغلاديش ففي مدارس كل من بهار ودهاكة وحيدرآباد وقع التغيير في منهاجها الدراسي"¹.

ولقد ألقى العلامة شبلي الضوء على كل جانب من جوانب الإصلاح في المنهاج الدراسي فنوّد أن نشير إليه كما يلي:

إصلاح المقررات الدراسية: تدريس الكتب ليس بشيء فعّال بل يجب أن يكون التعليم ذا هدف ولقد وقع التغيير في المقررات الدراسية في كل عصر من العصور الإسلامية أمويًا كان أو عباسيًا² ومن لم ينظر في هذا الأمر فقد تخلف وغلبه الأجنبي، ولذا إنه بنى دار العلوم بندوة العلماء التي كانت تستهدف إلى تربية جيل يقدر على الرد على ما يورده الأعداء من الاعتراضات بألستهم فكان العلامة يصرّ على تعلم الإنجليزية والسنسكريتية كما كان يودّ أن يكون الجيل المتخرج من هذه الدار متحليًا بالعلوم الإسلامية العليا³.

وإلى جانب التغيير في المقررات الدراسية يقول العلامة شبلي:

1. تم تقرير الكتب في المقررات الدراسية، التي لا تؤكّد إلا على الكلمات

¹ حيات شبلي، ص 18

² خطبات شبلي، ص 18

³ المصدر نفسه، ص 101

العدد الخاص مجلة الهند

2. فيها كتب خلط فيها بعض العلوم ببعضها الآخر فجاء في كتب المنطق الإلهية بينما جاءت البلاغة في كتب الإلهية
3. قامت العلوم الآلية مقام العلوم العالية فتم توضيح النحو والمنطق والبلاغة مما لا تحتل المكانة المستهدفة
4. نصيب القرآن أقل بكثير فيكتفون بالجلالين والبيضاوي¹
5. وكذا نصيب الأدب أقل
6. علم الكلام القديم لا يقدر على مواجهة التحديات المعاصرة²
7. يجب أن يروج الاختصاص في العلوم³.

إصلاح طريقة التدريس: كان العلامة شبلي يعتبر إصلاح طريقة التدريس جزءاً مهماً من إصلاح المنهج الدراسي فهو يقول إن العلماء يؤكّدون على حل معضلات الكتب بدلاً من حل القضايا المذكورة فيها والواقع أن مثل هذه الحالة السيئة توجد في المدارس حتى الآن⁴ ويقول كذلك إن المنهج الدراسي النظامي لا يؤكّد على الكتب بل على الموضوعات المذكورة فيها⁵ وعلى هذا فهو يقول: ينبغي لنا أن ندرّس الأقدم فالأقدم ولا نصرف أوقاتنا الكثيرة على العلوم التي لا حاجة إليها شديدة⁶ وكذا يقول إنه ينبغي لنا أن نطلب من مدرّس تدريس علم واحد أو ما يمهر فيه ولا نجبره وحده على تدريس كافة العلوم⁷.

وهذان الجانبان من الإصلاح لازمان لدى العلامة شبلي.

¹ مقالات شبلي، 123/3

² خطبات شبلي، ص 20

³ المصدر نفسه، ص 24

⁴ المصدر نفسه، ص 27

⁵ مقالات شبلي، 130-129/3

⁶ المصدر نفسه، ص 131

⁷ المصدر نفسه، ص 129

نظرية العلامة شبلي بالعلوم الجديدة: وجهة نظر العلامة شبلي عن العلوم الجديدة واضحة بيّنة، إنه يجبر على أن يتعلم الطالب المسلم العلوم الجديدة بجانب تعلّمه العلوم القديمة وبدونها لن يمكن له أن يردّ على الاعتراضات التي ترد على الإسلام وأتباعه من قبل أعداء المسلمين¹. إنه يرشد العلماء المسلمين أن يشرفوا على هذه العلوم الجديدة كما أشرفوا على العلوم الإسلامية القديمة. إنه ينكر أن تعلم العلوم الجديدة يشكك في أذهان النشء الجديد² ونراه جريئاً في قوله أن المسلمين لم يبنوا جامعة كبيرة خلال حكمهم الممتد لستة قرون في الهند بينما قاموا ببناء المساجد والخانقاهات العديدة³. لنقرأ مقتبسه التالي:

"قلت وأكزّر القول إن علاج دائنا ليس في العلوم الإنجليزية ولا في العلوم الإسلامية بل علاجنا معجون مركّب جزؤه الأول شرقي والآخر غربي⁴ .

وملخص القول إن العلامة شبلي كان عالماً إسلامياً كبيراً وماهراً للمعارف وكل ما قدّمه من نظرية تعليمية تبنى على العدل والتوازن.

¹ خطبات شبلي، ص 49

² المصدر نفسه، ص 90

³ المصدر نفسه، ص 91

⁴ المصدر نفسه، ص 163

قضية المنحول وكيف عالجهما العلامة شبلي النعماني

- أ. د. ظفر أحمد الصديقي¹

ترجمة من الأردوية: أ. د. فيضان الله الفاروقي²

العلامة شبلي النعماني أول من بنى التحقيق والنقد باللغة الأردوية فنجد محاولاته في هذا المجال بعنوان "موازنة أنيس وديبير" و"شعر العجم" فلا ننسأه عادة حينما نذكر النقد الأردوي ولكنه بما أن مباحثه النقدية مبعثرة في مؤلفاته ومقالاته وبحوثه العلمية فلم يلتفت إليها الناس كما يرام ولعل السبب وراء هذا سعة نطاق تحقيقه فنجده يتجاوز الآداب إلى السير والتراجم والتاريخ والحضارة والفلسفة والكلام.

ومن أهم أقسام التحقيق تحقيق المنحول فيبحث فيه المحقق عن نسبة أيّ كلام إلى قائله وله نوعان؛ نوع يتحدث عن نسبة كلام صحيح إلى الشاعر ونوع آخر عن إحياء نسبة كلام إلى قائله.

وليلاحظ هنا أن أول من بنى تحقيق المنحول باللغة الأردوية هو العلامة شبلي النعماني ولقد أقام مبحثاً في كتابه "الغزالي" باسم "مؤلفات الإمام الغزالي المبحوث عنها" ثم ذكر في الكتب التي شكّ في نسبتها إليه وسنتاول كل كتاب بما يجب تفصيله من المباحث.

فأول كتاب نتناوله بالبحث هو "المنحول في علم الأصول" الذي يختصر اسمه بـ"المنحول" فذكر العلامة شبلي أن هذا الكتاب في أصول الفقه وذكره صاحب

¹ أستاذ، قسم اللغة العربية وأدبها، جامعة علي كره الإسلامية، علي كره

² أستاذ، مركز الدراسات العربية والإفريقية، جامعة جواهر لال نهرو، نيودلهي

"كشف الظنون" بـ"ردّ أبي حيفة" ناقلاً قول صاحب "قلايد العقبان" بأنه ليس من مؤلفات الغزالي بل ألفه محمود المعتزلي وقد كتب الردّ عليه شمس الأئمة الكردي¹.

وكذا ذكر العلامة أن من شكّ في نسبة هذا الكتاب إلى الإمام الغزالي يستدلّ بأن هذا الكتاب يشمل النقد اللاذع على الإمام أبي حنيفة حتى قيل أن 90 بالمئة من قضاياها خاطئة بينما أطرى الإمام الغزالي الإمام أبا حنيفة في كتابه "إحياء علوم الدين" وكذا قالوا إن الإمام الغزالي بريء عن أن يذمّ إماماً لمذهب إسلامي فلن يكون "المنحول" من مؤلفات الإمام الغزالي.

فيرى العلامة شبلي أن "المنحول" لكتاب الإمام الغزالي فلا يصيب من يشكّ فيه. والدلائل التي ذكرها العلامة شبلي في إثبات دعواه ما يلي:

1. أن هذا الكتاب نسب إلى الإمام الغزالي في كافة كتب الرجال والتراجم.
2. أن الإمام الغزالي كان يحب الجاه والنفس والكبرياء في طفولته فكان في تلك الفترة محباً للجدال والانتقاد إلا أنه قد تحوّل في كهولته فأصبح على عكس ما كان فالمنحول كتاب ألفه في زمن الطفولة.
3. لقد رأيت هذا الكتاب فيوحي أسلوبه أنه من مؤلفات عنفوان الشباب.

ويناسبنا أن نذكر مؤيداً دليلاً الأول أن ابن الجوزي (ت 597هـ) في "المنتظم في تاريخ الملوك والأمم" وابن خلكان (ت 681هـ) في "وفيات الأعيان" وتاج الدين ابن السبكي (ت 771هـ) في "طبقات الشافعية الكبرى" وابن الملقن (ت 790هـ) في "طبقات الشافعية" وبدر الدين العيني (ت 855هـ) في "عقد الجمان" ذكروا هذا الكتاب من

¹ يقول صاحب "كشف الظنون": قال صاحب قلائد العقبان هو ليس لحجة الإسلام، بل هو على ما كتب في حاشية نسخة منه لمحمود الغزالي، شخص من المعتزلة، وقد أدى ذلك شمس الأئمة الكردي إلى التعصب إلى أن ردّه --- وإن كان هو لحجة الإسلام من تأليفاته في أول طلبه لأنه خلاف ما في الإحياء من مناقبه، كشف الظنون، 837/1

مؤلفات الإمام الغزالي فالعلامة صادق في قوله أن أصحاب التراجم والرجال قد ذكروه من مؤلفات الإمام الغزالي¹.

وأما دليله الثاني والثالث فنودّ أن نقول إن المنحول كان مخطوطاً حتى 1980م كما يشير إليه خير الدين الزركلي في "الأعلام"² وكذا أشار عبد الكريم عثمان كاتب "سيرة الغزالي" إلى أنه لم يطبع وأن نسخته الخطية توجد في دار الكتب المصرية³ فلنشكر العلامة شبلي أنه لم يدرس مثل هذه الكتب النادرة فحسب بل أمعن النظر في أساليبها فبيّن خصائصها والفترات التي كتبت فيها ويؤيد دليل العلامة شبلي ابن الجوزي⁴ وابن السبكي⁵ أن الإمام الغزالي قد ألّف هذا الكتاب في ترجمة أستاذه إمام الحرمين عبد الملك الجويني الذي توفي في 478هـ وكان الغزالي آنذاك ابن 28 سنة.

وأما ما يتعلق بالنقد الشديد على الإمام أبي حنيفة فقد ذمّه الحافظ الذهبي فهو يقول في "سير أعلام النبلاء": يوجد في نهاية "المنحول" للغزالي كلامٌ غيرُ واضح عن إمام، لا يناسبنا ذكره⁶. ويعلّق عليه شعيب الأرنؤوط الذي قام بتحقيق "سير أعلام النبلاء": أريد بهذه العبارة للذهبي أبو حنيفة بالإمام فالذهبي يستحق أن يفنّد رأي الغزالي في الإمام أبي حنيفة لأنه يفقد العلم والتحقيق فقد صدر عن الغزالي هذا الرأي حينما كان مشغولاً بعلوم المناظرة والجدال وملذات الأطفال وذلك فإنه ألّف "المنحول" في عنفوان شبابه والواقع أن معظم مشتملات هذا البحث في كتابه مأخوذة من كتاب "مغيث الحق في ترجيح القول الأحق" لأستاذه إمام الحرمين، والحق أن هذا كتاب ألّفه إمام الحرمين لترجيح مذهب الشافعية على غيره من المذاهب الفقهية فالكتاب مليء بالعصبية الشديدة والكلمات السيئة عن الإمام أبي

¹ راجع للتفصيل: سيرة الغزالي وأقوال المتقدمين فيه

² الأعلام، 22/7

³ سيرة الغزالي، ص 125

⁴ المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ص 168

⁵ طبقات الشافعية الكبرى، 225/6

⁶ سير أعلام النبلاء، 344/19

العدد الخاص مجلة الهند

حنيفة مما يصم الآذان وينفر الذوق السليم فالكتاب مما لا يلتف إليه العلماء والمحققون وقد ردّ عليه الإمام الكوثري بكتاب يسمّى "إحقاق الحق" فليراجع من يريد التفصيل عنه"¹.

والأمر المهمّ بهذه النسبة أن علماء وباحثي العرب في هذه الأيام يعتبرون "المنحول" من مؤلفات الإمام الغزالي، وقد ذكر نجوى ضو محقق "المستصفى في علم الأصول" للغزالي أن "المنحول" قد نشر بتحقيق الدكتور محمد حسن هيتو من دار الفكر بدمشق في 1997م² وتوجد طبعته العامة على الإنترنت فقد استفاد منها كاتب هذه الأسطر.

وكتاب آخر بهذه النسبة هو "المضنون به على غيره"، موضوعه علم الكلام. يقول فيه العلامة شبلي: يدعي المحدث ابن الصلاح والعلامة ابن السبكي عنه أنه ليس من مؤلفات الإمام الغزالي واستدلوا على قولهما بأن كاتبه يقول بقدوم العالم وإنكار علم الجزئيات ونفي الصفات، وكل عقيدة من هذه العقائد تنتهي بتكفير صاحبها"³.

فيقول كاتب هذه الأسطر إن قول العلامة شبلي هذا مأخوذ من قول العلامة مرتضى الزبيدي البلغرامي في كتابه "أتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين"، فيناسبنا بهذا الموقع أن نذكر قوله بكامله فهو يقول في مقدمة شرحه:

"يقول ابن السبكي إن ابن الصلاح ذكر أن هذا الكتاب يعزى إلى الإمام الغزالي وأعوذ بالله من أن يكون له ولقد أشار ابن الصلاح إلى سبب نحله فيقول ابن السبكي إنما ذكره ابن الصلاح حق فلقد صحّ فيه عن قدم العالم ونفي العلم القديم عن الجزئيات وأما الإمام الغزالي فهو يكفّر من يقول بشيء منها وهذا مذهب كافة أهل السنة فكيف يمكن لنا أن نؤمن بأنه يقول بتلك كلها. يقول الزبيدي إن هذا الكتاب

¹ المصدر نفسه

² المستصفى من علم الأصول، ص 10

³ مجلة "معارف" الشهرية، 120/6-5/194

يوجد لديّ ويضيف قائلاً: قد جاء في "المسامرة"¹ أنه تأليف علي بن خليل السبتي وكذا صرح صاحب "تحفة الإرشاد"² أن هذا كتاب منحول إلى الغزالي³ وقد ردّ عليه أبو بكر محمد بن عبد الله المالقي (ت 750هـ في كتاب⁴).

فبدا من هذا أن مرتضى البلغرامي أيضًا ينكر نسبة هذا الكتاب إلى الإمام الغزالي كمثل ابن الصلاح وابن السبكي، ولكن العلامة شبلي يعتبره مما ألفه الإمام الغزالي كعادته مع كتابه "المنحول"، ودلائله كما يلي:

1. أن "المضنون" عُدّ من مؤلفات الغزالي في كافة التراجم وسير الرجال الموثوق بها.
2. والإمام الغزالي ذاته اعتبره من مؤلفاته في كتابه "جواهر القرآن".
3. لا يكفي إنكار نسبة هذا الكتاب إلى الإمام الغزالي بأن فيه قضايا تنتهي بتكفير صاحبها لدى ابن الصلاح وابن السبكي لأن في "إحياء العلوم" ما يكفر صاحبه لدى بعض الناس.
4. ويختم العلامة قوله على "من الممتع أن هذه القضايا لم تذكر في "المضنون" البتة فلا أدري كيف استنبط ابن الصلاح وابن السبكي هذه القضايا فقد طبع الكتاب وهو متوفر للكل.

ونقول عن الدليل الأول للعلامة شبلي إن "المضنون" لا يذكره معظم التراجم وسير الرجال كعادتها مع كتابه "المنحول" فلا نجد ذكره في "وفيات الأعيان" لابن خلكان و"الوافي بالوفيات" لصلاح الدين الصفدي و"مرآة الجنان" لليافعي وغيرها

¹ المسامرة تأليف محيي الدين ابن عربي وقد ذكره الزبيدي في مقدمة شرحه لإحياء العلوم لدى ذكر كتابه "منهاج العابدين".

² تحفة الإرشاد إلى سبيل الرشاد تأليف إسماعيل بن أبي بكر ابن المقرئ (ت 837هـ) ذكره الزبيدي في بداية مقدمته لشرح إحياء العلوم.

³ سيرة الغزالي، ص 153

⁴ المصدر نفسه، ص 197

من معظم كتب التراجم والسير وقد أنكر نسبته إلى الإمام الغزالي ابن الصلاح والذهبي وابن السبكي والزبيدي فلا يصح القول بأنه مذكور في كافة كتب التراجم والسير الموثوق بها.

وأما فيما يتعلق بذكر "المضنون" في "جواهر القرآن" فيبدو أن العلامة قد وهم في هذا الموقع فقد قرأت "جواهر القرآن" حرفاً حرفاً فلم أجد ذكره فيه فقد ذكر الإمام الغزالي ما يلي من كتبه في المبحث الثاني لهذا الكتاب "علوم الباب":

الرسالة القدسية والاقتصاد في الاعتقاد والمستظهرى وتهافة الفلاسفة وحجة الحق وقواصم الباطنية ومفصل الخلاف ومحك النظر ومعيار العلم¹.

إلا أن قول العلامة شبلي "بأن القضايا التي تكفر الإمام الغزالي لم تذكر في ذلك الكتاب" أقوى بكثير ويرى رأيه عبد الكريم عثمان فهو يقول: لا نجد في الكتاب الذي يوجد عندنا ما يشكك في نسبته إلى الإمام الغزالي². ولقد درسه كاتب هذه الأسطر فوجد العلامة شبلي صادقاً في قوله فلا توجد فيه القضايا المذكورة أعلاه.

والأمر النهائي عن هذا أن علماء العرب وباحثيه مختلفو الرأي في هذا الكتاب إلى الآن فلا تصح نسبته إلى الإمام الغزالي لدى زكي مبارك والدكتور عناني وعامر نجار وعبد الرحمن بدوي وسعيد عودة بينما تصح نسبته إليه لدى الدكتور صليبة والدكتور عياد وسليمان دنيا وعبد الكريم عثمان³.

وكتاب ثالث بهذا الموقع هو "التنفخ والتسوية" واسمه الحقيقي "المضنون الصغير" وقد جاء ذكره في مجموعة رسائل الإمام الغزالي (ترتيب: إبراهيم أمين محمد) باسم "الأجوبة الغزالية في المسائل الأخروية". ينبغي لنا أن نسميه كتيباً بدلاً من الكتاب لأنه في عشر صفحات فحسب وقد أوجز العلامة شبلي كلامه عنه فيقول:

¹ جواهر القرآن، ص 20

² سيرة الغزالي، ص 72

³ وراجع للتفصيل: نظرات في كتاب المضنون الصغير لسعيد عودة

"قد عدّ هذا الكتاب العلامة مرتضى الزبيدي منحولاً في شرحه لإحياء العلوم ولكنه لم يستدل بقول ولا برأي"¹.

عسى أن العلامة شبلي لم يعثر على هذه الرسالة فأوجز قوله فيها وقد كتب سعيد عودة في أكتوبر 2009م مقالة في هذه الرسالة بعنوان "نظرات في كتاب المضمون الصغير" وتوجد هذه المقالة على الإنترنت.

ويعتبر سعيد عودة "المضمون الصغير" منحولاً كاعتباره لكتاب "المضمون به على غير أهله" فقد ذكر مقتبسات من مقدمة الرسالة والفصل الثاني والفصل الثالث والفصل الرابع والفصل الخامس والفصل السادس، يبدو منها أن الإمام الغزالي ذاته لم يؤلف هذه الرسالة بل طرح عليه أسئلة فردّ عليها فهذه الرسالة مجموعة تلك الأسئلة والأجوبة وبما أن الذي طرح الأسئلة ومن قام بترتيبها لا يُعلمان فنشكّ في نسبتها إلى الغزالي وكذا انتقد سعيد عودة محتويات هذه الرسالة ولقد درس كاتب هذه الأسطر الرسالة الأصلية كما قرأ مقالة سعيد عودة فنرى أنما كتبه سعيد عودة يحتاج إلى مزيد من التفكير وإعادة فلا يمكن لنا أن ننكر نسبة هذه الرسالة إلى الإمام الغزالي ولا أن نعتبر قضاياها مخالفة لأفكار وآراء أهل السنة.

والكتاب النهائي لهذا الموقع هو "سرّ العالمين وكشف ما في الدارين" فيراه العلامة شبلي منحولاً بدون شك وقد نسب خطأ إلى الإمام الغزالي، ودلائل العلامة شبلي كما يلي:

1. أسلوب هذا الكتاب يعارض أسلوب الإمام الغزالي.
2. قد أكثر الناحل ذكر تلمذه لإمام الحرمين، الأمر الذي يكفي دليلاً على نحله وذلك لأن الإمام الغزالي لا يذكر شيوخه البتة.

ونقول إن "سر العالمين" كتاب تم طبعه وقد نشر من نجف، إيران في 1285هـ/1945م وتوجد في مجموعة رسائل الغزالي فدراسته تصدّق قول العلامة شبلي بأن أسلوبه يخالف أسلوب الإمام الغزالي كما صدق العلامة في قوله أن الناحل أكثر ذكر تلمذه لإمام

¹ مجلة "معارف" الشهرية، 194/5-6/123

الحرمين إلا أنه لم يذكر القول بالتلمذ بل ذكره في مكان واحد ألا وهو في المقالة التاسعة ولقد ذكر الإمام الغزالي شيخه مرة أو مرتين في نهاية "المنحول" فلا يصح اعتباره منحولاً على هذا الدليل. نعم إن الناقل حاول إثباته للغزالي بكثرة الإحالة إلى كتاب الإمام الغزالي. والشيء الثاني أن العلامة شبلي لم يتناول محتوياته بالبحث والحال أن نحله يبدو جلياً عن محتوياته. وعلى كل حال فنؤيد قول العلامة بأن هذا الكتاب يمثل وجهة نظر أهل التشيع في ترتيب الخلافة عمومًا وفي خلافة عمر بن الخطاب خصوصًا بينما الإمام الغزالي من علماء أهل السنة فقد كتب الحافظ الذهبي في "سير أعلام النبلاء": "كك نقل أبو المظفر سبط بن الجوزي في كتابه "رياض الأفهام في مناقب أهل البيت" مقتبسات من "سر العالمين" تمثل وجهة نظر الفرقة الإمامية ثم نقل رأي سبط بن الجوزي أنه لو كان الغزالي يمتلك هذه الأفكار فنتوقع منه أنه تاب عنها كما يمكن أن الكتاب منحول نسب خطأ إلى الغزالي.

ويؤيد موقف العلامة شبلي ما صدر من تحقيقات حديثة فنشرت مقالة لعلي رضا ذكاوتي فراغزولو في مجلة "معارف"، تهران (يناير 1991م) قام بترجمتها الأردنية الدكتور نجم الإسلام أستاذ جامعة السند، جام شورو، باكستان. نشرت هذه الترجمة في العددين العاشر والحادي عشر لـ "مجلة تحقيق" الصادرة عن جام شورو، وننقل فيما يلي أهم نقاطها:

1. الآن ثبت لدى أغلبية الكتاب والباحثين أن "سير العالمين وكشف ما في الدارين" منحول ونسبته إلى الغزالي خطأ.
2. الأمر الذي يمس جانب ثقة الكتاب هو احتمال كاتبه وجهة نظر أهل التشيع فلو نسبناه إلى الغزالي لأجبرنا على القول بأن الغزالي قد تأسف على كونه من أهل السنة في أواخر عمره.
3. المرحوم جلال همائي أحد الباحثين الذين ينكرون نسبته إلى الإمام الغزالي، فالمعترف به أن هذا الكتاب نحل إلى الغزالي لكي يشتهر به وليقدم الغزالي مؤيداً للباطنية والشيعة أو يجعل غير موثوق به للخرافات والعقائد السيئة المذكورة في هذا الكتاب.

4. جيئت كلمة "عشق" في هذا الكتاب فمعناها الروحي كما استخدمت كلمة "مشاهدة" كعادتها في الأدب الفارسي كما استخدمت تراكيب مثل "طائفة إلهية" و"قيل وقال" وكذا استخدمت كلمة "قدم" لدورة المياه والتي لا تمت إلى الفصحى بصلة فيثبت أن كاتبه فارسي يعرف العربية¹.

وبعد تقديم آراء علي رضا ذكاوتي يقول كاتب هذه الأسطر أن الكاتب ادّعى في المقالة التاسعة لسر العالمين أنه شرح كتاب "الموسيقى" لبو علي سينا بعنوان "كتاب السبيل لأبناء السبيل"² وهذا شاهد عيان على نحل هذا الكتاب لأن الإمام الغزالي لم يؤلّف كتابًا ما في الموسيقى ناهيك أن يكتب شرحًا لموسيقى بو علي سينا ثم لا يوجد كتاب من كتبه عنوانه "السبيل لأبناء السبيل" بل ينكر مؤرخوه ومترجموه علاقته بالموسيقى فقول العلامة شبلي بنحله صحيح مئة بالمئة.

يبدو صريحًا مما كتب في هذا البحث أن العلامة شبلي أول من بنى التحقيق بالأردوية كما يثبت أنما اختاره العلامة شبلي من موقف من كتب الإمام الغزالي صحيح مئة بالمئة لأنه مصدّق من قبل المتقدمين والمتأخرين من العلماء والباحثين.

¹ مقالة "كچه سر العالمين كے انتساب كے بارے میں"، تحقيق (عدد خاص: 10-11)، 1996-410-407/97

² والجمله بالعربية هي: وليكن المغني عالمًا بطريق الأغاني مطلقًا على كتاب الموسيقى الموضوع للرئيس أبي علي بن سينا وقد شرحناه في كتاب السبيل لأبناء السبيل، سر العالمين (مجموعة رسائل الغزالي)، ص 490

قضايا المرأة وكيف عالجها العلامة شبلي النعماني

- الشيخ كليم صفات الإصلاح¹

ترجمة من الأردوية: زبيرية نيرة²

قضية المرأة والعلامة شبلي النعماني: كان العلامة شبلي النعماني (1857-1914م) شخصية جامعة ذات جوانب متعدّدة، فالبحث عن جانب منها يطلب منا دقة النظر والاطلاع الواسع، ولا نبالغ لو قلنا إن تفرّده ينحصر في تنوع فعالة القومية والملمية، وخصوصيته هذه قد ظهرت بفضل شغفه بتاريخ الإسلام وانشغاله بالعلم والتحقيق، وتنوّز ضميره وحرية أفكاره، ويخبرنا عن ذلك ما كتبه من خصائص النساء الفطرية وولعهن بالعلم والسياسة والثقافة. وقد ذكرها بالتفصيل في غير موضع من كتبه كـ"المأمون" و"سيرة النبي" و"سفرنامه روم ومصر وشام" متناولاً قضايا تحرير النسوة وحقوقهن وتعليمهن وقد أدلى دلوه عن المرأة في مقالاته التي نشرت في مجلة "الندوة" الصادرة عن لکناؤ وفي تحليلاته لكتاب "الملل والنحل" وابن حزم الظاهري و"بلاغات النساء" و"همايون نامه" لگلبدن بيگم. وكذا كتب مقالات وبحوثاً علمية بعنوان "زيب النساء" و"الحجاب والإسلام".

وهكذا أمر آزاد أن يقوم باستعراض كتاب "المرأة المسلمة" لفريد وجدي وأعان السيد سليمان الندوي في كتابة "سيرة عائشة" فكرة ومادة وإرشاداً وكذلك إشارته إلى قضايا النساء وترقيتهن في غير موضع من "مكاتيب شبلي" و"خطبات شبلي" دليل حيّ على

¹ كاتب هندي له مساهمات قيّمة باللغة الأردوية

² باحثة، قسم اللغات العربية والفارسية والأردوية والدراسات الإسلامية، جامعة فيسفا-باراتي المركزية، شانينيكيتان، بنغال الغربية

رغبته في هذه القضية. وفي هذه المقالة المتواضعة تناولنا هذا الموضوع في ضوء مقالاته القيّمة المثيرة للأفكار والعواطف.

ولا يمكن أن نفهم أفكاره بالنسبة للنساء بدون أن نفهم الجوّ الذي عاش فيه العلامة شبلي، فكان العلامة ينتمي إلى أعظم كره حيث لا يوجد التعليم في ضواحيها، وأغلبية سكانها كانوا يحترفون بالزراعة وما كانوا يلتفتون إلى العلم والثقافة وكانوا يعتبرون العلوم العصرية حرامًا عليهم. في هذا الجو المظلم حصل العلامة على العلوم العصرية وارتقى إلى سماء العلم مما يخيّر قراء ترجمته كما قال الشيخ إكرام: "حينما يكون تعليم الرجال مختلفًا فيه كيف يلتفت أحدٌ إلى تعليم النساء"¹.

في هذا الجو غير العلمي ظهر العلامة شبلي الشخصية البارزة التي عنيت بأمور تعليم النساء وترقيتهن علاوة على تعليم الرجال في البيئة التي كانت النساء محدودات في بيوتهن كأن الله لم يخلقهن إلا للشؤون المنزلية، ثم عرّف بفضل النسوة العلمي وميولهن الكلية وشعورهن الثقافي.

سعة فكرة العلامة شبلي وثورتها: قد تأثر العلامة ببيئة علي كره العلمية المنطلقة كثيرًا²، وهذا الأثر برز في أفكاره. إنه رأى أن الإنكليزيات المثقفات يحبن العلم والعلماء، ويفكرن في أمور الهنديات وجهلن. إنه وجد أنهن يشاطرن الرجال في شؤونهم. ورأى ليدي بلنت والأخريات من الإنكليزيات أنهن يعاملن معاملة حسنة ويثبتن حسن أخلاقهن³، ويسبقن في العلوم والفنون. إنه ذكر مثل ذلك في تأليفه "المأمون" الذي ذكر فيه حقوق النساء وحريتهن، في عروج المسلمين ولكن المسلمين قد نسوا اليوم حقوق النساء ولم يلتفتوا إلى تعليمهن وتثقيفهن، بل يحسبونهن أصل الإثم والفواحش. قال العلامة في كتابه "المأمون":

¹ يادگار شبلي، ص 316

² حیات شبلي، ص 818

³ يادگار شبلي، ص 319

"إن الجوّاري المثقفات قد دخلن في البلاط وقصور الأمراء والأثرياء الذين كانوا يعتنون بتعليمهن وثقيفهن، وكانت هذه الجوّاري يتساوين في حقوقهن مع الحرائر"¹.

المساواة بين حقوق الرجل والمرأة: ذكر العلامة شبلي أن الأديان كلها قد ظلمت المرأة، ولم تعترف بحقوقها، الأمر الذي حرمت المرأة حقوقها وخصائصها المرجوة. ذكر العلامة شبلي أن المرأة الهندوسية حرمت الميراث وغيره من الحقوق حتى إنها أجبرت على حرق بدنّها الرخو مع جثة زوجها الذي نسمّيه بـ"ستي" وكذلك في النصرانية حرمت المرأة جميع حقوقها، وفي كل زمان ومكان كانت المرأة ذليلة خاضعة أمام الرجال، قال أفلاطون: إن المرأة ليست بسوية للرجال ولا تليق ولا تصلح أن تكون زوجة لرجل لأن الرجل يفوق عليها". وقد اضطّرها القانون المسيحي حتى القرن التاسع عشر إلى أن ترفع يدها عن جميع حقوقها وأموالها لزوجها.

وصفحات تاريخ العرب مملوءة بذكر وأد البنات والكآبة لدى ولادة البنت عندهم ولكن لما طلعت شمس الإسلام انقشعت ظلمة الجهل والجور على المرأة فأقام الإسلام العدل والمساواة بين المرأة والرجل. وأعطى المرأة الحقوق التي كانت للرجال. ذكر العلامة شبلي حديثاً نبوياً: خيركم خيركم لزوجه"²، لا يوجد مثال المساواة كهذا في أي دين سوى الإسلام. يكتب العلامة شبلي:

"ظلمت كافة الأديان على المرأة ولم تهب لها الحقوق ولم تقرّر لها من الإرث إلا الإسلام وكانت العرب أيضاً يمارسون مع المرأة هذا الجور والظلم ويحتقرونها، والإسلام ساوي بين المرأة والمرء في حقوقهما، كما ورد في كتاب الله: "لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَتَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَتَبْنَ" (سورة النساء: 32)³.

وقد ناقش في موضع فوائد النكاح ومصالحه فقال:

¹ المأمون، ص 209

² باقيات شبلي، ص 133

³ سيرة النعمان، ص 244

"لا ينبغي للحصول على فوائد النكاح وصلاحه أن تقام حقوقهما بالعدل والإحسان، ولا تبطل المساواة بينهما لأن المرأة تريد بنكاحها الأمن والراحة ولا تريد سلب حقوقها والجور عليها. الإسلام أحسن إلى المرأة وعين حقوقها في أمر النكاح كرمًا وسخاءً منه"¹.

ما هي الحقوق التي وهبها الإسلام للمرأة: يعترف العلامة شبلي أن المرأة نصف للإنسان قائلًا: وضعت لحقوق المرأة مئات من القوانين لكن جميعها قد فشلت وهو يتأسف على حرمان المرأة عن الحقوق، وقد تحدّث العلامة في كتابه "الكلام" مستمدًا بنور القرآن عن حقوق المرأة فأثبت أن الإسلام هو الدين الوحيد الذي عين حقوق المرأة بالسخاء والجود، وقد أشار إلى العلاقة الفطرية التي توجد بين المرأة والمرء وقال: إن المرأة أعظم جزء من المجتمع وهي سبب للراحة والسكون للمرء كما قال الله تعالى:

خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً (سورة الروم: 21)

وقال العلامة: إن المرء والمرأة يحتاج بعضهما إلى البعض، وإنهما متساويان في العلاقات، والحقوق، وعزّز دعواه بأي من القرآن الكريم فنقل الآيات (187-282) من سورة البقرة والآيتين (23-24) من سورة بني إسرائيل. ثم كتب أنهما على درجة متساوية في درجات القرابة، فمثلًا أن للوالد ما للوالدة من الدرجة وللأخ ما للأخت من الأهمية وللعمة ما للعمة من المنزلة².

كان مال المرأة يملكه زوجها في قوانين الروم والهند، ولكن الإسلام أعطى المرأة الملكية في مالها (سورة النساء: 32) وما كان حق في الميراث للمرأة فقرّره الإسلام لها (سورة النساء: 7) ومحا الإسلام عادة الوأد في العرب (سورة التكوير: 8-9) ولم يرخصوا المرأة أن تنكح بعد زوجها إلا أن يحصلوا منها على مال خطير فألغى الإسلام هذا التقليد (سورة النساء: 19) وكان يأخذ صداق البنت المنكوحه أبوها ولكن الإسلام حولها إلى البنت (سورة النساء: 4) وأمر الإسلام أن يحسن إليها (سورة النساء: 19).

¹ المصدر نفسه، ص 228

² الكلام، ص 160

إن الإسلام أعطى المرأة حق النكاح بعد أن توفي زوجها أو طلقها: الطلاق بعد النزاع الواقع بين المرء وزوجته أمر خطير قد عالجه أمم العالم بطرق مختلفة. وقد فند العلامة شبلي هذه الطرق كلها وأثبت أنها لا تعود بشيء بل كلها باطلة وضالة إلا ما قدم الإسلام من طريقة علاجه.

إن الديانة المسيحية لا يمكن فيها للزوج أن يطلق زوجته إلا أن يثبت عليها أنها ارتكبت الزنا، وفي أوروبا التي صارت اليوم مركزاً للعلم والثقافة تكابد المخالفة بين الزوجين وسوء المعاملة فيما بينهما. قد صارت حياتهما أسوأ حياة وأشنعها لأجل عدم الموافقة فلا يجدان سبيلاً للخلاص من هذه المصيبة إلا إذا قدم الرجل دليلاً في المحكمة على أنها قد زنت وهتكت عرضها، وهكذا يبئ لها أسباب العار والذلة والتحقير أمام أعين الناس. وفي الديانة الهندوسية أيضاً مثل هذا، وأما اليهودية فما كان الطلاق جائزاً بل كان مستحسنًا. كانت اليهود يطلقونها لأدنى خطأ ارتكبته مثلاً: لو ألفت في الطعام ملحاً زائداً على المقدار، أو وجد زوجها امرأة أجمل منها لتزوجها.

والنكاح يكون في الإسلام لغرس المودة والموافقة والصدقة، لا لقضاء الشهوة، وتلبية هوى النفس فقط ولو لم توجد المحبة والمودة والموافقة بينهما فعلى المرء أن ينتظر عسى الله أن يهديها إلى الصراط المستقيم والعدل والمحبة فيما بينهما، وإلا فافترقا بالطلاق الأحسن وبطريقة جميلة معروفة.

وكانوا يحسبونها بعد طلاقها ليؤذوها، أو يسلبوها حقها، من مالها أو صداقها فمنعهم الإسلام عن ذلك وأمرهم بالعدل والإحسان إليها، ويحسبون العار أن تنكح المطلقة غيرهم فمنعهم الإسلام أيضاً عن ذلك وأمرهم لإعطاء حقوقها من الصداق والنفقة خلال فترة العدة وكلفهم أن يتحملوا التكاليف كلها إذا كانت حاملاً فإلى وقت الحمل ثم بعد الوضع إلى سنتين (وقد فصل العلامة ذلك كله تفصيلاً في كتابه "الكلام" مع الدلائل القرآنية). وتحدثى في نهاية الحديث أنه لا يمكن من أي حكيم أو واضع قانون أن يقدم قانوناً عدل وأحسن من قانون الإسلام. ولا يستطيع دين آخر أن يهب المرأة مثل هذه الرحمة والرعاية.

وعلاوة على ذلك نجد كثيراً من رسائل العلامة شبلي التي توجد في مجموعة رسائله (مكاتيب شبلي) في فهم حقوق المرأة ونظريات العلامة عنها. كان المنشيء محمد أمين مدير قسم التاريخ بأمانة بوفال من مكرّمي العلامة وكان ترجماناً وسفيراً بين العلامة وأميرة بوفال السلطانة جهان بيگم وكان يستشير العلامة عن الكتب المطبوعة، ولما خطر ببال الأميرة السلطانة جهان بيگم التي كانت فقيدة المثال في العلم والجدارة أن تتقدّم المرأة في العلم والحرية شاورت الأمين فراجع العلامة شبلي وطلب منه أن يؤلّف كتاباً في موضوع حقوق المرأة وتعليمها وتحريرها أو أن يجمع له المواد للكتابة على هذا الموضوع وأراد أن يتعرّف على نظرة العلامة شبلي عن الحجاب فأجابه قائلاً:

"ممتثلاً بأمر حضرة الأميرة العالمة عن الحجاب أقول إن إحدى مقالاتي قد نشرت على موضوع الحجاب في مجلة "الندوة". هذه المقالة لا تتناول الجانب الديني فحسب بل ناقشت كذلك تاريخ الحجاب في المجتمع العربي. فهي فصل الخطاب في موضوع الحجاب ولا يمكن أن يزيدا أحد أو ينقصها شيئاً. أما ما كتب من رسالتين في مصر باسي "تحرير المرأة" و"المرأة الجديدة" فهما متصفتان بالجودة والانطلاق. وهكذا رسالة "المرأة المسلمة" التي هي ردّ على رسالة "تحرير المرأة" جيدة للغاية. أبحاثها منطقية علمية، والرسائل التي كتبت في الهند بالأردوية كمثّل "حقوق نسوان" وغيرها فهي عادية لا تبلغ المستوى العلمي المعترف به. ونجد في الكتب الأخلاقية القديمة ك"أخلاق محسن" و"إحياء العلوم" أشياء مبعثرة عن تعليم المرأة"¹.

ويبدو من رسالته المذكورة أعلاه أن العلامة شبلي كان خبيراً بالكتب العربية التي ألّفت على موضوع حقوق المرأة وتحريرها وتعليمها بل هي متصفة بالتعمق والتغوّص فيها، وشاهدة بعلو مكانتها، وكان العلامة يعرف جيداً ما كان في الكتب الأردوية من النقائص والعيوب البيانية والكلامية.

ويتّضح من هذه الرسائل أيضاً أن العلامة كان يتفكّر في أحوال المرأة ويهتمّ بتعليمها وتهيئتها وتحريرها، ولذا قرأ الكتب العربية المهمة في الموضوع كمثّل "أخلاق جلال"

¹ مكاتيب شبلي، 1/234

و"إحياء العلوم". إن كبار العلماء كانوا عاجزين عن إدراك هذه المسائل ولكن العلامة قد أشار إلى قضايا المرأة في طيّ هذه الكتب وذلك دليل على شغفه واطلاعه الواسع على أحوال المرأة واهتمامه بتربيتها وتعليمها.

الموازنة بين آراء بعض المهتمين بحقوق المرأة وأحوالها: وممن كان يفكر في قضية المرأة غير العلامة شبلي في الهند أبرزهم السير سيد أحمد خان، ومولانا أبو الكلام آزاد وأميرة بوفال السلطانة جهان بيگم والمنشئ أمين أحمد وغيرهم كما اهتم بها بعض علماء العرب من مثل قاسم أمين وفريد وجدي من مصر، بادئ ذي بدء كان قاسم أمين مؤيداً لحجاب المرأة، ومخالفاً لتحرير المرأة، وسفورها، ولكنه مفاجأة تغير وتبدل وصار مؤيداً وحامياً لتحرير المرأة وسفورها وكتب لتعزيز أفكاره الجديدة كتابين وهما "تحرير المرأة" و"المرأة المسلمة". أثبت فيهما أن المرأة تستطيع أن تتعلم وتثقف وتتساهم وتشارك في الشؤون الاجتماعية خارج البيت مع القيام بالشؤون المنزلية وتربية أولادها¹.

فطارده علماء العصر قاسم أمين وكتبوا الردود عليه وكُتِبَتْ أربع رسائل في مصر، ومنها "المرأة المسلمة" لفريد وجدي. قد أثبت فيها أن مجال العمل للمرأة بيتها فحسب، إن تخرج من بيتها وتساهم في الأمور العامة، تعمل خلاف فطرتها ويفسد كل شؤونها، ولن تبقى امرأة ولا تصير رجلاً، بل تصير شيئاً آخر²، أو جنساً آخر. وفي الهند كان السير سيد أحمد خان يتفكر في تعليم المرأة وتحريرها وكان يكتب ويحرض لإعطاء حقوقها، ويبكي على حالها ويشكو ظلم الرجال على المرأة. ويكتب أن الإسلام أعطاه حقوقها وتثبت بذيل الإنصاف ولكن المسلمين لم يعطوا حقوقها في القرون الأخيرة فلذلك فسدت الأمور الاجتماعية فيما بين المسلمين فهو يكتب:

"والباعث على هبوط أحوال المرأة في الهند وفسادها هو تركهم اتباع الأحكام الإسلامية، فلو اتبعوا الشريعة لقضي على الفساد ولنالت المرأة تقدماً ونمواً"³.

¹ المرأة الجديدة ص 46

² المرأة المسلمة، ص 17

³ سر سيدك اخلاقي مضامين، ص 49

وكانت نظرات السير سيد والعلامة شبلي ومولانا أبي الكلام آزاد سواسية بالنسبة لحقوق النسوة وتعليمهن وتربيتهم وتحريرهن، فكانوا يجيزون للمرأة التعليم العصري، ويقولون: ينبغي أن تساهم المرأة في الشؤون العلمية والثقافية، والاجتماعية والسياسية متبعة بتعاليم الإسلام، ويتفقون على تحرير المرأة إلى حدّ سمحها الإسلام. فكابد هؤلاء المشقات وصاروا عرضاً للاعتراض والنقد اللاذع من قبل بعض علماء عصرهم في سبيل تحرير المرأة لأجل رفع الصوت لتعليمهن وتثقيفهن، حتى اضطر السير سيد أن يكتب خلاف فكره ورأيه:

"بعض أكابرنا يخالفون حجاب المرأة، ولكننا نؤمن بالحجاب ولو يحسبوننا دقيانوسيين ومحبي القدامة، فنحن نخالف أكابرنا ونقول إن الحجاب الرائج في هذا العصر حسنٌ ونافعٌ جداً للمرأة وحرمتها"¹.

ويجمل بنا بهذه المناسبة أن نذكر رأي العلامة بالنسبة لحجاب المرأة فهو يحسبه ضرورياً للمرأة ويقول: لا يخلو أي زمان في الإسلام من الحجاب ولا تساهم المرأة في النوادي الثقافية والبلاط بدون الحجاب. كما يكتب:

"إن الحجاب لا يمنع المرأة عن التعليم، ولم يخلُ أي عصر من عصور الإسلام من حجاب المرأة وما كانت تساهم المرأة المسلمة في البلاط بدون الحجاب، والقول على خلاف ذلك اتهام شديد على الإسلام"².

ولكن مولانا آزاد لم يكن يظنّ الحجاب الحاضر صحيحاً، وكان يزعمه مما لا حاجة إليه ولا عائدة فيه، فهو يكتب:

"وما لم يرفع الحجاب التقليدي¹ عن الهند وما لم تمنح المرأة حريتها التي أجازها الإسلام لا يمكن تعليم المرأة ولا فائدة فيه، بل هو مضرّ لها وللأمة جميعها"².

¹ تذكره سر سيد، ص 134-137

² باقيات شبلي، ص 123

يترشح من آراء هؤلاء العلماء الأفاضل (السير سيد أحمد خان، والعلامة شبلي نعماني، ومولانا أبو الكلام آزاد وقاسم أمين) أنه ينبغي أن يعتني مصلحو القوم ومفكروهم بتعليم المرأة وتحريرها، وينجّوها من قعر المذلة والضعف ويخرجوها من براثن الرجال وظلمهم ويعرّفونها بنور العلم أو الثقافة والشعور والإحساس، ويخبرونها أنها جزء مهم للمجتمع البشري، ينوط بها صلاح الإنسانية وفسادها ولا يمكن تشكيل المجتمع الصالح المثقف بدون تعاونها وصلاحها.

نظرة العلامة شبلي عن تعليم المرأة: وكان العلامة يرى أن تعليم المرأة ضروري لتكوين المجتمع الصالح وتصييرها مزدانة بحلي العلم والثقافة كالرجال لأنها جزء مهم للمجتمع ولا ينبغي أن يغض النظر عن تعليمها، وما كان يوافق السير سيد أحمد في أن تتعلم المرأة أولاً علوم المذهب وأن نرجّح الرجال على النسوة في تثقيفهن³ فهو يقول:

"لا يحق للرجال أن يعيّنوا أنواع التعليم للمرأة، أي هذا التعليم ينبغي لها وذلك لا ينبغي لها، كانت المرأة ولا تزال ضعيفة متخلفة في كل زمان ومكان، ولو كنتم تزعمون أن التعليم العصري ضروري للرجال دون النساء، فزعمكم باطلٌ لأن تعليم الرجال لا يمكن بدون تعليم المرأة، لأنها هي تبدأ تعليم أولادها في حضنها"⁴.

ينبغي لنا أن نضع الفرق بين أعمار كلا الرجلين وهو نحو أربعين سنة. موقف السير سيد هذا كان قبل ثورة 1857م وكان تعليم الرجال في ذلك الزمان محدوداً في بعض الأسر، ينبغي للسير سيد أن يحدّد مجال عمله التعليمي في الرجال أولاً دون النساء، وجاء العلامة شبلي بعده بأربعين سنة، والزمان قد تغيّر في هذه الفترة، فنشأت

¹ ولعل الحجاب التقليدي يعني الحجاب الذي تروّج في الفترة ما بين نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين للميلاد فلم تكن النساء يتحدّثن مع الرجال حتى في حاجة شديدة وكانت نسوة الشرفاء يتحجّبن عن النساء اللاتي يخرجن.

² علي كره منثلي، 1/19-20 نوفمبر 1903م

³ خطبات سر سيد، 2/224

⁴ باقيات شبلي، ص 122-123

النهضة التعليمية بالنسبة للرجال فأكد العلامة على تعليم النساء فهذا الفرق بين رأي العلامة والسير سيد طبيعي لمقتضى الزمان، ولا تضاد بين رأيهما.

والموقف الذي اختار العلامة بالنسبة لتعليم المرأة وتربيتها ذكره في كتابه "سفرنامه روم ومصر وشام" ويناسبنا في هذا الموضوع أن نذكره: كان العلامة في موقفه هذا معتدلاً ومنصفاً يكره الإفراط والتفريط في تعليم المرأة وتربيتها كما يرى ذلك في ملل أوروبا وآسيا ففي أوروبا تحصل المرأة على العلوم الدينية والعصرية وليست في حظها علوم الدين والأخلاق فتنجذب وتميل إلى التبرج والسفور والرقص والوقاحة والدعارة والاختلاط بالرجال وفي آسيا قد حبست المرأة في دارها ولا تعرف ما وراء أسورة الدار، ولا تخرج من البيت خوفاً من السفور للتعلم والتعرف على العلوم الدينية والدينيوية، فتبقى جاهلة ولكن طور الأتراك يجمع العلوم العصرية والدينية فهناك المرأة تتعلم جميع العلوم وتساهم في الأندية العلمية والثقافية ولكنها مع ذلك تعني بالحجاب والشؤون الدينية الأخرى، فكان العلامة يحبّ طريق التعليم والتربية للمرأة عند الأتراك وهو الطريق الذي يجمع بين القديم الصالح والجديد النافع، ويخلو عن عيوبهما ويجمع محاسنهما. فيكتب في رحلته هذه:

"وما ينبغي لنا تقليده من ثقافة الأتراك هو طريق تعليم المرأة فهم يعلمون بناتهم جميع العلوم العصرية والدينية ولكن بناتهم لا يخرجن سافرات بل يهتمن بالحجاب ويبعدن عن السفور والتبرج والدعارة ولا يمارسن الرقص والاختلاط بالرجال، وإن كن يشاركن في الأندية العلمية والاجتماعية ولا يتأخرن من الرجال في أي ميدان ولكنهن يلزمن الحجاب في كل أحوالهن وشؤونهن ولم يصرن كالأوربيات على طرف من الوقاحة والتبرج والرقص والسفور ولا كالأسيائيات اللاتي يحتبسن في بيوتهن ولا يدرين ما يقع وراء أسوار دورهن ويصرن جاهلات محضة كالحيوان الأعشى. وعند الأتراك مدارس وكليات وجامعات كثيرة في كل مدينة وقريّة وهي ذاتية وحكومية معاً، وفيها اهتمام بالحجاب والصيانة للبنات فلا يتأمل الشرفاء في إرسال بناتهم إلى هذه المعاهد لوثوقهم بها"¹.

¹سفرنامه روم ومصر وشام، ص 111

اتضح مما سلف أن العلامة يناصر تعليم المرأة للتوسيع في الفكر والتعرف على أخبار العالم، مع التدين والتمسك بالإسلام والإيمان والتقليد بالأحكام الشرعية ويخالف التعليم الذي يسبب فيه الوقاحة وعدم الوقار والرزانة ويذهب به إلى الرقص والتبرج، ويجيز العلامة للمرأة الخروج للحصول على العلوم مع الحجاب والوقار والنزاهة. فالمرأة الجاهلة لدى العلامة "كالإنسانة المشابهة للحيوان، والمحبوسة في قفس الدار، والتي لا تعرف شيئاً مما يجري في بيئتها، وراء أسورة دارها، وهي عارية عن الأفكار والعلوم.

موقف العلامة شبلي من المقررات الدراسية للمرأة: كان العلامة قائلاً بالمساواة بين المرء والمرأة ولا فرق عنده بين موهبتهما في العقل والطبع وكذلك في صلاحية العلم والأخذ والاستنباط وهي تقدر أن تمشي مع الرجل في مجال العلم والتحقيق والأدب والانتقاد والفكر والفن، ولا نقص في خلقها ليكون لها منهج خاص للتعليم غير منهج الرجال. فالمنهج التعليمي للرجال والنساء ينبغي أن يكون واحداً لأن المرء والمرأة ليسا نوعين مختلفين.

وكان العلامة كتب رسالة إلى السيدة عطية فيضي ذكر فيها بصراحة:

"إني لست متفقاً على أن يكون منهج التعليم مختلفاً للرجال والنساء إلا في الأمور المختلفة للنساء كالرضاعة وتربية الأولاد وغيرهما من الأمور التي تضاف إلى المنهج التعليمي للنساء. وهذا خطأ أساسي ابتليت بها أوربا أيضاً، علينا أن نضيّق الخليج الذي وقع بينهما لا أن نوسّعه، ولولا ذلك لاختلفت أطوار تكلمهما، وطرق مشيهما ونطقهما، وأسلوب قعودهما وقيامهما، وذوقهما ولغتهما، وهكذا يكونان نوعين مختلفين"¹.

السبب وراء الظلم على المرأة: قال العلامة شبلي إن ظلم المرأة سببها أن الرجال يزعمون أن النساء محكوم عليهن، ويظنون أنفسهم قادة وقوامين على النساء وأنهم

¹ مولانا أبو الكلام آزاد اور ان کے چند بزرگ دوست وعقیدت مند، ص 59

خلقوا للحكم عليهن، فسبب جميع مظالمهم عليهن أنهن كن محتاجات إليهم. يكتب في رسالة إلى مولانا أبو الكلام آزاد¹:

"مهما كان ظلم الرجال على النساء سببه ليس إلا أنهن كن محتاجات إليهم منذ فجر التاريخ"².

دلالة على الدرجة العالية للمرأة: يقول العلامة إن النساء راسخات في الأمور الدينية، ويتمسكن بصورة مستقلة بالشعائر الإسلامية ولا نشهد هذا التمسك في الرجال إلا قليلاً، وأثبت العلامة بشواهد تاريخية أن المرأة لها رتبة فائقة في التمسك بالدين وشعائره فنحن نحترمها ونكرمها. وقد نشر العلامة رسالة إلى النساء باسم "حرمة سيدات الملة وذكرهن" في "الندوة" أغسطس 1908م بالنسبة للتعاون والدعم المالي لهذا المعهد يعرف بها ما في قلب العلامة من الإكرام والإعزاز للنساء فيكتب العلامة مشيراً إلى مكانة المرأة السامية مستمداً بالدلائل التاريخية والشواهد الدينية.

"للمرأة نصيب وافر في الشعائر الدينية والتمسك بأحكام الإسلام، لا يمكن أن يحظى به الرجال، فالسعي بين الصفا والمروة الذي هو ركن عظيم في الحج تذكراً وتقليداً لسيدتنا هاجرة عليها السلام، وأن أصل الإسلام ومنبعه "مكة" سمّاها الله بأمر القرى وكذلك الآيات المحكمات في القرآن سمّاها بأمر الكتاب وتدعى الكعبة بلقب "الحرم" وتلقب النساء أيضاً بهذا اللقب وكذلك نزل من الله سورة مستقلة باسم "النساء" مختصة بأحكام النساء وشؤونهن وما أنزل سورة باسم الرجال فاتضح بذلك أن للمرأة مكاناً عالياً في التمسك بأمر الدين وشعائره ورتبه مخصصة فيه ولها التقدم في الإخلاص والهيام بأمر الدين لا يصل إلى معشاره طبقة الرجال"³.

¹ خطوط شبلي بنام آزاد، ص 22

² لم يرد بها سوى النسوة اللاتي يحرمن حرية التعلم وإلا فلم يكن شبلي ينكر قوله تعالى "الرجال قوامون على النساء".

³ خطوط شبلي بنام آزاد، ص 33

التعليق على كتاب "المرأة المسلمة": عندما كان العلامة في علي كره بدا تغير في أفكاره وشرع يرغب في شؤون المرأة وقضاياها، وبدء يذكر في كتبه "المأمون" و"سيرة النعمان" و"الرحلة" قضايا المرأة التعليمية والفكرية، وبعد أن استقال عن علي كره سنة 1998م توجه إلى حيدرآباد وكشمير، وأثناء قيامه في حيدرآباد شغف بالموضوعات الأدبية والكلامية¹ وكان قد جمع المواد التاريخية بالنسبة لحقوق المرأة وعدالتها، كأنه بدأ في ذهنه أن يتغي للمرأة أيضاً أن تتعلم وتثقّف وتساهم في مجال العلوم والآداب، وقد ودّعت الفطرة في طبيعتها أن تتقدّم في كل شعبة من شعب الحياة جنباً بجنب الرجال، وهي ليست أقلّ وأقصر من الرجال في أي شيء من شؤون الحياة، وينبغي أن يهيؤوا لها الفرصة والتحرر لكسب العلوم والفنون ليصلن إلى المناصب العالية من الشعور والفكر ويدلّ على ذلك بعض الرسائل التي كتبها إلى السيدة عطية فيضي. وقد شرف العلامة ندوة العلماء بقدمه إليها في بداية 1905م وفي هذه السنة قد لاقى مولانا أبا الكلام في ممبائ، ووجه إليه الدعوة إلى مجيئه في ندوة العلماء، وطلب منه أن يكتب المقالات العلمية لمجلة "الندوة". وكانت ترد في ذلك الزمان الكتب والمجلات من مصر إلى العلامة شبلي وكان من بين هذه الكتب كتاب "المرأة المسلمة" للسيد فريد وجدي، وهذا الكتاب قد جمع بين دفتيه فلسفة الحال وأحكام الإسلام²، وقد سعى المؤلف فيه أن يطبّق بين فلسفة الحال وأحكام الإسلام، وقد تأثر العلامة بأسلوب كتابته وطور بيانه، فأراد أن ينقل هذا الكتاب إلى الأردوية ليستفيد الهنود أيضاً بهذا الكتاب الغالي المفيد ويستخبروا عن مسائل المرأة. فاختار العلامة لهذا العمل مولانا أبا الكلام آزاد، فترجمه مولانا آزاد وعلّق عليه ونشرت ترجمته هذه بتعليقاته في عدد نوفمبر وديسمبر 1905م لمجلة "الندوة". فطار صيتها في جميع البلاد³ وكانت هي بليغة مؤثرة في النفوس. يدل ذلك كله على شغف العلامة بقضايا المرأة.

¹ يادگار شبلي، ص 230

² مقالات شبلي، 5/129

³ حيات شبلي، ص 444

العدد الخاص مجلة الهند

فحقّق أمله ذلك بالإدلاء بتعليقاته على بعض المقالات العربية والكتب وكتابة سير بعض النساء وتراجمهن ونشرها بين الشعب الهندي وسيأتي بيانه بالتفصيل.

قد كتب العلامة في نهاية 1905م مقالة بعنوان "الملل والنحل وابن حزم الظاهري" ونشرها في مجلة "الندوة". نقل فيها بعض أفكار ابن حزم الظاهري التي كانت جديدة وبديعة بالنسبة للمرأة وقال: يمكن لقارئ أفكار ابن حزم أن يتفق معها أو يختلف عنها، ولكن يستدل بها أن المتفقين مع مثقفي زماننا الجدد كانوا موجودين في قديم الزمان. ثم قال في نهاية هذه المقالة:

"في هذا الكتاب آراء بديعة مثلاً: هل يمكن أن تكون المرأة نبيّة أم لا؟ وإني لا أعلم عن أحد أيّده حتى الآن إلا أن الظاهري قد ادّعى أن المرأة يمكن لها أن تكون نبيّة، فكتب على هذا الموضوع بالتفصيل مستدلاً بآيات القرآن"¹.

ثم كتب العلامة أن الظاهري فنّد رأي من قال إن النساء أقل رتبة من الرجال مستدلاً بالآيات البيّنات ويدخّض من أوّل الآيات القرآنية التي يستدل بها على فضل الرجال على النساء.

بلاغات النساء: قد صنّف هذا الكتاب أحمد بن طاهر البغدادي في القرن الثالث الهجري ولما عثر العلامة على هذا الكتاب علّق عليه في مجلة "الندوة" وأكد فيه أنه لم تكن النساء في بدء الإسلام يقمن بأعمال المنزل وتربية الأطفال فحسب بل كنّ يساهمن في كل شعبة من شعب الحياة وفي كافة الشؤون الاجتماعية ويشاركن في الشؤون السياسية وإدارة البلاد ومعارك المناظرة.

وقد خرجت النساء في الحروب التي قامت بين علي ومعاوية راكبات على الجمال ويملأن قلوب الرجال حماساً وشجاعة بخطيهم ورجزهن فتتغالي قلوبهم ويندفعون إلى ساحة الحرب ويتقاتلون ولا يبالون أ يكون فيها حتفهم أو سواها.

يشكو العلامة بالنسبة للتاريخ الإسلامي والتمدن الإسلامي حتى الشريعة الإسلامية الموجودة أنها لا تعطي صورة صحيحة للإسلام، مثلاً لا يمكن لنا أن نعرف جيداً

¹ مقالات شبلي، 4/41

العدد الخاص مجلة الهند

بالتاريخ الحاضر أن النساء كنّ على درجة عالية من الكمال والفضل وإلقاء الخطب والشعر في القرون الأولى وكان الناس يستفيدون ويتمتعون بها جيلاً بعد جيل. وكان العلامة يتفكّر في تأخر النساء وبعدهن عن مجال العلم والأدب ويقول إن العلم والفضل والكمال ليس ملك نوع خاص من البشر دون آخر، وليس مختصاً بالرجال دون النساء ولو كان كذلك لما برز هذا الكتاب (بلاغات النساء) إلى حيّز الوجود. انتقد العلامة هذا الكتاب وعلّق عليه، ولم يتفق مع الكتاب كله بل اختلف في بعض الأمكنة مثلاً يكتب بالنسبة لخطب السيدة فاطمة الزهراء والسيدة حفصة:

"والحق أن هذه الخطب ليست موثوقاً بها، لأنها تشتمل على الأفكار والكلمات والأساليب التي كانت مفقودة في ذلك الزمان".

ويمضي قائلاً:

"يا للعجب! إن هذا النوع من خطب فاطمة الزهراء قد نقل في جميع الكتب الموثوق بها لعلماء الشيعة، الذي يوجد فيه كثير من الكلمات الجديدة حتى كلمة "الهيولى"¹. همايون نامه: وقد كتب العلامة مقالة باسم "همايون نامه از گلبدن بيگم" (كتاب همايون نامه لگلبدن بيگم) قبل كتابة مقالة "بلاغات النساء" وكان الحافز على كتابتها استفسارُ عميدِ جامعة علي كره بالنسبة لهمايون نامة والحال أن السؤال قد طرحته عليه سيدهُ من لندن. يكتب العلامة في بداية هذه المقالة قائلاً:

"إن سحاب أوروبا المدرار العلمي يصبّ ماء الحياة؛ تحفر جميع العلوم الميته وتزيّن المعارض بالحفريات العجيبة والجواهر المفقودة كأن الزمان القديم قد رجع القهقري مرة أخرى ويساهم في هذه الأثغال النساء مع الرجال فالنساء اللاتي يحسبونهن رجالاً بلادنا دمى وزينة لعيشهم فقط أمثالهن في أوروبا يشاركن بكل أهبة وحماس في مجال العلم والكتابة المختص بالرجال منذ فجر التاريخ"².

¹ المصدر نفسه، ص 13

² المصدر نفسه، ص 54

كتاب "همايون نامه" قد ألفه الأميرة گلبدن بيگم وقد ذكر العلامة فيه قدرة الأميرة على الكتابة، والذوق التاريخي لها، وطول باعها في الحكمة والعلم والتحقيق والتعليق بالتفصيل. وقد ذكر فيه ما كان من التمدن والاجتماع من الأوضاع والظروف، وقد ذكر فيه الأمور التي كانت مختصة بالنساء مثلاً:

1. ما كانت النساء يتعلمن في ذلك الزمان القراءة والكتابة فقط بل كنّ يتعلمن علم التنجيد وفن الموسيقى أيضاً حتى أن بعض النساء كنّ يلبسن ثياب الرجال.
2. كنّ كريمات لدى الرجال.
3. كنّ يخترن أزواجهن لأنفسهن ولا يجبرن في أمر نكاحهن.
4. ولكن، على الرغم من هذا التحرر، كنّ يتبرقعن ويحتجبن ولا يخرجن سافرات أمام غير محارمهن¹.
5. ويسشترن بهن في الأمور السياسية، والمشاورة بهن كانت لازمة في كل نوع من الخطوب.

قد قارن العلامة شبلي بين النساء في القرون الأولى والنساء الإفرنجيات والنساء الحاضرات وبين الفرق الواضح الذي يوجد بين الفريقين، وقال: ينبغي للنساء أن يساهمن في كافة شؤون الحياة بالحريّة والعزيمة والحماس، ولكن لا يخرجن سافرات كالإفرنجيات بل كنساء القرون الأولى اللاتي كن يشاركن في النوادي العلمية والثقافية والسياسية بالتزام الحجاب.

زيب النساء: كان العلامة يهدف أن يلغي بكتابات ما نشرته الإنجليز من الاتهامات بالإسلام والمسلمين، يشاهد ذلك كله في كتاباته ومقالاته وقد كتب بعضاً منها لهذا الهدف الخاص ومنها مقالته "زيب النساء". قد نشرت هذه المقالة باللغة الإنجليزية في مجلة "إندين ميگزين ايند ريويو" على ترجمة حياة الأميرة زيب النساء ما كانت مشحونة بالأكاذيب والقصص الخرافية، كما قال العلامة شبلي كيف نشرت هذه المجلة مثل هذه الأكاذيب والأباطيل، وبعض الأحوال المنسوبة إلى الأميرة كان غير

¹ المصدر نفسه، ص 60-63 (بالتلخيص)

موثوق به¹ ولا ينبغي أن يعتبر به، فعزم العلامة أن يكتب مقالة على سيرة زيب النساء لتزول الظنون عن أخلاق المسلمين وسيرتهم ومعاشرتهم وينتهي سوء الظنون بهم، كما يقول:

"سبب شيوع خطايا الإنكليز وإساءتهم الظنون بين المسلمين أن أحدًا من المسلمين لا يعاقبهم ولا يفند آرائهم الفاسدة، وإن يفندوا فهو بلغة لا يفهمها الإنكليز، فتشيع الأكاذيب مرة بعد أخرى بصورة مستمرة وتنشأ الأفكار القبيحة بالنسبة لأخلاق المسلمين وسيرتهم"².

ونصرف النظر عن هفوات الإنكليز عن هذه السيدة المسلمة مخافة التطويل، ولكن يحسن بنا أن نذكر أن العلامة قد أثبت بالماخذ الموثوق بها أن الأميرة كانت طاهرة ذات علم وفضل ومتصفة بالقناعة والصبر، فحقق أنها كانت حافظة للقرآن وحصلت على الدراسة العليا من العربية والفارسية، وكانت شاعرة وكاتبة قادرة. وكان أستاذها في الشعر الفارسي الملا سعيد، وكانت تبتعد عن السياسة، يمنعها عن ذلك تعليمها وذوقها الذاتي، ولكن لم تستطع أن تجتنب الاتهامات السياسية في عصر أورنگ زيب المعقد، وبالجملة فقد بين العلامة في هذا الكتاب كمالها العلمي وأخلاقها الحسنة وسيرتها الوضاعة وحبها للعلم والعلماء وذوقها الثقافي والعلمي، بالأدلة والبراهين. فصارت أباطيل الإنكليز هباءً منثورًا. يريد العلامة أن يذكر موهبة زيب النساء وفضلها في العلوم والثقافة أن يقدم نموذجًا من العهد الإسلامي للمرأة المسلمة في هذا العصر كيف كانت النساء يتحلين بالعلم والكمال.

تأليف "ترجمة السيدة عائشة" وإرشاد العلامة شبلي إليه: نشأت فكرة تأليف ترجمة السيدة عائشة في قلب السيد سليمان الندوي في السنة الأخيرة من دراسته الرسمية فكتب رسالة إلى أستاذه العلامة شبلي النعماني في سنة 1906م وأخبره عن فكره واستمهاده في ذلك فشجعه العلامة على هذا الأمر، وأخبره عن الكتب التي يراجع إليها فكتب إليه مشيرًا عليه:

¹ المصدر نفسه، 100/5

² المصدر نفسه

"كما أنت تعلم أنك تجد بعض المواد المطلوبة في "أسد الغابة" وغيره ولكنه لا يكفي لعملك فينبغي لك أن تقرأ المسانيد وكتب الأحاديث الأخرى".¹

وما هداه إلى تأليف "سيرة عائشة" بل أكد لتكميله وهو يريد أن يصل هذا الكتاب إلى أيدي الناس ويقف جميع أهل الهند على كمالها العلمية والفقهية والأخلاقية وعلى ذلك كانت حكومة بوفال العالية تتعجل لتكمل هذا الكتاب وتكتب لذلك إلى العلامة باستمرار كما يبعث رسالة من مومبائ إلى تلميذه السيد سليمان الندوي في 30/ يونيو:

"وصلت إليّ رسالة من بوفال وقد شدّد الطلب من حكومة بوفال أن تتمّ الجلد، أنت مشغول في ذلك منذ مدة طويلة، ومن قبل كنت تنتظر الكتاب "استدراكات الصحابة" فبعثته إليك فالآن لماذا تؤخر العمل، اكتب سبب التأخير بصراحة، وما يكون قدر صفحاته، هل كتبت "المجتهدات" أم لا؟ وإني أخبرك أن الأميرة تقدّم إليك مكافأة مناسبة لخدمتك، وهي تريد أيضًا أن تكتب تراجم الأزواج المطهرات جميعًا ولكنها تستعجل وأنت لا تجد الفرصة. إني أعرف بعض الأمور خاصة من حياة عائشة ولو أني أرى مسودتك من الكتاب أظهر لك رأيًا مني".²

وكان يريد العلامة أن تكتب اجتهاداتها الفقهية والكلامية بالشدة والتأكيد، لتتجلى شخصيتها أمام الناس، فيكتب في رسالة إلى تلميذه السيد سليمان الندوي:

"ينبغي لك أن تكتب اجتهادات عائشة بالقوة والاستدلال، أي طريق الاستدلال والبيان يكون قويًا مؤثرًا".³

الإرشادات بالنسبة للمأخذ: أكثر روايات الصحاح الستة بالنسبة للسيدة عائشة ساقطة غير موثوق بها لاسيما كل ما يتعلق بالشؤون الزوجية، فما تفعل في حل هذه العقدة. إني أريد أن أكتب بحثًا مستقلًا بهذا الموضوع في كتاب "سيرة النبي" أثبت فيه أن مثل هذه الروايات كلها عن دسائس منافقي المدينة المنورة ولا نرجو منهم غير تلك".

¹ سيرة عائشة، ص 11

² المصدر نفسه والصفحة ذاتها

³ مكاتيب شبلي، 116/2

ويكتب في رسالة كتبها في 3/ يوليو 1914م:

"عندي مسند عائشة سأعطيه لك وفي "الطبقات" كثير من الخرافة واللغو بدون فائدة تعود، يكفيك صحيح البخاري وصحيح مسلم، وصحيح أبي داود ويمكن لك أن تحصل على هذه الكتب من أي مكتبة"¹.

وفي نفس الرسالة يشير إلى تفردات السيدة عائشة:

"لو رأيت ما كتبت من مجتهداتها لأخبرتكم ما تزيد فيها، وهي أبدعت فن الدراية، تستطيع أن تكتب ذلك بالبسط ولها حظ وافر في الفقهيات والاعتقادات".

ويكتب في 6/ يوليو 1914م من مومباي:

"يحتوي أكثر المسائل في الترمذي على توضيح المسائل الاجتهادية للسيدة عائشة، أجمعتها في مكان أم لا؟ وعندي فهرست مكتوب بيدي فيه معلومات مختصة بالسيدة عائشة، هل عندك ردّ على ما ورد عليها من الاعتراضات"².

تشير المقتبسات من هذه الرسائل إلى أن العلامة شبلي كان يهتم بأمور النساء ويتفكر دائماً لتعليمهن وكان يريد أن يقدم لهن نموذجاً من نساء القرون الأولى ولما تهيأ السيد سليمان الندوي لكتابة ترجمة الحرم النبوي السيدة عائشة رضي الله عنها، شجّعها في كل مرحلة وهداه إلى المآخذ ليكون مثلاً رائعاً للنساء المعاصرات في العلم والعمل والتقوى والديانة والفكر العالي والفقه والطهارة، لا يكون نموذجاً للنساء فحسب بل للرجال أيضاً. أراد العلامة أن يفيد أن الكمال ليس بخاص بالرجال فحسب بل بالنساء أيضاً وهن يستطعن أن يصعدن إلى درجة الكمال، بالتعليم والأخلاق الفاضلة.

اطلاع العلامة شبلي على قضايا النساء: قد سبق أنه لما فكرت أميرة بوفال في تحرير النساء والحجاب والتعليم لهن، شاورت "مهتمم الرياسة" للسيد محمد أمين الزبيري والذي بدوره راجع إلى العلامة شبلي. سندرج فيما يأتي بعض الرسائل التي

¹ المصدر نفسه، ص 117

² مكاتيب شبلي، 2/131

العدد الخاص مجلة الهند

يعلم منها دقة نظر العلامة واطلاعه على قضايا النساء، وأشار إلى كتب لا يتصور أن تكون فيها القضايا النسائية فيكتب، مثلاً، في إحدى رسائله:

"إني مستعد كل الوقت لأموركم ومما يفيدكم من الكتب هي: الإصابة (المجلد الأخير) وابن خلكان ونفح الطيب والعقد الفريد. والبقية كلها غير مفيدة، وقد كتب في مصر كتاب قد انسل اسم من ذهني، وهو ضخيم جداً".

وذكر، في رسالة كتبها في 6/ يونيو 1913 م، اسم ذلك الكتاب عندما حضر اسمه في ذهنه: "نعم اسم الكتاب الذي أشرت إليه والذي يحوي قضايا النساء هو "الدر المنثور في ربات الخدور". فيه أحوال نساء العالم كله، وهذا الكتاب للكاتب المصري المعاصر"¹.

ويذكر في رسالة كتبها في 9/ نوفمبر 1913 م عوائق طريق الكتابة:

"لا تجد في كتاب واحد كل المواد لقضايا النساء، بل تجدها منتشرة في الكتب المختلفة ويصعب عليك جمعها، سل عبد السلام فإني أخبره عن مواقعها"².

وبالجمله فكانت أفكار العلامة شبلي هذه بالنسبة لتعليم النساء قد عُرِضَتْ قبل قرن واحد ولكن فائدتها باقية حتى الآن، ورثتها بطريق حسن جذاب، واختلف مع السير سيد أحمد خان فيما كتب بالنسبة لتحرير المرأة وتعليمها وفيما قال ينبغي للنساء أن يتعلمن في الحال دينهن وأن التعليم العصري يبدأ به الرجال أولاً دون النساء³.

واضطر العلامة شبلي المثقفين الهنود في أنحاء البلاد أن يفكروا ويهتموا بتعليم النساء، وطَبَّقَ بين القديم والجديد وأثبت أن النساء يستطعن أن يساهمن في كل مجال من مجالات العلم والأدب والانتقاد مع الرجال ويريد أن يتحلين بالعلوم العصرية مخلصاً من أعماق قلبه.

¹ مكاتيب شبلي، 244/1

² المصدر نفسه، ص 250

³ سر سيد اور شبلي، ص 272

المصادر والمراجع

1. أبو سلمان الشاهجهانفوري: مولانا أبو الكلام آزاد اور ان کے چند بزرگ دوست وعقیدتمند (مولانا أبو الكلام آزاد وبعض أحبته المكرمين)، باكستان، سنة الطبع لم تذكر
2. السيد سليمان الندوي: حیات شبلي، دار المصنفين، أعظم كره، 1943م
3. السير سيد أحمد خان: سر سيد کے اخلاقي مضامين (مقالات السير سيد الخلقية، ترتيب: المنشي عبد الرحمن شوق)، امرتسر، 1914م
4. الشيخ محمد إكرام: يادگار شبلي، إدارة دائرة معارف إسلامية، لاهور، 1971م
5. الشيخ محمد أمين الزبيري: تذكره سر سيد، لاهور، سنة الطبع لم تذكر
6. العلامة شبلي النعماني: المأمون، نيشنل بك فاؤنڈيشن، إسلام آباد، 1989م
7. العلامة شبلي النعماني: خطوط شبلي بنام آزاد، بهار اردو اكيدي، بتنه، 1989م
8. العلامة شبلي النعماني: سفرنامه روم ومصر وشام، دار المصنفين، أعظم كره، 1999م
9. العلامة شبلي النعماني: سيرة النعمان، دار المصنفين، أعظم كره، 1936م
10. العلامة شبلي النعماني: مكاتيب شبلي (ترتيب: سيد سليمان الندوي)، دار المصنفين، أعظم كره، 1916م و1917م
11. مجلة "الندوة" الشهرية الصادرة عن ندوة العلماء بلقناؤ
12. محمد فاروق ديوا: سر سيد اور شبلي (السير سيد والعلامة شبلي)، هرغام شوبيان، كشمير، 1998م
13. مشتاق حسين (ترتيب): باقيات شبلي، آزاد كتاب كهر، دلهي، 1965م

العلامة شبلي النعماني والمستشرقون، دراسة نقدية

- أ. د. عبد العلي¹

ترجمة من الإنجليزية: د. هيفاء شاكري²

ولد العلامة شبلي النعماني في مايو 1958م في بندول وهي قرية صغيرة تبعد ثمانية كيلومترات من مدينة أعظم كره في أوترا براديش، حيث كان أباه الراجبوت يعيشون كإقطاعيين منذ ثلاثمئة سنة وكان والده الشيخ حبيب الله عضوًا متميزًا في نقابة المحامين في أعظم كره وإقطاعيًا كبيرًا وتاجرًا. تم تعليم شبلي على الطريقة الإسلامية التقليدية فتعلم قراءة القرآن ودرس اللغة الفارسية في منزله. ثم تم تسجيله في مدرسة حنفية في جونفور بعد ذلك بعثه والده إلى العلامة محمد فاروق التشرياكوتي في غازيفور ودرس العلوم العقلية. ويعترف له العلامة لدوره الكبير في بناء شخصيته وحياته المستقبلية. وبعد فترة قصيرة عندما انتقل العلامة التشرياكوتي إلى أعظم كره للتدريس في المدرسة التي أنشأها والد شبلي صحبه شبلي وتعلم على يديه في أعظم كره³.

وبعد إنهاء تعليمه في أعظم كره سافر شبلي إلى لكاناؤ لإكمال دراسته لدى الأستاذ عبد العلي من فرنغي محل، لكنه حسه النقدي الشديد لم يمكنه من تعلم شيء من معلمه الجديد، ثم رحل إلى رامفور حيث درس الفقه الإسلامي لدى الأستاذ إرشاد حسين وقاده شوقه للعلم إلى لاهور حيث تخصص في اللغة العربية وآدابها لدى الأستاذ فيض الحسن السهارنفوري وكان بروفيسورًا في كلية لاهور الشرقية وبعد عودته من لاهور تخصص في الحديث عند الأستاذ المحدث أحمد علي من سهارنفور.

¹ أستاذ، قسم الدراسات الإسلامية، جامعة علي كره الإسلامية، علي كره

² أستاذة مساعدة، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة المليية الإسلامية، نيودلهي

³ Great Personalities in Islam لبدر العظيم آبادي، آدم بيليشرز، نيودلهي، 2004م، ص 391-392

العدد الخاص مجلة الهند

وزار ديوبند أيضًا حيث درس علم الفرائض وبعد إكمال تعليمه الرسمي قام بأداء فريضة الحج مع والده وأقارب آخرين في عام 1876م وبعد عودته من مكة درس وتقدّم لامتحان القانون حسب رغبة والده على الأغلب ولسوء الحظ رسب في محاولته الأولى بينما نجح أخوه الأصغر مهدي في نفس الامتحان ومع ذلك تقدّم للامتحان مرة أخرى مع الاستعداد الكامل ونجح في عام 1880م. وبدأ العمل كمحامٍ في أعظم كره عام 1881م. ولم يكن مقتنعًا بعمله في أعظم كره فذهب إلى بستي في عام 1882م وعمل كمحامٍ لفترة قصيرة، ولكن محنة المحاماة لم تكن متجانسة مع طبيعته فترك تلك المهنة سريعًا وذهب إلى علي كره¹. وخلال مكوثه مع أخيه الأصغر مهدي حسن والذي كان طالبًا في كلية AMO تم تعريفه إلى السير سيد أحمد خان الذي تأثر كثيرًا بثقافته وسعة معرفته. وتقدّم شبلي بطلب ليكون أستاذًا مساعدًا للغة العربية والفارسية في الكلية بتوصية من أستاذه فيض الحسن السهارنפורي والذي كان أستاذًا للسير سيد أيضًا².

أثر السير سيد على شبلي: عيّن شبلي كأستاذ مساعد للعربية والفارسية في 1/ فبراير 1883م وعمره 25 عامًا براتب يبلغ 40 روبية شهريًا فقط. وبعد ثلاث سنوات بعد وفاة الشيخ محمد أكبر تمت ترقيته إلى درجة بروفييسور في العربية براتب شهري يبلغ 70 روبية وبقي زميلًا ورفيقًا للسير سيد لمدة ست عشرة سنة واستفاد كثيرًا خلالها من حركة علي كره التي بدأها السير سيد أحمد خان. ودخوله إلى المكتبة الغنية للسير سيد فتح أمامه آفاقًا جديدة من المعرفة والتي لعبت دورًا جوهريًا في بناء شخصيته ككاتب ومفكر³.

والفرصة الكبيرة التي حصل عليها العلامة شبلي في علي كره أنها أصبحت مجمعًا أكاديميًا للشرق والغرب. وبسبب معلّمه الخاص السير سيد أحمد خان توقّرت له الكتب المتعلقة بالإسلام والدول الإسلامية التي كانت تطبع في الدول الغربية بالإضافة

¹ المصدر نفسه، ص 393

² المصدر نفسه والصفحة ذاتها

³ Mohammad Shibli Nomani لجاويد علي خان، دار المصنفين، أعظم كره، 2004م، ص 9

إلى ذلك كان علي كره المركز الوحيد في الهند والذي تصل إليه الكتب العربية المطبوعة حديثاً في مصر بانتظام وكانت مصر قد أصبحت القائد الأكاديمي للدول العربية خلال النصف الثاني للقرن التاسع عشر. وبينما حصل العلامة شبلي على الفرصة الذهبية لدراسة هذه الكتب بقي علماء الدين في الأجزاء الأخرى من الهند جاهلين بها وبذلك أصبح عالماً بالأفكار والبحوث في الدول العربية والعالم الغربي الحديث. ولم توسع هذه الكتب أفقه الفكري فقط بل غرس في ذهنه حب التاريخ الإسلامي والتراجم وانهز أيضاً فرصة اتصاله مع بعض الأكاديميين المعروفين في ذلك الوقت منهم البروفيسور أرنولد الذي مكث في علي كره لسنوات عديدة ولم يكن شبلي متأثراً بهم فقط وإنما رصد أيضاً مصادر تعلمهم الأكاديمي¹.

إصداراته: كان العلامة شبلي مؤلفاً كثير الإنتاج، ألف كتباً في اللغات الثلاث التي كان ماهراً بها الأردية والعربية والفارسية:

أعماله في اللغة الأردية: مسلمانون كي كذشته تعليم (تعليم المسلمين الماضي)، والمأمون (سيرة الخليفة العباسي)، وسيرة النعمان (سيرة الإمام أبي حنيفة)، وكتب خانة إسكندرية (مكتبة الإسكندرية)، وسفرنامه روم ومصر وشام (رحلته إلى الروم ومصر والشام)، والفاروق (سيرة الخليفة الثاني)، ومولانا روم، والغزالي، وموازنة أنيس وديبر (مقارنة بين أنيس وديبر)، وشعر العجم، وسيرة النبي (الجزء الأول والثاني)، كليات أردو (مجموعة شعره)، ورسائل شبلي (مختار مقالاته)، ومقالات شبلي، ومكاتيب شبلي (رسائل شبلي).

أعماله في العربية والفارسية: الجزية، والانتقاد على التمدن الإسلامي لجرجي زيدان، ومجموعة شعره الفارسي.

نقده للمستشرقين: إن الحقيقة الجلية في التاريخ هي أن الإسلام تم تقديمه بطريقة سيئة وإبراز صورة مشوهة عنه في كتابات المؤلفين الغربيين، المبشرين والمستشرقين كليهما وذلك منذ بداية تاريخهما، ومن المهم ملاحظة أن عدم الثقة بالإسلام ليست نتيجة التفكير الحر من جانب الكتاب الغربيين لكنها مرتبطة بشدة بالسلوك المعادي الضارب في القدم تجاه

¹ Great Personalities in Islam، ص 393-394

هذا الدين وأتباعه. وقد نتجت هذه العداوة بشكل أساسي بعد غلبة الإسلام على اليهودية والنصرانية في العصور الوسطى ويبدو هذا عاملاً قوياً في تحديد سلوك الغرب تجاه الإسلام عبر العصور. واستمرت الحرب لعدة قرون بين المسيحية والإسلام ولم تقتصر هذه الحرب على السيوف والسلاح وحده، ولكنها امتدت إلى ميادين المناظرة والجدال مما أدى إلى وجود كثير من المستشرقين الذين أنتجوا كميات كبيرة من المواد التي تتعلق بالإسلام، المفعمة بكثير من الأخطاء الخطرة والمزعجة، ومنذ ذلك يظل الإسلام المنافس الكبير والهائل للغرب الحديث، فتظهر عداوته في صور متعددة إلى الوقت الحالي، ويمكن تقديم الحجم الهائل للمواد الإسلامية المنتجة من قبل المستشرقين في النواحي المختلفة للتاريخ الإسلامي أن ستين ألف كتاب تناقش الشرق الأدنى تم تأليفها من قبلهم بين عام 1800م إلى 1950م، بينما يبلغ عدد الكتب التي ألّفت في الشرق عن الغرب قليلاً جداً أو متواضع. بالإضافة إلى ذلك فإن الحجم الكبير من هذه المواد زود بالحقد والكراهية مع نظريات غريبة مبنية على الإشاعات والقبيل والقال¹.

إن قراءة متأنية لكتابتهم تظهر بوضوح أن أغلبهم كتب عن الإسلام بصفة أساسية لدحض الأصول المقدسة للإسلام، وقاموا بتلوين حياة النبي بلون قاتم أسود، قدّموا الإسلام كعلامة على البربرية ودين شهواني. وهذه فكرة غريبة جداً عن الإسلام بين 99% من البريطانيين². وباختصار فإن المؤلفين الغربيين بصفة عامة وباستثناء القليل يواصلون الاستهزاء بتعاليم الإسلام والتقليل من أهميته كعامل حضاري ولتأييد وجهات نظرهم يذكرون بأن اليد الذي يؤيد الرق، يقلل من أهمية المرأة في المجتمع، يشجع على تعدد الزوجات، يعيل الحرب المقدسة بهدف إخضاع الآخرين للدين الجديد ويلزم بعقوبات مثل الرجم حتى الموت، البتر، والضرب بالسياط إلخ... ليس فقط دين باطل بل مخالف لكل قوانين السلوك الإنساني³.

¹ Islam verse Ahl al-Kitab لمريم جميلة، ص 18

² Orientalism لإيدورد سعيد، لندن، 1978م، ص 204

³ Western Awakening to Islam للورد هيدلي، لندن، 1914، ص 11

وبالرغم أن الحروب الصليبية قد انتهت منذ زمن طويل فإن المستشرقين الغربيين لا يتعبون أبدًا باتهام الإسلام بأنه دين إرهابي وغير مسامح تجاه الأديان الأخرى. لاحظوا على سبيل المثال الكلمات التالية لس مارغوليوث:

"بالنسبة لنهاية المطاف للنبي هناك تداخل يطابق دعاء نوح: عندما تنتهي الأشهر الحرم إذبح الشريك أينما تجده، عندما تلتقي بأولئك الذين لا يؤمنون اقطع رؤوسهم حتى تكون مذبحًا، وبعد ذلك احكم بثبات قيديهم ثم كن كريماً أو خذ جزيّة، وبهذا الحكم فإن النظام الإسلامي يعترف بمجتمعين لهما الحق في التواجد: المسلمون الذين من حقهم أن يحكموا وأهل الكتاب الذين عليهم أن يكونوا عبيدًا مقهورين والآخرين يبادون إبادة تامة"¹.

إنه واضح بما فيه الكفاية مما سبق أن الإسلام تم تقديمه بشكل خاطئ أساسًا في الغرب ومنه إلى العالم أجمع. إن هذه الأفكار الخاطئة للمستشرقين تحتاج إلى التنبيه إليها وتصحيحها على أساس دلائل قوية والتحقيق الصائب بدراسة منتظمة وشاملة للتقنيات، والمساهمات، وتاريخ الإسلام والمسلمين، وبذلك يمكن أن نعيد إلى المسلمين اعتبارهم بكونهم حملة مشعل الحضارة والثقافة.

الردّ على المستشرقين من قبل العلامة: كان العلامة شبلي النعماني من أبرز المؤلفين والمؤرخين الهنود ومن الذين استيقظوا مبكرًا للخطر الصليبي من قبل المستشرقين ضد الإسلام والمسلمين في شكل كتاباتهم. كان قلقًا جدًا بتعبيرهم المشوه للإسلام وأحداثه المهمة. وصمّم أن يقدم كل ذلك بشكله الصحيح وقد تأثر بمعلّمه ومرشده السير سيد وكتابه "خطبات أحمدية". حمل العلامة شبلي لواء حركة علي كره بدحض الاتهامات من قبل المستشرقين ضد أساسيات الدين الإسلامي بجانب تسليط الضوء على التاريخ الإسلامي وخاصة النبي محمد ﷺ والخليفة عمر بن الخطاب. وأثناء ذلك أنتج اثنين من روائعه "سيرة النبي" عن حياة النبي ﷺ والفاروق عن حياة الخليفة الثاني. وبعضًا من المقتطفات بنقده للمستشرقين نقدّمها فيما يلي مأخوذة من المصدرين:

¹ Mohammad مارغوليوث، لندن، 1906، ص 86-87

سيرة النبي: جزءان من الأجزاء السبعة لسيرة النبي كتبها بواسطة العلامة شبلي نفسه، وحاول فيها العلامة تقديم صورة لحياة النبي ﷺ والأحداث المرتبطة به في شكلها الصحيح بإزالة النظريات الخاطئة والتي تم إشاعتها من قبل المستشرقين بشكل منتظم وكان ذلك السبب الرئيسي وراء إعداد هذا العمل الدقيق، وفي كلماته:

"إن الصورة الأخلاقية التي يقدمها المؤرخون الأوروبيون للنبي تجمع (ونعوذ بالله من ذلك) كل أنواع العيوب، وبسبب ضروريات الحياة الحديثة ابتعد المسلمون تمامًا عن العلوم العربية، وإذا أرادوا التزوّد بمعلومات عن أحوال النبي وسيرته يتوجهون إلى المؤلفات الأوروبية وتؤثر عليهم هذه المعلومات المسمومة رويدًا رويدًا ولا يشعرون بذلك. حتى أن هناك فرقة في البلاد تعتبر النبي ﷺ مصلحًا إذا أصلح شيئًا من المجتمع فقد أدى واجبه. ولا تتأثر نبوته إن كان في خلقه شيء من الفساد، كانت هذه هي الأسباب التي جعلتني أوّلف كتابًا مفصّلًا عن السيرة النبوية"¹.

وفي سبيل إتمام الهدف وراء تأليف هذا الكتاب قام العلامة أولًا بدراسة متأنية وشاملة للمواد التي أنتجت من قبل المؤلفين المسلمين والمستشرقين حول سيرة النبي ﷺ وأشار بكل أمانة إلى الحقائق عن النبي وإلى الأمور التي يشكّ في صحتها أو التي هي محل خلاف. ثالثًا قام بجدولة التهم المتكررة دائمًا من قبل المؤلفين الغربيين ضد النبي ﷺ في خمس نقاط:

1. بقي محمد نبيًا في مكة فقط، أما في المدينة فقد تصرف كملك ومارس كل الأعمال السيئة مثل الإثارة على الحرب، القتل، الانتقام، وإراقة الدماء.
2. تعدد الأزواج والشهوة تجاه المرأة.
3. إدخال الناس إلى الدين الإسلامي بالإكراه.
4. الترخيص لدوام الرق.
5. اللجوء إلى الدبلوماسية والتستر وراء الحجج مثل البشر العاديين.²

¹ سيرة النبي للعلامة شبلي النعماني، دار المصنفين، أعظم كره، 1971م، 7/1

² سيرة النبي، 269/1

وقبل البدء في دحض هذه التهم أشار العلامة أولاً وبطريقة منظمة وعلمية إلى الأسباب التي أدت إلى أنتشار الأفكار الخاطئة المتعلقة بحياة النبي ﷺ وقضايا إسلامية أخرى وخلال تناوله لذلك الحكم السياسي والديني المتوارث لدى المستشرقين والذي هو السبب الأساسي لكتاباتهم المنحازة ضد الإسلام وقد تعمق في أسباب أخرى كمؤرخ مستنير. وذكر ثلاث نقاط رئيسية:

الأولى: إن أغلب الأخطاء التي ارتكبت من قبل المستشرقين في كتاباتهم نتجت بسبب أخذهم هذه المواد من كتب تتعلق بالسيرة والتاريخ مثل الواقدي، سيرة ابن هشام، وسيرة ابن إسحاق وتاريخ الطبري إلى آخره. وهذه الكتب لا مكانة لها كعمل دقيق يوثق به.

والثانية: لم يستطع المستشرقون الوصول إلى الكتب التقليدية التي تحتوي على صورة صحيحة للنبي ﷺ. وعندما حاول بعضهم مثل مارغوليوث أن يستفيد من هذه المصادر كان عاجزاً بسبب عدم معرفته بأصول علم الحديث. وفي بعض الأحيان النادرة عندما كان ذلك ممكناً لم يستطيعوا تجاوز التحيز ضد الإسلام الموروث لديهم والذي بإمكانه أن يحول مجلدات العلم الضخمة إلى أكوام من الرماد¹.

والسبب الثالث لانحراف المستشرقين عن الطريق السوي في كتاباتهم هو أنه بخلاف الكتاب التقليديين إنهم لا يقدرّون صدق رواة الأخبار أو عدمه، على العكس من ذلك فهم يعتبرون هذه البيانات صحيحة والتي تظهر بالدلائل الظاهرة والتقاليد المنتشرة دون الأخذ بعين الاعتبار أن هناك راو معروف بالكذب وممارسات أخرى غير أخلاقية، وهذه هي الأسباب الأساسية في رأي العلامة لانتشار الأخطاء المنتشرة في كتابات المستشرقين فيما يتعلق بحياة النبي صلى الله عليه وسلم والأحداث الإسلامية الأخرى².

ميزة أخرى لنقد العلامة شبلي للمستشرقين هي أنه طوال دراسته لكتاباتهم يتجلى كباحث يبحث عن الحقائق. وعند الإشارة إلى أخطائهم لم يقدم أي دليل على أي تحيز ضدهم من ناحيته. بل على العكس منحهم حقهم وما يستحقونه من تقدير. فعلى سبيل

¹ المصدر نفسه، ص 68

² المصدر نفسه، ص 66

المثال فقد مدح الباحث الشهير البروفيسور ساشاوا Sachau لطباعة طبقات ابن سعد. واعترف بدقة تعلمه ومعرفته الواسعة باللغة العربية. واعتبر مقدمته لكتاب الهند للبيروني قطعة قيمة لعملية البحث. وكذلك قدم تقديراته لـ إس مارغوليوث قائلاً أنه قرأ كل كلمة في مسند الإمام ابن حنبل ذي الأجزاء الستة¹. ولا يمكن لأي مسلم من العصر الحديث أن يجاريه في ذلك. ولا شك أن الميزة الرئيسية لأسلوب نقد العلامة للمستشرقين يكمن في حقيقة أنه دحض اتهاماتهم ليس فقط على الأساس الديني وإنما على الأساس الديني أيضاً وتسليط الضوء بشكل أكاديمي على الحقائق، وذكر كل النقاشات الممكنة التي توافق العقل والتفكير السليم. ويقدم نفسه هنا كمفكر وارث لابن خلدون مؤسس العلوم الحديثة للتاريخ وعلم الاجتماع. إن السبب الذي ذكره للطبيعة المتميزة لانتصار المسلمين في غزوة بدر يستحق الذكر هنا:

"إن المؤرخين الغربيين الذين يفكرون فقط في الأسباب المادية وأثارها، تعجبوا كيف يمكن لثلاثمائة جنود راجلين أن يتغلبوا على ألف شخص مدعّمين بمئة جواد، لكن القدرة الإلهية قد حققت معجزات كهذه مرات عديدة ولا شك أن معجزة بدر يمكن أن تقنع حتى أولئك الذين لا يملكون الرؤية ولكن خارجية فقط. كانت قريش حشدًا من جماعات متفرقة، وعتبة القائد لم يكن يؤيد الحرب، وقبيلة زهران عادت أدارجها من بدر. وكانت الأمطار قد أثرت على ميدان القتال بحيث تحوّلت المنطقة التي نزلت بها قريش إلى منطقة مليئة بالوحل يصعب الخروج منها أو دخولها. وكانت قريش خائفة وأخطأت في تقديراتها لعدد المسلمين واعتبرتهم ضعف أنفسهم، وإلى ذلك يشير القرآن في الآية التالية: قد كان لكم آية في فتية التقا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثلهم رأي العين وال—يؤيد بنصره من يشاء—" (13/3). لم تمتلك قريش أي ترتيب أو نظام بينما نظم النبي ﷺ وبسهم في يده نظم شخصيًا رجاله في صفوف. وقد قضى المسلمون ليلة مريحة واستيقظوا نشيطين في الصباح بينما كانت قريش مرتبكة في نومها، وهذه يمكن أن تعتبر الأسباب التي توضح الأحداث. ولكن كيف ولماذا حدثت هذه المصادفات مجتمعة وصادفت

¹ المصدر نفسه، ص 66

بعضها بعضاً، إن هذه مساعدة جاءت من عند الله. وبالمقارنة بين الجيشين القرشي والإسلامي لا يمكن لأي خبير حرب أن يتوقع النصر للمسلمين. كانت قريش تملك المال وكان البعض منهم يطعم الجيش بأكمله بمفرده، بينما كان المسلمون لا يملكون قرشاً واحداً، كان عدد قريش ألف رجل بينما المسلمون كانوا ثلاثمئة فقط، كان لدى قريش مئة راكب وللمسلمين جوادان. والقليل جداً من المسلمين من كان يملك السلاح وفي الطرف الآخر كل قرشي مغطى بالحديد من أعلى رأسه إلى أخمص قدميه"¹.

إن الملاحظة السابقة من قبل العلامة شبلي يمكن اعتبارها نموذجاً واضحاً لأسلوبه لمعالجة موضوع ما من جميع النواحي الممكنة، وهكذا فقد دحض هذا الكتاب بطريقة مقنعة كل الاتهامات الموجهة من قبل المستشرقين للنواحي المختلفة لحياة النبي ﷺ والقضايا المتعلقة. وبذلك فليس من المبالغة أن نقول إن نقد العلامة شبلي للمستشرقين في كتابه سيرة النبي لعب دوراً مهماً في تقديم حياة النبي ﷺ في شكلها الصحيح مع إزالة الشكوك والأفكار الخاطئة عنه ليس فقط من أذهان غير المسلمين بل أولئك المسلمين أيضاً والذين تأثروا بالكتابات الغربية وبدأوا يرحّبون بالنظريات الخاطئة والباطلة عنه. وبذلك كان هذا الكتاب بمثابة ترياق للأثر المسموم للكتابات الغربية فيما يتعلق بحياة النبي ﷺ على أذهان المسلمين المتعلمين في الغرب. إن الباحث الإسلامي الكبير ومفسّر القرآن العلامة عبد الماجد الدريابادي والذي كان بنفسه ضحية السير الغربية الخاطئة للنبي ﷺ اعترف بكل رحابة صدر بهذه الحقيقة في الكلمات التالية:

"إن الهدف الأساسي لنقد المستشرقين والمؤلفين الغربيين كانت شخصية النبي ﷺ والحروب والغزوات التي خاضها. وقد زرعوها في قلبه فكرة أنه كان فاتحاً ظالماً (نعوذ بالله من ذلك) لكن شبلي تغمّده الله برحمته عالج في هذا المرض. وكانت النتيجة أنني حين أغلقت الكتاب بعد قراءته تجلّت أمام ناظري صورة الرسول العربي كمصلح كبير للوطن

¹ المصدر نفسه، 19-18/2

والشعب، وحاكم لطيف سخي، والذي لم يلجأ للقتال إلا إذا اضطر إلى ذلك كخيار أخير. قد تبدو شخصية المصلح اليوم أمام كل مسلم أقل رتبة من رتبة النبي والرسول وقد لا يجد أحدًا أهمية كبيرة في عمل شبلي هذا، ولكن ببساطة اسأل عن أهمية هذا الكتاب الشخص الذي كان قلبه مليئًا بالبغض والكراهية لهذه الشخصية المقدسة (ونعوذ بالله من ذلك) ولا أستطيع أن أنسى الجميل الذي أسداه لي هذا الكتاب لشبلي¹.

الفاروق: كان كتاب الفاروق عملاً مهمًا آخر للعلامة شبلي والذي لم يعط فيه فقط صورة شاملة وصادقة لحياة وإنجازات الخليفة عمر بن الخطاب، بل أنكر الاتهامات الموجهة إليه من قبل المستشرقين. وقد قدّر بشكل كبير من قبل المستشرقين والمؤلفين المسلمين بصلابته وعدله وشخصيته الحازمة والبساطة في الحياة إلخ...، ومن ضمن الكتاب الغربيين الذين أثنوا عليه ثناء كبيرًا يمكن أن نذكر غبن ووليم، ميور، وواشنطن إرونغ، وأسبرنجر، وويل، ودوزي، وفان كريمر وغيرهم والذين رسموا صورة جذابة لشخصية وقدرات الخليفة كخبير عسكري وإداري. ولكن عند عملهم هذا وجّهوا إليه بعض التهم أيضًا والتي كان بريئًا منها، ويرجع الفضل إلى العلامة شبلي في دحض هذه الاتهامات بإظهار خطأها في ضوء الحقائق التاريخية وكانت الاتهامات معظمها متعلقة بعزل خالد بن الوليد من قبل الخليفة، معاملته للذميين، إجلاء اليهود والنصارى من شبه الجزيرة العربية، تدمير المكتبة العظيمة في الإسكندرية إلخ...، ونقدّم فيما يلي بشكل موجز دحضه لبعض هذه التهم:

عزل خالد بن الوليد: إن حادثة عزل خالد بن الوليد من منصب القائد العام قد تمت روايتها من قبل المؤلفين الغربيين دون الأخذ بالاعتبار الظروف المحيطة بها والتي دفعت الخليفة لاتخاذ هذا القرار القاسي، وبذلك أعطوا فكرة خاطئة أنه عاقب القائد لأنه كان يكتن له كراهية شخصية، أنظر إلى بيان وليم ميور التالي: "كان سلوكه

¹ آب بيتي لعبد الماجد الدرايبادي، لكتاؤ، 1976م، ص 248

(ال خليفة) غير كريم وغير عادل فقد استخدم سيف الله للفترة التي احتاجه إليها، وعندما تم النصر أبعدته بطريقة بغیضة¹.

على عكس النظرية التي حملها وليم ميور، كما وصف من قبل، العلامة شبلي، فقد منح الخليفة خالدًا الوقت الكافي لإصلاح سلوكه وتصرفه كجندي منظم وكانت بعض التجاوزات لخالد لم تكن تعجب الخليفة عمر. أولًا لم يكن من عادته أن يرسل الحسابات إلى الخليفة مثلما كان يفعل القواد والحكام الآخرون. وعندما طلب منه أن يكون حريصًا ودقيقًا في ذلك، ردّ قائلاً إنه يتصرف هكذا منذ عهد الخليفة أبي بكر، ولن يفعل خلاف ذلك. ولا نحتاج إلى القول أن الخليفة العادل والحازم لم يكن بإمكانه أن يغيض الطرف عن حرية خالد هذه على حساب النظام والمصالح البعيدة المدى للإمبراطورية الإسلامية الأخذة في الاتساع، ولذلك فقد كتب إليه الخليفة أنه سيسمح له بالاستمرار على منصبه فقط إذا قدّم الحسابات بنفقات الجيش بشكل منتظم، ولكن خالدًا لم يقبل بهذا الشرط وكانت النتيجة أنه تم الحط من مرتبته وجعل قائدًا صغيرًا تحت قيادة أبي عبيدة.

ثم حدثت حادثة أخرى في عام 638هـ والتي منح فيها خالد عشرة آلاف درهم لشاعر. وتم عرض الأمر على الخليفة فورًا من قبل موظفي المخابرات السرية للخلافة، وكتب عمر على أساسها رسالة إلى أبي عبيدة مبيّنًا أنه إذا كان خالد قد فعل هذا من حسابه الخاص فهو متهم بالتبذير، وإن كان قد منحها من بيت مال المسلمين فقد ارتكب جريمة خرق الأمانة، وفي كلتا الحالتين يستحق العزل، وبالتالي عقد اجتماع عام وسئل خالد عن المصدر الذي منح منه المال لكن خالدًا الفخور كان جريئًا ورفض أن يعترف، وعلى ذلك فإن الرسول المنوط بحكم الحط من الرتبة رفع عمامة خالد عن رأسه كعلامة على الحط من مرتبته وأحاط رقبته بنفس العمامة، وبذلك صرف

¹ The Caliphat لوليم ميور، بيروت، 1963م، ص 156

سيف الله من الخدمة. وبهذه الطريقة لم يقم الخليفة بواجبه كإداري فقط ولكن أيضًا أشار إلى الناس بطريقة مؤثرة بأنه لن يتم العفو عن أي شخص إذا وجد مذنبًا في حق الدولة وكان عاصيًا للسلطات مهما كان عظيمًا، حيث يعتبر هذا تصرفًا خطيرًا من المعصية في ضوء الآية القرآنية: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ (سورة النساء: 59)

وكذلك فإن التهم المتبقية من المؤرخين الغربيين قد تم دحضها بطريقة مؤثرة جدًا من قبل العلامة شبلي النعماني ليس فقط في ضوء الحقائق التاريخية المأخوذة من المصادر المختلفة الصحيحة، وإنما على أساس الدلائل العقلية أيضًا.

الخاتمة: قد اتضح من التقديم المختصر أعلاه عن دحض الاتهامات التي وجهت ضد النبي ﷺ والخليفة عمر أن العلامة شبلي النعماني كان مؤرخًا ممتازًا ويقال بحق أن دراسته المتعلقة بالسيرة ممتازة ويتميز بتصوير تاريخي دقيق للأحداث في العصور التاريخية من جميع النواحي الممكنة، وتمكّن بنجاح من إعطاء فكرة شاملة عنها بالرجوع إلى كل المصادر الأصلية للمعلومات. وعند ذلك استخدم بشكل كامل الأدلة العقلية النابعة من كونه محاميًا. ولا شك أن أثر السير سيد أحمد خان والبروفيسور أرنولد يظهر بوضوح في كتاباته، وهذا واضح أيضًا أن كتاباته فيما سبق كانت في أغلبها ذات طبيعة طائفية وجدالية. واتصاله وارتباطه معهما ليس فقط وسّع أفقه ولكن جعله مألوفًا بطرق البحث الحديثة التي استخدمها كاملة في نقده المعنوي للمستشرقين. وبذلك أغنى العلوم المتعلقة بالسيرة والتاريخ في اللغة الأردية بتقديم الطرق العلمية للبحث والتحقيق.

العلامة شبلي النعماني وتاريخ الطب

- د. محمد رضي الإسلام الندوي¹

ترجمة من الأردوية: محسن عتيق خان²

كان العلامة شبلي قد كتب في مجالات مختلفة بما فيها علوم القرآن، والسيرة النبوية، والفقه، والكلام، والأدب والشعر، والتعليم، والرحلة وغيرها، ولكن يغلب عليه طابع التاريخ، فقد كان مؤرخًا بالطبيعة، وفي إنتاجاته تظهر هذه الناحية مع نواحٍ أخرى بكل وضوح.

قد بدأ تقييم أعماله في أيام حياته، وخلال قرن مضى كتبت ألوف من المقالات لتحليل إنتاجاته، وتعيين قيمتها في المجالات المذكورة أعلاه. قد ألقى العلامة شبلي الضوء على تاريخ الطب في مقالاته من وجهات مختلفة، وحاول إبراز مجد المسلمين السالف في هذا المجال أيضًا، ولكن على حد علم الكاتب لم يتم تحليل كتاباته في تاريخ الطب حتى الآن، ولذلك نقوم في هذا المقال بتعريف وتحليل كتابات العلامة في مجال تاريخ الطب.

كتابات العلامة شبلي عن تاريخ الطب:

كتب العلامة فيما يخص بالطب وتاريخه مقالين مستقلين فقط، أحدهما بعنوان "الدول الإسلامية والمستشفيات"، وفيه جاء بتفاصيل المستشفيات التي قامت في أنحاء العالم الإسلامي خلال عهود التاريخ الإسلامي المختلفة، وأما المقال الآخر فقام فيه بتعريف مخطوطة كتبت في أمراض العيون بعنوان "الكافي في الكحل". ولكن مباحث الطب القيمة أتت ضمن مقالاته المختلفة، على سبيل المثال مقاله بعنوان "مسلمانون

¹ مسؤول عن قسم الترجمة والتأليف، الجماعة الإسلامية بالهند
² باحث، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة المليية الإسلامية، نيودلهي

كي كذشته تعليم" الذي نشر ككتيب مستقل يحتوي على تسعين صفحة، وتناول فيه إنجازات المسلمين في نشر العلوم المختلفة من ناحية تاريخية. إنه ذكر محاولات الترجمة في العهد الأموي والعباسي في مجال الفلسفة، والحكمة، والهندسة، والطب، والهيئة. وله مقال بعنوان "تراجم" في تسعين صفحة، وتناول فيه هذه الموضوعات بتفصيل أكثر. وفي مقال ألقى الضوء على حياة ابن رشد وأعماله في العلوم والفنون المختلفة بما فيها علم الطب، وما عدا ذلك، نجد معلومات عن تاريخ الطب في مقالاته الأخرى مثلاً في مقاله حول المكتبة الإسكندرية، ومقاله حول المكتبات الإسلامية، ومقاله حول أثر حضارة الدولة الإسلامية في الهند، ومقاله حول تزك جهانكيري وغيرها. و بالتالي نذكر بعض بحوث العلامة شبلي فيما يخص بتاريخ الطب.

دور الطب اليوناني:

تعتبر بداية الطب في يونان، وأول أطبائهم إسقليبوس (Axlepius) والذي يعرف بأبي الطب. إنه قصر الطب في أسرته، ولكن أبقرات الذي ولد في جيله السادس عشر، كتب حول الطب ونشر علمه فكان أول من دَوّن فن الطب. وعند اليونانيين أركان الطب ثمانية وكان جالينوس آخرهم. قد تناول العلامة شبلي في مقاله بعنوان "تراجم" التاريخ الابتدائي للطب بتفصيل، وذكر مع الأطباء المذكورين أعلاه أساطين الطب الآخرين. إنه تناول سيرة أبقرات وجالينوس بإيجاز ثم ذكر فهرس كتبهم التي ترجمت إلى اللغة العربية مع أسماء المترجمين. إنه ذكر مع هؤلاء الأطباء، روفس، وديسقوريدوس، والأطباء الإسكندريين ومن أشهرهم يحيى النحوي، وأطباء من الشام وروما. والحديث في هذا المقال عن الطب يشغل تسع صفحات ويتناول الدور اليوناني في الطب.

الطب الجاهلي:

عصر ما قبل بعثة خاتم النبيين -صلى الله عليه و سلم- يعرف بالعصر الجاهلي، وقد اتخذ الطب في هذا العصر في المناطق الأخرى صورة الفن، على سبيل المثال في الإسكندرية بـ"مصر"، وفي جنديشابور بـ"إيران" قامت مدارس لتعليم الطب، وكان الناس يأتون إليها من المناطق النائية، ولكن العرب كانوا بمنأى عنها وكان الطب

العدد الخاص مجلة الهند

التقليدي رائجًا بينهم، ورغم ذلك نعثر على بعض الأشخاص في العهد النبوي الذين تعلموا الطب وكانوا يتطبّبون، كما يقول العلامة شبلي:

"لا بد من الطب الفطري للحياة، فهو يوجد دائمًا في كل أمة من الأمم، وكذلك وجد دائمًا في جزيرة العرب، ومع الطب الفطري نجد آثار الطب العلمي الذي يحصل بالتعليم والدراسة بين العرب منذ زمان قديم، فقد كان الحارث بن كلدة من أهالي مدينة الطائف سافر إلى فارس لدراسة الطب قبل بعثة النبي -صلى الله عليه و سلم، وبعد عودته عرف بطبيب العرب. إنه كان مثل أمام ملك فارس نوشيروان بصدد الطب، واشتهر ابنه النضر بن الحارث أكثر منه فهو أدّى دورًا مهمًا في نشر وتعميم الطب في جزيرة العرب حتى عندما أرسل أمير المؤمنين عمر الفاروق -رضي الله عنه- أفواجًا إلى فارس واكثها كثير من الأطباء و الجراحين." (مقالات شبلي، المجلد السادس، ص 143، مقال "اسلامي حكومتين اور شفاخانه")

الطب في العصر الأموي:

نشأ الطب في العصر الأموي من نواح مختلفة، ونجد آثاره في التاريخ بداية من عهد معاوية بن أبي سفيان -رضي الله عنه- واستمرت النشأة في عهود الخلفاء الأمويين بعده. وقد ألقى العلامة شبلي الضوء على ذلك في كتاباته المختلفة، إنه يكتب عن معاوية بن أبي سفيان -رضي الله عنه:

"قام الأمير معاوية بن أبي سفيان -رضي الله عنه- بتعيين مسيحي أمير الكاتبيين في بلاطه، وعيّن مسيحيًا آخر ابن أثال على منصب جامع الجبايات في مديرية حمص. كان ابن أثال طبيبًا وترجم بعض كتب الطب من اليونانية إلى العربية لمعاوية -رضي الله عنه- وكان ذلك كان مقدمة لنشأة الترجمة". (مقالات شبلي، المجلد الثالث، ص 3، مقال "تراجم")

يرجع فضل نشأة العلوم والفنون في العهد الأموي في الحقيقة إلى خالد بن يزيد، حفيد الأمير معاوية -رضي الله عنه-. بعد وفاة يزيد بن معاوية، إنه رفض تحمل

العدد الخاص مجلة الهند

مسؤولية الحكومة والجلوس على مسند الخلافة، وتفرغ للدراسة والتعليم. وقد أثنى عليه العلامة شبلي واعترف بخدماته العلمية في مقالاته المختلفة كما يقول:

"أول من بدأ البحث عن المصنفات القديمة من الأسرة الأموية هو خالد بن يزيد، ومن الممكن أنه هو الذي أسّس المكتبة لأول مرة. بعد خالد، تطورت التأليفات والتصنيفات كثيرًا، وكان خالد بنفسه كاتبًا، وقد ذكر المؤرخ ابن النديم كتبه المتواجدة في عصره، وهي الحرارة، وكتاب الصحيفة الكبير، وكتاب الصحيفة الصغير" (مقالات شبلي، المجلد السادس، ص 124-124).

قد ذكر المؤرخون قصة في عهد عمر بن عبد العزيز بصدد تاريخ الطب، وذكرها العلامة شبلي كما يلي:

"قد كتب العلامة ابن أبي أصيبعة في كتابه "طبقات الأطباء" في ترجمة الحكيم ماسرجويه بأن عمر بن عبد العزيز -رحمه الله- وجد في خزانة الكتب كتابًا لماسرجويه الذي ترجمه من السريانية إلى العربية فأخرجه منها ونشر نسخه." (مقالات شبلي، المجلد السادس، ص 124 و 144).

وقد ذكر العلامة شبلي الرقي العلمي الذي حصل في العصر الأموي في مقاله "مسلمانون كي كدشته تعليم".

الطب في العصر العباسي:

العلوم والفنون المختلفة بما فيها علم الطب تطورت في العصر العباسي تطورًا لم يسبق له مثال، فقد بدأ نقل كتب الأعاجم إلى اللغة العربية من عهد الخليفة منصور العباسي، ومن بين هذه الكتب المترجمة كانت بعض كتب علم الطب والبيطرة، وبلغت نشاطات الترجمة أوجها في عهد هارون الرشيد، ومأمون الرشيد، فقد تم استيراد الكتب اليونانية وكتب اللغات الأخرى من البلدان المختلفة، وتم تأسيس دار الترجمة باسم "بيت الحكمة". واستمرت هذه النشاطات في عصور المعتصم، والواثق، والمتوكل، والمعتضد والخلفاء العباسيين الآخرين. وقد تناول العلامة شبلي الأعمال في علم الطب بتفصيل في مقالاته التي نشرت بعناوين "مسلمانون كي كدشته تعليم" و"المكتبات الإسلامية"،

و"الدول الإسلامية والمتشفيات"، و"تراجم" بالإضافة إلى تناول العلوم والفنون المختلفة. وقد ذكر أسماء المترجمين الذين قاموا بخدمات الترجمة من أمثال يوحنا بن ماسويه، وحنين بن إسحاق، وإسحاق بن حنين، وجيش بن الحسن، وثابت بن قرة، وقسطا بن لوقا، ويعقوب الكندي وغيرهم. إنه ذكر بيت الحكمة بتفصيل وأثنى على المترجمين وبصفة خاصة على حنين بن إسحاق. أسرة البرامكة التي كانت تتولى منصب الوزارة في العصر العباسي كانت ساهمت في تطوير العلم، واستبعتت بعض الأطباء الهندوس من الهند، وعينتهم في المستشفيات، وترجم هؤلاء الأطباء الهندوس بعض الكتب من اللغة السنسكريتية، وقد ذكر العلامة شبلي خدمات البرامكة في أمكنة مختلفة. (مقالات شبلي، المجلد السادس، ص 83، 138-139، 144-145)

قد كتب العلامة شبلي حول خدمات المسلمين في العلوم والفنون المختلفة وبصفة خاصة الطب بتفصيل كبير، وبدقة، وهنا نغمض عن نقل مقتبساته لكي لا يطول المقال.

نقل علوم الأمم الأخرى إلى اللغة العربية:

قد سلط العلامة شبلي الضوء على حب المسلمين بالعلم في مقاله "تراجم" بكل تفصيل، إنه ذكر اللغات التي تعلمها المسلمون، والعلوم التي نقلوها إلى لغتهم، ورد في هذا المقال على اتهام العلماء الأوربيين بأن المسلمين خربوا مآثر الأمم الأخرى، وثقافتها، وحضاراتها، وعلومها، وفنونها ردًا مسكتًا، وأثبت بأن المسلمين توقفوا على علوم الأمم الأخرى، وقاموا بترجمة الكتب المهمة من مجالات الفلسفة، والهيئة، والجبر، والحساب، وعلم الحيل، والجغرافية، والطب عن طريق المترجمين اليونانيين، والسريانيين، والإيطاليين، والفرس، والهندوس المهرة. إنه ذكر الفهرس الطويل لهؤلاء المترجمين وكتبهم المترجمة.

ولدت لديه فكرة كتابة هذا المقال حينما رأى كتابًا في تاريخ الطب لعالم ألماني كما يقول:

"قد كتب عالم ألماني كتابًا حافلًا بما نقله المسلمون من الكتب في علم الطب من اليونانية. وعندما رأيت هذا الكتاب أدركت بأن هذه الأعمال التي تقوم بها الأمم الأخرى في الحقيقة من أعمالنا، ومن العار علينا أن لا نعملها... قد عرضت مقال

"تراجم" في مؤتمر لکناؤ. قد أحرزت معلومات جديدة كثيرة، وحصلت على مئات من أسماء الكتب التي نقلت من اليونانية، والسريانية، والمهلوية، والزندية، والقبطية، والسنسكريتية إلى العربية، ولذلك قررت أن يكون هذا مقالاً مستقلاً. (رسائل شبلي، طبع دهلي، 1898، ص5، مقدمة)

يقول العلامة شبلي وهو يعترف بخدمات المسلمين في الحفاظ على علوم الأمم الأخرى وفنونها. "لا ينكر أحد بأن المسلمين نقلوا علوم جميع أمم الدنيا إلى لغتهم في العهود الوسطى، وإذا لم يبق بذلك، لفقدت خزائن يونان ومصر، والهند، وفارس العلمية." (مقالات شبلي، المجلد الثالث، ص1، مقال "تراجم")

الطبيعة الابتكارية للمترجمين العرب لكتب الطب:

قد أشار العلامة شبلي في مقاله "تراجم" إلى أمر مهم وهو تواجد الأصالة (Originality) في أعمال المترجمين العرب، فلم يتبعوا في هذا المجال اتباعاً محضاً ولم يتجهوا إلى الترجمة اللفظية، بل ترجموا بحرية وأوجدوا المصطلحات في اللغة العربية بأنفسهم كما يقول العلامة شبلي:

"لا يمكن لنا أن نحكم على صحة أو خطأ الترجمة باجتهاد ولذلك اتبعنا أوروبا في هذا البحث، ولكن يبدو جلياً بأن المسلمين حرروا الترجمة من اللغة الأصلية. قد اتسعت اللغة الانجليزية اتساعاً ولكن المصطلحات العلمية لا تزال تتشكل من الكلمات اليونانية، وعند البعض يرجع سبب ذلك إلى مساعي إبقاء نفس المصطلحات في جميع أوروبا، وذلك لا يحصل إلا بإبقاء الكلمات اليونانية على حالها. ولكن الترجمة العربية حر من هذا القيد، فقد كانت في المنطق، والفلسفة، والهيئة، والهندسة، والطب، ألوف من الكلمات الاصطلاحية ولكن تم إيجاد بديلاتها الرائعة في اللغة العربية حتى بدت كأن هذه العلوم ولدت في هذه اللغة. (مقالات شبلي، المجلد السادس، ص29، مقال "تراجم")

إضافات المسلمين في علم الطب:

لم تنحصر أعمال المسلمين في الترجمة بل مروا بهذه المرحلة سريعاً. فبعد نقل الكتب المهمة في مختلف العلوم والفنون إلى اللغة العربية من اللغات الأخرى، بدأوا يفكرون فيها، وأتوا بتجارب جديدة وأفادوا الإنسانية. فإذا هم ممتنون في جانب لليونان والروم لاكتسابهم من علومهم، العالم وبصفة خاصة الغرب ممتن لهم في جانب آخر لأنهم استفادوا من إنتاجات المسلمين وعلى وجه الخصوص الطب، والجراحة، والأدوية، والنباتات. وقد سلط الضوء العلامة شبلي على هذه الناحية كما يقول:

"لا شك في أن المسلمين ممتنون لليونان والروما في المرحلة الأولى للفلسفة و الطب، ويظهر ذلك من كل صفحة من صفحات مصنفاتهم، وحصل لأسماء أفلاطون وأرسطو إكرام في البلدان الإسلامية ما لم يحصل لهما في أوربا، والحقيقة أن المسلمين وجدوا ذرة فجعلوا منها شمساً. إنهم طوّروا علم الهيئة إلى حد بعيد، واكتشفوا كثيراً من أخطاء أرسطو في علم الطبيعة، ودوّنوا المنطق من جديد وفي أسلوب جديد وأضافوا إليها عدة أصول، وأوجدوا آلات الرصد الجديدة. إنهم اكتشفوا مستوى سرعة النور، وقاعدة الانعكاس في علم المناظرة. والجبر والمقابلة اللتان لم تتكونا إلا من عدة قضايا أوصلت مستوى العلم بابتكار المسلمين. إنهم أوجدوا صنعة الأدوية، وترتيب الوصفات الطبية، وآلات العصاره، وتحليل المواليث الثلاثة، وفحص الخلاف والمشابهة في الحامضات. إنهم أسسوا كذلك الكيمياء، وأضافوا حوالي ألفي نبات في علم النبات، والحقيقة أنه إذا وازن أحد بين المصنفات العربية واليونانية وجد بينهما فرقاً كبيراً وبعداً شاسعاً مثل ما يوجد بين القطرة والبحر." (مقالات شبلي، المجلد الثالث، ص 17، مقال "مسلمانون كي كذشته تعليم")

إثبات عدم وجود يد المسلمين في تخريب مكتبة الإسكندرية:

قد رد العلامة شبلي في مقاله "مكتبة الإسكندرية" على ما اتهمه المؤرخون الأوروبيون المسلمين بتخريب وإحراق هذه المكتبة التاريخية الشهيرة التي كان أسسها بطليموس، ونتيجة لذلك بتحريم العالم من خزينة عظيمة للكتب في خلافة عمر الفاروق -رضي الله عنه- عند فتح مصر. وقد أثبت العلامة شبلي بدلائل بأن المسيحيين هم الذين قاموا بتخريب هذه المكتبة العظيمة، وكان قد شارك في تخريبها علماء مسيحيون ورهبان كبار، وعندما فتح المسلمون الإسكندرية لم يكن هناك ما يسمى مكتبة

الإسكندرية. وقد جاء العلامة بدليل آخر في إثبات عدم تخريب المسلمين للمكتبة وهو وجود كثير من كتب الأطباء اليونانيين المتأخرين التي حافظ عليها المسلمون ونقلوها إلى اللغة العربية، كما يقول في نهاية مقاله:

"بعد الخوض في جميع حوادث التاريخ تبدو الحقيقية بأن جميع المكتبات القديمة في الإسكندرية كانت قد بادت قبل فتح المسلمين، وقد ذكر المؤرخون أسبابها واتفاقاتها بكل تفصيل، ولكن رغم ذلك لم تندثر آثارها، ولم يكن من الممكن أن تنمحي الآثار العلمية في مدينة كانت داراً للعلوم لمئات من السنين، ولذلك نعثر على وجود سبعة فلاسفة وأطباء مشهورين قبل مجيء الإسلام في مصر بقليل، وأسماءهم كما هي، أسطفن، وجاسيوس، وثادودسيوس، وأكيلاؤس، وأنفيلأؤس، وفلاديوس، ويحيى، وهذا الأخير يحيى النحوي عمر طويلاً وكان حيّاً في عصر عمرو بن العاص -رضي الله عنه. كانت مكتبات الإسكندرية قد بادت قبل ذلك بكثير، ولكن الآثار العلمية التي توفرت في آخر الزمان كانت متواجدة عند فتح المسلمين لمصر وكانت باقية إلى زمان بعيد، ولذلك عمال هارون الرشيد، ومأمون الرشيد، والمتوكل بالله الذين كانوا يبحثون عن الكتب الفلسفية والطبية في الشام، وفلسطين، وآسيا الوسطى، وجزيرة قبرص، سافروا إلى الإسكندرية أيضاً وحصلوا هناك على كتب كثيرة. وقد كتب حنين بن إسحاق بأنه جال في البحث عن كتاب البرهان لجالينوس في جميع مدن الجزيرة، والشام، وفلسطين، ومصر إلى أن وصل إلى الإسكندرية ولكنه لم يجد إلا بعض أجزاءه في دمشق. واجه حنين المشكلة في البحث عن هذا الكتاب لأن المكتبات كانت قد خربت قبل الإسلام، ولكن تم الحصول على جميع مصنفات الزمن الأخير التي كانت متواجدة في بداية الإسلام. جميع كتب الحكماء السبعة الذين مضى ذكرهم والتي كانت محفوظة في بداية العصر الإسلامي وقعت بأيدي الباحثين وترجمت إلى اللغة العربية، وتمتعت كتب يحيى النحوي بعناية أكثر، وبعض كتبه التي ترجمت إلى اللغة العربية كما هي (بعد ذلك ذكر العلامة شبلي أسماء ثلاثين كتاباً) وهناك كتب أخرى تتوفر تفاصيلها في طبقات الأطباء، وكتاب الفهرست لابن النديم. وإذا كانت مكتبة الإسكندرية خربت في عصر عمر الفاروق لاندثرت أولاً كتب يحيى النحوي

الذي كان من معاصري عمرو بن العاص -رضي الله عنه- وكان مديرًا للمكتبة المذكورة حسب قول أبي الفرج. (مقالات شبلي، المجلد السادس، ص 119-120، مقال "مكتبة الإسكندرية")

الطب في الأندلس:

للطب في الأندلس تاريخ مجيد، وولد هناك أطباء كبار اشتهروا في ميادين الطب المختلفة. قد ذكرهم العلامة شبلي في مقالاته وألقى الضوء على خدماتهم. تم نقل "كتاب الحشائش" للطبيب اليوناني ديسقوريدوس في عهد الخليفة العباسي المتوكل، ولكن كانت هذه الترجمة ناقصة من نواح مختلفة، وتم إمالة هذه النقايس بكل نجاح في الأندلس كما يقول العلامة شبلي:

"نذكر هناك قصة تدل على اهتمام المسلمين البالغ بصحة الترجمة. أجود كتاب يوناني في ذكر الأدوية المفردة هو كتاب ديسوخودورس. قام بترجمة هذا الكتاب إلى اللغة العربية أصطفن بن بسيل في عهد الخليفة المتوكل بالله، وراجع وصححه حين، ولكنه قام بإبقاء الأسماء اليونانية للأدوية التي لم تكن متواجدة بالعربية. وردت هذه الترجمة في الأندلس، ولكن الناس لم يتمكنوا من الانتفاع بها بسبب الأسماء اليونانية. في عام 377 للهجرة في عصر عبد الرحمن الناصر أهدى قيصر الروم مارنيس الكتاب الأصلي الذي كان مزينًا بصور الأدوية والنباتات إلى عبد الرحمن، وإن كان في بلاط عبد الرحمن رجال لهم إلمام باللغة اللاتينية ولكن اللغة اليونانية القديمة كانت قد أصبحت مهجورة فوجد الأطباء الذين كانوا يشتاقون إلى الاستفادة من هذا الكتاب صعبة في فهمه والاستفادة منه، فكتب عبد الرحمن إلى قيصر وطلب منه أن يرسل عالمًا له إلمام باليونانية واللاتينية كليهما، فأرسل عالمًا مسيحيًا في عام 340هـ فتعلم منه هذا الكتاب الأطباء المسلمون من أمثال محمد شجار، ابن جلجل، بسباعي، أبو عثمان خزاز، محمد بن سعيد، عبد الرحمن بن إسحاق، أبو عبد الله الصقلي بكل شوق واكتشفوا الأدوية المجهولة في قرطبة وقاموا بتصحيح الأسماء. وابن جلجل الذي كان من أشهر هؤلاء الأطباء كتب شرحًا مفصلاً على هذا الكتاب وقام بحل جميع مواضعه، وبالإضافة إلى ذلك إنه كتب كتابًا آخر

العدد الخاص مجلة الهند

جمع فيه تفاصيل للأدوية التي لم يوجد ذكرها في كتاب ديسوخودورس. (مقالات شبلي، المجلد الثالث، ص 28-29).

ومن الأطباء الأندلسيين الذين نالوا شهرة واسعة ابن رشد الذي كان طبيبًا ماهرًا، وفقهًا عظيمًا، وفلسفيًا كبيرًا وقد نالت فلسفته قبولًا عظيمًا في الغرب. قد كتب العلامة شبلي مقالات عديدة حول ابن رشد في مجلة "الندوة"، ومجلة "المعارف"، وجمع هذه المقالات العلامة السيد سليمان الندوي في المجلد الخامس لمقالات شبلي. قد تناول العلامة شبلي حياة ابن رشد من الولادة إلى الوفاة، ودراسته، وأخلاقه، وكماله، وتصانيفه التي تتعلق بالفقه، وأصول الفقه، والفلسفة، والكلام، والطب، وألقى الضوء على مكانته العلمية، وكتب حول نشر أفكاره في أوروبا ومخالفاتها هناك، وقد ألقى العلامة الضوء على خدمات ابن رشد في مجال علم الطب في عبارة آتية:

"ابن رشد مصنفات كثيرة في علم الطب فقد أضاف كثيرًا في هذا المجال. وكتابات في الطب ينقسم إلى قسمين: أولًا الكتب التي أنتجها بنفسه، ومن أهم هذه الكتب كتاب الكليات الذي هو كتاب شامل وبحث دقيق، وكذلك بعض كتيبات على سبيل المثال مقال في المزاج، ومقال في نوائب الحمى. وثانيًا الكتب التي كتبها كخلاصة أو شرح للمصنفات اليونانية، وتفصيل هذه الكتب كما يلي:

1- شرح كتاب الأسطقسات لجالينوس، 2- تلخيص كتاب المزاج لجالينوس، 3- تلخيص كتاب القوى لجالينوس، 4- تلخيص كتاب العلل والأعراض لجالينوس، 5- تلخيص كتاب التعرف لجالينوس، 6- تلخيص كتاب الحميات لجالينوس، 7- تلخيص كتاب الأدوية المفردة لجالينوس، 8- تلخيص النصف الثاني من كتاب حيلة البرء لجالينوس. (مقالات شبلي، المجلد الخامس، ص 35، مقال "ابن رشد")

وفي مكان آخر ذكر العلامة شبلي الطبيب الأندلسي ابن بيطار في عبارة آتية:

"كان هناك اهتمام خاص بتوفير الأدوية بجانب المستشفيات. وكان هناك قسم خاص لرصد الأدوية التي كان يبيعها العطارون، وكان يدعى مسؤول هذا القسم رئيس العشابين الذي كان دائمًا من الأطباء المهرة في علم النبات. في القرن السابع الهجري تعين على هذا

المنصب ضياء بن بيطار الذي كان له يد طولى في الطب وبلغ في هذا العلم إلى المستوى الذي لا يضاحيه أحد من المسلمين، كان حافظاً للكاتب اليونانية والإضافات التي جعل المسلمون فيها، ولكنه لم يطمئن بذلك بل سافر بنفسه إلى البلدان النائية، وبحث عن النبات في يونان، وإيطاليا، والجزائر، وبحر الروم، وكان يواكبه المصورون الذين كانوا يرسمون صور النبات والعشب، ويكتب آثارها في أحوالها المختلفة، إنه نبه إلى كثير من أخطاء اليونانيين، واكتشف كثيراً من النبات والعشب الجديد الذي لم يكن معروفاً لدى اليونانيين." (مقالات شبلي، المجلد السادس، ص155)

تم انحطاط المسلمين في الأندلس، ولكن فضلهم لم ينقطع، فتم ترجمة كتبهم إلى اللغات الأوروبية، وتلامذة الطب الذين تعلموا من المسلمين عملوا طبيباً. ونسمع عن مركز علم عرف بمدينة "سلرنا"، وقد ذكر العلامة نقلاً عن كتاب "الإمبراطورية الرومية" لغين:

"حصل لمستعمرات المسلمين في إفريقيا، وإسبانيا، وصقلية إمام بالأدوية اليونانية، ونتيجة للحرب والصالح واحتكاك البعض ببعض أصبحت مدينة سلرنا مرجعاً للعلوم. قامت هناك مدرسة خاصة بتعليم فن الجراحة في عصر إنجلترا الجاهلي بإجازة الرهبان وعلماء الدين، وكان المرضى يأتون أطباء سلرنا من مدن نائية أو يطلبون منهم الزيارة. كان هؤلاء الأطباء يعيشون تحت فتوحات نارمندي. كان في هذه المدينة عالم مسيحي يسمى قسطنطين الذي عاد من بغداد بعد أن أمضى تسعاً وعشرين سنة هناك للحصول على العلوم واللغة العربية، كذلك تمتعت هذه المدينة بمستوصف تلميذ بو علي سينا وبكتابه وإرشاداته." (مقالات شبلي، المجلد الثالث، ص77، مقال "تراجم")

الطب في الهند:

قد ذكر العلامة شبلي في كتاباته المختلفة علاقات المسلمين الثقافية بالهند في العصر العباسي، وبصفة خاصة حضور الأطباء الهنود في بغداد. إنه يكتب تحت العنوان الفرعي عن الاختراعات والاكتشافات فيما يلي:

"نتيجة مهمة للرقى الحضاري الاختراعات والاكتشافات، فنرى في عصر المغول اختراعات واكتشافات في كل فرع من فروع العلوم، ونورد تفاصيل البعض في العبارة التالية:

حوض غريب: كان الحكيم علي اخترع حوضاً غريباً لا يوجد له مثل حتى الآن. إنه كان من بلاط الإمبراطور أكبر المغولي وبناه في 29 للجلوس الأكبري. كان في الحوض تسع غرفة صغيرة لجلوس عشرة أو اثني عشر رجلاً، وكان النور يدخل من كل جانب في الغرفة ولكن وجهة الهواء كان في شكل لا يدخل منه الماء، وكانت الغرفة مفروشة، وكان الطعام موفراً هناك. وقد ورد ذكر هذه الغرفة وزيارة أكبر لها في مآثر الأمراء، وكذلك ورد ذكر زيارة جهانكير لهذه الغرفة في عام 1018 للهجرة في تزك جهانكيري.

رحى الكل: كان مير فتح الله الشيرازي الذي حضر الهند على طلب الإمبراطور أكبر في عام 991 للهجرة وتعين على منصب أمين الملك أوجد رحى الكل. كانت هذه الرحى تعمل بالهواء والماء أوتوميتيكياً وقد جاء ذكرها في المجلد الأول من كتاب مآثر المرء. هذا الاختراع لا يعتبر شيئاً مهماً في هذه الأيام ولكن في زمانه كان يعتبر شيئاً عجيبياً حتى في أوروبا. (مقالات شبلي، المجلد السادس، ص 168-169، مقال "أثر حضارة الحكومة الإسلامية في الهند")

واشتهر جهانكير من بين السلاطين المغول لوجوه مختلفة. قد كتب العلامة شبلي استعراضاً طويلاً لسيرته الذاتية "تزك جهانكيري" وكتب حول وجهات حياته المختلفة، إنه يذكر تجاربه في الطب في العبارة التالية:

"كان للإمبراطور جهانكير رغبة خاصة في البحث عن كل شيء، فإذا ذهب إلى إحدى ولاياته بحث عن كل شيء هناك، وقد كان له كُتاب الوقائع في كل مكان وكانوا يعدون تقارير عن أحوال البلاد والأشياء الأخرى. كان جهانكير يبحث عن الشائعات المسلمات للوصول إلى صحتها أو خطأها وهي كانت تثبت في كثير من الأحيان خطأً، على سبيل المثال كان من شائعات الناس أن الجرح يندمل من فوره باستخدام الموميا ولكن إذا جرب ذلك جهانكير اكتشف بأن هذا خطأ وقد ذكر ذلك في تزك جهانكيري.

وكذلك الزعفران الذي يعتبر مسبباً للضحك بين عامة الناس وذكر ذلك في كتاب خوارزم شاهي الشهير للطب. طلب جهانكير سجيناً للتحقيق عن حقيقة الزعفران وأطعمه حوالي نصف كيلوغرام من الزعفران، ولكنه لم يجد أي أثر، فأطعمه ضعف

ذلك من الزعفران ولكن مع ذلك لم يحدث شيء." (مقالات شبلي، المجلد الرابع ص101، مقال "تذك جهانكيري")

المستشفيات في الدول الإسلامية:

قد سلط العلامة شبلي الضوء على المستشفيات في العهد الإسلامي في مقاله "الدول الإسلامية والمستشفيات"، وأثبت بأن السلاطين المسلمين كانوا قد تقدموا كثيرًا في الأعمال الرفاهية لعامة الناس. وإذا نظرنا إلى نظام بعض المستشفيات وجدنا أنها لم تكن أقل من مستشفيات العصر الحاضر وكانت الحكومة تعتني بها كل عناية. إنه كتب بأن الخليفة الأموي الأول الوليد بن عبد الملك الذي كان له رغبة خاصة بالأعمال الرفاهية كان أول من أسس المستشفى، إنه كتب نقلًا عن المقرئ بن أبي عمير بأنه اكتمل بناء هذا المستشفى في عام 88 للهجرة، وتم تعيين كثير من الأطباء والجراحين للعلاج. وذكر العلامة مستشفيات العصر العباسي بكل تفصيل، على سبيل المثال مستشفى جنديسابور، ومستشفى بغداد للبرامكة، ومستشفى هارون الرشيد.

قد أتى العلامة بمعلومات قيمة عن بعض المستشفيات، مثلًا كتب عن المستشفى الذي أسسه أحمد بن طولون والي الخلافة العباسية لمصر والمغرب والشام بأنه عندما حضر مريض للعلاج في هذا المستشفى، يؤخذ منه ما كان لديه من الملابس والنقود ويودع أمانة لدى أمين الخزانة، ويُعطى ملابس وفرش من قبل المستشفى، ويزوره الطبيب صباحًا ومساءً لرعايته وتغيير الأدوية إذا دعت إلى ذلك الحاجة، وعندما يسترد المريض صحته ويستطيع أن يأكل الخبز والدجاجة، تُرد إليه أمانته ويؤذن له الذهاب.

ويكتب العلامة شبلي بأن من المستجدات، قيام طريق الاختبارات الذي لم يكن رائجًا من قبل، وقد ذكر العلامة بهذا الصدد حادثة فيقول، في عام 319 للهجرة، قام طبيب غير ماهر بمعالجة مريض فمات بالعلاج الخاطئ، وعندما بلغ ذلك الخليفة، صدر الحكم بأن لا يؤذن لأحد أن يفتح مستوصفًا أو يقوم بعلاج إلا بعد النجاح في الاختبارات، فعقدت الاختبارات تحت رعاية الطبيب الشهير سنان بن ثابت وحضر أوف من الأطباء للاختبارات، ونجح منهم ثمانية وستون شخصًا فمنحوا الشهادات، ولم يجلس في الاختبارا

ت الأطباء الذين كانت مهارتهم مسلمة من قبل وكانوا يتعلقون ببلاط الخليفة. وهذا يدل على منتهى حضارة بغداد وسعة ثقافتها. وكان هناك تصريح في الشهادة لنوع الاختبار الذي نجح فيه الطبيب، ولنوع المرض الذي يوذن له أن يعالجه.

كتب العلامة عن المستشفى الذي أسّسها عضد الدولة بأنه في الحقيقة كان جامعة للطب، فقد كانت آلات الطب متوفرة هناك بكثرة، وكان هناك أطباء كثيرون للمحاضرات، وأستدعي أطباء من البلدان النائية للمعالجة، وكان هناك أساتذة مهرة لكل فرع من فروع الطب لإلقاء المحاضرات وللمعالجة المرضى.

وقد ذكر العلامة المستشفيات التي أسّسها السلطان نور الدين الزنكي، والسلطان صلاح الدين الأيوبي، والملك منصور قلاوون بكل تفصيل. وكتب في مكان بأن الهند كان فيها مستشفيات كثيرة، وإذا صدّقنا رواية المقرئزي ففي مدينة دهلي فقط، كانت هناك سبعون مستشفى في عهد السلطان محمد بن تغلق.

يكتب العلامة في نهاية مقاله:

"هذا تاريخ مختصر للمستشفيات الإسلامية، وقد تطور هذا الفن لدى المسلمين تطوراً عظيماً حتى كتب كثير من الأطباء عن المستشفيات وأحوالها كتباً مستقلة من أمثال أبي بكر الرازي، وأمين الدولة بن تلميذ، وأبي سعيد زاهد العلماء، ولكن من الأسف الشديد يبدو أن هذه الكتب قد اختفت عن الدنيا.

تعريف بالمخطوطات الطبية:

ما زال العلامة شبلي يبحث عن المصادر والمراجع العلمية، فإذا طبع كتاب قديم كان يكتب استعراضاً له، وإذا وقعت بأيديه مخطوطة مهمة كان يعرفها، والمجلد الرابع من مقالاته يشتمل على مقالاته التي كتبها حول كتب مهمة عند نشرها وقام بتعريفها، وكانت هذه الكتب على موضوعات التفسير، والحديث، والفقه، والسيرة، وتاريخ الإسلام، والتاريخ، وتاريخ الهند، والأدب، والشعر، والبلاغة، والرحلة، ومن بين هذه الكتب كان كتاب في موضوع الطب باسم "كتاب الكالي في الكحل"، وهذا الكتاب كان في أمراض العين، ونقلاً عن هذا الكتاب كتب العلامة

العدد الخاص مجلة الهند

بأن الأطباء كتبوا حول هذا الموضوع عدة كتب يبلغ عددها ثمانية. وقد ذكر العلامة في مقاله آلات مرض العين بصورها وأثبت مدى مهارة الأطباء المسلمين فيها ومدى تطور هذا الفن لديهم.

مصادر العلامة شبلي للطب:

استخدم العلامة شبلي في كتاباته عن الطب المصادر من الدرجة الأولى والموثوق بها، ويمكن لنا أن نقوم بتقسيم هذه المصادر إلى ثلاثة أقسام:

أولاً: الكتب التي كانت حول تاريخ الطب، على سبيل المثال كتاب "طبقات الأطباء" لابن أبي أصيبعة، وعنوان هذا الكتاب الكامل هو "عيون الأنبياء في طبقات الأطباء"، وكذلك كتاب "تاريخ الحكماء" لجمال الدين القفطي.

ثانياً: كتب التاريخ العام التي تحتوي على تاريخ الطب وسير الأطباء ضمناً، على سبيل المثال، وفيات الأعيان لابن خلقان، وفتوح البلدان للبلاذري، ومختصر تاريخ الدول لأبي الفرج ملطي، ومروج الذهب للمسعودي، وكتاب الخطط والآثار للمقريزي، وتاريخ اليعقوبي، وناسخ التواريخ للسان الملك، وكتاب نامه دانشوران وغيرها. إنه استفاد كثيراً من كتاب الفهرست لابن النديم، وكتاب كشف الظنون في أسامي الكتب والفنون للحاجي خليفة.

ثالثاً: المصادر الجديدة المتواجدة بالإنجليزية، مثلاً موسوعة جيمبرس، والإمبراطورية الرومية لغبن، وتاريخ هارون الرشيد لبامر، وتاريخ الهند لألفنستن، وكذلك الكتب باللغة الفرنسية لمونك.

بعض الأخطاء الواردة:

نجد بعض الأخطاء في كتابات العلامة شبلي حول الطب، وليس فينا من لا يخطئ، وبغرض توفير المعلومات الصحيحة لقراءنا نذكر هناك بعض الأخطاء:

1. قد ذكر العلامة الطبيب الأندلسي الشهير أبو القاسم الزهراوي في عبارة تالية:

وبفضل أوربا تم نشر كتاب الزهراوي حول فن التشريح، وهذا الكتاب يحتوي على مئات من الصور لآلات التشريح وطرق استخدامها، فقد جاء ذكر عشرات من الآلات المستخدمة لإخراج الجنين الميت من البطن. (مقالات شبلي، المجلد الرابع، ص 66-67 مقال "مآثر رحيمي لعبد الرحمن خان خانان")

هذه إشارة إلى كتاب "التصريف لمن عجز عن التأليف"، ويعلم كل طالب لتاريخ الطب بأن هذا الكتاب ليس في علم التشريح (Anatomy)، بل في فن الجراحة (Surgery)، والصور المذكورة فيها ليست لآلات التشريح بل لآلات الجراحة.

2. في مقاله "مسلمانون كي كذشته تعليم" قد ذكر العلامة فهرساً طويلاً للكتب التي تم نقلها إلى العربية نتيجة لجهود الخلفاء والأمراء المتتابعة، وبين أسماء الكتب نجد الأسماء التالية أيضاً:

كتاب الحشائش لديسقوريدس: في هذا الكتاب صور الأنبتة اليونانية في الحروف اليونانية القديمة.

كتاب الأدوية لديسقوريدس: يحتوي على خمس مقالات، وقام بتفسيرها ابن بيطار شيخ عبد الله بن احمد مالقي (مقالات شبلي، المجلد الثالث، ص 29).

كتاب الأدوية لديسقوريدس: قام بتفسيرها مالقي

أولاً: جاء ذكر كتاب الأدوية مرتين. وثانياً: كتاب الحشائش وكتاب الأدوية ليسا كتابين مختلفين لكاتب بل كتاب واحد اسمه كتاب الحشائش، وهذا الكتاب في موضوع الأدوية النباتية. وثالثاً: لم يتم بشرحه وتفسيره الطبيب الأندلسي ابن بيطار بل شارحه طبيب أندلسي شهير آخر اسمه ابن جلجل (توفي بعد 377 للهجرة)، واسم كتابه "تفسير أسماء الأدوية المفردة من كتاب ديسقوريدوس"، ولابن جلجل كتاب آخر ذكر فيه الأدوية التي لم يأت ذكرها في كتاب الحشائش، واسم هذا الكتاب "استدراك على كتاب الحشائش لديسقوريدوس"، وقد ذكر العلامة شبلي عمل ابن جلجل هذا في مكان آخر. (مقالات شبلي، المجلد الثالث، ص 28-29، مقال "تراجم").

العدد الخاص مجلة الهند

خلاصة البحث:

لم يكتب العلامة شبلي كتابًا مستقلًا في الطب، ولكن كل ما كتب تناول فيه النواحي المختلفة للطب:

أولاً: إنه أول من كتب باللغة الأردية حول بعض موضوعات الطب.

ثانياً: تم نشر كتب كثيرة حول تاريخ الطب، ولكنها لم تكتب حول هذه العناوين بهذه الدقة والتحقيق.

ثالثاً: كل ما كتب العلامة شبلي كان قد أخذه من المصادر الأولية، ولذلك أصبحت كتاباته مرجعًا للكتاب فيما بعد.

المقارنة بين الشعر العربي والشعر الفارسي

(في ضوء "شعر العجم" للعلامة شبلي)

- أ. د. فيضان الله الفاروقي¹

لقد تمتع الشعر من الأهمية الكبرى في كل قوم ودين عربياً كانوا أم إيرانيين أم هنوداً وذلك بسبب قيامه بدور ريادي فعّال في المجتمع البشري وفي كل شعبة من شعب الحياة إلا أن الأدب العربي والأمة العربية قد أولوا اهتماماً أكثر من الأمم الأخرى فكانوا يولمّون ويدعون الشعب إلى المأدبة كلما برز فيهم شاعر.

ونفس الأهمية أو الدرجة تمتع بها الشعر الفارسي لأجل قيامه بإبراز مكانم الرجال من الملوك والكبار ولأجل اشتماله على محاسن الشعر. هذا وقد احتوى كلا الشعيرين على أشياء أمتعت الناس وقلوبهم وأنفسهم من موضوعات الغزل والفكاهة والتعبير عما يختلج في القلوب والأذهان.

ولو أن الشعر الفارسي وليد العرب لأنهم هم الذين حثّوا إخوانهم ومن ثم الإيرانيين على أن يبدعوا في اللغة الفارسية، الأمر الذي أوجد الشعر الفارسي، وبما أن الجوّ كان ملائماً وموافقاً مائة بالمائة لنموّ الشعر وتطوّره في أرض إيران ومن ثم في الهند فقد تطوّر في العصور القادمة حتى فاق الشعر العربي في أصناف شعرية وفي مواضيعه وفي الأخيّلة والأفكار، وأما الشعر العربي فلم يتقدّم لأجل حرمانه من الجوّ الملائم ولأجل فقدانه ممن يشجّعه على النموّ والتطوّر ولو أنه سبق الشعر الفارسي في الميلاد والحدوث بل لا نبالغ إذا قلنا إنه هو الوالد لهذا المولود إلا أن الولد سبق الوالد في المضمون والمحتوى والصنف.

¹ أستاذ، مركز الدراسات العربية والإفريقية، جامعة جواهر لال نهرو، نيودلهي

العدد الخاص مجلة الهند

وقد تناول العديد من الكتاب والمؤرخين المقارنة بين الشعر العربي والفارسي في كتبهم المتعلقة بالمقارنة بين الآداب العالمية إلا أن العلامة شبلي النعماني لكونه متعصبًا للعرب ولغتهم وأدبهم ولأجل براعته في الشعر الفارسي فقد قام بالمقارنة بين الشعر العربي والشعر الفارسي بصورة جدية وأثبت بدلائل أن الشعر العربي خالص لا يشوبه التكلف والتصنع بينما الشعر الفارسي يشوبه التكلف والتصنع وهو بعيد عن الفطرة بعد الثرى من الثريا.

ولا شك أن العرب كانوا يفتخرون أن كلامهم مبني على القول الصادق حتى قال قائلهم:

القائل القول الذي مثله يـمـرـعـ منه البلد الماحل
وقال آخر:

وإن أحسن بيت أنت قائله بيت يقال إذا ما أنشد صدقا
ويقول الشاعر العربي الحيكم زهير بن أبي سلمى:

وفهم مقامات حسان وجوههم وأنديئة ينتابها القول والفعل¹
ولنقرء فيما يلي ما قام به العلامة شبلي من المقارنة بين الشعر العربي والشعر الفارسي في كتابه الشهير "شعر العجم" و"مقالات شبلي".

خصائص الشعر العربي وميزاته

وقد ذكر العلامة شبلي في كتاباته أن الشعر العربي يتميز مما يلي:

1. الشعر العربي يحتوي معظمه على أخبار الشجاعة والرجولة فكل شعر لهم يحتوي على مثل هذه الأمور فقد وضعوا بابًا خاصًا به ألا وهو الحماسة. أما الشعر الفارسي فلا تجد فهم مثل هذه الأشياء وذلك لأن شاعرهم لم يكن يحضر الحروب وأما القتال والنضال فكان بعيدًا عنه بعض الثرى من الثريا

¹ ص 62

- فكل ما قال أو قرض كان فقط حكاية الشجعان من الملوك والتي لا تؤثر مثلما تؤثر في الرجال قصص أو حكايات رجولة أحد ذاته وذلك لأن الشاعر العربي كان يحضر الحروب ويقاوم فيقتل أو يُقتل. وعادة كانت العرب تعتبر الموت في ساحة الحرب أفضل موت وأعلاه فكان الموت في الفراش أسوأ موت وأرذله لديهم.
2. الشعر العربي يحتوي على الحرية في التعبير عما يختلج في الخاطر وذلك لأن العرب كانوا أحرارًا لا قيدهم ملك ولا منعهم شيخ، ما كانت لديهم قوانين ولا كانت عندهم أصول. كل ما امتلكوه من الخيام والإبل وكانوا يعتبرونه صحيحًا أصابوا أم لم يصيبوا فكانوا يقولون: أنصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا. وفي جانب آخر كان الشعراء الفارسيون يحيط بهم القيد والتحرز والحذر فما كانوا يقولون إلا حذرًا فكلامهم لا يخرج عن خواطهم الحرة بل عما يحيط بهم من الجوّ السائد.
3. أهم وأبرز موضوعات الشعر العربي الجود والسخاء والذي يخلو منه الشعر الفارسي. قلت: يخلو لأن الجود المذكور في الشعر الفارسي أو أمور الأخلاق العليا المذكورة في الشعر الفارسي إنما هي مما حكاها الشاعر من عادات أو أخلاق الآخرين بينما الشاعر العربي يقول ما يفعل فكل ما ينصحه أو يرشد إليه إنما هو مما قام به من الأمور والفرق بين القول الذي يرافقه الفعل والقول الذي لا يرافقه الفعل أمرٌ بينٌ وتأثيره أشهرٌ من قفا نيك.
4. إن الشعر العربي ديوان العرب؛ كل ما يقوله الشعر العربي يكون صورة حقة صادقة للمجتمع العربي بينما الشعر الفارسي كله كذب ورين لا يعطيك أي معلومة عن المجتمع ولا يكون ذريعة لفهم مجتمع فهمًا حقًا وعلى هذا فلم يكن الشعر "ديوانًا" لإيران أو الإيرانيين. وما يقوم به النقاد من العلم عن المجتمع عن طريق الشعر الفارسي ليس بصحيح.

5. إن حبيب الشعر العربي امرأة بينما حبيب الشعر الفارسي أمرد وكان المجتمع العربي يفضل الحجاب والاهتمام بعزة المرأة، فلم تكن حبيب الشعر العربي تتجول في الأسواق بينما حبيب الشعر الفارسي كان يتجول ويلتقي مع غيره محبه وعاشقه، وهذا هو الفرق الذي خلق كلمة "رقيب" إلا أن هناك فرقاً بين رقيب الشعر العربي ورقيب الشعر الفارسي فرقيب الشعر العربي هم أفراد عائلة الحبيب الذين يحتفظون بعزة الحبيب بينما رقيب الشعر الفارسي هم العشاق الذين يلتقي معهم حبيب الشاعر الفارسي، فقدّر من هذا عزة ورفعو وعظمة كلا الحبيين.
6. بما أن العرب كانوا يقاتلون فيقتلون أو يقتلون وعلى هذا تولّد فهم صنف بديع سميّ "الرثاء" والرثاء صنف لا يوجد في الشعر الفارسي على حدة وأما الحماس والانتقام وذكر المكارم والمحامد فهذه يخلو منها الشعر الفارسي.

خصائص الشعر الفارسي وميزاته

ويختص الشعر الفارسي بما يلي:

1. المنظومات التاريخية التي يخلو منها الشعر العربي وذلك لأن التاريخ يحتاج إلى الملحمة التي لا توجد في الشعر العربي إلا قليلاً بينما الشعر الفارسي يملأه هذه المنظومات التاريخية وملحمة "شاهنامه" خير دليل على ما نقول.
2. من مناظر الربيع وذكر الحدائق وما شابهها من الموضوعات التي يوجد ذكرها لدى الشعر الفارسي لا توجد في الشعر العربي لأن العرب بدو يعيشون في الصحراء ومن عاش في الحضر لم يكن يتمتع من هذه التسهيلات الفطرية.
3. وكذا الأمور المتعلقة بالحب والحبيب، المذكورة في الشعر الفارسي لا توجد في الشعر العربي إلا قليلاً فلا نجد من الأمور الدقيقة اللطيفة للحب في الشعر العربي ما نجده في الشعر الفارسي.

4. ذكر الفلسفة والتصوف يخلو منهما الشعر العربي فلا نجد في الشعر العربي شعراء يضاهاون بالمولانا الرومي وفريد الدين العطار والسنائي والعراقي والأوحدى.
5. وكذا يمتليء الشعر الفارسي بالمنظومات الخلقية حتى تجد العديد منها خاصّة بها بينما الشعر العربي لا يتمتع من هذه الخصوصية.
6. ونقد الواعظين والناصحين المرثيين المذكور في الشعر الفارسي يخلو منه الشعر العربي تمامًا فبدأ خيام وسعدي بهذا الصنف في الشعر الفارسي وبلغ به الحافظ ذروته. ولعل هذا الصنف لا يوجد في العرب لأن ناصحهم لم يكونوا سوى شعرائهم أو خطباءهم والذين لم يكونوا يقولون شيئاً قبل أن يقوموا به.

المقارنة بين الشعر العربي والشعر الفارسي

فقد ثبت مما مضى أن لكل من الشعيرين ميّزات وخصائص إلا أن الشعر العربي يحتوي على حقائق وهو أقرب من المجتمع مقابل الشعر الفارسي وذلك لأننا يمكن لنا الاستدلال بالشعر العربي على أمر خاص بالعرب بينما لا يمكن لنا مثل هذا في الشعر الفارسي وهكذا كل ما يقوله الشاعر الفارسي لا يتأثر به إلا قليل من الحضور بينما الشاعر العربي يقلّ دنيا الحضور من كلامه فيشجّعهم على الحروب كما يمنعهم عن المساوئ كما يريهم صورة حقة للأمر اجتماعياً كان أو ذاتياً بينما الشعر الفارسي يفقد هذه الأشياء. فيه قول ولا عمل يدعّمه، حكاية لا يثبتها ذات الشاعر بل هي حكاية فارغة فقط والتي لا تؤثر تأثيرها في الشعر العربي. نعم إن الشعر العربي لا يتمتع من بعض التسهيلات التمدنية التي تمتع بها الشعر الفارسي ولكن حرمانه من هذا قد خلق جواً لم يكد يخلق في الشعر الفارسي.

المأمون

- العلامة شبلي النعماني الهندي

ترجمة من الأردوية: د. أورنك زيب الأعظمي¹

تصدير

نحمده ونصلي على رسوله الكريم وبعد!

هذا قول صادق للغاية "شقي قومٌ ينسى محامد آبائه أو يجهل عنها" فذكر مآثر الآباء يثمر حسناً وسيئاً معاً؛ فإن لم يكن الوارث شيئاً يذكر ولا يعزم على تقديم شيء بل هو يفتخر بها فعمله هذا ليس إلا عمل من يبيع محامد آبائه، وإن كان يرغب في صيرورته كما كانوا هم فهي بمنزلة ماء الحياة له ولكن الذي يجب علينا قبل هذا أو ذلك هو الاطلاع على مصادر تلك الأحداث والمآثر فإن تاريخنا قد دَوّن في زمن لم يترق فن كتابة التاريخ كما هو الآن فدرر مآثر آبائنا منتثرة هنا وجواهر محامد أجدادنا مختفية هناك فهذا عمل رجل مؤهل بأن يجمعها فينظمها في سلك جميل جذاب.

ويسرنا أن صديقنا المكرّم وبروفيسور كليتنا الشرقية الشيخ محمد شبلي النعماني قد تحمل عبء هذا الثقل الباهز وأحبّ أن يكتب سلسلة تراجم أبطال الإسلام (Heroes of Islam) وهذا الكتاب حلقة من تلك السلسلة الذهبية، والذي يقدّم ترجمة المأمون ويعنون به. إنه قرّر مأمون الرشيد بن هارون الرشيد بطلاً من بين الخلفاء العباسيين وكتب كافة مآثره، حسنة كانت أو قبيحة، بحسن المعالجة والأسلوب.

لم تكن كتابة وقائع التاريخ صعبة أيّ صعوبة ولكن الأشياء التي لم تخطر كتابتها ببال مؤرخي تلك العصور إلا قليلاً أو لم يعتبروها مهمة والحال أنها تهّم في زمننا هذا فنبحث

¹ أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة المليية الإسلامية، نيودلهي

العدد الخاص مجلة الهند

عنها بجدية فالبحث عنها كان صعباً للغاية فقد تكَلَّل الشيخ بالنجاح فيها أو قدراً ما يمكن له فضبط في جزءه الأول أحداث التاريخ ووقائعه وأرى بكل جودة وإيجاز أن سلسلة الخلافة كيف دمّرت بني أمية فانتقلت إلى بني العباس وما هي الأسباب التي جعلت الأمين وأخاه المقتول والمأمون مسيطرين على السلطنة الإسلامية بدون شريك ولا سهيم.

قد زَيّن هذا الجزء بأخبار ممتعة تتخلّله، الأمر الذي جعل هذا الجزء الجافّ الفاقد اللذة ممتعاً مليئاً باللذة.

وفي الجزء الثاني تم جمع وانتقاء تفاصيل وأجزاء عن نظم الدولة ودخلها ونظم العساكر وطرق المحاكم من حيث أمكن جمعها وانتخابها وذكر عادات المأمون وأخلاقه وأوضاعه الاجتماعية وحياته العائلية الخاصة به وأشغاله الخاصة والعامة وجلساته المختلفة المتنوعة كما صوّر حياة ذلك العهد وطرز معيشته. هذا الجزء ممتع للغاية وهو مليئ بأحاديث وأخبار ساذجة تنوّر جلال الخلافة وشوكتها وأهمتها.

وبجانب النكت والفكاهات فقد ذكرت طرائف علمية أدبية تثري الأديب أدباً وتمتع الظريف فكاهة.

فالبحث عن هذه التفاصيل والأجزاء وجمعها المنسّق في مكان لم يكن عملاً سهلاً فلم يكتب المؤلف شيئاً لم يحله إلى مصدر موثوق به فقد أحيل عن خبر جزئي إلى تلك المصادر التي أخذ عنها فيبدو من نظرة سارحة إلى قدر المصادر والمراجع التي ذكرت في الهامش مدى المشقة التي عانى منها الكاتب في تأليف هذا الكتاب والعدد الهائل لصفحات التاريخ التي تصفّحها ومع هذا عندما نخيّل أن المؤلف قد بحث عن هذه الأجزاء في المصادر التي لن يخطر ببالنا أن نفوز بأحوال المأمون فيها فأنذاك تزداد هذه المحاولة المتأنية قدرًا ودرجة وثقة.

ألّف هذا الكتاب باللغة الأردوية ولغتها سلسلة بليغة إلى حدّ يغتبط بها أهالي دلهي.

قد لقيت اللغة الأردوية تطوُّراً بالغاً إلا أن الناطقين بها لم يعتنوا باختلاف الأساليب نظراً لاختلاف الفنون فأسلوب الرواية في كتب التاريخ وأسلوب التاريخ في كتب الرواية، أيّاً كان نصيبه من الفصاحة والبلاغة، يدمّر بعضهما البعض.

العدد الخاص مجلة الهند

فالسيد مكالي الذي هو أديب فاقد النظير للأدب الإنجليزي لا نجد مثيلاً لمقالاته (Essay) التاريخية بالنسبة لفصاحتها وبلاغتها إلا أنها تضرّ كثيراً بالحقائق التاريخية عن طريق أسلوبها الإنشائي والشعري.

فقد اعتنى مؤلفنا الموهوب بهذا الجانب وبالرغم من كونه موضوعاً تاريخياً فقد عالجه بأسلوب جميل جملها فصيحة وممتعة ولا تلحق بالحقائق التاريخية أيّ ضرر فالذي جميل ذكر جميلاً كما ذكر الذي قبيح قبيحاً فلم يزد الجميل جمالاً ولا القبيح قبحاً في البيان والتصوير والواقع أن هذه هي غاية كتابة التاريخ.

وقد وهب المؤلف حق طبع هذا الكتاب لمدرسة العلوم، علي كره (الهند) طبقاً لسخائه وعطفه القومي.

ففي هذه السنة صدرت طبعة هذا الكتاب الأولى لحق المؤسسة وبيعت كافة أعدادها ولكن القراء لم يزالوا يطلبونها وعلى هذا فقد أردت أن أصدر طبعته الثانية عن جهة المؤسسة ولفائدتها فكتبت لها هذا التصدير.

ومرة أخرى أقدم الشكر لمؤلفه على أنه أعاد النظر فيها فأضاف إليها موضوعات مفيدة ولازمة لاسيما إلى حكماء العهد المأموني فقد قام بزيادات مفيدة للغاية وأرجو أن هذه الطبعة ستنال قبولاً أكثر من القراء وستكون أكثر فائدة من ذات قبل.

سيّد أحمد خان

سكرتير، مؤسسة مدرسة العلوم، علي كره،

12/ أكتوبر، 1889م

الجزء الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

ولو أن خصائص المسلمين قد تبدّلت كثيرًا لأجل تغيّر الزمان وهي لم تنزل تتبدّل ولكن رغبتهم في تاريخهم الوطني باقية حتى الآن كما كانت من قبل فكما اشتهروا دائمًا بصيانتهم لتقاليد الوطن فكذا اليوم لهم ميل إلى ماضيهم الزاهر لا يعادله ميل آخر، وإنما الفرق بين الأمس واليوم هو أن لغاتنا الوطنية التي كانت متداولة قبل اليوم بمائة سنة، والتي قد أثارها مرور الدهر وعزائم المسلمين بذخائر التاريخ الوطني، الأمر الذي سبّب انتشار هذه الروايات فيما بين الناس مثل الأساطير وأدخلت فيها الأحاديث التي تشبه القصص بحيث إن كل جملة من أدبنا أصبحت نصًا وجيزًا لتاريخنا الوطني ولكن اللغة التي هي تكفل احتياجاتنا العامة (أي الأردوية) لا يكفي أدب التاريخ القومي الموجود في هذه اللغة حاجتنا إليه ولو أن قد ألّفت كتب عديدة في تاريخ الهند وكشف القناع عن مآثر المغول والتيمور إلا أننا بالرغم من أننا لا ننكر أن تاريخ الهند العمومي جزء صغير للغاية لتاريخنا القومي، فقد مضى على وجود الإسلام أكثر من ثلاثة عشر قرنًا وقد اتسع نطاق فتوحه وراء الحدود العربية مقيمًا دوله وحكوماته في مختلف بقاع العالم على أيدي بني أمية وبني العباس وبني أيوب والملثمين ولو أن هذه الخلفاء والملوك كانوا من أسر مختلفة إلا أن الوحدة الإسلامية قد جعلتهم قومًا واحدًا ومآثرها في مختلف المجالات قد أصبحت تاريخنا القومي فإن قمنا بالبحث عنها في اللغة الأردوية فهل نفوز بها؟

وليست قلة بضاعة اللغة الأردوية هذه مما نتعجب منها فلو أن الأردوية قد ارتقت في درجات التطور العديدة وودنت من أن تكون لغة علمية ولكن جماعة العلماء التي تمتلك اللغة العربية ومؤلفاتها وعلى هذا فالذخائر التاريخية في أيديها، لم تلتفت إليها بالإطلاق فدع التأليف والكتابة فإن علمائنا يظنون عارًا لهم أن يكتبوا بها رسائلهم،

العدد الخاص مجلة الهند

والواقع أن الأردوية قد تطوّرت بسرعة لم يقدر كثير من الناس ولاسيما الساذجين على قياس سرعتها وتنمّوها ولكن حينما أصبحت هي لغة البلاد في إنشائها وكتابة عامة مؤلفاتها وأعتقد أن معظمهم حتى الآن يحملون تلك الأحلام العربية والفارسية فالأجيال الحاضرة التي نشأت وتربّعت في الجوّ المحيط بنا يعاؤون بها ويعطونها حقها ويحبّون من أعماق قلوبهم أن يطوّروا لغتهم الوطنية إلى أعلى درجات الرقيّ والازدهار، وهذه هي العاطفة الخالصة التي أثارت في البلاد الإنشاء والكتابة بهذه اللغة ولكنه بما أن هذه الجماعة الجديدة لم يسعها أن تعرف اللغة العربية كل المعرفة لازدحام الحاجيات المعاصرة فلم يستفيدوا من المؤلفات العربية واختفى عنهم خزائن تاريخهم القومي الأصلية وعلى هذا وذلك فقد مالت فرقة منهم صابرة على التراجع والروايات، الأمر الذي وسّع ذيل الأردوية ولكننا نتأسف على أن اللغة التي طردت العربية والفارسية فأصبحت لغة البلاد قد حرمت تلك الخاصة العلمية التي كانت تستحقها لما أنها قامت مقام اللغة العلمية. وهذا هو الأمر الذي ينفخ الروح في الشعور الوطني والحماس القومي وإن لم يكن هذا فلا معنى للقوم والقومية.

ونظرًا لهذه الأفكار فقد طويت بين جنبيّ منذ مدة بعيدة نية كتابة تاريخ مفصّل بسيط للحكومات الإسلامية ولكن مشكّلي كانت هي أنني لم يسعني أن استقصي كافة الأسر ولا وجدت باعثًا على خيار سلسلة منها ففي النهاية حكمت على أن أكتب سلسلة أبطال الإسلام (أي سلسلة أبرز الخلفاء والسلاطين المسلمين) وأختار من بين أفراد الأسر المسلمة التي حكمت على بلد أو في عصر من عصورها خليفة أو سلطانًا لم يعادله خليفة أو سلطان آخر في أسرته الحاكمة فأكتب ترجمته بجامعية وشمولية نتدوّق الترجمة مع التاريخ فالأسر التي اخترتها لهذا الهدف السامي هي كما يلي:

الأسرة/السلسلة	البطل أي الذي	الأسرة/السلسلة	البطل أي الذي
	برز من أفراد أسرته الحاكمة	برز من أفراد أسرته الحاكمة	برز من أفراد أسرته الحاكمة

العدد الخاص مجلة الهند

الخلفاء الراشدون	الخليفة الثاني عمر رضي الله عنه	بنو أمية	الوليد بن عبد الملك
بنو العباس	مأمون الرشيد	بنو أمية (الأندلس)	عبد الرحمن الناصر
بنو حمدان	سيف الدولة	الخلفاء السلجوقية	ملك شاه
النورية	نور الدين محمد الزنغي	الأيوبية	سلطان صلاح الدين فاتح بيت المقدس
موحدو الأندلس	يعقوب بن يوسف	ترك الروم	سليمان الأعظم

وبجانب هذه الأسر هناك أسر إسلامية أخرى حكمت على مختلف البلاد ولكني صرفت النظر عنها بوعي بما أننا نمتلك مؤلفات بلغتنا عن بعضهم مثل الغزنوية والمغولية والتيمورية بينما هناك البعض التي لم تحظ، نظرًا لشوكة الحكومة أو سعة نطاقها، بتلك الدرجة التي تؤهلهم لاحتلال مقعد في بلاط أبطال الإسلام.

فالجزم الذي أقدمه للقراء يتعلق بتاريخ مأمون الرشيد ولذا فقد سمّيته بـ"المأمون" متأسفًا كذلك على أنني لم ألتزم بالترتيب المذكور أعلاه لأسباب وبواعث فتركت الخلفاء الراشدين وبنو أمية وتجاوزت إلى الأسرة التي كانت على الدرجة الثالثة ولعلي لا أقدر على الالتزام بالترتيب في الأيام القادمة ولكني عازم على أنني مكمل كافة أجزاء هذه السلسلة بأيّ طريقة كانت، لو ساعدني الدهر ورافقني العمر.

ومن حسن الحظ أنني أمتلك الآن معظم كتب التاريخ الشهيرة الموثوق بها التي نجدها بالعربية عن ترجمة المأمون وأحواله التاريخية ولكني أعترف بصراحة أن كتبنا

التاريخية القديمة لا تكفي حاجتنا نظرًا للدرجة التي بلغها فن التاريخ الحديث وما أضافه تدقيق أوروبا إلى أصوله وفروعه من الدقائق الفلسفية.

فالتاريخ الكبير لأبي جعفر جرير الطبري¹ ومروج الذهب للمسعودي والكامل² لابن الأثير الجزري وابن خلدون وأبي الفداء ودول الإسلام للذهبي وتاريخ الخلفاء للسيوطي والعيون والحدائق وأخبار الدول للقرماني وتاريخ ابن الواضح للكاتب العباسي وفتوح البلدان للبلاذري³ ومعارف ابن قتيبة وإعلام الأعلام والنجوم الزاهرة هذه كتب التاريخ البسيطة والموثوق بها التي هي بارزة من بين الكتب التاريخية الإسلامية وليس لنا سبب أكبر منها للعلم عن الدولة العباسية أو أحوال مأمون الرشيد ولكنه إذا درست هذه التواريخ كلها ومن ثم حاولتم المعرفة عن طرق المدنية أو طرق المعيشة في عصر دون عصر وقوانين الحكومة وحلول القضايا والمشاكل وقدر خراج الدولة وقوتها العسكرية والمناصب الحكومية فلا تفوز بأي منها حتى ولو أردت أن تعرف معاملات الخليفة وأخلاقه وعاداته والتفاصيل عنها فلا تجد ما يسكن غليلك وما تصوّر به السلطان، فالأحداث التي قد تمّ تفصيلها في صفحات متعدّدة هي أخبار تولّي العرش والتزاعات وفتوح الدولة والثورات الداخلية وأخبار عزل عامل ونصب آخر ولكنها قد جمعت بأسلوب عاديّ لا يرى فيها الأسباب والبواعث على هذه التغييرات ولا يمكنك أن تستنتج منها أصولًا تاريخية دقيقة.

فنضرب مثالًا من ثورات عهد المأمون التي تجد عنها تفاصيل في كل كتاب تدرسه ولكنه إذا أردت البحث عن الأسباب الداخلية وراء نشأة هذه الثورات وتقويتها ومتى حدثت تلك السرعة البدائية والتدرجية التي لم تقع عليها أعين الناس حتى أن الخواص قد جهلوا عنها. لا يعينك هذا التراث التاريخي إلا قليلًا وحينذاك لا تتكل إلا

¹ هذا تاريخ موثوق به وحافل بالموضوع، وقد أخذ منه كلُّ من ابن الأثير وابن خلدون وأبي الفداء. طبع 17 مجلدًا لهذا التاريخ من هولبند وحتى الآن بقيت منه مجلدات.

² طبع من مصر وهو تاريخ شهير مفيد للغاية.

³ البلاذري مؤرخ قديم كان حيًّا في عصر الخليفة العباسي المتوكل بالله (ت 447هـ). طبع كتابه هذا من ألمانيا.

على اجتهادك فكل حدث من أحداث التاريخ يتصل بسلسلة الأحداث المختلفة فالبحث عن هذه المؤامرات وتنظيم النتائج التاريخية المستخرجة منها بالتدقيقات الفلسفية أمرٌ هو روح علم التاريخ وما أوجدته أوروبا ومن ثم تفتخر به هو البحث عن هذا السحر، ولا أريد من هذا النيل من مؤلفات القدامى فما قام به هؤلاء الناس يمتنّ به الأجيال الحاضرة والقادمة ولكن خطوة الدهر متقدّمة فهل أحد يظن أن غاية الرقي التي قد تجاوزوها ستقوم حتى اليوم.

هذا والبديهي أن لكل دهر ذوقاً يختصّ به فما صرف عنه النظر القدماء ظانين أن هذه الأشياء الجزئية والتافهة لا تليق بعلوّ التأليف نبحت عنها لما أنها يسهل بها تقدير معيشة ذلك العهد العامة ومعاشه، وعلى هذا فقد قسمت هذا المؤلف إلى جزئين:

ففي الجزء الأول ذكرت الأحداث العادية التي نجدتها عادة في كتب التاريخ أي مولد المأمون وولايته للعهد وتوليّه للعرش والنزاعات والثورات الداخلية وفتوح الدولة ووفاته وأما الجزء الثاني فهو يفصّل تلك الأشياء التي نقدّر بها نظم المأمون السياسية وأوضاعه الاجتماعية. ولو أنني لم أتكل على كتب التاريخ المخصوصة في البحث عن الأحداث لدى إعداد هذا الجزء فأخذتها حيث وجدتها في التراجم والطبقات والجغرافيا المحلية والرحلات والخرائط إلا أنني قد حذرت كل الحذر في أن أكتب كل ما أكتبه في ضوء الروايات الصحيحة الموثوق بها.

وليلق القراء هنا نظرة عابرة على مدخل الجزء الثاني.

ويجمل بنا قبل كتابة تاريخ مأمون الرشيد الحقيقي أن نكتب بالإيجاز الأحوال والظروف الابتدائية حين قيام الدولة العباسية. وقد اعتبر عامة المؤرخين قيام الدولة العباسية وانحطاط الدولة الأموية متزامنين وكذا يبدو من الأحداث الشهيرة التي تتجلى لنا في ضوء الشهرة العامة أن العباسيين قد قضوا مدة قصيرة في تدمير سلطنتهم المعادية ولكن بالنسبة لأصول التاريخ لن نظنّ أن مثل هذه السلطنة المنيعه تنقلب ظهراً لبطن في برهة قليلة من الزمن لأجل مأساة مفاجئة وكذا لا يخلو من العجب العجاب أنه حين تثبت دعوى النسبة إلى النبي أقوى وأكثر تأثيراً فكيف تولى

بنو أمية على عرش الخلافة على وجود العباسيين وأهل بيت النبي السادات ولتفهم هذا كله نكتب سلسلة الخلافة الموجزة بترتيب تنحلّ به تلك العقد بنفسها، والتي هي سرّ للفلسفة التاريخية طبقاً للاعتبارات السياسية لتلك الخلافات.

سلسلة الخلافة المجملّة والقوى المعادية لبني هاشم وبني أمية وسلطنة بني أمية ومحاولات الهاشميين وبداية الدولة العباسية

كانت قبيلة قريش المركز الحقيقي لقوة العرب وشوكتهم كلها قبل النبي ﷺ إلا أن القريش قد انقسمت إلى عشيرتين متساويتين¹؛ بنو هاشم وبنو أمية وكانت كفة بني أمية راجحة على بني هاشم في الأفراد والسلطان كما صرح العلامة ابن خلدون إلا أن بعثة النبي قد امتازت عن خصمها بالفخر والعزة ولما وقع النزاع عن الخلافة بعد وفاة النبي فلو اتفقوا مؤقتاً على أبي بكر إلا أن بني هاشم لم يزالوا مدّعين لها. ولو أنهم تعجّبوا من هزيمتهم وتأسفوا عليها فلعل دعواهم هذه قد ظهرت بعد وفاة أبي بكر الصديق ولكن ولاية عهد عمر المنظمة لم تعطهم فرصة لها ولما اقترب وقت وفاته اختار ستة رجال كانت مؤهلاتهم الحكيمة على درجة سوية عنده، لم يسعه أن يحكم في حقّ أحد منهم. كان عليّ من بين من تم خيارهم ولو أن عباس أرشده إلى عدم إلقاء نصيبه للخلافة إلى تهلكة القدر والاتفاق ويحكم على استحقاقه لها بدون معونة أحد سواه، ولكن غناء الأمير عليّ وسخائه لم تعطهما فرصة لقبول هذه الحركة المثيرة للنزاع وأخذ عبد الرحمن بن عوف الذي قرّر حكماً لهذا النزاع يدي عثمان فقال عليّ رضي الله عنه "صبر جميل" ورضي عن هذا القدر. كان عثمان من بني أمية وكانت خلافته فاتحة سلسلة تاريخية جديدة فما كان أبو بكر وعمر هاشميين ولا أمويين فلم يكن لبني هاشم وبني أمية نصيب للخلافة حتى ذلك الحين.

فأعطى عثمان كافة كبار المناصب في خلافته لأيدي بني أمية، وكان الأمير معاوية عاملاً على الشام من قبل ولكن سيطرته عليها قد ازدادت في هذا العهد إلى حدّ كان يعتبر حاكماً مستقلاً بذاته للشام. حكم عثمان لحوالي اثني عشر عاماً ولو أن الناس

¹ وقد انقسمت القريش إلى أقسام أخرى صغيرة إلا أنه لم يكن خصم سوى هذين.

قد سخطوا منه على رعايته العائلية تلك، الأمر الذي سبّب قتله ولكن بني أمية قد تقووا خلال هذه المدة عن جهتين؛ جهة الحكم وجهة المال وهذا أسفر عن ادعاء الأمير معاوية للمخالفة والمعارضة حين خلافة عليّ ولو أنه لم يبلغ شأوه في خصائصه الشخصية وقدسيته الدينية ولكنه بقي خصمًا معارضًا له كرم الله وجهه لمدة طويلة وقد كان في حقه ما صدر من حكم الحرب بينهما.

والآن تعارضت القوتان في الإسلام؛ الهاشمية والأموية وبدأ تاريخ نزاعاتهم المستمرة فلو أن الإمام حسن قد رفع يديه عن الخلافة لمصلحة قومية ودينية وبقيت الحكومة في أيدي الأمير معاوية ولكن آل هاشم وأتباع عليّ قد جعلوا الحسين خليفة لها ولما أنكر بها بايع سرًا على أيدي أخيه العلاتي محمد بن الحنفية وقرّر نقباء في معظم الأمصار. ولا نودّ أن نذكر ما حدث من قتل الإمام الحسين مما زلزل الدين والدنيا معاً والأسف كل الأسف على هذه العبرة التي ذهبت بكافة ذكريات الأسرة النبوية الحية ويئس الناس لمدة مديدة من بروز أفرادها كخليفة وحاكم لدولة إسلامية، وعسى أن يكشف الستار عن وجهها المختفي جماعة محمد بن الحنفية بعد موت يزيد إلا أن الهاشميين قد برز فيهم مدّعٍ آخر للخلافة ألا وهو عبد الله بن الزبير وأقام حكومته المستبدة على رجوليته المعروفة وعزيمته المشهورة في الحجاز وضواحيها. وخلال هذا الزمن قد برز مروان بن الحكم من بين بني أمية، وهو كان ابن عمّ عثمان ورئيس كتابه، وسيطر على الشام ومصر في 64 للهجرة ولو أنه لم ينجح في حكمه إلا أن ولده عبد الملك الذي تولى العرش في 65 للهجرة قد أسس هذه الدولة ذات الشوكة والقوة التي تعرف بلقب "دولة بني أمية" المهيب واستشهد عبد الله بن الزبير في مكة محصورًا فيها وجاء العالم الإسلامي كله تحت سيطرة عبد الملك. وقد بقيت هذه الحكومة التي تلقبها بالحكومة المروانية أنسب من أن نلقبها بالحكومة الأموية لـ 68 سنة وتولّى على العرش عشرة خلفاء في هذه المدة القليلة بمن فيهم برز عبد الملك والوليد وسليمان وهشام ذو شوكة وقوة وحتى لو ألقينا نظرة سارحة على فتوح الوليد فلن تدّعي الدولة العباسية بمضاهاتها في حكمها الممتد لستة قرون فقد اتسعت حدود الإسلام فيها إلى أن جاء تحتها السند وكابل وإيران وتركستان ودول العرب والشام وآسيا

الصغرى وإسبانيا وكافة بلاد إفريقية وعلى الرغم من هذه السعة لم يتوقف بنو هاشم في محاولتهم وأثاروا بمناسبات شتى بعدد وعدة ولو أن أيدي الوليد وهشام قد صانت الحكومة من الأخطار إلا أنها زلزلت أسسها ولما توفي خلفائها الأشداء ضعفت عمائدها. وحتى هذه المدة كان يحاول السيطرة على الحكومة مجرد السادات والعلويين وكانت الأسرة العباسية في الخفاء إلى الآن فمن العلويين عبد الله الذي كان من أولاد محمد بن الحنفية وحفيد علي كان له جم غفير من أتباعه وكان له نقيباً متعدداً في خراسان وإيران. سمّم في 100 للهجرة وبما أنه لم يخلف ولدًا ولم يكن أحد قوي مؤثر من بين السادات فقرّر محمد بن علي الذي كان حفيد عباس (عمّ رسول الله) خليفة له وهكذا فقد انتقلت قوة العلويين المجتمعمة إلى الأسرة العباسية وكان هذا أول يوم وضع فيه حجر أساس الدولة العباسية فانتشر نقيب آل عباس في كافة أرجاء العراق وخراسان وظهرت محاولات ملموسة من قبلهم في 102 و105 و107 و109 للهجرة وفي بعض الأحيان انكشفت هذه المؤامرة لحكام بني أمية، الأمر الذي أسفر عن الإقباض على من شكّ فيهم ومن ثم قتلهم، ومن خلال هذه المدة رفع العلويون علم الخلافة مثلاً أن زيد بن علي ويحيى بن زيد قد أثبتا همّتهما في 121 و125 للهجرة على التوالي وقتلا في ساحة الحرب. ولو أن هذه الحروب لم تفد أولئك المدّعين إلا أن العباسيين قد استفادوا منها بأن تضرب معارضها من بني أمية. توفي محمد بن علي في 126هـ وقام مقامه ولده إبراهيم وفي 127هـ ظفر إبراهيم برجل عجيب يسمّى "أبا مسلم الخراساني" الذي قد انتهى بقوة تديره وعضده بهذه الإرادة إلى الهدف واشتهر بمقيم الدولة العباسية. إنه عينّ المئات من النقباء وبعثهم إلى كافة أرجاء الدولة الإسلامية مقرّراً ملبسًا أسود أو خرقة سوداء آية لأشياء آل عباس فقام هؤلاء النقباء بنشر المؤامرت الخفية في كافة أمصار خراسان وفارس وحدد يومًا لثورة هؤلاء الأشياء من مكان ونادى أبو مسلم الخراساني بالخلافة العباسية في قرية سفيدنج في ضواحي هرات ليلة يوم الخميس الخامس والعشرين من شهر رمضان 129هـ علّق الرايات السوداء على الرماح التي أرسلها إبراهيم والتي سمّاها بـ"ظل وسحاب". كان الناس يجتمعون من كل مكان تحت هذه الراية. تقدّم أبو مسلم

الخراساني نحو خراسان ظافراً بالفتح بأسهل طريق وهزم عمّال بني أمية مرة بعد أخرى. في تلك الأيام كان مروان الحمار يحكم على البلاد الإسلامية فكتب إليه عامل خراسان أن إبراهيم العباسي قد اعتدى عليه وجعل يسيطر على مناطق خراسان أبو مسلم الخراساني الذي هو من نقبائه. كان إبراهيم في ذلك الوقت في الحميمة وكان جيشه يخوض في فتح مناطق خراسان بعيداً عنه فكتب مروان إلى عامل بلقاء أن يرسل إبراهيم إلى دار الخلافة مكتبلاً في السلاسل وبما أنه كان بعيداً عن جماعته وجيشه فقد أقبض عليه بدون أي مشقة فقال وهو محبوس لأصحابه: اذهبوا إلى الكوفة واستخلفوا أبا العباس السفاح (شقيقه).

بلغ السفاح الكوفة وأعلن عن خلافته يوم الجمعة الثاني عشر لشهر ربيع الأول سنة 134هـ وألقى بجامعها خطبة بليغة للغاية وبكل شوكة وأبهة. وفي جانب آخر أرسل أبو مسلم الجيوش إلى سمرقند وطخارستان وطوس ونيشافور والري وجرجان وهمدان ونهاوند وسخر هذه البلاد كلها، وفي شهرزور قاتل ضد عبد الله بن مروان فهزمه أبو عون الذي كان مستولاً عسكرياً لأبي مسلم الخراساني فلما سمع هذا مروان تقدّم لمواجهة أبي عون بجيش عدده مائة ألف جندي والذي شمله كافة أفراد الأسرة الأموية الحاكمة وفي جانب آخر أرسل السفاح عمّه محمد بن علي لنجدة أبي عون فانهزم مروان واتجه نحو مصر فهام فيها هارباً من جيش أبي عون حتى أحصر في كنيسة بوصير في 28/ ذي الحجة سنة 134هـ وقتل وبقتله قضي على الحكومة المروانية ثم جعل العباسيون يقتلون معارضتهم حتى اتفقوا على أن لا يبقى ولو طفل من بني أمية. لم يتوقف بنو العباس على هذا بل حفروا مقابر الأمير معاوية ويزيد وعبد الملك وهشام ثم أشعلوا عظامهم. أفلت منهم رجل من بني أمية وهو عبد الرحمن فهرب إلى الأندلس فأقام بها حكومة بقوته كان يغتبط بها آل العباس دائماً ولكن لم يقدر على أن يضرها شيئاً. حكمت بنو العباس لمدة خمسة قرون وأربع وعشرين سنة وتولّى العرش من خلالها 37 خليفة والمأمون الذي نريد أن نكتب ترجمته كان سادس خلفائها. ومما يأتي من الشجرتين يعرف بهما ترتيب الخلافة والنسب:

العدد الخاص مجلة الهند

شجرة النسب	شجرة الخلافة
عبّاس عمّ رسول الله ﷺ	السفّاح
عبد الله رضي الله عنه (صحابي شهير)	المنصور الدواليقي (شقيق السفّاح)
علي المتوفّى 117هـ (حسين ووجيهه للعناية)	مهدي بن المنصور (تولّى العرش في 158هـ)
محمّد المتوفّى 126هـ	هارون بن المهدي (تولّى العرش في 169هـ)
(1) السفّاح (أول خليفة عباسي، تولّى العرش في 132هـ) (2) المنصور (تولّى العرش في 126هـ)	هارون الرشيد المهدي (تولّى العرش في 170هـ) مأمون الرشيد بن هارون الرشيد

كان هارون الرشيد خليفة ذا شوكة وأبهة فشنّ غارة على الروم خلال الأمانة وبلغ خليج القسطنطينية مسخراً البلاد ولما تولّى عرش الخلافة وسّع في حدود الإسلام الدولية إلى حيث لم يبلغها الدولة العباسية قط. أنكر قيصر الروم دفع الخراج مراراً عديدة إلا أنه قد كسر كبجه كل مرة. إنه قام بتدمير هرقله (Hergla) عاصمة القيصر¹ وأجبره على أن لا تستعمر من بعدُ وبما أنه كان ذا شوكة وأبهة وأشرف على العلوم والفنون فقد طار صيته في الآفاق ولقد أثار تقديره للعلم والفن شوقاً في قلوب العلماء والفنانين إلى ورود بلاطه وهكذا فقد أصبح بلاطه مركزاً للعلم والفن. كان هو ذاته موهوباً ومؤهلاً وجلساته العلمية هي التي نفخت روحاً جديدة في الإبداعات الأدبية، والواقع أنه لو لم يكن ذيل عدله مصبوغاً من دماء البرامكة لما

¹ كانت هريكلي مدينة معمورة وشهيرة للعناية في آسيا الصغرى، وكانت هي عاصمة القياصرة للأسرة اليونانية الملوكية. يسمّونها المؤرخون العرب بـ"هرقله" وقد تم خرابها الآن وضاق نطاقها في مدينة عادية للعناية.

وقعت عيننا على خيار أحد آخر سواه فالمأمون الذي نريد أن نكتب ترجمته في هذا الكتاب كان ولدًا بارًّا لهذا الوالد الكريم الجليل.

مولد المأمون ونشأته وتربيته

ولد المأمون في شهر ربيع الأول سنة 107 هـ وكانت ليلة مولده ليلة ملؤها العجب والحيرة فقد توفي فيها خليفة (الهادي) وولي الآخر (هارون الرشيد) العرش وأما الثالث (المأمون) فقد برز إلى حيّ الوجود وقد أوصى الخليفة المهدي "أن يتولى الهادي العرش بعدي ثم الهارون" ولكن الهادي همّ بأن يحرم الهارون هذه النعمة وبما أن الهارون كان يبغض الحروب الداخلية فيمكن أن ينجح الهادي في نيته الغير خالصة ولكن الموت قد فاجأها فخيّب أمنيته. كان الهارون ينام إذ أيقظه الوزير يحيى فبشّره بالخلافة فقال الهارون بكل يأس "أخي! تضحك مني فإن يسمعه الأخ فستكون أضحوكتنا هذه آفة على حياتنا" فقال يحيى "قد فصل الله بينك وبينه فتقدّم وتولّ عرش الخلافة" وكانا يتبادلان البشري إذ بشّر بمولد وارث السلطان". كان هذا هو الولد المتيّم الذي قد قدر له صيرورة مأمون الرشيد الأعظم فسماه الهارون "عبد الله" لأن هذا كان اسم مؤسس الدولة العباسية السفّاح. كانت أمّ المأمون أمة كانت تسمّى "مراجل" وكانت منتمية إلى بادعيس إحدى مدن هرات. أهداها علي بن عيسى عامل خراسان إلى الهارون¹، وهذا من الأسف أنها لم توفّق الحياة بعد مولد ابنها ففاجأها الموت بعده ببضعة أيام وحرّم المأمون حضن أمّه الجنون.

لما ناهز المأمون خمس سنوات بدأت تربيته بكل عناية فالكسائي واليزيدي تم خيارهما من بين علماء البلاط المشهورين المجتهدين، لتعليمه القرآن الكريم. لم يكن المأمون كبيرًا إلا أن جوهر الجودة والفظانة كان يتلألأ منذ هذا الوقت. كان الكسائي يعلمه بحيث إنه كان يأمر المأمون بالقراءة بينما كان هو يستمع إليه على كثر منه وناكسًا رأسه فإن أخطأ المأمون في قراءته ارتفعت نظرة الكسائي وهكذا فكان المأمون يتنبّه على خطئه فيقرأ الجملة صحيحة فذات يوم كان يعلم سورة الصف، وكان الكسائي يصغي إليه ناكسًا رأسه حسب العادة فلما بلغ المأمون الآية "يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما

¹ راجع: العيون والحداثق (طبع أوربا)

لا تفعلون" فارتفعت نظرة الكسائي بدون وعي فظنّ المأمون لعله أخطأ في قراءته ولكنه لما أعاد قراءتها أيقن بأنه قرأها صحيحة، ولما غادر الكسائي بعد هزيمة حضر المأمون الهارون وقال: لو وعدتم أن تعطوا شيئاً للكسائي فأوفوا بوعدكم فأجاب الهارون: نعم، إنه طلب مني أن أحدّد بعض المنح للقراء وقد قبلته بالفعل فهل ذكرها لك؟ فقال المأمون: لا، فسأله الهارون: كيف علمت ذلك؟ فقصّ المأمون ما جرى أمامه وقال: تنبّه الكسائي على هذه الآية لا يكون عبثاً فتعجّب الهارون من ذكاء هذا الطفل وغمره السرور¹. لم يكن اليزيدي معلّم المأمون فحسب بل كان مربّيه فكان هو مسئولاً عن أشغاله وعاداته العامة وكان اليزيدي يؤدّي هذه الخدمة بكل شعور بالمسئولية.

ذات يوم حضر اليزيدي حسب العادة وكان المأمون في القصر فأخبره الخدم بمجيئ اليزيدي ولكن المأمون تأخر بلوغه إلى اليزيدي لسبب أو آخر فاهتبل الخدم الفرصة وشكوا إليه المأمون أنه يزعج الخدم كلهم حينما تغيب عنا فلما خرج المأمون ضربه اليزيدي ستة خيازر أو سبعة وفي أثناء ذلك أخبر الخدم بمجيئ وزير الدولة جعفر بن يحيى البرمكي فمسح المأمون عينيه وجلس على الفرش بدون تأخير وقال: دعه يأتني. حضر جعفر وتكلّم عن هذا وذلك لوقت غير قليل فخاف اليزيدي أن يشكوه المأمون إليه فلما رجع جعفر سأله اليزيدي: هل شكوتني إليه؟ فردّ عليه المأمون بأدب: أستغفر الله، لست أخبر الهارون عن هذا فأين جعفر فهل لا أدري ماذا يفيدني التأديب والتعليم². كان من عادات الخلفاء أن الأمراء كانت تربيتهم تفوّض إلى من يوثق بهم ورزق فضلاً وكمّالاً من بين أعضاء البلاط فهم كانوا يتعلّمون ويترّبون تحت عنايتهم وإشرافهم. ونظراً لهذه العادة فقد فوّض الهارون المأمون إلى جعفر البرمكي في 182هـ. ومن أهمّ الأسباب وراء مؤهلات المأمون الموهوبة والمكتسبة تربيته في حضن جعفر البرمكي الذي كان بارعاً في العلوم والفنون بجانب صلاحه للوزارة، وما تروّج في الدول الإسلامية من أنواع العلم والفن كان تحت إشرافه، وكذا كان محمّد أكبر أولاد اليزيدي عالماً متبحّراً وشاعراً كبيراً وفوّض إليه أمر تعليم وتربية المأمون.

¹ راجع: منتخب كتاب المختار من نوادر الأخبار، ص 7

² تاريخ الخلفاء، ص 319

كتب المؤرخون عن المأمون "حافظ القرآن"¹ وهذا يعني أنه حفظ القرآن في تلك الأيام، وعلى كل حال فقد بدأ يتعلّم النحو والأدب بعد إنهاء قراءة القرآن ومهر فمه إلى حد أنه لما امتحنه الكسائي وطرح عليه أسئلة عديدة عن النحو ردّ عليه المأمون بدون تكلف وارتجال حيّراه وضّمّه الهارون إلى صدره مسروراً².

قد علّم اليزيدي المأمون والأمين كليهما الارتجال وجودة الخطابة فقد كان يتعجب من براعتهما وكان يقول إن أولاد خلفاء بني أمية كانوا يرسلون إلى قبائل العرب كي يتعلّوا فصاحة البيان ولكنك أصبحت أفصح منهم وأعرب وأنت لم تترك دارك. إنه ألقى خطبة فصيحة وبلغية أمام الجمع الغفير يوم الجمعة. ألقاها بلهجة مؤثرة زلزلت قلوب الحضور حتى بدأ معظمهم يبكون فكتب أبو محمد اليزيدي قصيدة على هذه الحال. جاء ذكر هذه القصيدة في "كتاب الأغاني" وقال إن الهارون وهب لليزيدي خمسين ألف درهم كجائزة عليها فلما بدأ يتعلّم الفقه دعي الفقهاء من كل جانب ليعلموه الفقه فأصبح المأمون بفضل مرافقتهم فقيهاً ماهراً. وأما علم الحديث فقد نال أسناده من الهيثم وعباد بن العوام ويوسف بن عطية وأبي معاوية الفيريز وإسماعيل بن عليّة والحجاج الأعور. وكان الإمام مالك إماماً للحديث وكان يفتخر بالتلمذ له الإمام الشافعي وغيره من أئمة الفن الكبار فقدّم إليه الهارون الطلب أن يزور بلاط الخلافة فيعلّم الأمراء علم الحديث فقال الإمام مالك: طلاب العلم يردون بابه ولا يزور العلم أبوابهم وكذا أثار الإمام حمية الهارون بكلماته هذه "خرج هذا العلم من دارك فإن لم تكرمه فمن يكرمه؟" فقبل الهارون هذا الردّ منه بكل فرح وسرور وأمر الأمراء أن يحضروا الإمام³.

كان هارون الرشيد فقيهاً ماهراً ومكرماً للعلم والعلماء فكثيراً ما حضر الإمام مالك لقراءة الموطأ الذي هو أوثق كتاب وأصحّه في علم الحديث وبما أنه كان يعتني بتعليم

¹ من الخلفاء الذين كانوا قد حفظوا القرآن أبو بكر الصديق وعثمان بن عفان رضي الله عنهما

ومأمون الرشيد، تاريخ الخلفاء، ص 24

² راجع: دراري في ذكر الذراري للسيوطي، ص 29

³ حكم وآداب للياقوت المستعصي، ص 71

وتربية أولاده فكان يحضر الأمين والمأمون هذه الدروس¹. ولو أن العلماء الموجودين في بغداد كانوا ماهرين ومتفوقين إلا أن الهارون أحب أن لا يحرم أولاده استفاضة الآخرين من مهرة هذه العلوم والفنون فلما ذهب إلى الكوفة الذي كان مركزاً للفقهاء والحديث فطلب محدثي تلك المنطقة فلبى الكل دعوته سوى اثنين؛ عبد الله بن إدريس ويحيى بن يونس اللذين أثبتا من معاملتهما أن هناك علماء مثل الإمام مالك، يكرّمون علم الحديث من أعماق قلوبهم فأمر الهارون بأن يحضرهما الأمين والمأمون فروى ابن إدريس مائة حديث فلما قرأها المأمون عن ظهر قلب على الفور تعجّب ابن إدريس من قوة حفظه واطلاعه الواسع على هذا العلم².

ولو أن المأمون قد نال حظه الأوفر من العلوم المتداولة إلا أنه يعتبر متفوقاً في الفقه والأدب والتاريخ وأيام العرب ومضاهياً فيها بالبارعين في هذه العلوم، ولا حرج إذا توقّعتنا هذه المهارة ممن تعلّم على المهرة المجتهدين مثل الكسائي واليزيدي وحضر الجلسات العلمية لأبي نواس وأبي العتاهية وسيبويه. ذات يوم في صغره سأل الأصمعي عن قائل هذا الشعر:

ما كنت إلا كلحم ميت دعا إلى أكله اضطرار

فقال الأصمعي: لابن عيينة المهلبى فقال المأمون: هو عالي الفكرة إلا أنه مأخوذ من الشعر فلان فتعجّب الأصمعي من سعة اطلاعه على الشعر³. قد جعل المأمون يقرض الشعر في تلك المدة وبما أنه كان مطبوعاً وواسع الاطلاع ومنطلق الفكرة فكان يرتجل ويجيد فذات مرة حين أمر الهارون الجيش بأن يستعدّوا للسفر في غضون أسبوع وهم لم يعرفوا عن نيته بعد أن مضى الأسبوع فكتب المأمون ما يلي من الأبيات طلباً من أعضاء البلاط:

¹ تاريخ الخلفاء، ص 290 ونسخة الموطأ التي قرأها المأمون كانت مصونة في مكتبة مصر، المصدر

نفسه والصفحة ذاتها

² تاريخ الخلفاء، ص 332

³ امرأة الجنان لليافعي (ترجمة الأصمعي)

العدد الخاص مجلة الهند

يا خير من دبّت المطي به ومن تقدى بسرجه الفرس
هل غاية في المسير نعرفها أم أمرنا في المسير ملتبس
ما علم هذا إلا إلى ملك من نوره في الظلام مقتبس
لم يكن الهارون يعرف أن المأمون قرض هذه الأبيات ولو أنه سرّ بجودته وذكائه
ولكنه كتب على الورقة ردًا عليه: فلذة كبدي! لا يليق بك الشعر فإنه فخر لعامة
الناس إلا أنه لا يزيد العلاة عزًّا وعلوًّا".

وفي 188هـ توفي إبراهيم الموصلي والكسائي النحوي والشاعر عباس بن الأحنف في يوم
واحد فأمر الهارون أن يذهب المأمون بنفسه ويصلي جنازتهم فلما قام المأمون للصلاة
سأل عمن تتصدّر هذه الجنائز فقالوا: إبراهيم فقال المأمون: لا، بل قدموا عباس
عليهم فلما فرغ من الصلاة سأله أحد من حواشي البلاط عن سبب ترجيح عباس
عليهم فقال لهذين الشعرين:

وسعى بها ناس فقالوا إنما لهي التي نفسي بها وتكابد
فجحدتهم ليكون غيرك ظنهم إنني ليعجبني المحب الجاحد
نقل العلامة أبو الفرج الإصمباني هذا في ترجمة إبراهيم، الأمر الذي يثبت أن فن
الأدب كان مكرّمًا في ذلك الزمن إلى حدّ كان يوضع في الاعتبار في الفرائض الدينية.

فلما فرغ المأمون من تلقّي هذه العلوم توجه نحو الفلسفة وأعان في كمال المأمون عن
هذه الجهة ما أقامه الهارون من قسم ترجمة الكتب العلمية والذي توظّف فيه العلماء
والمترجمون من الهندوس والمجوس والنصارى الذين كانوا يترجمون كتب الفلسفة والطب
من مختلف اللغات ولكننا لا نريد تفصيلها بهذه المناسبة فنؤخّرها لحين نتحدّث عن
أخلاق المأمون وعاداته العامة حين فراغه من تاريخ الدولة وحينذاك نتحدّث عن
جلساته العلمية ومناظراته مع العلماء وإبداعاته عن القضايا الفقهية وحال ترويج
الفلسفة فنوجز فيما يلي الظروف والأحوال التي تتعلق بدراسته الابتدائية.

ولاية المأمون للعهد 182 هـ

كان لهارون الرشيد اثنا عشر ولدًا ذكرًا من بينهم أربعة مؤهلون قابلون لولاية عهده وهم المأمون والأمين والمؤمن والمعتصم. فلو كان المعتصم قويّ الجسد، شجاعًا ماهرًا في فنون الحرب ولكنه كان مفظورًا على الجهل فحرمه الهارون الخلافة، وكان لأمّ الأمين زبيدة وخاله عيسى بن جعفر المنصور قوة سياسية في البلاط لما أن عمائد البلاط ومسئولي الجيش الذين كان معظمهم من بني هاشم كانوا مع الأمين نظرًا لوحدهم في النسب فأوصى عيسى بن جعفر في 175 للوزير الفضل بن يحيى أن يجعله الهارون وليّ عهده فلو كان عمره آنذاك خمس سنين فلم يكن بعض أعضاء الأسرة الملوكية راضيين عن هذه الوصية إلا أن قول الفضل لن يمكن إنكاره فبايع الهارون كافة أعضاء البلاط على ولاية عهد الأمين. ولو كان الأمين ذكيًا فصيحًا خطيبًا مصقاعًا جميلًا ذا شمائل طيبة بجانب براعته في النحو والأدب والفقه إلا أنه كان ميالًا إلى رغبة العيش والترفيه حتى تيقن الهارون من ترفه هذا يومًا بعد يوم بينما أعجب المأمون أباه بخصائصه الشخصية فهو كان يقول: إني لأجد في المأمون حزمًا للمنصور ومثانة للمهدي وشوكة للهادي وأبهته فإن أردت نسبته إليّ فيسوغ لي تلك فقد رجّحت الأمين عليه علمًا بأنه (الأمين) مترفه وتابع لهواه ويستشير النساء والإماء فإن لم تكن ضغطة زبيدة وبني هاشم فلرجّحت على الأمين¹.

ذات يوم قال الهارون لأصغر أولاده أبي عيسى² الذي كان يفقد نظيره فيما بين الرجال في الحسن والجمال: لو أعطي حسنك للمأمون وهو بنفسه كان يقول للمأمون: لو كانت كافة المحاسن مودعة فيك لكان خيرًا ولو خيّرت لأعطيتك حسن أبي عيسى³.

¹ تاريخ الخلفاء، ص 311

² دراري في ذكر الدراري للسيوطي، ص 48

³ كان أبو عيسى أجمل وأحسن أجيال العباس ولاسيما الخلفاء العباسيين، وفوق ذلك أنه كان له ذوق عالٍ لفهم الشعر ومهارة في الموسيقى. كان مأمون الرشيد يحبّ أبا عيسى حبًا جمًّا فقد كتب العلامة الأغانبي أن المأمون أراد أن يجعله خليفة بعده ولكن من الأسف أن ذلك اليوسف قد غادر أخاه مليًّا دعوة ربّه ذي الجلال فلم يتناول المأمون الطعام لعدة أيام حزنًا عليه ووجدًا في موته.

كانت زبيدة تحزن على هذه كلها وهي كانت تطعن فيه بأنه يرجح ولد أمة على فلذة كبدي وهما كانا يحاجان في هذا الموضوع وبما أن زبيدة لم تكن ترضى عن أن تجعل الأمين أقلّ علمًا وموهبة من المأمون في غير هذه من المؤهلات والمحاسن فكان الهارون يمتحنهما في معظم الأحيان وبالنتيجة كانت زبيدة تواجه الندامة فذات يوم سأل الأمين مشيرًا إلى بعض المساويك التي كانت موضوعة أمامه: ما هي؟ فردّ عليه الأمين: إنها مساويك ولا غير فدعا المأمون وطرح عليه نفس السؤال فردّ عليه المأمون قائلاً: هذا محاسنك يا أمير المؤمنين!¹

وفي يوم آخر قال الهارون لرقيقين خاصين له أن يسألا الأمين سرًا: إذا أعطيت الخلافة فماذا تعمل معنا يا سيدنا! فقال الأمين وهو مسرور للغاية: إني أعطيتكم من الأموال والعقارات ما يسركما ولكنهما لما سألا المأمون نفس الشيء طرح الدواة التي كان يكتب بها وقال: إذا لم يكن أمير المؤمنين فماذا يفيدنا حياتنا فليفده بنا!²

ولكن لم يكن بوسع الهارون أن يردّ ولاية عهد الأمين فلم يفعل إلا أنه بايع الناس على خلافة المأمون بعد الأمين في 182هـ وجعله عاملاً على خراسان وهمدان بينما أعطى ولده الثالث القاسم حكومة جزيرة الثغور والعواصم وخبّر المأمون أن يعزل القاسم إذا وجده غير صالح لهذه الحكومة فلو أن الهارون قد قسم الدولة هكذا ولكنه لم يكن مطمئنًا من قبل الأمين فهو كان يعرف حقًا أن الأمين يطلب غرضه ويحبّ الترف وبما أن كافة عمائد بني هاشم ومعظم مسئولى الجيش يعضّدونه فلم يجترئ على أن يظلم على حقهم، وعلى هذا فلما زار مكة في 186هـ دخل الكعبة هو وولده الأمين وحاول أن يفهمه الأمر ثم دعا المأمون وتحدّث معه لوقت طويل ثم استكتتتهما اتفاقيتين على حدة اعترف كل منهما بما قسمه هو وبما اقترحه الهارون لهما. وقد كتب صاحب "روضة الصفا" أن الدول التي أعطيت للمأمون حسب القسمة كانت تشمل كرمان شاه ونهاوند وقم وكاشان وإصفهان وفارس وكرمان والري وقومس وطبرستان وخراسان وزابل وكابل والهند وما وراء النهر وتركستان بينما أعطي الأمين

¹ امرأة الجنان (ترجمة المأمون)

² دراري في ذكر الدراري للسيوطي، ص 48

بغداد وواسط والبصرة والشامات وسواد العراق والموصل وجزيرة الحجاز ومصر ونهاية حدود بغداد فأمرهما بالتوقيع على هذه الاتفاقية وقرئت الاتفاقية لجم غفير بمن فيهم الوزير يحيى البرمكي وجعفر بن يحيى وفضل بن الربيعه والحاجب وكافة أعيان أسرة الخلافة والفقهاء والعلماء ثم وقّع الحضور كلهم كشهداء لها ولما تم تصديقها من كل جانب وضعت في صينية ذهبية مرصّعة بالزمرد والجواهر فعُلقت على باب الكعبة واستحلف حاجبا الكعبة أنهما يحفظانها كل الحفظ ويعلقانها على ساحة كبيرة بارزة أيام الحج، ولو أن الاتفاقية كانت مليئة بكلمات مسهبة ولايعنية ولم يكن في كلها جملة تنشأ منها فكرة سياسية دقيقة ولكننا ننقلها كما هي بما أنها كتابة قديمة للغاية ونقدّر بها أفكار ذلك الزمن العامة وطرق المعاملة فيها¹.

الوثيقة التي كتبها الأمين

بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب لعبد الله هارون أمير المؤمنين كتبه له عبد الله بن هارون أمير المؤمنين في صحة من عقله وجواز من أمره وصدق نية فيما كتب في كتابه ومعرفة ما فيه من الفضل والصلاح له ولأهل بيته ولجماعة المسلمين أن أمير المؤمنين هارون ولّاني في حياته وبعده ثغور خراسان وكورها وجميع أعمالها من الصدقات والعشر والعشور والبريد والكرز وغير ذلك واشترط لي على محمد بن أمير المؤمنين الوفاء بما عقد لي به من الخلافة والولاية للعباد والبلاد بعده وولّاني خراسان وجميع أعمالها ولا يعرض لي في شيء مما أقطعني أمير المؤمنين أو ابتاع لي من الضياع والعقد والدور والرباع أو ابتعت منه من ذلك وما أعطاني أمير المؤمنين هارون من الأموال والجواهر والكساء والمتاع والدواب في سبب محاسبه ولا تباع لي في ذلك ولا لأحد منهم أبداً ولا يدخل عليّ ولا على أحد ممن كان معي ومني ولا عمالي ولا كتابي ومن استعنت به من جميع الناس مكروهاً في ذم ولا نفس ولا شعر ولا بشر ولا مال ولا صغير ولا كبير فأجابه إلى ذلك وأقرّ به وكتب له

¹ وقد نقل العلامة الأرزقي، الذي كان حيّاً في 274هـ، كلتا الاتفاقيتين بإسرها في "تاريخ مكة" فلترجع الصفحات من 161-166 (طبعة ألمانيا، لينبرغ) وقد نقلهما كذلك الكاتب العباسي ابن الواضح في تاريخه بشيء من الاختلاف في نصوصهما.

به كتابًا وكتبه على نفسه ورضي به أمير المؤمنين هارون وقبله وعرف صدق نيته فشرطت لعبد الله هارون أمير المؤمنين وجعلت له على نفسي أن أسمع لمحمد بن أمير المؤمنين وأطيعه ولا أعصيه، وأنصحه ولا أغشه، وأوفي ببيعته وولايته، ولا أغدر ولا أنكث، وأنفذ كتبه وأموره، وأحسن موازرتة ومكانفته، وأجاهد عدوّه في ناحيتي بأحسن جهاد ما في وفي لي بما شرط لي ولعبد الله هارون أمير المؤمنين وسماه في الكتاب الذي كتبه لأمير المؤمنين، ورضي به أمير المؤمنين وقبله ولم ينقص شيئًا من ذلك ولا ينقص أمرًا من الأمور التي اشترطها لي عليه هارون أمير المؤمنين وإن احتاج محمد بن هارون أمير المؤمنين إلى جند وكتب إليّ يأمرني بأشخاصهم إليه أو إلى ناحية من النواحي أو إلى عدو من أعدائه خالفه أو أراد نقص شيء من سلطانه وسلطاني الذي أسنده هارون أمير المؤمنين إلينا وولانا أن أنفذ أمره ولا أخالفه ولا أقصر في شيء إن كتب به إليّ وإن أراد محمد بن أمير المؤمنين أن يولي رجلاً من ولده العهد والخلافة من بعد فذلك له ما وفالي بما جعل لي أمير المؤمنين هارون فاشترط لي عليه وشرطه على نفسه في أمري وعلى إنفاذ ذلك والوفاء له بذلك ولا أنقض ذلك ولا أغيره ولا أبدله ولا أقدم فيه أحدًا من ولدي ولا قريبًا ولا بعيدًا من الناس أجمعين إلا أن يولي هارون أمير المؤمنين أحدًا من ولده العهد من بعدي فيلزمي ومحمدًا الوفاء بذلك وجعلت لأمير المؤمنين ومحمد بن أمير المؤمنين على الوفاء بما اشترطت وسمّيت في كتابي هذا ما وفا له محمد بن أمير المؤمنين ولمحمد بن أمير المؤمنين هارون بجميع ما اشترط لي هارون أمير المؤمنين عليه في نفسي وما أعطاني أمير المؤمنين هارون من جميع الأشياء المسماة في الكتاب الذي كتبه له عبد الله وميثاقه وذمة أمير المؤمنين وذمتي وذمم آبائي وذمم المؤمنين وأشدّ ما أخذ الله عزّ وجل على النبيين والمرسلين وخلقهم أجمعين من عهوده وموآثيقه والأيمان المؤكدة التي أمر الله عز وجل بالوفاء بها فإن نقضت شيئًا مما شرطت وسمّيت في كتابي هذا له أو غيرت أو بدّلت أو نكثت أو غدرت فبرءت من الله تعالى ومن ولايته ومن دينه ومن محمد رسوله صلّى الله عليه وسلّم ولقيت الله سبحانه يوم القيامة كافرًا مشرّكًا به وامرأة هي اليوم لي أو أتزوجها إلى ثلاثين سنة طالق ثلاثًا البتة طلاق الحرج وكل مملوك لي اليوم أو أملكه إلى ثلاثين سنة أحرار لوجه الله تعالى وعليّ المشي إلى بيت الله الحرام الذي بمكة ثلاثين حجة نذرًا واجبًا

عليّ وفي عنقي حافيًّا راجلاً لا يقبل الله مني إلا الوفاء به وكل مال هو لي الله أو أملكه إلى ثلاثين سنة هدياً بالغ الكعبة وكل ما جعلت لعبد الله هارون أمير المؤمنين وشرطت في كتابي هذا لازم لي لا أضمر غيره ولا أنوي سواه شهد تسمية الشهود في ذلك الذين شهدوا على محمد بن أمير المؤمنين¹.

وقد كتب المأمون وثيقة أو هي كتبت من قبله وإليك ملخصها

إن أمير المؤمنين قد جعلني وليّ العهد بعد الأمين وكتب الأمين وثيقة اعترف فيها بحقوقى بالتفصيل وأقسم عليها. إني أطيع الأمين وأنجده إذا احتاج إليها وما لم يتولّ عن اتفائقه وإن أراد الأمين أن يجعل بعض أولاده ولي العهد بعدي فأعترف به شريطة أن لا يخلّ بحقوقى إلا أنه إذا جعل أمير المؤمنين الهارون بعض أولاده ولي العهد بعدي فيجب عليّ وعلى الأمين أن نعترف به.

حتى اليوم كان الأمين والمأمون ساهمين بدهيين في قسمة الدول والسلطان ولكن قد أثبتت تجارب عديدة أن الأمين لا يصلح حمل عبء الخلافة ولذا جعل الهارون يقلّ من خيارات الأمين بجانب ترجيح المأمون على الأمين بكل مناسبة وكأنه أثبت بطريقته ومعاملته أن من يستحق الخلافة الكبرى هو المأمون لا الأمين ففي 189 هـ أبدى أمام الناس بقرماسين أنما يمتلكه من الأموال والخزائن والأسلحة والأسباب فهي للمأمون ثم قال لكافة أعيان البلاط وحواشيه أن اشهدوا بهذا، ولما شئت الغارة على الروم في 190 هـ جعل المأمون نائبه على مدينة الرقة التي جعلها دار الخلافة بدلاً من بغداد وأعطاه خاتم الخليفة المنصور تبركاً. كان الأمين يغتبط بهذه الخطوات كلها ولكنه لم يسعه أن يفعل شيئاً وفي 193 هـ حدثت الثورة في بعض مدن خراسان، التي ذهب لإخمادها الخليفة الهارون بنفسه. مرض في السبيل إليها وانتشر هذا الخبر في البلاد كلها. كانت هذه مناسبة جميلة لمؤامرة الأمين لأن كافة الموظفين الكبار في البلاط كانوا يعضّدونه ولاسيما الوزير الفضل بن الربيع الذي كان عضداً منيعاً للأمين. كان هو عربياً فتربّي الأمين بعنايته وبما أنه لم يكن أحد من الأمين والمأمون يرافق الهارون آنذاك وكان للأمين أثر قوي على البلاط لأجل

¹ وقد وقّع عليهما 37 عالماً وركنًا حكوميًّا كبارًا فلم أنقل أسماءهم مخافة التطويل.

الفضل بن الربيع فلما بلغ الأمين خبر مرض الهارون بعث رسوياً بالعديد من الرسائل التي كانت موجهة إلى عمائد البلاط وحواشيه.

وفي هذا المرض ذاته توفي هارون الرشيد اليوم الثالث لشهر جمادى الثاني سنة 193هـ.

وبعد وفاته فوّض الرسول رسائل الأمين إلى عمائد البلاط وحواشيه، التي كان موضوعها الرئيسي أن يحضر الجيش دار الخلافة بغداد مع كافة الخزائن والأسلحة والأسباب فتحزن بعض العمائد ومسئولي الجيش في الامتثال بهذا الأمر ولكن البلاط كله كان يتحرك على أمر من الوزير الفضل بن الربيع فأيقنهم أن المأمون لا ينمو ضد الأمين الذي قد سيطر على دار الخلافة، وبما أن الجيش كان متوجهاً نحو بغداد للتوطن فقد نجح الأمين في تدييره تماماً. وهل سوء حظ يكون أشد من أن المأمون لم ينل ولو فتية من الخزانة العامرة التي كانت تمتلك خمسمائة ملايين درهم ودينار بجانب الأسباب والجواهر وزد على هذا ميل الجيش إلى الأمين وبالجملة فالكل اتفقوا على السير نحو بغداد. كان المأمون آنذاك في مرو فلما بلغه هذا الخبر جمع عمائد بلاطه واستشارهم فقال كل منهم بصوت واحد مجمّع أنه لو حصلوا على ألفي فارس لرجعوا الجيش الملكي القهقري طوعاً أو كرهاً ولكن الفضل بن سهل الذي كان رئيس الوزراء أشار على المأمون أن يرجع عن رأيه هذا فإن هذه الشردمة القليلة لا تقوم ضد الجيوش الهائلة وبالنتيجة يفوضون جلالتك إلى الأمين فيقتلكم فالأفضل أن تستشير الجيش فذهب الرسولان بالرسالة فردّ الفضل بن الربيع بأنه مع الجمهور ولكن عبد الرحمن أحد الجنود وضع رمحه على صدور الرسولين وقال: لو كان سيدكما في موضعكما لكانت هذه الرمح داخل صدره فالآن أحيط بالمأمون من مشاكل عديدة؛ قلة المال والجنود ومخافة الثورة من قبل دول خراسان فيئس المأمون من الخلافة وكاد أن يعزل نفسه عن الحكم لو لم يثبتته الوزير الفضل بن سهل فقد قال للفضل بصراحة: إني لا أقدر على حمل عبء السلطنة. إنك مالك الملك وأفوض عنان الحكم إلى يديك".

لم يكن للفضل حماية كما يبدو فلما استعان مسئولي الجنود فلم يصغ أح إليه وقالوا: لن ندخل بين هذين الأخوين ولكن الفضل لم تتزلزل قدماه فقد وصلت إليه صدى

قلبه الثابت والبعيد النظر أن المأمون سيفوز فلو لم يكن مع المأمون جنود قوية إلا أن جماعة كبيرة من العلماء والأدباء كانت تنجده والتي كانت تنور جلساته العلمية وكان لزهدها وتقواها أثر قوي على الناس فاستخدم الفضل هذه القوادر الدينية فيما عجز عنه مسئول الجنود الأقوياء فانتشر هؤلاء العلماء في كافة أنحاء البلاد ونالوا بفضل نصائحهم وفتاواهم من القوة والسلطان ما قد أثار البلاد كلها على صوت وحيد منهم. والمأمون نفسه قد نال قبولاً عاماً بفصله للخطاب وسعته في الجود، عمّ عدله كافة الدور لاسيما عفوه عن ربع خراج خراسان قد جعل الشعب يقدونه بأنفسهم ورفعوا أصواتهم بكل حماس ونشاط: ولم لا؟ فإنّ المأمون ابن أختنا وابن عمّ الرسول (وبما أن المأمون كان ابن أمّ أعجمية فقد كان يعتبره كافة الإيرانيين ابن الأخت).

النزاع بين المأمون والأمين

لم يكن للأمين نزاع ضد المأمون بعد هذا النجاح فبعد سيطرته ببيوم بنى بيتاً للكرة مقابل قصر المنصور وأمر بإرسال القوالم والمضحكين وأرباب الطرب والموسيقى إلى دار الخلافة بعد تحديد روايتهم الشهرية وأمر بصنع السفن على صور الفيل والصقر والأفعى والأسد والفرس وكان يركبها ويسير في البحر وفي هذه الحالة لم يتفكر في المأمون ولكن الفضل بن الربيع الذي كان سبباً أصلياً لخيبة المأمون وتعيين رئيس الوزراء على تلك المحاولات لم يكن غافلاً عن المأمون فأثار الأمين على أن يعزل المأمون عن الخلافة فأنكره الأمين أولاً ولكن الفضل قال له "البيعة التي أخذت أولاً من كافة الدول كانت لك خاصة فهل للهارون خيار في تغييرها" فرسخ هذا القول في قلب الأمين وأراد أن يعزل المأمون عن الخلافة ويقوم مقامه ولده الصغير السن موسى ولو كان أغلبية البلاط تقرّ نية الأمين ولكنه لما استشار العامة قام من بينهم عبد الله بن الحازم وقال مجترئاً "لم يخلف أحدٌ ذمته في الإسلام فلتعلم أن تاريخها يبتدئ بك".

فغضب الأمين منه وقال: عبد الملك أعقل منك وهو الذي قال: لا يُجمعُ السيفان في غمدٍ ثم دعي مسئولو الجنود فخالفه الخزيمة بصراحة وقال: إذا خلفت ذمتك في حق المأمون فلا ترج منا شيئاً".

فرجع الأمين عن نيته تلك إلا أن سحر الفضل بن الربيع قد كان أثر فيه فكتب بعد أيام أن يقرأ اسم موسى بعد الأمين في كافة الخطب وكان المأمون قد قدر قوته فجعل يتخذ خطوات ضد أخيه الأمين علناً غير سرّ.

فلما أرسل الأمين الأمير عباس إلى المأمون قائلاً أن يقرّ ولاية عهد موسى فأنكره بصراحة وكذا لما طلب الأمين بعض مدن خراسان من المأمون فقال المأمون لرسله: ليرجع الأمين من مثل هذه المطامع".

ولو كانت هذه الخطوات فاتحة للحرب فبعث المأمون بأحكام إلى كافة الدول متحذراً: لن يدخل أحد حدود الدولة ما لم يحمل سلطاناً أو أن يكون تاجراً شهيراً وأكد على مسنولي الجنود أن ينزلوا بالحدود أكثر مما يحتاج إليه من الأسباب والجنود ويعدّوهم كل وقت كما أرسل الطاهر بن الحسين أن يصدّ سبيل الأعداء بأسرع ما يمكن له.

شنّ الغارة على المأمون في 195هـ

كان الأمين يحتال لكي يعلن بشنّ الغارة على المأمون وما ارتكبه المأمون من أنواع سوء الأدب قد زاد النار حرقاً فما كتبه الأمين من الوثائق بالنسبة لاتفاقية البيعة طلبها من الكعبة وشقّها وأعطى ولده موسى الذي لم يتجاوز عمره خمس سنوات، لقب الناطق بالحق وأصدر أحكاماً مؤكدة للعمّال أن يقرأ اسم موسى في الخطب بدلاً من المأمون ثم أمر الجنود بالاستعداد وأعطى قائد الجيش علي بن عيسى مائتي ألف دينار كجائزة كما قسم سبعة آلاف خلعة مغرقة فيما بين المسؤولين وخرج الجيش يوم الرحيل متسلّحين من حيث تحيّر عجائز ومستو بغداد الذين قد شهدوا العديد من مناظر شوكة وأبهة الجيش. زار علي بن عيسى زبيدة (أمّ الأمين) حين الرحيل فأعطته زبيدة سلسلة من الفضة يشدّ بها المأمون إذا أسر ثم نصحها بأنه ولو أن الأمين فلذة كبدي ولكن عليّ حقوقاً للمأمون فتعرف من أبوه ومن أخوه فإن أسر فلا تسئ الأدب معه واصبر لو تشدّد حديثه معك وتذكّر أنك لن تعادله وبالجملة فتقدّم علي بخمسين ألف جندي إلى الرّي والقوافل التي كانت تلقاه في السبيل تخبره بأن الطاهر يعدّ الجيش القوي في الرّي ولكن علياً قد اغترته كثرة عدد جيشه حتى لم يأذن لهذه الأخبار فلم يزل يتقدّم

بجيشه حتى بلغ حدود الري. أشار الناس على الطاهر أن يواجهه مقيمًا بالمدينة فإن هذا العدد القليل من الجنود لن يقوم ضدّ هذا الجحفل الكبير فقال الطاهر إن جيوش العدوّ لو قد اقتربت من أسوار المدينة ليشنّ أهالي المدينة الغارة علينا لشوكة وهيبة أعداد جيوشه فخرج الطاهر بأربعة آلاف جندي من المدينة واقترب علي بجيشه فاصطفّ الجيشان. تقدّم جيش علي بكل ترتيب وتنسيق إذ يتصدّروهم رجال مدرّعون يتأخر منهم عشر رايات على بعد مائة قدم وتحت كل راية مائة فارس، وكان وراء الرايات حرّاس الخليفة وكان عليّ في وسطهم وبجانبه كبار المسئولين المجريين. ولو كان جيش الطاهر قليلاً عدده ولكن خطبه البليغة المؤثرة قد حشت في كل جندي حماساً لم يعتنوا بكثرة عدد العدوّ فمن تقدّم من الأعداء وبدأ بالقتال كان حاتم الطائي شجاع قوي من جيش علي. لم ينتظر الطاهر بأن يخرج فارس يعادله فهو كان يتكل على قوة عضده فخرج بنفسه لمواجهة واشتدّ غضبه فأخذه لقبضة السيف بيديه وضرب بسيفه إذ قتل حاتماً مرة واحدة فلّقبه الناس بـ"ذو اليمينين".

والآن ابتدأت الحرب العامة فهجم جيش علي على ميمنة وميسرة الطاهر بقوة زلزلت قدم جنود الطاهر إلا أنه لم يتولّ هارباً وثبت في مكانه ورتّبهم من جديد وهجم على أرباب الرايات فغاراته المتواصلة قلبت صفوف حاملي الرايات ثم حدثت ضوضاء فرقت كافة الجنود. حاول عليّ كل جهوده لجمعهم ولكنهم لم يستمعوا إليه. ومن خلال هذه الضوضاء وقع نبل على عليّ قتله فهزم الطاهر جيش عليّ وكتب إلى المأمون مبشّراً بالفتح بهذه الكلمات الموجزة: كتابي إلى أمير المؤمنين ورأس علي بين يدي وخاتمه في إصبعي وجنده مصرفون تحت أمري.

قطع الرسل مسافة مأتي ميل وخمسين ميلاً من الري إلى مرو في ثلاثة أيام وحضر بلاط المأمون في اليوم الرابع، وبلغ رأس علي بعده بيومين وشهّر في خراسان كلها اعتباراً به.

كان الأمين يصيد السمك على شاطئ الحوض مع رقيقه الحبيب كوثر. كان الحوض مليئاً بأسماك الألوان العديدة بحليّ ذهبية في أنوفها، وكانت الحليّ مرصّعة بالدرر الثمينة فكان يأخذ الدرر من كان يصيد ذلك السمك.

كان الأمين دائماً يصيد الأسماك على هذا الشاطئ مع الإمام الحسنات واليوم كان يشتغل بهذا العمل إذ أخبره مسرور بهزيمة الجند وقتل علي فغضب الأمين وقال: اسكت فقد أقبض الكوثر على السمكين وأما إني فلم أصد سمكاً ما فلما فرغ من الصيد طلب الفضل بن الربيع الذي سدّ نقص الهزيمة بأن أقبض على وكيل المأمون الذي كان يسكن في بغداد وأتى به إلى الأمين وأخذ منه عشر مائة ألف مع الأموال والأسباب الأخرى.

فأعدّ الأمين جيشاً آخر لم يتجاوز عدده عشرين ألف جندي وعيّن له قائداً يسمّى عبد الرحمن. آنذاك كان الطاهر مقيماً على قرب من همدان فلما قرب جيش الأمين من همدان نزل بحدودها فقررّ عبد الرحمن هذه المدينة مقرّه الرئيسي وحدّد الفرسان والراجلين بأماكن خاصة فهجم الطاهر على المدينة وحاصرها لمدة شهر أو أكثر وفي النهاية طلب عبد الرحمن الأمن وترك المدينة متوجّهاً إلى جانب لا يعلم فتقدّم الطاهر نحو قزوين فهرب عاملها كثير قبل أن يصل الطاهر إليها فسيطر الطاهر عليها ولكن عبد الرحمن قد فاجأه بجيش عظيم وهجم على جنود الطاهر من حيث لم يجدوا فرصة الأخذ بأسلحتهم سوى الراجلين. إنهم قاتلوا بكل ثبات واستقلال ومن خلالها اهتبل الفرسان الفرصة للتسلّح ووقعت معركة شديدة فانهمزمت جنود عبد الرحمن إلا أنه ثبت في الساحة ولما أشار عليه أصحابه الفرار ردّ عليهم غضبان: لا أودّ أن أبدو للأمين وأنا هازم فقاتل بكل شجاعة حتى تمّ قتله.

أرسى هذا الفتح دعائم الطاهر في البلاد فسيطر على كافة مناطق جبل إلا أن هذه الهزيمات لم تبرد عزيمته الأمين فأعدّ جيشاً عظيماً للغاية كان عدده أربعين ألف جندي وقرّر قائده أحمد بن زيد وعبد الرحمن بن حميد من أبرز وأشهر مسؤولي الدولة العباسية. لن يمكن للطاهر أن يواجه هؤلاء الشجعان وهو بنفسه كان يعرف هذا الواقع والآن بدّل السيف بالتدبير ففرّق بين ذينك المسؤولين برسل ورسائل مزوّرة حتى تقاتلا لوقت طويل ولما ظهرا لمواجهة الطاهر لم يقدر عليهما ورجعا إلى بغداد.

هذه الفتوح قد أعلنت أمنية المأمون واختار لقب أمير المؤمنين وأعطى عمائد البلاط مناصب عالية وجعل الفضل عاملاً على تلك البلاد من همدان إلى التبت طويلاً ومن

بحر فارس إلى جرجان وبحر ديليم عرضًا والتي كانت تحت سيطرة الخلافة المأمونية بجانب تلقيبه بـ"ذو الرياستين" وحدد له راتبًا شهريًا مبلغه ثلاثة آلاف درهم وكذا عين الحسن بن سهل وزير الخراج وعلي بن هشام وزير الحرب ونعيمًا وزير القلم.

الأهواز والبصرة والبحرين وعمّان وغيرها من البلاد

أقام الطاهر بشلاشان وأرسل رستمي إلى الأهواز وكان محمد بن حاتم عامل الأمين موجودًا في تلك النواحي فلما سمع عن رستمي بلغ الأهواز وجعل يحصن ولكن رستمي وقريشًا الذي أرسله الطاهر لنجدة رستمي مع جيش عظيم وصلوا إليها اليوم الثاني. وقعت معركة شديدة وانهزم جيش محمد إلا أنه لم يتول هاربًا من الساحة وثبت بها مع بضعة أرقاء فدائيين ولو أنه يئس من الفتح ولكنه قال لأرقائه إن من هرب فلا نرجو منهم الرجوع وأما من معي فلا أتيقن ثباتهم معي. إني أموت مقاتلاً وأما أنتم فأنتم أحرار توجّهوا حيث شئتم فإني أودّ أن ترزقوا الحياة غير أن تموتوا فاتفق كلهم على القول بأننا ملعون علينا بعدكم فنزل أرقاؤه عن أفراسهم وهجموا راجلين فلو أنه أضع عددًا ملموسًا من أفراد الطاهر إلا أنه لم يفلت من القتل. كان محمد من آل المهلب المشهورين من العرب، الذين يضرب بهم المثل في الشجاعة والرجولية وبما أنه كان شجاعًا وخلفًا صالحًا وقد حزن الطاهر على قتله. وبهذا الفتح سخّرت له الأهواز واليمامة والبحرين وعمّان والآن تقدّم نحو واسط فهرب عاملها من قبل بينما أرسل عمّال الكوفة والبصرة والموصل رسائل الطاعة إليه ولما لم يبق من نطاق فتح الطاهر سوى بغداد وضواحيها أعدّ البرمكي إعدادًا تامًا في المدائن وكانت النجدة تصل إليهم من دار الخلافة يوميًا فيومًا ولكن الطاهر قد أحاطت شوكتته بالناس بحيث أن البرمكي لما خرج لمواجهة فلم يسعه ترتيب الجيش فكان يرتب صفًا وينسل منه صفّ آخر فاضطرّ إلى أن يسمح الجنود أن يصطقوا كيف شاءوا.

كانت هذه الفتوح تنتشر شهرته وكانت سيطرة المأمون تعمّ البلاد فقد تروّجت عملته وقرأ الخطبة باسمه في الحرمين الشريفين فقد جمع داود كافة أعيان مكة وألقى خطبة مؤثرة أمام الحضور فلما كشف الغطاء عن مناقص الأمين فقد زلزل

بجمله قلوب الحضور؛ هذا هو الأمين الذي لم يعبأ بحرمة الكعبة فأشعل النار بالميثاق الذي وقّع فيه في حرم الكعبة وبعد هذه الخطبة ارتقى داؤد في المنبر وألقى عماته من رأسه قائلاً: إني أطرح الأمين هكذا على الأرض فبايع الناس كلهم للمأمون بالغيب فلما بلغ هذا الخبر المأمون نذر خمسمائة ألف درهم إلى داؤد وأضاف حكومة مكة إليه وبعد أيام أطاع عمّال اليمن وغيرها من الدول الطاهر فالآن ضاقت حكومة الأمين في نطاق بغداد وعلى ذلك فإنه أرسل جيشاً عظيماً يشمله أربعمائة مسئول في قيادة علي بن محمد لمواجهة هرثمة فتقابل الجيشان بنهروان في شهر رمضان 196 هـ فلم ينجح الأمين في هذه المحاولة النهائية فانهمز الجيش وأسر عليّ حيّاً فالآن بقي تديبر نهائي وهو التفريق بين جنود العدو بإظهار الحرص على الأموال فلقد كان الأمين تحوي خزينته الكثير مما جمعه هارون الرشيد مما عمل أحسن وأسرع من السيف والخنجر.

فقد ترك حوالي خمسة آلاف رجل معونة الطاهر وحضروا بغداد دار الخلافة فقد أعطى الأمين جوائزهم أكثر مما وعدهم واصطبغ لحيمهم بالمسك فخرّاً وعزّاً فخرج هؤلاء الناس مع جنود أخرى لمواجهة الطاهر فقاتلوه في صرصر ولكن عاقبة الحرب أثبتت أن من خان الطاهر لم يكادوا يعينوا الأمين فقد نال الطاهر الفتح النهائي ونال غنائم كثيرة فأعد الأمين جيشاً جديداً يشمله عامة ضواحي بغداد وكان القائد والجنرال مختارين من بينهم وأعطى كل واحد من الجوائز البهية فالمسئولون القدامى الذين حرّموا هذه النعمة قد غضبوا منه شديداً وفي جانب آخر جعل الطاهر يراسل معهم، الأمر الذي أثارهم ضد الأمين فأشار أعضاء البلاط أن يمنعهم عن الثورة بإظهار الحرص على الجوائز ولكن الأمين كان مفتخراً بجنوده الحديثة بالعهد فخرّاً لم يعبأ بمسئولي الجنود القدامى وأمر هؤلاء الجدد من الجنود بأن يقبضوا على الثائرين فكانت جنود الأمين الجديدة والقديمة تقاتل بينهم في جانب وفي جانب آخر كان الطاهر يتقدّم بدون عرقلة وبلغ باب الأنبار في شهر ذي الحجة 196 هـ ونزل بحديقة بها فحضره العديد من مسئولى الأمين وحصلوا على الجوائز الثمينة.

حصار بغداد في 197 هـ

ولو أن الأمين قد زالت قوته تماماً ولم يكن يبدو أحد يعرقل سبيل سيطرته على العاصمة ولكن الطاهر قد تحذّر شديداً. وبما أن بغداد التي لم تزل عاصمة الخلفاء العباسية ومركز قوتهم الأصلية ولم تكن كثافتها السكانية أقلّ من عشرين ألف نسمة بمن فيهم أغلبية المسلمين وكانوا أشجع القوم فالسيطرة عليها لم تكن أمراً هيئاً فاتخذ الطاهر خطوة مدبرة للغاية فعين أكبر وأشهر المسؤولين الذين كانوا معه على أجزاء خاصة وأمر بأن من يأتي تحت طاعتهم سيكون مصوناً ثم أمر بأن ترمى النار والأحجار بالمنجنيق فيدمروا كافة المباني ويسوّوها فامتثل بهذا الأمر بكل التزام وشدة فدمرت الآلاف من المباني الفخمة وخرّبت الأحياء العديدة. قاتل أفرامرر ومحمد بن عيسى ومعيد بن مالك بكل بسالة إلا أنهم في النهاية عجزوا فأطاعوا الطاهر وتبعهم شيئاً فشيئاً عبد الله ويحيى بن همام ومحمد الطائي الذين كانوا من أركان الحكومة فلم يبق الآن سوى أراذل المدينة الذين كانوا يعرقلون سبيل الطاهر ولكننا عاناه الطاهر في كبح جماحهم لم يواجه مثله حين الخوض في المعارك الشديدة فقد واجهوه في القصر الصالح ببسالة أضاعت العديد من جنود الطاهر وقتل بعض مسئوليه البارزين. يقول المؤرخون إن الطاهر لم يواجه معركة شديدة كهذه منذ مواجهته لعلي إلى هذه المرة فانتقاماً من هذه الهزيمة أمر الطاهر بأن يدمر ما بين دجلة والفرات، وبين باب الشام وباب الكوفة بأصلها ولكن أهالي المدينة لم تطعه على هذا الحد فعين الحراس على الشوارع والطرق كيلا يبلغهم أيّ معونة من الخارج ولكن العيارين لم يطيعوه إلى هذا الحد فعين الطاهر عبد الله على قصر الشماسية فهزّمه العيارون هزيمة نكراء ولما جاء هرثمة لإنجادهم من قبل الطاهر فأسره العيارون حياً ولما تقدّم الطاهر بنفسه لم يتخلّف العيارون إلا بعد معركة شديدة للغاية.

قد طال الحصار طول النهار وتحولت دار الإسلام بغداد إلى أسفل من خراب فقد أصبحت هذه المدينة المعمورة المتألّأة صحراء قاحلة فقصور الأمين التي بنيت في نحو عشرين مليوناً لم يبق منها سوى خراب وما عانى منه أهالي المدينة من شدائد لن يمكن لأحد أن يخمّنّها فقد خرّبت مات من البيوت وأيتمت الآلاف من الأطفال فقد

كان يعلو من كل زقاق صوت كربه وقد كتب الشعراء مراثي لهذه المآسي ونجد حتى الآن قصيدة كتبها الجرمي تشتمل على 115 شعر وهي صورة حقة تامة لتلك المأساة المشبهة بالعذاب. ولو قد خربت بغداد هذا الخراب إلا أن الطاهر لم يجمع خاطره لكي يدخل المدينة ولو لم يعنه الخزيمة الذي كان أكثر تأثيراً من بين أعضاء بلاط الطاهر لتأخر فتح بغداد فقد دخل الخزيمة بغداد من بابها الشرقي في 12/ محرم الحرام 198هـ ونصب الراية على دجلة وأعلن أن الخليفة الأمين قد تمّ عزله وبهذا الإعلان كأن جانب المدينة الشرقي قد تمّ فتحه.

وفي اليوم الثاني أغار الطاهر على الجانب الغربي للمدينة فوقعت معركة شديدة على قرب سوق كرخ فعين الطاهر جيشاً قليلاً على قصر الواضح وبنفسه حاصر مدينة المنصور وقصر زبيدة وقصر الخلد فكانت هذه الإيوانات التي كانت ذكرى للخلفاء العباسيين كانت مدينة بنفسها وكانت محاطاً بها من الأسوار.

العبارة: في هذا الحصار كان يرافق الأمين إبراهيم بن المهدي أخو هارون الرشيد وكان فاقد النظر في فنّ الموسيقى فهو يروي أن الأمين خرج ذات يوم من القصر لكي ينتزه فقال لي مخاطباً: إبراهيم! انظر ما أرفه ليلة هذه فالقمر يطلع على صفو ويبدو أجمل وأحسن كلما يعكس على دجلة فأني شيء نحتاج إليه في هذه المناسبة اللطيفة، الخمر فقلت له: سمعاً وطاعة، فجئني بالخمر فقدّم الأمين الكأس فأنشدت بعض الأبيات طرباً فقال الأمين: إذا كانت هناك نغمة فلا بدّ من ضرب الأوتار فجيء بمغنية فسألها الأمين عن اسمها فقالت: ضعف، فتوحش الأمين بهذا الاسم القبيح ثم طلب منها أن تغنيّ فغنت ما يلي:

كليب لعمرى كان أكثر ناصراً وأيسر حزمًا منك مزج بالدم
فتكدر صفو الأمين مزيدًا وطلب منها أن تغنيّ شيئاً آخر فغنت ما يلي:

أبكي فراقهم عيني فأرقها إن التفارق لأحباب بكاء
فأنغص (منغص هونا) الأمين مزيدًا وقال ساخطاً: ويل لك! هل بإمكانك أن تغنين غير هذا فقالت: إني غنيت من الأبيات ما سيسرّ جلالتك ثم غنت بضعة أبيات محزنة

فغضب منها الأمين وطردها فلما قامت عثرت من كوب بلوري كان يسميه الأمين بـ"زب الرياح" فسقطت على الأرض وبسقوطها تكسّر الكوب فخاطبني الأمين وقال: انظر ماذا حدث اليوم، لعله قد انقضت أيامي ومن خلال هذا الحدث جاء صوت من جانب "قضي الأمر الذي فيه تستفيان" فسألني الأمين: هل سمعت شيئاً. فقلت له: لم أسمع شيئاً ولكني مع ذلك قمت إلى النهر ولكن لم أجد أحداً فرجعت إلى مكاني وشغفني الحديث فجاء الصوت نفسه مرة أخرى فقام الأمين يائساً من الحياة وقتل بعد ذلك بيومين أو ثلاثة.

في هذا اليأس تذكر أخاه فكتب إلى الطاهر ما مراده "قد آبت الحروب الداخلية إلى أن جعلت أخاف أعراضي فإني أخاف الآخرين أن يحرصوا على الخلافة بعد رؤية هذه الأحداث كلها. وعلى كل حال فإني راضٍ عن أن ألتقي مع أخي المأمون لو أمنتني فإن رحماني فهذا مما أتوقع من رحمته وسعة صدره وإن قتلتني فكأنه كسرت قوة بقوة وقطع سيفٌ سيفاً وأن فرسني الأسد خيرٌ من أن يأكلني الكلب. وهذا من الواقع أنه لو بلغ الأمين أخاه لصفح عنه أخوه لرحمه وقرباه ولكن الطاهر الذي قد قدر له قتل خليفة هاشمي لم يسمع إليه".

قتل الأمين في 25/ محرم الحرام في 198 هـ

قد أيقنت حملات الطاهر المتواصلة أتباع الأمين لعلّ محاولة منعها لا تفيد الآن فقد فتوت عزيمة محمد بن حاتم بن الصفر ومحمد بن الأغلب الإفريقي اللذان لم يغلب بثباتهما الطاهر على الأمين وقالا للأمين أن الذين قد مننّا عليهم قد خانونا وقد بلغ العدو قصر الحرم والآن بقي تدبير بأن نخصّ سبعة آلاف من المرافقين الفدائيين ونعدّ لهم أفراساً تكفيهم فيخرج الخليفة معهم في ظلمة الليل ونتيقن أن الطاهر أو أحداً غيره لا يجمع خاطره لمنعنا عما نريد، وبلاد الشام أمامنا فيتجّه الجلالة نحوها وبها خزائن وأموال نقويّ بها أنفسنا ورجالنا فلا نخاف شيئاً من حملات العدو فاعترف الأمين بهذا الرأي وعزم على أن يترك العاصمة ويتوجّه نحو جهة ما فلما بلغ الطاهر هذا الخبر دعا سليمان بن المنصور ومحمد بن عيسى وغيرهما وكان هؤلاء يبذون أنفسهم

مع الأمين إلا أنهم كانوا يخفون العداوة له وما كان يسعهم القول ضدّ الطاهر. قال لهم الطاهر: إن أفلت منا الأمين فظنوا أنكم المقتولون فصدّوه عما يعزم عليه كيفما شئتم فاضطروا إلى دخول الأمين وقالوا إن من أشار هذا عليكم فقد طلب غرضه وبما أن مثل هذا الرجل قد أبدى العداوة ضده فظنوا أنه لا يعفو عنهم لو غلبهم وأقبض عليهم فهم ينوون أنهم يفوضون الجلالة إلى الطاهر حينما يخرج من حرم الخلافة ومن ثم ليستعفوه فالأحسن أن تخلع عن عرش الخلافة وتفوض نفسك للطاهر فهو يكرمكم ونرجو من المأمون أن تعامل معكم معاملة الأخ لأخيه. لم يفطن الأمين لهذا المكر فأقرّ برأيه إلا أنه اختلف عنه بأن يختار هرثمة بدلاً من الطاهر فلما علم عن نيته هذه فدائتوه من محمد بن حاتم ومحمد بن إبراهيم فحضروا الأمين وقالوا: سيدنا! إذا أنكرت رأينا وأصغت لرأي الانتهازيين فنتصل بالطاهر مباشرة فقال الأمين رأيت شيئاً في المنام ومنذ ذا أبغض اسم الطاهر وقد رأيت فيما رأيت أن هناك جداراً طويلاً عريضاً يبلغ طوله إلى السماء وإني قائم على هذا الجدار بملبس ملوكي مع سيفي وأما الطاهر فهو قائم بجانب أساس ذلك الجدار ويحاول حفر الأساس وفي النهاية انهدم الجدار وبانهدامه سقطت أنا فسقط التاج الملوكي فبعد هذا الحلم أفزع لاسم الطاهر وأما هرثمة¹ فهو قد تربّى على أراقنا وإني اعتبره صنواً لهارون الرشيد.

ثبت الأمين على رأيه هذا وطلب من هرثمة الأمن فأبدى هرثمة إخلاصه وقال ردّاً عليه: كن مطمئناً، لن يضرّ بك أحدٌ وإن أراد المأمون أن يوجّه أيّ ضرر إليك فأقوم دون همّه وأعينكم ما دمت حيّاً". فلما بلغ هذا الخبر الطاهر فار غضبه وقال: لن يمكن لهرثمة أن يقبض على الأمين الذي هو علامة لنهاية الفتح فإني قد قاتلت وقتلت في كافة المعارك إلى الآن ولفصل هذا النزاع اجتمع عمائد بني هاشم وكبار مسؤولي الجيش وكان فيهم الطاهر وهرثمة وفي النهاية حكموا على أن يأتي الأمين بنفسه إلى هرثمة ويرسل الخنجر والرداء والخاتم التي هي سند الخلافة إلى الطاهر ولكن الأسف كل الأسف أن سوء حظّ الأمين لم يوافق هذا الاقتراح فهرش الذي كان ممن يثق به الأمين من قبل والآن قد لحق بالطاهر قال للطاهر حرصاً على أن يعلو مكانه لديه: قد خنتم فقد

¹ كان هرثمة هاشمياً وبما أن الأمين كان يأنس إليه دائماً فقد طلب منه الأمان بهذه المناسبة.

أحكم الناس على أن يبلغ سند الخلافة إلى هرثمة مع الأمين ذاته فثار غضب الطاهر وعين كتلة من الرماة ليحرسوا قصر الخدل وقصر زبيدة سرًا مؤكّدًا على أن لا يفلت الأمين من أيديهم. وفي الساعة العاشرة تقريبًا ليلة 25/ من شهر محرّم الحرام 198 هـ أراد الأمين أن يلقي هرثمة ولكن هرثمة أرسل إليه أن الطاهر قد عين جيشه على دجلة فيصبر الجلالة اليوم فسأتيك غدًا مع الجنود وإن أرادوا القتال فسأقتل ضدّهم ولا أبالي". كان الأمين مضطربًا خائفًا لم يصبر على القيام في دار الخلافة للحظة ما فقال للرسول: هل لأحد أن يقضي الليل في هذا القلق فإنني ذاهب إليه يدعوني أو لا". هذا كان آخر بروزه في البلاط فجلس في كرسي في حسن القصر مودعًا حريمه وكان يقوم بجانبه خدمًا بالرماح فدعا ولديه وألحقهما بصدرة فقبلهما على النواصي والحدود ثم بكى وهو يعانقهما فودّعهما قائلاً: وداعًا لكم، قد ودّعتمكم لله". كان من المعتاد أنه كلما ركب الأمين كان يرافقه الآلاف من الخدم ذوي الشربط الذهبي في حضورهم، وبفضل ملابسهم المتألّأة وأسلحتهم المرصّعة كان يتألّأ الميدان كله، واليوم توجه نحو دجلة من حيث لم يكن خادمه يحمل إلا شمعًا رافقه من قصر الخلد لكي يهديه إلى قصد السبيل فلما بلغ شاطئ دجلة قد سبقه هرثمة مع بعض حواريه ليرحب به فركب الكل السفينة فلما رأوا الأمين قاموا لتعظيمه وبما أن هرثمة كان يعاني من النقرس فلم يسعه الامتثال بأداب التكريم فقام على ركبتيه واعتذر فلما ركب الأمين السفينة أخذه هرثمة في حضنه مقبلاً يديه ورجليه وقائلاً له بكل أدب وتكريم: أنت سيدي وأفيديكم بنفسني فلما أمر هرثمة بإجراء السفينة فاجأه جنود الطاهر من كل جانب ورموا عليها بأحجار كسرت ألواحها فأخرج الملاحون هرثمة ولم يكن أحد لتعضيد الأمين فمزّق ملابسها وخفّفه حتى بلغ الشاطئ سابقًا. يقول أحمد بن سلام إنني كنت أرافقه في السفينة فأسروني إلى مسئول للطاهر فلما علم عن أني كنت مع الأمين أمر بقتلي ولكني فديت نفسي بعشرة آلاف درهم إلا أني سجتت ضمانًا لفديتي فلما أمسى جاء بعض فرسان العجم وجاءوا بالأمين أسيرًا ولم يلبس سوى السروال والعمامة والرداء الكدر على كتفه فقد أخفى وجهه بعمامته فأجلسوه في حجرة كنت محبوسًا فيها وأكّدوا للحراس على أن يحذروا كل الحذر فبعدما رجعوا اطمأن الأمين شيئًا وكشف القناع

عن وجهه فعرفته وبدأت أبكي فسألني الأمين عن اسمي فرددت عليه: أنا ممن أكل على مآدبتك وأنا أحمد بن سلام فقال الأمين: نعم، قد عرفتك الآن فكيف الرقة والسيادة، الآن أنت أخي وعضدي فاضممني إلى صدرك فإني أتوحش هذا المكان فضممته إلى صدر فوجدت قلبه يتحرك خوفاً ثم سألتني عن المأمون فقلت له إنه حيّ فقال: ويل للكتاب فقد أخبروني بأنه مات فقلت له: لا تقل شيئاً عن الوزراء فليسوا بخاطنين فإني لست أحد من خاب في نيته" ثم سألتني: أيا أحمد! هل الناس قاتلي؟ أم يوفون بوعدهم، فعزيتته قائلاً: لا، إنهم سيلتزمون بوعدهم".

وبما أن البرودة كانت شديدة قارسة وكان هو مبتلاً بالماء فكان يلتف بردائه فنزعت جبتي له فشكر لي واعتبرها نعمة كبرى من ربه فلم يمض إلا نصف الليل إذ جاء بعض الأعاجم بسيوف مصلوثة وتوقفوا بالباب فقام الأمين وكان يقول: إنا لله، إني أقتل بدون جدوى، هل هناك ناصر أم ظهير". ولو كان الأمين مترقفاً وضعيف الجسد ولكنه مع ذلك كان قوياً شجاعاً فلم يجترئ القاتلون أن يتقدموا نحوه فكان الواحد يقول للآخر فرفع الأمين وسادة بيديه بدلاً من السلاح وكان يقول: أنا ابن عمّ رسولكم، ولد هارون الرشيد، أخو المأمون فلا تسفك دمي". وبالجملة فتقدم أحد بالسيف وضرب على سواء رأس الأمين فشعر الأمين بسوء الأدب هذا أن استغاثته لا تؤثر فيهم شيئاً فرضي عن الموت إلا أنه كان يحبّ موت الأمير العباسي فالآن تحوّل ضعفه إلى قوته وبما أنه كان وحيداً فأراد أن يأخذ السيف من يدي العدو ويربهم نموذج جرأة بني هاشم فلما رأوا هذا الإقدام من عنده تهافتوا عليه فضرب أحد السيف على ظهره ثم اجتمعوا عليه فصرعوه وذبحوه من الخلف ثم حملوا الرأس إلى الطاهر فأمر بأن يعلق الرأس على برج فأسرع أهالي بغداد كلهم ليعتبروا به. كان الطاهر يريد أن يرحّب به برؤيتهم رأس خليفة معزول فكتب إلى المأمون بكلمات موجزة ممتعة "إني أرسل إلى حضرة الجلالة الدنيا والدين كليهما" فالمراد من الدنيا رأس الأمين المظلوم وأما المراد بالدين فالرداء وخاتم الخلافة فوجع ذو الرياستين رأس الأمين على درع وقدمها إلى المأمون فقد جعله سرور هذا الفتح المفاجئ صلب القلب إلى حد نظر إلى رأس أخيه المقطوع بعين السرور وسجد شكرًا لله وأعطى عشرة آلاف

العدد الخاص مجلة الهند

درهم للرسول كجائزة ثم عقد جلسة عظيمة حضرها كافة أركان الدولة ومسئولي الجيش لتهنئته بهذا الفتح فقرأ ذو الرياستين كتاب الفتح على رؤوس الناس فهنأه الحضور من كل جانب. ولو أن السرور قد غلب المأمون آنذاك إلا أنه قد تأثر بقتل أخيه بعدما تذكّره وقت نهاية هذه الجلسة فكان المأمون يتأسف على هذا الحدث فلم توزن محاولات الطاهر في عينيه فتياً.

كانت زبيدة أمّ الأمين حاضرة القصر إذ جاء أحد الخواص وقال لها: أنت جالسة هنا والجال أن أمير المؤمنين قد قتل" فقالت زبيدة: ثم ماذا أفعل؟ فأتارها على أن تأخذ ثار ولدها كما ادّعت عائشة أخذ ثار عثمان فقالت زبيدة: لا أملك ما للناء وطلب الدماء"¹ ثم كتب هذه الرسالة المنظومة إلى المأمون²:

لوارث علم الأولين وفهمهم	وللملك المأمون من أمّ جعفر
كتبت وعيني تسهّل دموعها	إليك ابن عيّ من جفوني ومحجر
وقد مسّني ذلّ وضرّ كأبة	وأرقّ عيني يابن عيّ تفكر
إنني طاهر لا طهر الله طاهراً	فما طاهر فيما أتى بمظهر
فأخرجني مكشوفة الوجه حاصراً	وأتهب أموالي وأخرب أدوري
بعر على هارون ما قد لقيته	وما مرّ بي من ناقص الخلق أعور
فإن كان ما أبدى بأمر أمرته	صبرت لأمر من قدير مقدّر

فلما قرأ المأمون هذه الأبيات بكى وقال: بالله سأخذ ثار أخي" فلما قتل الأمين أعلن الطاهر عن الأمن في بغداد وصلى بالناس الجمعة في المسجد الجامع وذمّ الأمين بعدما

¹ تبتدئ خلافة المأمون المستقل بها من هذا اليوم فقد ذكر الكاتب العباسي ابن الواضح الذي كان زمانه أقرب من زمن المأمون، ذكر خلافة المأمون المستقل بها من هذا اليوم ونقل زيغاً لتوليّه عرش الحكم طبقاً لأصول العلم النجوم، وبما أني لا أعرف مصطلحات النجوم جيداً وزدّ عليه ترغيب العصر الحديث الناس عن هذا العلم فلم أنقل ذلك الزيغ هنا.

² وقد نسب ابن الأثير هذه الأبيات إلى خزيمة ابن الحسن بينما عزاها صاحب "العقد الفريد" إلى أبي العتاهية، راجع: العقد الفريد، 2/2

العدد الخاص مجلة الهند

أنثى على المأمون في الخطبة ثم بايع عامة الناس على المأمون يوم السبت. قتل الأمين 25/ محرم الحرام وهو قد ناهز 28 سنة من عمره. إنه حكم لأربعة أعوام وسبعة أشهر وثمانية عشر يومًا. كان الأمين مقتصد الجسد، طويل القامة، جميلًا قويًا. أكمل دراسة فن النحو والأدب على الكسائي وكان فصيحًا بليغًا وشاعرًا من شعراء العربية.

النكتة: كان للأمين ذوق شعري منذ طفولته فقد جعل يقرض القصائد في هذه السن وقد أمرت زبيدة أبا نواس أن يصلح شعر الأمين فذات يوم أنشد الأمين بعض أبياته التي قرضها حاليًا لأبي نواس لكي يصلحها وكانت زبيدة حاضرة هذه الجلسة ولكنه لما دلّ أبو نواس على بعض مناقصها المتعلقة بالعروض فاشتد غضبه فسجنه في هذه الجريمة فلما بلغ هذا الخبر هارون الرشيد بعد بضعة أيام سخط من الأمين وأطلق سراح أبي نواس، وبعد ذلك قال الهارون للأمين بإحدى المناسبات: أنشد بعض أبياتك الحالية لأبي نواس فلم يكده الأمين ينشد بيتين أو ثلاثة إذ قام أبو نواس من مجلسه فسأله الهارون: أين تريد؟ فقال أبو نواس: نحو المحبس.

بجانب العديد من المساوي فيه كان الأمين يتصف بالعديد من المحاسن فهو كان محبًا للعلم وجوادًا وبما أنه كان عالمًا كبيرًا ومكرمًا للعلماء فقد كان يحضر بلاطه عدد لا يحصى من العلماء والشعراء ويحظون بما وفق لهم، ولو أن قتله لم يؤثر في العامة إلا أن الذين قد شهدوا بعينهم شوكته وأهفته فقد قعدوا حيارى وقرض الشعراء مرثي محزنة تأثر بها كل من له قلب متحرك في صدره فما قاله أبو عيسى من الشعر التالي قد صدر من أعماق قلبه:

لست أدري كيف أبكيك ولا كيف أقول لم تطب نفسي اسمك قتيلاً يا قتيلاً
وقال شاعر آخر:

سألت الندى والجود مالي أراكما تبدلتما عزًّا بذلّ مؤبّد
فقلت فهلا تمّما بعد فقده فقالا أصبنا بالأمين محمّد
وقد مسّني ذلّ وضرّ كأبّة وقد كنتمنا خدناه كل مشهّد

فقالا أقمنا كي نعزى بفقده صبيحة يوم ثم نتلوه في غد

خلافة المأمون سنة 198هـ

بعدهما قتل الأمين بوع على المأمون يوم السبت السادس والعشرين من شهر محرم الحرام سنة 198هـ فهذا اليوم يستقل المأمون بالخلافة فلو أن المأمون قد أخذ عنان الحكم بيديه ولكن الفضل بن سهل قد حظي في البلاط من القدر والشوكة بما جعل الخلافة رهينة بيديه وعلى هذا فقد ابتدئت نظم الدولة بأسلوب غير ملائم من حيث أن الفضل بن سهل أراد أن يأخذ بعنان الحكم بيديه وأعطى الحسن بن سهل حكومة كافة البلاد المحتلة من كور الجبال وفارس والأهواز والبصرة والكوفة واليمن. والحسن هذا كان أخا الفضل بن سهل، وأمر الطاهر بأن يكبح جماح النصر بن السيار الذي كان من أتباع الأمين واعتدى على أطراف الشام. في 199هـ دخل الحسن بغداد وعين عماله على كل ولاية ونائباً له في كل مدينة. والعرب الذين كانت له قوة وأثر في البلاط وكانوا يعتبرون خصوصاً للعجم وهم الذين قد سببوا خراب البرامكة في زمن هارون الرشيد، كانوا يخافون أن يغلبهم هؤلاء الأعاجم في هذه الحكومة الجديدة لأن الفضل بن سهل والحسن بن سهل كانا شقيقين ومن أصل أعجمي فكلما ازدادت قوتهم فترت عزيمة عمائد بني هاشم ومسئولي الجيش العرب، وقد اشتهر في الناس أن الفضل لا يدع أحداً حتى أفراد الأسرة الملكية أن يدخل على المأمون فكان المأمون يجلس من وراء الحجاب وكافة نظم الدولة كانت تتم على ايدي الفضل بن سهل. وبما أن المأمون كان أعجمي الأصل من جهة أمه فقد اشتدت هذه الشبهة أن العجم سيسيطرون على العرب شيئاً فشيئاً، الأمر الذي سبب الثورات العديدة في البلاد.

خروج ابن طباطبا في 199هـ

فلما انتشرت الفوضى في البلاد عادت فكرة الخلافة إلى السادات والعلويين فأول من خرج كان أبو عبد الله محمد الذي كان يلقب بابن طباطبا ولو أن علو نسبته وقديسيته كفا مرجعيته لدى الناس ولكن نظم الدولة تحتاج إلى مدبر فالتحق به أبو السرايا الذي قوى جانبه السياسي. ولو أن هذا الرجل كان وضيعاً في الناس في البداية وكان

يقضي حياته على حمار اكتره ولكنه بما أنه كان شجاعاً قد حظي بمنزلة كبرى على مَرّ الدهور فبعد قتل الأمين جعل يغير على الناس لمدة طويلة. أغار على عين التمر ووقواق الأبنار فهزم العمّال ونهب الخزائن ثم بلغ الرقة لقي ابن طباطبا الذي قد ادعى الخلافة فاهتبل أبو السرايا الفرصة فبايع عليه وقال له إن يتقدّم نحو البصرة من جانب البحر وأنا آتيكم عن جانب البرّ فلما بلغ الكوفة نهب قصر العباس الذي كان قصرًا ملكيًا ومقرّ العامل فكان يصاب به كافة الأموال والخزائن والدفاتر فوجد قدرًا كبيرًا من النقود والأسباب التي قد تجمّعت منذ مدة بعيدة ومن هنا سيطر على المدينة كلها وجاء الناس من كل جانب وبايعوا على ابن طباطبا.

فأرسل الحسن بن سهل زهير بن المسيب بعشرة آلاف جندي لإخماد هذه الثورة فتقاتل الجيشان بقرية شاهي فانهزم زهير وأمر أبو السرايا بنهب ما كان لدى زهير وجنوده من الأموال والأسباب ولكن لم يحب ابن طباطبا هذا الجور ومنع الناس عن النهب والسلب فلما شعر أبو السرايا بأن وجوده يخلّ بحريته سمّم ابن طباطبا اليوم الثاني واستخلف طفلاً هاشميًا كان معادلًا لابن طباطبا. سمّي هذا الخليفة المزعوم بـ"محمد بن محمد زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب". والآن أرسل الحسن بن سهل عبدوس بأربعة آلاف فارس ولكن من سوء الحظ أن جيش الخلافة قد انهزم في هذه المعركة التي وقعت في 17/ رجب وقتل عبدوس كما قتل بعض الفرسان وأسر الآخرون فبعد هذا الفتح المبين قرئ اسم أبي السرايا في الخطب بالكوفة وضربت النقود باسمه وأرسل الأفواج والمسئولين على البصرة وواسط والأهواز واليمن وفارس والمدائن، الذين قد نجح معظمهم. كان هؤلاء المسئولون كلهم من بني فاطمة أو بني جعفر وبما أنهم كانوا مشهورين بالشجاعة لعلّو نسيهم قد تيسّر لهم الفتوح.

والآن قد بدا للحسن بن سهل مشاكل وشدائد فقد انهزم كافة الشجعان المشهورين ضد أبي السرايا أو تمّ قتلهم في المعركة فلم يبق سوى الطاهر ذي اليمنيين وهرثمة ابن الأعين القائدين اللذين استطاعا أن يكبح جماح أبي السرايا ولكن الطاهر قد حصر بالرقّة بعدما هزمه النصر وأما هرثمة فقد سخط من الحسن وأقبل على خراسان فلو كان عارًا على الحسن أن يستعين هرثمة كما خاف منه أن يطرد طلب

هذه النجدة ولكن المشكلة قد أجبرته على أن يستعينه فرجع هرثمة من خراسان وتوجّه نحو الكوفة. تقاتل الجيشان على قرب من قصر ابن هبيرة ففتح هرثمة على أبي السرايا الذي هرب إلى الكوفة وأما السادات والعوّيون الذين كانوا مع أبي السرايا فكان قد ملأهم نار الانتقام من هذه الهزيمة فلما بلغوا الكوفة أشعلوا النار في بيوت كافة بني العباس وأعاونهم بالكوفة ونهبوا العقارات ولم يتركوا شيئاً مذكوراً ظفروا به. حاصر هرثمة الكوفة لمدة طويلة وفي النهاية تركها أبو السرايا في 16/ محرم الحرام 200هـ وهرب منها ونزل بخوزستان بضواحي السوس فلما بلغ هذا الخبر الحسن بن علي المأموني الذي كان عاملاً على هذه المنطقة وكان موجوداً بها آنذاك رجع إلى خوزستان وبما أنه كان يبغض القتال فقد كتب إلى أبي السرايا "اذهب حيث شئت واترك منطقتي" فظنّ أبو السرايا هذا الطلب عجزاً من جانبه فردّ عليه أن الحقّ الذي به سيطرت على هذه المنطقة لا يشهد به إلا السيف ولكنه حينما وقعت المعركة انهزم أبو السرايا وقتل كافة الجنود وهو بنفسه توجّه نحو داره فأسر بحلولها وقتل فهكذا خمدت نار هذه الثورة ولكن العمّال المسئولين الذين عيّنهم في المناطق التي فتحها في البداية كان معظمهم من العلويّين والفاطميّين فلم يؤثّر قتل أبي السرايا في خروجهم فالمظالم التي مارسوها خلال حكومتهم القصيرة لا يسعها هذا الكتاب الوجيز فقد أقام زيد ابن موسى الكاظم قيامة في البصرة مدمراً آلافاً من البيوت ومحرّقاً عدداً لا يحصى من بيوتات بني العباس حتى نهب الحسين بن الحسن بيت مال مكة للأوقاف. وقد اشتدّ العلويّون وآل فاطمة خلال حكم محمد بن جعفر الصادق على العرب حتى انتهكوا أعراض الناس فكان إبراهيم بن موسى العامل على اليمن يلقّب بـ"القصّاب" لأجل ممارسته لأنواع من الظلم فأحب المأمون أن يخمد هذه الثورات بالصلح ولكنهم لم يرضوا عنه فقاتلوا وقتلوا وأسروا ولما قدّموا أمام المأمون فكّ عقابهم لأجل علوّ نسبهم.

وعادة يتهم بنو العباس بقتل السادات فمن يعترض عليهم في زاوية ضيّقة له فنعذرهم ولكن من يسعه تقدير الضرورات السياسية لا يسهل له قبول هذا الاعتراض فلما نال السادات والعلويّون السيطرة لبضعة أيام فأقاموا القيامة في البلاد فلم يكن

بإمكان العباسيين أن يطمئنوا إليهم فما قاموا به من المعاملة معهم لم تكن إلا لهذه الضرورة، والضرورات تبيح المحذورات.

قتل هرثمة وثورة بغداد في 200هـ

ولو أن ثورات السادات والعلويين قد خمدت ولكن السخط الذي انتشر في البلاد كان يزداد يوماً فيوماً فجماعة العرب التي كانت أغلبيتها في الحكومة لن تصبر على صيرورة خراسان دار الخلافة وفوق ذلك أن الفضل والحسن كانا قد احتلّا منصب الوزارة المهمّ وكانا مجوسيين فكان العرب يرون بأعين رؤوسهم أن العالم الإسلامي كله والعرب بأنفسهم كانوا تحت سيطرة الفرس فكان المأمون كان عضواً عاطلة من الحكومة فالفضل كان هو الحاكم المستقلّ وهو الذي رجّح خراسان على بغداد عمداً بوعي فكان من الصعب أن يديم أعجبي حكمه على العرب وهو بين ظهرانهم. وبجانب هذا لم يدع الفضل أن يطلع المأمون على هذه الفوضى الشاملة في البلاد وذلك لأنه كان رهيناً بيدي الفضل فما كان يتعرف على شيء بدون إعلامه من قبل الفضل وأخيه الحسن.

كان هرثمة أهمّ مسئول الجنود وأشهرهم وهو الذي قضى على قوة وسلطان السادات والعلويين فكانت له منن آخر غير هذه على الخلافة العباسية، والتي علمها اجترأ على أن يحضر المأمون ويقضي على مؤامرات الفضل فأراد خراسان بعدما فرغ من إخماد ثورة أبي السرايا فلما بلغه الفضل أرسل العديد من فرمانات المأمون إليه "لا نحتاج إليك هنا فاقصد الشام والحجاز فإنك مطلوب بهما لإصلاح نظمهما" ولكن هرثمة الذي كان قد غرّه خدماته لم يعتن بهذه فرمانات وأقبل على خراسان فقال الفضل للمأمون: انظر يا سيدي! هرثمة لا يزن أحكامكم شيئاً فماذا تؤثر حركته في نظم البلاد؟ بلغ هرثمة مرو في ذي القعدة 200هـ وأمر بضرب الطبل مخافة أن مجيئه قد أخفي على المأمون فسأل المأمون أعضاء البلاط عن الضجيج فقالوا: إن هرثمة يقصدكم بقوته وسطوته فلما حضر هرثمة البلاط أخرجته المأمون ذليلاً وأمر

بحبسه في السجن¹ ثم قتله الفضل بعد أيام وبلغ المأمون أنه مات لحتفه فلما بلغ بغداد نعي هرثمة فارتفع الصوت من كل جانب ضدّ الحكم الحاضر وقد سبقه ثورة حيّ الحرية فاهتبلوا هذه الفرصة وعزلوا عمّال المأمون وزادت هذه النار اشتعالاً فأقيم مقام هرثمة محمد بن أبي خالد وأطاعه كافة أهالي بغداد، والحسن الذي كان عاملاً على بغداد من قبل المأمون كان مقيماً بواسط فخرج محمد بن خالد لمواجهة من بغداد في 201هـ وعرقله العديد من أفواج الحسن ولكنها قد انهزمت وبلغ محمد دير العاقول وأسر زهير بن المسيّب فأرسله إلى بغداد مكبلاً بالسلاسل. فتح ابن الهارون ضواحي النيل وبعد ذلك تقدّم الوالد والولد نحو واسط فأرسل الحسن جحفاً عظيماً لمواجهةهما. وفي 23/ من شهر ربيع الثاني تصافّ الجيشان فانهزم محمد بن أبي خالد بعد معركة شديدة وبما أنه قد أصيب بجروح شديدة في ساحة الحرب فقد رجع إلى بغداد فتعاقبه الحسن بصورة دائمة وأما محمد بن أبي خالد فلم تزل جروحه تتفاقم حتى مات بعدما وصل إلى بغداد فقام مقامه عيسى بن محمد بن أبي خالد وكتب إلى أهالي بغداد أنه إذا فقدتم أبي فأنا حيّ وبديل له وسأحرّر بغداد من احتلال الحسن إن شاء الله تعالى فقبلت بغداد كلها سلطنته ولو أن أفواج الحسن القاهرة قد هزمت عيسى وأخاه أبا زنبيل ولكن الصوت الشديد "لن يحكم علينا ولد مجوسي" لم ينخفض.

ولاية عهد علي الرضا في 2/ رمضان 201هـ

وعلى الرغم من هذه الضوضاء الشديدة فلم ينتبه المأمون فقد أحاط ذو الرياستين بكل البلاط من حيث لن يبلغ المأمون خبراً ضدّه والآن قد أثار غضب بني العباس بنظام منه جديد فقد كان المأمون شغفاً بأل النبي صلّى الله عليه وسلّم ولا شيء أدلّ على هذا أن كافة الثورات الشديدة التي حدثت خلال حكمه كانت يقودها هذه

¹ كتب ابن الواضح العباسي في تاريخه أن هرثمة قد تحدّث مع المأمون بأسلوب ملؤه الهتك بعزته وقال إنك قد بلغت في تكريم مجوسي (الفضل بن سهل) فطرده المأمون من بلاطه.

الأسرة الشريفة ولكنه قد صفح عنهم وعامل معهم معاملة الشريف مع الشريف بعدما سيطر عليهم.

في هذه المدة كان علي رضا الثامن حيًا وكان يحبّه المأمون حبًا جمًّا وبما أن فضله العلمي المرافق بتقواه كان جديرًا بأن يجعله المأمون وليّ عهده. وقبل هذا أرسل إلى كافة مناطق البلاط أمرًا بأن يحضر البلاط من يحيى من الأسر العباسية فحضره أكثر من 33 ألف نسمة ممن تربى على النعمة والترفة فرحب بهم المأمون بكل تكريم ورعاية لشرفهم وتضيّفت هذه الأسر لدى المأمون كل النهار وفي هذه المدة امتحن المأمون كل فرد من أفراد الأسرة العباسية ومن خلال هذا الامتحان فصل على أنها تفقد رجلًا يصلح للخلافة، ففي 201هـ قد خاطب كافة أركان السلطنة والمسئولين الموجودين في البلاط وقال لهم إني قد جرّبت مؤهلات كافة أفراد الأسر العباسية الموجودة في العالم فلا يوجد فيما بينهم وبين آل علي من يعادل عليًا رضا بشأن ولاية العهد ثم بايع الناس كلهم على عليّ وحدّد لباس البلاط أخضر في مكان الأسود، اللون الذي يمتاز به السادات كما غيرت أزياء الجنود وعمّ البلاط كلها أن عليًا رضا سيكون خليفة بعد المأمون ولقبه "الرضا من آل محمد" وكذا بلغ الحكم باسم الحسن بن سهل بأن يعقد جلسة البيعة العامة له ويختار الجنود وعمائد بني هاشم الراية والقلمسوة والقباء الخضراء فقد انتشرت ضوضاء قائمة في بغداد كلها وبلغ سيل معارضة المأمون الزبي فلو أن الناس قد امتثلوا بهذا الحكم كرهًا إلا أن الكل رفع الصوت ببقاء الخلافة في بني العباس ولا غير.

خلافة إبراهيم بن المهدي في الواحد من محرّم سنة 202هـ

حينما بلغ حكم ولاية عهد علي الرضا بغداد بدأ العباسيون يقترحون خليفة آخر غير هذا ففي يوم الثلاثاء الخامس والعشرين من ذي الحجة بايع آل العباس على إبراهيم بن المهدي عمّ المأمون سرًّا ثم عيّن رجلين ينادي أحدهما بأننا نريد أن نحدّد إبراهيم بن المهدي ولي العهد وليناد الثاني بأن المأمون قد عزل فالخليفة الحاضر هو إبراهيم وأما ولي عهد الخلافة فهو إسحاق بن الهادي ولعل هذه كانت طريقة للإعراب عن الطاعة

العامة لهذا الأمر ولكنهم قد بدا لهم أنه ولو أن البلاد لا تعين المأمون فهي لا توافق على إبراهيم فقال الرجلان ما لقن لهما من الجمل فلم يجب الناس على قولهما بل ثار الناس حتى لم يصلوا الجمعة وخرجوا من المسجد إلا أن محاولات السندي وصالح قد بلغت بإبراهيم منصب الخلافة فبايع بغداد كلها عليه في الواحد من محرّم الحرام 201هـ واختار إبراهيم لقبه "المبارك". وفي تلك المدة كان حميد بن الحميد مسئولاً عن قصر بن هبيرة من قبل الحسن بن سهل ولو أنه كان يعضد الحسن من أعماق قلبه ولكن المسئولين الذين قد كانوا معه، لاسيما سعيد وأبي البط، قد التحقوا بإبراهيم ففي جانب كتبوا إلى الحسن أن حميداً يؤامر ضدكم مع إبراهيم وفي جانب آخر طلبوا من إبراهيم أن يرسل مسئولاً من عنده لكي نسيطر على قصر بن هبيرة. ولو أن الحسن لم يعتن بهذه الكتابات شيئاً إلا أن الشك قد تسلل إلى قلبه ورجع حميداً إليه لكي يطمأن القلب فاهتبل إبراهيم الفرصة وأرسل عيسى بن محمد الذي استولى على قصر بن هبيرة في العاشر من شهر ربيع الثاني ونهب ما كان حميد قناه من الأموال فلما بلغ هذا الخبر حميداً رجع إلى الكوفة حيث كان عباس أخو علي الرضا فدعا حميد وقال إن يأخذ حكومة الكوفة نيابة عن أخيه فستعضده الكوفة كلها وأما أنا فأفديك بنفسي كما نذر ألف مائة درهم إليه ثم رجع إلى الحسن وأما الكوفيون فمعظمهم أعانوا الحسن ولكن الذين كانوا يبالغون في التشيع قالوا للحسن: إذا اعتبر علي الرضا خليفة مستقلاً فنحن نعينه ولكنه إذا توسط المأمون بينهما فلا ترج مئاً شيئاً وبما أن الحسن لم يقبل طلبهم هذا فقد غضبوا منه ولزموا بيوتهم منفكين عنه.

وقد عين إبراهيم سعيداً وأبا البط لعدوه الجديد هذا، اللذين قد أعانا نائب إبراهيم في استيلائه على قصر بن هبيرة فلما بلغ هذان المسئولان قرية شاهی أرسل العباس ابن عمه علي بن محمد لمواجهةهما، فتصاف الفريقان في الثاني من جمادى الأولى 202هـ فانهمز علي بن محمد بعدما قاتل لمدة قصيرة والآن أغار سعيد وأبو البط على الكوفة وأعانه من كان بها من آل العباس ووقعت معركة شديدة فكانوا يغيرون وينادون بحياة إبراهيم ويعلون هتافهم بأن حكومة المأمون قد قضي عليها. وقعت المعركة طول النهار ولكن لم يفصل بينهما فجاء اليوم الثاني وبما أن الفريقين كانا

يشعلان النار في كل منطقة استولا عليها فحضر رؤساء الكوفة سعيدًا وطلب الأمان على أن يرجع العباس بأصحابه من الكوفة فرضي الفريقان عن هذا وملت الكوفة عن كلا المدّعين. وبما أن سعدًا قد رجع إلى الحيرة بعد هذه الاتفاقية فقرت حكومة إبراهيم في الكوفة وضواحيها ولكن هذا الفتح لم يكن فارقًا للخلافة لأن الحسن كان مقيمًا بواسطة بأفواج هائلة فاختر إبراهيم عيسى لهذا الخطب العظيم كما أمر ابن عائشة ونعيم بن الحازم بأن يرافقا عيسى والتحق بهم سعيد وأبو البطح اللذان قد رجعا بعد فتحهما للكوفة وبالجملة فهذا الجيش الكبير اصطف بصبادة على قرب من واسط فتحصن الحسن بن سهل وتقدم عيسى نحو معسكر الحسن عدة مرات لكي يغير عليهم ولكن الحسن لم يتحرك شيئًا وأمر بأن لا يخرج جندي من الحصن ولعله قد قدر قوة عيسى خلال هذا التحصين وفي النهاية هجم جيشه على عيسى في 26/ رجب ووقعت معركة مدهشة موحشة من الصباح حتى الظهر فانهزم عيسى ولم يتوقف إلا وقد بلغ طرنايا.

خروج المأمون إلى العراق وقتل ذي الرياستين في 202هـ

ومنذ أن تولّى المأمون العرش لم يخل يوم من أيام حكمه من إهراق الدماء إلا أنه لم يلغه أن البلاد كلها تصبح ساحة للثورات؛ ففي البداية كان النزاع عن عمالة الحسن بن سهل ثم جاءت قضية ولاية عهد علي الرضا ولكن لم يبلغ المأمون هذا الخبر إلا بعلي ذاته فقال للمأمون: لم تلق البلاد أمنًا بعد قتل الأمين يومًا من أيامها فالدماء تهرق ليل نهار وقد جعل أهالي بغداد إبراهيم خليفتهم" كان هذا صوتًا بديعًا للغاية بالنسبة لأذن المأمون فتنبه المأمون فجأة وكان يتيقن أن إبراهيم ليس بخليفة كما أيقنه ذو الرياستين إلا أن الناس قد اختاروه نائب الرياسة نظرًا للنظم فقال له علي إن ذا الرياستين قد أخفى أحداث البلاد عليكم فما تقول الآن يصدر عن لسانه فإبراهيم الذي تظنه نائب الرياسة يقاتل ضد الحسن بن سهل، والناس كلهم لاسيما آل العباس غاضبون من وزارة ذي الرياستين وولاية عهدي فقال المأمون: ليس أحدٌ آخر عالمًا عن هذه الأحداث؟ فقال علي: نعم، مثل يحيى بن معاذ وعبد العزيز بن عمران وآخرون غيرهما من المسؤولين فدعاهم المأمون وسألهم عن صدق ما قال له علي الرضا فلم يكن أحد يجترئ على أن يشهد بما

يقول له علي خوفًا من ذي الرياستين ولكنه حينما كفل المأمون بنفسه بأن ذا الرياستين لا يضرّ بهم شيئًا وكتب وثيقة عليه بيديه فذكروا له ما رأوه وشهدوه من الأحداث والوقائع ثم قالوا: إن هزيمة قد جاء لكي يبين لكم عن الواقع ولكن ذا الرياستين قد شكّكم عنه وذلكتموه فلم تتحقق أمنيته وكذا قالوا: إذا لم تسدّ هذا النقص فورًا فنخاف القضاء على حلافكم. وبما أنهم قد أشاروا عليه أن وجود الجلالة في دار الخلافة سيحلّ هذه المشاكل كلها فقصد المأمون بغداد فلما بلغ هذا المأمون قد استطلع على ما وصل إلى أذنيه من جديد ثم بحث عن أسماء كافة المسؤولين وآذاهم سوى علي الرضا بأنواع من الأذى فحبس أحدًا وضرب آخر بالسوط وقلع لحي الثالث ولكن المأمون لم يكذب يسأله عن تلك ولما ذكر علي له قال بلطافة: لست بغافل عن تلك كلها ولكني أبحث عن تدبير مناسب فلما بلغ المأمون سرخس قتل ذا الرياستين بعضُ الناس، وعلى رأسهم غالب المسعودي، في الحمام يوم الخميس الثاني من شهر شعبان سنة 202هـ وهذا من العجب أن من ساهم في قتل ذي الرياستين كانوا من بلاد شاسعة للغاية (أي كان قسطنطين من الروم وفرج من ديلم وموفق من الصقلية) فنادى المأمون في الناس أن من يقبض على القاتلين سيجزى عشرة آلاف جنيهه فنال هذه الجائزة عباس بن الهيثم فلما قدّموا للمأمون ثم سألوا عنهم أشار عليكم قتله فسّموا المأمون فقتلوا على ارتكاب هذه الجريمة ثم دعي عبد العزيز بن عمران وموسى وغيرهما من الرجال الذين كانوا من المشكوك فيهم وسئلوا عن الواقع فوضع الكل أيديهم على الأذن فقتلهم المأمون فلو أن كافة الشهادات كانت تبين عن أن ذا الرياستين قد تمّ قتله على إشارة من المأمون إلا أن المأمون قد حوّل هذا اليقين إلى الشبهة بالعديد من خطواته ثم أرسلت رؤوس القاتلين إلى الحسن بن سهل وأعرب عن شدة الألم والحزن في رسالة للعزاء وكتب: قد تم تعيينك على منصب الوزارة في مكان أخيك". ثم عزّى أمّ ذي الرياستين وقال لها: اصبري، إني قائم مقام ولدك البار" فقد أثارت هذه الجمل المؤثرة فيها وقالت باكياً: لم لا أبكي على مثل هذا الولد البارّ الذي قد خلف لي ولدًا مثلكم" ثم توفّي أبو سهل بعد قتله، وفي تلك الفترة تزوّج المأمون من ابنة الحسن بن سهل. ولو أن هذه الخطوات لم تخفّف عنق المأمون من دماء ذي الرياستين إلا أن الناس عامة قد غيّروا وجهة نظرهم فيه وثبت من معاملتهم أنه

لو حدث كذلك فلم يحدث إلا لضرورة ملحة وذلك لأنه لم ينس خدمات ذي الرياستين ومننه وهو الآن شقوق بأسرته كما كان من قبل. ولو أن قتل ذي الرياستين قد أحن كافة أفراد أسرته ولكن أخاه الحسن لم يفتأ يبكي حتى أصبح مختل الحواس وجنّ جنونه في 203هـ فكبّل بالسلاسل حذرًا من هتك عزته ثم عيّن المأمون أحمد بن أبي خالد وزيرًا له ولنعلم هنا أن المأمون قد استقلّ بالخلافة حقًا بعد قتل الفضل.

موت علي الرضا في نهاية صفر المظفر 203هـ

وكان المأمون يرافقه علي في هذا السفر، وتوفي فجأة بطوس فيقال إنه قد تم تسميمه، وبها يوجد قبر هارون الرشيد ولذا فقد نزل المأمون هنا فلما توفي علي أمر المأمون بأن يحفر قبر الهارون فيدفن فيه علي كذلك، الأمر الذي يشير إلى أن يستفيد الهارون من بركة علي الرضا فحزن المأمون على وفاة علي حزنًا شديدًا فكان يشيع الجنازة ويقول باكياً: أيا أبا الحسن! أين أروح بعدك" وأقام لدى القبر لثلاثة أيام ولم يأكل سوى خبز وملح يوميًا¹، وعلى هذا هجاه دعبل الذي كان يثني على أهل البيت ويذمّ خلفاء بني العباس هجوًا ملؤه فكاهاة فقال فيه:

ما ينفع الرجس من قرب الزكي ولا على الزكي بقرب الرجس من ضرر
وهناك سؤال تاريخي مهم: على إشارة من سمّ علي الرضا؟ ولكن فرقة خاصة قد اصطبغها صبغة دينية.

قد أجمع أهل التشيع على أن المأمون ذاته قد أمر بتسميمه، والأسف أننا لم نقف على كتب أهل التشيع التاريخية كي نقوم بالفصل بين الفرقين في ضوء رواياتهم التاريخية فكتب التاريخ الكبرى التي سمّاها العالم الإسلامي بالتاريخ الإسلامي مما قام بتأليفها أهل السنة ويبدو أنهم لم يراعوا جانب الدين والمذهب فيها فلا مناص لنا عن الرجوع إليها بالنسبة لأحداث التاريخ فكما نعلم أن مؤرخًا من المؤرخين لم يجترئ على

¹ قد روى ابن الواضح العباسي هذه الواقعة عن من حضر تجهيز وتكفين علي الرضا وقد نقلتها من تاريخه

أن يتهم المأمون بهذا بل استعجب العلامة ابن الأثير من هذه الفكرة الباطلة فما نجده اليوم من تاريخ أقرب من زمن المأمون هو تاريخ ابن الواضح العباسي فينقل المؤلف وقائع وأحداث زمن المأمون على السنة من كان حيًّا في تلك الفترة وكذا نجد في تاريخه ميلاً إلى التشيع ولكنه قد عزا هذه التهمة إلى علي بن هشام بدلاً من المأمون فإن نستخدم أصول التاريخ التحقيقية فلا بد لنا من الاعتراف بهذا فإن قرّر المأمون علي الرضا ولي عهده فلم يرد به مؤامرة فلم يكن علي رجلاً وطنياً سياسياً ولم يكن أحدٌ يخافه بالنسبة للدولة العباسية كما يدّعيه أهل التشيع، وما كان للمأمون محبة مخصصة لأهل البيت لا ينكرها أحدٌ سوى عنيد ثم ما كانت معاملة المأمون مع السادات بعد علي الرضا؟ ونظرًا لهذه لترتب كافة أحداث وظروف المأمون التي قد حدثت قبل موت علي وبعده فهي بنفسها تنطق أن هذه تهمة خاطئة بالمأمون ولا شك أن افراد أسرة المأمون كانوا ساخطين منه على ولاية عهد علي الرضا فيمكن أن أحدًا منهم قد ارتكب هذه الجريمة الشنعاء.

إن عليًا الرضا من الأئمة الاثني عشر وهو خلف موسى الكاظم. ولد يوم الجمعة 148هـ بالمدينة المنورة. كان عالمًا كبيرًا وتقياً فاقد النظير. صنف للمأمون رسالة في الطب. قال الناس لأبي نواس أشهر شعراء عصره أن يكتب بيتين في كل مقالة ولا يكتب بيتًا ما في مدح علي الرضا فقال إن درجته أعلى من ثنائي وبما أن موت ذي الرياستين وعلي قد قضى على شكاوى أهل بغداد كلها فكتب المأمون رسالة إليهم قال فيها: هل بقي شيء تشكونه إليّ" ولكن المأمون قد استلم ردًا شديدًا على رسالته لم يتوقعه من قبل.

عزل إبراهيم 203هـ

حينما خرج المأمون لبغداد كان إبراهيم في المدائن وكان يرافقه مستولو الجيش أمثال عيسى بن محمد والمطلب بن عبد الله وغيرهما ولو أنهم قد استقلوا حتى خروجه ولكن كانوا متيقنين أن خلافة إبراهيم تبقى كلما يبعد المأمون من بغداد فلما اشتهر أنه قد خرج جعل الناس يخذلونه فتوجّه المطلب إلى المدائن محتالًا بالمرض وجعل

يباع الناس على المأمون سرًا في بغداد فقد بايعه منصور بن المهدي أخو إبراهيم وكذا كتب المطلب إلى علي بن هشام وحמיד أن يأتيا إلى بغداد فلما بلغ إبراهيم هذا الخبر غادر المدائن وبلغ زنده رود في 15/ صفر 202هـ وطلب من بايع على المأمون فجاءه المنصور والخزيمة فعفي عنهما ولكن المطلب قد منعه أسرته لكي يثبت على ما فعل فأذن إبراهيم أن تهب دار المطلب في 17/ صفر والآن قد سيطر حميد وعلي بن هشام على خلافة إبراهيم في المدائن كما التحق عيسى بن محمد أبرز مستولي إبراهيم بالحسن بن سهل فأعلن في شوال 202هـ بباب الجبر أني سأكون بعيدًا عن الفريقين في هذه القضية وقد أقره حميد فأرسل إبراهيم العديد من الرسل لطلبه فجاءه بعد إصرار فأبدى إبراهيم غضبه منه فاعتذر إليه فاشتد غضب إبراهيم وألقاه في السجن كما عاقب بعض مسئوليه وأقربائه. كان عيسى رجلًا ذا وجهة وكرامة وكان يرافقه العديد من المسئولين البارزين فحبسه قد أغضب كلهم لاسيما العباس الذي كان خليفة خاصًا بعيسى فقد أثار كافة بغداد على إبراهيم بخطبه المؤثرة فأخرج كافة عمال إبراهيم من حسر وكرخ وكتبوا إلى حميد أن يقصدهم فنفوض بغداد إليكم فنزل حميد بعدما بلغ نهر صرصر فجاء العباس وغيره من مستولي الجيش لترحيبه ثم حكموا على أن تقرأ الخطبة يوم الجمعة باسم المأمون في ياسرية ويعزل إبراهيم ثم وعد حميد أن يعطي الجنود خمسين روية على حدة ثم دخل حميد ياسرية في الميعاد ولكن اختلفوا على عدد الجائزة لما أن الجنود قد شأموا بهذا العدد لأن علي بن هشام قد قرّر هذا العدد الذي سبب الثورة فقالت الجنود: لنعط الأربعين الآن لكي يكون هذا العدد مختلفًا عن الخمسين العدد المشؤم فزاد عيسى عشرة إلى الخمسين وجعلها الستين الذي قد قضى على الشؤم فنظرًا إلى مصلحة هذه المشكلة حرّر إبراهيم عيسى من القيد وأمره بأن يواجه حميدًا فقام عيسى بحملة مؤامرة وخاض في الجيش، الأمر الذي أرى أنه قد فدى إبراهيم بنفسه ولكن الجيش أسره حيًا ثم واجه إبراهيم العدو بما بقي من جنوده. كانت هذه محاولة نهائية له ولكنه خاب فيها فما حدث من المعركة في نهاية ذي القعدة 203هـ قد فصل عن حظه فصلًا باتًا ففي يوم الأربعاء السابع عشر من هذا الشهر في سنة 203هـ غير

إبراهيم ملبسه واختفى في مكان لا علم لأحد به. قد امتدّت خلافة إبراهيم لاثني عشر يومًا وأحد عشر شهرًا وسنة واحدة.

دخول المأمون في بغداد شهرَ صفر 204هـ

وفي نحو شهر رجب 200هـ غادر المأمون مرو وبلغ بغداد في صفر 204هـ. كانت رحلته هذه مثل مسحته للبلاد، التي تعرّف بها عليها شيئًا مذكورًا وقام بنظم مطلوبة في مدنها فلما وصل إلى نهروان خرج كافة الأعيان والعمائد ومستولو الجيش لترحيبه الحارّ وبها لقيه الطاهر بن الحسين الذي قد طلبه المأمون من الرقة. نزل بها المأمون لثمانية أيام ثم أقبل نحو بغداد ودخلها في 15/ صفر 204هـ بكل شوكة وأبهة. كان الناس في انتظار شديد له منذ مدة طويلة. كان المأمون وكافة المسؤولين في الملبس الأخضر فحضر أهالي بغداد بلاطه في الملبس الأخضر ولكن الناس يتمّونه خلاف ذلك ويرجون منه أن يظهر لهم في لباس الخلافة العباسية ولذلك فلما دعا المأمون الطاهر وأراد أن يعطيه جوائز على ما قام به وقال: سل ما تريد" فتمتّى منه أن يحقق أمنية آل العباس هذه فقبل المأمون هذا الطلب المناسب فطلب الملبس الأسود ولبسه في البلاط وأعطى الطاهر ذا اليمينين وغيره من المسؤولين الخلع السوداء. وفي 23/ صفر 204هـ كان أهالي بغداد كلهم في الملبس الأسود فكأنه أعلن بعمله أن العالم الإسلامي كله سيكون تحت الحكم العباسي منذ الآن.

تعيين الطاهر على ولاية خراسان في 205هـ

وفي هذه السنة أعطي الطاهر جائزة ما قام به من الخدمات الجليلة بمناسبة عجيبة فقد تم تقريره كنائب السلطنة لكافة الدول التي تبتدئ حدودها من بغداد وتنتهي على السند وذلك أن الطاهر حضر جلسة لهو المأمون ذات ليلة فكان المأمون يتلذذ بالخمير فأعطى الطاهر كأسين بدون تكلف وأمره بأن يجلس أمامه فقال الطاهر بأسلوب ملؤه الأدب: إني لا أستحقّ هذا التكريم" فقال له المأمون: إن مثل هذه القيود تختص بالبلاط فلا حاجة إلى الالتزام بمثل هذه القيود في جلسات خالية من التكلف" فجلس الطاهر متأدبًا فلما رآه المأمون صبّت عيناه فسأله الطاهر: سيدي!

هل بقيت أمنية أخرى لم تتحقق" فقال له المأمون: إنه شيء إخفاؤه يؤذيني وإظهاره يذلني" ولو أن الطاهر قد لزم الصمت آنذاك ولكن قلبه بقي يبحث عن الأمر فالحسين الذي كان يسقي المأمون الخمر ويشربها معه أرسل إليه الطاهر مأتي ألف درهم وسأله عن السبب وراء ما حدث تلك الليلة فسأله الحسين حين وجد الفرصة فقال المأمون: إذا بحت بهذا السرّ فلا أتركك حيّاً". الحق أنه كلما يبرز لي الطاهر أتذكر قتل أخي الأمين ذليلاً مسكيناً فلاؤذينّ الطاهر يوماً أو آخر". فلما بلغ الطاهر هذا السرّ ذهب إلى أحمد بن أبي خالد الأحول (الذي تم تعيينه كوزير بعد الحسن بن سهل) وقال له: إنك تعرف أنني لست ممن يكفر النعمة ولا يخلو من الفائدة منة عليّ فلا أريد منك سوى أن تبعدني عن أعين المأمون". فكفل له أحمد بن أبي خالد ثم حضر المأمون اليوم الثاني وبما أن القلق كان بادياً من وجهه فقد سأله المأمون: ماذا حدث؟ هل شيء بديع فقال له أحمد: سيدي! لم أنم طول الليل فسأله المأمون عن السبب؟ فقال له أحمد: بلغني أنك أعطيت حكومة خراسان لغسان الذي لا يؤيده ولو شردمة قليلة فإن هجم أترك الحدود فهل بإمكانه أن يمنعهم؟ فقال له المأمون: نفس القلق راودني فهل تقترح أحداً؟ فقال له أحمد: هل أحد أنسب من الطاهر ذي اليمينين؟ فقال له المأمون: ولكن فكرته معتدية وهو يريد أن ينقض البيعة. فقال له أحمد: إني أكفل له بذلك فسمح له المأمون فدعي الطاهر وأعطى عشرة ملايين درهم بجانب شهادة الحكم. ثم أعدّ الطاهر العدة في غضون شهر وخرج لخراسان في 29/ ذي القعدة 205هـ ثم عيّن ولد الطاهر صاحب الشرطة ولكنه بعد مدة قليلة بلغ منصب ولاية مصر لجدارته الموهوبة فدعاه المأمون أمامه بعد تعيينه على هذا المنصب وقال: ولو أن كل والد يحسن الظن بولده ولكنما قال عنك الطاهر كان أقلّ مما أنت حريّ به فلما بلغت هذه البشرية إلى الطاهر كتب رسالة طويلة إلى الولد¹، كانت كتاب قوانين وأساليب عن الحكومة ونظمها والرفاهية العامة وقد نالت هذه الرسالة شهرة ذائعة حتى طلب الكل نسخها. والمأمون بنفسه أخذ نسخها العديدة

¹ قد نقل العلامة ابن الأثير هذه الرسالة بإسرها في تاريخه

وأرسلها إلى عمّال الدولة وقال إن الطاهر لم يترك شيئاً عن الدنيا والدين، والتدبير والرأي، والسياسة وإصلاح البلاد، وصيانة وقيام الخلافة.

ثورة عبد الرحمن بن أحمد في 206هـ

لم تكن ثورة عبد الرحمن بن أحمد ظالمة ولا شديدة ولكنها أجدر بأن تذكر لأنها سببت ثورة أخرى في حياة المأمون ذاتها فقد اعتدى أهالي اليمن على عمّالها لظلمهم وجورهم فعينوه خليفة ظانين أنه رجل ذو أثر وشوكة فبعث المأمون دينار بن عبد الله لإخمادها ولكنه كتب له اتفاقية الأمن حيث إذا قبلها عبد الرحمن فلا حاجة إلى القتال فتوجّه دينار نحو اليمن في أيام الحج وأرسل اتفاقية الأمن إلى عبد الرحمن فبايع عبد الرحمن على يدي دينار وجاء بغداد وبما أن المأمون قد أزعجته ثورات السادات المتواصلة فأمر في 28/ ذي القعدة 207هـ بأن يترك آل عليّ زبّهم الخاص ويختاروا الزيّ الأسود ولا يسمح لهم الحضور في البلاط منذ اليوم. فما كان للمأمون من المحبة المخلصة العمياء لهذه الأسرة قد بدّلها سياسة الدولة في هذه الصورة التي يبتدئ تاريخها من 28/ ذي القعدة.

موت ذي اليمنيين الطاهريوم السبت في شهر جمادى الثاني 207هـ

ولو أن المأمون قد أعطى الطاهر ولاية خراسان على ذمة أحمد بن أبي خالد إلا أنه لم يكن مطمئناً من قبله فلما لقي الطاهر لمغادرته لخراسان فأرسل المأمون عبداً خاصاً معه أيقن فيه الطاهر أن هذه جائزة لخدماته الجليلة ولكن أسرّ مع العبد أن يسمّم الطاهر إذا وجده مائلاً إلى العدوان فلعل الطاهر أراد الثورة بعد وصوله إلى خراسان ولكن المؤرخين لم يستطيعوا بذكر الدلائل عليها سوى أن الطاهر لم يقرأ اسم المأمون في الجمعة. كان كلثوم بن الثابت كاتب خراسان حاضراً هذه الجمعة فرجع إلى البيت وغسل وكتب عن الواقع إلى المأمون وهو مكفون متيقناً أن الطاهر سيعرف الأمر يوماً أو آخر فلا يتركه حيّاً فلما قرأ المأمون الرسالة دعا أحمد بن أبي خالد وأمره بخروجه إلى خراسان تَوْأً فلما سأله أحمد التوقف والإعداد لم يسمح له سوى ليلة ثم بلغه كتاب آخر أن الطاهر قد توفّي فجأة فألغى سفر أحمد فقد أصاب الطاهر الحنّى يوم الجمعة فعاده

الناس صباح السبت فعلم أنه في المضجع حتى الآن خلاف العادة فلما تأخر كثيراً دخل عليه الناس فوجدوه ميتاً في حجرته مطوياً بالثوب من رأسه إلى قدميه. يقول البعض إن خللاً حدث بجفنتيه فسقط فجأة فمات¹.

أعطى المأمون حكومة خراسان لطلحة بعد أبيه الطاهر كما أعطى ولده الثاني عبد الله منصباً مكرّماً فقد حظي الثلاثة في شجرة الطاهر بقوة وسلطة في زمن المأمون وهم الطاهر وعبد الله بن الطاهر وعبيد الله بن الطاهر، ولا نشكّ في أن الطاهر قد سمّم ولكنه لو كان خليفة آخر في مكان المأمون فماذا يفعل وأي خطوة يتخذها فإن لم نمش بعيداً في البحث عن نظائر هذا الحدث فلنر هارون الرشيد والد المأمون ونجده يقضي على أسرة البرامكة المحبّة للعلم والسخية لنشره بناء على ريب اعتراه أو تهمة خطرت بباله فما قام به المأمون كان فريضة بالنسبة لسياسة الدولة ولكنه لم يؤذ أسرته بل بلغ بأولاده درجة أقاموا دولتهم المستقلة في خراسان فيما بعد. فلما بلغ المأمون نعي الطاهر فقال: الحمد لله الذي دعا الطاهر قبلي" فيبدو من هذه الجملة أن المأمون قد تيقن ثورة الطاهر وستعلم في الجزء الثاني لهذا الكتاب كيف كان المأمون مطلعاً على كل جزئيات الدولة ووكلياتها فما رأى وما قام به لا يغمض عنه.

ثورة إفريقية والمنصور بن الناصر في 208هـ

وقد مضى قرن على التحاق إفريقية بالعالم الإسلامي ولكنه قد حدثت ثورات خطيرة منذ فتحها إلى الآن إن جوّها لم يكن ملائماً للطاعة وقد زادت قبائل العرب الطين بلة حينما أقاموا بها لمدة طويلة فما كان يحصل عليه من خراجها كان يصرف في إقامة أمنها ونظمها بل قد كانوا يسألون خمسمائة ألف روية من بيت مال مصر وفي 184هـ

¹ لم يذكر أي من أصحاب "العيون والحداثق" و"الكامل" وابن خلدون وأبي الفداء السبب وراء موت الطاهر ولكن هذه عادة المؤرخين العرب الشائعة أنهم يضبطون الوقائع بأسلوب ساذج للغاية ولا يبحثون عن الأسباب ورائها. وليس من بينهم سوى ابن خلدون الذي قد فصل هذه الواقعة وبما أنه أحال إلى تاريخ أكثر ثقة به أي تاريخ هارون بن عباس بن مأمون الرشيد فما كتبه هنا أخذته منه، راجع: تاريخ ابن خلكان (ترجمة الطاهر)

جعل هارون الرشيد إبراهيم بن الأغلب عاملاً عليها والذي وعد بأن يرسل خراجها أربعين ألف دينار فحكم إبراهيم واشتهر فيهم بعدله ورحمته ومن ثم أصبحت ولاية إفريقية ميراثاً في نسله ولذا فمن تولى هذا المنصب في زمن المأمون كان زيادة الله أبرز أولاد إبراهيم. وفي 208هـ حدثت ثورة جديدة في تونس، تولى كبرها المنصور بن النصير فبعث زيادة الله محمد بن حمزة أحد مسنولي أفواجه بثلاثمائة فارس لكي يبلغوا تونس فجأة ويأسروا المنصور ولكن المنصور قد علم عن هذا قبل أن يبلغها محمد فذهب إلى طنيزة فلم ينجح محمد في تونس والآن أرسل محمد قاضي تونس سفيراً له إلى المنصور وقد رافق القاضي أربعون قاضياً ثقة لكي ينصحوا المنصور إلا أن المنصور كان أمكر من هؤلاء العلماء الساذجين فقال للقاضي إني أكل من مائدة الخليفة، تناول معنا الليلة فسأرافقكم غداً" وكذا أرسل المنصور أطعمة الدعوة والفواكه إلى محمد وكتب إليه: إني سأحضركم غداً مع القاضي" فتناول محمد وجنوده ما قدم لهم من الأطعمة وشربوا كثيراً من الخمر وكانوا سكارى إذ نتههم طبل الحرب المفاجئ فلما أيقظوا وجدوا المنصور مع جيشه العظيم فأراد جنود محمد أن يأخذوا بالأسلحة ولكن لم تسعدهم أيديهم ولكنه مع ذلك وقعت معركة شديدة وامتدت الحرب لليل كله فقتل جيش محمد كله سوى من وثب في البحر وسبحوا فعبروا البحر وكذا أطاع الجنود الملوكية التي كانت بتونس ولكنهم اشترطوا قتل أحد أقرباء زيادة الله مخافة التحاقه به فيما بعد فتحققت أمنيتهم بقتل إسماعيل الذي كان من ذوي قربي زيادة الله وهكذا فكانت قوة وسيطرة المنصور تتزايد يوماً فيوماً في مدن تونس فلزم أن يواجهه زيادة بقوة تعادله فاختر لهذا الخطب وزيره غليون ولكنه انهزم في المعركة التي وقعت في 10/ ربيع الأول فزادت عزيمة المنصور فحاصر القيروان مقر زيادة الله ووقعت معارك حاسمة ولكن زيادة الله قد خرج في المعركة الأخيرة التي حدثت في 15/ جمادى الثاني بعدد وعدة فترت عزيمة المنصور من قبل فوقع المعركة وحدث ما كان المنصور يقدر. وبما أن أهل القيروان قد التحقوا بالمنصور خلال محاصرتها فقد همّ زيادة الله أن ينتقم منهم ولكن الفقهاء والعلماء

قد توسّطوا بينه وبينهم وصرّفوه عن هذه الإرادة السيئة ولكن أسوار قيروان قد دمّرت ليعتبر من له حجي وبصارة.

ولو أن المنصور قد انهزم فغادر قيروان ولكن مسئوليه قد سيطروا على مختلف مدنها وكان من بينهم عامر بن نافع الذي سيطر على سبية فأرسل زيادة الله أحد أقربائه محمد بن عبد الله لمواجهته ففي 20/ محرم وقعت معركة حاسمة فانهزم محمد ورجع القهقري إلى قيروان وفي خلال هذه المدة جمع المنصور قوته مرة أخرى وبما أن جنود المنصور قد بقي أقبائهم في قيروان فحاصرها مرة أخرى وامتدّ الحصار حتى 16 يوماً ولو أنه لم تقع حرب ما إلا أن المنصور قد نجح في نيته فخرج أقبائهم من قيروان والتحقوا بأهاليهم ثم رجع المنصور إلى تونس وهكذا فقد خرجت معظم مدن إفريقية من يدي زيادة الله وحتى كتبت جنود الخليفة التي كانت مع زيادة الله بأسواب ملؤه غرور أن يترك إفريقية وإلا فالموت نصيبه ولو لم تساعد بعض الأحداث الطارئة لأمكن القضاء على بني الأغلب فقد سخط العامر الذي كان عضداً قوية للمنصور من المنصور ذاته فقتله في النهاية ولكن هذا الكافر النعمة لم تنمّ طويلاً فمات بعد سنتين أو ثلاث تاركاً سلطنة إفريقية لزيادة الله بدون معركة ولا إقدام ولقد اطمأن زيادة الله من هذه الوقائع فقد صدق إذ قال: لقد وضعت الحرب أوزارها".

أسر النصرين شيث في 209هـ

كان النصر ينتهي إلى كيسوم شمال حلب وكان صديقاً حميماً مفادياً للأمين فلو أنه لم يقدر على نجدة الأمين زمن الحصار ولكنه أعلن عن ثورته بعد قتله وبما أن بعض قبائل العرب، والكثير من البدو، كانوا يعينونه فسيطر على حلب ويمسّط فأرسل الحسن بن سهل الطاهر الذي قد فتح بغداد مؤخراً لمواجهته فانهزم الطاهر بعد حرب شديدة ورجع إلى الرقة وفي 199هـ جاءت أمصار الجزيرة كلها تحت سيطرة النصر وحتى 208هـ أصبحت قوته معارضة للقوة الملوكية ولما عاد الطاهر إلى الرقة في 204هـ عيّن ولده عبد الله على هذا الخطب ولكن محاولاته المتواصلة الممتدة لأربعة أعوام لم تسفر عن شيء ففي 206هـ أرسل المأمون محمداً العامري سفيراً إلى النصر

فلو أن النصر رضي عن الطاعة ولكنه عقد شروطاً لم تكن أقلّ من الثورة لدى المأمون ومنها أني لا أحضر البلاط فأنكر المأمون قبوله فرجع العامري خائباً وقال للنصر إن المأمون يصرّ على حضورك في بلاطه فغضب النصر وقال إن من لم يسيطر على بعض الضفادع (الزط¹) كيف للآلاف من العرب البسل أن يسجدوا له ولكن غرور النصر هذا لم يدم طويلاً فقد أزعجه عبد الله بن الطاهر إلى حدّ ألقى السلاح بدون شرط.

قتل ابن عائشة ومالك وأسر إبراهيم في 201هـ

إبراهيم الذي رفع علمه للخلافة في بغداد قد اختفى لمدة طويلة إلا أن بعض رفقائه القدامى لم يتخلفوا عن جهودهم ضد الحكومة وكانوا يحبّون أن يعيدوا الخلافة إلى إبراهيم فاطلع المأمون على هذه المؤامرة بدون تأخير فأسر الكل في صفر 210هـ وكان يرأس هذه الجماعة ابن عائشة ومالك فأعدّاهم فهدموا طويلاً أرسلوه إلى حضرة المأمون قائلين إن هناك عددًا مملوسًا من الناس يعينوننا ولكن المأمون لم يعتن به ظنًا أنهما يريدان حبس هذا العدد فألقي الثائرون في السجن إلا أنهم لم يصبروا على هذا فأغلقوا الباب من وراءهم ذات يوم وأرادوا أن يدمّروا الجدار فيخرجوا منه فلما بلغ المأمون هذا الخبر جاء السجن وقتل كلهم سوى ابن عائشة وبما أن ابن عائشة كان هاشمياً فقد تميّز موته بأنه أعدم بدل قتله إلا أنه بإعدامه ألغي القانون فذلل هاشمي بالإعدام دون القتل.

كانت هذه فاتحة أسر إبراهيم² فروي عن إبراهيم ذاته أن المأمون لما بلغ العراق أعلن عن جائزة مائتي ألف درهم على من يأسرني فظننت أني لا أفلت الآن وكان موسم الصيف الشديد فخرجت من داري في الظهيرة ولكن لم أظفر بدليل على الطريق فدخلت زقاقاً لم يكن له مخرج فلا كان لي أن أتقدّم ولا أن أرجع القهقري وفي هذا القلق رأيت بيتاً كان ببابه عبد حبشي فتقدّمت إليه أطلبه قيامي في بيته لهنيهة فسره

¹ وبما أن المأمون لم يستطع بكبح جماح الزط فقد طعن عليه النصر

² أسر إبراهيم في شهر ربيع الأول سنة 210هـ

طلبي وأجلسني في حجرة منه مزينة من أسباب وأثاث ثمينة جميلة ولكنه بما أنه خرج مغلقاً الباب من وراءه فتبدلت أمنيته باليأس وظننت أنه ذهب لكي يدعو الشرطة ليقبضوا عليّ. كنت أتفكر هذا وذلك إذ دخل البيت بعامل فنظرت إليه بأسلوب ملؤه سرور وبهجة ووجدته حاملاً معه اللحم والقدرح والأكواب الصافية وغيرها من الأسباب فوضع هذه الأسباب كلها أمامي وقال لي بأدب: إني محلّق الرأس فلا يسعني أن أضيّفكم بما وفرّ في بيتي ولذا جئت بالأشياء والأسباب من السوق والآن لكم ما بدا لكم فطبخت الطعام بيدي وشبعت ثم سألتني عن الخمر وقال: إذا سمحت لي فأقعد بجانبك فأشاطرك في الشراب من بعيد فسمحت له فأديرت الكؤوس ثم جاء بقصب وقال إني لا اجترئ على أن أطلب من السماح الغناء إلا أن جودكم ذاته سيحقّق أمنيته فتعجّبت من معرفته عن مهارتي في هذا الفن فقال: سبحان الله! هل يمكن أن يخفى سعادتكم وهل لستم إبراهيم وهل لم يتشرف عرش بغداد بتوليكم ولن أعلن المأمون عن مائة ألف درهم؟¹

فتحيّرت من هذا وخطر ببالي أن هذا العبد من أعجب خلق الله فظننت غير فطري أن أحزن رجلاً كهذا المضيّف السخي فغنّيت بعض الأبيات باللحن فسكر العبد وجعل يغنيّ بنفسه وغنيّ بوجد أوبّ معه الجوّ فنسيت كافة الأخطار فجأة وطلبت منه أن يغنيّ المزيد فغنيّ ما يلي في صوت حلو:

تعيرنا أنه² قليل عديدنا فقلت لها إن الكرام قليل
وإنالقوم ما نرى القتل سبة إذاماراته عامر وطفيل

فقد جنّت جنوني هذه الأبيات المؤثرة وأغفلتني حتى غلبني النوم ولم أستيقظ إلا وقد أمسيت فلما أخرجت كيساً وأردت أن أعطيه للعبد فأودّعه قائلاً إني سأهبك ما لا تحتسب إذا ظفرت بما فارقتني من حسن الحظ فاهتمّ العبد وقال: أسفًا أن الرجل الفقير

¹ ذكر هذه القصة بشيء من الاختلاف يوسف الكاتب ذاته الذي كان أخصّ ندامى إبراهيم في كتابه الذي يختص بترجمة إبراهيم نفسه، راج: مروج الذهب للمسعودي (خلافة المأمون)

² هذا سهو والصواب: أنا

لا يوزن فتيلاً لديكم فما تشرّفت بضيافتكم هل أشتريها بالدراهم والدنانير. والله لا أقدر على أن أسمع مثل هذه الكلمات مرة أخرى وإن أعدتها لي فسأفديك بنفسي فرجعت عطائي نادماً وأردت أن أودّع العبد ولكنه قال بأسلوب ملؤه عجز: سيدنا! ستحيي هنا آمناً وهادئاً فتوقّف شيئاً ثم لك خيار أن تودّعني بعد أن تخمد هذه الثورة فأقمت لديه لبضعة أيام ولكني تسلّلت من عنده ظاناً أن مضيتي يثقل نفسه بتضييفي وأخفيت نفسي عليه بملابس النساء إلا أن أحد الجنود الفرسان قد عرفني في الطريق والتصق بي منادياً أن لا يفوتي الجائزة فطرده بمجمّع قوتي وراء ظهره فسقط في الحفرة وأسرع الناس إليه من السوق لما بلغهم نداؤه فهربت إلى أن وصلت إلى الجانب الآخر وطلبت من امرأة كانت قائمة ببابها أن تنجّيني من الأعداء وهي رحّبت بي بحفاوة ولكنها قد بدت لي فيما بعد أنها زوجة ذلك المرء الذي طرده ثم بلغني ذلك الفارس فوقعت نظرتة عليّ بعد دخوله بيته فوراً فباعد زوجته وقصّ عليها القصة بتمامها ولكن هذه المرأة السخية أيقنتني أي أمن ناجٍ ما دامت هي في البيت. نزلت عليها ضيفاً لثلاثة أيام ولكنه بما أنها لم تكن معتمدة على زوجها فقالت لي اليوم الرابع إنني لا أقدر على صيانتكم الآن فاضطرت إلى أن أغادرها وفي هذا القلق تذكّرت أمة لي فذهبت سويّاً إلى دارها فخرجت من دارها لما رأته ورفعت صوتها بالبكاء المرئي. عزّنتي لدقائق ثم خرجت وظننت أنها خرجت لكي تعدّ أسباب ضيافتي فاطمأنتت ولكنها رجعت بعدها بهدية لي في صورة الشرطة الأقياء. كنت آنذاك في لباس المرأة فأقبضت عليّ الشرطة في تلك الحالة وقدمتني للمأمون فلما حضرت سلّمت عليه بأسلوب البلاط فقال المأمون: ويل لك فقلت له: أمير المؤمنين! رويداً ولو أنني أستحقّ العقاب إلا أن التقوى باعثة على العفو ولو أن جريمتي فوق كافة الجرائم ولكن كافة العطاءات تقلّ عن درجتكم العالية فإن عاقبتني فهذا حقكم وإن عفوت عني فهذه منة منكم عليّ ثم أنشدت له ما يلي من الأبيات:

ذنبِي إليكَ عظيم وأنْتَ أعظم منهُ
فخـذ بحقِّكَ أوْلاً فاصفح بحلمك عنهُ
إن لم أكن في فعال من الكرام فكُنهُ

كانت جملي المليئة بالعجز وأبياتي المؤثرة تأخذ بمجامع قلب المأمون فنظر إليّ بعين الشفقة والرحمة فأنشدت له بضعة أبيات مليئة بالوجد والهَمّ فاهتمّ قلبه وقال للحضور مخاطبًا: ما رأيكم؟ فأجمعوا رأيهم على قتلي ولكن أحمد بن أبي خالد الوزير خالفهم في هذا الأمر وشفع لي وقال: لا شك أن الملوك القدامى قد قتلوا من بغى عليهم واعتدى ولكنك أيها الأمير! لو عفوت عنه فلا نجد نظيرًا في الماضي في هذا الشأن¹ فنكس المأمون رأسه وأنشد ما يلي من البيت:

قومي هم قتلوا أميم أخي فإذا رميتهم² يصيبتني سهي

فرفعت نقابي فجأة وناديت: الله أكبر فقد غفر لي أمير المؤمنين فخرّ المأمون ساجدًا ولم يقعد طويلًا ثم خاطبني قائلاً: عي! هل تعرف لم سجدت لله؟ فقلت له: لعل طاعتي لكم فقال المأمون: لا، بل على أن الله وفقني للعفو عنك ثم سمع المأمون قصتي كلها فطلب العبد والمرأة والأمة فقررّ للعبد ألف دينار شهريًا كما أعطى الجائزة للمرأة وأما الأمة فلم يعطها شيئًا بل عاقبها³.

ثورات مصر والإسكندرية في 210هـ

في 206هـ عين عبید الله السريّ عاملاً على مصر ولو أنه حكم بشوكة ورعب وحسن نظام ولكن نجاحه الباهر البالغ فوق أمانيه قد خلق في ذهنه استبدادًا فأمر عبد الله الولد الشهير للظاهر لكبح جماحه فلما بقي مصر على منزلة منه أرسل قائدًا بكتلة عسكرية كي يحدّد مكانًا ملائمًا للتزول فلما بلغ عبید الله السري هذا الخبر فاجأه بغارة إلا أنه واجهه باستقلال وأرسل أحدًا ليخبر به عبد الله فبلغ عبد الله في الميعاد ولم يكن عبید الله أبله إلى حدّ يواصل الحرب بعد هذا فرجع إلى مصر سويًا وأمر بإغلاق أبواب سور المدينة

¹ وقد عزيت هذه الجملة إلى المأمون بشيء من التصريف في تاريخ ابن الواضح الكاتب العباسي وقال إن أحدًا شفّع إبراهيم إلى المأمون.

² هذا سهو والصواب: فإذا رميت" بدون الضمير هم

³ راجع: ثمار الأوراق (في هامش المستطرف)، ص 173، وللعلم عن أحداث أسر إبراهيم راجع: الكامل لابن الأثير والأغاني، وابن خلدون وغيرها. جاء ذكره في هذه الكتب بطرق مختلفة.

فحاصرها عبد الله ولكن عبيد الله ألقى سلاحه بعد أيام ثم أرسل هدية ثمينة إلى المأمون تجمل بأن نسميها بالرشا ولو أن هذه الهدية الثمينة التي يشملها ألف أمة وعبد وبأيدي كل منهم ألف جنيه قد أرسلت بالليل عمداً ولكن عبد الله ردّها وكتب: لو أمكن لي قبول هديتك بالنهار فلا مانع لي في قبولها بالليل وذيل هذه الرسالة بأية قرآنية مؤثرة "ارجع إليهم فلنأتيتهم بجنود لا قبل لهم لها" فهذه الرسالة المليئة بالغضب قد عملت عملاً أكبر من السيف فاضطر عبيد الله إلى طلب الأمان. فالآن اطمأن عن جهة مصر ولكن الإسكندرية قد بقي أمرها. وفي خلال ثورة عبيد الله جاء جيش من دولة بني أمية من إسبانيا وسيطر على الإسكندرية ولكن خبر بلوغ عبد الله قد فقد عقلهم وخرجوا من الإسكندرية طالبين الأمان والأمان فالآن أصبحت هذه البلاد خالية من الفتنة والثورة وعمّها الأمان والهدوء.

ثورة زريق وقتل سيد بن أنس في 211هـ

كان زريق عربياً أصله وعين عاملاً على أرمينية وأذربيجان في 209هـ ولكنه اعتدى على الحكومة وسيطر على مناطق ولايته فقاتل ضده سيد بن أنس الذي كان ملازماً أول في جيش الموصل عدة مرات إلا أنه لم يستطع بفتحها فأعدّ زريق في 211هـ جيشاً عظيماً يتكوّن من أربعين ألف جندي وكان من بين خدمه رجل شجاع توظّف منذ مدة بعيدة وكان ينال مائة ألف درهم سنوياً على أنه حمل قتل سيد. إنه أقسم بأنه وحده يتكرم بقتله إذا رآه فلما أرسل زريق هذا الفوج الضخم لمواجهة سيد شملهم هذا الرجل الشجاع فكان يهجم السيد وحيداً في القتال فلو لم يكن جيش الخصم أقلّ من أربعين ألف جندي ولكنه لم يرض عن أن يترك عادته وهجم على هذا الفوج وحيداً فخرج من بين جنود زريق ذلك الرجل الشجاع فتقاتل كلاهما بكل قوة وشجاعة وقوتلاً معاً، الأمر الذي أثبت أنهما كانا خصمين عدلين في القوة والشجاعة.

فأعطى المأمون حكومة الموصل لمحمد بن حميد الطوسي فوصل محمد إليها في 212هـ وأمر بمرافقة العديد من قبائل العرب مع جنود الخليفة، التي قد توطّنت الموصل منذ مدة طويلة. ورافقهم محمد بن سيد بن أنس الذي كان ساعياً لأخذ ثأر دماء أبيه منذ مدة طويلة وتقدّم زريق لمواجهة محمد حينما سمع عن خروجه وتصافّ الجيشان بالزاب وبعد

معركة حاسمة اضطرّ زريق إلى أن يطلب الأمن فلما سمع المأمون عن هذا الفتح المبين أعطى كافة أموال وأسباب زريق لمحمد ولكنه رجعها إلى أولاد زريق قائلاً إني أهبها لكم وكذا أسر محمد كافة الثائرين الذين سيطروا على أذربيجان نائبين عن الزريق.

ثورة بابك الخرمي

كان جاويدان مجوسياً ثم قام بتأسيس دين جديد واشتهر فيما بين الناس ولما توفي ادّعى رجل اسمه بابك أن روح جاويدان قد سرت في جسدي وفي 201هـ نال قوة وسلطة وعزم على أن يقضي على السلطنة الإسلامية ففي 206هـ أمر عيسى (عامل على أذربيجان وأرمينية) بمواجهته ولكنه لقي الهزيمة. وفي 209هـ هجم أحمد الإسكافي ولكن جيش بابك قد أسره حيناً ففي 214هـ خرج محمد الذي كبح جماح زريق بالعدد والعدة وبلغ مقرّ حكم بابك قاطعاً عقبات وساحات عديدة شديدة، وهناك سلسلة جبال طويلة مقابل هشتادسر حيث أقام بابك مقرّه على هضبة مرتفعة فأصعد محمد الجيش بتدبير جميل معيّنًا أبا سعيد على القلب وسعديًا وعباسًا على الميمنة والميسرة وأما هو فكان في العقب كي يراقب من كل جانب، وقد كان بابك أقرّ بعض الجنود في المكامن فجعلت جنود محمد مصعدة نحو ثلاثة فراسخ وكادت أن تبلغ مقرّ بابك إذ خرجت كتلاته من المكامن وهجموا على جنود محمد بينما أقدم بابك بفوج عظيم فوق فوج محمد في الوسط فوقعته فوضى كرهية فأوزعها أبو سعيد ومحمد إلى حدّ ولكنها لم تكد تثبت وبقي محمد وحيداً وبما أنه وقع بعيداً عن مركز القتال أراد أن يخرج إلى جانب فقدّم خطوات إذ قابلته أفواج الملك التي كانت يدمرها أفواج بابك فلم يصبر محمد على شجاعته المفطورة وتولّى نحوهم وكان معه مسنول شجاع فهجما على بابك فقاتلا بشجاعة وقُتِلَا.

بقي المأمون حيناً حتى 218هـ ولكن فتنة بابك لم يقض عليها في حياته¹ والذي خمدت في حكمه هذه الثورة كان الخليفة المعتصم بالله. قضى على هذه الفتنة بعد معارك عديدة دامية.

¹ برز بابك في 201 فكان من الأنسب أن تكتب أحداث ثورته حسب الترتيب التاريخي ولكنه بما أن ثورته لم تنته سلسلته حتى بعد وفاة المأمون فقد ناسبني أن أضبطها في النهاية

فتوح البلدان¹

ولو أن حكم المأمون قد مارس العديد من الحروب الأهلية والثورات الداخلية منذ البداية إلا أن عزائمه الواسعة لم تدع نطاق الفتح الإسلامي ضيقاً ولو أن الدولة العباسية لا تطوي بين جنبها نظيراً لفتوح الصحابة وبني أمية العظيمة ولكن المأمون لم يتخلف في هذا المجال عن سلفه هارون الرشيد والمنصور والمهدي ولقد كانت بنو أمية تأخذ بالسيوف بينما الدولة العباسية كانت تتكل على القلم كذلك فلو لم يتسع نطاق فتحها فلا عجب ولا نتهمها بهذا فالشيء الذي شهّر العباسيين في العالم هي فتوح أقاليمهم التي يعترف بها آسيا وأوروبا كلتاهما وعلى ذلك افتخار أوروبا الفارغ بأستاذيتها بأذهان المسلمين حتى الآن فلو أن جنود المأمون معظمها كانت مشغلة بمحاصرة بغداد في 197 هـ ولكن عظمتها كانت تنتشر في الدول الشرقية انتشار الجراد فأرسل الجنود إلى كابل فأمن واليهما ونذر إليه تاجه وعرشه طالباً منه ضمّ كابل وقندهار إلى أمصار خراسان وقد سبقه سيل فتوح الإسلام في جريه وراء هضباتها ولكن إسلام واليهما يرجع فضله إلى المأمون وحده وقضي على عبادة الأوثان من قندهار وغزني وجاءت هذه الدول تحت ظل الإسلام للأبد وبنيت آلاف من المساجد وضجّ بصوت التوحيد الخالص غاباتها وهضباتها، وقد كان السند تحت الحكم الإسلامي منذ مدة طويلة وقد عمّر عامل الدولة العباسية مدينة بها تسمت بالمنصورة وهي التي كان يقرها عمّال السند مقرهم الرئيسي وكان موسى بن المكي عاملاً عليها خلال الحكم المأموني وظفر بالفتح على رئيس شرقي (فتوح البلدان، ص 445) كما فتح الفضل بن همام سندان وأرسل فيلاً إلى المأمون، كان يعتبر هدية نادرة لدى العرب،

¹ وعادة ذكر المؤرخون فتوح المأمون تحت كل سنة كما هي العادة لدى ضبطهم فتوح الخلفاء الآخرين، الأمر الذي قد نثرها في أمكنة مختلفة فليس فيهم سوى ابن خلدون الذي قد ضبط فتوح كل خليفة في مكان واحد وقد حدثت حذوه.

وكذا أعدّ محمد بن الفضل سبعين باخرة وهجم بها على ميدان الهند¹ فقتل العديد من الأعداء وفتحت قالري (أسقًا على أننا لم نقف على أسماء هذه الأماكن الأصلية فإكتفينا بأسمائها المعربة) وفي نفس الفترة تقدّم ذو الرياستين إلى كشمير وتبت وسيطر على بوخان أورادر وكذا لم تفلت بلاد الأتراك من فتحهم فنصبت علم الإسلام على فاراب وشاغر وطراز وغيرها من المناطق وأسر الخزلجي (حاكم الترك) وزوجاته ورفرفت الراية الخضراء على فرغانة²، وأشرومنة التي هي حكومة مستقلة وكان يحكمها كاؤس فاعتنق الإسلام وذلك أن أصغر أولاد كاؤس³ سخط من مسئول عسكري وأمر بقتله. كان هذا المسئول ذا درجة كبرى وقد زوّج كاؤس أكبر أولاده من ابنته فترك حيدر المدينة مخافة عقاب أبيه وحضر خدمة المأمون وسأل عن جنود قليلة تكفي فتح أشرومنة فأرسل المأمون أحمد بن أبي خالد بفوج عظيم فلما بلغ هذا الخبر كاؤس أرسل أكبر أولاده إلى الملوك التركية كي ينجّوا بلده من غارة المسلمين فأرسل الأتراك جحفلًا كبيرًا ولكن الفوج الإسلامي قد سيطر على أشرومنة قبل وصوله إليها فذهب كاؤس إلى بغداد وأمن فأبقى المأمون حكومته جائزة لدخوله في الإسلام⁴، وكذا أسلم أحد ولادة تبت الذي كان يعبد وثنًا تشير صورته إلى أوج وشأن عجيبين وكان على رأسه تاج ذهبي مرصّع بالزمرد الياقوت وكان له عرش فضي كان يفرش عليه الديبا فلما آمن الوالي أرسل

¹ وقد جاء في بعض المؤلفات الأردوية ذات المستوى السافل أن المأمون قد شنّ الغارة على الهند ذاتها فهزمه الراجبوت في معارك عديدة فرجع القهقري ولكي لم أجد هذا الحديث في تاريخ موثوق به فلم يجرى في فتوح البلدان سوى أن الفضل بن همام فتح سندان وأرسل فيلاً إلى بلاط المأمون آية لفتحها. إنه بنى مسجدًا جامعًا في سندان (فتوح البلدان، ص 246) ولكن المشكوك في موقع سندان وما هو الاسم الحاضر لها؟ فقد فنّد الياقوت الحموي بأسلوب متزن قول كاتب بأنها مدينة من مدن الهند فقد ظنّ الياقوت أنها على قرب من حدود السند، وأيًا كان الأمر فهزيمة المأمون على أيدي الراجبوت إفك مفتري ولو أن كاتبًا هندوسيًا قد نادى بهذا القول في كتابه.

² كانت أزياء جنود المأمون وأعلامها خضراء حتى تلك المدة مثلما يختاره الفاطميون

³ ولعله قد تسخّى بهذا الاسم الجديد بعد اعتناقه الإسلام

⁴ قد ذكر مفصّلًا في فتوح البلدان، ص 430

الوثن والعرش كليهما إلى المأمون وكتب إليه: أنا فلان بن فلان دخلت في الإسلام ونذرت عرش الوثن الذي سبب ضلالي إلى الكعبة فوصل النصير بن إبراهيم العجبي بهذا العرش إلى مكة في 201هـ وأمر بأن يوضع على مسعى الصفا والمروة العام وكان ينادي رجل قائماً على العرشين لثلاثة أيام بأن والي تبت أسلم وهذا عرش معبوده الأول فليشكر المسلمون الله على أنه وقَّعه للإسلام"¹. وفي هذه السنة هجم عبد الله بن خرداذبة عامل طبرستان على الديلم وفتح أمصارها الكبرى وأسر أبا ليلى والي الديلم حياً ولو أن طبرستان كانت تعدّ من الدول الإسلامية ولكن مناطقها الجبلية كانت تحت سيطرة شهريار ومازيار حتى الآن، اللذين كانا مجوسيين جيلاً ودينًا فتقدّم عبد الله إلى تلك الأمصار فأطاعه كلاهما وأرسل مازيارَ إلى حضرة المأمون دليلاً قوياً على هذا الفتح وكذا فتح أبو دلف أشهر حصون الديلم مثل إقليم أبي موج وإبلام وإمداق وهكذا ترك المأمون ذكريات للفتوح التاريخية فقد فتح أبو حفص الأندلسي (أحد مسئولي المأمون) جزيرة كريت كو التي تقع في بحر الغرب ودورها لا يقل عن 360 ميل فتحها من حيث أنه أولاً سيطر على قلعة بها ثم أقام بها لسنوات ثم تدرّج في فتح المناطق الأخرى حتى سخر الجزيرة كلها في 201هـ².

¹ قد أخذت هذه الأخبار كلها من الفرمانات التي أصدرها المأمون بالنسبة بنذرهما إلى الكعبة وقد علّقت هذه الفرمانات على جدار الكعبة بجانب تعليق التاج عليها وهي كانت مصونة في الكعبة حتى 270هـ تقريباً فقد رآها العلامة الأزرقى بعينيه ونقل نصوصها في تاريخ مكة (راجع: تاريخ مكة، ص 157) وقد احتوت هذه الفرمانات فتوح كشمير وبلاد الأتراك بإيجاز كما أشرت إليها المناسبة ومن الأسف أنها لم تذكر بقلم مؤرخ آخر فلم يجرى في فتوح البلدان سوى أن ملك كابل آمن في عهد خلافة المأمون.

² لم يذكر هذا الفتح معظم المؤرخين العرب فقد صدق السيد غبن حيث قال "المؤرخون المسلمون الذين كانوا يجهلون عن أهمية وسمعة بيتر ومانس حقروا فتح جزيرة كريت ولكن لم يغفل عنه المؤرخون الروم" فلم أرَ ذكر هذا الفتح في كتب التاريخ العربية سوى فتوح البلدان وما نقلته مجملاً قد أخذته منه.

فتح جزيرة الصقلية¹ في 212هـ

هذا الفتح ذكرى تاريخية لعهد المأمون ففي 212هـ جعل هيكل ملك الروم الذي يسمّيه العرب بـ"ميخائيل" قسطنطين عاملاً على الصقلية ففوّض قسطنطين أماره البحر إلى رجل شجاع يسمّى "فيبي" والذي قام بفتوح بارزة في سواحل إفريقية ولكن لسانه قطع على أمر من الملك على جريمة هروبه بامرأة طاهرة من المعبد فلم يزل فيبي ينمي قوته وسلطته ثم هجم قسطنطين على سرقوستة ولكنه انهزم فلجأ إلى قسطنطينية فهجم فيبي على قسطنطينية فأسر قسطنطين وتم قتله فالآن استقل فيبي بالحكم على الجزيرة كلها فجعل سرقوستة مقرّه الرئيسي وعيّن عمّاله ونائبه في مختلف الأمصار ولم يكن أحدٌ من الأعداء خصمًا له معاديًا ولكن من سوء الحظ أن أحد أقربائه المسمّى بـ"بلاطة" قد اعتدى عليه وهجم على سرقوستة بمعونة من أخيه فانهمز فيبي هزيمة نكراء واضطرّ إلى كتابة رسالة إلى زيادة الله الذي كان عاملاً على إفريقية من قبل المأمون وقال فيها: لو صان الفوج الإسلامي عزتي وعرضي بهذه المناسبة فسأندر جزيرة الصقلية جزاءً لهذه النجدة فأنجده زيادة الله بمائة مراكب حربية بما فيها مائة فارس وعشرة آلاف راجل في شهر ربيع الأول 212هـ. كان يقود هذا الجيش أسد بن فرات المحدث الشهر وتلميذ الإمام مالك البارح فالرجل الذي توجه نحوه الجيش الإسلامي بعد بلوغه إلى الصقلية هو بلاطة الذي قد أخرج فيبي من سرقوستة فاتحاً عليه فهاجم الجيشان واحدٌ على الآخر بكل حماس وشدة. كان

¹ وقد أخذت قصة فتح الصقلية من Roman Empire للسيد غبن بجانب الاستفادة من التواريخ العربية لاسيما السبب وراء سخط فيبي من ملك الروم وتفاصيل البواخر الحربية الإسلامية. وجزيرة الصقلية مساحتها عشرة آلاف مربع ميل وهي مقسومة في سبع محافظات نسميها فيما يأتي: فما سميها من المدن ليست بأسماء معربة كما يبدو مما يأتي: بلرم، وسينا، وقطانية، وسرقوسة، وجرجنت، وكلتانيتا، وتريني لما فتحها المسلمون فانتشر فيها المسلمون بكثرة كاثرة وهذا من صروف الدهر أنه لما وصل إليها ابن حوقل، التاجر الشهير لبغداد، وجد في بلرمو عشرات من المساجد على بعد نيل (راجع: معجم البلدان، أحوال الصقلية) وأما اليوم فلا نجد أحدًا يكرّم الرسول محمداً صلى الله عليه وسلم.

فيبي يحضر هذه المعركة ولكن الجيش الإسلامي قد أبعده عن الحرب ظاناً أن الفتح الذي يسهمه رجل من الأجانب لا يستحقّ الثناء عليه فانتهدت الحرب على هزيمة بلاطة والآن لم تبق عرقلة لأسد فرحب به الفتح حيثما توجه. وكان بها حصن شهير يسمى "كراث" وبما أن الناس قد تجمّعوا لديه خوفاً من أسد وهروباً منه فقد أصبح الحصن مكاناً منيعاً فلما أراد أسد أن يهجم عليه أبدى أهاليه أنهم يرضون عن تقديمه له وفي جانب آخر كتب فيبي سراً إلى أهالي الحصن أن لا يدعوا المسلمين فتح هذا الحصن فصالح أسد على جزية وقبل شرطهم أن الفوج الإسلامي يقيم بعيداً عنه فلما وجد أهاليه الفرصة لإعداد العدة قاموا به وأنكروا الجزية فلما بلغ أسداً هذا الخبر نشر جنوده في الجزيرة كلها وحاصر سرقوستة من كل جانب وفي هذه الفترة بلغت النجدة من إفريقية وكاد أن ترفرف راية الإسلام عليها إذ بلغها ميكل أخو بلاطة بفوج عظيم فحوصر الجيش الإسلامي فأعدّ أسد الخنادق للصيانة كما حفر العديد من الخفر على بعد منها ونشر عليها القش والغناء فهاجم جيش ميكل بكل حماس وشدة وكلما تقدّموا ملأوا الحفر بجسودهم الميتة فهكذا قضى على هذه الآفة إلا أن عدوى حدثت في 213هـ ذهبت بالشطر الكبير من الفوج الإسلامي حتى أصاب المرض أسداً فمات فقام بقيادة ما بقي من الفوج محمد حسن أبو الجواري وفي هذه الأثناء بلغ مركب حربي لملك الروم من القسطنطينية فرفع المسلمون أيديهم عن الصقلية وأرادوا أن يرجعوا إلى إفريقية ولكن الأفواج الرومية قد صدّوا كافة السبل فوطّن اليأس المسلمين على إلقاء أنفسهم إلى التهلكة فأشعلوا النار إلى بواجرهم الحربية وانتشروا في الجزيرة كلها انتشار الجراد فحاصروا ميناء ونزعوا القلعة في مدة ثلاثة أيام وسيطروا على جرجنت بعد غزوة قليلة ثم حاصروا قصر يانة فأعانهم فيبي في هذه المعركة فأظهر أهالي قصر يانة طاعتهم القديمة لفيبي وأشاروا إلى العرش المهيأ له فاغتره هذا التزوير وقتل بأيديهم وفي هذه الفترة وصل جيش عظيم من الروم وأنجد أهالي قصر يانة إلا أن المسلمين قد فتحوا عليهم ودمّرت أفواج الروم معظمها وما بقي منهم قد حاصروهم المسلمون في قصر يانة فهذه الفتوح المتواصلة قد جعل عزيمة المسلمين وحماسهم متجاوزين عن الحدود فمالوا إلى النهب والسلب

وافترقوا في فرق ومالوا حيث وجدوا الموقع فلما رأى الروميون هذا هجموا عليهم من كل جانب فهزموهم مرات وكرات فقد قتل في معركة حوالي ألف فارس من الفوج الإسلامي، والآن حاصرهم الروميون من كل جانب وصدّوا سبيل الأغذية والأشربة إليهم، والآن أراد المسلمون أن يغيروا عليهم ليلاً ففرّوا ولكنهم خابوا لما أن الروميين قد سبقهم العلم به فتركوا خيمهم وانتشروا هنا وهناك فلما أغار المسلمون عليهم ووجدوا الخيم فارغة من أربابها رجعوا القهقري ووجدوا الروميين أمامهم فحوصروا من كل جانب واضطروا إلى القتال فقتل الكثيرون وأما من أفلت منهم فقد لجأ إلى ميناء ولكنهم قد عانوا من مشقة ومصيبة شديتين حتى أكلوا الكلاب والقط. وفي هذه الفترة من اليأس أنجدهم باخرة أندليسية جاءت للبحث عن الجزائر الحديثة وقد تبعها العديد من البواخر الحربية من إفريقية وقد بلغ عددها ثلاثمائة باخرة فترك الروميون فكرة الفتح ورفعوا حصارهم ولما فرغ المسلمون من حصارهم هاجموا على مدينة بلرم بما أن نار الانتقام كانت مشعلة في قلوبهم. إنهم فتحوها في 216 هـ وفي 219 هـ فتحوا أكبر أمصار الصقلية ولكنه بما أن المأمون قد لبّى دعوة ربّه من قبل فنصرف النظر عن هذه الفتوح.

غارات على الروم¹

هذه الغارات ممتعة من حيث أنها حضرها المأمون ذاته والواقع أنه لو لم يُبدِ مظاهر شجاعته وديالته فيها لما لُقّبهُ المؤرخون سوى الشاعر وصاحب القلم فقد اعترف عامة المؤرخين بعد هذه الفتوح أنه كان يملك القلم والسيف معاً.

في جمادى الأولى 215 هـ شنت الغارة على الروم فلما دنا من حدود الروم جاءه رسل ملك الروم يطلب الصلح وقدّموا ما يلي من الشروط:

1. أننا نتحمّل تكاليف السفر من دار الخلافة إلى هنا.

¹ لنلاحظ أن العرب في كتب تاريخهم القديمة يعنون بالروم آسيا الصغرى ونفس الشيء أردناه هنا فالمدن التي سقيناها في هذه الفتوح لنبحث عنها في جغرافيا آسيا الصغرى فإن لم يعرف القراء هذا الواقع فبهيمون في إيطاليا والقسطنطينية فلا يراد بها إلا إياها اليوم.

2. وأننا نحزّر المسلمين الذين أسروا في بلادنا بدون نقد أو مال.

3. وأننا نقوم بمرمة الأمصار الإسلامية التي تم تدميرها لأجل حملة الروم.

ونحن نرضى عن أي شرط تقبله أنت ولا نسألکم أجراً سوى أن ترجع إلى دار الخلافة فصلّى المأمون ركعتين وبقي يتفكّر لوقت طويل في أيّ جانب يختاره هو فأوحى علوّ همته إلى أن هذه الشروط أقلّ من الفتح فدعا الرسل وقال: أما الشرط الأوّل فأقول لكم كما قال سليمان عليه السلام إن تضعوا هداياكم لديكم، والشرط الثاني لا يفيدنا شيئاً فإن المسلمين الذين أسرتموهم أسرهم فخر لهم حين أقدموا للجهاد في سبيل الله وإن أرادوا الدنيا فهم يستحقّون هذا العقاب وأما الشرط الثالث فلا نقبله فإن امرأة مسلمة استغاثت محمّداً حين أسرت لن أبيع استغاثتها بثمنٍ بخسٍ حصونٍ روميةٍ معدودات¹.

وقد جمع الكثير من العدد والعدة فخاض في معارك وغزوات حتى بلغ حدود حكومة الروم فأحصر حصن قرة ثم دمّره بعد أن فتحه في 26/ جمادى الأوّل وأما أهالي حصن ماجدة فقد أطاعوه طوعاً وكذا فتح حصن سنان بعد القتال وهكذا أرسل عبد أشناس إلى قلعة سندس، الذي فتحها وجاء بصاحبها أسيراً وكذا رفرّف عجيف وجعفر أبرّ مسئولّي المأمون رايته على قلعة سناد.

رجع المأمون إلى دمشق بعدما حاز هذه الفتوح ولكنه حينما بلغه أن مالك الروم قد قتل ألفي مسلم في طرطوس ومصبيصة أغار على الروم غضباناً ثائراً في 216هـ فحاصر هو بنفسه كل قلعة وقال لولده العباس وأخاه أبا إسحاق المعتصم إن ساحة العدو الفسيحة تهتّى عزائمكما ونماذج بسالتكما فافتحا قدرا ما توّدانه من بلاده" ففتح أبو إسحاق حوالي 30 قلعة شهيرة أمنعها جردلة وكان يشملها اثنتا عشرة قلعة فقام أبو إسحاق بتدميرها وأشعل النار فيها وأما العباس فقد فتح قلعتي أحرب وحصين ثم أغار على ملك الروم ذاته وخاض حرباً دامية نكراء فهزم العدو هزيمة شنعاء ورجع بما لا يحصى من الغنائم.

¹ لم يؤخذ هذا المزيد إلا من مروج الذهب للمسعودي

العدد الخاص مجلة الهند

وفي 217م طلب ملك الروم الصلح ولكن بأسلوب ملوّه ذمّ وهتك للعزة العربية فكتب اسمه قبل المخاطب فثار غضب المأمون وعاد إليه عزيمة الانتقام منه فخرج بالكثير من العدد والعدة وأمر الدول المحتلة بأن يستعدّ مسلموها العالوا الهمة للجهاد ويتوجّهوا نحو الروم.

وكانت قلعة لولوة أمتع قلع الروم في تلك المدة والتي كانت تعتبر معادلة لعظمة وازدهار كل قلعة ماضية فحاصرها المأمون قبل كل مكان ولما لم يلق نجاحًا بعد حملة متواصلة أمر أن تبنى قلع جديدة مقابل هذه القلعة ويمكن لنا بالامتثال بهذا الأمر في بلد أجنبي تقدير ما كان يحمله الجيش الإسلامي حين الغارة ثم عيّن جبلة على إحداهما بينما تعيّن أبو إسحاق المعتصم على أخراهما بينما فوّض القيادة العامة إلى عجيف والجال أنه بنفسه تقدّم لفتح قلعة أخرى تسمى "سلغوس" فأسر عجيف على أيدي الأعداء وعانى هذا العقاب لمدة شهر.

فجاء ملك الروم بنفسه إلى قلعة لولوة ولكن واجهه جبلة وأبو إسحاق خارجين من قلعهما بكل بسالة فنهبها ما جاء به ملك الروم من أسباب الحرب فلما رأى أصحاب لولوة أن ملكهم لم يتصدّ لهذين القائدين الباسلين فترت عزيمتهم وحرّروا عجيفًا على أن ينالوا الأمن بفضلها فقبل المأمون طلبهم وعمّر العديد من المسلمين كذكرى لهذا الفتح.

وفي 118م أمر المأمون باستعمار مدينة بقصبة طوانة على قرب من حدود الروم.

فقرّر الأمير عباس على بنائها وأعدّ أسوارها على بعد ثلاثة فراسخ من المدينة والتي كان لها أربعة أبواب رئيسية وكان بكل باب قلعة منيعة.

ثم أصدرت الأحكام بإرسال عدد ملموس من الناس للتوطن بها¹ حدّدت رواتبهم كما يلي: مائتي درهم للفارس وأربعين درهمًا للراجل.

¹ وقد ذكر كلٌّ من ابن خلدون وأبي الفداء وابن الأثير فتوح المأمون بشيء من التفصيل ولكي أخذت من العيون والحدائق خاصة، الذي يوجد فيه سلسلة الوقائع والتوفيق بينها بجانب ذكرها المفصّل.

موت المأمون في 18/ رجب 218هـ

وإلى الآن بلغ المأمون 48 سنة من عمره فقد عانى فجر عهد المأمون أنواعاً من الثورات والحروب الأهلية فلما فرغ منها أخذ عنان الحكم بيديه وفي هذه الأثناء وجد حرية في تحقيق عزائمه وأداء ما عجز عنه خلفاء الإسلام القدامى، وحملات بلاد الروم ساحات بدائية لبسالته إلا أنه لم يتخلف في هذا المجال عن سبقه من الخلفاء. إنه كان حاضر تلك المناطق التي نال فيها فتوحاً تذكارية عسى أن يقطع دابر سلطة وقوة ملك الروم. وقد عزم على الغارة على القسطنطينية ذاتها إلا أن الدهر لم يساعد أحدًا في تحقيق أمانيه الكاملة فقد كان يموج في قلبه العديد من الأخيلة والأفكار المليئة بالفخر والغرور إلا أن المنية سبقتها كلها، وكل نفس ذائقة الموت، ولا تدري نفس أي أرض تموت.

ذات يوم خرج إلى نهر بزندون مع أخيه للتنزه، كان الماء صفوًا وكانت الأمواج المتلألأة تحير القلوب وتبهت الأبصار فجلس المأمون والمعتصم كلاهما على شاطئ من شواطئه وألقيا أقدامهما في الماء وكان يحضر هذه المناسبة سعد القاري أخص ندامى المأمون فخاطبه المأمون قائلاً: أيا سعد! هل رأيت ماءً باردًا صافيًا كهذا؟ فذاق سعد قطرة منه فقال: لا شك في ندرته" فسأله المأمون: ماذا نتناوله عليه" فردّ عليه سعد: ما المستول أعلم من السائل. فقال المأمون: تمور الأذاد. وكانوا مشغولين في هذا الحديث إذ بلغت أذنيه وقعات حوافر الأفراس فسألهم فقالوا: الرسالة. فتحيروا من حسن التوازن أن ما تمنّاه المأمون كان يصحب هذه الرسائل فتناولوها بكل رغبة ولذة وشربوا ماءً باردًا من النهر ولكنه لما قام منه أحس بالحرارة فلما بلغ المضجع أصابه الحمى الشديدة في 13/ جمادى الثاني فمات فيها. ولما يئس من الحياة قبل موته بأيام فأرسل الأحكام في كافة الدول، التي كانت معنونة بـ"من أمير المؤمنين وأخيه أبي إسحاق" فلو كان الأمير عباس مرافقهم في هذه الرحلة وإن ادّعى ولاية العهد فلم تكن دعواه هذه غير ملائمة ولكن جود المأمون قد غلب شفقة الوالد فترك ولده الشهير واختار أخاه إسحاق بدله والجال أن هارون الرشيد قد خلعه عن حقه من الخلافة حينما كان هو حيًا.

لم يثبت المأمون سخاء نفسه بهذه المحمّدة فحسب بل هذا الخيار دليل قوي على صواب رأيه فهذا هو أبو إسحاق الذي اشتهر فيما بعد بالمعتصم وكفى تذكير مآثره الكبرى ذكر اسمه. جمع المأمون مستولي الجنود والعلماء والقضاة وأفراد الأسرة الملكية كلهم ثم أوصى بكلمات مؤثرة ملخصها "إني أقرّ بما ارتكبت من الذنوب ويغلبني الخوف والرجاء ولكي كلما أرجو من الله العفو تترجح كفة الرجاء فحينما يتوفاني الله فاغسلوني جيداً بالوضوء وليكن الكفن جيداً كذلك ثم ضعوني في التابوت بعد حمد الله وثنائه وعجلوا دفني ما استطعتم وليصل جنازتي من هو أكبر أقربائي سنّاً وليكبّر في الصلاة خمس مرات وليدخلني في القبر من هو أقرب مني رحماً وأكثر محبة لي وليجّهوني جهة الكعبة في القبر ويرفع الكفن عن وجهي ورجلي ثم ليسوّوا قبري ويرجعوا وليكلوني إلى ما قدّمت فإنكم لن تريحوني أو تضروني لو اجتمعتم، واذكروني حسناً إذا استطعتم وإلا فاسكتوا فإنكم يحاسبون على قولكم حسناً كان أو سيئاً ولا يبيك أحدٌ عليّ عسى أن أعذب معه. لا أحد يليق الحمد والثناء سوى الله الذي قدّر لكل مخلوق الموت ولا يبقى إلا وجهه فاعتبروا بي فلقد كنت خليفة ذا قوة وشوكة ولكن لم أصبر ضد أمره بل الخلافة قد ملأت حياتي الآخرة بمزيد من البلاء، لبت عبد الله لم يولد. أبا إسحاق: تعال إليّ واعتبر بي فلقد وضع الله طوق الخلافة في عنقك فلتكن خائفاً من حساب الـ وعذابه ولترجّح رفاهية الشعب على كل عمل ولا تدع الأقياء يظلمون الضعفاء، ولتحسن إلى المساكين. اصفح عن زلات أعوانك ولا تقلل من رواتبهم ومنحهم" فلقّنه أحد الحضور بكلمة التوحيد فتعجّب منه طبيب نصراني، ابن ماسويه، كان حاضر الجلسة ومنع المرء عن هذا التلقين وقال بحقارة: الآن الله والماني صنوان لدى المأمون فتنبّه المأمون فجأة وفار غضبه إذ جعلت تقشعرّ كافة أعضائه واحمرّ الوجه والعينان وبسط يديه ليأخذ ابن ماسويه ويعاقبه على سوء الاعتقاد هذا ولكن لم تساعد أعضاؤه فأراد أن يقول شيئاً بلسانه ولكن لم يرافقه اللسان فنظر إلى السماء متحسّراً وامتلاّت عيناه بالدموع فأطلق الله لسانه فخاطب الله وقال: أيا من لا يزول سلطانه للأبد ارحم من تزول سلطته اليوم" وعلى هذه الكلمات تلفظ نفسه الأخيرة وتغمّده الله برحمته. إنا لله وإنا إليه راجعون¹.

¹ قد أخذت بعض أخبار النزاع من مروج الذهب للمسعودي.

العدد الخاص مجلة الهند

فحمل العباس وأبو إسحاق المعتصم نعشه إلى طرطوس ودفنوه بدار خاقان الذي كان أخص خدم هارون الرشيد، ويعتبر المؤرخون بأن قبر المأمون الذي كان أحبّ أولاد أبيه وبين ما لأبيه الهارون بعد المشركين.

صفة المأمون

كان المأمون أبيض ضارباً إلى الحمرة، وله عينان واسعتان. لحاه دقيقة مرسلة، وناصيته ضيقة. كانت شامة على خده، جسده متوسط، ووجهه حسين.

ذكور المأمون

توفي المأمون عن سبعة عشر ولداً ذكراً وهم محمد الأكبر ومحمد الأصغر والعباس وعلي والحسن وإسماعيل والفضل وموسى وإبراهيم ويعقوب والحسين وسليمان وجعفر وإسحاق وأحمد والهارون وعيسى.

الجزء الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

مدخل:

ولو أن الجزء الأول لتاريخنا قد أخذ من المصادر الموثوق بها والمعتمد عليها وعلى هذا فهو مختار شامل من تلك المصادر لن يفوقه مختار آخر شمولاً ونفعاً إلا أنه صورة جانبية من حكم المأمون، لا يبدو فيها سوى أحداث معدودة وحروب داخلية فلا نرى فيها ملامح أوضاع المأمون الاجتماعية دغ نظمته السياسية وقوانين الدولة فيجب علينا أن نضع آثار مؤرخينا المتبعين فنصبح بأنفسنا معالم فنري القراء مجموعة الصور التي يمكن لهم أن يروا المأمون في الصبغة التي يودون أن يروه فيها فالمأمون يحتلّ فيما بين كافة الخلفاء والسلطين مكاناً جامعاً لهم حافلاً بهم فسترونه متصدراً كلّ المجالس سواء كان هو مجلس الأدب أو مجلس الحديث والفقه، وأيام العرب، والشعر، والأنساب، والفلسفة، والحساب وهو الذي قد خلف ذكريات ملموسة وذات شهرة في أرجاء العالم المعلومة بفضل فتوحه المليئة بالرجولة والشجاعة.

فمن ير محامده في معارك الشجاعة فلن يتيقن أن هذه الأيدي الشديدة قد مسّت القلم مرة ما كما أن أخلاقه الشخصية طاهرة وعالية تفقد نظيرها لدى القليل من النساك والدرويشين فلا تجد أيّاً من أخلاق التواضع والحلم والعفو والجود والسخاء وعلوّ الهمة والشجاعة والحكمة إلا وقد أودعها الله فيه، وبجانب هذه المحاسن قد صدر من جانبه، خلال حكمه المستقلّ به، بعضُ المظالم التي تقشعرّ من تخيلها القلوب وفجأة تنسلّ محاسنه من أعماقها، ولكن بجانب هذا وذلك فإنه بطل ذائع الصيت من بين أبطال الإسلام ولا ننصف لو اكتفينا بالمعدود من كلمات الثناء على هذا الرجل الكبير في عالم الخلود والدوام.

العدد الخاص مجلة الهند

والأسف أن معرفتنا بنظم الدولة ضيق نطاقها ولا تعود تهمتها إلا على ضيق نظرنا أو على مؤرخينا القدامى لو لم نتهم بسوء الأدب، والذين لم يسعهم تقدير الذوق التاريخي للجيل القادم. ولو اضطرت إلى تصفح الآلاف من الصفحات للعثور على أوضاع الصنف الثاني ولكن المواد التي قد تجمعت لي أظنها كافية لي وأشكر القدامى على أنما بيدي مما وقروه هم أنفسهم.

إلا أنهم قد خلفوا ورائهم مشقة التدقيق والحصول على المعلومات عن مختلف الأحداث المبعثرة والخاملة الذكر.

ويجمل بي أن أبدأ هذا الجزء باسم بغداد المؤثر الذي لم يزل مركزاً مهماً لشوكة الإسلام وجلالته دعه أن يكون مركزاً منيعاً للعصر العباسي.

ولو أن المأمون قد اعتبر ملكاً لخراسان وعلى هذا فلم يزل يخطئ بعض مؤرخي أوروبا ولكن عاصمته تستحق أن تسمى بغداد لا خراسان من كلتا الجهتين؛ من جهة طول الحكم ومن جهة ثبات الخلافة فنود أن نذكر تاريخ هذه المدينة الشهيرة بصورة موجزة.

بغداد

قام بتأسيس بغداد¹ أبو جعفر المنصور والد جدّه، ولو أن المنصور كان ثاني خلفاء العصر العباسي وتولّى الحكم في 137هـ إلا أن الخلافة، لأجل سعة نطاقها وشوكتها، كانت تحتاج إلى عاصمة مستقلة بذاتها، وقد اختار لها المنصور الهاشمية المكان المؤقت في ضواحي الكوفة ولكن ثورة الفرقة الراوندية وغدر الكوفيين المشتهر قد صرف قلبه من الكوفة فقد بذل أقصى الجهود وبمشورة أهل الرأي اختار هذا المكان الصغير السالف الذكر الذي كان معروفاً بعدل أنوشيروان العادل والآن هو يعرف بـ"بغداد" بعد مروره بأطوار.

¹ كل ما كتبه عن بغداد أخذته من مرآة البلدان للناصرى سوى بعض المعلومات التي أضتها إليه آخداً من مصادر أخرى فقامت بالإحالة إليها.

كان هذا الخيار أنسب من كل وجه؛ فقد كان هذا محاطاً من جهتين بأربع ولايات خصبة معمورة، وبما أنه ملتحق بدجلة والفرات فقد أمكن له أن يكون مركزاً تجارياً بين الهند والبصرة وواسط والمغرب والشام ومصر وأذربيجان وديار بكر، وقد كان جوّه معتدلاً موافقاً لكل مزاج كما كان هذا مكاناً مناسباً للغاية نظراً للمصالح السياسية بل حق أن يقال أن هذا كان مكاناً لا مثيل له في كافة دول العالم الإسلامي فهو لم يكن في وسط العرب حيث لم يكن لشوكة الملك واستبداد العامة أن يثورا ولم يكن بعيداً للغاية حيث صعب له الاستفادة من قوة العرب وشوكتهم فإن كانت مدينة تعادل بغداد من هذه الجهات فكانت هي مدينة دمشق ولكن جوّها كان مشوباً بسمية الحكومة المروانية. ولو أن المنصور يفقد نظيره في صفته للبخل ولكن همته قد نمت وعلت شوقاً إلى العاصمة الجديدة فاشترى بغداد كلها من الرهبان وأرسل إلى الشام والموصل وكوهستان والكوفة وواسط فدعا من اشتهر من المهندسين المعماريين والبنّائين¹.

وفي 145 هـ قد وضع حجر أساسها بأيديه ذواتها وهو يتلو من القرآن "إنّ الأرض لله يورثها من يشاء من عباده" وعيّن بعض العلماء الماهرين في الهندسة لكي تبني العمارات طبقاً لأصول الهندسة، وبما أن الإمام أبا حنيفة قد ردّ دعوة المنصور إلى احتلال منصب القضاء مراراً على إصراره عليه² فقد وظّفه على خدمة وضيعة لإحصاء الأحجار رضي عنها وقبلها الإمام المكرّم مقابل منصب القضاء المليء بالأخطار. كان الأساس عرضه خمسين قدماً من داخل الأرض إلا أن عرضه قد ضاق إلى عشرين قدماً حينما وصل إلى سطح الأرض، ويقال أن هذه هي مدينة وحيدة في العالم كثافتها مثل دائرة فقد بنى المنصور قصر الخليفة في الوسط كأنه مركز في

¹ ولعل الرواية التي تستحق الوثوق بها أكثر من غيرها من الروايات في تسمية بغداد هي أنه كانت هناك حديقة بهذا المكان فكان يجلس فيها ويفصل عن القضايا ولذا سمّيت بـ"باغ داد" (بغداد مختصراً: حديقة العدل)

² قدّم المنصور للإمام أبي حنيفة مقعد القضاء فردّ عليه الإمام أني لست بمؤهل له فغضب منه المنصور قائلاً: إنك تكذب فقال له الإمام إني صادق في دعواي بأني لن أكون مؤهلاً للقضاء لأن من هو كاذب لا يحرى بأن يُجعل قاضياً.

صورتته وهو يشير إلى أن الملك يعطي درجة سوية لكافة الناس غنيًا كان أو فقيرًا، شريكًا كان أو وضيعًا.

وكانت أربعة أبواب لسور المدينة وكان بين كل بايين بعد ميل واحد وأما بالنسبة للبناء فمباني قصر الخلافة والمسجد الجامع وقصر الذهب وقصر الخلد كانت فخمة للغاية إلا أنها كانت يتصدّرها منارة خضراء وهي القبة الخضراء والتي لم يكن طولها أقلّ من 80 ياردة، ولما وجدت مستعمرة جديدة فتحوّل اسم بغداد إلى مدينة السلام الاسم الذي لم يعمّ الناس إلا أنه قد استولى على المكاتب والرسائل بشوكتة وسلطته. ولو أن المنصور قد رافقه القناعة كل المرافقة حتى أنه ألقى مسئولًا قد بقي عليه مجرد 5 دراهم إلى السجن إلا أنه لما حوسبت تكاليف البناء فبدأ أن بيت المال قد أخرج منه مبلغ قدره عشرون مليون درهم¹.

وبغداد التي ذكرناها آنفًا كانت بغداد المنصور ولكن هيئتها قد تغيّرت لأجل الرقيّ السريع يوميًا فقد حوّل المهدي وليّ عهد المنصور العاصمة إلى شرقيّ دجلة، الأمر الذي جعل دجلة في وسط المدينة وبفضله زاد منظرها الفطري نوعًا من البهاء، ولم تزل هذه المدينة الإسلامية تحظى في كل عصر من عصورها برقيّ باهر فقد نافس الأمراء في استعمارها وزيادة كثافتها بفضل همهم الفائضة المليئة بالجود والسخاء.

وما أنفقه كبير وزراء هارون الرشيد من المبلغ في بناء قصر قد كان عين ما جاد به المنصور (أي عشرون مليون درهم)² كذا أنفق أمين الرشيد الفكه في البناء مبلغًا كان يزهو على عشرين مليون درهم.

¹ راجع: النجوم الزاهرة في تاريخ مصر والقاهرة، ص 377 ولقد ذكرت روايات عديدة في تخمين تكاليف البناء ولكني اخترت رواية وسطًا وموثوقًا بها فالدرهم يعادل أربع آتات عشرون مليون درهم عادلتها خمسون مائة ألف روبية هندية.

² الكامل لابن الأثير (ذكر تدمير البرامكة)

العدد الخاص مجلة الهند

وكانت الكثافة السكانية للمدينة ذاتها في عصر مأمون الرشيد عشرة مآت ألف نسمة وقد جاء في "آثار الدول" أنه كان هناك ثلاثون ألف مسجد وعشرة آلاف دورة المياه وقال السير غبن أن 860 طبيباً سمح لهم التطبّب في المدينة¹.

وإذا قمنا بذكر مباني بغداد الشهيرة فاحتجنا إلى كتاب مستقلّ ينبغي للقراء أن ينتظروه والذي يسمّى "عمارة الإسلام"² إلا أن دار الشجرة تستحق ذكرها في هذا الكتاب كما ذكرها السير غبن فنودّ أن نجمل ذكرها كما يلي:

قام ببناء هذا المبنى العجيب الخليفة المقتدر بالله الذي تولّى الحكم في 295هـ فتوجد شجرة من الذهب في الخوض الواسعة لفناء الدار، توجد فيها 18 فرعاً ضخماً من الذهب والفضة وفي كل فرع ضخّم فروع عديدة قد أحسن فيها ترصيع جواهر ذات ألوان مختلفة بحيث تبدو أثمار وفواكه فطرية وقد وضعت في الفروع اللطيفة الدقيقة طيور ذهبية ذات أصناف مختلفة وركّبت من حيث كانت تغني بأصواتها الخاصة بها حينما تسير الرياح، وقد وضع على جانبي الحوض خمسة عشر فارساً صناعياً قد لبسوا أزياءً من الحرير والديبا وتسلّحوا من السيوف المرصّعة بالذهب وكانوا يتحرّكون من حيث أنهم يقدمون على خصومهم³.

ولو كانت شوكة الخلفاء في بغداد قد غابت بعد قرنين فقط إلا أن عظمة الإسلام عامة قد بقيت حتى جارف التتار فقد كان يخزّ ساجدين جلائلُ الحكّام والأمراء لهؤلاء الخلفاء فقد سجدت لأضعف الخلفاء حتى ديلم وسلجوق فمن حصل منه محمود الغزنوي على لقب يمين الدولة كان هو خليفة بغداد الفارغ عن السلطان، وقد توجّهها ودفن بها آلاف من الشعراء والمجتهدين والفنّانين هاجرين بلادهم النائية فالعباقرة الإسلامية التي أخفاها مقابر بغداد لم يسطع الزمان أن يقدم أمثالها ولو

¹ دائرة المعارف (ذكر بغداد)

² كتاب لم يوفّق شبلي تأليفه

³ راجع: معجم البلدان (ذكر دار الشجرة) و Roman Empire للسيد غبن (العهد العباسي)

العدد الخاص مجلة الهند

بعد مآت سنة فيستريح في هذا الحيّ من الأموات الإمام موسى الكاظم والإمام أبو حنيفة والإمام أحمد حنبل والشيخ جنيد والشيخ شبلي المعروف بـ"الكرخي".

وإن نظرنا إليها من جهة المعارف فوجدنا بجانبها الشرقي ثلاثين كلية عالية حينما لم يبق منها سوى الأناض الأخريرة فلما وصل بها العلامة ابن جبیر في 578هـ فأخطأ في تقدير كلية وفناءاتها وسلسلة مبانيها الفخمة بأنها مستعمرة علا حدة¹.

وقد صوّر أنوري الشاعر الفارسي الشهير جوّ بغداد الملائم وسير دجلة وركوب السفن وخضرة الحدائق وتلوّنها والتي كانت تخبّل القلوب، في قصيدته التالية:

خوشا نواحي بغداد جاء فضل وهنر	كه كس نشان ندهد در جهان چنان كشور
سواد أو بمثل چون شهر مینا رنگ	هواك أو بصفت چون نسیم جان پرور
كنار دجله ز تركان سیمتن خلیخ	میان رحبۀ خوبان ماه رخ كشمیر
هزار زورق خورشید شكل بر سر آب	براس صفت كه پراگنده سپهر اختر
بشبه باغ شود آسمان بوقت غروب	بشكل چرخ شود بوستان بوقت سحر
بوقت شام همے این وأن سپار وگل	بگاہ بام همے آن بایں دهد اختر
شگفته نرگس بویا بطرف لاله ستان	چنانچه در قدح گوهرین مئے أصفر
نواك طوطی وبلبل خروس عكه وسار	همے كنند خجل لحنهك خنیاگر

سعة نطاق الحكم، والخراج، والأمصار، وأنواع الدخل؛ الخراج والعشر

والزكوة والجزية، وعدد الجيش ورواتهم والبواخر الحربية

البلاد التي حكم عليها مأمون الرشيد كان نطاقها واسعًا للغاية فحدودها كانت ممتدة من الهند والتتار إلى بحر أوقيانوس فلم يكن أي إقليم إسلامي خارجًا عن حكمه سوى إسبانيا فقد كانت الخطب تلقى باسمه في الأمصار الواقعة في حدود الهند ولو كان ملك

¹ رحلة ابن جبیر (ذكر بغداد)

العدد الخاص مجلة الهند

الروم حاكمًا مستقلًا بنفسه إلا أنه كان مضطراً إلى أن يدفع الخراج إليه في معظم الأوقات فقد كان خراج البلاد كلها في عهد هارون الرشيد 210 مليون وخمسمائة ألف روية سنويًا فزاده المأمون في عهده ونذكر فيما يلي جدول خراج أمصار شهيرة على حدة وبما أنه قد وضع من وثائق المأمون الرسمية فتجدر بأن يوثق بها:

المصر	الخراج
السواد	عشرون مليوناً وثمانية وسبعين مائة ألف درهم، ومأتا حلية نجرانية، وطين خاص يستخدم للتمهير، ومأتان وأربعون.
كسكر	عشرة ملايين وستة عشر ألف درهماً
أمصار دجلة	عشرون مليوناً وثمانية آلاف درهم
حلوان	ثمانية وأربعون مائة درهم
الأهواز	خمسة وعشرون ألف درهم وثلاثون ألف رطل من السكر
فارس	عشرون مليوناً وسبعون مائة ألف درهم، وثلاثون ألف علبة من الوردية، وعشرون ألف رطلاً من الزبيب السوداء
كرمان	مأتان وأربعون مائة ألف درهم، وخمسمائة طية يمنية، وعشرون ألف رطل من التمر
مكران	أربعمائة ألف درهم
السند	عشرة ملايين وخمسة عشر ألف درهم، ومائة وخمسون رطل عود هندي
سيستان	أربعون مائة ألف درهم، وثلاثمائة طية من اللباس الخاص،

العدد الخاص مجلة الهند

ووعشرون رطلاً من الفانيد	
عشرون مليوناً وثمانون ألف درهم، وأربع آلاف فرس، وألف رقيق، وعشرون ألف طية، وثلاثون ألف رطل من الهليلة، وألفا نقرة من الفضة	خراسان
عشرة ملايين وعشرون مائة ألف درهم، وألف شقة من الحرير	جرجان
عشرة مآت درهم، وخمس مآت نقرة من الفضة	قومس
عشرة ملايين وعشرون مائة درهم، وعشرون ألف رطل من النحل	الري
ثلاثمائة وستون مائة درهم، وستمائة فرش طبري، ومأنا رداء، وخمسمائة طية	طبرستان ورومان
ثلاثمائة منديل، وثلاثمائة جامة	دنهاوند
عشرة ملايين وثلاث عشرة مائة ألف درهم، وألف رطل من رب الرمامين، واثنان عشر ألف رطلاً من النحل	همدان
عشرة ملايين وسبعمائة ألف درهم	أمصار وسط البصرة والكوفة
أربعون مائة ألف درهم	مابدان ودينور
ست وستون مائة ألف درهم	شهر زور
عشرون مليوناً وأربعون مائة ألف درهم، وعشرون مليون رطل من العسل الأبيض	الموصل

العدد الخاص مجلة الهند

أذربيجان	أربعون مائة ألف درهم
الجزيرة مع الأمصار	ثلاثون مليون درهم وأربعون مائة ألف درهم، وألف درهم، واثنان عشر ألف مسكًا من العسل
الفرات	عشرة صقور، وعشرون رداءً
أرمينيا	عشرة ملايين وثلاثون مائة ألف درهم، وعشرون فرسًا محفورًا، وخمسمائة وثلاثون رطلًا من الزقم ¹ ، وعشرة آلاف رطل من المسايح السورماهية، وعشرة آلاف رطل من الصونج، ومأتا بغل، وثلاثون عجلاً
قنسرين	أربعمائة ألف دينار، وألف رطل من الزيت
دمشق	أربعمائة ألف وعشرون ألف دينار
الأردن	سبعة وتسعون ألف درهم
فلسطين	ثلاثمائة ألف وعشرة آلاف دينار، وثلاثمائة ألف رطل من الزيت
مصر	تسع عشرة مائة ألف دينار
برقة	عشر مآت ألف دينار
إفريقية	عشرة ملايين وثلاثون مائة ألف درهم، ومائة وعشرون فرسًا
اليمن	ثلاثمائة ألف وسبعون ألف دينار بجانب المتاع اليمني
الحجاز	ثلاثمائة ألف دينار

¹ الزقم نوع من الثمار

كان هذا المبلغ يأتي باسم الخراج وأما الجزية التي سنفصلها فيما بعد فهي زائدة عليه فكل ما كان يرد بيت المال ينقسم إلى أربعة؛ الخراج والعشر والجزية والزكاة.

لم يجعل المأمون قانونًا خاصًا بكل من الخراج والزكاة والجزية التي تسمى اليوم بالضريبة بل كان يعمل عمله ما كان وضعه من سبقه من الخلفاء العدل فلا محيص لنا لتفصيله من أن نلقي نظرة خاطفة على ما سبقه من العصور رجاء أن لا يعتبر القراء هذا المبحث من نوع ما لا يمت بالموضوع صلة. نعم فلا نتعرض للمباحث الدينية شيئًا فما نكتبه هنا سيكون نظرًا للتاريخ المحض فكما يتناول الكتاب الأوروبيون أمور الدين في سرد الأحداث العامة ولا يمكننا أن نفصل أعمال الخلفاء الشخصية عن الدين ولكن لا نفلح كذلك فإن الخراج والعشر أمران يتعلّقان بالأرض وأما ما بقي من الجزية والزكاة فهما مثل ضريبتين تؤخذان من المسلمين ومن غيرهم من الشعب. ولا شك في أنّ المأمون ومن سلفه من الخلفاء كانوا يستهدون النبي وأصحابه في نظم الدولة العامة وعلى هذا فلا تنذبذب في فرض أن يكون قانون الضريبة في عصر المأمون ما قد تم وضعه من قبل، ولكن ينبغي لنا أن نصرح أن العشر والخراج والجزية ليست مصطلحات دينية فلا نعتزّ بأنما ذكر في كتب الفقه من قوانينها وتفصيلها هي منصوصة أو ما اتفق عليها الخلفاء وسلطين الإسلام فلا شك في أن الخراج قد أصبح قانونًا مدنيًا وعلى هذا فكان الخراج والعشر والجزية تؤخذ حسب الموقع ولكن الدعوى بأن الشارع عليه السلام قد وضع قوانين خاصة لها شيء لا يمت بالواقع صلة فقد وكلت هي، حسبما حدث مع القوانين الوطنية الأخرى، على رأي السلطين القادمين وأوضاعهم وعلى هذا فقد وقع فيها بعض التغيير في مختلف عهود خلفاء الإسلام وسلطينه نظرًا لمصالحهم. والآن نسرد فيما يلي أشياء عن القوانين للخراج والعشر وهي التي عمل عليها المأمون في عصر خلافته:

1. الأرض التي يتم ربيها عن مياه الأنهار
2. أو الأرض التي قسّمت فيما بين الجيوش التي فتحوها
3. أو الأرض التي قد اعتنق أهلها الإسلام حين الهجوم عليهم¹.

¹ الجامع الصغير للكنز

ففي هذه الأوضاع الثلاثة تؤخذ العشر من تلك الأرض أي لا يؤخذ من أهلها إلا عشر ما قد حصده وهذا الذي يعتبر خراجاً منهم.

وما غير هذه من الأرض فهي تعتبر أرضاً يؤخذ منها الخراج كانت بأيدي المسلمين أم غير المسلمين فإن لم يحرق أحد أرضاً هي ذات عشر فلا يؤخذ شيء منه ولكن لا يحدث كذلك في أرض يؤخذ منها الخراج ولكنه إذا لم يحرق أرضاً لسنة ثم حرقها في الآخرة فلا يؤدّ إلا خراج سنة واحدة، والأرض التي بني فيها الدكاكين هي خارجة عن العشر والخراج وكذا إذا طرأت مصيبة على الحرق فهي أيضاً خارجة عن الخراج.

ومن بين الأقسام الأربعة المذكورة أعلاه لم توجد أرض العشرة إلا قليلاً فقد تم مسح سواد العراق في عصر عمر الفاروق وقد حدّت النسبة إلا أن فاتحي الشام قد أصرّوا على أن تقسم أرضها فيما بينهم ولكن عمر الفاروق مع جوده المعروف لم يأذن لهؤلاء الفاتحين فقد حكم بصورة منصوصة أن لا ينفي القاتحون الأول من هذه الأرض¹.

وكذا أرسل حكماً بالتأكيد إلى مصر بأن لا تسمح الجيوش السيطرة على الأرض وحرقها ولما حرق أحد الجنود مخالفاً هذا الحكم فأقبض عليه وهمّ بأن يعاقبه عقاباً شديداً لولا عرقها توبة نصوح قام بها².

وأحكام العشر والخراج تتشابه بالنسبة للمسلمين والشعب الذي لا يدين بالإسلام ويسمى "ذمياً" لأجل احتمائه بالإسلام فإن كانت أرض الخراج في قبضة أحد فتؤخذ الضريبة بنسبة موحّدة وقد اقترح الإمام محمد وسفيان الثوري بالنسبة لأرض العشر أنه بما أن مجرد نوع الأرض يلاحظ حين حكم الضريبة فإن كان مثل هذه الأرض في قبضة ذمي فلا يؤخذ منه إلا العشر³ وقد أخذ عمر الفاروق العشر من

¹ إزالة الخفاء، 128/2

² حسن المحاضرة، 93/1 (طبع مصر، 1299م)

³ فتوح البلدان، ص 6 (السطران: 9-10)

العدد الخاص مجلة الهند

النبط¹، وأما الإمام مالك فلو أنه يشتدّ مع الذميين في هذا الشأن ولكنه يرى رأي الإمام محمد عن ذمي يشتري أرضاً ذات عشر في مدينة أخرى أو قصبه.

لم تكن هناك نسبة محدّدة للخراج إلا أنهم قد لاحظوا عادة أن لا يتجاوز الخراج نصف الدخل.

قد قام عمر بن الخطاب بقياس كافة مدن السواد والذي بلغ ثلاثين مليوناً وستين مائة ألف جريب فقام بتحديد الضريبة حسب النسبة القادمة:

الواحة ²	بنسبة جريب أي ثلاثين ياردة تماماً	10/ دراهم سنويًا
العنب	بنسبة جريب أي ثلاثين ياردة تماماً	10/ دراهم سنويًا
قصب السكر	بنسبة جريب أي ثلاثين ياردة تماماً	6/ دراهم سنويًا
القمح	بنسبة جريب أي ثلاثين ياردة تماماً	درهم وصاع قمح ³
الشعير	بنسبة جريب أي ثلاثين ياردة تماماً	درهم وصاع ⁴
القطن	بنسبة جريب أي ثلاثين ياردة تماماً	5/ دراهم سنويًا

وقد حدّد خراج مصر دينارًا بنسبة جريب (أي خمس روبيات) وقد كتب عمرو بن العاص الذي⁵ عيّنه عمر بن الخطاب هذه الاتفاقية أن لا يزداد على هذه النسبة فلنفرض تنظيم مصر مستمرًا ولكن هذه النسبة نهائية وفي معظم الأحيان حدث تغيير فيها في عصر عمر الفاروق ذاته.

¹ إزالة الخفاء، 132/2

² وتختلف روايات الهداية عن فتوح البلدان فأخذتها من المصدر الأول

³ يعادل صاع حوالي سبعة كيلوغرامات

⁴ فتوح البلدان ص 215 و218 (طبع ليدن، هولند-12

⁵ انظر: فتوح البلدان، ص 266-271

العدد الخاص مجلة الهند

وقد قام عليّ رضي الله عنه بتنزيل آخر فيما فحدّد الضريبة في كل مدينة كان ربّها عن طريق الفرات ما يلي وعفى عن الخراج أمثال القطن والخردلة والمقائي وكافة أنواع البقول والخضراوات:

أرض ذات مستوى عالٍ تنبت القمح	بنسبة جريب	درهم ونصف درهم، وصاع غلة
أرض ذات مستوى وسط	بنسبة جريب	درهم
أرض ذات مستوى أدنى	بنسبة جريب	ثلثا درهم

وأما الأرض التي تنبت الشعير كانت ضريبتها نصف ضريبة الأرض التي تنبت القمح طبقاً لهذه النسبة¹.

ونحو هذا القدر من الخراج كان يجري في كافة الدول الإسلامية ولم يكن الذميّون مختلفين عن المسلمين في هذا الشأن إلا أن المهدي العباسي قد قام بحصد الزروع في أقاليم السواد بنسبة النصف على طلب شعبيها ولكن مأمون الرشيد قد نزلها إلى الخمسين في 204هـ².

كان الخراج خفيفاً لأن أتباع الإسلام قد بقي فيهم حتى الآن تأثير الإسلام السخي الخالي من الشح ولأن الفاتحين العرب قد نهضوا من البدو وقلبوا العالم ظهراً لبطن كانوا قنوعين بما حصل لهم، وكانوا هم الذين قد صالح رجل عظيم منهم كافرًا غنيًا للغاية على مجرد ألف درهم وهو في معركة دامية ولما قال له الناس: إنك صالحت على ثمن بخس فردّ عليهم هل هناك عدد زائد على الألف. ومن عجيب عادات الخلفاء الراشدين أنهم كانوا يلتزمون بما قد وافق عليه أحد منهم وفتوح الإسلام مليئة بمثل هذه الأحداث فقد صالحت الجيوش الإسلامية على أثمان قليلة في معارك أمصار

¹ انظر: فتوح البلدان، ص 266-271

² الكامل لابن الأثير (وقائع 204هـ)

إيران وأرمينيا ومصر والشام ومن ثم أبقاه الخلفاء الحاضرون ولو أن الخلفاء الأمويين والعباسيين قد زادوه شيئاً ولكنه لم يوزن فتيلاً بالنسبة لواقع الحصاد. كانت الزكوة خاصة بالمسلمين وكان قدرها مختلفاً بالنسبة للذهب والفضة والإبل والبقرة والشياه، والواقع أن هذه كانت ضريبة شديدة للغاية قد صبر عليها الإسلام على نفسه. كانت الجزية¹ مكتوبة على الذميين ولو كانت قدرًا قليلاً للغاية وأما بالنسبة للزكوة فهي لم تكن شيئاً ولكن من العجب العجيب أن الأجانب قد تسابقوا في اتهام المسلمين بالعصبية فهذا القدر الذي حينما يأتي ذكره يثير في قلوب المستشرقين اعتراضات متنوعة لم يكن إلا 48 درهماً على أحد منهم وهو ما يعادله 12 روبية سنوياً. وكان هذا خاصاً بأغنيائهم فإن أصحاب الطبقة المتوسطة كان عليهم خمس روبيات فحسب وأما الطبقة الدنيا فكان مبلغها ثلاث روبيات ولا غير شريطة أن يكونوا قادرين على أدائها مع أن الحاكم الحاضر كان له الخيار في تحفيفها أو العفو عنها أصلاً². وأما الأولاد والعجائز والنسوة والمشلولون والمعوقون والعمي فكانوا معفون عنها. وفي بعض الأحيان كانت الجزية مكتوبة طبقاً للأسرة وكان المبلغ حسبما مضى أي دينار أو أقل منه³، وكان على المسلمين أن يصونوا الذميين أموالهم وأنفسهم على هذا القدر القليل من الأموال.

والزكوة التي كانت تؤخذ من المسلمين فحسب كانت لكي تردّ على الفقراء والمعوقين والمساكين وأبناء السبيل وأمثالهم ممن لا معين لهم ولا ظهير. اشترطت عن الزكوة أن تصرف على المسلمين فحسب وأما الصدقات الأخرى التي كانت تؤخذ من المسلمين لم تكن

¹ وقد كتبت رسالة في أصل هذه الكلمة وتحديد زمن رواجها في الإسلام والهدف الذي أراده الإسلام منه، قد طبعت أخيراً ويمكن الحصول عليها بتقديم الطلب إلى سكتير، مدرسة العلوم كما ألحقها بهذا الكتاب.
² فقد عفي عن الجزية من جرجوسة وضواحيها زمن عمر بن الخطاب، راجع: فتوح البلدان، ص 159 وكذا عفي عن الجزية أهالي بلاد مارية القبطية، رجع: فتوح البلدان، ص 215
³ فقد أوجبت الجزية بهذه النسبة على أهالي تفلس زمن عثمان بن عفان رضي الله عنه، راجع: فتوح البلدان، ص 310

مخصّصة بالفقراء من المسلمين بل كانت مسموحًا ردّها على غير المسلمين كذلك فقد قرّر عمر بن الخطاب منحًا من بيت المال للمجذومين من النصارى في سفره إلى دمشق¹.

وكذا أمر ضابط بيت المال، بمناسبة أخرى، أن قوله تعالى "إنما الصدقات للفقراء والمساكين ---" أريد بالمساكين اليهود والنصارى² وأما ما بقي منها من الخراج والعشر والجزية فهي تختص بالأشغال العامة من ترميم الشوارع وحراسة الناس وأموالهم والمعارف وكذا هي تصرف على الجيوش.

وفي عصور مأمون الرشيد وغيره من سلاطين الإسلام الصالحين لم تكن ضريبة سوى ما مضى ذكره فضريبة الدخل وضريبة الصناعة وضريبة السير وضريبة التعليم وضريبة الحراسة وضريبة الطابع لم تكن إحداها معروفةً في تلك العهود الأولى.

وجيش التنظيم الذي كان اسمه وهيئته مضبوطًا في مكتب العسكر كان عدده مأتي ألف فارس وراجل فكان راتب فارس خمسًا وعشرين روبية بينما الراجل كان يحصل على عشر روبيات، وكذا لم تكن رواتب الجنرال والقائد أكثر منها بكثير وأما في الحكومات الآسيوية فكانت عيوتهم تحرص على الجوائز والوسامات أكثر مما تحرص على الرواتب، والتي كانوا يحصلون عليها بمختلف المناسبات السارة وكان المأمون أسبقهم في هذا المجال فذات يوم أعطى عبد الله بن طاهر قائد الجيش خمسمائة ألف درهم وكذا لم تكن رواتب المسؤولين كبيرة سوى رئيس الوزراء ذي الرياستين والذي كان يحصل على راتب شهري قدره ثلاثمائة ألف درهم. وكانت وظائف كل صنف مختلفة ومقسومة بإحسان ولكن لم تكن قيادة الجيش خاصة بالجنرال فقد كان يعتبر عامل الولاية قائد الجيش، فيحيى بن أكثم الذي كان موظفًا على منصب قاضي القضاة قد فوّض إليه المأمون قيادة الجيش مرارًا وتكرارًا، والواقع أن الشجاعة كانت أبرز خصائص المسلمين آنذاك ولم تكن هي خاصة بمن هو ليس بكاظم أو عالم. وكان هناك صنف آخر من الجيش يسمّى "منظوعة" فكان أعضاء

¹ فتوح البلدان، ص 129

² إزالة الخفاء، 83/2

العدد الخاص مجلة الهند

هذا الجيش حاضرين كل وقت احتيج إليهم ولاسيما إذا نودي بالجهاد فكانت البلاد كلها تجيب عليه. كانت الفروس والأسلحة تعطى لهم من قبل الحكومة التي كانت تمتلك قدرًا كبيرًا من الأسلحة في خزانتها في كل ثانية من ثواني الحكم.

ولما تم تفتيش خزانة السلاح في 193هـ بعد موت هارون الرشيد فوجدت أسلحة ما يلي من الأنواع¹:

السيوف المطلاة والمذهبة	عشرة آلاف	الشاكرية للأرقاء	خمسون ألفًا
الرماح	مائة ألف وخمسون ألفًا	الأقواس	مائة ألف
الدروع المطلاة	ألف	الدروع العامة	ألف
الخوذ	عشرون ألفًا	الجوشن	عشرون ألفًا
الأتراس	مائة وخمسون ألفًا	السرن المطلاة	أربعة آلاف
السرج العادية	ثلاثون ألفًا		

ولو أن عبد الملك بن مروان (ت في 86هـ) قد بدأ بالبواخر الحربية وأمره أقيم بتونس قسمٌ كبيرٌ لصنع هذه البواخر والآلات الحربية بمعونة من حسان بن النعمان عامل إفريقية² إلا أنه قد ازدهر كبيرًا في عصر المأمون فقد أرسلت مائة باخرة حربية مع آلاتها إلى جزيرة الصقلية وهي كلها قد تم صنعها في هذا المصنع، وكذا صنعت الحراقات التي كانت ترمي بقوارير من دهن النفط والتي كانت تحرق بوآخر الأعداء وهي لم تكن تفتأ حتى بالماء.

¹ انظر: ثمار الأوراق على هامش المستطرف، 272/1

² مقدمة ابن خلدون (ذكر قيادة الأساطيل)

كثافة البلاد السكانية، وأمنها وسلامتها، وتيقظ المأمون واطلاعه على أتفه الأمور، وعدله، وحقوق الأجانب

والواقع أنما نسمعه من أمن ونظم الدولة العباسية وازدهارها وسعة نطاقها قد جاء به الهارون والمأمون خلال حكمهما فقد كانت كافة أنواع التجارة حرة، وكانت المدن الجديدة تستعمر، وكانت الينابيع والأنهر جارية في كل قصبة بل في قرية صغيرة، والتي كانت تحفر على نفقات حاكمي تلك المدن، والإقطاعيين وهي التي بفضلها كانت الزراعة تترقى وتتقدم يومًا فيومًا.

قد مسح المأمون أمصار الدولة فنزل بكل منها بضعة أيام وأجرى أحكامًا لتنظيمها، فلما غادر المرو إلى العراق في 202هـ نزل لأسابيع بمدن سرخس وطوس وهمدان وجرجان ونهروان والري وغيرها من المدن واطلع على حالات الدولة الحقيقية وقد قال العلامة المقرئ في كتاب الخطط والآثار أنه لما مسح المأمون بلدات مصر كان ينزل بكل قرية ليلية واحدة على الأقل ولما وصل إلى طاء النمل فلم يبق به حسب المعتاد وتقدم من هناك. كانت تمتلك هذه القرية عجوزة فلما سمعت هذا النكر حضرته وسألته عن هذا الحرمان فنزل المأمون ضيفًا عليها فوقرت له كافة التسهيلات ولما أراد المأمون الرجوع قدمت إليه عشرة أكياس من الجنهات التي صنعت في سنة واحدة فتخير بها المأمون وقال إنما ضيفتني به كفاني فلم أذيت ذاتك فلا يمكنني أن أقبلها وأنا خليفة سخي؟

فردت عليه العجوزة إن الذهب تنميه أرض قريتي فما قدمت إليك لا يكبر بالنسبة لما عندنا فإني أمتلك أكثر مما قدمت إليك. إن هذا كما يدل على شيء فهو يدل على أن المأمون كان خليفة نظمه جيده ودولته غنية.

وقد حددت منح يومية لكل من معاقى المدينة وفقرائها وأراملها وبتامها، كانت تصل إليهم بصورة منتظمة من قبل بيت المال، وقد كان من أصول الدولة الأساسية أن يوظف حاكم منطقة من يحتاج إلى المال أو أن يحدد منحته من بيت المال.

وقد غفل المأمون خلال حكم خراسان، الأمر الذي قد لقي عاقبته لمدة طويلة ولذا فلما وصل إلى بغداد تبدل أسلوب حكمه فقد كلف بأن يطلع على كل صغير وكبير للحكم وقد قرّر ألفاً وسبعمائة عجوزة كانت تطوّف في المدينة طول النهار ثم تخبر الخليفة بما حدث أو ما يتوقّع حدوثه¹ إلا أن أحدًا لم يعرف عنهن سوى المأمون، وكذا قرّر كتاب سرّ وحدث في كل قسم² ولم يكن حدث مهمّ من الحكومة مختلفيًا عنه ولكن هذا لم يسفر عن سوء ظنه بالناس ومن ثم عن حرمان الكثير من الناس عن حريتهم فإن المأمون كان بريئًا عن هذا كله فإن تتصفح كل صفحة من حياته لم تجد شيئًا مما ينال من عزته وبالعكس من ذلك فقد قام أعضاء هذا القسم بتوجيه أنواع من النعم والعطايا إلى العدد الكبير من المحتاجين.

فذات يوم أقبض شرطي على أحد لكي يستخدمه بدون أجر فلما علم العامل عن الأهل استغاث عمر رضي الله عنه فلما علم عنه المأمون دعا الرجل وقال لو كان شعبي مثل شعب عمر لأوليت نعمًا أكثر مما قام به عمر ثم أعطاه جوائز وعطايا وعزل الشرطي عن خدمته³.

ذات مرة قدّم أحد طلبًا إلى المأمون يسأل فيه عن تحديد منحة له من بيت المال فدعا المأمون وسأله عن أولاده فزاد في العدد الحقيقي وبما أن المأمون كان عارفًا عن كل صغير وكبير من شعبه فلم ينجح المرء في كذبه فقدّم ذاك المرء الطلب مرة أخرى فأحصى عياله بالصحة والآن كتب المأمون على طلبه بأن تجرى له المنحة اليومية⁴. وكان يظهر لعامة الناس صباح كل أحد حيث لم يمنع أحدًا عن زيارته ولقائه وحيث أمكن لكل فقير أن يكون سويّ الأمر في معاملته.

¹ آثار الدول للقرماني (خلافة المأمون)

² ابن خلكان (ترجمة الفراء النحوي)

³ رسالة الحكم والآداب، ص 160

⁴ العيون والحدائق، ص 379

فذات يوم حضرت عجوزة بلاط الخليفة وشكت إلى الخليفة أن ظالمًا قد سلب عقارها فسأل المأمون عن الرجل ومكانه فأشارت إلى أنه في جانبه فرأى المأمون فوجده ولده عباسًا فأمر رئيس الوزراء أن يحضره أمامه ويقيمه مقابل العجوزة ثم سمع إلى كل منهما. كان عباس يتكلم ببطء وبخفض الصوت وأما العجوزة فهي كان صوتها يعلو وينطلق لسانها فأخلى الرئيس الوزراء وقال إن رفع الصوت وشدته أمام الخليفة سوء بالأدب ولكن المأمون سمحها بالكلام على أي طريق شاءت فالصدق قد جعل صوته شديدًا بينما الكذب جعل ولدي أبكم ثم حكم بحق العجوزة ورجع العقار إليها¹.

وحبّ المأمون للحرية قد جعل عمّاله يحبّون الحرية والاستقلال بالحكم.

وذات مرة ادعى أحد ثلاثين ألف ضد المأمون فاضطرّ المأمون إلى أن يحضر القاضي للرد عليها فجاء الخدّام بالسجاجيد وفرشوها له ولكن القاضي قال إنك والمدعي سواء هنا فلم يستأ المأمون من هذا بل زاد في راتبه الشهري².

وإن يمكن الاعتراض على جانب المأمون للوجود فهو أن شفقتة قد تجاوزت حدّ الاقتصاد، الأمر الذي قد شغفه عن أشغاله الشخصية فقد كانت الشعراء القادحون يقرضون القضاة في هجائه ولكنه لم يستأ من حديثهم وحتى قد كان خدّامه يسيئون إليه ولكنه لم يتوجّه نحوهم. فقال دعبل³ في بعض أبياته في هجو المأمون:

شادوا بذكرك بعد طول خموله واستنقذك من الحضيض الأهد

فلما سمع المأمون هذا الهجو لم يقل إلا "دعبل! تكذب هذا القدر، أفلا تستحي، هل كنت خمولًا يومًا ما فإني قد ولدت في حضانة الخلافة وارتضعت منها وترعرت في بحبوحتها"⁴.

¹ انظر: واسطة السلوك في أحوال الملوك، والعقد الفريد، 12/1

² المستطرف، 110/1

³ دعبل من أشهر شعراء زمنه في الهجاء

⁴ تاريخ الخلفاء للسيوطي، وابن خلكان (ترجمة دعبل)

العدد الخاص مجلة الهند

ذات يوم شكّا إبراهيم عمّ المأمون إلى المأمون أن دعبل قد تجاوز الحد فإنه هجاني ما لا يصبر عليه ولا يغفر له ومن ثم أنشد له بعض أبياته فقال المأمون "عبي! إنه هجاني أنك من ذلك وأشدّ وبما أني غفرت له فأرجو منك مثل ذلك" وقد كان البلاط كله قلقًا من هجو دعبل فقد أثار أبو سعيد المخزومي المأمون غير مرة على دعبل وأن لا يعفو عنه فقال له المأمون "إذا أردت الانتقام منه فاهج إياه إلا أن لا تقول سوى أنما يقوله دعبل ضد الناس ليس بصحيح".

وكان يكثر المأمون أن يقول إني أتلدّد بالعفو ما لو علمه الناس لأهدوا إليّ أنواع الظلم".

وما قدّمه المستغيثون من الطلبات بمختلف المناسبات ضد الوزراء والسلالة الملكية وحكام الدولة وعمّال الخليفة ثم أصدر المأمون أحكامه بكلماته الخاصة نودّ أن ننقل بعضها كما يلي¹ ولا نتعرض لجمل الطلبات سوى أن نشير إلى محتوياتها وأما الأحكام فهي بكلمات المأمون:

الطلبات	أحكام المأمون
فيما يتعلق بابن هشام	من علامات الشريف أن يخضع من هو أكبر منه وأن يضعف أمام من هو أصغر منه، فممن أنت؟
فيما يتعلق بهشام	لا تسمح الحضور في بلاطي ما دام الناس شكوك إليّ.
فيما يتعلق بأبي عباد	أبا عباد! لا علاقة بين الحق والباطل.
فيما يتعلق بأبي عيسى الذي هو شقيق المأمون	فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم.
فيما يتعلق بحميد الطوسي	أيا حميد! إن لم تحفظ التقرب إلى الله في الحق، فأنت والرقيق سيّان.

¹ ذكر هذه التوقيعات صاحب "العقد الفريد" تحت توقيعات المأمون

فيما يتعلق بابن الفضل الطوسي	لقد صبرت على سوء أدبك وفضاظتك ولكني لا أصبر على ظلمك مع الشعب.
فيما يتعلق بعمر بن مسعدة	أيا عمرو! عمّر ثروتك بالعدل فإن الظلم مما يدمره.

وبما أننا مشغولون بحكاية عدل المأمون فيجب علينا أن نلقي نظرة سارحة دقيقة على الثورات المتواصلة على حكمه فإن الناس لا يسوّيان العدل والثورة. والحق أن تاريخ حكم المأمون مليئ بمثل هذه المعارك ولكننا حدثنا بالصدفة وإلا فهو بريء عن مثل هذه الكرائه.

كان بلاط هارون الرشيد مكوّنًا من قومين مضادين؛ العرب والفرس، وانقسم هذا التراث فيما بين ولديه المأمون والأمين. كانت أمّ المأمون من العجم كما كان وزيره مجوسيًا حديث العهد بالإسلام، وما حصل عليه من الولايات حسب القسمة كانت من أجزاء العجم، فكان من اللازم أن لا يمسّ الحزب العربي أي شوب من الرحمة على المأمون فلما بدأت المعارك بينه وبين الأمين فقد أصابه النصب وفترت عزيمته ولكن ذا الرياستين الذي كان نديمه ووزيره كذلك لم يتولّى وفي النهاية تكّل بالنجاح لحسن تديره.

ولا شكّ أن المأمون قد وجّه إليه عنايته أكثر مما يرجى وجعله حاكمًا على كافة أمور الدولة وعلى هذا فقد سخط منه الحزب العربي إلا أن المأمون لم يطلع على هذه الحالة لما أن ذا الرياستين قد عرقلت قوته سبيل وصولها إليه.

والسادات الذين كانوا يزعمون أن الخلافة حق لهم ورثوها عن أبيهم، كانوا دائمًا يغتنمون فرصة الفوضى في البلاد وتوجيه القلق إلى الحكم ففي هذه الحالة لو رحمه أحد من العرب فكان أفراد الأسرة العباسية إلا أن المأمون قد فقد هذا الجانب لمجرد جعل الإمام علي رضا وليّ العهد فلم تزل الثورات تحدث وتشتدّ واستمرت هذه الثورات لمجرد أن المأمون لم يسعه التشديد على السادات. وبما أنه كان مفطورًا على

اللين والرحمة وزاد الطين بلة بما أنه قد شغف حباً لعلّي وأفراد أسرته فكان يحزّر هؤلاء الثائرين كلما أقبض عليهم، الأمر الذي قد زادهم شدة وعنقاً.

وما حدث غير هذه من الثورات هي من نوع الثورات التي تحدث وقتاً لآخر حين الحكومة الفردية فليست أي حكومة آسيوية خالية من مثل هذه الفتن اليومية وزد على هذا عدم وجود قانون يقول بنزع الشعب عن أسلحتهم فكان الشعب والحكومة قوتان تقابل بعضهما البعض.

ولنضف إلى هذا شيئاً آخر أن من تولى كبر هذه الثورات كانوا من العرب الذين ما زالوا قومًا لم يقبل قيد غيرهم ولعلمهم يكونون أحرارًا كما هم اليوم فيمكن لمعترض أن يتهم المأمون بأن قتل ذي الرياستين قد كان مما شاءه المأمون ولو أنه قد شيد حكومته وقواها ولكننا نسأله عن الحل فلم يتخلّف ذو الرياستين عن ممارسة ظلمه ضد العرب ولا كان للعرب أن يخضعوا له فأن الوقت أن صعب بقاء الخلافة ووجود ذي الرياستين معًا فلا شك أن المأمون قد فدى الخلافة بذوي الرياستين فإن كان هذا شيئاً من الاتهام فلا نحب تبرئة المأمون عن هذه التهمة كما لا نردّ على السؤال: لم أمر بقتل من ارتكب قتل ذي الرياستين؟ لعل مثل هذه الأشياء سائغة طبقاً لمعنى السياسة الواسع.

ذات مرة خاطب المأمون أحمد بن داؤد فألقى خطاباً سياسياً بحتاً يجمل بنا أن ننقله بهذه المناسبة. إنه قال إنما يفعله الملك بأخصّ أعضاء حكومته لن يغفر له الشعب فهم يرون أنما وجهه الوزير أو القائم بأمر الدولة من أنواع الوفاء لن يمكن للحكومة أن تؤدّي ذمتها فهم يرون بدون وعي ولا فكر أنما قام به الملك قد كان لأجل حسده أو ضيق خاطره إلا أنهم لا يعرفون أن بعض أفعاله هي التي ستدمر الحكومة ذاتها فالآن يحيط بالملك ضرورتان؛ أنه لن يبوح بهذا السرّ للشعب ولا أن يغفر لوزيره أو القائم بأمر دولته وعلى فهو يضطرّ إلى ارتكاب ما لا يسوغ له وهو يعرف أنه لا يغفر له من قبل خواصّه دعه من قبل شعبه ولكن الضرورة لا تعبأ باعتراض

أحد واتهامه¹ فقد كانت قوة الحكومة الفردية قائمة على ساق وقدم إلا أنه ليس بمحدث لهذه البدعة وإن كان له الخيار فأمكن وجود ثورة مفيدة آنذاك فقد أثبتت بنو أمية وبنو العباس بأعمالهم أن الخلافة شيء ورثوه من أبيهم فالمأمون أول خليفة أحب أن يقضى على هذا القانون الظالم ولو أنه لم ينجح فيه فوا أسقًا. إنه قد اختار رجلًا مصطفى لولي عهد الحكومة عن طريق بحثه الطويل وتجربته الجميلة²، لم تكن له صلة بأسرة الخلافة بل كانت بين أسرته وبين بني العباس مخاصمة موروثية، الأمر الذي قد أثار بني العباس فسببوا الثورات المستمرة في كل أنحاء الدولة، وأما المأمون فقد قام بما هو يمكن القيام به على يدي رجل جدّي مرهف الشعور.

فلما ستم ولي العهد وعلم المأمون حق اليقين أن الأسرة التي لم تزل تتولّى العرش منذ قرن ونصف قرن لن يمكن لها أن تنعزل عن حقها المزعوم فاضطرّ إلى القيام بما لم يزل يفعل أسلافه إلا أنه قد اختار لها شقيقه بدل ولده، والذي كان يستحقّ إدارة الحكومة.

وهذا دليل على علو همته وإخلاصه للحكومة لا يوجد نظيره في التاريخ الإسلامي كله فلو أن أولاده لم يكونوا جديرين بأن يمارسوا الحكومة ولكن أخاه الذي سمي فيما بعد بالمعتصم بالله كان أجدر أفراد أسرته بالحكم.

وما تمتعت به الأقوام الأخرى من الحقوق في عهد المأمون لن يمكن لحكومة أيًا كانت ثقافته أن تعطي أكثر من هذه الحقوق فقد كانت اليهود والمجوس والنصارى وحتى الملاحدة أحرارًا في حكومته فقد بني العديد من الكنائس والصوامع الجديدة في عاصمة الحكومة والتي كانت تعلي صوت الناقوس ليل نهار وكان بلاطه يضحّ بعلماء ومهرة كل الأديان والمذاهب وكان المأمون يكرمهم ويعلي قدرهم فكان جبريل بن بختيشوع طبيبًا نصرانيًا والذي أمر عنه كلّ حاكمٍ جديدٍ بأن يحضر داره قبل تولّي الحكم³.

¹ رسالة الحكم والآداب، ص 60

² أريد به علي الرضا عليه السلام

³ انظر: طبقات الأطباء (ترجمة جبريل بن بختيشوع)

العدد الخاص مجلة الهند

والكلية التي أسسها في خراسان كان مديرها رجلٌ نصراني يسمّى يسوع¹ ويكفيينا القصة القادمة دالة على براءته من أي شوب من العصبية وهذا نموذج يفقد مثيله لدى أي دولة مثقفة.

عبد المسيح الكندي الذي كان عالمًا نصرانيًا ومحتلًا على منصب حكومي كبير كان صديقًا حميمًا لأحد أعزة المأمون. فكتب هذا الهاشي إلى عبد المسيح بكلمات لطيفة للغاية قائلاً بأنه لو اعتنق الدين الإسلامي لكان خيرًا فإني متأسف عليك أنك لم ترغب حتى الآن في دين حق كالإسلام فما كتبه عبد المسيح من الرد عليه لن يمكن تقديره ما لم يره أحد بعينه فإنه كتب كلمات عن النبي محمد وكتابه العزيز وأصحابه الكرام لو سمعها أحد لفقد الصبر وقد نشر الردّ الذي هو في صورة رسالة أخيرًا من مطبعة غلبرت ورونغتن، لندن. إني قد قرأتها وإني متيقن أن كل من يراها يقشعر قلبه فإن كان عبد المسيح حيًا في يومنا هذا فلم يفلت من قانون الجزاء الهندي فلما عرضت هذه الرسالة على المأمون قال: إن الدين الذي ينفع العالم فحسب هو دين الزرادشت، والذي ينفع في الآخرة فقط هو دين المسيح وأما الدين الذي يفيد في الدنيا والآخرة كليهما فهو دين الإسلام وليس إلا².

¹ Encyclopedia Britanica (مأمون الرشيد)

² ومن الأسف أن الكتاب الأوروبيين لم يقتنعوا ولم يزالوا يشنون غارات في كتبهم التاريخية على خلفاء الإسلام وسلاطينه، تتعرض للإسلام أصلًا. وبالرغم من المؤرخين الذين لا يعرفون عن الإسلام وأتباعه شيئًا فيقول السيد بامر الذي نعترف بعربيته وقد طبعت مجموعة كلامه العربي والفارسي أخيرًا في تاريخ هارون الرشيد (ص 224): قد أرسخ حواشيه الأراذل في ذهنه بل كان يرى كافة المسلمين في ذلك الزمن وحتى يرى بعض المسلمين اليوم أن الكافر لن يعتبر ممن خلقه الله". لا أدري لم اجترأ السيد بامر على مثل هذه الاتهامات التافهة في كتابه العادي الذي يفتخر به والذي هو بين أيدينا فلو تذكّر السيد بامر هذا لكان خيرًا له أنه لما وهبت دنيا الله للمسلمين الفاتحين فمن كتب اتفاقية لصيانة الآلاف من الكنائس والصوامع كانوا هم الخلفاء الراشدين الذين قد اعتبروا هداة للمسلمين في عصر ومصر فهل عمر بن عبد العزيز الذي أمر العامل على دمشق بأن يهدم ما أضافه الوليد من خراب الكنيسة ويسمح النصراني بأن يبنوا كنيسهم من جديد (كان ببغداد عدد كبير من الكنائس ولكن إنما ذكرنا ما برز منها فقد كانت هناك كنائس خاصة بالأعياد

المعيّنة، كان يجمع فيها النصارى بتلك المناسبة فكانوا يؤدون تقاليدهم بكل حرية) هل سَيّ عمر الثاني وهل لم يكن نائب المسلمين الحق للآلاف من المسلمين؟ وهل لم تبين المآت من الكنائس في بغداد في عهد العباسيين خاصة، كانت يتمّ فيها أداء التقاليد الدينية بكل حرية؟ فنقول للسيد بامر وأشياعه من الكتاب: إذا شكّوا في صدق قولنا فليقرأوا دير الروم، ودير الشمولي، ودير الثعالب، ودير دير ورشا، ودير مالس، ودير سمالو، ودير الغداري، ودير العارضية، ودير الزرقية، ودير الزندرود في معجم البلدان (125/4) ولقد كان رئيس وزراء عضد الدولة الديلي الذي كان رئيس الأسرة الديلمية ومالك نصيب خلافة بغداد ابن نصرانيّ تسمّى النصر بن هارون وهو الذي بنى كنائس وأديراً في كافة أنحاء الدولة الإسلامية بأمر خاص من قبل عضد الدولة (راجع: روضة الصفا، وحييب السير (ذكر سلطنة عضد الدولة).

ولا شكّ أنه قد مضى فيما بين المسلمين رجال متعصّبون قد كانوا يؤذون حرية الأديان الأخرى ولكن أمرهم أمرٌ ذاتيّ ولن يمكن به تقدير الجوّ العام في الدولة ونعلم جيداً أن علي بن سلمان العامل على مصر قد أمر بهدم كافة كنائس مصر ولكنه بالرغم من هذا فنلعم حقاً أن عيسى بن موسى العباسي والعامل على مصر في 171هـ قد أمر ببناء تلك الكنائس المنهدمة من جديد على نفقة بيت المال (راجع: النجوم الزاهرة في تاريخ مصر والقاهرة، وقائع سنة 171هـ) وما كان الرجال الغير المسلمين يتمتعون به من الوظائف الحكومية هل حكومة أخرى غير الإسلامية تعطي مثل هذه الوظائف أو ما فوقها للرجال المسلمين أو لرجال الدين الأخر غير دين الحكومة؟ ولنجدن في تاريخ ابن خلكان وفوات الوفيات عدداً من اليهود والنصارى كانوا يحتلون مناصب ووظائف كبرى بمختلف المناسبات فقد كان ديوان الشام والعراق منذ فجر الإسلام حتى عهد عبد الملك بن مروان باللغتين الرومية والفارسية وكان يحكم على هذا القسم رجال أديان أخرى خلال هذه المدة الطويلة، وليعلمن كل هندي ما جاد به أكبر وجهانغير من العطاءات والجوائز والرخص للرجال الغير مسلمين ولو ننظر في ضوء التعامل اليومي فبنجدن كل صفحة من صفحات التاريخ الإسلامي مليئة بالشواهد العديدة بسعة صدورهم وتفتّح أذهانهم فالمآت من العلماء اليهود والنصارى الذين كانوا في أبلطة العباسيين كان يختلط بهم الخلفاء اختلاط الصديق بصديقه فجيريل الذي كان عالماً نصرانيّاً كبيراً قد تمّتع بجانب نيل ما لا يحصى من العقارات من قبل الخليفة بأن يقدّم كُ من يريد لقاء الخليفة طلبه هذا إليه أولاً وأما ولده بختيشوع فقد بلغ في جاهه وملبسه ما أهله ليضاهي بالخليفة المتوكل بالله (اقرأ ترجمة جيريل وبختيشوع في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة) وكان الخليفة المعتصم بالله يعود بنفسه الحميم سلمويه حينما أصابه المرض ولما توفّي لم يتناول الطعام لمدة 24 ساعة وأمر بأن توضع جنازته في دار الخلافة ويصليّ عليها أعزته وأقرباؤه على طريقة النصارى بالمرافقة مع العطريات والشمع وكذا لم يسمح في بلاط

وعلى هذا وذلك فلا نبزئ تاريخ المأمون ونخاف أن القرءاء سينسون كافة خصائص المأمون الدينية حينما نتحدّث عن جنونه الديني تجاة قضية خاصة.

ذوقه العلمي، ومراصده، وقياس الأرض، وترجمات الفلسفة والحكمة، ونشر العلوم

ولو أن النزاع العائلي والثورات العنيفة وخطوب الروم وأثقال النظم كانت أشغالاً لم تعط قلب وذهن المأمون الفرصة ولكن هذه كلها لم تغلب ذوقه العلمي فلما ذهب إلى مصر رحّب به أحدٌ وقال: اليوم تحت سلطتك العراق والحجاز والشام ومصر وزدّ على ذلك كونك ابن عمّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم" فقال المأمون: نعم، ولكن بقي في خاطري أمنية أن يجتمع في الجلسة العامة الشغوفون في الحديث ويجلس أمام المستملي فيسألني عن الحديث فأخوض في روايته عن حماد ---" وذلك لأنه قد بلغ غاية العلوم الإسلامية في صغره والآن قد مال إلى الفلسفة فقضى ليله ونهاره في الحصول عليها ويمكن لنا تقدير ذوقه العلمي من أن أكاماه كانت عليه طغراء الصورة الخامسة للمقالة الأولى لأقليدس لما أنه كان يحبّ هذه الصورة وعلى هذا

الخليفة المعتضد بالله للجلوس سكى الوزير وثابت بن قرّة الذي كان من الصابئين فذات يوم كان المعتضد بالله وثابت بن قرّة يتنزهان ويد أحد في يد الآخر فنزع المعتضد بالله يده فجأة ففزع ثابت فقال المعتضد: لا تفزع، كانت يدي على يدك فلم أصبر على هذه الجرأة فينبغي أن تكون يدي العالم فوق يد غيره، وفي البدائة تلقى المسلمون العلوم والفنون على تلك الأقسام التي ولما بلغوا درجة الأستاذية فنشروا تلك العلوم والفنون التي نالوها وأدوا حق التلمذ وما حفظه التاريخ من إخلاصهم وصدائقتهم الحميمة يسحر القلوب ويبهت الأبصار فالعلامة شريف الرضي الذي كان رئيساً لفرقة كبيرة من فرق المسلمين قد رثى أبا إسحاق الصابي بقصيدة محزنة لو كتبها رجل من أشياعه لما بلغ تلك الفصاحة والبلاغة وهل تظنّ فوق هذا أنه كلما مرّ العلامة بقبر هذا الصابي نزل من مركبه ومر به راجلاً (انظر: نامه دانش وران للناصرى، ترجمة أبي إسحاق وقد نقلت فيه بعض أبيات هذا الرثاء) وتأسف على أننا قد أطلنا الحديث ولو رجّحنا الإيجاز فليعف عنا القرءاء وليتقنوا أن الذي أرنا الردّ عليه كان السيد بامر وأشياعه ولا غير.

فتسّى هذه الصورة بالعربية بالصورة المأمونية، ولعل المأمون يتميز عن خلفاء الإسلام باشتهار مصطلح علي على اسمه.

كان بيت الحكمة الذي أقامه هارون الرشيد يعمل عمله فكان يوظّف فيه المترجمون من الفرس والنصارى واليهود والهندوس وكانوا يشتغلون بتأليف وترجمة الكتب عن فنون الحكمة ولكن التراث العلمي الذي قد تجمّع فيه لم يكن يكفي لإبراد غلته العلمية.

ففي ليلة رأى في المنام أن رجلاً مكرّماً يتشرف على العرش فتقرّب إليه المأمون وقال: ما اسمكم المبارك؟ فقال الرجل: أرسطو، فغمر المأمون السرور وقال: سيدي! أي شيء أحبّ في العالم؟ فردّ عليه أرسطو المزعوم: ما يرجّحه العقل، ثم طلب منه المأمون أن ينصح له فقال الرجل: لا تدع التوحيد وصحبة الصالحين¹.

كان المأمون كلفاً بالفلسفة فزيارة أرسطو زادت النار لهباً فكتب إلى قيصر الروم أن يرسل إلى دار الخلافة كل ما يمتلكه من كتب أرسطو، وكان هذا في زمن حيث كانت رسالة الخلفاء الإسلاميين تعمل لدى قيصر والفغفور عمل الأمر فكشف قيصر عن ساق الجد للامتثال بما قال له المأمون إلا أن الفلسفة قد كادت أن تموت في حدود الروم فبذل كافة جهوده في البحث عنها حتى ظفر براهب أعلمه بما أن هناك داراً في اليونان مقفلة منذ عصر قسطنطين وزيد قفلها كلما جاء ملك فقد أمر قسطنطين بجمع كتب الفلسفة من كل مكان وبقتيتها في هذه الدار مخافة أن تضرّ بالنصرانية لو حصلت الفلسفة والحكمة حرية ما.

فقد تمّ فتح هذه الخزينة ذات الضرر فوجد كتب عدة ولكن في جانب آخر خطر ببال قيصر أن هذا الجود العلمي مع المسلمين يمكن أن يمسّ جانبه الديني فسأل حواشيه الذين سمحوا له بهذا وذلك فإن الفلسفة تخمد حمية المسلمين الدينية لو نشرت فيما بينهم فاهتبل قيصر هذه الفرصة وأرسل خمس إبل من كتب الفلسفة إلى المأمون ومن ثم أمر المأمون يعقوب بن إسحاق بترجمتها العربية وكان إسحاق ماهراً في مختلف اللغات وفاقد النظر في البحوث العلمية، وكذا بعث بالحجاز بن البطريق سلما الذي كان مسئولاً

¹ ذكر هذه الرؤية صاحب كشف الظنون لدى ذكر الحكمة، والعلامة ابن أبي أصيبعة حين ترجمة حين بروايتين مختلفتين والرواية التي ذكرتها أخذتها من نامه دانس واران للناصرى.

عن شئون بيت الحكمة إلى الروم لكي يختار كتب الفلسفة ويجيء بها إلى دار الخلافة وهكذا أرسل الرسل إلى أرمينية ومصر والشام وقبرص وغيرها من البلاد وزوّدهم بملايين من الدراهم لكي يأتوا منها بما أمكن لهم من كتب الفلسفة. وفي هذا الزمن قد ورد قسطا بن لوقا فلسفي نصراني إلى الروم على نفقة منه خاصة وجاء منها بالعديد من كتب فنون الحكمة فلما علم عنها المأمون دعاه إلى دار الخلافة وعيّنه مترجماً في بيت الحكمة وكذا كان سهل بن هارون الفارسي يترجم علوم وفنون المجوس¹.

ولما شهد حواشي الخليفة هذه الرغبة الشديدة من الخليفة في الفلسفة فشمروا عن ساق الجد لهذا الهدف السامي فأرسل محمد وأحمد والحسن الذين كانوا من ندامي المأمون المخصوصين والمهرة في الهندسة والحيل والموسيقى رسلهم الخاصة إلى أطراف الروم وأمروهم بإتيان الآلاف من كتب الحكمة كما دعوا المترجمين من أقاصي البلاد وأمروهم بترجمتها على رواتب عالية، وهكذا جاد في هذا المجال جبريل بن بختيشوع (ت 215هـ) طبيب نصراني ومن كبار حواشي الخليفة.

ولقد صيّرته الهارون والمأمون بأنواع الجود والسخاء عاملاً مستقلاً بذاته للدولة².

والكتب التي تمت ترجمتها في هذا العهد كانت باليونانية والفارسية والكلمية والقبطية والشامية.

¹ قد ذكرنا هذا التفصيل كله في رسالتنا "مسلمانون كي گذشته تعليم" (تعليم المسلمين الماضي) فيبيناه هنا بتصريف قليل.

² وقد ذكر العلامة ابن أبي أصيبعة جدولاً مفصلاً لدخل جبريل ووجوه صرفه في تاريخه، الذي قد تم العثور عليه في خزينته بعد موته ولا نذكر بهذه المناسبة سوى بعض أسباب دخله التي ترينا لمحة عن سخاء الخلفاء العباسيين الذين جمعوا العلماء والفضلاء في أبلطتهم وأن الأمم الأخرى غير المسلمين كانت تشاطر المسلمين في تلك السخاء:

تفصيل الدخل: عشرة آلاف درهم شهرياً من القسم العام، وخمسون ألف درهم شهرياً من القسم الخاص، وخمسون ألف درهم شهرياً للملابس، وخمسة آلاف درهم شهرياً للأطعمة، وخمسون ألف درهم حين بداية شهر رمضان، وخمسون ألف درهم يوم الفطر، وخمسون ألف درهم يوم فصد الخليفة كل مرة، وخمسون ألف درهم مرتين في سنة لتقديم الدواء إليه.

وما كان يأتيه من قبل الأسرة الملوكية، وأبلطة الوزراء هكذا: خمسون ألف درهم سنوياً من قبل زبيدة، وسبعون ألف درهم سنوياً من قبل فاطمة، وخمسون ألف درهم سنوياً من قبل موسى بن جعفر، وثلاثون ألف درهم سنوياً من قبل إبراهيم بن عثمان، وستمائة ألف درهم سنوياً من قبل يحيى بن خالد البرمكي، واثنان عشرة مائة ألف درهم سنوياً من جعفر البرمكي، وستمائة ألف درهم سنوياً من قبل الفضل بن يحيى، وخمسون ألف درهم سنوياً من قبل الفضل بن الربيع.

وقد أهدى إليه الملوك والحكام الذين كانت بينه وبينهم علاقة ودية هدايا تشبه ذوقه العلمي وميله النفسي فقد أهدى أحد راجات الهند حكيمًا كبيرًا من دولته وكتب إلى المأمون: الهدية التي أرسلها إليكم لا تعادلها هدية أخرى من العالم، وقد كشف هذا الحكيم بطريق أو آخر عن وجود صندوق في بلاط كسرى، صين فيه مؤلف كبير من وزير أنوشيروان فأخبر الحكيم به المأمون وقال له أن يطلبه منه فجئ به فوجد فيه رسالة في مائة صفحة في الديبا فلما سمع المأمون لترجمتها تأثر بها كثيرًا وقال للفضل بن سهل مخاطبًا إياه: والله، هذا هو الحديث وهو ليس بما نقوم به"¹.

وكان الحجاج بن يوسف الكوفي وقسطا بن لوقا البعلبيكي وأبو حسان وسلمان وحنين بن إسحاق وسهل بن هارون وأبو جعفر يحيى بن عدي ومحمد بن موسى الخوارزمي وحسن بن شاکر وأحمد بن شاکر وعلي بن العباس بن أحمد الجوهري ويعقوب الكندي ويوحنا بن ماسويه وابن البطريق ومحمد بن شاکر ويحيى بن أبي منصور كانوا من بين أشهر وأبرز مترجمي ومسئولي بيت الحكمة في عصر المأمون، وكانت رواتب هؤلاء المترجمين الشهرية ألفًا وخمسين مائة درهم طبق الحساب الحاضر. بدأت عملية الترجمة في العصر العباسي من عصر الخليفة المنصور واستمرت لمدة طويلة بكل عناية ونشاط، ولا تتجاوز الحق لو قلنا أنه لم يبق تراث علمي متواجد في اليونان وإيطاليا ويسيلى والإسكندرية إلا وقد تمت ترجمته إلى العربية وهذه هي الميزة التي ترجع إلينا صدى سمعة العصر العباسي إلى كل بقعة من بقاع العالم.

إلا أن عصر مأمون الرشيد يتصدّر هذه الميزة فقد كان الخلفاء العباسيون أمثال هارون الرشيد والأمين والمعتصم وغيرهم من الخلفاء سوى المأمون عاثرين على العلوم الفلسفية ولكنهم لم يكونوا ماهرين فيها ولا يخفى الفرق بين من هو ماهر في شيء وبين من هو واقف عليه، وعلى هذا فلم يحدث ذلك الأثر الذي وقع في خلافة المأمون، وهذا من حسن الحظ أن مترجمي العصر المأموني كانوا حكماء ومجتهدين في العلوم والفنون بجانب كونهم متضلعين من اللغات فيعقوب الكندي الذي كان أبرز مترجمي بلاط

¹ واسطة السلوك (طبعة تونس)، ص 64-65

المأمون كان يضاهاى بأرسطو فى المسلمىن فقد كتب سللمان بن حنان أنه لم يشهر أحد بالفلسفى فىما بىن المسلمىن سوى يعقوب الكندى. إنه كان ماهراً متضللاً فى الطب والحساب والمنطق والموسىقى والهندسة والطبائع والأعداد والنجوم¹، وله مؤلفات ورسائل فى هذه العلوم والفنون، وقد ذكر العلامة ابن أبى أصبىعة فى كتابه "طبقات الأطباء" فهرساً جامعاً لمثل هذه الكتب والرسائل مما ىشمل 282 كتاب ورسالة وفىما ما هى قد كشف فىما القناع عن أخطاء وزلات حكماء الیونان وذكر الحالات الجدىة كما فىما رسالة فى آلة ىمكن بها تعین بعد كافة الأجرام وكذا كتب تركيب آلة أخرى ىمكن بها علم كافة المعائنات، وله رسائل أخرى فى غيرها من الآلات. وهذا من متطلبات العلوم الفلسفىة أن ىكون المترجم بارعاً فى العلم الذى ىقوم بترجمة كتابه إلى لغة ما، وعلى هذا فقد كتب أبو معشر فى كتاب المذكرات أن فىما بىن مترجمى الإسلام البارعىن أربعة؛ يعقوب الكندى وحنىن بن إسحاق وثابت بن قره وعمرو بن الفرخان الطبرى. وهذا من ميزات يعقوب الكندى أنه قام بجلّ معضلات الكتاب الذى قام بترجمته ومن هذا الجانب فتقوم ترجمات الكندى مقام الشروح لتلك الكتب.

ومصنفات يعقوب الكندى الخاصة التى فى المنطق قد بقىة مقررّة فى المنهاج الدراسى وهى كانت تدرّس فى كافة مدارس فارس وخراسان والعراق ما لم تنشر كتب ورسائل أبى نصر الفارابى، وممن نال شهرة دولیة من بىن تلامذة يعقوب حسنویه وسلمویه ونفطویه وأحمد بن الطیب وكان الأخير عالماً بارعاً فى علوم الفلسفة. إنه قام بتلخیص وشرح معظم مؤلفات أرسطو.

والمترجم الثانى من بلاط المأمون هو حنىن بن إسحاق² الذى نشأ وترعرع فى عهد المأمون. إنه بطل فى مجال الترجمة، تعلّم العربیة على خلیل بن أحمد البصرى الذى كان أول مدوّن للغات العرب وخالق فن العروض. تعلم الیونانىة فى بلاد الروم وثم لزم جریل بن بختیشوع ومن ثم وصل إلى بلاط الخلافة فعینّه المأمون على ترجمة الكتب وأنعم علیه من الذهب والفضة ما كان

¹ انظر: طبقات الأطباء (ترجمة يعقوب الكندى) فما كتبه عن هذا الحكيم قد أخذته عن هذا الكتاب الموثوق به والذي كتاب يفقد نظيره في الموضوع.

² لتنظر ترجمة حنين المشبعة في كتاب "طبقات الأطباء".

زائداً على راتبه الشهري فقد اشتهر عنه أن المأمون كان يزن كل كتاب مترجم له بالذهب إلا أن حنين قد صرح في إحدى رسائله عن الدرهم بدلاً من الدينار فقد كتب العلامة ابن أبي أصيبعة في كتابه "طبقات الأطباء" الذي أنشأه في 643هـ أنه قد رأى بعينه عديداً من ترجمات حنين التي نسخها كاتبه الأزرق والتي قد وضعت عليها طغراء المأمون الملكي. يقول ابن أبي أصيبعة إن هذه الترجمات كانت بخط جلي للغاية كما كانت أوراقها كدرة ولم تكن في كل صفحة إلا أسطر معدودة ولعل حنين كان قد فعل هذا عمداً بوعي لكي يزداد وزن الكتاب ومن ثم يزداد كيله من الفضة". وبجانب هذا فيعترف العلامة بأنه لو لم تنسخ هذه الترجمات على مثل هذه الأوراق الكدرة لما صينت إلى يومنا هذا. وكذا ضبط العلامة أسماء مائة كتاب وواحد وعشرين كتاباً لجالينوس ومحتوياتها ضمن كتابه ترجمته ثم قال إن هذه الكتب معظمها ترجمها حنين، وقد كتب حنين في رسالة عن تعداد مؤلفات جالينوس ثم أشار إلى الصعوبات التي واجهها في الحصول على هذه الكتب ومن ثم قام بترجمتها. إنه يقول إنه قد هام في جزيرة فلسطين ومصر والإسكندرية وكافة بلاد الشام في البحث عن "كتاب البرهان" ولكنه لم يجد سوى نصف مقالة في دمشق، وكذا قام المترجمون الأخر بترجمة كتب جالينوس مثل الطائ و ابن المكي والبطريق وأبو سعيد عثمان الدمشقي وموسى بن خالد إلا أن ترجمات حنين أكبر منها قدرًا فقد رأى العلامة ابن أبي أصيبعة ترجمات موسى بن خالد فيقول إن بينها وبين ترجمات حنين بوناً شاسعاً. وهذا من العجب أن حنين ذاته كان كاتباً فقد ضبط صاحب كتاب "طبقات الأطباء" فهرس مؤلفاته في ثلاث صفحات نصرف عنها مخافة التطويل.

وكذا قام إسحاق بن حنين وابن أخته جيش بترجمة بعض الكتب. ومعظم مؤلفات أرسطو قد قام بترجمتها إسحاق.

وكذا كان قسطا بن لوقا الفيلسفي من أمهر وأروع العلماء والعارفين للغات فيقول ابن النديم: كانت له مهارة تامة في الطب والفلسفة والهندسة والأعداد والموسيقى وكان يتكلم اللغة اليونانية بطلاقة. كانت له اليد الطولى في اللغة العربية كذلك. وقد قال العلامة ابن أبي أصيبعة إنه ترجم العديد من المؤلفات اليونانية إلى العربية كما قام بإصلاح الترجمات الأخرى السابقة وبجانب هذا فإنه كان عالماً وكاتباً فقد ذكر له العديد من المؤلفات في كتاب "طبقات الأطباء".

والكتب التي ترجمت في عصر المأمون ذاته ثم كتبت لها شروح وحواشٍ يحتاج عدّها إلى كتاب مستقل¹.

وكلما تعرّف المأمون على قضايا الفلسفة المهمة زاد رغبة وعلماً وميلاً إلى ترجمة المزيد من مؤلفاتها.

والكتاب الأول الذي كتب في علم الجبر في الإسلام قد تمّ على طلب من أشهر علماء هذا العصر محمد بن موسى الخوارزمي. يوجد هذا الكتاب إلى يومنا هذا وهو مرتّب جامع إلى حد ولو أن علماء الإسلام قد قاموا بكتابة المآت من الكتب في هذا الموضوع إلا أنهم لم يتجاوزوه في الأصول والمبادئ. إنه درس في كتب اليونانية للحكمة أن الدورة الأولى لكرة الأرض هي 24 ألف ميلاً.

وقد ظهر حسب التحقيقات الحديثة أن محمدًا وأحمد والحسن الذين كانوا من أخصّ ندامى المأمون وكانوا أنشط منه في نشر وإذاعة فنون الحكمة أمروا بأن يخرج المهرة في الهيئة بالمرافقة مع كافة علماء الهيئة إلى صحراء فيقيسوا كرة الأرض بمعونة آلات الرصد وأصول الحساب وكان ميدان سنجار الوسيح أنسب بهذه التجربة فقاموا في مكان وحدّدوا ارتفاع القطب الشمالي بالآلات الرصد ثم وطمّدوا به وتداً ثم وضعوا به حبلًا طويلاً وأقبلوا نحو الشمال ووطّدوا وتداً آخر حيث انتهى الحبل ووطّدوا به الحبل وتوجّهوا نحو الشمال وتوقفوا في مكان فرأوا عن طريق الرصد فوجدوا أن ارتفاع القطب الشمالي قد زاد درجة والآن مسحوا المسافة التي قطعوها فوجدوها 66 ميلاً وثلاثي ميل ثم توجّهوا من هنا إلى الجنوب ولم يزالوا موطمّدين الحبال ثم أخذوا ارتفاع القطب الشمالي فعلم أنه أقلّ درجة وهكذا فضربوا مسافة درجة في 360 درجة فإن درجة السماء تحدّد هكذا وطبق هذا المقاس نعيّن محيط الأرض 24 ألف ميل².

¹ ومن العجب أن صاحب كشف الظنون يرى جهود الدولة العباسية كلها دغ جهود مأمون الرشيد فهو يقول أثناء الحكمة: لم تترجم مؤلفات اليونان الرائعة والقيّمة إلى العربية وأما ما تمت ترجمته من كتبها فهي كانت مليئة بالأخطاء والزلات.

ولا أريد أن أقول هنا سوى أنه ينبغي لصاحب كشف الظنون أن يدرس تاريخ الخلفاء وطبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة يامعان النظر فيما مكاني أن أدلّ على الترجمة العربية للمآت من الكتب اليونانية.

² ابن خلكان (ترجمة محمد بن موسى)

فأول من بنى الرصد في الدولة الإسلامية ووقّر له أئمن آلات الرصد هو هذا الخليفة الشهير ولأجل هذا الغرض جمع كافة المهرة في فن الهيئة والهندسة من بلاده بجانب من وجد في بلاطه من الماهرين فيهما، وفي 214هـ بنى مرصدًا كبيرًا في الشماسية وضع مسئوليته على كواهل يحيى بن أبي المنصور ورأس المنجمين خالد بن عبد الملك المرذوقي وسند بن علي وعباس بن سعيد الجوهري وغيرهم من علماء الهندسة كما أمر بوضع آلات الرصد الثمينة وأمرهم باستخراج قدر ميل الشمس وخروج مراكزها ومواضع الأوج وأحوال العديد من السيارات والثوابت¹.

الزيج الذي اعتمد عليه حتى عصر المأمون كان الذي أعدّه محمد بن إبراهيم الفزاري ولكن رأس منجمي بلاط المأمون أبو جعفر محمد بن موسى الخوارزمي قام بوضع زيج جديد حسب التحقيقات الحديثة فاخترت الزيجات الأخرى وقد أخذ هذا الزيج من كافة زيجات العالم الموثوق بها وقد قرّر الأوساط حسب الزيج الهندي كما وضع التعديلات حسب زيج فارس وأما الميل فقد أخذه مما أدلى به شمس بن بطليموس وبجانب هذا فقد قام بالترتيب والتقريب حسبما أوجده هو بنفسه².

وكذا قام منجم آخر من بلاط المأمون بثلاثة زيجات وهو حبس الحاسب المرزي إلا أنها لم يشتهر منها سوى ما وضع حسب التحقيقات الجديدة وأهدي إلى المأمون ذاته³. وقد كفى لشهرة شيء في الحكومات الآسيوية أن يقدره السلطان ولكن عصر المأمون قد جمع إلى هذا أشياء أخرى غير هذا.

وحتى ذلك الوقت بقي في المسلمين عنصر عام للعزيمة والثبات وكان قلب كل امرئ منهم مليئًا بالحماس والأمنية فكانت هذه الطبائع النشطة لم تأل أي جهد في شيء أقبلت إليه وقد زادها حماسًا تقدير المأمون مؤهلاتهم وإعطائهم بالهدايا والجوائز،

¹ كشف الظنون (ذكر الرصد)

² انظر: جامع القصص الهندية (طبعة بن، فرنسا سنة 1380م)، ص 100

³ نامه دانشوران للناصرى، ص 11-12

وبما أن المأمون بذاته كان محققًا وماهرًا في الفن ولم يسهل لأحد أن يبرز في بلاطه فقد عمّ البلاد الكمال والنبوغ في كل مجال وميدان.

ولما وصل المأمون إلى بغداد في 204هـ أمر القاضي يحيى بن أكثم بأن يختار عشرين عالمًا بارعًا يجب عليهم أن يحضروا المجالس العلمية¹ وبعث إلى كل بقعة من بقاع دولته فجمع الأدباء والفقهاء والشعراء والمتكلمين والحكماء وقرّر لهم رواتب ملموسة².

والأصمعي الذي كان آية من آيات ربه في العلم واللغة وما نجده في لغات العرب خمسها مما روي عنه قد دعاه من البصرة وبما أنه اعتذر بضعفه وكبر سنّه فأمر بأن يراجع الأصمعي في أشكال وأصعب قضايا النحو والأدب التي عجز عن حلّها علماء البلاط وأدباؤه³ وكذا كتب إلى ملك اليونان أن يسمح الحكيم ليو لرحلته إلى دار الخلافة ولتعليمه الفلسفة وعوّض عن هذا التعليم بالصلح الدائم وخمس مائة كيلوغرام من الذهب⁴.

تدوين النحو: وأمر الفراء النحوي الذي يعدّ من أركان النحو بأن يكتب مصنّفًا جامعًا في النحو شاملًا لكافة الأصول ومستنبطًا من كلام العرب القحّ وأساليهم ولهذا الهدف السامي أفرغ حجرة من بلاط الخلافة وعيّن له خدماً ومساعدين كيلا يحتاج الفراء إلى أحد لأمر ما فلم يكن يزعم الفراء إلا وقت الصلاة، وحدّد العديد من الناسخين كي يكتبوا ما يعلمهم الفراء ويشير إليه فأنفق الفراء سنتين كاملتين وأعدّ كتابًا بسيطًا في النحو ثم أمر المأمون بأن تعدّ له نسخ عديدة وترسل إلى مختلف المكتبات وسوّى الكتاب بـ"كتاب الحدود" ثم أملى الفراء كتاب المعاني ويقول الراوي إنه لم يسعه عدّ من حضر مجلسه من طلاب العلم ورؤاده إلا أن القضاة كان عددهم ثمانين تقريبًا⁵.

بداية الشعر الفارسي: ومن أكبر ذكريات العصر المأموني أن الشعر الفارسي ابتدئ

¹ مروج الذهب للمسعودي (ذكر خلافة القاهر بالله)

² كشف الظنون (زيح حبش)

³ ابن خلكان (ترجمة الأصمعي)

⁴ Chamber's Encyclopedia، 347/1 (طبعة سنة 1860م)

⁵ امرأة الجنان لليافعي وابن خلكان (ترجمة الفراء النحوي)

العدد الخاص مجلة الهند

في عصره ولو أن القريض قد بلغ أوجه في فارس قبل وصول الإسلام إليه ولكن لا نجد من تلك القصائد والغزليات في كتب أصحاب التراجم الكبار إلا قطعة من القصيدة أو غزلية فهذه منة مأمونية على الأدب الفارسي أنه أحيى ذلك الشعر الميّت وبما أن لغة المأمون الأمّ كانت فارسية وأنه قضى طفولته في خراسان وأن شعراء العربية لم يكونوا إلا في البلاط لإنشاد القصائد والمنظومات بمناسبةات مختلفة فحرّض عالمًا كبيرًا فارسيًا وهو عباس المروزي على أن يقوم بإحياء هذا الشعر الفارسي الميت فقام المروزي بقرض قصيدة في مدح المأمون نذكر بعض أبياتها كما يلي¹:

اے رسانیده بدولت فرق خود بر فرقیدین گستراینده بفضل وجود در عالم یدین
مر خلافت راتو شایسته چو مردم دیدہ را دین یزدان راتو بستہ چورخ را هر دو عین
کس بدین منوال پیش از من چنین شعرے نگفت مر زبان پارسی راہست با این نوع بین
لیک ازان گفتم من این مدحت تراتا این لغت گیرد از مدح وثنائے حضرت تو زیب وزین
فانظر إلى أثر الحكم كيف سيطرت الكلمات العربية على لغة فصيحة منقحة منذ
آلاف سنة بحيث أن الشاعر الوطني يودّ من أعماق قلبه أن يحزّرها من صبغتها
ولكنه لم ينجح فيها.

علم الخط: قد نال علم الخط الذي يختص بآسيا، ازدهارًا كبيرًا وقد أوجدت طرق عديدة للخط قبل زمن المأمون فقد كان الخطّاط إسحاق بن حماد حيًّا في زمن المنصور والمهدي فقد أوجد تلامذته اثني عشر خطأً إلا أنه لم يقدّم أحد بوضع قوانين وأصول هذا الفن بل يمكن لنا أن نقول بأن هذا الفن لم يتمتع من الفتيّة حتى ذلك العهد فأول من قام بهذه المسئولية هو الأحوال الذي ضبط أصوله ووضع قوانينه وكذا أوجد وزير المأمون ذو الرياستين خطأً يعزى إليه ويسمّى بـ"القلم الرياسي".

¹ انظر: تذكرة مجمع الفصحاء وذكر عباس المروزي

فضل المأمون وكماله

جلسات علمية وتقدير العلماء والفضلاء

قد مضى ثلاثة عشر قرنًا أو أكثر على وجود الإسلام ولم يمض خليفة خلال هذه المدة الطويلة يضاهي بالمأمون في الفضل الكمال، وهذا من الأسف الشديد أن نسبته بالحكم قد ألحقته بالملوك والسلطين وإلا فهو من الرجال الذين يرحب بهم بكل عزة واحترام في كل جلسة من جلسات الشعر وأيام العرب والأدب والفلسفة. قد أرسل إلى الكتيّب وهو يناهز من عمره خمس سنوات وأما العلماء الذين قد عيّنوا لتعليمه وتدريبه كانوا من فضلاء عصرهم في مجالاتهم الخاصة.

اليزيدي الذي كان مسئولًا عن التربية بجانب التعليم كاتب كبير ، ومن أساتذته خليل البصري الذي هو أول مدوّن للغات العرب، وكتاب النوادر من مؤلفات اليزيدي، كان حيًا حتى 202هـ وكان دائمًا يستفيد من مرافقة المأمون. ومن أساتذة المأمون الآخرين الكسائي وهو من المجتهدين في النحو وكذا كان الإمام مالك الذي كان من أئمة علم الحديث، أستاذًا للمأمون في هذا العلم وفي يومنا هذا ربع أتباع المذهب السني يتبعونه.

ونودّ أن نعيد هنا ذكر أساتذة المأمون وأحاديث دراسته، ولنرّ مرة أخرى صفحات الجزء الأول تلك التي قد ذكرنا فيها مثل هذه الأحاديث. ويمكن تقدير جامعية المأمون وفضله وكماله من القصص الثابتة التالية التي قد ذكرناها من المصادر التاريخية الموثوق بها:

الفقه والحديث: ذات يوم تجمّع العلماء الأفاضل من كل علم وفن جاءت امرأة وقالت إن أخي قد توفّي عن ستمائة جنية ولكن الناس قد أعطوني جنمًا واحدًا في الميراث فحاسب المأمون في نفسه فوجد هذه القسمة صحيحة فقال للمرأة إنك وجدت ميراثك صحيحًا فتحيّر الناس كلهم من هذا الردّ المفاجئ فسأله العلماء فردّ عليهم المأمون: يمكن أن يكون للمتوفّي بنتان فوجدتا ثلثي الميراث أي أربعة مائة جنية كما يمكن أن تكون له أمّ حقها في الميراث سدس وهو مائة جنية وأما الزوجة فلها الثمن أي خمسة وسبعون جنيًا والآن بقي خمسة وعشرون جنيًا فقال المأمون للمرأة مقبلًا إليها: قولي صادقة هل لك اثنا عشر أخًا فصدّقته المرأة فقال لها المأمون إنهم وجدوا جنيين على حدة وهي بأجمعها أربعة وعشرون جنيًا والآن بقي جنية واحد وهو لك أيتها السيدة!¹

¹ تاريخ الخلفاء للسيوطي

ذات مرة حضر رجل المأمون وقال إني محدّث قضيت معظم حياتي في هذا المجال فسأله المأمون: كم حديثاً تحفظه عن هذه القضية فلم يقدر على أحد منها ثم ذكر المأمون أكثر من عشرين حديثاً في هذا الشأن بأسانيدھا عن هيثم والحجاج وغيرهما من المحدّثين ثم سأله عن قضية أخرى ولكنه لم يقدر على الرد ثم ذكر المأمون طرقاً عديدة كالسالف ثم قال لحواشيه مخاطباً إياهم: الناس يدرسون الأحاديث لبضعة أيام ثم ينسونها، نعم أعطوه ثلاثة دراهم¹.

قد برع في الأدب والشعر إلى حد كان الناس يعبرونه أستاذاً لهم ولقد حفظ عن ظهر قلبه قصائد شعراء الجاهلية ومعاصريه من الشعراء حتى ضرب له المثل في هذا الأمر. ذات مرة أثنى العلامة اليزيدي على الخليفة الواثق بالله وادعى أنه فاق كافة خلفاء العصر العباسي في حفظ الأشعار العربية فتعجب منه الناس وسألوه: هل فاق المأمون أيضاً؟ فقال اليزيدي: بلى، ولقد مزج المأمون الأدب بالنجوم والطب والمنطق إلا أن الواثق بالله لم يرغب إلا في الأدب. وكان المأمون شغوفاً بهذا إلى حد لم يعبأ بشئون الدولة حتى إنه قد حفظ ما قرضه دعبل في هجوه وكان يثني عليه بالنسبة لفصاحة بيانه. قد وهبه الله طبعاً متزناً إلى أن الناس كانوا يتعجبون من سرعة فهمه. ذات مرة قدّم إليه عمارة بن عقيل قصيدة ذات مائة بيت في مدحه فدلّ المأمون في بداية كل بيته على قافيته وصياغتها فتحير عمارة منه وقال: والله، إني لما أبّن عن أي بيت منها فقال المأمون: هل تذكر أن شاعراً لما أنشد قصيدة لعبد الله بن عباس فكان العباس ينشد عجز البيت قبل أن ينشده الشاعر. إني من أولاده². وكذا سأل المأمون ذات مرة محمد بن زياد الأعرابي الأديب والنسّاب الشهير: من أريد بطارق في قول هند التالي:

نحن بنات طارق

فطال تفكير محمد الأعرابي ولم يجد رجلاً من أسلاف هند فاعتذر أخيراً فقال المأمون: هنا أريد بطارق كوكب كما جاء في التنزيل: والسماء والطارق" فقد عزي الشاعر نفسه

¹ المصدر نفسه

² المصدر نفسه

إلى الطارق مفتخرًا بجوده فقال المأمون: هل هناك دليل على هذا؟ فقال المأمون: إني مجتهد الفن وابن مجتهد (مأمون الرشيد)¹. قال هذا ثم طرح غلة من العنبر كانت بيده فأخذها محمد وهي كانت تعادل خمسة آلاف درهم ورجع².

كان مروان بن أبي حفصة شاعرًا شهيرًا في زمانه. أعطاه المأمون على قسيده فرسًا خاصة وملبسًا وخمسة آلاف درهم وبما أن المأمون كان أجود من أبيه وأعرف منه بقدر الفضلاء فقرض مروان قسيده مدحية بهذه المناسبة ثم أنشدها للمأمون ولكن المأمون لم يتأثر به وعلى هذا فقد تعجب منه مروان وقال لعمارة بن عقيل بعدما غادر البلاط وسأل رأيه عن هذا لأني أرى أن المأمون لا يحسن فهم الشعر " فتعجب عمارة وقال: من يفوق المأمون في فهم الشعر؟ فقال مروان: إني أنشدت له هذا الشعر الرائع فلم يتأثر منه:

أضحى إمام الهدى المأمون مشتغلًا بالدين والناس بالدنيا مشاغيل

فقال عمارة: سبحان الله! هل ترجو التحسين على هذا الشعر. هل ظننت المأمون عجوزة تسبح في زاوية من زوايا بيتها فهل أحد سوى المأمون يتحمل عبء الدولة. فقال عمارة: الآن فطنت لزلتي³.

فصاحة المأمون وبلاغته: كان الناس يعترفون بارتجال المأمون فيقول ثمامة بن أشرس إني لم أر أحداً أفصح وأبلغ من جعفر البرمكي والمأمون.

وخطب المأمون تحفظ حتى الآن فتجد في كل جملة منها فصاحة البيان وبلاغتها وفطرتها ولو أن الخطب قد كانت فقدت شوكتها وأثرها مما كان يوجد في العصر الجاهلي وعصر صدر الإسلام ولاسيما أنها قد فقدت أهميتها بالمناسبات السياسية إلا بمناسبة الجمعة حيث يحاول الخطباء كل المحاولة لإثبات فصاحتهم وبلاغتهم ولكنهم لم يكونوا يقرءونها على الناس كما هي العادة اليوم وكانوا يلقون ما كانوا يلقونه عن ظهر قلب وبارتجال وستجد مثل هذه الخطب التي ألقاها المأمون في كتاب العقد الفريد وهي بنصها وفصها

¹ المصدر نفسه

² المصدر نفسه

³ المصدر نفسه

ولكني لا أرى في نقلها فائدة ما فإن القراء لا يعرفون العربية ولو قمنا بترجمتها فستفقد أثرها البلاغي¹. وأما عن جهة الشعر فإن المأمون كان شاعراً كبيراً وننقل فيما يلي بعض أبياته مما نقدّر بها لطافة أفكاره وروعة محتوياتها²:

¹ ننقل فيما يلي بعض خطبه فقال يخطب يوم الجمعة:

"الحمد لله مستخلص الحمد لنفسه، ومستوجبه على خلقه؛ أحمدته وأستعينه؛ وأومن به وأتوكل عليه؛ وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله؛ أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون. أوصيكم عباد الله ونفسي بتقوى الله وحده، والعمل لما عنده، والتنجّز لوعده، والخوف لوعيده؛ فإنه لا يسلم إلا من اتقاه ورجاه، وعمل له وأرضاه. فاتقوا الله عباد الله وبادروا آجالكم بأعمالكم؛ وابتاعوا ما يبقى بما يزول عنكم ويفنى، وترحلوا عن الدنيا، فقد جدّ بكم، واستعدّوا للموت فقد أظلمكم، وكونوا كقوم صبح بهم فانتبهوا، وعلموا أن الدنيا ليست لهم بدار فاستبدلوا؛ فإن الله عز وجل لم يخلقكم عبثاً، ولم يترككم سدى، وما بين أحدكم وبين الجنة والنار إلا الموت أن ينزل به، وإن غاية تنقصها اللحظة وتهدمها الساعة الواحدة لجديرة بقصر المدّة، وإن غائبا يحدوه الجديدان الليل والنهار لجدير بسرعة الأوبة، وإن قادما يحل بالفوز أو الشقوة لمستحق لأفضل العدّة، فاتقى عبد ربه ونصح نفسه وقدم توبته وغلب شهوته، فإن أجله مستور عنه، وأمله خادع له، والشيطان موكل به يزيّن له المعصية ليركبها، ويمنّيه التوبة ليسوّفها، حتى تهجم عليه منيته أغفل ما يكون عنها، فيا لها حسرة على كل ذي غفلة أن يكون عمره عليه حجة، أو تؤدّيه أيامه إلى شقوة؛ نسأل الله أن يجعلنا وإياكم ممن لا تبطره نعمة، ولا تقصّر به عن طاعة ربه غفلة، ولا يحل به بعد الموت فزعة، إنه سميع الدعاء، بيده الخير وهو على كل شيء قدير، فعّال لما يريد".

وقال بعد التكبير والتحميد:

"إن يومكم هذا يوم أبان الله فضله، وأوجب تشريفه، وعظّم حرّمته، ووقّق له من خلقه صفوته، وابتلى فيه خليله، وفدى فيه من الذبح ثم التكبير والتحميد، والصلاة على النبي صلّى الله عليه وسلم والوصية بالتقوى ثم ذكر الموت، ثم قال:

وما من بعده إلا الجنة أو النار، عظم قدر الدارين، وارتفع جزاء العاملين وطالت مدة الفريقين؛ الله الله، فوالله إنه الجدّ لا اللّعب، والحقّ لا الكذب. وما هو إلا الموت والبعث والميزان والحساب والصراط والقصاص والثواب والعقاب. فمن نجا يومئذ فقد فاز، ومن هوى يومئذ فقد خاب، الخير كلّه في الجنة، والشرّ كله في النار". (العقد الفريد، 4/192-195)

² قد جمعنا هذه الأبيات من فوات الوفيات، وتاريخ الخلفاء والكامل لابن الأثير والعقد الفريد

العدد الخاص مجلة الهند

لساني كنوم لأسرارهم ودمعي نموم لسري مديع
فلولا دموعي كتمت الهوى ولولا الهوى لم يكن لي دموع
أنا المأمون والملك الهمام ولكني بحبك مستهم
أترضى أن أموت عليك وجدًا ويبقى الناس ليس لهم إمام
بعثتك مرتادًا ففزت بنظرة وأغفلتني حتى أسأت بك ظنًا
فناجيت من أهوى وكنت مباعداً فيا ليت شعري عن دنوك ما أغنى
فيا ليتني كنت الرسول وكنتني فكنت الذي تقصى وكنت الذي أدنى
أرى أثرًا منه بعينيك بيننا لقد أخذت عيناك من عينيه حسنا

والاعتباط بالرسول موضوع كثير الحديث لدى الشعراء وقد وجدت أفكار لطيفة
سبيلها إليه فقد اغتبط عرفي بالرسالة ذاتها متجاوزًا عن الرسول فهو يقول:

بسوءٍ أو نفرستم پیام أزان ترسم كه بر حكایت من مطلع شود پیغام
ولكن من له ذوق حسن يفهم جيدًا كيف بين المأمون هذا المعنى بمختلف الطرق
وجاء بنكتة جديدة في كل المعنى.

ذات مرة تجمّع على خوان المأمون العديد من الضيوف الكرام يوم عيد الفكر، وكان
أكثر من مائة نوع من الأطعمة موضوعة على المائدة. كان المأمون يشير إلى خصائص
كل طعام بأن هذا مفيد لمن مزاجه بلغمي وأن هذا نافع لمن مزاجه سوداوي، ومن
يعاني من شدة الصفراء فليحذر هذا النوع من الطعام ومن يعتاد على تقليل الغذاء
فليأكل هذا الطعام. كان الحضور متحيرين من اطلاع المأمون على هذه الأنواع من
الأغذية. لم يصبر القاضي يحيى بن أكثم على هذا فقال فورًا: أمير المؤمنين! على أي
صفة منك نثني؟ فإن ذكر الطب فأنت جالينوس وقتك، وإن ذكر النجوم فأنت
هرمس زمانك، وإن ذكر الفقه فأنت تضاهاي بعلي المرتضى، وإن ذكر السخاء فأنت
تسبق حاتمًا، وإن ذكر الصدق فأنت كمثل أبي ذر الغفاري، وإن ذكر الوفاء فأنت

تسبق السمؤال" فلما سمع المأمون هذا الثناء الصادق غمره السرور فقال: نعم، كلما يتصف به المرء يناله بعقله وإلا فأى خصوصية تكمن في الدم واللحم".

حكم المأمون: ولا يخرجنا من الموضوع لو ننقل فيما يلي بعض أقوال المأمون الحكيمة، الأمر الذي يجعلنا نقدر أفكارها اللطيفة والعالية والسمة:

فهو قال: الشريف من صغر الكبار وصغر بنفسه للصغار، لا مشهد أمتع من مشاهد حرب العقول، أحبّ الفتح بالدليل أعلى من الفتح بالقوة، الناس ثلاثة؛ من نحتاج إليه كل وقت، ومن نحتاج إليه في بعض الأحيان مثل الدواء، ومن لا نتحمّله كالداء، لا يحسن عيّ الملك وأنكر من عيّ الملك أن لا يقدر القاضي على الفصل بين خصمين ويركب الخجل وأنكر من هذين ظرافة العجائز وكسل الشباب وجبن الجنود، أحسن جلسة ما يعرف فيها المرء على أمر صاحبه.

نكتة: كان المأمون شغوفاً بالشطرنج ولكن لم يكن ماهراً في لعبها فكان يكثر القول: إن المأمون ينظّم للعالم ولكن لا يقدر على توفير أرض قدرها شبران.

المناظرة والمباحث العلمية: وقد عقد المأمون مناظرة ادعى فيها أن علياً رضي الله عنه كان أفضل الصحابة كلهم. كانت مناظرة اشتمت فيها الحديث. كان يعارض هذه الدعوى القاضي يحيى بن أكثم وأربعون فقيهاً كباراً بينما المأمون كان يردّ عليهم وحده ولما بدئت المناظرة معي الفرق بين الحاكم والمحكوم وأعطى كل فرد حرية الكلام. استمر حديث المعارضين منذ الصباح حتى الظهيرة ولكن من الحق أن المأمون قد غلب عليهم. ذكرت هذه المناظرة كلها في كتاب العمدة والواقع أن هذه دليل حيّ على انطلاق فكر المأمون، وحدة ذهنه، وسعة اطلاعه، وروعة بيانه، وقوة خطابه.

دار المناظرة: ولو أن مجالس المأمون العامة لم تكن تخلو من الأحاديث العلمية ولكن يوم الثلاثاء كان خاصاً بالمناظرة، وكان أن علماء كافة المذاهب والملل كانوا يجتمعون لدية عند الضحى، وكان يحضر لهم مجلس متكلف فهم كانوا يجلسون فيه فيأتهم خادم ويقول لهم: لا تكلف لهم في هذه الجلسة ولكم الخيار في نزع الجوارب ثم توضع المائدة بمختلف أنواع الأطعمة والأغذية وبعد الفراغ من الطعام كانوا يتوضأون

ويدخنون بالعود وأنواع العطور ثم يدخلون دار المناظرة ويجلسون بجانب المأمون وركبهم ملتصقة بركبتيه وهكذا فتبتدئ المناظرة والمأمون خصم فيها إلا أن المتحدثين كانوا أحرارًا في حديثهم فلا يشعرون بأنهم أمام خليفتهم. تبقى هذه الجلسة حتى الظهيرة. وبعد زوال الشمس يتناولون الغداء ويرجعون بعدها¹. كان المناظرون في بعض الأحيان يتجاوزن حد الاقتصاد فكان المأمون يصبر عليهم بحلمه ومتانتته. ذات مرة كان محمد الصولي وعلي بن الهيثم أحدهما خصم للآخر وكلما طال الحدث زادا شدة وكدارة حتى اشتدَّ محمد الصولي على عليّ ووجّه إليه اللوم فغضب منه علي وقال: الآن تتكلم بلسان ليس لسانك وإلا لو كنت خارج هذه الجلسة لسمعت ضعف ما قلت لي". فلما سمع المأمون سوء الأدب هذا تغير لون وجهه ولكنه صبر على سخطه فقام ودخل الحرم كي يصفح عنه ولما زال عنه غضبه رجع إلى المجلس².

ذات يوم حدثت مناقشة لطيفة بينه وبين رجل ثنوي المذهب³ فسأله المأمون هل المرء يندم على خطأه يومًا من الأيام فأجاب الثنوي: نعم، فسأله المأمون: هل الندامة على الخطأ حبيبة أم بغیضة؟ فأجاب الثنوي: حبيبة فسأله المأمون: هل الخطأ صدر من المرء النادم أم من غيره؟ فأجاب الثنوي: من النادم ذاته فقال المأمون: فكما صدر الخطأ من رجل واحد فقد وقع الثواب منه ذاته فتحيّر الثنوي وقال: إن الذي ندم لم يرتكب الخطأ فسأله المأمون: فهل هو نادم على خطأه أم على خطأ غيره؟ فعجز الثنوي عن الردّ وسكت⁴ وكذا وقعت جلسة للمناظرة يومًا من الأيام فقال الحارس (چوبدار) إن غريبًا بالباب ويستدعي أن يناقش مع الجلالة فقال المأمون إن يأتي به فلما دخل دخل من حيث إن نعاله كانت بيديه وسرواله مرتفع فقام في صف النعال وأعلى صوته من هنا بالسلام فردّ المأمون عليه السلام وسمح له بالتقرب إليه فسأل المأمون: هل تولّيت على العرش بقوتك أم جعلك الناس خليفة فردّ عليه المأمون: لا حصلت عليها

¹ مروج الذهب للمسعودي (حلافة المأمون)

² الأغاني، 36/14 (طبعة مصر، 1285هـ)

³ فرقة تؤمن باختلاف خالق الخير عن خالق الشر

⁴ العقد الفريد

بقوتي ولا باتفاق الناس عليها والواقع أن الخليفة المسلم الذي سبقني وأطاعه الناس طوعاً أو كرهاً أخذ البيعة من الناس على طاعتي وقد وقّع عليه أركان السلطنة الإسلامية ولما توفّي خطر ببالي أن أجعل الخليفة من اتفق عليه مسلموا العالم كله ولكني لم أجد أحداً. هذا في جانب وفي جانب آخر احتجنا إلى رجل قوي لتنظيم الدولة وإلا فأمكن حدوث الخلل في الأمن والسلامة وتفزق شمل العظمة الإسلامية كلها فاضطرت إلى حمل هذا العبء الثقيل وبقيت منتظراً بمن يمكن إجماع كافة مسلمي العالم عليه فأفوض إليه عنان الدولة وأنعزل عن الحكم. إني أجعلك كفيلاً فإذا وجدت خبراً ما عن هذا الشأن فلا تتخلف في إعلامي به¹.

ذات يوم قال المأمون ليحيى بن أكثم قاضي القضاة: إني أودّ أن أروي الأحاديث على طريق المحدثين فقال القاضي: هل أحد أجدر من الجلالة بهذا العمل المبارك فوضع المنبر حسب العادة فعلا المأمون على المنبر ودرّس بصلاحية. إنه روى نحو ثلاثين حديثاً بكافة أصول الدراية ولكنه فطن من وجوه الحضور أنهم لم يتمتعوا من دروسه فلما نزل من المنبر قال القاضي يحيى: الحق أنكم لم تتمتعوا من هذه الدروس. الواقع أن هذا المنصب لا يستحقّه إلا من يترك الدنيا كلها ويلبس الملابس الكدرة². فإن قارنًا حبّ المأمون للصدق من رياء الإمبراطور أكبر وجهله الجاهل فوجدنا فرقاً عجباً يحير العقول.

ذات يوم عرض للمأمون رجلٌ ادعى النبوة وقد حضر هذه الجلسة العديد من العلماء المنجمين والمهرة في الهيئة ولكن لم يعرف أحدٌ أن هذا الرجل ادعى النبوة فأمر المأمون المنجمين أن ينظروا في الزيج فيخبروني هل هذا الرجل صادق أم كاذب فخرج الكل إلى الفناء وتفكّروا في الطالع فوجدوا الشمس والقمر في دقيقة بينما المشتري كانت في السنبله ومائلة إليها وكانت الزهرة والعطارد في العقرب وكانا مائلين إليها فحكم الكل: عسى أن يكون هذا الرجل صحيحاً في دعواه ولكن يحيى بن المنصور خالف رأيهم وقال إن المشتري في الهبوط وهي كارهة في البرج الذي هي فيها، الأمر الذي

¹ مروج الذهب للمسعودي (خلافة المأمون)

² تاريخ الخلفاء للسيوطي

العدد الخاص مجلة الهند

أزال سعادة هذا الطالع فلما انتهى الفريقان في قياسهما قال المأمون: هل تعرفون ماذا ادعاه هذا الرجل؟ إنه ادعى النبوة فقام الحضور وطلبوا منه المعجزة فقدم الرجل خاتمًا وقال: من يلبس هذا الخاتم فيجعل يضحك ولا يخرج من هذه الحالة حتى يخلع عنها وإن لبسته أنا فلا يؤثر في شيئاً كذلك وهكذا إنه قدّم قلماً لا يقدر على النسخ به سواه وثبت الأمران ففطن المأمون لبدعة الأمرين وإن يرجع الرجل عن دعوى النبوة الباطلة فسيكون خيرًا له ولحكمه.

جعله المأمون من نداماه وأنعم عليه إلى حدّ باح بسرّه وأبان ما كان في الخاتم والقلم من الإعجاز.

وأعطاه ألف دينار كجائزة ثم ألحقه بحواشيه¹. كان هذا الثنوي عالمًا ماهرًا للهندسة والهيئة وهو الذي أوجد طلسم الخناس الذي يوجد في معظم بيوت بغداد.

ذات مرة حضر المأمون النضر بن شميل (ت 203هـ) الذي كان تلميذ خليل البصري ومن أساتذة الحديث والفقه والنحو والغريب والشعر وأيام العرب وكان عارفًا بسداجة المأمون وعدم تكلفه. لم يغيّر ملابسه ودخل البلاط في ملابس بالٍ وعباء كدرة فقال المأمون: هل جئت يا نضر! للقباي في هذا الملبس الكدر فقال النضر: هذه هي الملابس التي تقينا شدة مرو فقال المأمون: هذه حيلة والواقع أنك قتيل القناعة ثم بدأ بعلم الحديث.

فروى المأمون حديثًا بسنده ولكن كلمة "سداد" التي كانت في ذلك الحديث قرأها بالفتحة فأراد النضر أن ينهيه على خطأه هذا فروى نفس الحديث بسنده فقرأ "سداد" بالكسرة. كان المأمون متكئًا فقعده مفاجئة وقال: هل سداد بفتحها خطأ؟ فقال النضر: نعم يا هشيم! قد أخطأ أستاذك في تعليمها إياك فقال المأمون: هل معناهما مختلف فقال النضر: سداد بالفتح السير السوي وأما بالكسر فهو عرقلة فقال المأمون: هل لديك سند؟ فأنشد النضر ما يلي من الشعر:

أضاعوني وأيّ فتنّ أضاعوا ليوم كريمة وسداد ثغر

¹ مختصر الدول (حكماء عهد المأمون)

فأطرق المأمون رأسه وقال: تبًا لمن لا يعرف الأدب" ثم استمع إلى الأبيات الأخرى ذات الموضوعات الشتى ثم كتب إلى رئيس الوزراء الفضل بن نوبخت حينما أراد النضر الرجوع "أعط النضر خمسين ألف درهم" فحمل النضر هذه الرقعة إلى الفضل ففتحها الفضل وقرأها فقال: أنت فتدت رأي أمير المؤمنين؟ فقال النضر: لا، بل إنما المخطئ هو الهشيم فأمرنا لا يتهم". فزاد الفضل ثلاثين ألف درهم على الخمسين ألف درهم من عنده وهكذا فقد ظفر النضر بثمانين ألف درهم على زلة دلّ عليها¹.

وكلثوم العتابي الذي كان يفتخر بغزارة علمه وتفوقه على الناس، وكان هو حرّياً بذلك، لما سمع عن تقدير المأمون للعلم وأصحابه بلغ بغداد وحضر البلاط فسأله المأمون عن حاله فتكلّم معه كلثوم بكلام فصيح مرتجل بهت المأمون وأمر بوضع ألف دينار أمامه ولكنه بما قد بقي حتى الآن امتحان ارتجاله وحسن قريضه فأشار المأمون إلى إسحاق الموصلبي مملّحاً أن يختبره في هذا الشأن فتقدّم له إسحاق وناظره وأمطر عليه شأبيب الاعتراض فتحرّر كلثوم من حدة ذهنه فاستأذن المأمون حسب المعتاد ثم توجه نحو إسحاق سائلاً عن نسبه وحسبه فردّ عليه إسحاق بأنه آدمي نسلًا واسمه كلبصل (كل+بصل) فقال كلثوم: نسبك واضح إلا أن اسمك من طراز جديد فقال إسحاق: كل بصل ليس بعجيب من كلثوم (كل+ثوم) والبديهي أن البصل أحسن من الثوم فتمتع كلثوم من هذه النكتة وطلب من المأمون أن ألف دينار التي وهبت لي لتهب لهذا الرجل الظريف ولكن المأمون ضاعف جائزة كلثوم وأمر بإعطاء إسحاق قدر ما أعطي لكلثوم².

ولو أن بلاط المأمون كان مكتظاً بالشعراء المشهورين الذين كانوا يحصلون على عطايا كبار منشدين قصائدهم وقطعهم بمناسبات مختلفة إلا أنه لم يغرّه القصائد المدحية في شأنه كما هي العادة لدى الحكّام والملوك الآسيوية ولكنه أراد بهذا الجود تنشئة العلم والفن والأدب، فكان يصغي إلى القصائد التي كانت تحتوي على

¹ تاريخ الخلفاء للسيوطي

² مروج الذهب للمسعودي (خلافة المأمون)

المعلومات العامة ولكنه لم يودّ أن يستمع إلى القصائد المدحية في شأنه إلا قليلاً وكان يمنع الشاعر قائلًا: هذا القدر يكفي الثناء علي¹.

كانت صحبة المأمون مع العلماء صحبة الصديق لصديقه فهو كان يكرّم الفضلاء في أي علم وفن وكان يمطر عليهم شأبيب جوده وسخائه فقد كتب الواقدي إمام فن السيرة ذات مرة وشكا فيه بؤسه وعدّد القروض التي كانت عليه فردّ عليه المأمون هكذا: فيك عادتان؛ الحياء والسخاء فقد فتحت السخاء يدك فبذلت ما كنت تمتلك وأما الحياء فلم تشر إلى حاجتك كلها. إني أمرت فسيصلك ضعف ما أشرت إليه وإن لم يكف هذا القدر حاجتك فهذا نقص قلمك القانع وإن كفاك فأنت مسموح في بذل ما بيدك وكيف شئت فلا قلة لدى الله فقد روي لي أن النبي صلّى الله عليه وسلّم قال لزهير إن مفاتيح الرزق في العرش فيرزق الله عباده قدر ما يبذرونه فإن بذروا فيعطيهم أكثر من ذلك وإن أظهروا الشحّ فلا يعطيهم إلا قليلاً". قد كان نسي الواقدي هذا الحديث فقد سرّه تذكير المأمون حديثاً نسيه هو ذاته أكثر مما سرّه العطايا التي وصلت إليه².

كان ولدا المأمون يتعلّمان على الفراء النحوي فذات مرة قعد عن التدريس لحاجة أجبرته فسعى الولدان لوضع نعاله كما يرام ولكنه بما أنهما وصلا إلى الموقع معًا فوقع النزاع فيمن يتشرف بهذه الخدمة وثم قضي على النزاع بأنهما اتفقا على أن يأخذا نعالًا على حدة ويضعاهما كما يرام.

قد عيّن المأمون الكاتبين على كل أمر وشأن فوصل الخبر إلى المأمون فورًا وطلب الفراء النحوي فخاطبه المأمون قائلًا: أي العالمين أكرم اليوم؟ فقال الفراء: من يكون أكرم من أمير المؤمنين فقال المأمون: الذي سعى ولدا أمير المؤمنين لوضع نعاله كما يرام ويقع النزاع فيهما بهذا الشأن فقال الفراء: قد خطر ببالي أن أمتع الأميرين عن تلك ثم دقّ بذهني أن أدعهما ليتشرفا بهذه الخدمة، وكذا أخذ عبد الله بن عباس

¹ الأغاني (ترجمة أولاد أبي محمد اليزيدي)

² ابن خلكان (ترجمة الواقدي)

نعال الحسين ولما اعترض أحد الحضور أنك أكبر منه سنًا فشدد عليه وقال: أيها الجاهل! اسكت، إنك لا تعلم قدره ومنزلته". وقال المأمون: لو منعتهما لأصابني القلق منك، لم ينل هذا العمل من عزتهما بل هذا دليل على شرفهما فطاعة الملك والوالد والأستاذ ليست مما يذل المرء. قال هذا ثم أعطى عشرة آلاف درهم لكل من الولدين على سعادتهما، والفراء على حسن تربيته¹.

أخلاق المأمون وعاداته العامة

شوكة الخلافة وجلسات التنعم

قد أجمع المؤرخون عن المأمون على أنه لم يمض خليفة عباسي أفضل منه حلمًا وعزمًا وعقلًا وتدييرًا وصورة وشجاعة وعلوًا في الهمة وجودًا، ولم يكذب المأمون في دعواه إذ قال: كان معاوية يتحمل عمرو بن العاص بينما يستاس عبد الملك من الحجاج، وأما أنا فأتحمل نفسي".

كان هارون الرشيد يكثر القول أني أرى في المأمون جزم المنصور وعبادة المهدي وشوكة الهادي وإن زيدت عليها صفاته من العفو والتواضع وعدم التكلف والسذاجة فسيحيط المأمون بفضله بكافة ملوك وحكام الإسلام دون الخلفاء العباسيين.

الحلم والتواضع: كان يقول المأمون إنني لأجد في العفو لذة لا أرجو الجزاء عليه فقد كان عبد الله بن طاهر يقول: ذات يوم كنت حاضرًا للمأمون فنادى الرقيق ولكن لم يجد ردًا عليه ثم دعا فلباه رقيق تركي وجعل يثرثر حين الحضور وقال: هل الرقيق لا يأكل ولا يشرب، إنك تعلي صوتك بيا غلام ويا غلام كلما تخرج لحاجة فهل هناك حدّ ل"يا غلام".

فنكس المأمون رأسه ولم يرفعه إلا بعد طويل فأيقنت أن الرقيق لا يغفر له اليوم ثم خاطبني المأمون وقال: هذا من آفات التواضع أن الخادم والرقيق يتجاوز حدّ الأدب ولكن لا يجمل بي أن أنسى شرفي وحسن معاملتي على سوء الأدب من قبلهم².

¹ ابن خلكان (ترجمة الفراء النحوي)

² المستطرف في كل فن مستطرف

ذات يوم كان جالسًا على شاطئ دجلة، وكان الوزراء والكتّاب قائمين بكمال الأدب وكان الستار قد وضع أمامه وكان ملاح يسير قائلاً: هل نكرّم المأمون الذي قتل أخاه فتبسّم المأمون من هذا القول وخاطب حواشيه قائلاً: أيها الحضور! هل هناك حيلة تجعلني مكرّمًا في عيني هذا الرجل الكبير؟¹

ولعل القرّاء تعجّبوا من افتخار المأمون بهذه الرحمة المتجاوزة حد الاقتصاد ولعل هذا لا يناسب شوكة الخلافة ولكن المأمون كان يفتخر بأنه يأذن لما يوجّهه الناس إليه من أنواع الأشتام فيغفر لهم².

وقد رثى حسين بن الضحّاك الشاعر الذي كان من ندامى المأمون، الأمين بكلمات رقيقة محزنة ولام فيها المأمون وهكذا سلّى نفسه فلما سمع المأمون هذه القصيدة أمر بأن لا يحضر البلاط مع الشعراء ثم دعاه بعد أيام وقال: قل ولا تكذب هل رأيت امرأة هاشمية تقتل أو تهتك عزته يوم قتل الأمين وفتحت بغداد فردّ عليه الحسين وقال: لم أر ولو امرأة ما فأنشد له المأمون بعض أبيات رثائه التي صوّر فيها مثل هذه الأحداث بكلمات رقيقة للغاية واتهم فيها بأن العذارى الهاشميات لم يقدرن على صيانة أعراضهن من أيدي الفاتحين الظالمين فقال الحسين: أمير المؤمنين! كانت هذه عاطفة لم أقدر على الإعراب عنها فلم يسعني التمييز بين الحق والباطل حين رثاء الأمين المقتول فإن عاقبتني فلك خيار وإن عفوت عنه فمن أخلاقك العليا³ فابتلت عيون المأمون وأمر بأن يجرى راتبه من جديد وكذا كتب هذا الحسين قصيدة وأرسلها إلى المأمون بيدي أحد خدمه. كانت القصيدة رائعة بالنسبة لأصول الشعر ولكنه قال للحاجب: ما يلي من الشعر أيضًا مما كتبه هذا الشاعر:

لا فرح المأمون بالملك بعده ولا زال في الدنيا طريدًا مشردًا

¹ تاريخ الخلفاء للسيوطي

² المصدر نفسه

³ الكامل لابن الأثير (فتح بغداد)

العدد الخاص مجلة الهند

فلما قرأ المأمون هذا الشعر قال للحاجب: قد سَوَى بين المدح والذم والآن لا يستحق الشاعر جزاءً ما" فقال الحاجب: فأين عادة الجلالة للعفو؟ فقال المأمون: نعم فليعط جائزة يستحقها هو"¹. وخرج الكوثر أحب أرقائه لرؤية مناظر الحرب زمن كان الأمين محاصرًا في بغداد فاتفق أن ضربت حجرة وجهه وتدفقت الدم فكان الأمين يمسح الدم بيديه وينشد ما يلي:

ضربوا قرة عيني وممن أجلي ضربوه
أخذ الله بقلبي ممن أناس أحرقوه

وبما أن قلبه الحزين لم يساعده لقول المزيد فأمر عبد الله الشاعر بأن يتمهما فكتب عبد الله أبياتًا منها:

من رأى الناس له فضل عليهم حسدوه
مثل ما حسد القائم بالملك أخوه

وهذا الشاعر المذكور أعلاه حضر بلاط المأمون بعد قتل الأمين كي ينال الجوائز بعد إنشاده قصائد المدح في الخليفة فتوجه المأمون نحوه وقال: كيف قلت ما يلي:

مثل ما حسد القائم بالملك أخوه
فارتجل الشاعر أبياتًا في الاعتذار فلم ينظر المأمون إلى جريمته السالفة وأمر بأن يعطى الشاعر عشرة آلاف درهم².

كان المأمون يدعي أن الجرائم مهما كبرت لن تزلزل رضوى كرمي وعفوي فقال لرجل أكثر العصيان على المأمون: إني أعفو عنك كلما ترتكب الجرائم حتى تصلح لآخر عفو يصدر مني". وقد وثق الناس بعفو المأمون إلى حد أنهم كان يقبلون أخطائهم بدون مخافة وسأل عبد الملك الذي قد سبقه العديد من الشكاوى: ما هي الحقيقة

¹ تاريخ الخلفاء للسيوطي

² المصدر نفسه

فأنكر عبد الملك أصلاً فقال المأمون: قد وصل إليّ خلاف ما تقول فقال عبد الملك: أمير المؤمنين! لو كان شئ كما تقول لقبته فإن عفوك ليعرقلن عقابك لنا فلم يفوتني ثروة الصدق¹. ولو أن المأمون كان يطلع على كل صغير الدولة وكبيرها وكان يصرف لذلك ملايين من الدراهم إلا أنه كان يبغض النمامين وما قاله بهذا الشأن يجدر بأن يكتب بماء الذهب وحينما يذكر أمامه النمامون فهو يكثر القول: ماذا تقول عمن لعنه الله على صدقه؟² إنه هو الذي كان يقول: من نال من عزته باغتيال أحد أمامي فلن يسدّ ذلك النقص.

ولو كان المأمون خليفة ذا شوكة وأبهة وقد أعلى عامة المؤرخين ذكر أحاديث شوكرته ومجده في سبيل حسن الذكر ولكني أرى أن الذي يزين حياته ويجعلها مؤثرة هو تواضعه وعدم تكلفه فخليفة يتولّى العرش ثم يمتلك العالم الإسلامي كله من العجيب أنه لا يتكلف مع أصدقائه فقد كان يتوضّف لديه معظم أرباب العلم والفن وكانوا يبيتون على كذب منه ولكنه كان يعامل معهم معاملة صديق لصديقه فقد كان القاضي يحيى ضيفاً عليه ليلة من الليالي. اتفق له أن استيقظ في نصف الليل وأصابه العطش وبما أن وجهه كان يبدو قلقاً فسأله المأمون عن سبب القلق فقال القاضي إنه عطشان فدخل المأمون بذاته إلى حجرة أخرى وعاد بإبريق للماء فازداد القاضي قلقاً وقال لو دعوت سيدي خدمك فقال المأمون: لا، يا ضيف فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: سيد القوم خادمهم" فقد كان يقوم بنفسه بوضع السرج وما يشبهها من الأسباب إذا رجع الخدم.

ذات مرة خرج للتزّه وكان يرافقه القاضي يحيى فجعل المأمون يتزّه ويده بيده فلما كان يذهب كانت الشمس تضرب القاضي ولما رجعا تغيّرت الشمس فضربت المأمون فأحبّ القاضي أن يغيّر جانبه فيواجه الشمس بذاته ولكن المأمون لم يقبل هذا وقال هذا يخالف العدل فقد كنت في الظلال أولاً والآن هذه نوبتك. لم يكن تواضع المأمون

¹ العقد الفريد

² المصدر نفسه

لأجل كونه من أصل عربي فلا شك أن الأسرة العباسية كانت أسرة عربية شهيرة ممتازة إلا أن جتر الملوكية كان يظلّ عليها فعادة تتحوّل العادات المتواضعة والأخلاق الساذجة، خلال هذه المدة الطويلة، بالعادات الملوكية المتكلفة فقد كان الناس لا يسمحون لرؤية الخليفة قبل المهدي وقد كان الستار يدلى على سيرير الخلافة على بعد عشرين قدمًا وكان الحواشي يقومون من وراءه بكل أدب واحترام وكان الخليفة يصدر الأحكام وهو من وراء ذلك الستار ولو أن الخليفة المهدي قد رفع هذا الستار إلا أنه لم يكد يرفع غير هذا من حجب الخلافة.

كان البلاط ملتزمًا بمثل هذه الآداب والأساليب قبل عهد المأمون فقد عطس المأمون ذات مرة فلم يجب أحد من الحضور "يرحمك الله" على عادة السنة النبوية فسأل المأمون عن السبب فقال الحواشي إن أدب الخلافة يمنعنا عن ذلك فقال المأمون إني لست من الخلفاء الذين يعتبرون الدعاء عارًا عليهم¹ وبما أن المأمون لم يكن يحبّ مثل هذه الآداب والأساليب التافهة القبيحة فقد تحرّر الحواشي وخذّام الخليفة من هذه الآفات الملوكية.

شوكة الملك وأهنته: وعلى هذا فلا نزع من تواضع المأمون أن شوكة الملك وأهنته وتبذيره للأموال قد لاقت سقوطًا وقلّة فقد كانت عشرة آلاف درهم تصرف يوميًا على أطعمته الخاصة فقد قام كاتب أوروبي بمقارنة معاش الخلفاء الراشدين المتواضع مما لهذا العهد مقارنة عجيبة للغاية فهو يقول:

"لما سافر عمر رضي الله عنه إلى الشام كان زاده وما يحتاج إليه من الأسباب موضوعًا على إبل واحد، ولما خرج المأمون للصيد لم تكف ثلاثمائة إبل حمل أسبابه الضرورية. ولقد حدثت التغييرات السريعة في المعاش العربي منذ العصر الأموي مما لن تقاس بسهولة.

رسميات الزبيدة: زبيدة المفطورة على الإبداع والتي كانت زوجة أبيه ولم تكن أمّه الحقيقية قد أضافت العديد إلى أصناف التزيين والتحسين والتي قد تقبلها الناس بكل سرور ورغبة وتروّجت فيما بين كافة الأمراء والحواشي فقد أشعلت أولًا شموع العنبر

¹ تاريخ الخلفاء

العدد الخاص مجلة الهند

في حجرة نومها وهي التي أوجدت نعالاً مرصّعة من الجواهر وهي التي أمرت بصنع القبق من الفضة والأبنوس والصندل وبترزينها بالديبا والسمور ومختلف أنواع الحرير، وبفضلها تطوّرت صناعة الأقماش إلى حدّ صنعت لها طية من القماش مبلغها خمسون ألف جنيه¹.

وقد عقدت مناسبة لزواج المأمون بأبهة وشوكة، كانت أوحد نموذج لتبذير ذلك العهد وثروته وأهفته.

يدّعي مؤرخو الدراسات العربية أن العصور السالفة والعصور المتأخرة تعجز عن تقديم نظير لهذا الجود وكما تقول دراستي أن أحدًا من الناس لم يتحدّ هذه الدعوى ولم يجترئ على الاعتراض عليها. هذه الفتاة السعيدة التي تزوّج منها المأمون كانت ابنة الحسن بن سهل الذي تعيّن رئيس الوزراء بعد وفاة الفضل. كانت هذه الفتاة تسمّى "بوران" وكانت مثقفة للغاية وعملاقة². توفّض المأمون مع كافة أفراد أسرته وأعضاء الدولة ومسئوليها وخدامها لدى الحسن فوضّفهم لتسعة عشر يومًا بكل نوع من الجود حتى بدأ كل وضع وشريف يقضي حياة الترف لبضعة أيام، وقد نثرت الآلاف من قروص المسك والعنبر على كل ضيف وخدام، كتب عليها النقود والأعداد المعينة من الإماء والأرقاء والممتلكات والملابس والفروس والخواص والعقارات.

وقد أمر من خلال التهافت على النثر بأن يحضر المرء بما يظفر به من القروص إلى وكيل المخزن فينال نصيبه بينما نثرت قروص المشك والعنبر والدراهم والدنانير على العامة. وقد وضعت للمأمون فرش جميل موضوع من الخيوط الذهبية ومرصّع بالجواهر واليواقيت فلما جلس عليه المأمون فنثرت على قدميه درر ثمينة زادت الفرش المذهب زينة على زينة فأنشد المأمون شعر أبي نواس الشهير وقال كأن أبا نواس قد رأى بعينيه ما قال:

¹ مروج الذهب للمسعودي (ذكر خلافة القاهر بالله)

² قد جاءت ترجمة بوران مفصلة في كتاب التاريخ، وقد ذكر في تذكرة الخواتين الذي كتاب جديد أن "بوراني" نسبة إلى "بوران" هذه.

كأن صغرى وكبرى من فواقعها حصباء درّ على أرض من الذهب
ولما جلس العريس والعروس معاً ليل الزفاف فنثرت جدة بوران ألف درّ ثمينة على
كلّ منهما، وقد ختمت تكاليف هذه المناسبة خمسين مليون درهم¹.

سخاء المأمون وجوده: قد أعلى المؤرخون العرب جود المأمون وسخاءه بكل افتخار
وحماس وبما أن أشغال المأمون وأعماله الأصلية مليئة بأصناف سخاء هذا النوع
فإنهم لم يحتاجوا إلى الجمل المزخرفة الآسيوية، وكل ما نقرأه من المبالغة في هذه
الصفات من حسن حظنا أنها أحداث ووقائع المأمون الحقيقية. يقول غبن:

ولا شك أن دعائم دولة المأمون قد أثنوا على جوده لما أنه جاد بخمس دخل مدينة وهو
مليونان وأربعة آلاف درهم قبل أن يخرج قدميه من الركاب. هذا غيض من فيض جوده
فقد كان من محامد المأمون أن أعطى الشعراء والفنّانين الآلاف من الدراهم فقد أمر
على قصيدة مدحية لمحمد بن الوهب بأن تعطى ألف درهم على كل بيت منه. كانت
القصيدة مشتملة على خمسين بيتاً فأعطي له خمسون ألف درهم فوراً².

وبمناسبة نكاح بوران أهدى رجل مفلس كيسين من الملح والأشنان وكتب: ولو أن
الإفلاس يكبح الهمة ولكني لم أصبر على أن يطوى فهرس أصحاب الجود والهدية ولا
يكون اسمي فيما بينهم، وتكفى بركة الملح ولطافة الأشنان أن أختارهما للنذر
لصاحب الجلالة فأمر المأمون بأن يحشى الكيسان بالجنميات ثم يرجعا إليه³، ونجد
المآت من النماذج ولن ننكر ما ذكر من هذه الوقائع مثل الشبان المثقفين الجدد
الذين لا يثقون بالروايات الآسيوية. وهذا خطأ كبير منا أن نقيس الحكومات
الآسيوية القديمة بطرق الحكومة الجديدة.

¹ ذكر ابن خلدون هذا الزواج مفصلاً في مقدمة ابن خلدون كما ذكره موجزاً ومفصلاً غيره من

المؤرخين أمثال أبي الفداء وابن الأثير وابن خلكان (ترجمة بوران)

² الأغاني (ترجمة محمد بن الوهب)

³ تاريخ الخلفاء للسيوطي

وفي أيامنا هذه يعتبر المثقفون مثل تلك الروايات التي جاء ذكرها في كتب التاريخ مبالغة فهم يزعمون أن هذا القدر الكبير من المبلغ لن يمكن جمعه بعد صرفه في شئون الدولة فكيف يمكن لخليفة أن يوجد بها، ولكن هذا خطأهم أنهم يقيسون تكاليف الحكومات الآسيوية الماضية في شئون الدولة والجيش ما يروونه اليوم والحال أنه لم يكن هذا المتنوع من الأقسام والشعب في تلك الأيام ولا كان المسئولون يحصلون على هذا القدر الكبير من الرواتب ولذا فكان الجزء الكبير من بيت المال يصرف في تلك العطايا والهدايا التي نراها اليوم لغواً وعبثاً هذه الأحاديث تهدينا إلى استنتاج بعض الأصول المهمة المفيدة؛ إننا نرى هذه الثورة الباهتة بعين الحيرة، التي حدثت في غضون قرنين فقط بأيدي الحكومة الإسلامية فقد ركب عمر رضي الله عنه على المنبر مرة وخاطب الحضور قائلاً: اسمعوا وأطيعوا" ولم يلبث أن ينهي كلامه إذ قام أحد من بينهم وقال: لا سمعاً ولا طاعة فسأله عمر عن السبب فقال الرجل: الأردنية اليمينية التي قسّمت فيما بين المسلمين لم يكن لك فيما نصيب سوى واحد والحال أن اللباس الذي على جسدك صنع من ذلك الرداء ولا شك في أن هذا اللباس قد صنع من غير رداء فمن أعطاك حق الاستزادة فأمر عمر ولده بأن يردّ عليه فقام الولد وشهد أني أعطيته قدر ما نقص من ملبسه مما أعطيت من النصيب ثم جلس ذلك الرجل قائلاً: نعم، الآن أسمع وأطيع¹.

والآن قارنوا هذا العهد من عهد المأمون فلم يجترئ أحدٌ من بين الملايين من المسلمين على أن يعترض على تبيذيره للأموال فكان بيت المال قد أعطي لرجل واحد وله الخيار أن يصرف منه كما يشاء فيمكن لنا من مثل جهات الصرف هذه تقدير قلة المناصب الحكومية بجانب قلة الرواتب الشهرية.

جلسات الترف واللهو: ويتعجب قراء هذا الكتاب الذين قد وجدوا المأمون متحدّثاً عن الفقه والحديث تارة وأخرى سمعوا عن إصغائه إلى أحاديث العلماء البارعين يتعجبون من أنه جالس بين الندامى ويتحدث مع أحبائه بدون تكلف ولا حياء فهو

¹ آثار الدول للإمام الرازي

يشرب الخمر¹ بين ظهري العذارى البيضاء، ويرى أنواع الرقص ويسمع إلى الأغاني الموسيقية. ولقد كان المأمون مجتنبًا عن الأغاني والرقص في بداية الخلافة للعشرين من الشهور ثم تاقت نفسه إليه بعد مدة ولكنه لم يخض فيه إلا قليلاً. بقي على هذه الحالة حتى أربعة أعوام ومن ثم وقع في هذه الورطة حتى لم يكن يصبر بدونها.

مجتمع تلك الأيام: ولكن لو أنصفنا فلا نتعجب من هذه كلها فإن الحرية وعلو الهمة ولطافة الطبيعة ووفور الشباب كلها كنت ولا تزال تعتدي على الحكومة الزاهدة فلا نخصّص المأمون في هذا الشأن فإن المجتمعات الإسلامية في تلك الأيام كانت غريقة في مثل تلك الأوهام والبلايا فالمأمون كان قد تيسر له في تلك الأيام الأمن والفراغ والطمأنينة والمال، هل بقي شيء يعرقل سبيلهم إلى المكاراه فلم يكن سوى الدين الذي يرجى منه صدّ السبيل ولكن الطبائع المجتهدة تيسره لما هي تريد ولو بعد تأويل فكان النبيذ يقوم مقام الخمر، والذي قد سوّغه فقهاء العراق عادة.

وتشريع الإماء قد كفى كافة سبل اللهو وأما الموسيقى فهي كانت جزءاً لا يتجزأ من الروعة والكمال.

مغتنو بلاط المأمون: لم يمض خليفة من الخلفاء الأمويين والعباسيين إلا وله اليد الطولى في هذا المجال فلم يبرئ كبار العلماء من هذا الشوق فقد أوجد عمر بن عبد العزيز الزاهد المحض العديد من أنغام الموسيقى² ولقد وجد الجهم الغفير من المغنين في بلاط المأمون، الذين بلغوا بالموسيقى أوج الكمال عن طريق أصولها وأسسها وقد برز من بينهم المخارق والعلوية وعمرو بن بانته والعقيد ويحيى المكي والسوسن والززل والزردار إلا أنهم لم يسابقوا إسحاق الموصلي.

¹ قد دحّض العلامة ابن خلدون شرب المأمون الخمر إلا أنه لم يسعه الاستدلال بدليل تاريخي سوى حسن الظن به فأطال الحديث فيما لا طائل تحته ولكنه مع ذلك يعترف بشرب النبيذ فنسمح ابن خلدون وأتباعه أن يريدوا النبيذ بالخمر في مكان اذكراها في كتابي.

² وقد ذكر صاحب الأغاني عمر بن عبد العزيز حيث ذكر اكتشافات الخلفاء في مجال الموسيقى

راتب إبراهيم: كان إبراهيم والد إسحاق ماهراً في الموسيقى وكان يخدم المأمون على عشرة آلاف درهم شهرياً. نال إسحاق براعة مجتهد في فن الأدب والأنساب والروايات والفقه والنحو وهذا مما يعتبر به أن نسبته إلى الموسيقى قد حرمته الألقاب المكرّمة وحصرته في لقب "المغني" اللقب الذي لم يقدر على أن يخفي ذبوعه ولو أنه كان ينفر عنه ولكن من يأخذ ألسنة الشعب، والمأمون بنفسه كان يتأسف على أنه كان جديراً بأن يحتل منصب القضاء ولكن سمعة "الغناء" لم تدعه أن يبلغ هذا المنصب الكبير إلا أنه كان مكرّماً إلى حد أنه كان يجلس مع الندامى في الجلسة وفوق ذلك أنه كان مسموحاً أن يحضر البلاط في ملابس الفقهاء. لم يصبر إسحاق على هذا حتى طلب من المأمون أن يسمح له أن يدخل المقصورة¹ في الدراعة والطيلسان الأسود يوم الجمعة فتبسّم المأمون وقال: إسحاق! لن يكون هذا إلا أنني أشتري طلبك هذا بمائة ألف درهم" قال هذا ثم أمر بأن يحمل مائة ألف درهم إلى داره.

يقول إسحاق إني كنت أحضر، زمن الدراسة، الهشيم صباحاً مبكراً فأسمع الأحاديث ثم أذهب إلى الكسائي أو الفراء فأقرأ القرآن ثم أتوجّه نحو الزلزل فأتلّم مداولة العود ثم تعلّمت على الشّهدة نغمتين أو ثلاثة وفي النهاية أحضر الأصمعي و أبا عبيدة فأنشده لهما الأبيات وأحلّ لديهما عقد الأدب ولما كنت أعود إلى البيت في المساء ألقى ما كنت تعلّمت على هؤلاء". إنه يقول: إني قد نذرت مائة ألف درهم إلى الزلزل بمختلف المناسبات وبذلك تعلّمت مداولة العود"، وكثيراً ما كان الخليفة المعتصم بالله يقول: عندما يغني إسحاق فيطربني إلى حد أظن أن بلداً جديداً قد أضيف إلى بلادي".

وأصول وأسس الموسيقى التي ضبطها إسحاق في كتابه توافق وتحقيقات حكماء اليونان والحال أنه قد ثبت بالتاريخ أنه ما عرف اللغة اليونانية ولا رأى ترجماتها فهذا موقع الحيرة لكافة الفنّانين والواقع أنه بلغ شأو فيثاغورث في تدوين هذا الفن وترتيبه².

¹ هذا مكان خاص في المسجد كان الخليفة يصلي فيه الجمعة

² ترجمة إسحاق وإبراهيم المفصلة المذكورة في الأغاني

العدد الخاص مجلة الهند

وكانت هناك طائفة أخرى غير هؤلاء المغنين كانت تزين جلسات المأمون الخاصة وزد عليها عذارى آسيا الجميلة اللاتي كنّ يأسرن في الحرب كن يبعن بثمان بخس على أيدي السماسرة وكانوا يعلمونهن الموسيقى والشعر وأيام العرب والأدب وجودة الخط والفكاهة والارتجال وبعد ذلك كانوا يبيعونهن بأثمان باهظة في الأسواق. كانت هذه الحور يجتمعن في حجرة المأمون الخاصة اللاتي قد أثقل شراؤهن بيت المال فذات مرة عرضت أمة للبيع وطلب البائع ألفي دينار على فضلها وكمالها وفصاحتها وأدبها وقريضها فقال المأمون: إني أنشد شعراً لو أنشدت الأمة شعراً آخر في الردّ عليه مرتجلة لأعطيتك أكثر مما تطلبه فأنشد المأمون الشعر التالي:

ما تقولين فيمن شقّه أرق من جهد حبك حتى صار حيرانا
فارتجلت الأمة ما يلي:

إذا وجدنا محباً قد أضرب به داء الصبابة أوليناه إحسانا
وكانت أمة تسمى عربياً وهي كانت رائعة في العلم والفن وقد صرفت مائة ألف درهم في شرائها. إنها كانت حبيبا للمأمون. إنها أوجدت ألف نغمة لم يقدر إسحق على تتبع بعضها ويمكن لنا تقدير عربيتها وبراعتها في العلم والفن أن الخليفة العباسي المعتز بالله الذي أوجد فن البديع وخاتم الشعراء العرب قد صنّف كتاباً مستقلاً بذكر عريب وذات مرة عرضت عريب عن لقاء المأمون بما أنها سخطت منه فاستدعى المأمون القاضي أحمد بن أبي داؤد أن يتوسط بينهما ويصلح ذات بينهما فلما سمعت عريب هذا قالت من وراء الحجاب:

تخلط الهجر بالوصال ولا يدخل في الصلح بيننا أحد
كانت للمأمون أمة أخرى تسمى "بذلاً" والتي اعتبرت من أساتذة فن الموسيقى المشهورين. قد أعطاها علي بن هشام عشرة آلاف درهم على كتاب لها يحوي سبعة آلاف نغمة وقد كتب العلامة أبو الفرج الإصفيهاني أكثر من عشرين صفحة في أحوال عريب وبذل الممتعة ومن يرغب في التمتع بها من أرباب الطبائع الفكهة فليقرأ تلك

الصفحات، وقد كانت الإماء المثقفات في ذلك الزمن من حرم الأمراء والأغنياء وبما أنهن يتمتعن مما تتمتع بها أزواجهن الحقيقية فقد انحلت قضية تعليم النساء وحريةهن بسهولة على أيديهن.

ولو أن أنواع اللهو والترف كانت من خصائص جلسات المأمون ولكن من العدل أن هذه الجلسات لم تكن خالية من الذوق العلمي البتة. فمثل هذه الجلسات التي تثير في الحضور عواطف شعرية لو عقدت بأدب واتزان لتركت أثراً قوياً واسعاً على الأدب فقد كان المأمون نفسه شاعراً وبارعاً في الموسيقى وكذا كان ندماًؤه وجلساؤه لطيفي الخيال وفاهمي الأدب وكانوا يبدعون نكتاً شعرية بكل كلام كما كانوا يناقشون الموسيقى وتارة كان الشعراء يقرضون أبياتاً على بيت شعري مرتجل للمأمون فذات يوم كان الشعراء مجتمعين فيشربون ويأكلون وكانت عشرون أمة نصرانية حاضرة الجلسة في ملابس من الديبا الرومية ومعلقات صليبيًا ذهبياً في أعناقهم وفي ظهورهن زنانير ذهبية وفي أيديهن باقات للأزهار، لم يكن هذا المنظر مما يصبر عليه المأمون فارتجل أبياتاً ودعا مغنياً اسمه أحمد بن صدقة وأمره بتغنيها فلما بدأ أحمد الغناء تبعته الإماء راقصات فكانت عيونهم الحوراء وشدة الخمر لم تدع المأمون إلا نشوان سكران فغمره السكر حتى أمر بأن تنثر ثلاثة آلاف جنية على أقدام هذه الإماء. وإبراهيم عمّ المأمون الذي قد قرأنا عن دعواه للخلافة والذي كان أكبر أستاذ للموسيقى وكان يضاهي بإسحاق الموصلي في هذا الفن كان حاضر جلسة اللهو يوماً من الأيام وكانت عشرون أمة حوراء يضربون على العود على يمين المأمون ويساره، ولحقمهم إسحاق وقد تحير فور الورود فسأله المأمون هل سمعت صوتاً نكراً فقال إسحاق: نعم فخاطب المأمون إبراهيم وطلب منه الردّ على هذه الحيرة فقال إبراهيم: لا، فنظر المأمون إلى إسحاق الذي قال فيما بعد: إني أخبركم الآن بأيّ خيط يخطئ ضربه فاستمع إبراهيم إلى ذلك الخيط ولكنه لم يقدر على تمييزه فأشار إسحاق إلى أمة خاصة وطلب منها أن تضرب وحيدة ولا تشاركها أمة أخرى والآن فطن له إبراهيم فندم على جهله. قال المأمون: إبراهيم! هل تستطيع أن تضاهي بمن يظن لسوء ضرب خيط فيما بين الثلاثين خيطاً مشتبهاً ببعضها البعض؟ ولعل هذا كان أول يوم

حين اعترف إبراهيم بفضل إسحاق عليه بصراحة. ذات يوم دعا المعتصم بالله المأمون إلى الطعام. والدار التي زينت للدعوة كانت معظم شبابيكها يعلوها الزجاج. كان يحضر المأدبة أحمد اليزيدي وسيما التركي الذي كان أحب أرقاء إلى المأمون وكان آية في الجمال فانعكست الشمس على سيما من خلال الزجاج فانولدت حالة عجيبة للغاية فنادى المأمون بدون وعي: أنظروا إلى وجه سيما الذي ينوّع عكس الشمس عليه منظرًا آخر" ثم أنشد شعرًا ارتجله والذي أحد بيتيه كما يلي:

قد طلعت شمس على الشمس

ولو أنها كانت نكتة مرتجلة إلا أنها تركت أثرًا من الغبطة على المعتصم فسكّنها المأمون بقوله "لا نريد به المخاصمة، لم يكن هذا إلا تعبيرًا عن أثر طارئ".

مذهب المأمون

كان المأمون يصدّق الشعر التالي حسب المذهب:

كس کی ملت میں گنوں آپ کو بتلاے شیخ تو کہے گبر مجھے، گبر مسلمان سمجھے

ترجمة: أيا شيخ! دلّي على ملة أنسبك إليها. إنك تعدّني مجوسيًا بينما المجوس يظنّوني مسلمًا.

ومعترفين بمحاسنه وفضائله بصراحة يتحسّر المؤرخون السنّيون على أنه كان شيعيًا وأما الشيعة فهم يسخطون منه شديدًا على أن تشيّع كان مختلفًا ومفتريًا وبفضله قد امتلك عنان علي الرضا ثم سمّمه وبما أننا لا نملك تاريخ الاعزال فلا نعثر على اللقب الذي دعاه به أصحاب هذه الفرقة. والواقع أنه لم يقع حدّ فارق بين هذه الفرق حتى عهد المأمون مما نراه اليوم فكان السنّيون والشيعة والمعتزلة يصلّي واحدهم وراء الآخر كما كان أكبر أئمة السنّيين الإمام البخاري يروي الأحاديث عن الشيعة.

قد مضى مات من السلف لو كشفنا عن عقائدهم لوجدنا جزءً منها لدى كل من أهل التشيع والسنة والاعتزال والقدرية فكان المأمون مثل معجون من العقائد فهو كان يقول بحدوث القرآن وأمر بإعلان أن من يقول بحقية الأمير معاوية فهو خارج عن

الطاعة، وكان يزعم أن علياً كرم الله وجهه أفضل الصحابة كلهم إلا أنه لم يكن يسيئ ظنه بالخلفاء فقد أعرب في قصيدة عن حسن عقيدته في عثمان وعائشة رضي الله عنهما فأفكاره هذه التي يسمونها اليوم بعقائده الدينية هي نتيجة لمعرفته لمختلف اللغات واختلاطه مع العديد من الناس فالبرامكة الذين كانوا أول من علمه ورباه قد لقنوه أفكار التشيع فلما شبَّ كان هؤلاء معه والفضل بن نوبخت الذي كان وزير الخليفة وأكبر عمائدها قد أحاط بالمأمون بحيث إن عينيه كانتا عينيه وإن أذنيه كانتا أذنيه. كان هذان من أهل التشيع وكانت لهما شوكة على كل من أعضاء الحكم وفي النهاية سمح المعتزلة لفضلهم وكمالهم فرحب المأمون بعقائدهم فما بقي من أثر السنة فيه خلال النزاع بين التشيع والاعتزال كان لمجرد ما ورثه من أسرته فقد كان يحضر بلاط المأمون ممثلو كافة الأمم والمذاهب مثل الهندوس والنصارى واليهود والمجوس فهو كان يصانع معهم مصانعة تامة وهو لم يكن يفتش عن عقيدة أحد منهم إلا من اتبع دينه. وكان يتأذى دائماً من أنواع من تشدده.

ترويج المتعة: ذات مرة نادى تحت عاطفة التشيع أن المتعة مشروع الآن وإن كان مما انفرد المأمون برأيه فلم يؤذ الآخرين إلا أن النداء العام كان بمتزلة حكم الخلافة وإن لم يعجز المأمون أمام استدلال القاضي يحيى المنطقي فيمكن أن يتغير نصيب أهل السنة. كان المأمون آنذاك في دمشق وكان يرافقه كافة علماء البلاط ولو أن هذا النداء الموحش قد أغضب المدينة كلها ولكن من يقوم بإخفاء صوت الحكومة فمن كان يعرف مزاج المأمون كانوا يعرفون جيداً أنه لا يمكن لأحد أن يصد سبيل المأمون إلى هذا الخطأ العام إلا القاضي يحيى فحضره الاثنان من الحواشي ووجده حاضراً فقال لهما توجهنا نحو البلاط، إني لآتٍ بعد قليل فلما بلغ هذان الاثنان كان المأمون يقرأ قول عمر رضي الله عنه "حدث في عهد النبي وصاحبه أبي بكر متعتان إلا أنني أحرمتها". وكان وجهه يتغير بكل كلمة وحينما أنهى روايته بأسلوب ملؤه الغضب فقال بلهجة غاضبة "يا جغل! ما قد حلّ في عهد النبي صلى الله عليه وسلم فمن أنت لتحريمه" فلما رأى الحضور المأمون في غضبه هكذا خافوا إذ بلغ القاضي يحيى ولو

أنه لم يقل شيئاً إلا وجهه الحزين كان يعرب عن كل ما يكمنه صدره فخاطبه المأمون قائلاً: نعم، ماذا حدث بك؟

القاضي يحيى: قد وقع فطور في الإسلام.

المأمون: ما هو؟

القاضي يحيى: قد حلت الزنا.

المأمون: وكيف؟

القاضي يحيى: ليست المتعة إلا نوعاً من الزنا.

المأمون: بأي دليل؟

القاضي يحيى: بدليل ما جاء في القرآن الكريم: إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم". فلا يجوز التمتع إلا من نساء النوعين؛ الزوجة أو الأمة فهل الممتوعة أمة؟

المأمون: لا.

القاضي يحيى: فهل هي زوجة بالشرع، وهل هي ترث؟ وكذا روى القاضي يحيى حديثاً في تحريم المتعة فتأسف المأمون على استبداده بالرأي ومن فوره أمر بنسخ الحكم الأول¹.

ولا شك أن المأمون يستحق الثناء والتقدير على أنه كان راسخ العقيدة في الشؤون الدينية على الرغم من أفكاره ونظرياته الفلسفية العالية، وكان يعمل على الفرائض ويلتزم بالعبادات وكان له حب خالص للنبي صلى الله عليه وسلم بلغ به حد الوله والهيام فلما ظفر برسالة النبي في رحلته إلى الشام فمسحها بعينيه وطراً عليه نوع من حالة الحب الشديدة فكان يكثر مسحها بالعينين وكان يصب الدموع. العاطفة الدينية قوة شديدة وهي دائماً جاءت بأثار معجزة في التاريخ ولكن من الأسف أن المأمون لم يستخدمها لعمل مفيد بل لا نتجاوز الحق لو قلنا أن هيامه الديني هو الذي ذهب بكافة محامده.

¹ انظر: تاريخ ابن خلكان (ترجمة القاضي يحيى بن أكثم)

شدة المأمون في قضية حدوث القرآن: وقد أثرت الفلسفة عليه شديدًا حتى أصبح معتزلي المذهب في كثير من شئون الدين ومنها قضية حدوث القرآن التي قد رسخت في نفسه إلى حدّ كأن إنكارها عنده إنكار بتوحيد القرآن فلما كان مقيمًا في مدن الشام في 218هـ كتب إلى إسحاق الخزاعي عامل بغداد ما ملخصه "قد بلغ أمير المؤمنين أن عامة المسلمين الذين لا يقدرّون على فهم دقائق الشريعة يقولون بقدوم القرآن والحال أن العديد من آياته تخالف هذه الفكرة. إنهم أمم خبيثة وألسنة إبليس فليجمع قضاة بغداد كلها ويبلغهم ومن ينكر به فهو يعتبر ساقط العدالة" لم يتوقّف المأمون عند هذا الحد فدعا سبعة علماء كان لهم تأثير ديني في العامة وكلمهم وجهًا لوجه. كان هؤلاء العلماء يخالفون رأي المأمون في هذا الشأن ولكنهم آمنوا بما لم تقبله قلوبهم فلما اتفق هؤلاء العلماء مع المأمون كتب إلى إسحاق مرة أخرى أن يستطلع رأي كافة علماء الدول الإسلامية وأئمة الدين فيها فتم الامتثال بهذا الحكم وأخذ رأي كافة العلماء ومن ثم أرسلت هذه الآراء إلى الخليفة وما كتبه المأمون في الردّ عليه ينبئ عن هيامه الديني فلم يبق من بين المحدّثين والفقهاء من لم يفلت من اتهامه بالرشاء والسرقة والكذب والجهل والحقاقة وشمل هذا الحكم أن يرسل مكبلاً بالسلاسل من لا يقول بهذا الرأي لكي أتمّ عليهم الحجة فأميتهم أو أبقيهم أحياءً فقرأ إسحاق هذا الحكم على الناس، الذي زلزلت به أقدام الأثداء من العلماء والمفكرين وعامة المسلمين وكلهم ودّعوا الصديق وعضّدوا المأمون سوى العلامة القواريري والسجادة ولكن السلاسل في أقدامهم والشدائد التي لاقياها قد كذّبت ثباتهما واستقلالهما فلم تثبت أقدام أحد في هذا الأمر إلا أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح فسلسلت أقدامهما وبعثوا إلى طرطوس.

ثم علم المأمون أن الذين وافقوه في هذه القضية قد اختاروا سبيل التقية فاشتدّ غضبه وأمر بإحضارهم للبلاط فبعث إلى الشام جمّ غفير من العلماء بمن فيهم أبو حسان الزياتي والنضير بن شميل والقواريري وأبو نصر التمار وعلي بن مقاتل وبشر بن الوليد، وقد وصل بهم الشرطة إلى الرقة إذ بلغهم نعي المأمون الذي نفخ فيهم أملاً جديدًا للحياة كما سرّ به المسلمون عامة¹.

¹ وقد فصلت هذه الأخبار في الكامل لابن الأثير وتاريخ الخلفاء

حبّ آل عليّ: كان المأمون يحبّ آل عليّ على الرغم من كافة خلفاء بني العباس فرجع أرض فدك إلى السادات وفوّض إل الهاشميين مناصب حكومية عليا وكانت أسرة العباس تغتبط بهذه الرعاية والتكريم فلما توفي يحيى بن حسين الذي كان من العلويّين حزن المأمون إلى حدّ لم يوجد له مثال فصلىّ هو بنفسه على جنازته وحزن إلى حدّ تحيّر منه الناس، وبعد هذا الحادث توفي فلذة كبد زينب المرأة المكرّمة من بين العباس ولكن المأمون لم يحضر جنازته بل أرسل صالحًا إلى دارها لكي يعتذر من جانبه ويعزّيها من قبله فأحزن هذا الواقع تلك المرأة المكرّمة حتى أنشدت عن المأمون ما يلي من الشعر ولم تعتن بعظمة الخلافة:

سبكناه ونحسبه بحلينا
فأبدى الير عن خبث الحديد
ثم قالت لصالح أن يبلغ المأمون ما يلي:

"أيا ولد مراجل¹! لو كان يحيى بن الحسين حيًا اليوم لسعى إلى جنازة ولدي هذه".

وهذا من العجب العجاب أن مؤرخينا يعتبرون حلم المأمون هذا مما أثر فيه التشيع ولا شك أن المأمون كان له حبّ خالص شديد للنبي صلى الله عليه وسلّم، الأمر الذي جعله محبًا لآله رضي الله عنهم، وكان هناك جانب آخر لهذه الجانبية في الحبّ، أشار إليه المأمون بمناسبة ما أن أبا بكر لم يفوّض أي مسؤولية حكومية إلى بني هاشم في زمن خلافته كما لم يعتن بهذه الأسرة عمر وعثمان في زمن خلافتها ولكنه حينما استخلف عليّ رضي الله عنه استعمل عبد الله بن عباس على البصرة وعبيد الله على اليمن والمعبد على مكة وقتنًا على البحرين ولم يبق رجلًا من آل العباس لم يحظ بمسؤولية حكومية ما، وقد بقي هذا الدين على أسرتنا فقمتم بسدّه في زمي².

¹ هذه إشارة إلى كون المأمون ابن أمة

² تاريخ الخلفاء للسيوطي

الحكومات المعاصرة

ونودّ أن نتحدّث بالإيجاز عن مدى رقيّ وازدهار الحكومات الأخرى المعاصرة زمن كان المأمون يحكم على أكبر أقاليم العالم بكل شوكة وسلطان.

كانت مساحة إنكلترا محصورة في سبع حكومات صغيرة وهي كينت (Kent)، وسسكس (Sussex)، ووسيكس (Wessex)، وأسيكس (Essex)، وندمبرليندا (Northumberland)، ومريشيا (Mercia)، وشرقي الهند (Eastanglia). هذه الملوك الذين كانوا يجدرن بأن يسمّوا بالرؤساء كانوا يخاصمون فيما بينهم، ومن غلب عليهم كان يلقّب بـ"ملك إنكلترا" ففي 827م غلب إيغبرت (Egbert) على كافة خصومه واتسعت دائرة فتوحه كافة إنكلترا تقريباً ولكنه قبل أن يُحكّم أساس حكمه بدأ دينيس (Danes) يشنّ غارته عليه. توفي إيغبرت في 836م وكانت ألمانيا وإتاليا وهنغري دولاً صغيرة لم يكن لقب "السلطنة" هذا مناسباً لها لا بالنسبة للحضارة والثقافة ولا بالنسبة للوحدة والقوة ففتحتها شارل مين ملك فرنسا في 800م وألحقها بحدود سلطنته وأقام سلطنة عظمى، وقد اعترف الأوروبيون بعظمته وشوكته وكتب أنه عقد أواصر الودّ مع هارون الرشيد وأرسل إلى جلالته هدايا عن طريق السفراء وكذا كتب مؤرخو فرنسا أن الهارون أجاب على إهدائه بإرسال هدايا ثمينة بما فيها ساعة¹ حَيّر صنعها الرائع الحضور ومنذ ذلك بدأت الساعة تتروّج فيهم ولو أن تلك السفارة لم تذكر في تاريخ العرب وعلى هذا فيقول بامر: وبما أن سلطنة المسلمين كانت مزدهرة في ذلك الزمن فقد اختلقت قصص لعقد الروابط الفخرية بينها وبين أوروبا².

توفي شارل مين في 801م وبموته زالت هذه السلطنة وشوكتها.

كان ميكل الأول وميكل الثاني ويتوفلس بن ميكل الثاني في القسطنطينية معاصرين للمأمون. كانت هذه الأسرة ترسل سنويّاً بعض الأموال كخراج إلى الدولة العباسية إلا

¹ وقد فصّل ذكر هذه الساعة في كشف المخبأ عن فنون الأدباء، والعجب أن هذا الاكتشاف

البدائي يعادل ما بلغه اكتشافات العصر الحديث ذات الدرجة العليا

² انظر: تاريخ هارون الرشيد (للسيد لبامر، طبعة لندن)، ص 240

أن السلاطين قد اعتدوا على هذا الحكم ولكن العباسيين قد أثبتوا بفتوحهم القاهرة أن الصلح معهم أنفع من القتال ضدهم، وليلق القراء نظرة ساحة على فتوح المأمون. وبالجملة فالحكومات التي كانت في ذلك الزمن لم تضاه بالدولة العباسية إلا أن بني أمية التي كانت تحكم على طرابلس كانت خصماً للعباسيين. تولى الحكم بن هشان الحكم في 181هـ وعبد الرحمن الأوسط التي تولى العرش في 207هـ كان هذان الخليفان الأمويان معاصرين للمأمون وكانا بإمكانهما أن يدعيا المضاهاة بالمأمون بالنسبة لفتوحهما لأوروبا ولو لا بالنسبة لسعة حكومتهما. قد تقدّم الحكم بالجيش تقدّمًا باهرًا وأشرف على العلم إشرافًا مثاليًا بينما نال عبد الرحمن العديد من الفتوح على أوروبا وبني العديد من المساجد في طرابلس وهو أول حاكم أموي قام بوضع أصول وقوانين للحكم والسلطنة.

دعائم البلاط والمناصب الحكومية

وفي كل دولة وحكومة ينال بعض حواشي السلطان وأرباب المناصب الحكومية بمؤهلاتهم وروعة تدابيرهم قدرة تصبح بها محامدهم ومآثرهم جزءًا لا يتجزأ من تاريخ الحكومة وعلى هذا فيجب على المؤرخ أن يلقي نظرة عاجلة على حياتهم وما خلفوه. هذا، وعندنا سبب آخر يجبرنا على كتابة ترجمة موجزة لحواشي السلطان وأرباب المناصب العليا ألا وهو أن الخلافة قد انتقلت إلى أيدي الرجال المخصوصين وقد ابتدعها الأمير معاوية ومنذ ذلك الزمان إلى يومنا هذا فكافة الحكومات الإسلامية التي نراها اليوم في بقعة من بقاع العالم الإسلامي تقوم على أصول الملوكية التي من اختصاصها أن لا يكون الملك ملتزمًا بقانون وطني ما وكانت أصول الشريعة توضع حسب أهوائه الشخصية وكذا كانت نوابه للحكومة وعمّاله مستقلين بأرائهم في حدود حكمهم فإن أردنا أن ندلي برأي عن أمن وسلام عهد من هذه العهود فلا مناص من إلقاء نظرة سارحة على مؤهلات السلطان وحواشيه وموظفيه الكبار وطرق حكمهم ومعاملاتهم. ويجب علينا قبل كتابة تراجم عمّال المأمون وموظفيه الكبار أن نلقي بعض الأضواء على ماهية المناصب والمسئوليات التي تقع من وراءها. فالمناصب الحكومية التي كانت تبني عليها السلطنة في تلك الأيام كانت هي الوزارة والكتابة والشرطة والقضاء والمحكمة والولاية.

العدد الخاص مجلة الهند

فالوزارة كانت أكبر مناصب الحكومة والواقع أن خيارات رئيس الوزراء كانت أكبر وأوسع من خيارات السلطان.

وكانت لها درجات مختلفة فكان لكل قسم وزير مثل وزير القلم، ووزير الحرب، ووزير الخراج، وكان أكبرها وأعظمها منصب رئاسة الوزراء الذي كان يحتله ذو الرياستين (وزير الحرب والقلم) وعلى هذا فالرمح التي كانت ترفرف فيها رايته الخاصة كانت ذات لسانين.

والكتابة كان منصبها يقرب من منصب الوزارة لعظمته وأثره فالكااتب كان يكتب كافة الأحكام والفرمانات والتوقيعات واتفاقيات الدول الأخرى بكلماته الخاصة ثم يوقع عليها وكان يثبت خاتم السلطان على كلا جانبيه بالمداد الأحمر، وزدٌ عليها كتابة الأحكام الموجزة البليغة على كافة الطلبات التي كانت يقدم رجال كل طبقة ودرجة إلى صاحب الجلالة مباشرة أو بدون مباشرة وقد انتهى الأمر في هذا الشأن إلى أن خاتم جعفر البرمكي كان يباع بجنيه في السوق وكان يتهافت على شرائه النساخ والراغبون في الإنشاء.

والقضاء كان منصباً يعبر عنه بالإنجليزية Judge. كان القاضي مسئولاً عن تنظيم عقارات اليتامى والمجانين والاهتمام بالمساكين والعمل على الوصايا وتزويج الأيتام اللاتي لا والي لهن بجانب فصل الخطاب وإجراء الحكم عن القضايا المختلفة.

والمعدل كان يتعلق بمكتب القضاء وهو كان يصحب سجلاً تسجل فيه أسماء الثقة والساقط العدالة من الناس فكان القاضي يتكلم عادة على تفاصيل هذا السجل حين فصل الخطاب وبجانب هذا فهو كان يرتب وثائق العقارات المشكوك فيها والديون وهو الذي تسجل في مكتبه الوثائق. كان هذا منصباً يتحمل مسئولية خطيرة على كاتفه وعلى هذا فكان يختار على هذا المنصب رجال لهم سمعة وبهم ثقة وفيهم ائتمان.

والمحتسب كان مسئولاً عن جمع الأخبار عن الناس وعن وقوع أمر ضد الشريعة في الأسواق والجلسات العامة وعن تقليل الأحمال والأثقال على البهائم وحشو السفن بالرجال الكثيرين وهدم المباني على الشوارع، التي قاربت أن تنقض، والتكفّف في الكيل وكان هذا المسئول يرافقه رجال الشرطة فهو كان يطوّف معهم في الأسواق والسرادق.

والوالي كان يعادل عادة جامع الضرائب ومحافظ المدينة والملازم الأول في الجيش وعامل الولاية¹.

وزراء المأمون: وممن انتاب منصب رئيس الوزراء في بلاط المأمون هم الفضل بن سهل، والحسن بن سهل (كانا شقيقين)، وأحمد بن أبي خالد الأحول، وثابت بن يحيى، محمد بن يزدار ولكن شوكة وأبهة الوزارة قد انتهت على الفضل بن سهل ولعل أحداً لم يضاه به في الراتب الشهري أي ثلاثمائة ألف درهم وعلى هذا فقد رأى بعض المؤرخين أن هذا المنصب قد قضي عليه بعد الفضل، وأما الحسن ومن بعدهم ممن اشتهر بالوزارة فقد كانوا كاتباً ولا غير.

راتب الفضل الشهري ثلاثمائة ألف درهم: كان الفضل مجوسياً نسباً ودينياً وفي 190هـ آمن على يدي المأمون وقد قدمه جعفر البرمكي إلى بلاط هارون الرشيد ظاناً أنه يحرى بأن يصاحب الأمير مأمون الرشيد ولكنه كلما طلبه الهارون إلى البلاط لكي يمتحنه قد تحير الفضل من شوكة الجلالة وأبهته ولم يقدر على أن يؤدي كلمات معدودة للسلام والمتبعات الملوكية فنظر الهارون إلى جعفر متعجباً فتقدم الفضل وقال: أمير المؤمنين! هذا دليل على سعادة الرقيق أن يتأثر بهيبة ربّه وشوكته". فأعجب به الهارون وأثنى على اختيار جعفر، وهكذا فقد بقي الفضل نديماً خاصاً للمأمون زمن أمارته وبما أن أيديه القوية الشديدة قد نجّت سفينة الخلافة من الغرق فقد أحاط بالمأمون ولم يسع أحداً أن يخالفه في البلاط. وبالرغم من هذا الإعجاب بالنفس فقد كان الفضل يتصف بما لا يحصى من الخصائص فهو كان جواداً للغاية، ومدبراً إلى النهاية، وحكيماً فاقد النظير، ومحباً للعلم حباً جمّاً.

فقد كان يحضر بلاطه كبار شعراء العربية ممن طوّر فن الإنشاء من مثل صريع الغواني وإبراهيم الصولي وأبي محمّد. وبما أنه كان يشكي الناس بجانب جوده فقد كان يحضره الجمّ الغفير من المحتاجين وعلى هذا فقد قال لثمامة بن الأشرس

¹ وقد وقر ابن خلدون تفصيل هذه الوظائف والمناصب الرسمية بأسلوب تاريخي

مزعجًا: قد سئمت هؤلاء الناس" فقال له ثمامة: انزل عما تحتلّه من المنصب فلا تجد أحدًا يمدّ يديه أمامك". ولقد زادت هذه الفقرة المؤثرة جودًا على جوده السالف.

كتب أحدُ رسالةٍ إليه نمّ أحدًا إليه فردّ الفضل على حاشيتها "إني أفضّل أن أقبل الغمز على عمل الغمز ذاته فإن الغمّاز لا يدلّ إلا على الطريقة بينما من يقبله فهو يسير عليها". كان الفضل بارعًا في النجوم ولو كان علم النجوم صحيحًا أو خاطئًا على وجه الاصطلاح إلا أن بعض نبوءات الفضل قد صدّقها التاريخ من حيث لا نجد مثلاً أجمل لحسن الاتفاق. تم قتله في 201هـ على إشارة من المأمون وقد وجد صندوق من أسبابه فيه حبر كتبه عليه "بسم الله الرحمن الرحيم، قد حكم الفضل عن ذاته أنه لا يحيى إلا 48 سنة ثم يقتل بين النار والماء". وبما أنه قتل في الحمّام فقد صدّقت نبوءته هذه مائة بالمائة¹.

بادئ ذي بدء عيّن الحسن بن سهل عاملاً على فارس والأهواز والبصرة والكوفة واليمن وحينما تمّ قتل الفضل عيّن الحسن على منصب الوزارة. وتشتهر أساطير وحكايات تقديره للرجال وجوده للأموال فما قام بتبذيره من الأموال في زواج ابنته بوران لتقرأ قصته في ترجمة المأمون.

كان فصيحًا للغاية وبلغيًا وفهّامًا للشعر فقد استدلّ الكتاب بفقره المؤثرة وكتاباته السامية الحلوة في كتب الأدب العربي.

كان يعامل مع الناس معاملة ودية وكان شفوفاً بالناس، وكان يبذل قصارى جهده في تلبية حاجيات الفقراء والبائسين. كان له رغبة خاصة في توصيته للناس واستعفافه لأخطائهم وزلاتهم، فذات مرة ارتكب أحد جريمة ثم كتب الحسن موصياً له فشكره الرجل لوقت طويل فقال له الحسن: لا حاجة إلى الشكر فإننا نعتبر الشفاعة زكوة للجاه والعزة وهو كان يكثر القول: إن الناس يسألون عن زكوة العز والجاه كما هم مسئولون عن زكوة الأموال.

¹ وتناول ابن خلكان بشيء من التفصيل ترجمة الفضل والحسن

ومن المؤسف للغاية أن الحسن لم يحظ بالوزارة لمدة طويلة فإنه قد اهتمّ بقتل الفضل وجدًا قد فقد حواسه لكثرة بكائه ليل نهار حتى كبّل بالسلاسل. توفي بسرخس في 236هـ.

أحمد بن أبي خالد الأحول: قد جعل نائبه على طلب من الحسن فلما أحبّ المأمون أن يجعله مستقلًا بالأمر أنكره قائلاً: إني حاضر لكل خدمة تطلب مني ولكني أودّ أن أبعث عن لقب الوزارة. وبما أن المأمون قد خمن مؤهلاته فلم يقبل طلبه هذا وجعله وزيرًا له فأدّى أحمد هذه الخدمة بكل موهبة وشوكة وكان المأمون يكرّمه كذلك. ذات مرة قدّم أحد طلبًا قال فيه "إن رئيس الوزراء يرغب في الطعام فيؤيد من يقبل دعوته" فلو يردّ المأمون على هذه الشكوى إلا أنه زاد راتبه الشهري ألف درهم لمأدبته¹. وينتهي زمن خلافة المأمون على نهاية زمن وزارة أحمد فمن جاء بعده من الوزراء لا يهتمنا ذكرهم لأجل خمولهم وعدم تركهم أثرًا يذكر.

الكتاب: فمن احتلّ هذا المنصب الجليل في عصر المأمون كان فاقد النظر في فنه فقد اعتبر عمرو بن مسعدة (ت 215هـ) فاضلاً مشهوراً فهو كان يؤدّي مفاهيم كبرى بكلمات وجيزة من حيث لم يفته أثر المقال ولا شدته. يقول أحمد بن يوسف: ذات مرة حضرت المأمون وهو كان يقرأ رسالة وكان غريباً فيها. كان يقرأها مراراً وتكراراً ويتمايل بها؛ كان يضعها ثم يأخذها فلما رأني قال: أمير المؤمنين! كان يقول هارون الرشيد إن البلاغة هي أن يؤدّي المعنى بكلمات وجيزة بحيث لا يفقد التأثير فما قاله أمير المؤمنين قد أثبتته هذه الرسالة" قال هذا ثم قرأ الرسالة التي كانت تشكو ما بقي من الراتب ومن كلمات تلك الرسالة "كتابي إلى أمير المؤمنين ومن قبلي من الأجناد والقواد في الطاعة والانقياد على أحسن ما يكون عليه طاعة جند تأخرت عطياتهم واختلت أحوالهم ---"².

والكاتب الثاني للمأمون أحمد بن يوسف سند في فن البلاغة لم يبلغ شأوه أحد من

¹ تاريخ الخلفاء للسيوطي

² زهر الآداب للعلامة أبي إسحاق الحصري

معاصريه وما كتبه الطاهر بن الحسين إلى المأمون عن قتل الأمين والتي كانت مضرب المثل في الإيجاز وحسن الأداء وعلو الفكرة كانت مما خلقها أحمد بن يوسف هذا فقد كان يثني الوزير أحمد الأحول على أحمد بن يوسف للمأمون وعلى هذا فقد طلبه المأمون إلى بلاطه فتحدث أحمد بعد أداء التسليم والأداب بفصاحة ولطافة حيرت المأمون فقال: عجباً من أحمد، كيف استطاع أن يخفي نفسه حتى الآن؟ وقد نقل العلامة أبو إسحاق الحصري في كتاب "زهر الآداب" عديداً من نكته الممتعة ورسائله البليغة وأبياته الساحرة وفيما يلي ننقل بيتاً منه:

إذا ما التقينا والعيون نواظر فألستتنا حرب وأبصارنا سلم

القضاة: كان بغداد مركزاً لقسم القضاء الواسع نطاقها في الدول المحتلة وقد احتل هذا المنصب العظيم رجلان بالتناوب وهما يحيى بن أكثم وأحمد بن أبي داؤد. كان يحيى يعتبر إماماً روحياً بجانب جاهه وعظمته الحكومية وكفى جلاله شأنه أنه قد تلمذ له البخاري والترمذي وقد بلغ به مؤهلاته الشخصية وحنكته في السياسة إلى منصب الوزارة فكانت كافة وثائق قسم الوزارة تمرّ بهذا الفقيه الجليل قبل أن تنال سند القبول. تم تعيينه بحيث أن المأمون أراد أن يوظف أحداً على وظيفة شاغرة للقضاء وقد كان ينضمّ إلى المقدمي الطلب هذا القاضي وبما أنه كان كريبه المنظر فقد نظر إليه المأمون بحقارة ففطن له هذا وقال: إذا كانت لك علاقة بشكلي فلا حرج وإلا فستعلم عني بعد امتحاني" فسأله المأمون ممتحناً: توفّي رجل عن والديه وابنتين ثم توفيت ابنة والآن بقي هؤلاء الثلاثة فكيف تقسم الميراث بينهم". فقال يحيى: هل الميت ذكر أن أنثى ففطن المأمون لهذا السؤال بأن القاضي قد فهم مخّ القضية فلما تعيّن قاضي البصرة فلم يكن يتجاوز عمره العشرين فتعجب الناس من صغر سنه حتى سأله أحد عن عمره فردّ عليه أن عمره أكبر من عمر عتاب بن أسيد (الذي قد عينه النبي قاضي مكة). إنه تكلم مع المأمون عن المتعة وقد ضبطناه في ترجمة المأمون فكان المأمون يجلسه على عرشه مقدراً لروعته وبراعته، له مؤلفات فقهية ذات درجة عليا كما له كتاب في الردّ على فقهاء العراق يسمّى "التنبيه" وهو كتاب شهير للغاية¹.

¹ ستجد ترجمة مفصلة للقاضي يحيى في تاريخ ابن خلكان

العدد الخاص مجلة الهند

النكتة: كان القاضي مائلاً إلى حبّ الجمال فذات مرة أمر المأمون الغلمان الحسن بأن يدلّوا مع القاضي حينما يقعد عن العرش فلما بدأ الغلمان يراودون فنظر إليهم القاضي بحسرة وقال: ويل لكم أيها الغلمان! لولم تكونوا لكنّنا أشدّ المؤمنين إيماناً. كان المأمون يسمع ويرى كل هذا فظهر من وراء الستار منشداً:

وكنا نرجي أن نرى العدل ظاهراً فأعقبنا بعد الرجاء قنوط

متى تصلح الدنيا ويصلح أهلها وقاضي قضاة المسلمين يلوط

النكتة: ادّعى رجلُ النبوة في زمن المأمون فدعا المأمون القاضي يحيى لكي يفتشاً عن أحواله فلبسها ملابس عادية وزاراه فسألاه "ما هي معجزتك؟ فقال المدّعي: إني يوحي إليّ من قبل الله. فقال المأمون: هل الآن نزل عليك وحيّ ما فقال المدّعي: قد أوحى إليّ أنه يأتي لزيارتي اثنان أحدهما ملك والآخر لواتي" فضحك المأمون حتى بدت نواجذه وقال: والله أشهد أنك لرسول الله". لنقس هذه الأحداث على متطلبات ظرافة وطلاقة هؤلاء الكبار وإلا فمن يسيئ الظن بالقاضي وتقواه وورعه فما كتبه ابن خلدون عن هذا الأمر فقد جاء بشيءٍ بديع. توفي القاضي يحيى في 242هـ عن عمر يناهز 83 سنة.

كان القاضي القضاة أحمد بن أبي داؤد فقيهاً كبيراً وأصولياً متكلماً شاعراً فقد ذكره دعبل الخزاعي الذي كان أشهر شعراء عهد المأمون في كتاب الشعراء. ذات يوم كان الفقهاء يجتمعون لدى القاضي يحيى وكان معهم القاضي أحمد إذ بلغه منادي الملك (جويدار: منادي الخليفة) وقال إن أمير المؤمنين طلب القاضي أحمد مع كل الحضور. كانت هذه أول مناسبة وفق أحمد الحضور في البلاط. ناقش المأمون كلهم مناقشة علمية فلما جاءت نوبة القاضي أحمد تحيّر من ارتجاله وجدته فسأله عن اسمه ونسبه وأمر بأن يحضر الجلسات العلمية منذ اليوم. كان من آداب البلاط قبل القاضي أحمد أنه لم يسمح لأحد أن يتحدّث قبل أن يبدأ الخليفة فالقاضي أحمد أول من أنهى هذا التقليد وكان يؤدّي واجبه بكل جرأة وحرية والحق أننا لا نجد مثل هذه الضروب لدى الحكومة

الشخصية. كان البلاط كله يقشعر من سطوة وهيبة الخليفة المعتصم بالله¹ ولكن القاضي أحمد كان يقول ما يخطر بباله وكان للمعتصم بالله أن يسمع ما يقول القاضي أحمد فلما أمر المعتصم بالله بقتل البرمكي فغلب البلاط السكوت وغاب عن كلِّ الشعور بعد رؤية صورته الغضبانة. أمر البرمكي بالجلوس على الفتحة وحرك الجلاد السيف فتقدم القاضي أحمد وقال: إنك تقتله ولكن لا يسوغ لك أن تأخذ تركته بعد موته. ففار غضب المعتصم بالله وقال: من لي يمنعني أن آخذ تركته؟ فقال القاضي أحمد: الله ورسوله لأن التركة يستحقها الورثة ولا تحرم ورثته تركته ما دمت تثبت قتله حلالاً فأجبره القاضي أحمد إلى أن رجع المعتصم بالله عن أن يهّم بهذا.

وكثيراً ما كان يقول المعتصم لحواشيه بعدما يرى القاضي أحمد مقبلاً عليه: سيأتي القاضي ويقدم إلينا عددًا لا يحصى من طلبات الناس وتوصياتهم، لن أقبل طلباتهم وألبي أمانيتهم ولكنه كان يجبرني على ما شاء بقوة بيانه وفصاحة كلامه. كان هو معتزلي المذهب. عزله المتوكل على الله عن منصب القضاء في 237هـ وأخذ من أولاده مائة وستين ألف جنيه كغرامة. توفي القاضي أحمد في 241هـ².

كان الحكّام والأفرقة الموظفون في مناطق العمّال والذين كانوا على منزلة جابي الضرائب كان عددهم غير قليل ولو أننا لا نقدر على ترتيب سجل لهم جامع حافل بهم إلا أنهم لم يشملهم، كما أعرف، أتباع غير الدين الإسلامي إلا قليلاً بل الأحوط أنهم لم يكونوا من بينهم وذلك لأن هذا المنصب كان يتطلب خدمة الجيش بينما لم يكن يحب هذه الخدمة أتباع الأديان الأخرى أو لم يثق بهم المسلمون أنفسهم فما كان النصراني واليهود يحظون به من المناصب كانت يشملها مكتب الخراج والأموال والكتابة والإنشاء.

¹ كان من إخوة المأمون وتولّى العرش بعده، حكم بأسلوب ملؤه عظمة وسلطان. وما نسمعه من أساطير قوة الدولة العباسية وعظمتها قد بقيت حتى عصره وأما العصور التالية فلم تبق فيها سوى اسعي.

² وقد جاءت ترجمة مفصلة للقاضي أحمد في نامه دانشوران للناصرى وتاريخ ابن خلكان

العدد الخاص مجلة الهند

وحتى هذا العهد كان المسلمون أحرارًا إلى حد غضبهم من والٍ أو حاكمٍ لمنطقة يريد أن يستبدّ معهم وإن لم يرجع عن معاملته هذه فهم كانوا يخرجونه من ديارهم فلما عيّن عبد الله، أمير عباسي، في 198هـ عاملاً على مصر وجعل يشتدّ مع الشعب فقام الناس ضده وأخرجوه ذليلاً مدحوراً ولنا ضروب أخرى في تاريخ خلافة المأمون العباسي.

فمن عيّن فريفاً أو حاكماً في عهد المأمون كان أجودهم وأعقلهم الطاهر بن الحسين والسري بن الحكم وعبد الله السري وعبد الله بن طاهر والحسن بن سهل لاسيما أسرة الطاهر التي قد بلغت في الشوكة والأبهة إلى حد أقاموا حكومة مستقلة في خراسان بعد المأمون. كان عبد الله بن الطاهر أديباً كبيراً ومحدثاً وشاعراً وماهراً في الموسيقى بجانب ووفوره في الشجاعة والتدبير فلا يبلغ شأو جوده سخاء المأمون ذاته فذات يوم ارتقى في قصره في الزمان الذي عيّن فيه عاملاً على مصر فوجد الناس يشعلون النار لطبخ الأغذية فأمر بأن يحدّد الطعام والملبس لكل هؤلاء. كان هؤلاء عددهم ألف نسمة فاستمروا في نيلهم منحتهم ما دام عبد الله حيّاً وما صدّقه في رحلته من دار الخلافة إلى مصر يخمّن مبلغه مائة ألف درهم. وكان أبو تمام الطي الذي كتبه ديوان الحماسة قد انتشر في العالم كله من بين شعراء بلاطه وكانت الأسرة الملوكية كلها تكرمه (عبد الله بن الطاهر) فلما دخل بغداد في 211هـ ومعه كل من اعتدى من الشام والموصل وغيرهما من البلاد مكبّلين في السلاسل والأعناق فخرج لاستقباله كافة أهالي وأفراد الأسرة الملوكية وحتى الخليفة المعتصم بالله. أنفق عشرين مائة ألف درهم على إعتاق العقبة قبل موته ولكنه مع ذلك فترك أربعين مليون درهم حين فراقه من هذه الدنيا الدنيا¹.

¹ وقد ذبّطت ترجمة مفصلة لعبد الله بن الطاهر في النجوم الزاهرة في تاريخ مصر والقاهرة وسنقدّر براعته مما نقله العلامة أبو الفرج الإصفيهاني من الوقائع عن فضل عبد الله العلي، وقريضة، ومعرفته للموسيقى

فضلاء عهد المأمون

هذا من واجبات المؤرخ أن يذكر تراجم فضلاء العهد الذي يريد كتابة تذكركه مما يسهل به تقدير حضارة البلاد وازدهارها وعطاءات حاكمها العلمية ولكنه إذا أراد أحد أن يذكر تاريخ بغداد العلمي فلا بد من كتابة مجلدات عنها فليس بلاط المأمون مثل أبلطة أكبر وشاهجهان حيث يكفي الباحث عن تطوّر عهدهما العلمي "أئين أكبري" و"شاهجهان نامه".

كانت حكومة المأمون ممتدة من بغداد إلى الشام وإفريقية وآسيا الصغرى وتركستان والتاتار وخراسان وفارس والسند وكانت كل بلدة محتلّ العلماء ومركز الأدباء والشعراء بينما كان بغداد مركزها وهو كان دار الخلافة.

ويمكن تقدير انتشار المعارف في ذلك العهد أنه لما بلغ العلامة النصر بن شميل عن تقدير المأمون للعلم والعلماء وأراد أن يذهب إلى خراسان من البصرة¹ فمن شايعه من الناس من البلدة كان عددهم نحو ثلاثين ألف نسمة بمن فيهم اشتهر كلهم إما بلقب المحدث أو المنجم أو اللغوي أو العروضي أو الأصولي. كان البخاري في هذا الزمان فمن قرأ عليه كتابه صحيح البخاري يتجاوز عددهم تسعين ألف طالب.

فإن يفتخر أي عصر من عصور التاريخ بإنجابه بالعلماء والفضلاء فسيكون عهد المأمون أبرز هذه العهود فمن الفقهاء والمحدثين في عصره يحيى بن معين والإمام البخاري ومحمد بن سعد الكاتب الواقدي وابن عليّة وسفيان بن عيينة وعبد الرحمن بن المهدي ويحيى القطان ويونس بن بكير وأبو مطيع البلخي وإسحاق بن الفرات تلميذ الإمام أبي حنيفة وقاضي مصر والحسن بن زياد الوؤلوي وحمام بن أسامة تلميذ الإمام أبي حنيفة والحافظ ابن هشام وروح بن عباد وأبو داؤد الطيالسي والغازي بن قيس والإمام الواقدي تلميذ الإمام مالك أبو حسان الزياتي ومحمد بن نوح العجلي وعلي بن أبي مقاتل ممن يبني على رواياتهم قصر العلوم الدينية لاسيما الإمام الشافعي والإمام أحمد بن حنبل من الأئمة الذين تروّج

¹ تاريخ ابن خلكان (ترجمة العلامة النصر بن شميل)

مذاهبهم الفقهية كأصول الشريعة والدين في معظم بلاد العالم الإسلامي منذ الأحد عشر قرنًا فمؤلفات هؤلاء المحدثين والفقهاء ذكريات العهد المأموني العلمية التي يعجز عن تقديم أمثالها أي عهد من عهود التاريخ العالمي.

وأبو هذيل وثمامة بن الأشرس اللذان كانا من أقرب حواشي المأمون وندمائيه هما اللذان قد ابتدعا الفرقة الهذلية والثمامية فقد أضاف أبو هذيل عشرة أصول جديدة إلى فرقة الاعتزال ومنها فمن لم يعرف الله بعد إمعان النظر هو معذور إذا أنكره ولا يعذب يوم الآخرة وكذا من أقام الفرقة النسطورية من بين النصاري كان أبرز حكماء العهد المأموني والذي يسمّى "نسطورًا"¹.

وسعة الأفكار في هذا العهد ووجود المقيمين لمختلف الفرق كان يسببه الحرية التي قد وهبها المأمون للإعراب عن الأفكار الدينية لأنه لم يحاول أن يمنع الناس سوى فكرة خلق القرآن. كان هو ذاته معتزليًا أو شيعيًا ولكنه كان يكرّم أصحاب القدرية والجهمية وغيرهما من المذاهب الدينية الأخرى فهو كان يجود بأمواله على كل أتباع الفرق والمذاهب على السواء.

الحكماء والمترجمون: وزمرة المهرة في النجوم والفلك والمترجمين لكتب الحكمة أبرز أعضائها حنين بن إسحاق النصراني وميسوع النصراني وقسطا بن لوقا النصراني ويوحنا ماسويه النصراني وابن البطريق النصراني ويعقوب الكندي النصراني وما شاء الله اليهودي ودوبان الهندوسي وجريل الكحال والحجاج بن يوسف الكوفي وأبو حسان سلما مدير بيت الحكمة وأبو جعفر يحيى بن عدي ومحمد بن موسى المنجم ومحمد بن موسى الخوارزمي ومحمد بن موسى والحسن بن موسى وأحمد بن موسى وعلي بن عباس وأحمد الجوهري ويحيى بن أبي المنصور والحجاج بن المطر وجيش الحاسب وأحمد بن كثير والفرغاني صاحب "مدخل إلى علم هيئة الأفلاك" وعبد ال—بن سهل بن نوبخت وسهل بن هارون وخالد بن عبد الملك المروزي وسند بن

¹ أخذت هذه الرواية من الملل والنحل لعبد الكريم الشرسطاني ولكن التحقيق يقول إن نسطورًا قد سبق الإسلام وجوده وعلى هذا فقد تعجّب ابن الأثير من الخطأ البيّن من عبد الكريم

علي والعاص بن سعيد الجوهري. وكانت روايت معظم المترجمين حسب مقاسنا ألفي روبية وخمسمائة روبية شهريًا.

كان عبد الله بن سهل ماهرًا في النجوم ويحيى بن أبي المنصور في علم الرصد وكان موسى بن شاكر يحترف الراوزني في بداية عمره ثم تاب وانضم إلى أعضاء البلاط وخلف له ثلاثة أولاد صغار حمل مسئوليات تربيتهم وتعليمهم على إسحاق بن إبراهيم المصعبي ولما شبوا أمر بأن يعملوا في بيت الحكمة بمرافقة ليحيى بن أبي المنصور فقد نالوا شهرة فائقة في الفلسفة والهيئة في مدة قليلة للغاية وأصبحوا مشرفين على العلوم والفنون ومنهم محمد الذي قد حظي بشوكة وأبهة وعين قائد الجيش كما التفت أحمد إلى علم الحيل فقد تحيّر العلامة ابن خلكان عن كتابه "الحيل" وكتب أنه مشتمل على صنائع الحكمة العجيبة وأما الحسن فقد برع في علم الهندسة ولو أنه لم يتعلم إلا بضع مقالات على أساتذته.

علماء الأدب: ذات يوم اعترض المروزي أمام المأمون قائلاً أن الحسن لم يقرأ إلا ست مقالات للأقليدس فقال الحسن إني أقدر على إثبات كل صورة على طريقي الخاصة للاستدلال فلا احتاج إلى قراءتها فقبل المأمون رده هذا المليء بالفخر إلا أنه قال إنك تركتها غير كاملة، الأمر الذي يثبت كسلك في هذا الشأن فعلم الهندسة لازم للفلسفة لزوم الأحرف الأبجدية للكلام¹. ومن علماء الأدب والعربية الذين قد تمتعوا من تكريم المأمون وعطاءاته هم الفراء النحوي والأصمعي وأبو عبيدة النحوي والنضر بن شميل (ت 204هـ) واليزيدي اللغوي وكثوم العتابي وابن الأعرابي وثعلب النحوي وأبو عمرو الشيباني والأخفش النحوي وقطرب النحوي (ت 204هـ) وهم كانوا معاصري المأمون. إن هؤلاء قد بلغوا بفن الأدب واللغة أوجهما فما نجده من كتب الأدب العربي في أيامنا هذه تزخر بما خلفوه من التحقيقات والروايات والواقع أنه لو حذفنا أسنادهم من بين هذه الأسناد فستنهمر أسس هذه العلوم والفنون.

¹ مختصر الدول (ذكر حكماء عهد مأمون الرشيد)

لم يكن الفراء ماهرًا في علم النحو فحسب بل كان له اليد الطولى على علم اللغة والفقه والنجوم والطب وأيام العرب فيقول ثعلب: لو لم يكن الفراء لفقدنا علم العربية. له مؤلفات عديدة يبلغ عدد صفحاتها ستة آلاف صفحة تقريبًا. توفي في 207هـ.

الأصمعي: كان الأصمعي من أهالي البصرة، تحوي رواياته خمس علم اللغة العربية ومن رواياته أشعار كل صنف بما فيها اثنا عشر ألف شعر في الرجز. يعتبر أبو عبيدة والأصمعي خصمين في اللغة العربية وأدبها. كانا حاضرين لدى الفضل بن الربيع (وزير أمين الرشيد) فسأل الفضل الأصمعي: الكتاب الذي قمت بتأليفه في صفة الفرس في كم مجلد هو؟ فقال الأصمعي: في مجلد واحد ولا غير" فلما سأل أبا عبيدة فقال مفتخرًا بنفسه: كتابي في خمسين مجلدًا" فقال الأصمعي للفضل أن يأمر بمجيئ فرس وجعل ينشد أبيات العرب في كل عضو منها ثم طلب من أبي عبيدة أن ينشد مثل هذه الأبيات في كل أعضائها فأنكر فوهب الفضل تلك الفرس للأصمعي. يقول الأصمعي: حينما كنت أزعم أبا عبيدة كنت أزوره وأنا على تلك الفرس".

وكذا طلب الحسن بن سهل وزير المأمون الأصمعي وأبا عبيدة في بلاطه وقد تحير الحضور من قوة حفظ الأصمعي التي قد اختبرها الحسن بطريقة عجيبه للغاية. للأصمعي مؤلفات عديدة ذكر خمسة وعشرين كتابًا منها العلامة ابن خلكان في كتابه. توفي الأصمعي في 216هـ.

اليزيدي: اليزيدي كان من أساتذة المأمون وقد جمع ابن أبي العتاهية أماليه عن الأدب والتي يبلغ عددها عشرة آلاف ورقة. كان لليزيدي خمسة أولاد وكان كل منهم ماهرًا في الأدب والشعر وأيام العرب. توفي اليزيدي في 202هـ.

أبو عمرو: كان أبو عمرو الشيباني إمامًا للغة والشعر. من تلامذته الإمام أحمد بن حنبل. قد جمع أشعار ثمانين قبيلة من قبائل العرب. من مؤلفاته كتاب الحيل وكتاب اللغات وكتاب النوادر الكبير.

الأخفش النحوي: كان الأخفش إمامًا في النحو وهو الذي أوجد بحر المحبة في العروض. له مؤلفات عديدة بما فيها معاني القرآن وكتاب الاشتقاق وكتاب العروض وكتاب الأصوات وكتاب معاني الشعر. توفي في 206هـ.

أبو عبيدة: كان أبو عبيدة ماهراً للغة وأشعار العرب. طلبه الفضل بن الربيع من البصرة فلما حضر البلاط أكرمه ثم حضره رجل آخر في لباس الكاتب فأجلسه الفضل في جانبه ثم سأله: هل تعرف؟ هذا أبو عبيدة. كان ذلك المرء تَوَاقُفاً للقائه منذ مدة طويلة فشكره على هذه المفاجئة التكريمية ثم قال لأبي عبيدة: لو سمحتني أسأل عن عقدة تؤذي من منذ أمد بعيد فأجازه أبو عبيدة فسال المرء إن الله شبّه برؤس الشياطين في إحدى آيات كتابه العزيز "طلعها كأنه رؤس الشياطين" والحال أن التشبيه يعقد بشيء يكون معروفاً لدى المخاطبين فقال أبو عبيدة إن الله يستخدم أساليب العرب فيقول امرؤ القيس:

ومسنونه زرق كأنياب أغوال

والحال أن العرب لم يروا الأغوال والشياطين. وبما أن صورة الشيطان يتخيّلها الناس مرهبة وموحشة فقد شبّه بها الله بمناسبة الوحشة والدهشة¹. ثم كتب أبو عبيدة كتاباً يسمّى "مجاز القرآن" والذي شرح فيه آيات هذا النوع. يبلغ عدد مؤلفات أبي عبيدة مأتي كتاب التي ذكر ابن خلكان منها الخمسين. توفي أبو عبيدة في 209هـ.

ابن الأعرابي: يعرف ابن الأعرابي بـ"إمام العربية". كان من تلامذة الكسائي وقام بالدلالة على معظم أخطاء القدامى في علم اللغة. كان يحضر حلقة دروسه نحو مائة طالب وكان يعلّم بدون أيّ كتاب يقرأه.

كان يحضر حلقة دروسه الطلاب من أقاصي البلاد فذات يوم سأل طالبين عن أسمائهما وأنسابهما فعلم أن أحدهما من اسبيجاب والآخر من الأندلس فقد تعجّب ابن الأعرابي ذاته من اجتماع بعد المشرقين هذا. توفي في 231هـ.

نهي هذا المبحث معترفاً بأننا لم نكتب عشر ما كان ينبغي أن يكتب فنفارق المأمون كما نغادر حواشيه ومقرّبيه.

¹ تاريخ ابن خلكان (ترجمة العلامة أبي عبيدة والأصمعي)

تعليم المسلمين الماضي

- العلامة شبلي النعماني

ترجمة من الأردوية: د. أورنك زيب الأعظمي¹

عنوان مقالي اليوم هو "تعليم المسلمين الماضي" وهذا عنوان لو ذكرنا تحته كافة مآثر المسلمين العلمية لما كان غير ملائم ولكني اخترت من بينها مبحثين فقط، أولهما: كيف حصل المسلمون على العلوم والفنون؟ وثانيهما: كيف علّموها غيرهم من أمم وأقوام العالم؟ ولعل عنوان "التعليم" الذي هو الموضوع الرئيسي لهذه المقالة هو الذي جعل هذين المبحثين أشدّ علاقة بالموضوع.

العلوم التي نشرها المسلمون بعضها كانت من علومهم ذواتهم مما أوجدوها هم أنفسهم وبعضها مما حصلوا عليها من غيرهم من الأمم والأقوام ثم قاموا بتطويرها حتى أصبحت هي مثل علومهم التي أوجدوها هم أنفسهم، ولو أن مقالي تتعلق بعلوم هذين النوعين ولكن ليس بنوع العلوم ذواتها بل بنوع طريق تعليمها.

واعترف مع الأسف الشديد بأنني لم أظفر بما احتاج إليه من التفاصيل للكتابة عن هذين المبحثين وتلك هي ترجمات الفلسفات اليونانية، وأسماء المترجمين ومؤلفاتهم، تفاصيل دور العلوم والمدراس الإسلامية، وطرق تدريسهم، والمناهج الدراسية، وما شابهها من المعلومات التي لم أعتزّ عليها في كتاب خاصّ بها ولعلها لم تجمع في كتاب مستقل فلا نجد في كتاب مفرس كبير مثل "كشف الظنون"² سوى كتاب واحد.

¹ أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة المليية الإسلامية، نيودلهي

² هذا كتاب مفرس طبع في 6 مجلدات ضخمة من لندن في 1848م وهو يحتوي على حوالي 50 ألف كتاب ورسالة إسلامية وأخبارها.

ولعل كاتبه نفسه لم يوفق رؤيته، وأما المعلومات المبعثرة التي نجدها في Roman Empire لغبن و History of Philosophy لهنجي لويس وأقوام المسالك و Chamber's Encyclopedia و Encyclopaedia Britannica وغيرها من الكتب والموسوعات لتفيدنّ خطيباً مصقاعاً قام يثرثر عن رقي العلوم الماضي فيزلزل بها قلوب الحضور ولكن ليس بإمكان كاتب أن يكتب مقالة حافلة بتاريخها. وكل ما قرّته كان مبعثراً في كتب التاريخ الشتى والكتب الأخرى المتعلقة بالموضوعات الأخرى، ولعل هذا أول مقالة جمع فيها هذا القدر من الأخبار، ويجمل بي قبل أن أخوض في الموضوع الرئيسي أن أتحدث عن علوم المسلمين الخاصة بهم، وتاريخها البدائي، والأسباب وراء إيجادها.

ولو أن العرب كانوا بعيدين عن العلوم والفنون المعروفة إلا أن هؤلاء البدو كانوا يتدوّقون حلاوة العلم ولو قليلاً فكانوا مطبوعين على الشعر والنثر ولكنهم لم يكونوا يعبرون عن مناظر الفطرة فحسب بل كانوا يعرفون دقائق اللغة ولطائفها فتشهد جلسات سوق عكاظ الشعرية، ومناقشاتهم العلمية ومفاخراتهم الذاتية أنهم كانوا يعرفون جيداً عما يكلمون وكيف ينبغي أن يقولوا فما جادت به امرأة عادية من الفصل في النزاع الشعري بين امرئ القيس وعلقمة الفحل لن يمكن لكبير الماهرين في فن الإنشاء أن يعبروا عن انطباع أجود مما أدلت به هذه البدوية، وعلاوة على ذلك فالعرب كانوا يحفظون محامد آبائهم ومآثرهم بترتيب تاريخي فخراً بأنسابهم وتقيداً برحمهم وقرباهم.

فلما جاء الإسلام غيّر حياتهم العلمية بجانب التغيير في دينهم واجتماعهم ولقد أبكمت آيات القرآن المؤثرة الشعراء والخطباء وبما أن الأنشطة الودية أو المعادية قد وجّهت قوى العرب الذهنية إلى الإسلام قد نسوا قصصهم القديمة لفترة قصيرة كما قلّ أثر علم الأنساب وأيام العرب ولكن الإسلام قد أعطى أكثر مما سلب، وأما عزيمة الإتيان بمثل القرآن فقد فترت بعد قليل فالآن أصبح القرآن دليلاً للشعراء والخطباء هداهم إلى أصول متعددة جديدة للفصاحة والبلاغة كما أصبحت اللغة سلسلة وخالية من الصعوبة، وظفر الشعراء بالموضوعات العديدة للأخلاق بدلاً من قصص

وحكايات الإبل والشيء ولذا فما نجده من الملاحظة والارتجال في كلام حسان والحطيئة وذي الرمة وجيرير والفرزدق لا نجدهما في أراجيز وقصائد شعراء الجاهلية¹.

وكأن كافة العلوم الدينية قد اخترعها الإسلام فلو أنها نالت تطوُّراً بالغاً فيما بعد إلا أن أصولها مأخوذة من القرآن الكريم فقد أرشدت أوامره ونواهيه إلى الفقه كما أسست آية التورث فناً مستقلاً بالفرائض، ورتبت القصص بأخبار الأنبياء السابقين، وبني علم الكلام على آيات العقيدة والمعاد ولو أن هذه العلوم لم تمرّ بأي مرحلة من التدوين إلا أنها تم بناؤها في عصر الرسول ﷺ وروّجت الآلاف من المسائل حتى بداية القرن الثاني للهجرة.

لقد ذكرت الفرائض والأعمال مجملة في القرآن الكريم وبنيت خصائص السنة على ما سنّها الرسول ﷺ ولذا فقد مالت القلوب إلى جمع ما روي بالنسبة عن أقوال وأفعال النبي ﷺ وتولّد على مرّ العصور علم الحديث وأسماء الرجال وعلم الدراية، ولو أن أحداً يمكن له أن ينتقد هذه الاختراعات ولكن يحكم كل رجل منصف أنما بذله المسلمون من جهود وتحقيقات في صيانة أقوال وأفعال الرسول ﷺ لم يوجد لها نظير لدى أي أمة من العالم وأن هذه غاية الجهود البشرية التي بذلها المسلمون بهذا الشأن.

ولو أن علم النحو لم يكن فناً دينياً ولكن الدين هو الذي رغب المسلمين إلى تدوينه لأن الإسلام كان ينتشر في أدنى البلاد وأقصاها ويدخل فيها المئات من الأقوام الأجانب وبعد قليل دخلت الكلمات الأجنبية في اللغة العربية مما احتتمل به أن تضرّ بالمشتقات وأصول الإعراب فما يمكن أن يتأذي به اللغة عسى أن يؤثر في القرآن والحديث، وقد قوّى هذا الاحتمال بعض الأحداث وفي النهاية قام أبو الأسود الدؤلي (ت69هـ) الذي قد مارس بعض تجارب هذا النوع، قام بتدوين مسائل النحو فوضع قواعد اتسع نطاقها وتطوّرت حتى أنها أصبحت فناً مستقلاً برعاية الخليل بن أحمد البصري (ت170هـ) وسيبويه والكسائي في عصر هارون الرشيد، قام بتطويره المتأخرون كثيراً.

¹ ليراجع: الفصل التاسع والأربعون والفصول من 6 إلى 12 لتاريخ ابن خلدون

وبالجملة فكل علم ديني كبير كأنه تولّد بمولد الدين وجعلت تتزوج مسائله في أفنية المساجد أو الجلسات العامة فقد كان في عهد الصحابة رجال عدة¹ صلحوا بالاجتهاد في الاستدلال والاستنباط وتخريج الأحكام بجانب اطلاعهم الواسع، ولما جمعت أخبارهم فيما بعد سمّوا بالمجتهدين كما كان هناك رجال مهروا في حفظ الأحاديث فقد رويت 5364 حديثاً عن أبي هريرة و2630 حديثاً عن ابن عمر و2286 حديثاً عن أنس و1660 حديثاً عن ابن عباس و1540 حديثاً عن جابر²، وكذا كان من بين المفسرين 14 صحابياً كان اطلاعهم واسعاً على آيات القرآن الفقهية والتاريخية بالرغم من أن طريقة التعليم والتعلم كانت شفوية كعادة اليونان القدامى ولكن المأت من الرجال كانوا مشغولين بتعلم وتعليم تلك المسائل وكانت قضايا الحديث والفقهاء تتروّج في كل بلد إسلامي بالسرعة التي كان ينتشر الإسلام بها فقد تضيّقت أرض اليمن والحجاز للعرب العازمين البواسل فقد خرج الآلاف من الصحابة من البلاد العربية وانتشروا في البلاد المفتوحة حتى أن بعضاً منهم قد توطّنوها وهكذا فقد توطّن في الشام عشرة آلاف صحابي وفي الكوفة ألف صحابي وفي حمص خمسمائة صحابي وفي مصر حوالي ثلاثمائة صحابي³ فقد حملوا الأحاديث وقضايا الفقه العامة حيثما ارتحلوا مما جعلهم مقبولين ومشهورين فالصحاباء الذين تعلم عليهم الناس الأحاديث أو رووها عنهم ذكر عددهم ألف وخمسمائة صحابي.

ولفترة طويلة لم يكتب العرب الحديث النبوي ولا حاولوا تدوينه إما لأن النبي الكريم ﷺ ذاته لم يلتفت إليه أو لأن العرب كانوا يتكلمون على قوتهم الحافظة ولكنه كلما طالقت الفترة ضخمت دفاتر الروايات ولم يقدر البشر على حفظها عن ظهر قلب وبالتالي فقد بدأت عملية التدوين في 143هـ فقام بتدوين الحديث وتفسير الكتاب العزيز ابن جريج في مكة، والإمام مالك في المدينة، والأوزاعي في الشام، وابن أبي

¹ وقد عدّهم ابن حزم عشرين رجلاً فليراجع: فتح المغيث، طبعة لكتناؤ، ص 38

² ليراجع: فتح المغيث، ص 381

³ المصدر نفسه، ص 382 ولقد ذكر السيوطي أسماء وأنسب صحابة مصر في رسالة مستقلة سمّاها "درّ الصحابة"، ليراجع: حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، طبعة مصر، 1299هـ، ص 99

عروبة وحماد في البصرة، ومعمّر في اليمن، وسفيان الثوري في الكوفة. وكذا رتب الإمام أبو حنيفة الفقه بالدلائل كما دون ابن إسحاق المغازي والسير¹ حتى لما تأسس مصنع لإعداد الكواغذ برعاية الفضل بن يحيى البرمكي² وصلت هذه العلوم والفنون إلى كل دار وجلسة، ويمكن تقدير كثرة تأليف الكتب الدينية من أن أكثر من 100 موضوع للتفسير برز إلى حيز الوجود وتسمّى كلُّ منها بعلم مستقل، وألفت كتب عديدة في كل علم بل ظهرت المآت بل الآلاف من الكتب والرسائل³.

وقد أوجد علمان آخران في تلك الفترة لأجل شؤون الدين وهما علم البيان وعلم الكلام فمعجزة الإسلام الكبرى والتي لن تفتى للأبد كانت القرآن الكريم فلما كان يتحدّى القرآن بأن يأتيوا بمثله لم يحتج إلى دليل على هذا التحدي، ولو أن الكفار كانوا أرادوا إنكاره عرقلت عربيتهم سبيلهم لهذا فلو أنكروه بلسانهم ولكن حالتهم الطارئة فور قراءته، وثنائهم المرتجل عليه، وتأثرهم العاجل كان كل منها يشهد على ذلك ولكن هذه الدعوى لم تكن مفيدة سوى أمام العرب، وأما العجم الذين لم يكونوا يعرفون العربية وإن عرفوها ما بلغوا تلك الدرجة من ذوقهم للغة فمست الحاجة إلى وضع أصول الفصاحة والبلاغة كي تضطر الأمم الأخرى إلى إعجازه إن لم يوفّقوا لذلك الذوق اللغوي فأولاً وضع جعفر البرمكي وزير هارون الرشيد والجاحظ أصولاً⁴ ثم استنبط المتأخرون مسائل عن كل جزء منها وختم على هذا الفن في "المفتاح" للعلامة السكاكي. كان اليونان يمارسون علم البيان ولكننا نعلم أن المسلمين لم يعرفوه كثيراً بل لم يعرفوه البتة إلا أننا متيقنون أنه لو رزق اليونان الحياة لأطروا دقة نظر علمائنا وقوة استنباطهم. أوجد علم الكلام⁵ في حين وقع النزاع بين الإسلام والفلسفة وقت شيوع العلوم اليونانية في المسلمين وجعل من لم يحظ بنظرة دقيقة لا يعبأ بالعقائد الدينية

¹ تاريخ الخلفاء للسيوطي، وقائع خلافة المنصور لسنة 143 هـ

² من الفصل الرابع حتى الفصل الواحد والثلاثين بعد المائة لمقدمة ابن خلدون

³ قد جاء ذكر موجز لهذه العلوم والمؤلفات فيها في كتاب الإتيقان في علوم القرآن

⁴ ذكر علم البيان في مقدمة ابن خلدون

⁵ هذا غير علم الكلام الذي مضى ذكره آنفاً

ولكن العلماء المحققين للإسلام تيقنوا أن الحق لا يدمغه شيء فزغوا الأفكار الباطلة والآراء البشرية التي تسلّت في الدين عنه وأثبت بدلائل منطقية قوية أن الفلسفة اليونانية التي تخالف الإسلام وقضايها باطلة وأوّل تأليف في هذا الشأن هو "تهافة الفلاسفة" للغزالي والذي ذهب مذهبه الإمام الرازي وغيره من الحكماء وطوّروه إلى حدّ ثبت كتاب الغزالي متاعًا سامجًا.

ولو أن الإسلام لم يرد ليعلمّ الفلسفة ولكننا علمّ الناس عن وجود البارئ تعالى هو روح الإلهية أكبر جزء الفلسفة فيقول غبن:

"دين محمد بريء عن الشك والإيهام، والقرآن دليل ناجح على التوحيد. حماسه الديني والعقلي عن الله يؤمن بأن المعبود هو الإله الواحد اللامكان والقديم بدون صورة ولا ولد ولا شبيهه، إنه يعرف ما تكن صدورنا ويبقى بقوته ذاته، يؤمن المسلمون بأن لا شريك له وهذا ما لا تدركه العقول وذلك لأنه لما نبريء شيئاً غير محسوس عن الزمان والمكان والحركة والمادة والحس والتأمل فماذا يبقى إذن للتصور والفهم".

هذه صورة موجزة لعلوم المسلمين الدينية، وما ألفه المسلمون من الكتب في غير هذه العلوم والفنون عددهم حوالي 200 علم، ويمكن بيانها مع تفاصيل كتبها في كشف الظنون ومدينة العلوم ولكن لا أنسى أن عنوان مقالي هو تعليم المسلمين الماضي لا علومهم القديمة وسأفصّل طريقة تعليم العلوم الدينية فيما بعد فما تعلّمه المسلمون على غيرهم هي المنطق والإلهي¹ والهندسة والطبيعة والهيئة وكذا تلمذوا لغيرهم في الحساب والطب، ولا نجد أمثلة على أن علماء الإسلام أنفسهم تعلّموا اليونانية والسريانية وأخذوا هذه العلوم من الكتب المنصوصة ولقد كانت جماعة كبيرة للمترجمين في أبلطة خلفاء الإسلام ولكن لا نجد ردًا على اعتراض السيد هنيري لويس اللاذع "وأغليبيتهم كانوا نصارى" فحنين وحبيش ومتي ويوحنا وإسحاق ويعقوب الكندي كلهم كانوا نصارى فلا نجد من بين حكماء الإسلام من مهر في هذه اللغات سوى الفارابي الذي تعلّم هذه اللغات وعلومها على عالم نصراني يسّى يوحنا بن

¹ فكرة الفلاسفة الخواص عن الإلهية وإلا فقد استخرج المسلمون مسائل الإلهية من القرآن ذاته

خيلاق. ومن بين أشهر شارحي ومفسري كتب أرسطو ابن سينا وابن رشد وقد اعترفت أوربا بهما ولكني أشك في براعة أيّ منهما في اليونانية أو السريانية.

جهود العصور المختلفة عن الترجمة وصحتها وخطأها، دراسة عامة الآراء

يذكر عامة المؤرخين أن أول من أسس الترجمة هو أبو جعفر المنصور ثاني خلفاء العصر العباسي ولكني أراها مما تجاوزه المؤرخون عن حدود الأصل بالنسبة للمنصور فإننا نعثر على وجود الفلسفة في الدولة الأموية، وقد مضت فترة طويلة على تأثر العرب بالفلسفة فقد حضر بلاط الأمير معاوية طبيب نصراني تسمى ابن أثال الذي ترجم بعض كتب اليونانية إلى العربية¹ وأما حفيد الأمير معاوية خالد بن يزيد (ت 85هـ) فهو في الواقع يجدر بأن نلقبه بـ"حكيم بني معاوية" فقد تعلم الكيمياء والطب على راهب رومي يسمى مريانوس كما جمع من مهر في اليونانية وأخدمهم للترجمة.

ومن أشهر مترجمي عهد اصطفن الذي ترجم كتب الصنعة وغيرها من العلوم بمعونة من المترجمين بينما قد عزا المؤرخون بدايتها إلى المنصور، والواقع أن خالدًا هو الذي بدأ بها²، وكذا قام ماسرجويه العالم اليهودي الذي كانت السريانية لغته الأم بترجمة كتاب ألفه هراون القس إلى اللغة العربية ولعل المسلمين لم يولوا اهتمامًا بالفلسفة بعد عبد الملك ولقد قضي على الحكم الأموي في 131هـ.

ولما تولى المنصور العباسي على عرش بغداد في 137هـ التفت بنفسه إلى الترجمة والتأليف فكتب إلى قيصر الروم يطلب فيها كتب الفلسفة، وبما أن العاصمة كانت محرومة ممن عرف تلك اللغات حتى ذلك الحين فطلب منه أن يرسل ما يريد إرساله من الكتب ترجماتها العربية فوصلت كتب شتى لأقليدس وكتب أخرى لعلم الطبيعة إلى بغداد مع ترجماتها العربية فلما قرأها علماء الإسلام ازدادوا شوقًا إليها³، وقد

¹ ليراجع: نامه دانشوران ناصري، طبعة إيران (أخبار ابن أثال)

² ليراجع: ابن خلكان (أخبار خالد) كشف الظنون، 96/3 ولقد أنر ابن خلدون في مقدمته فضل خالد ومعرفته للفلسفة ولكن عندنا شواهد تاريخية ضد رأي ابن خلدون هذا.

³ مقدمة ابن خلدون، ص 419 (طبعة بيروت)

جذبت رغبة المنصور في هذه العلوم انتباه المترجمين والحكماء والعلماء من أقصى البلاد إلى بغداد عاصمة الدولة العباسية فكان جرجيوس وفرات بن سحنائا والبطريق (كلهم نصارى) ونوبخت المنجم وأبو سهل (كلاهما مجوسى) وابن المقفع من أشهر مترجمي بلاطه وحكمائهم¹ فترجم البطريق من اليونانية بينما ابن المقفع ترجمها من الفارسية. وفي 156هـ وصل عام هندوسى من الهند إلى بغداد بعدما سمع تقدير المنصور للعلم والعلماء. إنه قام بتلخيص كتاب رائع مهم يعزى إلى ملك هندي يسمى بيكر ثم قدمه إلى المنصور ثم ترجمه محمد بن إبراهيم الفزاري إلى العربية بأمر من المنصور فرتب في ضوئه كتاباً يعرف فيما بين المهرة في الحساب باسم "سند هند" وقد اتكل على هذا الزيغ في أعمال الكواكب حتى عصر مأمون الرشيد².

ولو لم يلتفت شيئاً إلى هذا الجانب المهدي بن المنصور بل منع الناس عن حرية الفكر والرأي بإقامة قسم تفتيش الزنادقة ولكن أسرة البرامكة الذين كانوا من أركان السلطنة خلال عهده قد نالوا قبولاً في هذا الشأن فقد ترجم العديد من كتب اليونانية والفارسية بعنايتهم وكان ابن ناعمة وسلام الأبرش³ وعبد الله الأهوازي من أشهر مترجمي عصرهم ولما جاء عصر هارون الرشيد الذي ليس مجهولاً لدى أوروبا وآسيا قد أضاف إلى المجهودات السالفة كثيراً فقد قام بقسم كبير للترجمة والتأليف وظف فيه كبار علماء كل فن وترجمة⁴ فقد تم خيار يوحنا ماسويه عالم نصراني

¹ ليراجع: مختصر الدول (أخبار حكماء عهد المنصور). هذا كتاب موجز مفيد ألفه أبو الفرج الملطي بالعربية، وقد ترجمه الدكتور بوكاك بروفيسور كلية أوكسفورد إلى اللغة اللاتينية فطبع الأصل بالترجمة من لندن في 1663هـ فنعني هذا التاريخ حيثما نذكر تاريخاً بهذا الاسم في هذه المقالة وأما لابن المقفع فليراجع: كشف الظنون (ذكر الحكمة)

² يوجد هذا التفصيل بالمزيد من أخباره في جامع القصص الهندية وهو مجموعة رسائل عن أخبار الهند وطبعت في بن بفرنسا في 1838م

³ ذكر صاحب "كشف الظنون" ابن ناعمة وسلاماً الأبرش كمتترجمين في غضون ذكر الحكمة وسيأتي ذكر بعض الكتب التي ترجمت للبرامكة.

⁴ ذكرت هذه الترجمات تارة بصراحة وأخرى في غضون الحديث في تاريخ هارون الرشيد لبامر، ص 222 وموسوعة تشيمبرس، 347/1، طبعة لندن، وكشف الظنون

كانت السريانية لغته الأم لترجمة الكتب اليونانية القديمة ففي هذا القسم الذي سمي بـ"بيت الحكمة" تمت ترجمة كتب الزند والبازند واليونانية والشامية والسندسكريتية ومن ثم نشرت في العالم كله وكذا كان في بلاطه منكة وصالح عالمان هندوسيان كانا مؤلفين بجانب كونهما مترجمين فقد أمر منكة بترجمة كتاب السموم لشاناق الهندي إلى العربية ولعل مؤلفات شرك وسشوراتا التي ترجمت إلى العربية مرتّ بمرحلة الترجمة في عصره وبفضل عناية هذين الحكيمين الهندوسيين¹.

وما قدّم من قبل لو كان كثيرًا إلا أن المجهودات القديمة قد غطّأها عزائم المأمون السخية فقد ذكر المؤرخون قصة عجيبة لرغبة المأمون الشديدة هذه وهي أنه رأى ذات ليلة في المنام أن رجلًا كبيرًا جالس في العرش فتقدّم إليه المأمون وقال: من أنت؟ فقال له الرجل: أنا أرسطو فسرّ به المأمون وسأله عن أحسن الأشياء فردّ عليه أرسطو: كل ما يحسنه العقل فطلب منه المأمون أن يرشده إلى محاسن فردّ عليه أرسطو: التوحيد وصحبة الصالحين فلو أثرت الرؤيا فيه أم لا إلا أنها تدلّ على رغبة المأمون وكلفه بالفلسفة. وعلى كل حال فقد كتب المأمون إلى قيصر الروم يطلب فيه أن يرسل إليه كافة كتب أرسطو وكان هذا زمنًا حيث يعتبر كتاب الخلفاء العادي حكمًا للقيصرة والفغافرة فقام القيصر للامتثال بأمره إلا أن الفلسفة قد أصبحت نسيًا منسيًا في الروم ذاتها فوجد راهبًا بعد بحث طويل والذي دلّله على دار في يونان تبقى مغلقة منذ عهد قسطنطين وزيد عدد الأقفال كلما ازداد عدد الملوك ولقد أغلق قسطنطين هذه الدار مخافة ضررها بالنصرانية لو عمّت الفلسفة البلاد فأمر القيصر بفتحها ولكنه خطر بباله أن الدين يمنعه إلا أن أركان الدولة أقنعوه بأنها لو

¹ كتب السيد الفنستون عن المسلمين في تاريخ الهند أن منكة وسالي الطبيبين الهندوسيين كانا في بلاط هارون الرشيد، وقد ذكر السيد ألفنستون صالحًا بـ"سالي" ولعل هذا هو الاسم الحقيقي وعسى أن يكون اسم شاناق الحقيقي سنغ والذي عربّ فتحول إلى شاناق وإنه كان طبيبًا تولّد قبل عيسى بقرون.

بلغت المسلمين لأبردت حميتهم الدينية وبالجملة فحملت خمسة جمال بكتب الفلسفة وسيقت إلى بغداد¹.

وكذا أرسل المأمون الحجاج بن المطر وابن البطريق اللذين كانا ماهرين في اليونانية والسريانية إلى الروم لكي يعودا بمختارات الكتب وقد رافقهما سلماً² مدير بيت الحكمة ولم يقتنع المأمون بهذا بل كما يقول غبن³ إن أفراداه قد جمعوا كتب الفنون اليونانية من أرمينية والشام ومصر ثم أمر بترجمتها إلى العربية بأيدي المترجمين البارعين، وفي نفس الفترة ارتحل قسطا بن لوقا الفيلسفي الشهير إلى الروم وعاد إلى العاصمة بكثير من كتب الفلسفة فلما بلغ المأمون ذكره دعاه إليه وعيّنه على منصب المترجم في بيت الحكمة⁴ وكذا جعل سهل بن هارون حكيم فارسي مترجماً في بيت الحكمة⁵ وكذا كان يعقوب الكندي أكبر فلسفي وماهر في الكتب العديدة فأمر بترجمة كتب أرسطو خاصة⁶. كان من أغنياء النصارى كما كان أبوه عاملاً على الكوفة، إنه كان يعرف الفارسية والهندية واليونانية وكان يثق به المأمون ويقرّبه إليه ولعل المأمون ذاته قد تعلّم اليونانية فقد جاء في موسوعة تشيمبرس: صالح المأمون ملك يونان دوماً على خمسة أطنان من الذهب شريطة أن يسمح الحكيم ليو أن يزوره فيعلّمه الفلسفة اليونانية⁷.

ولا نجد نظيراً في أي دولة وجّهت فيها العناية إلى الفلسفة، وهكذا اعتنى بهذا الجانب أولاد شاكر المنجم محمد وأحمد والحسن الذين كانوا فاقدي النظر في الهندسة والنجوم والموسيقى وكان من حواشي المأمون وندمائه فإنهم أرسلوا السفراء على

¹ يوجد تفصيل هذا كله في تاريخ التواريخ للسان الملك سيهر

² يوجد تفصيله في باب الحكمة لكشف الظنون

³ Roman Empire (المسلمون، الباب الثالث، بداية الدولة العباسية)

⁴ مختصر الدول (أخبار قسطا بن لوقا)

⁵ فوات الوفيات (ترجمة سهل بن هارون)

⁶ History of Philosophy لهنري لويس (فلسفة العرب، أخبار يعقوب الكندي)

⁷ المصدر نفسه (ذكر العرب)

العدد الخاص مجلة الهند

نفقاتهم إلى ضواحي الروم وأمروهم بجمع الكثير من كتب الفلسفة كما أرسل السفراء إلى أقاصي البلاد ليدعوا المترجمين وعيّنوهم على ترجمتها¹ وقد أنتجت نية المأمون أن مجهودات هؤلاء الأولاد المشهورين قد كتبت في مآثر المأمون فاللغات التي ترجمت الكتب منها في هذا العهد كانت اليونانية والفارسية والكلمية والقبطية والشامية.

وقد اشتهر المتوكل بالله حفيد هارون الرشيد بمثل هذه الأنشطة فالمترجم الذي نال قبولاً وسمعة بسبب كثرة أعماله وجودتها هو الحكيم حنين بن إسحاق فقد أقام حنين سنتين في بلاد الروم وتعلّم اللغة اليونانية وفلسفتها بصورة تامة فلما رجع من الروم ارتحل إلى البصرة وتعلّم العربية على خليل بن أحمد البصري وبما أنه قد مهر في اللغتين فبدأ يترجم كتب الفلسفة إلى العربية برغبة منه خاصة وازدادت شهرته يوماً فيوماً حتى بلغ ذكره المتوكل بالله فقرر له المتوكل راتباً هائلاً كما خصّ له الإقطاعات، وكان لحنين ولد يسمّى إسحاق كما كان لأخته ولد يدعى حبيشاً فكانا بارعين في اليونانية والسريانية ولذا عيّن في قسم الترجمة فمعظم ما ترجم إلى العربية يعزى إلى هذين المترجمين².

وكان راتب كل من حنين بن إسحاق وثابت بن قرّة وحبيش بن الحسن وغيرهم من المترجمين خمسمائة جنية³ وأما المترجم الشهير في عهد المعتضد فهو ثابت بن قرّة الحراني الذي تربّى في بيت محمد بن موسى وانتسب ببلاط المعتضد على توصية منه فكان يكرّمه المعتضد حتى جعل الوزراء والخوادم يفتبّطون به⁴. ولعل العناية بالترجمة وببيت الحكمة لم تدم لأكثر من قرنين لأن المسلمين لم يألوا جهداً في البحث عن تراث علمي للروم ويونان حتى لم يبق شيء في هذه البلاد إلا وقد اكتشفه العرب وزدّ على ذلك بروز جماعة كبيرة لفلاسفة المسلمين من خلالها فحرّرت إنتاجات إسحاق وأبي معشر ومحمد بن موسى وأحمد السرخسي وأبي نصر الفارابي وغيرهم من الحكماء وإبداعاتهم

¹ ابن خلكان (ترجمة محمد بن موسى)

² توجد هذه التفاصيل كلها في مختصر الدول (عهد المتوكل بالله)

³ ناسخ التواريخ، المجلد الأول (أخبار أرسطو)

⁴ مختصر الدول

عن طاعة فلاطون وأرسطو¹ إلا أن بلاط الخلفاء بقي يضحّ بفلاسفة كل ملة وقوم لمدة غير قصيرة، كانوا يؤلفون أو يترجمون على رغبة منهم شخصية أو على طلب من الخلفاء فكان متي بن يونس عالماً كبيراً للمنطق في عهد الراضي بالله في نحو 324هـ وترجم بعض كتب أرسطو² فيقول السيد هنري لويس في كتاب "History of Philosophy": قام يحيى بن عدي وعيسى بن زرع بترجمات جديدة في القرن العاشر الميلادي كما قاما بإصلاح الترجمات القديمة وكذا ترجم محمد بن يحيى الجوزجاني في 348هـ وأبو الفرج المتوفى في 335هـ قاما بترجمات جديدة من السريانية وشرحا بعض الكتب³. وأبو ریحان البيروني الذي كان معاصراً لابن سينا وكان يضاھيه في الفلسفة والهيئة ذهب إلى الهند رغبة في علوم الهندوس أقام بها طويلاً حتى تعلّم الفلسفة وغيرها من العلوم وكان قد مهر في السنسكريتية إلى حدّ علّم الهندوس فلسفة يونان بلغتهم وهكذا برء ذمة عن التلمذ للهند⁴. وكذا سافر محمد بن إسماعيل التنوخي إلى الهند لكي يتعلّم بها الفلسفة والهيئة فأقام بها حتى فرغ من تعلّمها.

ولقد عثر المسلمون على أخيلة وقضايا الأقوام الأخرى بطرق مفاجئة أخرى؛ حينما كان سيل الفتوح الإسلامية يمسّ حدود الهند ويضرب كبار مدنها قصد عالم بنارسي اسمه بهوجر البرهمن بغداد لكي يناظر المسلمين وبلغ مدينة أكفوت في زمن السلطان علي مراد ولقي القاضي ركن الدين السمرقندي فرجع عن عزمته للمناظرة وجعل يدرس اللغة العربية ثم قدّم إلى القاضي كتاباً عنوانه انبرت كند وشرح له مباحثه فاشتاق القاضي أن يعرف محتوياته خيراً ومن ثم بدأ يتعلّم عليه السنسكريتية

¹ يقول السيد غبن إن الحكماء مثل المسوع وجابر والرازي وابن سينا اعتبروا أقراناً لحكماء يونان ولعل قول هذا الأوربي سيثبت ما ادّعينا.

² مختصر الدول

³ المصدر نفسه

⁴ ليراجع: جامع القصص الهندية ومختصر الدول ونشر أحد كتب البيروني المتعلقة برحلته للهند ومعاشها وتمدها من لندن وقد قدّم له البروفيسور شو عالم كبير لألمانيا ويمكن لنا أن نقدّر بمقدته هذه رغبة البيروني في العلم وإنتاجاته العلمية كذلك.

فعرف لغته المصدر وترجمه أولاً إلى الفارسية ثم إلى العربية إلا أن أماكنه المشككة كانت بحاجة إلى شرحها وبالمصادفة وصل إليه أحد تلامذة بهوجر المعروف بـ"انهبوا ناث" فتعلم عليه عالم سنسكريتي هذا الكتاب ثم ترجمه إلى العربية بجودة والتي تسمى "مرآة المعاني لإدراك العالم الإنساني"¹.

ولما صعد السلطان فيروز شاه حاكم الهند في جبل جوالاموخي في 772هـ أخبره الناس أن هذا المعبد² يحتوي على ألف وثلاثمائة كتاب قديم فأمر السلطان بترجمتها ومن ثم ترجمت المؤلفات في الموسيقى والنجوم وغيرهما من العلوم والفنون كما نظم عز الدين أحد مؤلفات النجوم.

هذا تاريخ موجز لترجمات العلوم والفنون، والآن نرى كم نوعاً من العلوم ترجمت مؤلفاتها، وما هي الأسباب وراء اختيارها، ثم ما هي علاقتها بالمؤلفات الإسلامية، وحتى متى نثق بصحتها، ولم امتن المسلمون بالأجانب في هذا المهم ولم لم يرغبوا هم أنفسهم في ترجمتها؟ وكما نعلم أن كتب الفنون الأخرى غير الطب والفلسفة (بما فيها المنطق والطبيعة والإلهيات والموسيقى والفلك والهيئة والهندسة والحساب والجبر والمقابلة) لم تنقل إلا قليلاً.

والواقع أن المسلمين العرب كانوا يعتزون بلغتهم ودينهم إلى أنهم لم يعتنوا بمؤلفات الآخرين غيرهم كما يرام وهذا حق أنه لو درس أحد التزامهم بأجزاء الفصاحة والبلاغة وترتيب القواعد وأقوالهم في استنباط المسائل لأمن بأن المهرة كمثل هؤلاء لا يسوغ لهم أن يمتنوا على أحد في شأن البلاغة فيقول العلامة ابن الأثير الذي طور علم البيان بقدر ملموس يقول مفتخراً: لا أدري اليونانية البتة وأجهل آرائهم في هذا الفن". فالمؤلفات اليونانية والرومية ما عدا الفلسفة والطب كانت إما متعلقة باللغة

¹ ذكر هذا التفصيل في جامع القصص الهندية وهذا نموذج أول حيث استخدم كاتب يعرف العربية الكلمات السنسكريتية أو الهاشوية بصورة صحيحة وهي كما ذكرتها هنا.

² ليراجع: تاريخ بدايوني (ذكر فيروز شاه) ولقد رأى البدايوني نفسه بعض ترجمات هذه الكتب مثل رزم نامه

أو بالدين فلقد رغب المسلمون عنهم على وعي ومما يؤسفنا أن فخرهم هذا الظالم قد حرمهم علم تاريخ الآخرين.

ولا شك أن المسلمين قد امتنوا بالروميين واليونانيين في أول مرحلة للفلسفة والطب وكل صفحة من مؤلفاتهم تنبئ عن منتهم هذه وهذا من الواقع أنما أولاه المسلمون من تكريم لفلاطون وأرسطو وغيرهما لم يحظوا منه في بلادهما ذاتها بالرغم من ذلك أن المسلمين قد ظفروا بذرة فجعلوها شمسًا وكذا طوّروا الهيئة كثيرًا ودلّوا على أخطاء أرسطو في علم الطبيعة ورتّب المنطق على طراز جديد للغاية وأضافوا إليه أصولًا جديدة، وأوجدوا آلات الرصد الحديثة واكتشفوا سير النور وأبدعوا أصل الانعكاس في علم المناظرة وأما الجبر والمقابلة فهما كانا يحتويان على قضايا جزئية معدودة فبلّغوهما درجة العلم وكذا صنع الأدوية وترتيب الوصفات وآلة التعصير وتحليل المواليث الثلاثة والفرق بين المياه الكاوية وامتحان تشابهها مما يرجع اختراعها إليها وهم الذين أسّسوا الكيمياء كما أضافوا ألفي نبات إلى علم النبات¹ وبالجملة فلو قام أحد بالمقارنة بين الكتب اليونانية والكتب العربية لوجد الفرق بينهما مثل الفرق بين القطرة والبحر.

ولا شك أن المترجمين النصارى يجردون بأن يفتخروا بخدماتهم للترجمة ولكن المسلمين يستحقون بدعوى أن هذه الترجمات مقابل مؤلفاتهم المستقلة لا توزن فتيلاً وعلى هذا فلم يلتفتوا إليها بعد أيام معدودات فالشيء الذي صان العلوم والفنون عن ضياعها كان مؤلفات المسلمين هذه فلا نجد اليوم هذه الترجمات في مكتبات المسلمين المركزية ولم يمتن بهذه الترجمات من قدر أن يكون أستاذًا لأوروبا مثل ابن سينا وابن طفيل والمحقق الطوسي والإمام الغزالي .

لا يمكننا أن نحكم عن صحة هذه الترجمات وخطأها والآن تستيطر أوروبا على كلتا اللغتين العربية واليونانية فقد علّمت الفلسفة لنحو قرنين عن طريق العربية وأن بعض الكتب القديمة مثل المجلد الخامس والسادس والسابع لكتاب أبولو

¹ لو أمهلني الدهر لكتبت رسالة تبين هذا الفرق ولقدّمتهما في الجلسة الثانية لهذه المؤسسة.

نيوسبرجيس قد صيبت بفضل العربية وإلا فإن أصولها قد ذهب بها الدهر فأوروبا يمتنّ عليها جهود المسلمين ونرجو منها أن حكمها عن هذه الترجمات سيكون بعيداً عن أي نوع من العصبية فيقول السيد غبن: لقد ناقش رناؤدوت (Renaudot) جودة هذه الترجمات وأيده غسيرا (Gasira) بإنصاف فقد جاء في كتاب History of Philosophy لهنري لويس أن بعض هذه الترجمات تمت بجودة لكن يقول كاتب فرنساوي: إن معظم هذه الترجمات لم تتم من اليونانية بل هي تمت من السريانية وقد وردت فيها الأخطاء لأنها ترجمة من ترجمة" ولو أننا نعترف بهذا الواقع على أن الترجمة لا تعادل الأصل ولو جادت وبلغت ولكننا نرى أن مثل هذه الأخطاء لم تؤثر في مؤلفات المسلمين فالفلاسفة المسلمون كانوا يقيمون عوج الفلاسفة اليونان فلن يمكن أن تؤثر هذه الأخطاء الجزئية في أفكارهم أو آرائهم¹.

ويرى السيد غبن أن رغبة المسلمين عن الترجمة مبنية على هذا الفخر الذي طبع عليه العرب فهو يقول: إن العرب كانوا يحقرون تعابير اللغة الأجنبية متكلين على كثرة مفردات لغتهم الرسمية فاختراروا من شعبيهم النصراني مترجمي اليونانية" ونعرف جيداً أن العرب كانوا مطبوعين على الفخر ولكن من المؤسف أن سوء ظن السيد غبن رفعها فوق ما كانت فالواقع أن الفلسفة تروّجت في العرب من عهد العصر العباسي وبرغبته الخاصة حدث هذا حينما كان الناس يننون تحت وطأة الروايات والقضايا الدينية وكاد أن تفشل حافظتهم فأودعوها الأوراق كما كان عليهم أن يرتبوا قواعد ومبادئ العلوم الدينية، وكان حماسهم الديني على ذروته حتى ذلك الحين وكان كل فرد من المجتمع يملكه قليلاً أو كثيراً ومن البديهي أن جماعة متحمسة لا تعني بما وراء علومها الدينية وقضاياها فقد كانت الجماعة الإسلامية المثقفة تنشغل آنذاك بتدوين وترتيب الحديث والفقه والتفسير وأسماء الرجال وزدّ عليها لمحتما عن الفلسفة التي بدأت تروج فيها فجاءت بحرية في الرأي فخالقها كبار الأئمة والمجتهدين على أن لا تعيش الفلسفة والدين معاً.

¹ ما قام به ابن سينا والفارابي من انتقادات على أرسطو في الطبيعة وفيثاغورث في الموسيقى يعرفها الجميع ولقد اعترف السيد هنري أن الفارابي قد صحح أخطاء فيثاغورث.

العدد الخاص مجلة الهند

وكان الخلفاء (أغلبهم) يؤيدون الفلسفة ولكن السيد غبن بإمكانه أن يحكم على أنهم ابتعدوا عن تعلم اللغة اليونانية على تحذير الحكم عنها أو تحقيرهم لها فقد بقيت الفلسفة ضيقاً شرفاً لقصور الخلافة لقرون فلم تنل القبول العام إلا بعد القرن الثالث ولكنه كما كتبنا أنه كانت هناك ترجمات لا تحصى ومؤلفات إسلامية لا تعدّ ولم يحتج المسلمون إلى أن يفتقروا إلى اللغة اليونانية أو السريانية لتعلم الفلسفة، ولا يصح الرأي أن المسلمين لم يشتركوا البتة في عملية الترجمة فنجد في الملل والنحل أسماء المترجمين المسلمين جنباً بجنب أسماء المترجمين الأجانب أمثال أبي سليمان بن بكر المقدسي ويوسف بن محمد النيشابوري وأبي زيد أحمد البلخي وأبي الحارث الحسن بن سهل القمي وأحمد بن محمد الأسفرائي وطلحة النسفي ومحمد بن إبراهيم الفزاري وسهل بن هارون وأبي ریحان البيروني ومحمد بن إسماعيل التنوخي والقاضي ركن الدين وغيرهم ولا نقدر جهود الخلفاء والأمراء الشخصية المتواصلة التي زادت عملية الترجمة حماساً وشدة، وبما يلي فهرس بعض الترجمات كنماذج تاركاً الترجمات التي لم أقف على أسماء مترجميها أو أخبارهم المفصلة فالحكماء الذين ترجمت مؤلفاتهم بعضهم كما يلي:

Ammouius, Themistian, Pyrianus, Sunpheius, Philoponus, Pythagoras, Diogenes, Dimocritus, Hippocrates, Socrates, Aristotle, Archumeden, Galen, Ptolemy, Appollouius, Pengacaun, Plato

ثادذوسبوس ومانالوس وبرقلس وأرسطيقوس وويقوريدس وأوطوقولس وباربوقا وقسطوس وإيقلاوس وأبليينوس وبيقوللاؤس وبولوس ولاحانطي وويوقنطوس.

عنوان الكتاب	اسم الكاتب	اسم المترجم	التفاصيل
إلهيات	أرسطو	يحيى بن عدي وغيره	ترجمه بإسره إسحاق بن حنين وابن عدي وأسطا الكندي وأبو البشر ومقي كما ترجم بعض مقالاته حنين بن إسحاق

العدد الخاص مجلة الهند

السماع الطبيعي	أرسطو	===	هذا في عشر مقالات، شرحه الشيخ ابن سينا وغيره من علماء الإسلام
كتاب السماء والعالم	أرسطو	متي	هذا في أربع مقالات، لخصه أبو الوليد ابن الرشد
كتاب النيازك	أرسطو	===	شرحه ولخصه حنين بن إسحاق
كتاب جري الشمس والقمر وبعدهما	أرسطو	===	أصلحه العلامة نصير الدين الطوسي
كتاب النبات	أرسطو	إسحاق	هذا في مقالتين، أصلحه ثابت بن قرة
كتاب المرأة	أرسطو	الحجاج بن مطر	===
كتاب الحس والمحسوس	أرسطو	متي بن يونس	هذا في ثلاث مقالات، لخصه وشرحه القاضي أبو الوليد
سرّ الأسرار	أرسطو	===	تمت ترجمته بأمر من مأمون الرشيد، وجّه فيه أرسطو وصيتهين للإسكندر

العدد الخاص مجلة الهند

كتاب السياسة	أرسطو	===	هذا في سبع مقالات، كتبه أرسطو للإسكندر
كتاب الأخلاق	أرسطو	حنين بن إسحاق ويحيى بن عدي وغيرهما	هذا في اثني عشرة مقالة، فسّره فرفوروس
كتاب النفس	أرسطو	===	ترجم الكتاب كله حنين إلى السريانية كما ترجم بعض مقالاته إسحاق، الشرح المفصّل الذي كتبه ثامسطيوس ترجمه إسحاق من نسخة رديئة ثم قارنها بنسخة جيدة
قاطيغورياس	أرسطو	حنين بن إسحاق	هذا في عشر مقالات، شرحه أبو نصر الفارابي وأبو بشر ومتي وابن المقفع وابن بهرين والكندي وإسحاق بن حنين وأحمد بن طيب والرازي
باريميناس	أرسطو	حنين بن إسحاق	هذا في مباحث المفردات، ترجمه حنين إلى السريانية وإسحاق إلى

العدد الخاص مجلة الهند

العربية وشرحه يحيى النحوي وأبو البشر ومتي والفارابي ولخصه إسحاق وابن المقفع والكندي وابن بهرين والرازي وثابت بن قرة وأحمد بن طيب			
هذا في تحليل القياس، ترجمه حنين إلى السريانية وترجم بعض أجزاءه إسحاق إلى العربية وشرحه يحيى النحوي والكندي وشرح مقالتي منه أبو البشر ومتي	ثياوزوس	أرسطو	أنالوطيقا
هذا في البرهان، ترجم حنين بعض أجزاءه إلى السريانية ثم عرّبها متي وانتقد الكتاب يحيى النحوي وأبو يحيى المروزي وشرحه متي والكندي والفارابي	إسحاق وغيره	أرسطو	أنالوطيقا الثاني

العدد الخاص مجلة الهند

طوبيقا	====	يحيى بن عدي	هذا في الجدل، ترجمه إلى السريانية إسحاق ثم عزّيه يحيى بن عدي وكذا ترجم دمشق سبع مقالات كما ترجم إبراهيم بن عبد الله ثمانى مقالات وتفسيره الذي كتبه يحيى بن عدي هو في ثمانية آلاف ورقة، شرحه الفارابي ومتى وأما شرح الإسكندر وأبلينوس فترجمه إلى العربية إسحاق.
سوفسطيقا	أرسطو	ابن ناعمة وغيره	هذا في المغالطة، ترجمه إلى السريانية ابن ناعمة وأبو بشر ومتى وترجمه إلى العربية يحيى بن عدي والقوبري وإبراهيم كما شرحه وكذا شرحه الكندي.
ريطوريقا	أرسطو	إسحاق وإبراهيم	هذا في أساليب الخطاب،

العدد الخاص مجلة الهند

كتب الفارابي شرحه في مائة ورقة.			
هذا في الشعر، لخصه الكندي.	أبو بشر، متي ويحيى بن عدي	أرسطو	أنوطيقا
هذا في ثماني مقالات فالمقالة الأولى فسرها الإسكندر الأفردوسي مما ترجمه إلى العربية أبو الروح الصابي وأصلحه يحيى بن عدي والمقالة الثانية ترجمها حنين إلى السريانية وترجمها يحيى إلى العربية والمقالة الثالثة لا توجد والمقالة الرابعة فسرها الإسكندر الأفردوسي في ثلاث مقالات فترجمها قسطا بن لوقا سوى بعض أجزاء المقالة الثالثة وكذا ترجم قسطا المقالة الخامسة والسابعة	===	أرسطو	سماع طبعي مشهور بـ"سمع الكيان"

<p>وشرح المقالة الثامنة. وما قام به فرفوروس اليوناني من شرح أربع مقالاته ترجمه بسيل ونقله أبو البشر ومتي مرة أخرى كما شرحه ثامسطيوس مما ترجمه متي. شرح أبو أحمد المقالة الأولى والرابعة وعلّق ثابت بن قرة على المقالة الأولى والثانية وشرح إبراهيم بن الصلت المقالة الأولى، وما كتبه أبو الفرج بن قدامة من الشرح بالرومية ترجم إلى العربية كذلك وكذا كتب علماء الإسلام عدة شروح له.</p>			
<p>هذا في أربع مقالات، ترجم ابن البطريق ومتي بعض أجزائه وناقش حنين بن إسحاق ست</p>	<p>يحيى بن عدي وغيره</p>	<p>أرسطو</p>	<p>سماع عالم</p>

العدد الخاص مجلة الهند

عشرة مسئلة له كما شرحه أبو زيد البلخي لأبي جعفر الخازن، وانتقد أبو هاشم المتن وأورد اعتراضات عليه مما سمي بـ"تصفح".			
ترجمه حنين إلى السريانية كما ترجمه إسحاق والدمشقي إلى العربية وشرحه الإسكندر مما ترجمه متي وأصلحه أبو زكريا ويحيى بن عدي وكذا شرحه يحيى النحوي. ترجم قسطا المقالة الأولى وأما ما كتبه لايندروس اليوناني من الشرح فتتمت ترجمته العربية.	حنين وغيره	أرسطو	كتاب الكون والفساد
شرحه لايندروس اليوناني مما نقله إلى العربية أبو البشر ومتي	يحيى بن البطريق وغيره	أرسطو	كتاب في الآثار العلوية

وكذا شرحه الإسكندر الأفردوسي مما ترجم إلى العربية وأما شرح ثامسطيوس له فقد ترجمه إلى العربية إسحاق وكذا ترجم المتن إلى السريانية والعبرية يحيى بن عدي وحنين وغيرهما.			
هذا في 19 مقالة، لخصه نيقولأوس مما ترجمه إلى العربية أبو علي بن ذرة.	ابن البطريق	أرسطو	كتاب الحيوان

كتب تقي الدين شاهر في ناسخ التواريخ أنه رأى أتالوجيا وكتاب زبرجد وكتاب الياقوت من كتب أرسطو حين تأليف هذا الكتاب.

الأقليدس

الحجاج بن يوسف الكوفي قام بترجمتين فالأولى تسمى بالهارونية وأما الثانية فهي تسمى بالمأمونية ولكن الترجمة الثانية أشهر من الأولى لصحتها وجودتها فنسخة الحجاج تحتوي على 468 صورة ولكن نسخة ثابت تزيدها بعشر صور وكذا ترجم أبو عثمان الدمشقي مقالات فالنسخة الرومية التي رآها عبد المطلب الطيب تزيدها بأربعين صورة التي أراد ترجمتها ولقد شرح علماء الإسلام الأقليدس كثيراً وعلقوا عليه أمثال اليزيدي والجوهري والهاماني وأبي حفص الحرث الخراساني وأبي الوفاء البوزجاني وأبي القاسم الأنطاطي وأحمد بن محمد الكرايبسي وأبي يوسف الرازي

العدد الخاص مجلة الهند

والقاضي أبي محمد عبد الباقي البغدادي المشهور بقاضي بيمارستان وأبي علي الحسن بن الحسين بن الهيثم البصري وأبي جعفر الخازن الأهوازي وأبي داؤد وسليمان بن عقبة والمحقق الطوسي ولكن الهاماني لم يترجم سوى المقالة الخامسة كما ترجم أبو يوسف الرازي مجرد المقالة العاشرة، وشرح القاضي عبد القاضي بسيط للغاية فقد ذكر أمثلة الأشكال بالأعداد كما شرح ابن الهيثم مصادراته وألف كتابًا في الاعتراض عليه والردّ عليه، ولم يشرح أبو جعفر الخازن الأهوازي سوى المقالة العاشرة. وشرح ثابت بن قرة العلل التي رتب عليها أقليدس الأشكال وقد قام العديد بإصلاحه مما سعى بالتحجير مثل تحرير تقي الدين الذي يسمى "تهذيب الأصول" وتحرير المحقق الطوسي الذي أجود تحرير وأفضله وعلق عليه العديد من العلماء بمن فهم العلامة السيد شريف القاضي زاده الرومي.

عنوان الكتاب	اسم الكاتب	اسم المترجم	التفاصيل
المعطيات	الأقليدس	إسحاق	ترجمه إسحاق إلى العربية وأصلح الترجمة ثابت كما كتب له التحرير العلامة الطوسي، إنه في 95 صورة.
المنظر	الأقليدس	إسحاق	هذا في 64 صورة وكتب العلامة الطوسي تحريره.
ظواهرات الفلك	الأقليدس	إسحاق	إنه في 23 صورة وكتب تحريره نصير الدين الطوسي وشرحه التبريزي.
كناش	هرون القيس	ماسرجويه	كان ماسرجويه يهوديًا بصريًا فترجمه إلى العربية في عصر

العدد الخاص مجلة الهند

مروان (وعلى طلب منه تقريبًا)			
شرح هذا الكتاب محمد بن محمد يحيى ابن أبي البقاء البوزجاني الذي كان حيًا في 348هـ.	ماسرجويه	أبوقسطيوس	كتاب الجبر والمقابلة
أصلحها الكندي وكتب تحريره العلامة الطوسي، إنه في 3 مقدمات و10 صور.	قسطا بن لوقا البعلبي	السبقلاوس	المطالع
لخصه موفق الدين البغدادي وقام بترتيبه.	قسطا بن لوقا البعلبي	أفلاطون	المتى
أولًا ترجمه من الرومية إلى العربية ثم ترجمه قسطا بن لوقا البعلبي وأبو زكريا بن يحيى بن عدي واسطاس إلى العربية كل على حدة وكذا ترجم إلى الفارسية باسم "روزنامه".	سرحس بن هليا	قسطوس بن أسكور السكينة	الفلاحة الرومية
أصلح هذه الترجمة ثابت وكتب تحريره المحقق الطوسي، فيه مقالة و12	ثابت	أوطولوقس	الكرة المتحركة

العدد الخاص مجلة الهند

صورة.			
فيه مقالتان و33 صورة وكتب تحريره العلامة الطوسي.	===	ثاودسيوس	كتاب الليل والنهار
فيه 12 صورة وكتب تحريره العلامة الطوسي.	قسطا بن لوقا	ثاودسيوس	كتاب المساكن ¹
في هذا الكتاب وضعت صور للنباتات بالأحرف اليونانية القديمة.	أصطفن بن بسيل	ديسقوريدس	كتاب الحشائش
هذا الكتاب باللغة النبطية فترجمه إلى العربية أبو بكر أحمد المعروف بابن وحشية.	أبو بكر أحمد	بابوقانيطي من أهل بروسايه	كتاب السموم
فيه خمس مقالات، فسّره ابن بيطار شيخ عبد الله بن أحمد المالقي.	===	ديسقوريدس	كتاب الأدوية
شرحه أبو جعفر أحمد بن محمد الطبيب المتوفى في 360هـ تمّ الشرح في 342هـ.	===	بطليموس جالينوس	كتاب تسطيح الكرة

¹ إني رأيت ترجمة هذا الكتاب

العدد الخاص مجلة الهند

كتاب القوى الطبيعية	جالينوس	حنين بن إسحاق	في ثلاث مقالات.
كتاب الحميات	جالينوس	===	شرحه أبو جعفر أحمد بن محمد الطيب.
كتاب الكرة والأسطولة	أرشميدس المصري	===	أصلحها ثابت بن قرة ولكن الترجمة بقي فيها بعض المصادرات لأنها كانت رديئة وحلّ مشكلاتها طوقبولس العسقلاني مما ترجمها إلى العربية إسحاق بن حنين وكتب تحريره العلامة الطوسي. توجد 48 صورة في نسخة ثابت بينما نسخة إسحاق تحوي 43 صورة.
المأخوذات	أرشميدس المصري	ثابت بن قرة	فسّره أبو الحسن علي بن أحمد النسوي، فيه 15 صورة، أصلحها العلامة الطوسي كما أصلحها أبو سهل مما سمّاه بـ"تزيين كتاب أرشميدس".
المخروطات في	أبليينوس	أحمد بن	هذا الكتاب أحد الكتب التي

العدد الخاص مجلة الهند

<p>طلبها المأمون من الروم فأمر بترجمتها، كان في سبع مقالات ولكن عبارة المقدمة تشير إلى أنه في ثماني مقالات وتوجد مقالاتها السبع الأولى بفوائدها ولكن لم نجد المقالة الثامنة ويقول أبو موسى إنما نجده من مباحث الكتاب يشمل المقالات السبع وبعض مباحث المقالة الثامنة وفيها أربع صور. ترجم أربع مقالات الأولى أحمد بن موسى بينما المقالات الثلاث الأخيرة ترجمها ثابت بن قرة فأصلحها الحسن وأحمد ابنا محمد بن شاك. وجدت أوربا هذا الكتاب بفضل ترجماتها الشرقية لأن المتن لا يوجد اليوم (Roman Empire لغبن).</p>	<p>موسى الحسبي وثابت بن قرة</p>	<p>النجار</p>	<p>أحوال الخطوط المخسنية</p>
<p>هذا في مقالتي فأصلح ثابت المقالة الأولى ولكن ترجمة</p>	<p>===</p>	<p>أبليينوس</p>	<p>نسبة الجذور</p>

العدد الخاص مجلة الهند

المقالة الثانية غير واضحة.		النجار	
ما بعد الطبيعة	ثاوفرديطوس	يحيى بن عدي	كاتبه ابن أخي أرسطو، الكتاب ألف بالسرانية (مختصر الدول).
كتاب الحس والمحسوس	ثاوفرديطوس	إبراهيم بن تكوين	(مختصر الدول).
أسباب النبات	ثاوفرديطوس	إبراهيم بن تكوين	(مختصر الدول).
كتاب من حمل فلسفة أرسطو	نيقلاوس	حنين	ترجمه حنين إلى السرانية (مختصر الدول).
ثالوجيا	برقلس	أبو عثمان الدمشقي	===
الحدود	أرسطيقوس اليوناني	أبو الوفا	ترجمه أبو الوفا محمد بن محمد المحاسب ثم أعاد النظر فيها كما شرحه مما يوجد فيه الدلائل الهندسية.

المجسطي

لهذا الكتاب ثلاث ترجمات نالت السمعة فأولها مما قام بها الحجاج بن مطر والثانية لإسحاق والتي أصلحها ثابت وأما الثالثة فهي لثابت ذاته فأولاً ترجم يحيى بن خالد البرمكي ففسرها وعلّق عليها العديد من العلماء ولكن كافة تلك التفاسير والترجمات

العدد الخاص مجلة الهند

غير واضحة وكذا أوضحها وصحّحها جيداً أبو حسان وسلمان اللذان جعلاً مسؤولين عن أمور بيت الحكمة وبما أن مأمون الرشيد كان يعجب بهذا الكتاب فترجمه حنين بن إسحاق على طلب منه ثم نَحاه الحجاج بن يوسف وثابت بن قرّة عن الزوائد ثم لَخّصاه ثم لَخّصه أبو الريحان البيروني وشرحه عمرو بن فرخان وإبراهيم بن الصلت وفضل بن حاتم وشمس الدين السمرقندي ونظام الدين حسن بن محمد النيشابوري وغيرهم من العلماء وكذا لَخّصه الشيخ يحيى بن محمد بن أبي الشكر المغربي الأندلسي على طلب من بابا الملطية أبو الفرج غريفورس بن هارون.

عنوان الكتاب	اسم الكاتب	اسم المترجم	التفاصيل
فصول بقراط	بقراط	أبو عثمان سعيد بن يعقوب	كان المترجم حكيماً شهيراً وطيباً خاصاً لوزير المقتدر بالله.
نموذار في الأعمار وأسرار المواليد والقرانات الكبير والقرانات الصغير	كنكه الهندي	أبو عثمان سعيد بن يعقوب	كان هذا الحكيم هندياً فدخل في بلاط هارون الرشيد، وكان يترجم بجانب مداواته، سمّاه الفنستن يمكننا في تاريخ الهند.
كتاب حساب العدد	===	===	كان الكتاب بالسندسكريتية ففسّره أبو

العدد الخاص مجلة الهند

جعفر محمد بن موسى الخوارزمي (جامع القصص الهندية).			
وجدت هذه الرسالة في قبة في أخميم مصر، كانت القبة تشمل مومياء امرأة كان شعره يرسل حتى قدمها وكانت سبع حليّ على جسدها وكان حولها عروش وأرائك يوجد عليها مومياءات بنات صغار. كانت الرسالة مكتوبة على ألواح من الذهب وكانت تحت رأسها فلما زار مأمون الرشيد مصر فأمر بترجمتها التي قام بها رجل من حمير.	===	هرمس بودشير قسطنس بن أرامسيس	رسالة السر في الكيمياء
ترجم هذا الكتاب من الهندية لأنوشيروان ثم نقل هذه الترجمة الفارسية ابن المقفع إلى	عبد الله بن المقفع	===	كليفة ودمنة

العدد الخاص مجلة الهند

العربية وكان المترجم كاتبًا لأبي جعفر المنصور وكذا ترجمه عبد الله بن هلال الأهوازي ليحيى بن خالد البرمكي والتي تمت في 165هـ ثم نظمها سهل بن نوبخت الحكيم ليحيى بن خالد ففاز بجائزة 1000 دينار عليها ثم كتب سهل بن هارون كتابًا على طراز كليلة ودمنة لمأمون الرشيد والذي عارض فيه كل فصل وباب الكتاب الهندي.			
شرحه عبد الله المالقي.	===	ديقوريدس	كتاب الأدوية
أولًا ترجم إلى الفارسية ثم ترجمها عبد الله بن علي إلى العربية.	عبد الله بن علي	سبرك الهندي	كتاب سبرك الهندي
أصلحها ثابت بن قرة وكتب تحريره المحقق الطوسي، فيه مقالتان	===	أطولوقس	كتاب الطلوع والغروب

العدد الخاص مجلة الهند

و36 صورة.			
ترجمه إلى الفارسية منكه الهندي بمعونة من أبي حاتم البلخي على أمر من يحيى بن خالد البرمكي ثم ترجمها إلى العربية علي بن العباس بن أحمد على أمر من مأمون الرشيد.	أبو حاتم البلخي	شاناق الهندي	كتاب السموم
ترجم في زمن مأمون الرشيد وأصلحها يعقوب الكندي.	===	أوطوقولس	الأكر المتحركة
هذا الكتاب في ثلاث مقالات، أصلحها ثابت بن قرة وكتب تحريره المحقق الطوسي وتقي الدين الراصد.	قسطن بن لوقا	ثاوذوسيوس	أكر
تمت لهذا الكتاب ترجمات عديدة وأصلحها المياني وأبو الفضل أحمد بن سعيد الهروي، فيه ثلاث مقالات.	===	مانالاوس	أكر

أعدّ معظم محتويات هذا الفهرست أخذًا من كشف الظنون وأما كتب أرسطو ورسائله فما قدّم من التفاصيل الزائدة فهي أخذت من المجلد الأول لكتاب ناسخ التواريخ (أخبار أرسطو).

التعليق

هذا فهرس موجز للغاية فلم نذكر أسماء العديد من الترجمات لأجل الإيجاز ولو أن الناس لا يعلمون هذه الوقائع المفصلة إلا أن تاريخ الترجمات الموجز الجدير بالفخر لا يخفى على أي منا، وبناء على تلك الوقائع اغترّ مؤسسو المنظمة العلمية بعلي كره فزعموا أنه كما طوّر أبائنا العلوم عن طريق الترجمة فينبغي لنا أن نترجم علوم أوربا وفنونها فنعرج بعلمونا وقومنا في درجات الرقي ولكن قياسهم هذا خاطيء ومثله مثل القياس مع الفارق فالعناية بالترجمات وصرف الملايين من الروبيات التي وقعت في العصر العباسي لن يمكننا وثانيًا أن العلوم في تلك الفترة كانت محدودة وجمد رقيها فقدما ترجم من الكتب قد أحاطت بعلم اليونان ففي زمننا لا حد لهذه العلوم ولا نهاية للكتب المؤلفة فيها والتي لا تزول تؤلّف وثالثًا أن اللغة العربية التي نقلت إليها العلوم كانت لغة رسمية لكافة الدول الإسلامية فلا نجد في العالم ولو مثالًا للغة التي طوّر فيها الناس العلوم والفنون وهي لم تكن لغة رسمية لهم ولقد سرتنا أن السير سيد أحمد خان مؤسس هذه المؤسسة العلمية قد اعترف بخطأه هذا في مختلف كتاباته.

المدارس ودور العلم

ولو أنه قد قامت سلسلة عظيمة للدرس والتدريس في كافة الدول الإسلامية منذ فجر السنة 143 للهجرة ولكن ولد خلال هذه القرون الثلاثة آلاف من المجتهدين والفقهاء والأدباء والشعراء والفلاسفة والمؤرخون البارزين لم يرزق أمثالها للأمة خلال القرون التسعة ولكن يعجبنا أن التاريخ لا يذكر أي كلية أو مدرسة حتى نهاية القرن الرابع فقد كانت أفنية المساجد وحجرات الخانقاهات وبيوت العلماء البسيطة مدارس تلك الأيام ودورًا للعلوم فقد جاء في Chambers' Encyclopedia "أقيمت

العدد الخاص مجلة الهند

مدارس عالية في بغداد والبصرة والكوفة وبخارا في مأمون الرشيد¹ وأوضح من ذلك شهادة Encyclopedia Britannica بأن المأمون بنى كلية في ولاية عهده وظّف فيها أساتذة بارعين من مختلف البلاد وجعل عميدها ميسوع عالماً نصرانياً كبيراً من دمشق² وإن صحّت هذه الروايات لاقترب تاريخ المدارس من عهد الكتابة إلى حدّ بعيد ولكننا نعلم أن مؤرخاً واسع الفكر لا يعتني بهذه الشهادات ولا ينظر إليها قائلًا: إننا أعرف منكم بما في دارنا".

ومما يعمّ ونتعجب من أن ابن خلدون يوافقه أنّ أول من سنّ إقامة المدارس في العالم الإسلامي كان نظام الملك طوسي وزير الدولة السلجوقية" ولو أننا لا يسعنا تعيين البداية ولكننا نقدر على أن نثبت أنه كانت هناك آثار للمباني ففي 400 للهجرة بنى حاكم مصر مدرسة كبرى في مصر ووقف لها كتبًا لا تحصى ووظّف لها الفقهاء والمحدثين للتدريس فيها³.

ولقد أنفق السلطان محمود الغزنوي جزءًا من صندوق الهند الكبير على عمل جميل فلما رجع بعد فتح ماثورا بنى مدرسة كبرى في عاصمة بلاده غزني في 410هـ وألحق بها مكتبة جمع فيها عددًا كبيرًا من كتب اللغات العديدة كما وقف كثيرًا من قرى الأرياف لتكلفتها فيقول محمد قاسم فرشته إن كافة الأمراء والوزراء اتبعوا هذا التقليد وخلال مدة قليلة ضجّت غزني بالمعالم العلمية⁴ وقد كانت بغداد عاصمة البلاد الإسلامية آنذاك تنتظر هذا الفخر ولكن أقيمت كليات ومدارس كبرى في نيشافور فقد بنى أمير نصر أخو السلطان محمود مدرسة اشتهرت بالسعيدية كما كان أبو القاسم أسكاف الإسفرائيني أكبر مدرّسي المدرسة البيهقية.

¹ موسوعة جيمبرس (ذكر العرب)

² المصدر نفسه (أخبار المأمون)

³ حسن المحاضرة للعلامة السيوطي (ذكر أحداث مصر الغربية ل400هـ) وتاريخ الكامل (أحداث 400هـ)

⁴ تاريخ فرشته (فتح ماثورا)

ولقد تعلّم بها إمام الحرمين الذي كان أستاذاً للإمام الغزالي وكذا دعا الناس أبو بكر فورك برسائل كتبها إليه ولما جاءهم بنوا لهم مدرسة خاصة به قيل فيها: لعلها أول مدرسة بنيت في تاريخ الإسلام بتبرعات الناس، توفي الأستاذ أبو بكر في 406هـ وتزهو مؤلفاته على المائة وكذا أقيمت مدرسة أخرى شهيرة للعلامة أبي إسحاق الإسفرائيني (ت418هـ)¹ ولما وصل الحكيم ناصر خسرو نيشافور في 437هـ رأى مدرسة تم بناؤها على أمر من طغرل بيك السلجوقي² كما كانت بها مدرسة أخرى تم انتسابها إلى أبي سعد إسماعيل الأسترابادي.

ولعلها أخير مدرسة كانت ديباجة جود نظام الملك طوسي وكانت هي كذلك شهيرة "النظامية" ولكنه لما أقيمت دار للعلم شهيرة في بغداد غلبت شهرتها العلمية عليها فإن يذكرها أحد بالنظامية يلحق بها "نيشافور" إلا أنها لا ينال أحد من فخرها بأن أستاذ الإمام الغزالي أبا المعاني إمام الحرمين كان كبير مدرّسها كما كان هذه المعجزة العلمية الإمام الغزالي من متخرجيها³ والواقع أن النظامية ليست مشهورة لأنها أول مدرسة في العالم بل لأن شهرتها الدولية قد أنست ذكر غيرها من المدارس كأنه لم تكن مدرسة أخرى قبلها في العالم حتى أن بغداد قد كان بها مدرسة قبلها بناها ألب أرسلان السلجوقي وأنفق لبنائها أموالاً هائلة ولكن نحصي بالبنان من يعرف اسمها.

وبالرغم من العرب كل ما حكمت الدول الإسلامية من الأسر تتفوق عليها الأسرة السلجوقية فقد كان ألب أرسلان وملك شاه اللذان سيطرا على أوروبا وآسيا على السواء كانا من أبناء هذه الأسرة الشهيرة وكان نظام الملك طوسي الذي وضع حجر أساس نظامية

¹ لهذه المدرسة والمدرسة البيهقية والمدرسة السعيدية راجع: حسن المحاضرة للسيوطي (ذكر أمهات المدارس) وأما أخبار المدارس الأخرى فستجدها في تراجم العلماء الذين أقيمت لهم هذه المدارس وهم مذكورون في ابن خلكان وكذا راجع أخبار إمام الحرمين في ابن خلكان

² سفرنامه ناصر خسرو (طبعة دلهي)، ص 34

³ لترجمة إمام الحرمين والإمام الغزالي راجع: ابن خلكان

بغداد وزير هذين الحاكمين¹ لم يكن هو وزيراً فحسب بل كان يمتلك الكل فخصّص بها ستمائة ألف دينار من خزينة الدولة وأقام كتبات ومدارس في كافة أنحاء الدولة كما خصّص عشر عقاراته بهذه المدارس² ولكن الشغل الكبير الذي أدّاه هو كان بناء المدرسة النظامية فيقول عنها السيد غبن "وقف وزير للسلطان مائتي ألف دينار لبناء مدرسة³ كما خصّص خمسة عشر ألف دينار سنويّاً لتكلفتها وكان يدرس بها ستة آلاف طالب في كل صف بمختلف المناسبات وقد شمل هؤلاء الطلاب أولاد الأمراء والمحترفين وكذا قرّر قدرًا هائلًا من الأموال للفقراء من الطلاب كما حدّد رواتب هائلة للمدرّين والمحققين".

بدأ بناؤها في 457هـ وتم تدشينها في يوم السبت العاشر من ذي قعدة سنة 459هـ بكل أهبة ووقار. ولو صح ما قال المؤرخون "أن كافة أهالي بغداد تهافتوا عليها حين افتتاحها وقد اجتمع في قاعتها كافة أمراء ومسؤولي الدولة" لأمكن لنا تقدير حماس القوم العلمي وسعة نطاق بناء المباني وعيّن العلامة أبو إسحاق الشيرازي الذي كان يعتبر رئيس الأساتذة في هذه الدول عيّن كبير المدرّسين ولكنه لم يقبل هذا المنصب لشبهة فحمّل هذه المسؤولية أبو نصر كاتب "شامل" ولم يرض العلامة أبو إسحاق أن يقبل هذا المنصب إلا بعد عشرين يومًا وبعد جهد جهيد بذلوه في إرضائه، لقد بارك الله في عمر النظامية ولم تزل تغني الناس من بركتها في أرجاء العالم كله ما دامت حكومة بغداد قائمة وقد تخرّج منها الشاعر الفارسي الشهير سعدي شيرازي في أواخر أيامها⁴ ولقد درّس بها الإمام الغزالي والإمام الطبري وابن الخطيب والتبريزي شارح "ديوان الحماسة"

¹ كانت سلطنة الملك شاه من كاشغر إلى بيت المقدس طولًا ومن القسطنطينية إلى بلاد الخزر عرضًا فكأنه كان سلطان كافة الدول الإسلامية في تلك الفترة. ولد في 447هـ وتوفي في 485هـ، كان نظام الملك وزيره لمدة 20 سنة، ابن خلكان (ترجمة الملك شاه ونظام الملك)

² آثار البلاد للعلامة القزويني (ذكر طوسي) والروضتين في أخبار الدولتين

³ الدينار يساوي خمس روبيات على الأقل فإن خَمْنَا على هذه النسبة فيبلغ قدرها 1000 ألف روبية

⁴ وتوجد تفاصيل النظامية تارة بالإجمال وأخرى بالتفصيل في كامل ابن الأثير (أحداث 457 و459هـ) وإعلام تاريخ مكة (طبعة ألمانيا، 1857هـ)، ص 175 وتاريخ الخلفاء للسيوطي (أخبار 459هـ) وتاريخ ابن خلكان (ترجمة أبي إسحاق الشيرازي وأبي نصر الصباغ) وRoman Empire، (الجزء الخاص بالمسلمين وبداية الدولة العباسية) وحسن المحاضرة وذكر مدارس مصر للسيوطي

وأبو الحسن الفصيح تلميذ الإمام عبد القاهر الجيلاني كما درّس بها المدرّس الأعظم والإمام أحمد الغزالي وأبو المعالي قطب الدين الشافعي والكيهاراسي فلقد كانت أستاذية النظامية في كل عصر مصر أكبر شيء وأعظمه ولم يوظّف على هذا المنصب خلال القرنين إلا وقد كان فاقده النظر وعديم المثال في زمانه، وقد كانت مكتبة كبرى في رحاب النظامية تم بناؤها في عهد نظام الملك ذاته، وكان ينظّم أمورها الكاتب الشهير العلامة أبو زكريا التبريزي (أثار البلاد للقزويني، شهر مدينة تبريز)

وقد تم بناء مكتبة أخرى في رحابها بأمر من الناصر لدين الله العباسي وأهديت إليها الآلاف من الكتب النوادر المجموعة في المكتبة الملكية¹ ومن أخص سماحات النظامية أنها قرّرت منحًا ورواتب للطلاب لعلها لم تكن متروّجة من قبل² وكذا سمّيت بالنظامية كل ما أقامها نظام الملك من كليات كبرى في نيشافور وهرات والموصل وإصفهان وقد كان يعين كبار علماء العصر مدرّسين لها لمدة طويلة فمثلاً أن أبا سعد محمد بن يحيى تلميذ الإمام الغزالي كان مدرّسًا لنظامية هرات كما درّس بنظامية الموصل أبو حامد محيي الدين (ت544هـ) وكذا تعلّم الأرجاني (ت544) في نظامية إصفهان ولكن نظامية بغداد كانت كمثّل جامعة وكانت هذه الكليات كلها فروعًا لها.

بما أن نظام الملك قد حدّد الأموال الهائلة للمدارس من خزينة الحكومة خطر ببال ملك شاه فدعاه وسأله على عادته: والدي الشفوق! هذا القدر من المال يمكن به إعداد جيش كبير فمن تجود عليهم يمكن بهم إنجاز هذا العمل الجليل" فردّ عليه نظام الملك: فلذة كبدي! أنا شيخ بالٍ ولكنك فتى تركي شاب لو عرضت للبيع في السوق لما نرجو منك فائدة أكثر من 30 دينار ولكنك أعطاك الله هذه الدولة الكبيرة فهل لا تشكره على تلك النعمة، عسى أن تؤثر نبال جيشك لغايات محدودة ولكن الجيش الذي أعدّه لا تقدر درع السماء أن تمنع دعائه فقال مالك شاه: لبيك والدي الجليل! لنعد مثل هذه الجيوش قدرما أمكن لنا"³.

¹ كامل ابن الأثير (أحداث 89هـ)

² حسن المحاضرة أخذًا من طبقات السبكي (فصل أمهات المدارس)

³ إعلام تاريخ مكة (ذكر المدرسة النظامية)

ومن عجيب ما يضبطه تاريخ المسلمين والذي لا ينسأه البشر أنه لما علم بقيام النظامية علماء ما وراء النهر أقاموا جلسة النياحة وبكوا على أن العلم لا يحصل عليه لأجل العلم بل يحصل عليه الناس للجاه والسخاء" وستعيننا هذه الرواية في تكوين الرأي. ولقد خلقت النظامية بأثرها حماسًا شديدًا في الدولة كلها، فقد أقيمت في القرن الخامس ولم يمض القرن السادس إذ امتلأت الأرض الإسلامية كلها سوى إسبانيا بالمعاهد العلمية فلو كانت أقاليم خراسان الكبرى مثل مرو ونيشافور وهرات وبلخ ومناطق إيران مركزًا للعلم والفن منذ قديم الزمان ولكن أثر النظامية قد جعلها أكثر ضجة فلما وصل ياقوت الحموي إلى مرو في القرن السادس تقريبًا فوجد بها مدارس ومكتبات عديدة فالمدارس التي كانت ملحقة بها مكتبات كبرى هي المستوفية التي أقامها شرف الملك أبو سعد محمد بن المنصور (ت494هـ) والعميدية الخاتونية فكانت فيها مكتبات مختلفة والنظامية التي أقامها نظام الملك حسن بن إسحاق.

فلم يؤلف ياقوت الحموي كتابًا جامعًا كمثل "معجم البلدان"¹ إلا بعون من هذه المكتبات² ويمكن لنا تقدير كثرة المدارس في مدينة نيشافور خاصة من أنها لما دمرها الثورة الداخلية في 556هـ فضاعت 25 مدرسة حنفية وشافعية مع المباني المدمرة علاوة على 12 مكتبة أشعلوها النار أو سرقوها فقد كانت في يزد 12 مدرسة تحت رعاية العلامة حسين بن أحمد أبو الفضل (ت591هـ) وكان يتعلم فيها 12 مئة طالب³ وقد كانت كلية خوارزم العالية شهيرة بفضل أستاذية الإمام فخر الدين الرازي (ت606هـ) فيقول المستر شاردن السياح الفرنسي الذي زار معظم مناطق إيران في زمن الدولة الصفوية في رحلته: كانت 48 مدرسة في عهد سليمان الصفوي في مدينة إصفهان" (مرآت البلدان ناصري، 54/1، طبعة إيران).

¹ هذا كتاب الجغرافيا في اللغة العربية وهو يحتوي على حوالي 4000 صفحة وهو حافل إلى حد

يهت العقول، تم طبعه من أوروبا

² معجم البلدان (أخبار مرو)

³ حسن المحاضرة، 264/1 (طبعة مصر، 1299هـ)

العدد الخاص مجلة الهند

وعلاوة على النظامية فكانت في بغداد ذاتها 30 كلية عالية قال عن مبانيها الشامخة وسعتها العلامة ابن جبير: كانت كل كلية تبدو مدينة (رحلة ابن جبير، أخبار بغداد، طبعة ليدن، 1852م) قد زار العلامة المذكور أعلاه بغداد في 578هـ فنسرد فيما يلي ذكر بعض مدارس بغداد في صورة فهرست:

اسم المدرسة	مؤسسها	أخبارها
المدرسة التاجية	تاج الملك مستوفي السلطان	لعلها بنيت في 482هـ وكان الإمام أبو بكر الشاشي كبير مدرّسيها (الكامل لابن الأثير، أخبار 482هـ)
المدرسة المستوفية	شرف الملك أبو سعد محمد بن المنصور	كان هذا مستوفي السلطان ملك شاه السلجوقي (ت494هـ)، كانت هذه المدرسة على قرب من باب الطاق (الكامل لابن الأثير، أخبار 494هـ)
المدرسة الكمالية	كمال الدين أبو الفتوح	كان صاحب المخزن، تم بناء المدرسة في 535هـ، وقد حضر جلستها الافتتاحية كل من مسؤولي بغداد (الكامل، أخبار 535هـ)
مدرسة أبو المظفر	أبو المظفر عون الدين	احتل منصب الوزارة في بلاط الخليفة العباسي المقتفي بأمر الله (ابن خلكان، أخبار الوزير أبو المظفر)
مدرسة ثقة الدولة	علي بن محمد المعروف بثقة الدولة	كان من حواشي الخليفة المقتفي، كانت هذه المدرسة خاصة

العدد الخاص مجلة الهند

بالشوافع، وكانت على شاطئ دجلة، توفّي ثقة الدولة في 594هـ (ابن خلكان، ترجمة شهدة فخر النساء)		
كان أبوه وزيراً، توفي فخر الدولة في 578هـ (الكامل لابن الأثير، أخبار 578هـ)	فخر الدولة	المدرسة الهائية
	أمّ الخليفة الناصر لدين الله	مدرسة والدة الناصر لدين الله
نودّ أن نفضّل عن هذه المدرسة قليلاً. وبجانب هذه المدارس قد اشتهرت في بغداد مشهد أبي حنيفة، والمدرسة الوقفية، والمدرسة الزيركية، والمدرسة المعنية، والمدرسة العنائية، والمدرسة القديمة، والمدرسة العباسية ولك أن تجد أخبار مدرّسيها في طبقات الحنفية، ولقد بقيت أغلبية مدارس بغداد بعد دمارها.	الخليفة المستنصر بالله	المستنصرية

ومما يعير تاريخ الدولة العباسية أنه لم يكن أي مبنى من هذه المباني العلمية معزّواً إلى أي من الخلفاء العباسيين وكانت عاصمتها بغداد ممنوناً عليها من قبل الأجيال الأخرى من هذه الناحية خاصة فأراد الخليفة المستنصر بالله الذي استخلف في 623هـ أن يزل هذا العيب ولكن الخطأ كان فاحشاً يتطلب كفارة فادحة وفعل كذلك فاتفق الناس على أنه

لم يوجد نظير لهذه المدرسة لا قبلها ولا بعدها فوضع حجر أساسها بشاطئ دجلة في 625هـ وبعد ست سنوات تم البناء فكان جزء من المبنى في دجلة (توجد آثار المستنصرية حتى الآن فذكر ناصر الدين شاه إيران أثارها في رحلته لآسيا لكيلا ينسوا شوكتها وماضيها الزاهر) وافتحت في شهر رجب تلك السنة افتتاحاً حضره كل من المسؤولين والحكام والعلماء والقضاة حتى الجيوش فوهب المستنصر كل مسؤول ملابس فاخرة وأما مؤيد الدين العلقمي الذي بنيت المدرسة برعايتها ضاعف عقاره ثم قرّر للتدريس فيها شيوخ المذاهب الأربعة وشيخ النحو وشيخ الفرائض وشيخ الطب وأهداها كتباً كثيرة حملها 160 جملاً كما كان في فنائها مستشفى ومزبلة يزدون بها الماء في الصيف. أدخل 248 طالباً في سكنها بعدما افتتحت وكانوا يجدون الموقع، والفراش، والغذاء، والزبد، والكاغذ، والقلم من نفقة المدرسة وكانت توضع الحلاوي والثمرات بجانب الأطعمة الأخرى على مائدتهم وفوق تلك كانوا يتمتعون من جنيه كمنحة شهرية، وتم وقف المئات من القرى لنفقة المدرسة وكان ميزانية دخلها 70 ألف مثقال ذهباً أي 4.5 مئة ألف روبية¹ (لقد وفر العلامة الذهبي فهرست تلك القرى في "تاريخ دول الإسلام") وكان كبير مدرّسي الأحناف الشيخ عمر رشيد الدين الفرغاني الذي كان يعتبر ماهراً في الفقه والأصول والحكمة والكلام، أولاً درّس في مدرسة سنجار ثم دعاه المستنصر بالله² وكان مجلس بباب المدرسة وضع به ساعة ثمينة للغاية³ أعدّه ماهر الهيئة والنجوم علي بن تغلب بن أبي الضيا

¹ راجع: تاريخ الخلفاء للسيوطي (أخبار المستنصر بالله) وإعلام تاريخ مكة، ص 174 ومراة البلدان للناصرى (طبعة إيران)، 244/1 ودول الإسلام للعلامة الذهبي والجواهر المضيئة في طبقات الحنفية (ترجمة عمر بن محمد الحسين بن أبي عمر بن محمد أبي حفص الفرخاني كبير مدرّسي المستنصرية) وكذا ذكرت أسماء المدرّسين الشوافع والمالكية والأحناف

² آثار البلاد للقرظيني (ذكر مدينة فرغانة)

³ لعلها ساعة أخرى تم إعدادها في الدولة العباسية والساعة التي أهداها هارون الرشيد إلى ملك فرنسا بهتت أنظار أوروبا فيقول مؤرخو فرنسا إن أول ساعة برزت فينا هي التي أهداها هارون الرشيد في 807هـ إلى ملك فرنسا بشارل. كانت هذه الساعة عجيبة بهتت أنظار كافة الحضور في البلاط. كانت هذه الساعة تملك اثني عشر باباً وحينما تمت ساعة انفتح باب بنفسه وكانت مدقة من نحاس تدق الجرس وبقي الباب مفتوحاً حتى تنتهي دورة فيخرج اثنا عشر فارساً وكانوا يدورون حول ناصية الساعة، راجع: كشف المخبا عن فنون أوروبا (طبعة دوايب، 1299هـ)، ص 218-219 ونفس التفصيل ذكر في كتاب إنجليزي

البعليكي¹ والذي اشتهر فيما بعد بالساعاتي أي صانع الساعة وكذا تم تعيين عبد الرزاق بن الغوطي تلميذ المحقق طوسي البار الذي كان مسؤولاً عن خزانة الرصد في مرصد مراغة كمسؤول عن المكتبة فألف كتاباً في التاريخ في 50 مجلداً².

ولم تخلُ أي منطقة من مناطق الدول الإسلامية من المعالم العلمية في القرن السادس فجزيرة العرب ومصر التي لم يوجد أي مبنى من هذا النوع قد امتلأت بالكليات والمدارس فدار العلم التي أقامها الخليفة العبيدي الحاكم بأمر الله في مصر في 400هـ دمرها بيديه في 403هـ ومن ثم لم يلتفت إليها أحدٌ، وكذا كانت أسرتان إسلاميتان وهما النورية والصلاحية مركزين مهمين لعظمة الإسلام وشوكته فتولّى العرش نور الدين محمود زنكي (ت569هـ)، إنه كان مؤسس الدولة النورية وسلطاناً مستقلاً في مصر والشام، إنه نزع من قبضة أوربا حوالي خمسين مدينة وحصناً وقد تربى صلاح الدين (ت589هـ) في حضانة نور الدين إلا أن الحروب الصليبية ولاسيما نزع بيت المقدس عن أيدي الأعداء قد أعلنت قدره فوق قدر مربيّه. لم تكن هاتان الأسرتان شهيرتين في أنهما قد أعادت لأوروبا تذكير ماضي المسلمين الزاهر فحسب بل لأنهما أحيتا العلم في مصر والشام.

أقام نور الدين مدارس كبرى في حلب وحماة وحمص وبعليك وميخ ورحبة وأما في دمشق الذي كان عاصمته بنى مدرسة فخمة اعتبرت فاقدة النظير حتى زمن طويل، وكذلك وفق نور الدين الفخر بأن أول دار للحديث تم قيامها في العالم كله كانت باسمه وإلا فلم تقم أي دار مخصّصة بخدمة علم الحديث³ فلما زار العلامة ابن جبير دمشق في 578هـ وجد في المدينة نفسها 20 كلية ولقد عمّ النداء أن كل من يقم مدرسة يعط كافة تكاليفها من خزينة الحكومة، وقد وقف لطلاب الغرب سبع حدائق وبعض الأراضي مما كان يبلغ دخلها خمسمائة جنيه، ومن الطلاب من لا يقدر على ختم القرآن كله فليدرّس من سورة الكوثر حتى نهايته كما كان خمسمائة طالب منهم

¹ راجع: الجواهر المشينة في طبقات الحنفية (ترجمة أحمد بن علي بن تغلب بن أبي الضيّا المذكور)

وستجد بعض التفاصيل عن هذه الساعة في آثار البلاد للقزويني حين ذكر عجائب بغداد

² راجع: تنمة ان خلكان (ترجمة ابن الغوطي)

³ ابن خلكان (ترجمة نور الدين) وحسن المحاضرة (ذكر المدرسة الكاملة)

العدد الخاص مجلة الهند

يعطون منحًا من خزينة الحكومة¹ والعقارات التي وقفها نور الدين من صرفه الشخصي للمدارس والكتيبات والتي كانت كذلك حتى المات سنة بعد وفاته كان دخلها تسعة آلاف جنيه².

وكذا أقام السلطان صلاح الدين مدارس في الإسكندرية والقاهرة وبيت المقدس ودمشق ووقف لها دخلًا لا يحصى³ فيقول العلامة ابن جبیر: قد نودي في السكن أن كل من يبلغ المدرسة لطلب العلم يوقّر فرص السكن والعذاء ودورة المياه والمستشفى من قبل الحكومة⁴ فالرواتب التي حدّدت للعلماء في عصر صلاح الدين كان مبلغها ثلاثة آلاف دينار سنويًا (روضتين في أخبار الدولتين، 138/2، طبعة مصر)

كانت أسرة صلاح الدين كلها مشهورة في مثل هذا الجود بل قد عمّ هذا الحماس الأمراء والمسؤولين وحتى النسوة وكان يعتبر من معائب أمير أنه مات ولم يترك معلمًا علميًا.

ففي زمان كان يحكم الولد المشهور لصلاح الدين وهو الملك الظاهر أبو الفتح الغازي حلب حضره القاضي أبو المحاسن بهاء الدين الشافعي الذي كان نائب المدرّس في المدرسة النظامية وكان عالمًا كبيرًا وكانت في حلب بعض المدارس⁵ ولكن القاضي لم يكن يعتبرها وطلب من السلطان أن يقف لها عقارات كثيرة كما أقام هو بنفسه المدارس والشافعية ودار الحديث فيقول العلامة ابن خلكان إن حلب طار صيته العلمي منذ ذلك الحين وجعل الطلاب والمعلّمون يردونه من أقصى البلاد وفي غضون مدة قليلة أصبح حلب مركزًا للعلوم والفنون كمثّل دمشق ومصر⁶.

¹ توجد هذه الأخبار كلها في رحلة ابن جبیر (ذكر دمشق)

² الروضتين في أخبار الدولتين (طبعة مصر، 1287هـ)، 10/1 ولقد لقي مؤلف هذا الكتاب أحد موظفي هذه الأراضي لهذا التحقيق في 608هـ

³ ابن خلكان (ترجمة صلاح الدين)

⁴ رحلة ابن جبیر، ص 38

⁵ لما زار العلامة ابن جبیر حلب في 578هـ وجدها مدارس كانت إحداها تضاهي مسجدًا الجامع في فخامتها وكان سكنها ومبانها العامة تم تعريشها بالكرم وكان الطلاب يأكلون العنب من مقاعدهم، رحلة ابن جبیر، ذكر حلب

⁶ ابن خلكان (ترجمة القاضي المذكور أعلاه)

العدد الخاص مجلة الهند

ومن له أن يحصي المدارس التي قامت في مصر والقاهرة ودمشق وحلب وأربل وإن أراد أحدٌ أن يعدّ فهرستًا لها فليراجع الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية وحسن المحاضرة وفي تاريخ مصر والقاهرة ووفيات الوفيات وابن خلكان وغيرها من كتب التراجم والرجال، نوّد في هذه العجالة أن نذكر فهرستًا للمدارس الكبرى التي كانت قائمة بفضل الأسرة الصلاحية والأسرة النورية كما نذكر أسماء بعض الأساتذة لكي نبيّن أن العلماء الذين كانوا مراجع للعلم والفن في هذا العصر كانوا هم الذين يدرّسون في هذه المدارس.

الدولة الصلاحية

المدرسة	مؤسسها	موضعها	أخبارها
الشافعية/الصلاحية	صلاح الدين (ت589هـ)	مصر	تم تعيين العلامة نجم الدين الخبوشاني ككبير المدرّسين والمسؤول عنها على راتب قدره 90 دينارًا وكان يعمل تحت إشرافه عشرة أساتذة كما تم تعيين أساتذة لها أمثال تقي الدين بن دقيق العبد، وسراج البلقيني، والحافظ ابن حجر، وبهاء الدين قاضي القضاة لفترات

العدد الخاص مجلة الهند

مختلفة. وقف لها دخل كثير ويقول العلامة ابن جبير: مبانها تبدو كأنها مستعمرة.			
لعلها أول مدرسة أقامها صلاح الدين في مصر في 566م (روضتين، 191/1)	مصر	صلاح الدين (ت589هـ)	الشافعية
تم بناؤها في محرم 566هـ وقد درّس بها العلامة ابن خلدون في 784هـ تقريبًا (تاريخ ابن خلدون (أخبار الكاتب)، وروضتين في أخبار الدولتين)	مصر	صلاح الدين (ت589هـ)	المالكية/القلمحية
كان من مدرّسيها عماد الدين العباسي، وسراج الدين البلقيني (أستاذ جلال الدين السيوطي)، وتقي	مصر	صلاح الدين (ت589هـ)	زين التجار/الشريفية

العدد الخاص مجلة الهند

الدين قاضي القضاة.			
لم تشتهر هذه المدرسة باسم صلاح الدين (ابن خلكان، أخبار صلاح الدين)	القاهرة	صلاح الدين (ت589هـ)	مشهد
كانت هذه المدرسة خاصة بالأحناف	القاهرة	صلاح الدين (ت589هـ)	السوفية
كانت رواتب مدرّسيها هائلة (إنس الجليل، تاريخ بيت المقدس)	بيت المقدس	صلاح الدين (ت589هـ)	الصلاحية
	دمشق	صلاح الدين (ت589هـ)	الصلاحية
كانت هذه المدرسة خاصة بالمالكية	بيت المقدس	الملك الأفضل بن صلاح الدين	الأفضلية
أبو الحسن السياح، كان كبير المدرّسين	حلب	الملك الظاهر بن صلاح الدين	الظاهرية
كانت هذه مدرسة فخمة مشهورة للغاية وكان العلامة سيف الدين الأمدى (631هـ)	دمشق	الملك العزيز بن صلاح الدين	العزيزية

العدد الخاص مجلة الهند

كبير مدرّسيها.			
كان والد العلامة ابن الصلاح كبير مدرّسيها	حلب	أسد الدين شيركوه عمّ صلاح الدين	الأسدية
في هذه المدرسة توجد مقابر زمرد وزوجها وأخيها	دمشق	زمرد أخت صلاح الدين	الأسدية/الزمردية
وقف عليها كل دخل جزيرة الروضة وحمام الذهب (روضتين، 191/1)، وكانت خاصة بالشوافع، تم بناؤها في 566هـ	مصر	الملك المظفر تقي الدين (ت587هـ) ابن أخي صلاح الدين	منازل الغز/التقوية
كانت هذه المدرسة خاصة بالمالكية	مصر	الملك المظفر تقي الدين (ت587هـ) ابن أخي صلاح الدين	المالكية
	الرها	الملك المظفر تقي الدين (ت587هـ) ابن أخي صلاح	التقوية

العدد الخاص مجلة الهند

		الدين	
	دمشق	عذرا كانت ابنة أخي صلاح الدين	العذرائية
كان العلامة ابن الصلاح (ت643هـ) كبير مدرّسها، تعلّم عليه العلامة ابن خلكان لمدة طويلة	دمشق	الملك الأشرف ابن أخي صلاح الدين	دار الحديث
دفن الملك المعظم وأغلب أقربائه بهذه المدرسة، كان الملك المعظم شهيراً في التأليف والأدب والفقه فنودي من قبله أن من حفظ "المفصل" للزمخشري فله مئة دينار جائزة فحفظه عليها الكثير من الطلاب.	دمشق	الملك المعظم ابن أخي صلاح الدين	المعظمية
وقف لهذه المدرسة كثير من قرى الأرياف،	بيت المقدس	الملك المعظم ابن أخي صلاح الدين	المعظمية

العدد الخاص مجلة الهند

تم بناؤها في 660هـ			
كانت هذه دار الحديث الأخرى فقد أقيمت دار الحديث في الدول الإسلامية بعد المدرسة النورية، وقد درّس بها الحافظ ابن دحية، وزكي الدين المنذري، وقطب القسطلاني، ودقيق العبد ابن سيد الناس، والحافظ ابن حجر بمختلف المناسبات. كان هؤلاء العلماء يعتبرون فاقدى النظر في زمنهم.	القاهرة	الملك الكامل ابن أخي صلاح الدين (ت635هـ)	دار الحديث الكاملة
كانت هذه المدرسة تحتوي على أربع مدارس، يقول المقرئزي: كانت هذه	القاهرة	الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل	المدرسة الصالحية

العدد الخاص مجلة الهند

المدرسة تعتبر أشهر مدارس القاهرة فلما تم افتتاحها قرض فيها الشعراء القصائد والمنظومات، فقد جاء في حسن المحاضرة بعض الأبيات. بنيت هذه المدرسة في 639هـ			
	دمشق	معين الدين حمو السلطان صلاح الدين	المدرسة المعينية
هذه مدرسة شهيرة للغاية، كان شبل الدولة رقيق زمرد خاتون أخت صلاح الدين.	دمشق	شبل الدولة	المدرسة الشبلية
كان عز الدين رقيق الملك المعظم وحاكمًا لصرخد. تقع هذه المدرسة في الميدان الأخضر	دمشق	عز الدين أيك	المدرسة العزية

العدد الخاص مجلة الهند

المدرسة الشهابية	شهاب الدين ظفر	حلب	بهذه المدرسة دفن الملك العزيز
المدرسة المجيرية	مجير الدين	القاهرة	كان مجير الدين عالماً شهيراً ووزيراً للسلطان صلاح الدين، تقع هذه المدرسة على قرب درب الملوخية. تم بناؤها في محرم 80هـ
المدرسة الهائية	أبو المحاسن يوسف بهاء الدين	حلب	أقام بسكنها العلامة ابن خلكان لمدة طويلة من حيث تعلم العلوم
دار الحديث	أبو المحاسن يوسف بهاء الدين	حلب	
المدرسة الفاضلية	القاضي الفاضل (ت596هـ)	القاهرة	هذه مدرسة شهيرة بالقاهرة، كان القاضي الفاضل كاتب السلطان صلاح الدين وكان شهيراً للغاية
المدرسة الفلكية	فلك الدين أخو الملك العادل	دمشق	

الأسرة النورية

المدرسة	مؤسسها	موضعها	أخبارها
المدرسة الحنفية	نور الدين محمود زنكي (ت569هـ)	دمشق	ترتّب نور الدين في هذه المدرسة وقال فيها عرقلة: دمشق في المدائن بيت ملك وهذي في المدارس بيت ملك (روضتين)
دار الحديث النورية	نور الدين محمود زنكي (ت569هـ)	دمشق	هذه كانت أولى مدرسة في الدول الإسلامية لتدريس الحديث النبوي
المدرسة النورية الشافعية	نور الدين محمود زنكي (ت569هـ)	دمشق	بدأ بناء هذه المدرسة للشوافع بكل شوكة ولكن نور الدين مات قبل إتمامها فأتّمها الملك العادل أخو صلاح الدين، يقول الحافظ أبو شامة: لا يوجد لها

العدد الخاص مجلة الهند

نظير فيما بين المدارس فألف كتاب "الروضتين" في هذه المدرسة			
تم تعيين قطب الدين الشافعي الذي كان نائب المدرس في النظامية، ككبير المدرسين (ابن خلكان، ترجمة قطب الدين)	حلب	نور الدين محمود زنكي (ت569هـ)	المدرسة النورية
في 567هـ عين نور الدين عمادًا الكاتب مسؤولًا عنها وعلى هذا فاشتهرت هذه المدرسة باسمه، وفي 569هـ أرسل نور الدين الياقوت والذهب لترصيع وتذهيب بابها	حلب	نور الدين محمود زنكي (ت569هـ)	المدرسة العمادية
هذه المدرسة تقع مقابل قصر الخليفة، كانت هذه مدرسة شهيرة مفيدة للشوافع والحنابلة، وعز الدين	الموصل	عز الدين حفيد نور الدين محمود زنكي (ت589هـ)	المدرسة العزية

العدد الخاص مجلة الهند

قد دفن في رحابها (ابن خلكان والروضتين)			
هذه مدرسة فخمة وشهيرة، دفن سيف الدين في رحابها، كانت هذه خاصة بالشوافع والحنابلة	الموصل	سيف الدين الغازي أخو نور الدين (ت544هـ)	المدرسة السيفية العتيقية
هذه المدرسة كانت مقابل مدرسة عز الدين، يقول العلامة ابن خلكان: هذه المدرسة فاقدة النظير في الحسن والجودة	الموصل	أرسلان نور الدين شاه ابن عز الدين المذكور أعلاه	المدرسة الأرسلانية
قد جعله نور الدين مسؤولاً عن الأوقاف فبنيت مدارس عديدة على إشارته	دمشق	الملك القاهر ابن نور الدين أرسلان شاه (ت615هـ)	مدرسة الملك القاهر
كان أبو منصور حاكماً على الموصل من قبل سيف الدين الغزي وكان العلامة ابن الأثير	الموصل	أبو منصور قائماز	المدرسة القائمازية

العدد الخاص مجلة الهند

صاحب "المثل السائر" كاتبًا في بلاطه، تم بناؤها في 559هـ			
وقفت عليها قرى عديدة	أربل	أبو منصور قائماز	المدرسة القائمة
كان أبو منصور قائماز رقيقه الذي حرّره وكذا بنى زين الدين مدارس بالموصل وبغداد (الروضتين)	أربل	زين الدين علي (ت563هـ)	المدرسة الزينية
كان مجاهد الدين أميرًا شهيرًا من أمراء نور الدين، تقع هذه المدرسة على قرب "باب الفراديس" (الروضتين)	دمشق	الأمير مجاهد الدين (ت555هـ)	المدرسة المجاهدية
هذه المدرسة بجوار مدرسة نور الدين (الروضتين)	دمشق	الأمير مجاهد الدين (ت555هـ)	المدرسة المجاهدية

وعلاوة على هذه المدارس كانت مدارس عديدة شهيرة في الشام ومصر يوجد ذكرها في معظم كتب الطبقات والتاريخ ففي دمشق المدرسة الرواحية، والمدرسة الصادرية، والمدرسة الريحانية، والمدرسة الأمينية، وفي حلب المدرسة الحلاوية، والمدرسة

القلجية، والمدرسة الطرخانية، وفي أربل المدرسة المظفرية، ومدرسة القلعة. هذه المدارس كانت شهيرة إلى حد اكتفى المؤرخون بذكر أسمائها فقط.

هذا الفهرس الموجز الذي ذكرناه هنا مأخوذ من ابن خلكان، وحسن المحاضرة للسيوطي، وكتاب الروضتين في أخبار الدولتين، والجواهر المضيئة في طبقات الحنفية، والإنس الجليل في تاريخ القدس، والخليل، وذيل ابن خلكان إلا أن أخبارها المذكورة في مناسبات مختلفة لن يمكن الإحالة إلى صفحة خاصة.

انقطعت سلسلة الأسرة الصلاحية في 652هـ وحتى 923م سيطر على العرب ومصر الأتراك والشراكسة. حكمت الأتراك حتى 783م ثم سلمهم الحكومة الشركاسية. كانت هاتان الأسترتان من الأرقاء الذين تدرّجوا في منازل الرقي حتى وصلوا إلى الحكومة إلا أن الحكومة لم تكن موروثية فيهم فمن الأرقاء الأتراك والشركاسية الذين كانوا يدخلون الجيش من قوي منهم حكم على البلاد، كان فيهم من حكم بكل أهبة وشوكة وخدموا العلم والفن جيدًا فتطوّرت المدارس في هذه العهود وقد لعب في تطوّرها أسباب منها أن كافة تكاليف المدارس كانت مضمومة إلى الأوقاف وإن أراد حاكم أن يعيد سيطرته عليها تجمّعت العلماء ضدهم وكان للعلماء أثر بعيد المدى على الشعب كما حدث في 780هـ فهؤلاء الأرقاء الأتراك الذين قد شهد الناس بيعهم في الأسواق لو لم يقدّموا مثل هذا الجود ولو لم يعنهم العلماء لما تولّوا عرش الحكومة ومن جودهم العلمي ما قاموا به في الحرمين وما يفقد نظيره في العصور المتأخرة.

قبل هذا العهد كانت مكة تقلّ فيها المدارس ففي 579هـ بنى الأمير فخر الدين الزنجبيلي مدرسة في مكة المكرمة كما أقامت طاب الزمان أمة الخليفة المستضيء بالله مدرسة في 580هـ كان يدرّس فيها 10 فقهاء شوافع وفي 641هـ بنيت مدرسة أخرى على يدي الملك المنصور عمرو بن علي عامل اليمن ولعل هذه هي المدارس التي كانت تعتبر مهمّة في مكة قبل حكام مصر الأتراك ولكنه لما جاء عصر هذه الأتراك أصبحت مكة مركزًا للعلم كمثل المدن الإسلامية الأخرى.

وأقام عبد الباسط الذي كان مراقبًا في جيش السلطان الظاهر ططر ثلاث مدارس جيدة في مكة المعظمة كما أقام مدارس عديدة في القاهرة وغزه والشام.

وأقام الملك أشرف القاتيبائي الذي كان من أسرة الشراكسة وتولى العرش في 772هـ مدرسة فخمة للمذاهب الأربعة في مكة المكرمة، وكان فيها 72 حجرة، والحجرة التي كانت في وسطها وضعت من المرمر منقوشة من الذهب فلما زار القاتيبائي مكة أقام هو وجيوشه بهذه المدرسة وقرّر الرواتب للطلاب والكتّاسين والبوابين والطباخين والمديرين وأمناء المال وكذا أقام القاتيبائي مدرسة سامية في المدينة المنورة. والمدرسة التي أقامها ابن الناصر محمد بن قلاوّن بمصر كانت تفقد نظيرها في العالم كله لأجل شكوتهما وأهبتها. إنها بنيت في 758هـ في مدة ثلاث سنوات مكلفة 20 ألف درهم والتي قدرها 54 مائة ألف روبية طبقاً للنقد الحاضر، وحجرتها الكبرى التي تمكن تسميتها بالقاعة الرئيسة كانت 65 مربع ياردة إلا أن ابن الناصر قد سئم تكاليف المدارس وظنّ أن مصر كلها لا تقدر على تحملها. تم تعيين فقهاء المذاهب الأربعة للتدريس فأراد ابن الناصر أن يجمل أربع منارات لكل من فقيه المذهب فابتدأ بناؤها حتى تم بناؤها ثلاث منها ولكن سقوط منارة في 762هـ قد قتل 300 طفل كانوا يدرسون في كتيب السبيل فترك السلطان إرادته هذه¹.

ومما تبقى ذكره في هذا الزمان أن أحد سلاطين الهند المسلمين السلطان غياث الدين أرسل أموالاً هائلة إلى شريف مكة ليبنى بها مدرسة فكان هذا أول سلطان هندي عزي إليه مدرسة وإلا فلم يخطر هذا ببال الناس في هذه الأرض. ابتداء بناؤها في رمضان 813هـ وتم في 814هـ فاشترت أرضها باثني عشر ألف مثقال وأعدت قصور ومبانٍ للمدرسة وتم تدشينها في 14/محرم 814هـ بكل شوكة وشأن والتحق بها 60 طالباً في الموقع فقررت منحة لكل منهم كما عين أساتذة للمذاهب الأربعة وحدد وقت خاص لكل منهم وهكذا أقام بها غياث الدين أربع مدارس أخرى².

ونذكر فيما يلي كنماذج بعض المدارس من عهود الأتراك والشراكسة والتي كانت بالإسكندرية والقاهرة ولو أن بلاد مصر والشام قد قامت بها المئات من المدارس

¹ توجد هذه التفاصيل كلها في حسن المحاضرة (ذكر مدرسة السلطان حسين)

² يوجد ذكر مدارس الحرمين الشريفين الموجز في شفاء الغرام وتاريخ مكة

العدد الخاص مجلة الهند

فالقاضي مجير الدين الحنبلي الذي كتب تاريخ بيت المقدس في 900هـ ذكر فيه 138 مدرسة مع أيام بنائها وأسماء بانمها، يسمّى هذا التاريخ "الإنس الجليل" وطبع من مطبعة وهبية في مصر.

المدرسة	سنة البناء أو الافتتاح	بانمها	أسماء بعض مدرّسيها	أخبارها
الظاهرية القديمة ¹	612هـ	الملك الظاهر بارس بند القداري (ت676هـ)	العلامة تقي الدين بن رزين للشافعية، ومحب الدين بن عبد الرحمن للحنابلة، والحافظ شرف الدين الدميّاطي للحدِيث، وكمال الدين للقراءة	ألحقت بها مكتبة، غلب الملك الظاهر على أوروبا والتت مرات وقد فصلّت مبانيه الشامخة وتكاليف بنائها في تتمة ابن خلكان

¹ ذكر العلامة السيوطي بالإجمال والتفصيل هذه المدارس (سوى مدرسة عبد الباسط) بينما أخذت أخبارها الأخرى من تتمة ابن خلكان وحسن المحاضرة

العدد الخاص مجلة الهند

المنصورية		الملك منصور قلاؤن (ت689هـ)	أبو حيان برهان الدين أيمن الدين تلميذ ابن الهمام	كانت هذه مدرسة فخمة فقد قال العلامة الكتبي صاحب "تتمة ابن خلكان": إن هذه المدرسة والمستشفى الملحق بها كانا يعتبران فاقدي النظير، كان الملك منصور ملكاً ذا شوكة وكبرياء وغلبت أسرته على أوروبا غير مرة.
الناصرية	703هـ	ناصر محمد بن قلاؤن (ت741هـ)		كان يدرس بها المذاهب الأربعة، كانت هذه المدرسة

العدد الخاص مجلة الهند

فخمة وكان يحرسها رجل ببابها				
لم تكن أي خانقاه أكبر من هذه في القاهرة، وسياج حديدي قد جاء به من قصر بغداد للخليفة ووضع بها كذكرى للفتح		الأمير ركن الدين بارس	707هـ	الخانقاه البيروسية
لقد ذكر العلامة السيوطي عديداً من المدرسين الذين قد وظفوا بها	أكمل بن محمود البابرتي الذي تشتهر حاشيته على الهداية بالغناية من الأحناف،	الأمير الكبير سيف الدين المسؤول عن أمراء جمدارية	747هـ	خانقاه شيخو

للتدريس بمختلف المناسبات	والشيخ بهاء الدين بن العلامة تقي الدين السبكي من الشوافع، والشيخ خليل كاتب "المختصر" من المالكية، وقاضي القضاة موفق الدين من الحنابلة، وجمال الدين عبد الله بن رولي لتدريس الحديث			
كان ميناها فخمًا.	وقوام الاتقاني من الأحناف	صرغتمش المسؤول عن أمراء جمدارية	757هـ	الصرغتمشية
تم تدشينه في	علاء الدين من		788هـ	الظاهرية

العدد الخاص مجلة الهند

الأحناف، وأوحد الدين الرومي من الشوافع، وشمس الدين بن تكين من العلماء على المالكية، وصلاح بن الأعمى من الحنابلة، وأحمد زاده العجمي لتدريس الحديث، وفخر الدين الضرير لتدريس القراءة	12 / رجب، وكتب الشعراء قصائد في مدحها، ودعا الملك كافة العلماء على مائدة ثمينة، ولما جاء علاء الدين السيرامي الحنفي فوضع الملك فرشه بيديه، يقول العلامة ابن الحجر: كل من تم تعيينه من المدرسين في هذه المدرسة لم يكن له كفو في زمنهم.			الجديدة
--	---	--	--	---------

العدد الخاص مجلة الهند

كان هذا ناظر العساكر للسلطان الظاهر ططر (ت824هـ)		عبد الباسط بن خليل بن إبراهيم الدمشقي		مدرسة عبد الباسط
أنفقت 40 ألف جنيه على بنائها		الملك المؤيد	819هـ	المؤيدية
بنيت هذه المدرسة على أموال هائلة كما وقف عليها مثلها (إعلام، ص 207)		الملك أشرف سيف الدين أبو نصر الدقماقي الذي فتح قبرص	829هـ	الأشرفية

مدارس الإسكندرية والقاهرة هذه تجدر بأن نعتبر كلاً منها كلية بل جامعة، ولقد ذكرها العلامة السيوطي (سوى المدرسة الأخيرة) من أمهات المدارس كما ترك العديد من مدارس مصر أمثال الفخرية والفاضلية والسيفية والمغرية ومشهد نفيسي ومدرسة قاتيبائي والجمالية ودار المأمون والعاشورية والخشابية والكهارية بينما ذكر أسماء مدرستها في فقهاء مصر.

وعصر السلاطين الأتراك بالنسبة لسلسلة تاريخ التعليم أبرز العصور الإسلامية وأزهرها فالمدارس التركية لها أفصلية وأولية في كثير من الأمور ولها حق أن تحتل

درجة ممتازة بين المدارس في صفحات التاريخ فالمدراس القديمة لم يكن لها نظام يربط بعضها ببعض بل في بعض الأحيان أنها كانت تثير النزاع فيما بين الشعب ولكن المدارس التركية كانت مربوطة برباط شديد ويكأنها كانت أبناء أسرة واحدة فالمدارس في العهد القديم كانت مدارس دينية فقط ولو أنها كانت تدرّس علومًا أخرى ولكن نظام الأتراك التعليمي كان سياسيًا أكثر من كونه دينيًا فهي كانت تخلق مسؤولين كبارًا للدولة وكانت كافة هذه المدارس تابعة لجامعة وكانت الطلاب يترقون في درجات الرقي فمعاش التقاعد الذي كان خاصًا بالمدرّسين والذي أقامه الأتراك كان بديعًا بالنسبة للتاريخ الإسلامي، وهذا من العجب أن معاش التقاعد كان عديلاً بالراتب الحقيقي في كثير من الأحيان كما كانت الرواتب هائلة في عهود الأتراك¹ فكان المدرّس يحصل على 60 أو 80 دينارًا يوميًا في المدارس الكبرى وفي بعض الأحيان كانوا ينالون 100 درهم أو مئتي درهم يوميًا فنودّ بهذه المناسبة أن ننقل من تاريخ العصر التركي "History of the Ottoman Turks" للسير إيدوارد كريزي الذي يمكن به تكوين رأي معقول عن تركيا فيكتب هذا المؤرخ متحدثًا عن قوانين السلطنة التركية ونظمها العامة: من سبق محمدًا الثاني من الملوك كانوا هم وخاصة أرخان راغبين في إقامة المدارس والكليات ولكن محمدًا الثاني سبقهم في ذلك فعمّ في عصره التعليم وجعل عامة الشعب يحصلون على مناصب عليا فيعرف فاتح القسطنطينية جيدًا أن قيام السلطنة وسعتها يتطلبان المزيد على الرجولة وفن الحرب وبما أنه كان هو بنفسه عالمًا فلم يأل أي جهد في تعليم شعبه فعلى الرغم من المدارس الابتدائية التي تعرف بالمكتب والتي توجد بكثرة في كل قرية أقام مدارس كبرى فكان الطلاب يدرّسون عشر مواد: الصرف والنحو والمنطق والتاريخ واللغة والإنشاء والفصاحة والبلاغة والإقليدس والهيئة فمن مهر في هذه المواد العشر من الطلاب كانوا يسمّون "حكماء" ثم كان الحكماء يعيّنون مدرّسين للمدارس الابتدائية ولكنهم اضطروا لانضمامهم إلى جماعة العلماء إلى التبخر في الفقه كما كانوا يؤدون الامتحان باستمرار وكانوا يترقون

¹ لقد رجعت عن رأيي هذا حين رحلتي إلى تركيا فالدرهم يعني هنا سكة تدعى اليوم قرشًا وهو يساوي اثنين فلا تبقى هذه الرواتب هائلة بهذه النسبة

في درجات العلم والفضل ويظفرون بالشهادات ولا شك أن هذا التعليم يعادل التعليم الذي كان يتروّج في باريس وكيمبرج في القرن الخامس عشر، وكانوا يحذرون في أن لا ينضم إلى جماعة العلماء إلا من كان عالماً ومؤهلاً وكانوا يتمتعون من عزة قعساء وحقوق زائدة ومن هؤلاء العلماء من كان يعين معلماً كبيراً لكلية كبرى وقاضي المدينة ومفتيها وأما أئمة المساجد والوعاظ فهم يأتون بعد هؤلاء العلماء فلا يوجد في العالم سوى تركيا التي يكون العلماء ذوي سلطة وتكون الشريعة ذات قوة ونفوذ فالملوك العثمانيون يجدرّون بالعزة والتكريم أنهم يكرّمون العلماء ويهتمون بالمدارس مما لا يوجد أثره في الأقاليم النصرانية".

فأرخان (بوع 726هـ) أول ملك تركي وضع حجر أساس المدارس فقد اشتهرت مدرسته بأزنيق وكان يدرّس بها داؤد القيصري الذي يعرف شرحه لفصوص الحكم، وعلاء الدين شارح الوقاية وكان راتب كبير مدرّسها في زمن السلطان مراد 130 درهم يوميًا ولقد طوّر خلف أرخان هذه السلسلة وبلغت ذروتها في عهد محمد خان الفاتح فقد حصل محمد خان على التعليم الرائع في طفولته إلا أن ذوقه العلمي كان زائدًا إلى حد أنه كان يتعلّم على العلماء في زمن حكومته وكان يعلمه العلامة خواجه زاده والعلامة ابن الخطيب خاصة.

ولقد وضع محمد الفاتح حجر أساس جامعة كبيرة بالقسطنطينية في 865هـ كانت تتبعها ثماني كليات وكان لكل كلية سكن خاص بها. بنيت هذه الجامعة الفخمة في شهر رجب 875هـ فتم تعيين علاء الدين طوسي وخواجه زاده والملا عبد الكريم ومحمد بن المصطفى وغيرهم من العلماء مدرّسين لها ممن كانوا ينالون 100 درهم يوميًا، وكان محمد خان ذاته يحضر هذه الدروس مرة بعد أخرى فذات مرة حضر درس العلامة علاء الدين طوسي فكان يدرّس شرح عضدية لسيد شريف فتمتّعه خطبة العلامة إلى حدّ كان يقوم غير مرة فلما انتهى الدرس أعطى العلامة طوسي 10 آلاف درهم بينما أعطى كل طالب 500 درهم على حدة، وجعل العلامة علاء الدين القوشجي كبير مدرّسي مدرسة أبي صوفية وحدّد راتبه 200 درهم يوميًا ولقد عمّ الناس شرح العلامة القوشجي للتجريد ومحاكمة خواجه زاده

لتهافة الفلاسفة للغزالي ولقد كتبت هذه المحاكمة على أمر من محمد خان فأعطى كاتبها 10 آلاف درهم كجائزة.

وأقام بايزيد خان الذي تولّى العرش في 886هـ عديداً من المدارس ومن الممتع أن كافة العلماء المشهورين كانوا ينالون الرواتب بجانب هؤلاء الأساتذة وكان قدرها 10 آلاف درهم عثماني سنويًا ومن كان يدرّس شرح "مفتاح" للسكاكي كان راتبه أربعة آلاف درهم سنويًا بينما كان فقهاء الحرمين الشريفين يتمتعون من 14 ألف جنيه سنويًا. وبجانب إقامة المدارس العديدة فأقام السلطان سليمان الذي تولّى العرش في 926هـ أربع مدارس كبرى بمكة المعظمة في 972هـ ووضع حجر أساسها قاضي مكة وتبعه كافة العلماء. وكان راتب كل مدرّس 50 درهماً عثمانيًا يوميًا ثم زيد حتى أصبح 100 درهم عثماني يوميًا. كانت هذه المدارس تدرّس الطب والحديث وكذا أقام عديداً من المدارس الجيدة بالقسطنطينية وحدّد منحًا دراسية لستمائة طالب (العقد المنظوم في أفاضل الروم) وعلاوة على هذه فقد أضاف إلى ما سبقه من الجهود العلمية ما لا نوّد الإشارة إليها وأما مراد الذي تولّى الحكم في 982هـ أقام مدرسة بصفاء في مكة كان فيها مدرّس ومعيد و20 حكيماً.¹

ولقد قدّمنا لمحة عن تاريخ الأتراك العلمي علماً بأن حوالي 600 سنة مضت على حكمهم على الدول الإسلامية ففي غضون هذه المدة الطويلة جاد بأموال الحكومة العشرون من السلاطين والمئات من الوزراء والآلاف من المسؤولين فلا تتحمل مقالة موجزة تفاصيلها فقد جاء ذكر العلماء منذ عهد أرخان حتى 984هـ في كتاب "الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية والعقد المنظوم في ذكر أفاضل الروم" ويضمن تراجمهم أخبار المدارس التركية ومن يرد فهرستها فيمكن له إعداده لمثلي كلية ومدرسة كانت تدرّس بها كافة العلوم الدراسية وتوجد فيهما تفاصيل مؤسسها ومدرّسها ورواتها. وفيما يلي فهرس وجيز للغاية لكليات شهيرة وأخبارها:

¹ كل ما كتبت عن تاريخ مدارس تركيا أخذته من آثار الدول للقزويني وإعلام وشفاء الغرام وتاريخ مكة وشقائق نعمانية في علماء الدولة العثمانية والعقد المنظوم في ذكر أفاضل الروم

العدد الخاص مجلة الهند

اسم المدرسة	موقعها	مؤسسها	رواتب المدرسين	أخبارها
المرادية	بروسة	السلطان مراد بويغ 761هـ	60 روبية يومًا و1800 شهرًا	وهكذا رواتب كل مدرس كانت يومية لأن الأتراك كانوا يعطون الرواتب يوميًا
السلطانية	بروسة	السلطان بايزيد خان	50 روبية	
القاسمية	بروسة	قاسم شاه	50 روبية	
مناستر	بروسة		50 روبية	
المحمدية	بروسة	السلطان محمد خان الأول	50 روبية	
المرادية	قبلوچه	السلطان مراد بن محمد خان	60 روبية	
المرادية	بروسة	السلطان مراد بن محمد خان	80-50 روبية	الملا نعمت الله المعروف بروشني زاده

العدد الخاص مجلة الهند

	50 روبية	السلطان مراد بن محمد خان	أورنه	الحلبية
عرب زاده	50 روبية	محمود پاشا الوزير	القسطنطينية	المحمودية
	50 روبية	مراد پاشا	القسطنطينية	المرادية
	50 روبية	مراد پاشا	القسطنطينية	القلندرية
	80 روبية	مراد پاشا	القسطنطينية	مدرسة أبي أيوب
	100 روبية	بايزيد خان	القسطنطينية	البايزيدية
	80 روبية	بايزيد خان	إمامية	البايزيدية
	80 روبية	إبراهيم پاشا	القسطنطينية	الإبراهيمية
	50 روبية	علي پاشا	القسطنطينية	مدرسة علي باشا
	50 روبية	مصطفى پاشا	القسطنطينية	مدرسة مصطفى باشا
شمس الدين خلف المنشي أبي السعود	50 روبية	رستم پاشا الوزير الكبير	القسطنطينية	الرستمية

العدد الخاص مجلة الهند

المفسّر كان مدرّساً بها، تم تعيينه كبير مدرّسيها في عمر بلغ 17 سنة، توفي في 907هـ				
الملا محمد خلف المفتي أبي السعود (ت971هـ)	50 روبية	قاسم پاشا	القسطنطينية	القاسمية
	60 روبية	السلطان سليمان بن السليم	القسطنطينية	السليمانية
	60 روبية	السلطان سليمان بن السليم	القسطنطينية	السليمانية
	50 روبية	داؤود پاشا	القسطنطينية	الداؤودية
	45 روبية	پيري پاشا	القسطنطينية	الپيرية
	50 روبية	سنان لينكجي	القسطنطينية	السنانية

العدد الخاص مجلة الهند

السليمية العتيقية	القسطنطينية	السلطان سليم بن السليمان	60 روبية	
السليمية الجديدة	القسطنطينية	السلطان سليم بن السليمان	50 و 60 روبية	
مدرسة ست خاتون	القسطنطينية	ست خاتون	40 روبية	
الخاصكية	القسطنطينية	زوجة السليمان خان		
مدرسة خانقاه	القسطنطينية	زوجة السليمان خان	50 روبية	
مدرسة طرابزون	طرابزون	أم السلطان سليم خان	50 روبية	الملا نعمت الله المعروف بروشني زاده
دار الحديث	القسطنطينية	السلطان سليمان خان	100 روبية	
المدرسة الخسروية	القسطنطينية	أمير الأمراء خسرو	50 روبية	
السليمانية	دمشق	السلطان سليمان خان	80 روبية	

العدد الخاص مجلة الهند

مدرسة أطنه	أطنه	پيري پاشا	50 روبية	
ككيوزه		مصطفى پاشا	50 روبية	
دار الحديث	أدرنه		200 روبية	كان يدرّس بها الملا شمس الدين قاضي زاده
الأحمدية	چورلے	أحمد پاشا الوزير	50 روبية	الملا كوسج أمين
السليمانية	أزينق	سليمان پاشا	50 روبية	
مدرسة ككيوزه	ككيوزه	مصطفى پاشا		
الأفضلية	القسطنطينية	مصطفى پاشا	50 روبية	

ونذكر في النهاية أنما تتمتع المدارس التركية من الترجيح الذي اعترف به يرجع إلى نظمها وأصول رقيها والتزامها بالأصول وكثرة صرفها وفوق ذلك أن المتخرجين منها كانوا ينالون مناصب حكومية ولكن لنعلم أنه قدرما رجحت كفة السياسة قلّت كفة العلم والفضل وعلى هذا فلم يبرز من هذه المدارس خلال 600 سنة إلا القليل ممن تلقّب بالحكيم أو المحقّق ولقد نفى العلامة ابن خلدون البتة ولكنه لو اعترفنا بفهرس "كشف الظنون" للحكماء لبطل هذا الرأي إلا أن قلتهم لا توافق وكثرة سنوات الحكم التركي والواقع أن الكمال لم يمت إلى الجاه والمنصب الدنيوي بصلة إلا قليلاً.

ولقد أو شك الجزء الخاص بالمدارس ودور العلم للمقالة أن ينتهي ولم يبق منه سوى بلدين ألا وهما الأندلس والهند، وتأسف أن الأندلس الذي كان يقابل خلافة بغداد

في السيف والقلم جاء في نهاية البحث بهذه المناسبة. لا ننكر أهمية القرطبة وغرناطة وعظمتها فنرى في خريطة القرطبة 3837 مسجدًا و700 حَمَام و13000 بيت للشعب كما لا يخفى علينا المباني الفخمة من مثل قصر الزهراء والكامل والمجدد وقصر الحائر والروضة المباركة وقصر السرور والرشيقي والتاج والبيديع¹ ولكننا لا نجد أثرًا لكلية أو مدرسة في هذه السعة ولا شك أن سمعة القرطبة العلمية لا تقل عن بغداد كما أن الأندلس لها فخر بأستاذية أوروبا ولكننا الآن نبحث عن مصطلح المدرسة الذي يعني مبنى خاصًا بالتدريس ونعلم أنه لا يتفوق أحد على العلامة المقريري في ثنائه على الأندلس والذي يقدم كل خصوصية الأندلس أمام الناس بدعوى "هل تأتي بمثل لأي من هذه؟" ولكن هذا المؤرخ المنطلق الفكر اعترف بصراحة بأن الأندلس كلها لم تحظ بمدرسة ما سوى أفنية المساجد التي كانت تدرّس فيها كافة العلوم والفنون².

ولعل ما ذكره تاريخ إسبانيا لفوستر ونظم الممالك وموسوعة جيمبرس من المدارس بإجمال قد أريد بها أمثال هذه المدارس المتكونة في أفنية المساجد.

ولنصرح في الهند³ بأنه لعل أي مبنى لم يقيم فيها إلا أننا لا ننكر سخائها العامة فقد أعطيت أراض ومنح من خزينة أكبر وجهانغير وشاهجهان وعالمغير لمن كان يدرّس الدولة التركية لا تسبق الدولة التيمورية مع أنها نظمت لها واهتمت بها فنقدر على تقديم الملا محمود الجونفوري والملا نظام الدين ومحب الله البهاري وحمد الله وبحر العلوم والشاه ولي الله مرجحين على شمس الدين والفتاري وقاضي زاده وخواجه زاده والعلامة القوشجي وابن المؤيد الذين ذكرهم صاحب "كشف الظنون" بالحكماء.

المدارس التي ذكرنا أخبارها كانت خاصة بالمنقول أو المعقول من العلوم فلا تكثر معرفتنا عن المدارس الخاصة بالصناعة فنجد في الدول الإسلامية آثارًا للصناعات

¹ هذه أسماء قصور وحدائق القرطبة الفخمة

² راجع: نفع الطيب (تاريخ الأندلس)، طبعة فرنسا، 1/136

³ أعترف بأن تحقيقي هذا لم يثبت صحيحًا فقد تم بناء المدارس الكثيرة في الهند ولو أن آثارها لم تبق إلى الآن

الجيدة ولكننا لم نظفر بسلسلة منظمة لتعليمها فتقدّم المسلمين في فن الحرب أعرف من قفا نيك وقد عزا فتوح الأتراك على أوروبا إلى هذا التقدّم ولكننا لم نقف على مدرسة حربية سوى المدرسة الحربية لعبد المؤمن السلطان مراكو فالجيوش المهرة التي تم إعدادها في العهد الشراكسي كانت طريقته أن الأرقاء الأتراك والشراكسة الذين كانوا يشترتون، كانوا يدرّسون أولاً القرآن الكريم ثم القليل من الكتابة والقراءة والحساب ثم كانوا يدرّسون الفقه حتى برع فيه بعض الشباب الأذكياء ثم كانوا يعلّمون رماية الرماح والنبال والفروسية مما كانت الدرجة النهائية لتعليمهم ولكن هذه الطريقة لم تكن ذات صورة منظمة ولعل كافة الدول الإسلامية تعلّم الجنود كذلك لاسيما المدرسة الحربية للخليفة عبد المؤمن بن علي والتي تنقل تاريخها أخذًا من كتاب "History of Dominion of Spain" لكائدي بكلماته هو¹:

إنه (عبد المؤمن) أقام مدرسة للأطفال كانت تدرّس فن الحرب كما كانت تدرّس العلوم الأخرى لأنه لم يكن يريد أن يتخرّج قضاة فحسب بل كان يودّ أن يتخرج منها عمّال مثقفون وقضاة مهرة للمدن وجنرالون كبار وقواد جنود بارعون فهو يجمع في هذه المدارس أطفالاً من المصامدة وغيرهم من الأشراف ممن كان يبلغ عددهم ثلاثة آلاف طفل الذين كانوا ذوي عمر سوي فكانوا يبدون مولودين في يوم واحد. كان هؤلاء الأطفال يسمّون الحفاظ والطالبين لأنهم كانوا يحفظون الموطأ أو أصول المهدي كما كانوا يقرأون الآخر المسمّى بـ"ما يطلبه القاضي"، كان الملك يجمع الحافظين في الكوزر وكان يطلب منهم يوماً خاصاً من زيارته لإزالة أن يقرأوا عليه ما درسوه طول الأسبوع كما كان يأمرهم في يوم ثانٍ للأسبوع أن يروه ما يلزم الجنود من الفروسية والمهارة في الأسلحة ورماية الرماح وسباق الأفراس وكان يشهد تدريبهم برماية النبال في اليوم الثالث وكان يرى براعتهم في السباحة في اليوم الرابع ولهذا قد جعل غديرًا واسعًا في حديقة، كان ثلاثمائة مربع قدم، كان الغدير يمتلئ بأنواع من السفن بما فيها التي أوجدها هو بنفسه والتي لم تر أمثالها في العالم فكان يأمر الحفاظ بركوبهم إياها فكانوا يغيرون فيها على غيرهم كما كانوا يدافعون عن هجوم

¹ المصدر نفسه، 475/2 (طبعة ليدن، 1820هـ)

الآخرين عليهم، وكان عبد المؤمن ذاته يعلمهم سوق السفن في أماكن يمكن سوقها عادة وهكذا كان كل يوم من أيام الأسبوع يستخدم وكان كل يوم خاصًا بعمل، كان هؤلاء الأطفال يعملون كل شيء بلباقة وبراعة وكانوا ينالون الجوائز من جيب عبد المؤمن الخاص حتى أنه كان يعطيهم الأسلحة والأفراس. كان من هؤلاء الحفاظ 13 طفلًا من أولاد عبد المؤمن ذاته وكانوا بارعين وماهرين في استخدام الأسلحة وغيرها من آلات الحرب وعلاوة على هذه فإنه كان محببًا لدى الناس لعلو وحسن أخلاقه.

هذه كانت مدارس تم قيامها في الدول الإسلامية ولكن سماح المسلمين العلمي لم يكد يحيط به هذا النطاق الواسع فقد أقاموا المراصد والمصانع والمدارس في مدن أوروبا الخاصة بما فيها التي أذكرها أخذًا من تاريخ غبن وبكلماته هو فإنه يقول في الجزء الخاص بفتح المسلمين على سلرنو لكتابه "Roman Empire": إن العرب الذين توطّنوا في إفريقية وإسبانيا وقبرص عثروا على الأدوية اليونانية وتنوّرت سلرنو بنور العلم لأجل الحرب والصلح فقد تخصّص مدرسة قامت في جهالة بلاد الأفرنج بفن الجراحة ولأجل هذه الوظيفة المفيدة للصحة استأذنوا الأساقفة والرهبان وكان المرضى المعروفون يزورون أطباء سلرنو من أقصى البلاد أو كانوا يدعونهم. كان هؤلاء الأطباء تحت حماية فتح نارمندي، ولقد رجع نصراني إفريقي تسمّى قسطنطين بعدما قضى 29 سنة في مكة ومهر بالعربية. وهكذا فقد غنيت سلرنو صيدلية تلميذ ابن سينا وإرشاداته وكتاباتة".

حريق مكتبة الإسكندرية

- العلامة شبلي النعماني

ترجمة من الأردوية: د. هيفاء شاكري¹

من ضمن الأخطاء التي يؤسف عليها ووجدت في أوروبا وما زالت بالنسبة للتاريخ الإسلامي هي هذه الحادثة.

بالرغم من أن أوروبا تمتلك ومنذ زمن بعيد الوسائل التي تستطيع بواسطتها الحصول على معلومات عن أحوال المسلمين. إن بداية علم التاريخ الحديث هو عصر الحروب الصليبية. في هذا العصر تعرّفت أوروبا على المسلمين بكونهم محاربين ومدّمرين ووحوشًا وفوق كل ذلك أعداء للصليب المقدّس وقبله المسيحيين والقدّس، وهذا العصر هو أيضًا عصر خروج أوروبا من ظلماتها حيث صرّح أغلب المؤرخين بأن بداية التطور العلمي لأوروبا كانت في هذا العصر، انتشرت فيه أقوال غريبة عن المسلمين وكان ذلك حسب الأحداث في تلك الفترة. وما تولّد في تلك الفترة من سوء الفهم عن ديانة المسلمين وشعبهم ومجتمعهم وتطورهم في أوروبا، اشتهر إلى درجة أنه صار يضرب به المثل من قبل العامة والخاصة، وعندما بدأت فترة التأليف في أوروبا تم استخدام تلك التعبيرات في كتابة التواريخ والحكايات والروايات بل وكتب الفلسفة أيضًا بكثرة، كتب بيكن وهو مؤسس الفلسفة الحالية مقالات وتسمّى هذه المقالات "مقالات بيكن"، يكتب فيها في مثال الشجاعة والإقدام:

"كان محمد في يوم من الأيام يدعو الناس فقال للحضور: اذهبوا إلى ذلك الجبل وقولوا له بأنّ محمدًا يطلبك، ذهب الناس ولكن الجبل لم يتحرك من مكانه طبعًا،

¹ أستاذة مساعدة، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة المليية الإسلامية، نيودلهي.

وعندما رأى ذلك قال بكل طمأنينة وجرأة دون وجل: لا حرج إن كان الجبل لا يأتي إلى محمد فمحمد يذهب إلى الجبل".

لم يكن بيكن مؤرخًا ولم يذكر هذه الحادثة للتحقير من شأن محمد ﷺ حسب تفكيره، بل ذكرها في بيان جرأته وثقته، لكن بسبب توغل مثل هذه الأقوال في المجتمع الأوروبي آنذاك كان العامة والخاصة يذكرون هذه الأقوال كأسس يبني عليها، وكانوا يعتبرونها صحيحة.

توجهت أوروبا إلى البحث والتحقيق منذ ما يقارب مئة سنة، وتظهر حقائق هذه الأقوال يومًا بعد يوم، حتى اعترف كبار المؤرخين الأوروبيين أن هذه الأقوال هي محل ندامة لأوروبا، يكتب السيد كار لائل في كتابه "Lecture in the Heroes" (محاضرات في الأبطال) إن الأكاذيب التي نسبها المفكرون والناشطون للدين إلى هذا الشخص (محمد) كل تلك التهم أصبحت سببًا لسواد وجوهنا، ولأن كار لائل كتب هذه المحاضرة خاصة للرسول لذلك خصّه بالذكر مع أن هذه الأكاذيب كانت منتشرة عن الإسلام وتاريخه في أوروبا، وبالرغم أن التحقيقات الجديدة قد قللت من هذه الأخطاء إلا أنها لم تمحها تمامًا، لأن تحقيق الأحداث التي انتشرت بهذه الكثرة في الشعب لا يميل إليها إلا الذين لا يخضعون لضغط الجماعة وقليل ما هم.

وهناك سبب خاص آخر وهو أن محيط المحققين منفصل عن عامة الناس، ومع أن الحوادث التي أثبتتها المحققون بعد البحث والتحقيق هي التي تكون موثوقة إلا أنها لا تنشر بين عامة الناس ومؤلفاتهم وقد اعترف المحققون المشهورون في أوروبا بالخطأ في هذه الأقوال التي تولدت عن الحوادث الإسلامية، فنجد غبن، وكار لائل، وغوت فري هيغنز، وباسورث، ورينان، وسيديو وغيرهم ينكرونها تمامًا، ولكن لم تضعف قوتها في المؤلفات والأقوال العامة حتى الآن.

ومن هذه الحوادث حادثة حريق مكتبة الإسكندرية.

ومن العجيب ذلك الأسلوب الذي اتخذته أوروبا للتشهير بهذه الحادثة فلا تخلو التواريخ، والروايات، والحكايات، والأمثال، والإشارات ذات الخلفية القصصية،

والأحاديث اليومية من أثر للحادثة، وأما بالنسبة للأدب فحدّث ولا حرج، ولم تحرم الفلسفة والمنطق من أثرها ففي سنة¹ من السنوات وجد سؤال في امتحانات جامعة كولكاتا في مادة علم المنطق يطلب إزالة سوء الفهم من العبارة التالية "إن كان فيها ما يوافق كتاب الله ففي كتاب الله عنه غنى وإن كان فيها ما يخالف كتاب الله فلا حاجة إليه فتقدّم بإعدامها".

الأمر الذي يلفت الانتباه هو السؤال عن السبب التعاطف الكبير مع مكتبة الإسكندرية من قبل الغرب. الشيء المعروف أن المكتبة التي نناقشها لا يرتبط بها المسيحيون، فقد أسّسها ملوك مصر الذين كانوا عبدة الأوثان، وكان ذلك قبل زمن سيدنا عيسى عليه السلام بفترة طويلة. وقد يقال أن هذا التعاطف بسبب تقدير أوروبا العام للعلوم ولكن لماذا بالأخص الإسكندرية؟ قد دمّرت مكتبات كبيرة متعددة في هذه البلدان ولكننا لا نجد أي ضجيج على ذلك في أوروبا. من شهّر بالمكتبات الإيرانية التي دمّرها الإسكندر؟ وفي أسبانيا أزال المسيحيون كل المعالم العلمية للمسلمين ودمّروا آلاف الكتب، من الذي نديها أو حزن عليها؟ فلماذا هذا التعاطف الخاص مع مكتبة الإسكندرية؟

الحقيقة (والتي سنثبتها لاحقاً) أن المسيحيين هم الذين دمّروا هذه المكتبة واشترك في ذلك كبار أعلام الدين، وكان هذا الشيء يبعث على الفخر في ذلك العصر. ولكن حينما أنت الحضارة لهم أدركت أوروبا أن هذه الحادثة وصمة عار على جبينها، ولم تكن هناك طريقة لمحوها إلا إلقاء اللوم على شعب آخر. عندما فتح المسلمون مصر والإسكندرية لم تكن المكتبة في حيز الوجود، ولكن المسيحيين المتعصبين نسبوا غيابها إلى الفاتحين، ولأن أوروبا في تلك الفترة كانت مليئة بالتعصب ضد المسلمين ولم يكن فيها أي تطور علمي لذلك لم يفكر أحد في البحث والتحقيق، وانتشرت هذه الأقاويل في أوروبا كلها بسرعة كبيرة، وبكت أوروبا على هذه الحادثة وكأن المكتبة كانت مكتبتهم، والعامّة إلى يومنا هذا تؤمن بذلك. والفائدة الكبيرة من هذه الشهرة العامة

¹ أي في سنة 1882م

أن أحدًا لم يفكر في إلحاق هذه التهمة إلى المسيحيين، فشيء طبيعي أن أي شعب لا يدمر كنوزه بنفسه.

والآن نحقق هذه الحادثة التي كانت أوروبا مليئة بدويها في ذلك العصر، ما هو الأصل والحقيقة؟ للأسف لا شيء. ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هو كيف يمكن لحادثة مفترضة أن تكون مشهورة ويسلم بها لهذه الفترة الطويلة في كل دول أوروبا؟ والسؤال صعب في ظاهره لكن جوابه سهل جدًا، ولا نتعجب على هذه الشهرة في عصر الظلام الذي شهدته أوروبا، وكانت تنتشر في ذلك العصر آلاف المآت من الأكاذيب المماثلة وكان الناس يتقبلونها، مثلما ذكرنا في بداية المقال، وبدأ النقاش عليها في عصر التطور والنمو وأنكرها كبار المؤلفين، ولكن العجيب أن بعض الناس يعتبرونها صحيحة إلى الآن مع أن إنكارها بشكل قطعي أمر واجب.

ولكن هذا يرجع لسببين: الأول أنه حتى في زمن التقدم والرقى لا تفتى آثار الجاهلية تمامًا وهذا لا يمكن، والسبب الثاني وهو الأهم أن الطريقة التي تتبعها أوروبا في تحقيق الحوادث التاريخية لا تخرج بنتيجة قطعية في كثير من الأحيان، فيترك الرواية أو الحادثة الأصلية ويبحثون في الدراية والقياس، وتصبح كثير من الأشياء الفرعية قابلة للبحث والنقاش، وتنتج عن ذلك سلسلة طويلة ويبقى الموضوع الأساسي دون تفصيل. وهذا ما حدث في هذه القضية ونفصل ذلك في الصفحات القادمة.

تناقش هذه القضية في أوروبا منذ فترة وقد كتب عنها أغلب الكتاب مقالات مستقلة ونجد ذكرها بكثرة فيما كتب من الواريخ العامة عن المسلمين ويذكر الكتاب بعد نقل الرواية رأيهم الخاص (موافق أو مخالف)، وما مرّ علينا من كتب في هذا الشأن إجمالاً من المناسب ذكرها لأننا سنشير إليها في أكثر من موضع في مقالنا، لذلك نكتب أسماء الكتب مع الصفحات والطبعات.

أول من أنكر هذه الحادثة هو السيد غبن (ت1974م) في كتابه "تاريخ الإمبراطورية الرومية" جزء فتح المسلمين للإسكندرية حيث كتب ملاحظات مختصرة لكنها محققة.

وقد أثبت ذلك البروفيسور وايت في مقال مستقل، انظر:

Aegyriactiua or Observation on Certain Antiquities of Egypt by: J. White D.
D. Professor of Arabic in the University of Oxford, 1801

Successors of Muhammad by: Washington Irving pg. 113 printed by Bell &
Sons, London

The Saracens by: Arther Glimmen, Second Edition, pg. 254 Story of Nation
Series, Edited, 1889

History of Arabia Antient and Modern, Vol.: 1 pg. 393 by: Andrew Cricton

History of the Conflict between Religion and Science (تاريخ النزاع بين الدين)
(والعلوم), 20th Edition, London, 1887. Pg. 104 & 103 by: Drapell D.
Professor, New York College, America

ونشرت في صحيفة الإسيكتيتير وهي صحيفة مشهورة في لندن نقاشات عديدة كان
بعضها موافقًا والبعض الآخر مخالفًا، انظر إسيكتيتير، عدد: 2 يونيو 1888 م و23
يونيو 1888 م

دائرة المعارف البريطانية، ذكر الإسكندرية

السيد سيديو وهو عالم فرنسي مشهور وألّف تاريخًا مفيدًا وشاملاً للإسلام قد نقد
الحادثة تنقيدًا تاريخيًا، انظر:

Histoire Generale Des Arabes Parl. A. Sedillol Yom, Paris, 1877, pg. 155

وكتب البروفيسور ديساسي عالم العربية الفرنسي المشهور بحثًا مفصلاً عن
الحادثة، انظر ترجمة ملاحظات البروفيسور ديساسي (Dessasy) في كتاب عبد
اللطيف البغدادي طبعة باريس 1810 م صفحة 240

والمقالة الشاملة والمفصلة أكثر من جميع المقالات هي التي قدّمها السيد كريل الألماني في مؤتمر العلوم الشرقية. أنشئ في أوروبا مؤتمر منذ 15 سنة والذي هدف إلى إجراء تحقيقات نادرة ومفيدة عن تاريخ آسيا، وقد عقدت الجلسة الرابعة لهذا المؤتمر في سبتمبر 1878م في فلورنسا في جلسة من جلسات المؤتمر قدّم السيد كريل وهو عالم مشهور بالعربية من ألمانيا مقالة عن هذا الموضوع باللغة الألمانية والذي طبعت مع تقرير المؤتمر، وقد ذكرت ترجمتها في نهاية هذه المقالة.

وأريد أن أوضح أيضًا أن ترجمة مقالة السيد كريل قد قام بها ليس أعزّ أصدقائي بل سيدي شمس العلماء العلامة سيد علي البلغرامي عالم الجيولوجيا (B.A. & B.L.) المفتش العام للمعدنيات في حيدرآباد الدكن، والذي يعتبر فارابي وكندي زماننا من حيث علمه باللغات واضطر إلى القول عن الكتب الفرنسية أنني تعلّمت بعضًا من الفرنسية المكسورة ولذلك لا أجد صعوبة في الاستفادة منها.

بحث مقدّم وضروري: والبحث الضروري والمقدّم في هذه الرواية هو معرفة إن كان المصدر الأصلي لها التواريخ الأوروبية أم التواريخ العربية، هذا سؤال ضروري ولكنه لا يطلب النقاش، لأن المعارضين والمؤيدين ردّوا عليه ردًا واحدًا. مؤرخو أوروبا سواء كانوا موافقين أو معارضين لا ينكرون بأنه ليس لديهم أي مصدر لهذه الرواية وهم في هذه المرحلة مقيّدون بالتواريخ العربية، ولكن قبل أن نثبت هذا القول نريد أن نبين كيف اشتهرت هذه القصة في أوروبا وبواسطة من؟

الحياة المختصرة لأبي الفرج: أول من شهّر بهذه الحادثة في أوروبا هو أبو الفرج، ونبذة عن حياته أنه كان ابنًا لطبيب يهودي يسمّى هارون، ولد في مدينة ملتن عام 1226م، ولأن والده قد تحوّل من اليهودية إلى المسيحية تلقّى أبو الفرج تعاليم الديانة المسيحية منذ البداية. وإضافة إلى علوم دينه حذق في اللغة العربية والسريانية وبسبب تفوّقه عيّن قسيسًا في غويا وسنه لم تتجاوز 21، ثم ترقى تدريجيًا إلى رتبة مافريان والتي تبقى بعده مرتبة البطريق فقط. كتب أبو الفرج باللغة السريانية تاريخًا بسيطًا جدًّا والذي كانت مصادره الكتب السريانية والعربية والفارسية

واليونانية ثم اختصر هذا الكتاب باللغة العربية والذي يسمّى "مختصر الدول" والذي نشره الدكتور بوكاك البروفيسور في كلية أوكسفورد عام 1662م مع الترجمة اللاتينية. هناك نسخ مختلفة لهذه الخلاصة وكلها ناقصة وبعض الحوادث زائدة عن الأصل السرياني، ويشكّ إن كانت هذه الإضافات لأبي الفرج أم لغيره، وهذه هي الخلاصة التي ذكرت فيها حادثة إحراق مكتبة الإسكندرية لأول مرة، وانتشرت من الترجمة اللاتينية في أوروبا كلها.

يكتب السيد غبن في تاريخه "نقلت هذه القصة مرارًا وتكرارًا منذ أن طبع تاريخ أبي الفرج بالترجمة اللاتينية" وقد ذكر بوضوح كل من واشنطن إرونغ، وأثر غولن، والسيد كرشتن وكثير من المؤلفين الأوروبيين أن هذه الرواية وصلت بواسطة أبي الفرج. وكان هذا العصر في أوروبا عصر العصبية والجهالة ولذلك كانت تقبل كل الروايات المتعلقة بالمسلمين صحيحة أو خاطئة والتي تولّد الكراهية ضد المسلمين، على كل حال فإن الحادثة أصبحت مشهورة في جميع أنحاء أوروبا وأصبحت بسرعة كبيرة جزءًا من الأدب الأوربي. والكلمات التي استخدمها أبو الفرج هذه هي ترجمتها بالأردوية (ثم يذكر كاتب المقال الترجمة اللفظية باللغة الأردية ونحن ننقل هنا العبارة العربية)

"وفي هذا الزمان اشتهر بين الإسلاميين يحيى المعروف عندنا بغرماطيقوس أي النحوي. وكان إسكندريًا يعتقد اعتقاد النصارى اليعقوبية ويشيد عقيدة السامري. ثم رجع عما يعتقد النصارى في التثليث. فاجتمع إليه الأساقفة بمصر وسألوه الرجوع عما هو عليه. فلم يرجع فأسقطوه عن منزلته وعاش إلى فتح عمرو ابن العاص مدينة الإسكندرية ودخل على عمرو وقد عرف موضعه من العلوم فأكرمه عمرو وسمع من ألفاظه الفلسفية التي لم تكن للعرب بها أنسة ما هاله ففتن به. وكان عمرو عاقلاً حسن الاستماع صحيح الفكر فلازمه وكان لا يفارقه ثم قال له يحيى يوماً: إنك قد أحطت بحواصل الإسكندرية وختمت على كل الأصناف الموجودة بها. فما لك به انتفاع فلا أعارضك فيه وما لا انتفاع لك به فنحن أولى به فقال له عمرو: وما الذي تحتاج إليه قال: كتب الحكمة التي في خزائن الملوكية، فقال له عمرو ما لا يمكنني أن أمر فيها إلا بعد استئذان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب. وكتب إلى عمر وعرف قول يحيى فورد

عليه كتاب عمر يقول فيه: وأما الكتب التي ذكرتها فإن كان فيها ما يوافق كتاب الله فففي كتاب الله عنه غنى وإن كان فيها ما يخالف كتاب الله فلا حاجة إليه فتقدم بإعدامها فشرع عمرو بن العاص في تفريقها على حمامات الإسكندرية وإحراقها في مواقدتها فاستيقدت في مدة ستة أشهر، فاسمع ما جرى وأعجب".¹

أول من أنكر هذه الحادثة هو غبن: آمن الجميع بالحادثة ولم يفكر أحد بتحقيقها والتفتيش فيها، ولأول مرة نظر إليها المؤرخ غبن والذي يعتبر مؤسسًا لطريقة خاصة في التاريخ، نظر إليها نظرة التحقيق وكتب: "إنني أميل إلى إنكار أصل الحادثة ونتائجها كذلك" وقد بين غبن أسبابًا مختلفة لإنكاره ورفضه واحداها أن أبا الفرج ولد بعد الحادثة التي نناقشها بخمسمائة سنة، ولم يذكر أحد وحتى المؤرخين المسيحيين هذه الحادثة فكيف تعتبر شهادة أبي الفرج صحيحة، وبعد إنكار غبن أفاقت أوروبا من سباتها وبدأ العديد من العلماء يحققون الحادثة ولو أنه نتج عن تحقيق غبن فريقان: مؤيد ومعارض، إلا أن المعروف أنه لم يؤلف أي كتاب عن الإسلام في أوروبا في القرن الأول الهجري، وهذا هو السبب أن المؤلفات التي ألّفت في السيرة النبوية وسير الخلفاء الراشدين في أوروبا أو التي هي قيد التأليف مأخوذة عمومًا من التأليفات الإسلامية، لذلك اضطر الفريق الذي يؤيد هذه الحادثة أن يرجع إلى التواريخ العربية.

الأوروبيون يذكرون أن مصدر هذه الرواية هي التواريخ العربية: السيد كرشتن والذي أبدى غضبه على رفض غبن يكتب في كتابه تاريخ الإسلام "إذا كانت هذه الحادثة مبنية على بيان ذلك الشخص الغير المعروف (أبو الفرج) والذي كتبها بعد ستمائة سنة لكان من الممكن أن نتردد في الاعتراف ببيان مؤرخ آرمينية، لكنها لا تستند فقط على دليله ولكن خلاف ذلك قد ذكرها المقريزي وعبد اللطيف اللذين كتبا مصنفات عن تاريخ مصر القديم"، وقد اعترف بذلك علانية السيد كريل بكل عدل، يكتب: "على حسب ما أتذكر فإن هذه الحادثة ذكرت أولًا في تاريخ عبد اللطيف الذي ولد بعد هذه الحادثة بخمسمائة سنة"

¹ راجع: تاريخ مختصر الدول (طبعة لندن، 1663م)، ص 180-181

وبعد أن تم تحديد أن مأخذ هذه الحادثة هي التواريخ العربية فقط، فمن السهل أن نفصل في هذا النقاش لأننا نستحق أن نعرف المؤلفات العربية أكثر من أوروبا، وصاحب البيت أدرى بما فيه.

إن المؤرخين الأوروبيين الذين أرادوا إثبات هذه الحادثة أسندوها إلى عبد اللطيف البغدادي، والمقريزي وحاجي خليفة، وقالوا: "إن هؤلاء المؤرخين ثقات ولا يمكن إنكار شهادتهم". وحسبما رأيت وقرأت فإن أوروبا دائماً ذكرت هذه الأسماء فقط، وهناك إنكليزي جاهل أشار إلى ابن خلدون ولم يخجل من الكذب، وكتب إن ابن خلدون ذكر هذه الرواية في أحوال عمر، لكن تاريخ ابن خلدون كتاب عام ومعروف وليس هناك في أحوال عمر حرف واحد عن الحادثة، فإذا أبعدنا ابن خلدون تثبت الرواية معتمدة على المؤلفين الثلاثة المذكورين. والآن نتوجه إلى تحقيق هذه الرواية بأصول تاريخية، وفي ذيل ذلك نبين كيف أن المؤرخين الأوروبيين استخدموا أسلوب التدليس والخداع في استنادهم إلى المؤلفين الثلاثة.

هناك طريقتان لإثبات الوقائع التاريخية: الرواية والدراية. الرواية تعني أن الحادثة التي تذكر يتم إيصال سندها إلى الشخص الذي حضر الحادثة، وقد اعتمدت جميع التواريخ المستندة للعرب على هذه القاعدة وهذا هو السبب في استخدام كلمات (أخبرنا وحدثنا) حتى تذكر سلسلة السند وتذكر أسماء جميع الرواة حتى يصل السند إلى الشخص الذي حضر الحادثة. وكان هذا نهج التواريخ الإسلامية حتى القرن الرابع، ولو أن هذا النهج أصبح أقل رواجاً فيما بعد ولكنه استخدم لبيان حوادث القرون الثلاثة الماضية يعني أن الأحداث المذكورة لذلك العصر بسلسلة السند هي التي تعتبر موثوقة.

والدراية تعني أن الحادثة التي تذكر يجب النظر إليها بكونها مناسبة لمقتضيات الطبيعة الإنسانية، ومميزات العصر، وأحوال الشخص الذي نسبت إليه وقرائن أخرى، وإذا كانت الحادثة لا توافقها تكون صحتها مشكوك فيها، بمعنى يكون هناك من التغيرات في الرواية ما أدى إلى تغيير ظاهرها، ونريد أن نضع نصب أعيننا نفس هاتين الطريقتين.

تحقيق الحادثة حسب قواعد الرواية: لأن الفريقين في هذه القضية أحدهما منكر لها والثاني مثبت ومؤيد لها ولأن استدلال التأييد في مثل هذه القضايا يكون على الفريق المؤيد والمدعي لها، نلتفت أولاً إلى الأدلة والشهادات التي تذكر لإثبات هذه الحادثة، وإلى الحد الذي نعرفه (ونجزم أن شخصاً آخر لا يمكنه أن يثبت في هذا النقاش أكثر من هذا) فإن كل المؤلفين الأوربيين الذين يريدون إثباتها تقتصر دلائلهم حسب أصول الرواية على "أن عبد اللطيف البغدادي، والمقريري، وحاجي خليفة قد ذكروا هذه الحادثة"، إن الأمور التي تتطلب البحث والتحقيق هي هل ذكر هؤلاء شيئاً يتعلق بهذه الحادثة والذي يمكن أن يقدم كشهادة؟ وهل تكفي شهادتهم فيما يتعلق بهذه الحادثة؟

المؤرخون الأوربيون والذين يدعون هذه الحادثة يذكرون اسم عبد اللطيف والمقريري وحاجي خليفة بصورة مزورة مراراً وتكراراً، والذين أنكروها لا يتعبرون شهادات هؤلاء المؤلفين موثوقة، وطريقة البحث أو النقاش هذه أسدلت الستار على مكر المؤرخين الأوربيين، لأن النقاش قد اقتصر على إمكانية كون عبد اللطيف وغيره موثوقاً ومستنداً عليهم أم لا، مع أنه كان من اللازم أولاً التحقق من أن عبد اللطيف قد قدم شهادة أصلاً.

أول شيء تجب مناقشته هو هل المؤلفون الثلاثة، والذين تكررت أسماءهم، شهادتهم منفصلة؟ أمانا تاريخ المقريري الذي طبع في مصر وقد وضع المقريري في الجزء الأول ص 151 عنواناً، وهو عمود السواري، وهي منارة مشهورة في الإسكندرية، ونقل حرفياً العبارة التي كتبها عبد اللطيف في ذكر هذه المنارة. جاء ذكر الإسكندرية في كتابة عبد اللطيف بطريقة ضمنية، ولأن المقريري قد نقل عبارته حرفياً، فالعبارة التي تتعلق بالمكتبة نقلت أيضاً كما هي، وعلى هذا الأساس اضطر الموسيو لانغل وهو عالم فرنسي معروف بالاعتراف بأن بيان المقريري ليس شهادة مستقلة، ولكنه فقط نقل لفقرة عبد اللطيف!¹ إن موسيو لانغل يخالفنا في النقاش حول مكتبة الإسكندرية ولكنه مضطر لهذا الاستسلام، إن المؤرخين الأوربيين الذين لم يشاهدوا الكتاب الأصلي للمقريري يكررون اسمه جهلاً، ولكن الموسيو لانغل لم يستطع أن يقبل ذلك لأنه قرأ كتاب المقريري بنفسه

¹ راجع: تعليق البروفيسور ديساسي (ترجمة تاريخ عبد اللطيف البغدادي، طبعة باريس 1810م)، ص 240

وقد فصلّ فيه المقرّبي أحوال فتح الإسكندرية ولكنه لم يكتب حرفاً واحداً عن المكتبة مما يظهر وبكل وضوح أنه لا يدرج تلك الحادثة في فهرس الحوادث التاريخية.

وبعد خروج المقرّبي يبقى اسمان: عبد اللطيف والحاجي خليفة، مع أن أغلب المؤرخين قد ذكروا حاجي خليفة ولكنهم لم يشيروا إلى عبارته الخاصة لأنهم إن فعلوا ذلك لأصبح ادعاؤهم ضعيفاً، ونحن ممنونون للبروفيسور ديساسي (وهو مؤلف فرنسي معروف والذي يريد أن يثبت هذه الحادثة بكل قوة) الذي كشف هذا السر ونقل عبارة حاجي خليفة وهي:

"فكانت العرب في صدر الإسلام لا تعتني بشيء من العلوم إلا بلغتها ومعرفة أحكام شريعتها وصناعة الطب فإنها كانت موجودة عند أفراد منهم لحاجة الناس طراً إليها وذلك منهم هوئاً لقواعد الإسلام وعقائد أهله عن تطرق الخلل من علوم الأوائل قبل الرسوخ والأحكام حتى يروى أنهم أحرقوا ما وجدوا من الكتب في فتوحات البلاد".

وهذه العبارة لا تذكر الإسكندرية وإنما تذكر حرق الكتب بشكل عام، وذلك أيضاً بذكر كلمة (يروى) وهذا يظهر أنها رواية عامة ولا يظهر بهذه العبارة بأي حال أن المؤلف يعتبر هذه الحادثة شيئاً واقعياً. إن حاجي خليفة يذكر عدم الاهتمام الذي كان سائداً في بداية العصر الإسلامي ويذكر في ذيل ذلك رواية العامة بطريقة عامة، ومثال ذلك كأن يقول شخص بأن نابليون ادعى القيادة الإسلامية في مصر ونشر لذلك شبابيك كثيرة حتى أنه يقال أنه نطق شهادة التوحيد في جامعة الأزهر وصلى مع الجماعة. وهذه طريقة ببيان شيء عام حيث يذكر خطيب أو كاتب مقال أضعف الروايات. والمهم أن نسبة إحراق مكتبة الإسكندرية إلى حاجي خليفة جرأة مدهشة لا يمكن أن يأتي بها إلا المؤرخون الأوروبيون.

تبقى الآن شهادة عبد اللطيف البغدادي وفي الحقيقة هو الذي يعتبر السند الأخير للمؤرخين الأوروبيين. وحقيقة ذلك أن عبد اللطيف كتب تاريخاً عن مصر واسم الكتاب هو "كتاب الإفادة والاعتبار في أمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر" وقد أتمّ الكتاب في عشر شعبان 603 للهجرة، وموضوعه تلك الحوادث والظروف التي

العدد الخاص مجلة الهند

شهدها عبد اللطيف بأم عينيه في مصر، وفيها حادثة بعنوان عمود السواري، وبينَ أحوالها وكتب أن حول العمود كان هناك أربعمائة عمود صغير، وبعد ذلك يذكر ضمناً العبارة التالية:

"ويذكر أن هذا العمود من جملة أعمدة كانت تحمل رواق أرسطاطاليس الذي كان يدرس به الحكمة وأنه كان دار علم وفيه خزانة كتب حرقها عمرو بن العاص بإشارة من عمر ابن الخطاب".

ويستطيع كل شخص أن يفهم من سياق هذه العبارة ماذا أراد بها عبد اللطيف. إن قول عبد اللطيف يأتي تحت كلمة "يذكر"¹ وذلك لا يظهر أبداً أنه يمنحه أهمية تاريخية أو يعترف بها. ويكتب السيد كريل الألماني في مقالته بعد نقل قول عبد اللطيف: "يظهر هذا البيان على سبيل الذكر وليس هناك غرض خاص منه وهو أيضاً ليس لتذكير لحادثة خاصة ولكنه إعادة لشيء مشهور ذكره السياح في ذلك العصر مراراً". وهو يشبه تلك البيانات الغير موثوقة والمخالفة للعقل والتي انتشرت في العصور الوسطى عن مكانة بيت المقدس.

والشيء الممتع أن عبد اللطيف ولأنه ذكر ما يتناقله عامة الناس فإن الحوادث التي ذكرت في هذه الجملة كلها كانت خاطئة، لم يكن هذا المكان رواقاً لأرسطو، ولا درّس فيه أرسطو في أي يوم من الأيام، كاتب لمقالة في اسبكتيتر بتاريخ 13 يونيو يناقش هذه الحادثة، قد استدل على خطأ بيان عبد اللطيف بطريقة طريفة فيقول: حريق المكتبة ضعه جانباً، إن الحوادث الأخرى المنقولة فيه أيضاً ليست صحيحة.

تدليس المؤرخين الأوربيين وخداعهم: هذه هي حقيقة الأسناد والرويات التي بنوا عليها إثباتهم ومن العجب الطريقة التي نهجها هؤلاء المؤرخون في التدليس في هذا النقاش، إن العبارات التي نقلناها لعبد اللطيف وغيره تبين للقراء أن المقريزي لم يذكر هذه الحادثة بنفسه بل ذكر عبارة عبد اللطيف في ذكره لعمود السواري، وكان

¹ وفي نسخة طبعت من مصر وهي مليئة بالأخطاء جاءت كلمة "أرى" بدلاً من "يذكر" فإذا اعتبرناها صحيحة فسيكون ذلك أيضاً الرأي الشخصي لعبد اللطيف.

فيها بيان عن المكتبة ضمناً. إن حاجي خليفة حتى اسم الإسكندرية، ولكنه ذكر المكتبات بشكل عام وذلك أيضاً بعد كلمة "يذكر" مما يظهر أنها ليس رواية موثوقة، لكن المؤرخين الأوروبيين ذكروا اسم عبد اللطيف وكأنهم يدعون صحة هذه الحادثة، وكأنهم كتبوا عن ذلك مقالات مستقلة.

كتب البروفيسور دسامي في تعليقه على الانتقادات التي توجّه إلى بيان أبي الفرج اعتراضاً قوياً جداً، وهو: "أن المؤرخين العرب سكتوا على هذه الحادثة العظيمة". وبعد ذلك يردّ البروفيسور دسامي على هذا الاعتراض ويستطرد: "ولكن قوة الاعتراض تخف حقاً بعد شهادة عبد اللطيف والمقريزي" والممتع أنه بعد هذه العبارة يضيف البروفيسور "مع أن الناس ينتهزون فرصة القول بأنما ذكره المقريزي ليس إلا نقل لفقرة عبد اللطيف" يكتب السيد كرشتن "إن هذه الحادثة ليست مستندة فقط على السند المذكور أعلاه (يعني بيان أبي الفرج) لكن المقريزي مع عبد اللطيف اللذين ألفا مؤلفات عن تاريخ مصر القديم قد ذكروها.

ويقول البروفيسور وايت رافعاً صوته "إننا نتجرأ أن نقدّم الشهادة الإثباتية لاثنين من المؤرخين العرب في مواجهة شهادة غبن العادلة ولا أحد يعترض على كونهما مستندين وهما من الأتباع المتعصبين لدين الإسلام، يعني عبد اللطيف والمقريزي اللذين لا يتحدان فقط على حادثة حرق المكتبة إنما يدلّان على المكان الذي كانت المكتبة قائمة فيه".

كيف استخدم البروفيسور وايت أسلوب الدهاء في هذا الموضوع، إن عبد اللطيف قد ذكر الحادثة حينما ذكر العمود وذلك ضمناً وكأنه شيء مسموع، ويحوّلها البروفيسور وايت إلى صورة يعتبرها الشخص الجاهل وكأن عبد اللطيف يريد أن يثبت هذه الحادثة بشكل مستقل، ولم يثبت الحادثة الأصلية فحسب بل حدّد مكانها ومحلها أيضاً.

مع أن المؤرخين الأوروبيين الذين يريدون أن يثبتوا هذه الحادثة أسندوا رواياتهم على هؤلاء الثلاثة فقط يعني عبد اللطيف والمقريزي وحاجي خليفة، ونحن في هذا الموضوع نناقش هؤلاء المؤلفين، لكن بعض المؤلفين الأوروبيين تقدّموا في عملية التدليس أكثر وأظهروا بطريقة خادعة أن هناك شهادات متعددة أخرى لإثبات الحادثة، يقول

السيد كرشتن في حاشية كتابه: "قد جمع السيد بيرنت دساسي في تعليقه الطويل الذي كتبه عن ترجمة عبد اللطيف (بيان مصر، ص 240) شهادات مختلفة عن كتب المؤلفين العرب والتي توجد في المكتبة الملكية في باريس، ويصبح بيان أبي الفرج بهذه الشهادات موثقاً به لكن غبن المغرور لم يشاهد هذه المؤلفات" ويمكن أن ينخدع بهذه العبارة أي شخص جاهل وخاصة الذي يحسن الظن بالمؤلفين الأوربيين ويتيقن أنه من المؤكد وجود مواد كثيرة في مكتبة باريس العظيمة عن هذه الحادثة، وإلا لما اشتهرت هذه الحادثة الخاطئة في أوربا كلها.

ولكن على قرائنا أن لا يتأثروا باسم باريس اللامع، إن تعليق دساسي والكتب التي أشار إليها أمامنا، ولا شك أنه أراد أن يثبت الحادثة بكل قوة، لكن للأسف إن القوة التي في فطرته ليست في دلائله، ونذكر هنا ترجمة لعبارة:

"إنما ذكره أبو الفرج في تاريخ العرب عن أمر عمر رضي الله عنه بتدمير المكتبة الإسكندرية شكّ فيه كثير من المؤلفين وفي بيان وتحديد أهمية ما كتب عن هذه الحادثة يجب أن يكون هناك نقاش كبير. إن الأدلة التي بنيت عليها هذه الشكوك موجودة في النقاش الذي طبعه هارد (Mchrainghard) عام 1792م في غوتنك (Gottingue) ويؤيد موسيو لانغل ووائت الفكرة العامة في التعليقات التي أدرجها (M. de. Saine Croix) عن المكتبات القديمة في الإسكندرية في مجلة دائرة المعارف السنة الخامسة ص 433، ولكنهما لا يقبلان البيان المبالغ فيه لأبي الفرج ومن أقوى الاعتراضات التي وجّهت إلى بيان أبي الفرج أن المؤرخين العرب سكتوا على حادثة عظيمة كهذه ولكن قوة الاعتراض ولا شك تخف بعد شعادة عبد اللطيف والمقريزي، ولو أنه يمكن القول بأن فقرة المقريزي وكما أشار موسيو لانغل ليست إلا نقل لفقرة عبد اللطيف، لا أريد أن أبارز عالماً ومؤلفاً (موسيو لانغل) بالتعليقات التي سأذكرها فأنا أفضله وأحترمه من صميم قلبي ولكنني وجدت بعض الأسناد الجديدة الأخرى وأنا على يقين أن هذه الحادثة وكما ذكرها أبو الفرج ومع وجود بعض التفاصيل التي لا تقبل النقد ولكن الحقيقة إنها مبنية على أساس تاريخي وأن العرب حينما فتحوا

هذه المدينة أمر عمر بن العاص بحكم من عمر بأن مجموعة تشتمل على كتب كثيرة في الإسكندرية توضع على النار"

بعد هذا نقل البروفيسور ديساسي عبارة حاجي خليفة وابن خلدون واستدل بها على حادثة مكتبة الإسكندرية.

كنت مشتاقاً إلى قراءة الأدلة الجديدة التي وجدها البروفيسور دساسي ولكنها لم تسفر عن شيء، فقد وجد البروفيسور المحترم دليلين فقط بعد أن قلب المكتبة العظيمة لباريس، الأول هو نفس عبارة حاجي خليفة والتي ذكرناها آنفاً، والثاني فقرة من مقدّمة ابن خلدون والتي ذكرت فيها مكتبة إيران ضمناً وإجمالاً، وهذا منطوق عجيب أن تكون الدعوى بإحراق مكتبة الإسكندرية ويذكر اسم إيران في الدليل، ومع أن قول ابن خلدون هذا خاطئ تماماً ويخالف التواريخ المستندة، لكننا لا نبحت ذلك في هذا الموضوع، لأن مقالتنا عن مكتبة الإسكندرية وليست عن إيران.

ومن المحتمل أن يقال أن البروفيسور دساسي قدّم قول ابن خلدون كشهادة مؤيدة ولكن ذلك لا يتمّ الهدف، لأن النتيجة التي تستخلص من ذلك هي أن حادثة الإسكندرية ليس لها أي أصل، وإلا كما ذكر ابن خلدون حادثة إيران كان أي مؤرخ من المؤرخين العرب يذكر حادثة الإسكندرية بنفس الطريقة، مع أن آلاف التواريخ العربية لا تذكر أي شيء عن ذلك.

لا يمكن تقديم عبارة عبد اللطيف والمقريزي كدليل بأي حال، والممتع أن أبا الفرج وهو المدعى عليه من قبلنا في هذا النقاش لم يكتب أيضاً هذه الحادثة بالطريقة التي تثبت بأنه كان يعترف بها ويعتبرها صحيحة، إن التاريخ الأصلي لأبي الفرج باللغة السريانية والذي فصلّ فيه أحوال فتح الإسكندرية لم يذكر هذه الحادثة، ولكن الخلاصة باللغة العربية نقلت فيها هذه الحادثة مثلما ذكرنا سابقاً، ولكن ليس هناك ثقة تجاه هذه الخلاصة فهل الأشياء التي ذكرت مضافة إلى التاريخ السرياني هي في الحقيقة لأبي الفرج أم ألحقها شخص آخر؟ يكتب السيد كريل الألماني بالنسبة لهذه الخلاصة أن هناك أشياء كثيرة فيها والتي لا توجد في الأصل السرياني، ولا يعرف إن

كانت هذه المواضع أضيفت فيما بعد أم ألحقها أبو الفرج بنفسه، لأن جميع النسخ لهذه الخلاصة ناقصة. وحادثة إحراق مكتبة الإسكندرية الموجودة في الخلاصة العربية غير موجودة في الأصل السرياني وبذلك يصبح احتمال الإلحاق قويًا، لأن البروفيسور بوكاك قد طبع الخلاصة باهتمامه وتصحيحه وكان ماهرًا جدًا في تخليق الأحداث ضد المسلمين.

كل هذا النقاش كان لمعرفة إن كان عبد اللطيف وحاجي خليفة قديمًا شهادة تتعلق بهذه الحادثة أم لا، ولكن إن نسلّم بأنهما قد اعتبرا الحادثة صحيحة، ينشأ نقاش آخر وهو هل شهادتهما بالنسبة لهذا الأمر موثوقة أم لا؟ ولد عبد اللطيف البغدادي سنة 557هـ، وأما حاجي خليفة فلم تمض عليه إلا مائتا سنة، ومن يمكنه أن يقول بأن الشهادة تكون موثوقة من قبل أشخاص ولدوا بعد الحادثة بخمسمائة سنة ولم يذكروا لها سندًا أو إشارة.

ما هي منزلة عبد اللطيف وحاجي خليفة؟ نريد أن ننظر إلى هذين المؤلفين والدرجة التي يتمتعان بها في فن التاريخ، لأن المؤرخين الأوروبيين استخدموا أسلوب التدليس حتى في هذا الأمر، إنهم يمدحون حاجي خليفة وعبد اللطيف بكلمات رائعة وأنه يجب الاستسلام لقولهما بسبب عظم المكانة التي يحتلانها. وهناك سؤال صغير يكفي لكشف خداع هؤلاء المؤلفين الأوروبيين. نحن أيضًا نعتز بأن عبد اللطيف وحاجي خليفة من المؤلفين الكبار ولكن السؤال هو: يا ترى في أي علم؟ بدون شك كان عبد اللطيف طبيبًا كبيرًا وله مؤلفات عديدة في علم الطب، وقد ذكره ابن أبي الأصبعة في طبقات الأطباء بتفصيل، ونعرف بذلك عن ثقافته الطبية وعظم شأنه ولكن هل قال شخص أنه مؤرخ أو أنه ذكر في حياته فن التاريخ؟ وإذا لم يكن هذا فما دور عظمته وشأنه في الحوادث التاريخية؟ فإذا كتبت حادثة تاريخية بالإشارة إلى الفارابي وابن سينا في أي حد تكون موثوقة.

ولا شك أن حاجي خليفة قد ألف كتابًا مفيدًا للغاية بعنوان "كشف الظنون" إلا أنه ليس بكتاب للتاريخ، بل هو فهرس للمؤلفات المتعلقة بالإسلام، ولا نجد عملاً آخر لحاجي خليفة غير ذلك، فإنه لم يؤلف كتابًا في التاريخ ولم يعتبره أحد من المؤرخين.

والحقيقة أن هذا موضع خجل لمعارضينا بأن لا يجدوا لحادثة عظيمة الشأن والتي استمرت لستة أشهر حسب اعتقادهم، لا يجدوا لها أي سند في الآلاف من كتب الإسلام، وأن يضطروا إلى الالتجاء إلى طبيب وكاتب فهارس.

الدعوى بخطأ الحادثة الافتراضية وإثبات دعوى النفي: إلى هنا ما ناقشناه كان باعتبار كون معارضينا هم المدعين، لأنه بحسب أصول المناظرة هم المدعون في الحقيقة، لكننا نعتبر أنفسنا مدعين أكبر منهم ونقول بأن سيدنا عمر رضي الله عنه لم يخرب المكتبة ولم يخربها المسلمون في أي زمن، ولكن في البداية علينا أن نفهم كيفية الاستدلال رواية ودراية عن الدعوى التي تكون في صورة النفي، فمثلاً إذا ادعى أن الحادثة الفلانية لم تحدث في العصر الفلاني، فيكون دليلها بحسب الرواية أن كل المصادر التي تتعلق بالمعرفة عن ذلك العصر لا تذكر تلك الحادثة. وبحسب الدراية أن كل القرائن والشهادات تخالف أدلة إثبات الحادثة، ومن نفس وجوه الاستدلال هذه ندعي أن مكتبة الإسكندرية لم تخرب بأيدي المسلمين أبداً.

التواريخ البدائية للإسلام: بدأ التصنيف والتأليف في الإسلام من عام 114 للهجرة، وفي هذه الفترة ألف محمد بن إسحاق أول كتاب للتاريخ وهو في أحوال الرسول ﷺ، وكتب المؤلفون بعد ذلك تواريخ عامة ذكرت فيها فتوحات الخلفاء الراشدين والأحداث بالتفصيل. والمؤلفات التي توجد الآن أو تعرف أسماؤها من ذلك العصر هي:

- فتوح البلدان للبلاذري. كان البلاذري في عهد المتوكل وذكر جميع الأحداث في تاريخه بسند متصل.
- تاريخ اليعقوبي يعني تاريخ أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح الكاتب العباسي. كاتب قديم من معاصري أصحاب بلاط مأمون الرشيد، كتب هذا التاريخ إلى سنة 259هـ والغالب أنه كان حياً في تلك السنة. يحتوي الكتاب على مجلدين، وطبع في ليدن سنة 1883م.
- تاريخ أبي حنيفة الدينوري، طبع في ليدن.
- التاريخ الكبير لأبي جعفر بن جرير الطبري، ولو أن هذا التاريخ متأخر بعض الشيء لأن مؤلفه توفي عام 310هـ يوافق 922م، ولكنه كتب جميع الأحداث

العدد الخاص مجلة الهند

بسند متصل، وذكر أسماء جميع الرواة في كل رواية وهو مخزن لجميع الروايات التي ترتبط بالتاريخ الإسلامي والموجودة حتى الآن أو التي كانت موجودة، وعلى هذا الأساس من الصحيح أن نقول إن الحوادث لثلاثة قرون والتي لا توجد في هذا الكتاب لا تعتبر تاريخًا، إنه كتاب ضخّم له اثنا عشر مجلدًا، طبع في هولندا وبقيت عدة مجلدات أخرى.

إن تاريخ ابن الأثير وابن خلدون والتي تعتبر موثوقة جدًا ما هي إلا خلاصة لتاريخ الطبري وقد اعترف بذلك هؤلاء المؤرخون بأنفسهم، وقد كتبت عن الإسلام كثيرًا من الكتب إضافة إلى هذه التواريخ، ولكن بالنسبة للأحداث القديمة تعتبر هذه الكتب القليلة المذكورة سابقًا هي مصادرهما، ويظهر ذلك من مشاهدة ومطالعة هذه الكتب. إضافة إلى هذه الكتب هناك كتب عديدة ألفت في بيان الأحوال الخاصة لمصر والإسكندرية، وما استطعنا أن نكتشفها هي:

خطط مصر لأبي عمر الكندي (ت246هـ)، وكشف الممالك لابن شاهين (ت385هـ)، وتاريخ مصر لعبد الرحمن الصوفي (ت347هـ)، وتاريخ مصر لمحمد بن بركات النحوي (ت520هـ)، واتعاظ المتأمل إلى 720هـ، وتاريخ مصر لمحمد بن عبد الله (ت420هـ)، وتاريخ مصر للقبطي (ت646هـ)، وتاريخ مصر لقطب الدين الحلبي (ت735هـ)، وتاريخ مصر ليحيى الحلبي (ت640هـ)، والانتصار لابن دقماق (ت809هـ)، وعقود الجواهر، ونزهة الناظرين، والدرة المضيئة، وأشرف الطرف، ونزهة السنة، وتفريج الكربة، وفرائد السلوك، وبدائع الظهور، وتحفة الكرام بأخبار الأحرار، وإعلام بمن وئى مصر في الإسلام، وتاريخ لإبراهيم بن وصيف، وجواهر البحور، ومختار للقضاعي، والنقط المعجم، والروضة الهية، والمواعظ والاعتبار للمقريزي، وجواهر الألفاظ، واتعاظ الحنفاء، والنجوم الزاهرة وتاريخ مصر لابن عبد الحكم.

ولو أنه لا يمكن الحصول على جميع هذه الكتب الآن ولكن توجد في العصور المتأخرة كتب جمع فيها جميع روايات الكتب القديمة مثل حسن المحاضرة للسيوطي والذي كتب السيوطي في مقدمته أنه اطلع على ثمانية وعشرين تاريخًا وأعدّ منها كتابًا،

العدد الخاص مجلة الهند

والكتاب المفصلّ والأبسط هو المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار من تأليف المقريزي والذي تتبع فيه حتى الأحداث الجزئية لمصر والإسكندرية.

إن كل الكتب التي ذكرت سابقاً والتي ليس بين أيدينا مصدر آخر غيرها لمعرفة أحوال ذلك العصر، لا تذكر الحادثة التي نناقشها، وتحتوي هذه الكتب وخاصة الطبري، وفتوح البلدان للبلاذري، وحسن المحاضرة، والخطط والآثار للمقريزي على الأحوال التفصيلية لفتح الإسكندرية ولكنها لا تذكر المكتبة.

هذه هي الكتب التي كان من المؤكد ذكر الحادثة فيها إن كانت قد وقعت، لكن المؤلفات التي يحتمل أن الحادثة تجد فيها مكاناً ولو ضمناً ومصادفة لم تذكرها أيضاً. مثلاً الكتب التي ألّفت في أحوال الأطباء ويذكر فيها يحيى النحوي عمومًا، فعندما اختلق أبو الفرج هذه القصة كانت أثناء ذكر يحيى النحوي وذكر أن يحيى طلب المكتبة من عمرو بن العاص، وفي الرد على ذلك أمر عمرو وبحكم من عمر بإحراق المكتبة، كان يحيى طبيباً وفيلسوفاً وترجمت جميع كتبه إلى العربية، ولذلك تحتوي التواريخ العربية التي تذكر أحوال الأطباء والحكام على ذكر مفصلّ ليحيى وقد ذكر ابن أبي أصيبعة في طبقات الأطباء وابن النديم في كتاب الفهرست جميع أحوال يحيى وأسماء مصنفاته، وكتب أيضاً أنه حضر إلى عمرو ابن العاص رضي الله عنه وأكرمه عمرو، يقول ابن النديم: "ولما فتحت مصر على يدي عمرو بن العاص دخل إليه وأكرمه ورأى له موضعاً" ولا يوجد ذكر للمكتبة في كل هذه التصريحات وهذا يعلن أن الحادثة لا أصل لها.

إضافة إلى هذه المؤلفات فالمؤلفات الأخرى مثل الكتب الجغرافية، الرحلات، السير، كانت من الممكن ذكر الحادثة فيها ضمناً ولكن ليس هناك أثر لها، والحقيقة أنه إذا ادعي بأن التراث الإسلامي خال تمامًا من هذه الحادثة إلا عبارة عبد اللطيف والتي بيّنا حقيقتها سابقاً، لكان هذا الدليل القاطع على عدم صحة هذه الحادثة.

وفوق ذلك لا نجدها في التواريخ المسيحية القديمة نفسها، فقد كتب يورتيكس المتوفي 940م، والذي كان بطريق الإسكندرية في القرن العاشر للميلاد، الأحوال المفصلة لفتح

الإسكندرية وكذلك الكين الذي عاش بعد الحادثة المفترضة بثلاث مائة سنة يعني قبل أبي الفرج بمئتي سنة، كتب تاريخ مصر أثناء مكوثه في مصر نفسها، وبين أحوال فتح الإسكندرية بالتفصيل ولكن لا يوجد حرف واحد عن الحادثة المذكورة، كانا مؤلفين مسيحيين متعصبين ولا يمكن أن يؤيدا المسلمين دون داعٍ، ومع هذا كانا محققين وصاحبي علم، ولم يكن شيئاً بسيطاً بالنسبة لهما أن تضيع ثروة علمية كبيرة كهذه، وبسبب إقامتهما في مصر واهتمامهما الذاتي كانت لديهما وسائل معلومات واسعة عن مصر، ومع كل هذا فعدم كتابتهما عن الحادثة المذكورة حرفاً واحداً للدليل على عدم صحتها. ولذلك فإن المؤلفين الأوربيين المنصفين مثل غبن وكريل استدلوا على عدم صحة الحادثة بهذه الأدلة.

والدليل القوي على أن هذه الحادثة لا أساس لها من الصحة أن المكتبة التي يذكر إحراقها كانت قد خربت قبل العصر الإسلامي، وحقيقة ذلك أن هذه المكتبة أنشأها ملوك مصر الذين كانوا يعبدون أصناماً وآلهة متعددة، وعندما انتشرت الديانة المسيحية في مصر بدأ الملوك المصريون تدمير هذه الكتب بسبب تعصبهم الديني، وشجع البطارقة نيابتهم وأعمالهم، وقد اضطر المؤلفون المعروفون والمؤرخون الأوربيون بالاعتراف بأن المكتبة كانت قد دمرت قبل الإسلام، ألقى موسيو رينان وهو عالم فرنسي مشهور محاضراته في الجامعة بعنوان "الإسلام والعلم" وقد طبعت هذه المحاضرة في شكل كتيب في باريس عام 1883م، ولو أن هذه المحاضرة معارضة للمسلمين ومليئة بالتعصب، بمعنى أنه أراد أن يثبت أن الإسلام والعلم لا يمكن جمعهما أبداً، لكن هذا الشخص المتعصب يقول عن مكتبة الإسكندرية: "يقال مراراً أن عمراً خرب مكتبة الإسكندرية ولكن ذلك ليس بصحيح، إن المكتبة المذكورة دمرت قبل ذلك العصر".

كتب السيد كريل تفاصيل هذه المكتبة الملكية في مقالته وفصل تاريخ خرابها عبر العصور بالتفصيل، ولكن لأن مقالة السيد كريل موجودة في نهاية الكتيب كملحق فلا نقلها هنا، إن خراب هذه المكتبة واقع لا يمكن إنكاره للمؤرخين الأوربيين الذين يريدون إثباتها، يكتب السيد دريبر في كتابه أن يوليوس قيصر أحرق أكثر من نصف الكتب وسمح بطارقة الإسكندرية بتوزيع النصف الباقي، بل قاموا بتوزيعها تحت مراقبتهم" ويذكر

دسيسس بوضوح "أنه بعد عشرين سنة من هذه الحادثة حصل ثيوفليس من الإمبراطور ثيوديسس على السماح المكتوب لتدمير المكتبة وقد رأيت رفوفها فارغة".

ولأن خراب هذه المكتبة أمر أكيد فاستخدم المعارضون خداعًا آخر، بمعنى أنهم ادعوا أن المكتبة التي خرّبها عمرو لم تكن المكتبة الملكية ولكن مكتبة سراييم، ولذلك يشير كاتب المقال لإسبيكتيتر إلى مكتبة سراييم في تأييده لأبي الفرج، لكنه توجيه القول بما لا يرضى به قائله، لأن أبا الفرج وفي الموضوع الذي يذكر فيه أن يحيى النحوي طلب الكتب من عمرو بن العاص، يكتب بوضوح هذه الكلمات: "كتب الحكمة التي في خزائن الملكية" ولكن وإن نستسلم بأن هذه الحادثة ترتبط بمكتبة سراييم، فمن الصعب أن يثبت المعارضون بأن مكتبة سراييم كانت موجودة عند فتح الإسندرية، بل سيثبت أن المكتبة المذكورة قد خرّبت كلها أو الجزء الأكبر منها من قبل.

يكتب السيد كريل أن سراييم ومكتبتها في ظلام تام إلى الآن، نحن نعلم أن معبد سراييم والمكتبة الملحقة به حوّلت إلى كنيسة في عهد ثيودوسيس سنة 389م، ولكن ذلك لا يثبت أبدًا إن كانت هذه المكتبة موجودة وقت التحويل أم خرّبت، أو أن الكتب انتقلت إلى القسطنطينية، والرأي الأخير بنقل الكتب إلى القسطنطينية أقرب إلى الصواب، لأن المكتبة التي أسّسها ثيودوسيس الثاني في القرن الخامس في القسطنطينية جهّزت بكتب من مصر وآسيا الصغرى في أغلبها.

وكتب مسيو سيديو الفرنسي بعد اعترافه بأن المكتبة التي يدور عنها النقاش كانت موجودة في سراييم: "لم يذكر مورخ معاصر هذه الحادثة (خراب عمرو بن العاص للمكتبة) ولكن إن كانت صحيحة فقد تكون مرتبطة ببضعة كتب لأن أجزاء من هذه المكتبة دمّرت في سنة 390م في عهد قيصر وفي عهد ثيودوسوس".

والآن نريد أن نحقق هذه الحادثة وصحّتها أو عدمها حسب أصول الدراية، فالخصائص التي ذكرها أبو الفرج (وهو الموجد الأول لهذه القصة الافتراضية) خاطئة تمامًا لدرجة أن المؤرخين الأوروبيين سواء كانوا مؤيدين أو معارضين، يعتبرونها باطلة، بروفيسور ديساسي والذي أراد أن يثبت هذه الحادثة بكل شدة اعترف بأن التفاصيل

التي ذكرها أبو الفرج ليست بصحيحة، وسخر أيضًا كتاب دائرة المعارف البريطانية من ذلك، وفي الحقيقة فإن توزيع مكتبة على الحمامات (والتي يبلغ عددها أربعة آلاف) وإحراق الكتب لمدة ستة أشهر واتخاذها وقودًا ليست إلا أسطورة، ومع أن أبا الفرج لم يذكر عدد الحمامات في مصر ولكن من المعروف أنها كانت أربعة آلاف، لذلك تصح حمامات مصر والعدد أربعة آلاف مرتبط بعضها البعض، مثلما فهم أغلب المؤرخين الأوروبيين، فإذا رأينا تناسب العدد أربعة آلاف إلى عدد الحمامات، ندرک أن الحمام الواحد لا يحتاج إلى كتاب كامل بل الحاجة لا تتجاوز نصف كتاب، فإما أن هذه الحمامات كانت صغيرة إلى درجة أن كتابًا أو نصف كتاب كان كافيًا، أو أن الكتب كانت ضخمة لدرجة أن نصف الكتاب كان كافيًا ليكون وقودًا لحمام ليوم كامل.

ومعلوم أن الكتب في تلك الفترة كانت تكتب على صفحات من الجلد، ولا يمكن استخدامها كوقود ولذلك فإن استخدام الكتب لهذا الغرض غير لائق، يكتب السيد دريبر: نحن على يقين بأن أصحاب حمامات الإسكندرية لم يكونوا ليحرقوا صفحة الجلد (والتي كتبت عليها الكتب) إن كان لديهم أي شيء آخر للإحراق، والجزء الأكبر من هذه الكتب كان من صفحات الجلد".

إن الذين اختلقوا هذه القصة كان هدفهم إساءة سمعة المسلمين ولكنهم لم يفكروا أنه بسبب ذلك يصبح المسيحيون متهمون أكثر من المسلمين، فإذا لم يكن ذنب عمرو بن العاص سوى أنه أرسل الكتب إلى الحمامات، إلا أن أصحاب الحمامات كانوا مسيحيين وكان من الممكن أي يحافظوا على الكتب أو يستخدموا بدلها وقودًا آخر، ولم يرق عمرو بن العاص في الإسكندرية بعد الفتح لمدة ستة أشهر حتى يكون هناك خوف من الاستجواب.

ولو أن هذه المقاييس السريعة والمفهومة عامة كافية لإبطال الحادثة المختلقة، ولكن إذا أمعنا النظر فالأمور تصبح واضحة أكثر إذا رأينا إلى الحادثة بنظرة الدراية، فعلينا أن نأخذ بعين الاعتبار الأمور التالية: كيف وبأي شروط تم الاستيلاء على الإسكندرية والبلدان التي تم فتحها بنفس الشروط؟ كيف كان التعامل هناك؟ كيف كانت طريقة عمر رضي الله عنه بصورة عامة في مثل هذه المواضيع؟ ماذا كانت طبائع وكيف كانت

فطرة عمرو بن العاص رضي الله عنه؟ هل نجد آثارًا لكنوز الإسكندرية في الإسلام؟ إن الرد على كل سؤال يمكن أن يفصل في هذا النقاش.

إن أمر دخول الإسكندرية بعد الفتح في العهد الذمي ثابت بالتواريخ الصحيحة، أي أن كل سكّان الإسكندرية تقرر عنهم بأنهم ذميون. يكتب البلاذري في فتوح البلدان وهو مؤلف قديم ومؤلفه يذكر الحوادث بسنده وراياته:

ثم إن عمرًا افتتحها بالسيف وغنم ما فيها، وأبقى أهلها ولم يقتل ولم يسب وجعلهم ذمة". وهي نفس كلمات ابن الأثير، وابن خلدون وغيرهم.

من الحقوق التي منحت للذميين كان في مقدمتها أنه لا يتعرض أحد لحياتهم، ومالهم، ونقدهم، وأمتعتهم، ومواشيتهم، وبيوتهم، وقد نقلت في جميع التواريخ العهود المكتوبة لفتوحات فارس والروم، وكلها تراعي هذا الحق. وكلمات وثيقة مصر هي: "هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم، ودمهم، وأموالهم، وصاعهم، ومدّهم، وعدوهم".

ونقل في معجم البلدان برواية صحيحة أن الكلمات التالية كانت ضمن الوثيقة:

"وأن لهم أرضهم وأموالهم لا يتعرضون في شيء منها".

وليس هذا موضع ذكر تفاصيل سلوك عمر رضي الله عنه مع أهل الذمة، ولكن يجب علينا أن نقول أنه اعتبر نفوس وأموال أهل الذمة مساوية لنفوس وأموال المسلمين، قتل مسلم ذميًا في مدينة الحيرة فأمر بقصاص المسلم ونفذ الحكم علانية، حدّد منحة يومية للفقراء من الذميين من بيت المال، وحافظ على المعابد والكنائس في فتوحات فارس والشام، وما أكبر من الوصية التي أوصاها حين وفاته ضمن الوصايا الثلاث: "أوصي الخليفة من بعدي بذمة رسول الله ﷺ أن يوفي لهم بعهدهم وأن يقاتل من ورائهم ولا يكلفوا فوق طاقتهم".

إن المؤلفين الأوروبيين المتعصبين ومع كونهم يشكون من شدة وقسوة عمر رضي الله عنه إلا أنهم لا يمكنهم أن ينكروا أن كل ما خرج من لسانه وقلمه في أي وقت نفذ

حسب أمره، ولم يستطع أكبر المتعصبين من المؤرخين المسيحيين أن يذكروا ولو
حادثة واحدة تثبت التعارض بين عمله وقوله.

وبعد أن تحدّد أن أهل الإسكندرية اعتبروا ذميين وما كان سلوك عمر مع الذميين
معروف بالتفصيل، فكيف يمكن أن يخرب تذكار كبير لأهل الإسكندرية (المكتبة)
بهذه القسوة؟ هل كانت هذه المكتبة مكروهة لدى المسلمين أكثر من الكنائس
ومعابد النار؟ ومع وجود آلاف الكنائس ومعابد النار في جميع البلدان المفتوحة
وكتابة الكلمات التالية للحفاظ عليها: "لا يهدم لهم بيعة ولا كنيسة داخل المدينة ولا
خارجها"، فكيف يمكن أن يكون هذا السلوك الظالم تجاه المكتبة؟

الحقيقة أن أبا الفرج لم يتعلم حتى كيف يكذب، فإذا كان قد ذكر هذه الحادثة في
وقت الحصار والفتح لكانت دخلت مجال القياس، لأن الهجوم والتنافس لا يباليان
بشيء، ولكن بعد الاعتراف بأن الأمن أعطي للمدينة وأهل المدينة أصبحوا ذميين
وهدأت ثورة الهجوم والمعركة، ثم يأتي عمل ظالم كهذا، فلا يكون إلا في مقاييس أبي
الفرج، وعلى هذا الأساس اعتبر السيد سيديو بيان أبي الفرج غير موثوق به فيكتب:
"عندما تم الاعتراف بأن المدينة لم تخرب في الوهلة الأولى بعد الحرب، فمن الصعب
التيقن بأن شيئاً وحشياً كهذا قد أمر به بعد أن هدأت ثورة الفاتحين" وقد اعترف
أبو الفرج بنفسه بحكمة وذوق عمرو بن العاص، فيكتب في ذكره ليحيى النحوي:
دخل على عمرو وقد عرف موضعه من العلوم فأكرمه عمرو وسمع من ألفاظه
الفلسفية التي لم تكن للعرب بها أنسة، وكان عمرو عاقلاً حسن الاستماع صحيح
الفكر فلازمه وكان لا يفارقه".

وفكروا الآن كيف يمكن لشخص حكيم ومحب للعلم والذي بالرغم من حميته
الدينية يتخذ من عالم مسيحي رفيقاً وصديقاً يستمتع معه في المناقشات العلمية
والفلسفية، كيف يمكنه أن يخرب مكتبة الإسكندرية بكل هذه القسوة ولهذه الفترة
الطويلة، وهو عمل لا يقوم به حتى أجهل الجهلاء، نعترف بأنه لم يكن مخيراً ولكن
كان بإمكانه أن يتوسط للمكتبة في الرسالة التي كتبها لعمر رضي الله عنه، وقد
استأذن عمرو رضي الله عنه سيدنا عمر بالإلحاح في كثير من الأمور، فمثلاً كان عمر

لا يرضى بمهاجمة مصر والإسكندرية لكن عمر أجبره وتحمل المسؤولية بأن فتحها ليس بصعب، وعندها سمح له عمر ، حتى أن العلامة البلاذري وهو مؤرخ مستند ومشهور يروي أن عمرو بن العاص لم ينتظر السماح من عمر، وبدأ رحلته إلى مصر، والأمر المعروف أن شرط فتح مصر والإسكندرية والشروط التي دوّنت في المعاهدة كانت كلها من رأي عمرو، ثم أبلغوا بها عمر ووافق على ذلك. فلماذا لم يستطع عمرو بن العاص أن يفعل الشيء نفسه في شأن المكتبة؟

والأعجب أن الرسالة التي أرسلها عمرو بن العاص بعد فتح الإسكندرية إلى بلاط الخلافة فصلّ فيها كل شيء، لذلك فبعد ذكر الفتح يكتب: "يوجد في هذه المدينة أربعة آلاف حمام، وأربعة آلاف قصر، وأربعون ألفاً من اليهود الذين يدفعون الخراج، وأربعمئة من المنزهات الملكية واثنان عشر ألف حديقة والتي تباع خضارها" ولكن لا نجد في كل هذه التفاصيل مكتبة صديقنا أبي الفرج.

بعد الإمعان في كل الحوادث التاريخية تظهر أمامنا الحقيقة بأن جميع المكتبات القديمة في الإسكندرية كانت قد خربت قبل العهد الإسلامي، والتي كتب تفاصيلها المؤرخون ولكن بالرغم من كل هذه الأوقات لم تكن الآثار العلمية معدومة تمامًا، وفي المدينة التي كانت دارًا للعلوم لآلاف السنين من المستحيل أن تصبح فيها التذكارات العلمية معدومة في لحظة واحدة، لذلك نرى أنه قبل العصر الإسلامي بقليل كان فيه سبعة من الأطباء والفلاسفة المشهورين وأسمائهم هي: أسطفن وجاسيوس وثادودسيوس وأكيلاؤس وأنفيلائوس وفلاديوس ويحيى النحوي، وكان يحيى النحوي أكبرهم سنًا وبقي على قيد الحياة إلى زمن عمرو بن العاص، كانت مكتبات الإسكندرية دمّرت قبل فترة طويلة ولكن الثروة العلمية المتوفرة في العصر اللاحق كنت موجودة وقت الفتح الإسلامي وبقيت بعد ذلك أيضًا. لذلك عندما بدأ البحث عن التذكارات العلمية في العهد العباسي وجدت في الإسكندرية ذخيرة يعتد بها. وذهب عمال هارون الرشيد ومأمون الرشيد والمتوكل الذين كانوا يجوبون الشام، وفلسطين، وآسيا الصغرى، وقبرص بحثًا عن المؤلفات الفلسفية والطبية إلى الإسكندرية أيضًا لنفس الهدف وحصلوا على كثير من الكتب، كتب حنين بن إسحاق: "في بحثي عن كتاب

البرهان لجالينوس جبت الجزيرة والشام وفلسطين وجميع مدن مصر إلى أن وصلت إلى الإسكندرية ولكني لم أحصل على الكتاب المذكور، حصلت فقط في دمشق على بعض أجزائه ولكنها كانت غير مرتبة". ومع أن حنين لم يستطع الحصول على هذا الكتاب لأن المكتبات القديمة كانت قد خربت قبل الإسلام إلا أن مؤلفات العصور اللاحقة والتي كانت محفوظة إلى بداية العصر الإسلامي وجدت كاملة. والحكماء الذين ذكرت أسماءهم وجدت جميع مؤلفاتهم محفوظة، وترجمت إلى اللغة العربية، وقد اعتني بكتب يحيى النحوي أكثر، لذلك فإن كتبه التي ترجمت إلى العربية بعض منها ما يلي:

تفسير كتاب قاطيغورياس لأرسطو، وتفسير كتاب أناطوليقا الأولى لأرسطو، وتفسير كتاب أناطوليقا الثاني لأرسطو، وتفسير كتاب طوبيقا لأرسطو، وتفسير كتاب السماع الطبيعي لأرسطو، وتفسير كتاب الكون والفساد لأرسطو، وتفسير كتاب مابال لأرسطو، وتفسير كتاب الفرق لجالينوس، وتفسير كتاب الصناعة لجالينوس، وتفسير كتاب النبض الصغير لجالينوس، وتفسير كتاب أغلوفن لجالينوس، وتفسير كتاب الأسطقسات لجالينوس، وتفسير كتاب القوى الطبيعية لجالينوس، وتفسير كتاب التشريح الصغير لجالينوس، وتفسير كتاب العلل والأعراض لجالينوس، وتفسير كتاب تعرف علل الأعضاء الباطنية لجالينوس، وتفسير كتاب النبض الكبير لجالينوس، وتفسير كتاب الحميات لجالينوس، وتفسير كتاب البحران لجالينوس، وتفسير كتاب أيام البحران لجالينوس، وتفسير كتاب منافع الأعضاء لجالينوس، وتفسير كتاب تديير الأسحار لجالينوس، وتفسير كتاب المزاج لجالينوس، وجوامع كتاب الترياق لجالينوس، وجوامع كتاب الفصد لجالينوس، وكتاب الرد على برقلس، وكتاب في أن كل جسم متناه فقوته متناهية، وكتاب الرد على أرسطو، وكتاب الرد على تطورس، وشرح إيساغوجي لفرفوريوس، إضافة إلى ذلك هناك كتب أخرى نجد تفاصيلها في طبقات الأطباء، وكتاب الفهرست لابن النديم. وإذا كانت مكتبة الإسكندرية دمّرت في عصر عمرو ابن العاص لكانت كتب يحيى النحوي أول شيء يدمّر والذي كان معاصراً لعمرو بن العاص وحسب قول أبي الفرج مسؤولاً عن المكتبة المذكورة.

المهم أن الثروة التي كانت موجودة في مصر والإسكندرية في العصر الإسلامي لم تكن لتضيع، أما ما تلف قبل الإسلام فلم يكن بالإمكان إرجاعه مرة أخرى، ونعلم من

التواريخ أنه إن وجد شيء من الزمن القديم وبقي إلى العصر الإسلامي فإنه لم يدمر بل احتفظ به فيما بعد بكل عناية كتذكار قيّم، يكتب ابن البندي وهو من سكّان مصر وماهر في علم الأسطرلاب: "زار الوزير أبو القاسم علي بن أحمد الجرجاني مكتبة القاهرة في عام 435 للهجرة وأمر القاضي أبو عبد الله القضاعي وابن خلق الوراق أن يعدّ فهرسًا للكتب ويصلحا أغلفة الكتب التي فسدت، وقد ذهبت إلى هناك مع الأكابر حتى أطلع على الكتب التي تناسب ذوقه فكانت الأجزاء التي تتعلق بالنجوم والهندسة والفلسفة فقط تبلغ ستة آلاف وخمسمائة، وفي نفس الموضوع رأيت كرة من النحاس من صناعة يد بطليموس، حاولت أن أقدر قدمها فثبت بالحساب أنها قديمة ألفين ومئتين وخمسين سنة، ووجدت في نفس الموضوع أيضًا كرة من الفضة والتي صنعها أبو الحسن الصوفي لعهد الدولة وكانت تزن ثلاثة آلاف درهم واشترت بثلاثة آلاف دينار.

ومع أننا قد فصلنا النقاش بالبحث بالأصول الاجتهادية فلا نبالي إن كان مؤرخو أوروبا يؤيدوننا أم لا، ولكن لأصحاب التقليد وخاصة أولئك الذين يحسنون الظن بأوروبا، من الضروري أن نقول لهم أن الحادثة المفترضة كانت مسلمًا بها في عصر معين في أوروبا، ولكن كلما تطوّر التحقيق والبحث التاريخي نقصت صحة الحادثة بنفس النسبة، حتى أن أغلب المؤلفين المعاصرين الآن يعتبرونها خاطئة ومشكوك فيها. إلى اليوم وصلنا إلى هذا والأمل أنه سيأتي اليوم الذي تقول فيه أوروبا متفقة بعد الإمعان والتحقيق:

سُئِلْنَا بِالذِي كُنَّا، لِأَمَدٍ، فِي رَمَائِهِمْ

رواج المكتبات الإسلامية

- العلامة شبلي النعماني

ترجمة من الأردوية: د. هيفاء شاكري¹

هذا تاريخ موجز للغاية للمكتبات الإسلامية، ولو أنّ أحدًا لا ينكر أن المسلمين كان شعارهم القومي ترتيب وصيانة الكتب والذخائر العلمية، وعلى هذا فلا نجد في تاريخ العالم نظيرًا لكثرة المكتبات ودور العلم المتواجدة في الحكم الإسلامي ولكن، بالرغم من ذلك، نتعجب من أنه لم يؤلّف كتاب ولا مقالة في تاريخ هذه المكتبات وأخبارها، فعندما يكتب المسلمون أخبار وأوضاع مدينة في كتبهم الجغرافية يشرحون مبانيها من كل نوع ولكنهم لا يذكرون حتى اسمها. وهذه هي الفكرة التي شجعتني على أن أكتب هذه المقالة ولو أنني أعترف بأن المقالة يجب أن تكون مسهبة طبقًا لعنوانها ولكن الوقائع التي غفل عنها الأقدمون لا نكاد نجتمع عنها سوى قليل من المعلومات فليقتنع قراؤنا على هذا القدر من المعلومات.

ولو أن هذه المقالة تختص بعنوانها ولكنها كذلك تقدر على أن تفصل عن أمرين خطيرين لم يزالا موضوعي بحث في الدول المثقفة منذ زمن طويل، وقد ارتكب فيهما كبار الكتاب والمحققين أخطاءً ملؤها العصبية، وذاتك الأمران كما يلي:

1. كيف عامل المسلمون معالم الناس غيرهم؟
2. مدى ثقنتنا بأخبار الأمم الأجنبية التاريخية التي ضبطها المسلمون

¹ أستاذة مساعدة، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة المليية الإسلامية، نيودلهي.

متى بدأت الكتابة في جزيرة العرب؟ ولو أن عصر جمع الكتب في الإسلام وترتيبها في المكتبات يبتدئ بعصر بني أمية ولكن البحث عن كيفية جمع التراث العلمي المتواجد في عصر بني أمية يتطلب منا أن نرجع إلى ما سبقه من العصور، فلو أن الشعر والأنساب كانا موضوع كل جلسة وندوة منذ قديم الزمان في العرب ولكن الكتابة لم تكن رائجة البتة، فأول من أسس هذا الفن كانوا ثلاثة أفراد من قبيلة طي وهم مرامر وأسلم وعامر، اجتمعوا في مكان على وضع الأشكال والصور للحروف وقزروا حروف الهجاء على طراز أحرف السريانية فتعلّم عليهم أهل حيرة، فأحد تلامذة أهل الحيرة الذي كان يسمى بشر بن الوليد والذي كان رئيس دومة الجندل، سافر إلى مكة المعظمة لحاجة، فلقى بها أبا سفيان والد الأمير معاوية فطلب منه أبو سفيان أن يعلمه الكتابة فتلّمذ له أبو سفيان وأبو قيس بن عبد مناف، وبما أنهما كانا يترددان إلى الطائف للتجارة، فراجت الكتابة في الطائف كما علّم بشر العديد من أهالي مصر والشام ومن ثم عمّت الكتابة معظم قبائل العرب، حتى عندما جاء الإسلام تواجد في قريش 17 فردًا يعرفون الكتابة ومنهم عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وعثمان بن عفان وأبو عبيدة بن الجراح، وكذا راج هذا الفن في النساء فكانت شفاء بنت عبد الله وحفصة بنت عمر تعرفان القراءة والكتابة، وكذا عمّت الكتابة المدينة المنورة قبل مجيء الإسلام فيها والتي أوجدها اليهود¹.

ومن أكبر فوائد هذا الفن أنهم جعلوا ينسخون القصائد والأشعار التي كانت صورة حقيقية لتمدن العرب وثقافتهم والتي كانت تروى إلى الآن أبا عن جد، وهذا الفن لعب دورًا رياديًا في صيانتها وعلى هذا فقد كتبت سبع قصائد مشهورة بالمعلقات بماء الذهب على القباطي فعلقت على جدران الكعبة.

وما توقّر لنا من التراث المكتوب منذ ظهور الإسلام حتى وفاة الرسول ﷺ كان يشمل بعض سور القرآن، رسائل الرسول ﷺ واتفاقية صلح الحديبية وما عداها وقصائد الشعراء، فلو أن الكتابة اتسع نطاقها بعد الرسول ﷺ ولكن ما بلغنا من التراث المكتوب

¹ توجد هذه التفاصيل كلها في نهاية فتوح البلدان للبلاذري

حتى عصر الأمير معاوية كان يتعلق باللغة أو الدين فلما تولّى معاوية عرش الخلافة في دمشق حضره طبيب نصراني يسمّى ابن أثال فأكرمه الخليفة فترجم له ابن أثال العديد من كتب الطب إلى العربية، وهذه إضافة علمية أولى وجدت في اللغة العربية.

ولو أن تراث العرب المكتوب ما زال يتطور يومًا بعد يوم ولكن يصعب علينا الحكم على من سبقهم في جمع هذه الكتب في دار منتظمة ومن هو أولهم، ولو أن مؤرخينا لا يهتمون بأن يفرّدوا هذه الأمور عنوانًا خاصًا إلا أنهم يذكرونها ضمن حديث يدلّنا عليها فقد كتب العلامة ابن أبي أصيبعة في طبقات الأطباء عن الحكيم ماسرجويه أن الخليفة عمر بن عبد العزيز قد عثر على ترجمة عربية لماسرجويه في خزانة الكتب فأخرجها منها ونشر نسخها العديدة فيبدو من هذه البيانات والقرائن الأخرى أن تقليد المكتبات قد قام قبل هذا فلعل أول من سنّ هذه الطريقة كان خالد بن يزيد بن معاوية.

خالد: يتعجب ابن خلدون منكرًا وجود هذا الذوق العلمي في بداية العصور الإسلامية فلا يزن أخبار خالد بن يزيد شيئًا ويعتبرها أسطورة ولكن العلامة ابن النديم كتب عنه أن خالد بن يزيد كان يدعى حكيماً، كان فاضلاً يحبّ العلوم حبًا ملؤه علوّ الهمة فلما خطر بباله الصنعة فجمع فلاسفة اليونان الذين كانوا يسكنون في مصر وكانوا يتكلمون العربية الفصحى، فأمره بترجمة ما يوجد باليونانية والقبطية من كتب الصنعة إلى اللغة العربية".

يكتب هذا المؤرخ بمناسبة أخرى: "ترجمت لخالد كتب الطب والنجوم والكيمياء إلى العربية"، وكان خالد كاتبًا بنفسه وما تمت صيانتها من مؤلفاته حتى عصر ابن النديم والتي رآها بعينيه هي: كتاب الحرارة وكتاب الصحيفة الكبير وكتاب الصحيفة الصغير.

وبعد إثبات هذين الأمرين (قيام المكتبة الملكية قبل زمن عمر بن عبد العزيز في الدولة الأموية وسبق خالد أفراد قبيلته في البحث عن الكتب والرسائل القديمة) يصبح الظن يقينًا أن أول من بنى المكتبة كان خالدًا. ولقد تطوّرت المؤلفات والرسائل كثيرًا بعد خالد فتبعه وجود تراث علمي كبير عن شعر العرب، لغتهم، وأنسابهم، وأيامهم وغزوات المسلمين وسيرهم، والتفسير، والحديث، والفقه، والكلام، وما

عدها، فأمر الخليفة المنصور بترجمة المئات من كتب اللغات الأخرى إلى العربية حتى بنى هارون الرشيد مكتبة علمية ضخمة سمّيت فيما بعد بـ"بيت الحكمة".

بيت الحكمة: كان بيت الحكمة منقسمًا إلى جزئين؛ جزء كان يختص بالمكتبة وأما الجزء الآخر فكان يختص بترجمة الكتب غير العربية فقد كانت هذه المكتبة تحتوي على عدد لا يحصى من كتب ورسائل الهندية والفارسية واليونانية والقبطية والكلمية بجانب كتب العربية فبعث يحيى بن خالد البرمكي الذي كان وزير هارون الرشيد ومحرك الخلافة العباسية بالسفراء إلى الهند ودعا كبار براهمها وحكامها إلى البلاط، وهؤلاء هم الحكماء الهنود الذين قد وصل بفضلهم تراث الهند الكبير إلى بغداد وكذا تم توفير المؤلفات الفارسية بكثرة كاثرة لأن البرامكة كانوا من أصل فارسي وكانوا يحبون لغتهم وتراثهم العلمي حبًا جمًا، وعلى هذا فكان مسؤول المكتبة من أفراد فارس ولقد لعب هارون الرشيد دورًا كبيرًا في تخزين الكتب والرسائل بدون عصبية يدلّ عليها توظيفه إعلان الشعوبي على منصب الترجمة والنسخ في بيت الحكمة، والحال أن هذا الرجل كان ينشغل بهجو العرب ليل نهار ولقد ألف كتابًا على حدة خاصًا بمساوي كل قبيلة عربية.

مأمون الرشيد: ولقد طوّر مأمون الرشيد هذه المكتبة تطويرًا هائلًا وجعل العديد من علماء فارس مسؤوليها ومنهم سهل بن هارون وسعيد بن هارون كانا شعوبيين¹، كانا ينظران إلى العرب بنظر التحقير، وكانا يكشفان عن معانيهم، ولا نزع من هذا أن المأمون لم يكن يعتني بحماية وطنيته بل المشكلة كانت في أن هؤلاء الشعوبيين كانوا هم العارفين بتراث فارس العلمي الكثير فلم يكن مفرّ من توظيفهم واختيار أفاضلهم.

وفوق ذلك كان المأمون يرتبط بفارس بعلاقة خاصة وذلك لأن أمه كانت فارسية كما كان الفضل بن نوبخت وزيره ومقيم حكومته فارسيًا وكان معظم حاشيته من أصل فارسي، وحينما سكن مرو في بداية خلافته غلبه أثر فارس إلى حد أنه كان يدرس كتب الفارسية وكان يقلّد أهلها في الملابس والنظم والأخيلة، حتى قرّر اتباع أردشير في نظم دولته فلا

¹ الشعوبية فرقة عجمية تحقّر العرب وتذمهم ويعتبر الكشف عن مساوئهم فريضة عليها

العدد الخاص مجلة الهند

نتعجب من أنه التفت إلى كتب الفارسية أكثر من كتب اللغات الأخرى ولكنه مع ذلك كان مولعاً بجمع كتب اللغات الأخرى، فما قام به من محاولات مدهشة لجمع وتعريب كتب اليونانية قد فصلناها في مقالتنا "گذشته تعليم" (التعليم الماضي) وكتابنا "المأمون".

ولقد وقر في هذه المكتبة تراثاً ملموساً لعرب الجاهلية من قصائدهم ومنظوماتهم ورسائلهم ووثائقهم واتفاقياتهم حسبما بلغته، ولقد اشتملت هذه المكتبة على وثيقة دُين كتبها عبد المطلب على الجلد وهي كما يلي:

"حق عبد المطلب بن هاشم من أهل مكة على فلان بن فلان الحميري من أهل وزل صنعاء، عليه ألف درهم فضة كَيْلاً بالحديدة ومتى دعاه بها أجابه شهد الله والمكان"¹.

وكان ابن أبي الحرش المجلد الشهير موظفًا على خدمة التجليد في المكتبة، ولنقدّر سعة مكتبة المأمون وكثرة عدد كتبها أنه ولو أن بغداد عانت أنواعًا من التدمير وتم تخريب تراثها العلمي لكن كتبها التي نجت من هذه العملية الظالمة كانت موجودة حتى القرن السابع الهجري، والتي قد وجدها العلامة ابن أبي أصيبعة، و ذكرها العلامة حين ذكر حياة حنين بن إسحاق وقال: إن هذه كانت موقعًا عليها من قبل حنين وقد وضعت عليها طغرة لمأمون.

ومنذ عصر المأمون عمّ بغداد الرغبة في جمع الكتب والرسائل فكان معظم الوزراء والأمراء وحتى عامة العلماء كانوا يملكون مكتبات ضخمة، وكانوا يصرفون الأموال الهائلة في جمع الكتب، أسس الفتح بن خاقان وزير المتوكل بالله مكتبة عظيمة جعل مسؤولها علي بن يحيى المنجم، لم يكن لها مثيل في ذلك العصر، وكذا كان محمد بن عبد الملك الزيات الذي كان وزير الخليفة الواثق بالله ينفق عشرة آلاف روبية على نسخ الكتب وترجمتها شهريًا، وقد قال ابن النديم في كتاب الفهرست: لما توفي العلامة الواقدي ترك ستمائة قمطر كتاب وكان كل قمطر يحمله رجلان، والحال أنه قد باع جزءًا من مكتبته بألفي جنيه قبل موته.

¹ كتاب الفهرست، ص 8

لم تزل هذه الرغبة تنمو وتتطور حتى عمّ تقليد وضع المكتبات كافة الدول الإسلامية، حتى القرن الرابع الهجري فنقوم فيما يلي بشيء من التفصيل لأبرز مكتبات هذا العصر:

الحكم: ولعل أكبر مكتبة في هذا العصر كانت تلك التي أسست في أسبانيا بيدي الحكم المستنصر، فما قدّمه المؤرخ ابن خلدون وصاحب نفع الطيب من أخبار هذه المكتبة تثير العجب، فكان الحكم أشهر خلفاء بني أمية (الذين كانوا يحكمون أسبانيا). كانت حكومته واسعة النطاق، وكان عالماً منطلق الفكر، يشناق إلى جمع الكتب إلى حدّ أنه لم يكفه خراج الدولة، فكان المئات من عملائه وتجاره يعملون له في أسبانيا والشام ومصر وبغداد وفارس وخراسان لكي يوقروا له الكتب النادرة والقيّمة، فلما أتمّ أبو الفرج الأصفهاني كتابه "الأغاني" بعث إليه يطلبه هذا الكتاب قبل انتشاره في العالم، فتم شراء هذا الكتاب بأربعة آلاف روية واحتفظ به في مكتبة الحكم قبل غيرها من المكتبات وكذا وُقِرَ له كتابُ القاضي أبي بكر الأبهري. يروى أن هذه المكتبة كانت تحتوي على أربعمئة ألف كتاب ولقد صرّح المؤرخ ابن خلدون وابن الأبار: إن فهرس مجموعات القصائد والأشعار الذي تم وضعه كان في 880 صفحة.

وبجانب جمع الكتب التادرة كان الحكم مغرماً بتصحيحها وتزيينها فوظّف لهذا الغرض أبرز نسّاخ ومجلّدي العصر على رواتب جيدة، ولو أن هذه المكتبة كانت باهرة في ذاتها ولكن سعة أفق مؤسسها أهر من ذلك فقد ذكر المؤرخون أنه قرأ معظم كتبها وعلّق عليها بما يفيد القراء و كان يذكر في بدايته اسم كل كاتب ونسبه وولادته ووفاته، وكان يكتب فيه نكتاً وفوائد عجيبة لا توجد عند غيره. توفّي الحكم في 336هـ.

والجزء الثاني للعالم الإسلامي الذي كان يحكمه العباسيون قد عمته الفوضى لضعف سيطرة بني العباس فثار في كل منطقة حاكم مستقل بالحكم، ففي بخارا كانت تحكم الأسرة السامانية وفي جرجان كان يحكم قابوس بن شمكير، كما كان يحكم الشام بنو حمدان وكانت شيراز تحت سيطرة آل بويه، وأما مصر فكان يحكمها الفاطميون، ولكن من أعجب الصدف أن هؤلاء الحكام كلهم كانوا أصحاب علم وفن وكانوا يكرمون العلماء والحكماء، فكل منهم أسس مكتبة كبيرة جمعوا فيها كتباً لا تحصى ولا تعدّ.

نوح: كان نوح بن المنصور حاكمًا كبيرًا في بخارا، وأقام مكتبة لا مثيل لها من وجوه عديدة، فقد قال العلامة ابن خلكان: "كانت هذه المكتبة الفاقدة التي لا مثيل لها تحتوي على كتب ورسائل من كل نوع بما فيها ما لا توجد في مكتبة غير هذه". ولقد ذكر ابن سينا أنه لم يجد الكتب التي رآها في هذه المكتبة في أي مكان آخر، ويعتقد أن الآخرين أيضًا لم يروها. ولقد وصف ابن سينا هذه المكتبة بأنها دار واسعة ذات حجرات عديدة وفي كل حجرة صناديق متعددة احتفظت فيها الكتب مرتبة، ولكل فن حجرة خاصة¹.

عضد الدولة: كانت دولة عضد الدولة واسعة النطاق وكان يسيطر على الدول التي لم يسيطر على مثلها حاكم إسلامي غيره، فكان يحكم من فارس حتى الموصل والجزيرة وكانت الخطبة تلقى باسمه في بغداد ذاتها. وبجانب قوته كان شاعرًا كبيرًا وكان بارعًا في العلوم والفنون، أقام مكتبة فخمة في شيراز التزم فيها بجمع الكتب مما ألفت منذ فجر الإسلام إلى عصره، ومن المؤسف للغاية أنه لم يصفها غير العلامة البشاري الذي قام بهذا الوصف لأن المكتبة جزء من ذلك المبنى الفخم الذي لم ير مثيله في العالم الإسلامي كله، وكان يعتبره نموذجًا من الجنة، فقد كتب العلامة البشاري حينما ذكر قصر الملك بأن هذا القصر يحتوي على مكتبة فخمة، وصفتها بأنها دار واسعة ذات حجرات عديدة وفي كل حجرة رفوف متعددة ملتصقة بالجدران. وهذه الرفوف عرضها ثلاثة أذرع وطولها بقدر طول الإنسان، وخشبيها منقوش ومذهّب ولكل فن حجرة خاصة كما له فهرس خاص، وقد وظّف وكيل وأمين المال ومحاسب لرعاية المكتبة ولا يسمح بدخولها إلا للأشراف".

سيف الدولة: كان سيف الدولة ربّ السيف والقلم معًا، وكان يحبّ العلم حتى قال الإمام الثعلبي إن بلاطه حضره من الشعراء والفنّانين ما لم يجمعوا في العصور الإسلامية سوى العصر العباسي، فكان الحكيم أبو النصر الفارابي من حاشيته. وكان سيف الدولة يميل إلى الأدب مبدئًا شديدًا فجمع في مكتبته كتب هذا النوع خاصة، فما وجد من التراث الأدبي في مكتبته لم يوجد في مكان آخر.

¹ ابن خلكان (ترجمة الشيخ بو علي سيناء)

كان محمد بن هاشم وأخوه مشهورين في الشعر وكانا مسؤولين عن هذه المكتبة. ولو أن هذه المكتبات كانت كمثل دار العلوم الكبرى إلا أن مكتبة الفاطميين في مصر كانت ترأسها، وكانت تنافس مكتبة أسبانيا الشهيرة، والتي ذكر المقيزي تفاصيلها في كتاب الخطط والآثار.

كانت هذه المكتبة جزءاً من قصر الخلافة وكانت تشتمل على أربعين مكتبة على حدة، بينما كانت كل مكتبة منها تحتوي على 18 ألف كتاب للعلوم القديمة، وقد ادعى بعض المؤرخين أنه لم تكن هناك مكتبة تضاهيها في العالم الإسلامي وأما مجموع كتب هذه المكتبة فقد اختلفت أقوال المؤرخين فيه؛ عدّها ابن الطوير مائتي ألف كتاب، كما أحصاها ابن أبي الواصل مائة وثلاثين ألف كتاب، وعدّ ابن أبي الطي ستمائة ألف وألف كتاب، ولعل الاختلاف وقع لعدّد كافة نسخ الكتاب كتاباً مستقلاً وذلك لأن هذه المكتبة كانت تحتوي على نسخ مختلفة لكتاب واحد، كما كانت كل نسخة منها لها ميزة خاصة، فذات مرة ذكر كتاب العين عند الخليفة العزيز بالله، فأمر مسؤول المكتبة بتقديم نسخ هذا الكتاب، فوجدت ثلاثون نسخة بما فيها ما كانت نسخت بيد كاتبه (الخليل بن أحمد البصري).

وكانت أغلب الكتب منقوشة أو مذهبة أو مزينة وقد اعتني بتذكارات الماضي بأن جمعت قشور مبرية من أقلام الناسخين المشهورين مثل ابن مقلة وابن البواب، جمعت في الصناديق ووضعت فيها بكل حذر، والكرة التي صنعها بطليموس والتي قد مضى عليها 2250 سنة احتفظت في هذه المكتبة¹، كما كانت فيها كرة صنعها أبو الحسن الصوفي لعضد الدولة وقد تم شراؤها بخمسة آلاف روبية.

ولم تكن الرغبة في إقامة المكتبات وتأسيسها مقصورة على الخلفاء والوزراء بل كان معظم علماء هذا العصر ومسؤولوه يعتبرون المكتبات فخراً لهم، فقد صرف أبو

¹ توجد في القصر الملكي لأسبانيا كتب باقية من العصر الإسلامي، وقد مضت مائة سنة إذ وضع البروفيسور كاسيري فهرساً لها باللاتينية. هذا الفهرس في مجلدين وقد ذكرت فيه جمل الكتاب الأصلية بجانب أسمائها، وقد ذكرنا كرة بطليموس بكتاب مذكور في هذا الفهرس.

النصر سهل بن مرزبان الذي كان أميرًا شهيرًا من نيشابور كافة أمواله في جمع الكتب وأكثر من الترحال إلى بغداد للبحث عن الكتب وجمع ما ندر منها¹.

لما طلب نوح بن المنصور صاحب بن عباد إلى بخارا ليمنحه الوزارة، اعتذر إليه قائلاً: يصعب لي أن أسافر بامتعتي وحاجياتي فلمجرد حمل الكتب أحتاج إلى أربعمئة بعير².

والمكتبة التي أقامها محمد بن الحسين البغدادي في هذا العصر تعتبر بديعة لأجل كتبها النادرة والقليل وجودها، ولقد اعترف العلامة ابن النديم البغدادي بالرغم من سعة أفاقه: "لم أر مكتبة تضاهيها في أي مكان"، لا نعث على أخبار لهذه المكتبة، إضافة إلى عدم عناية المؤرخين بها يرجع السبب في ذلك إلى أن بانها محمد بن الحسن ذاته أحب أن يخفي أخبارها فلم يذكرها لأحد لندرة كتبها وقلة وجودها. كتب العلامة ابن النديم: وصلت إلى محمد بن الحسين بصعوبة بالغة ولما اطمأن، أخرج ذات يوم كيسًا كبيرًا يحتوي على قصائد الأقدمين من العرب ووثائقهم وكتابتهم، وكانت هذه الوثائق على الجلد والأوراق الخراسانية والمصرية والصينية والتهامية فقلبتا وقد ساء حالها لقدمها، كما محيت الحروف من مواضع مختلفة، فالمجموعات والوثائق التي كان يحتويها هذا الكيس الكبير قد وقّع عليها العلماء وكان يشملها مصحفٌ نسخه خالد بن أبي الهياج الذي كان يرافق عليًا كرم الله وجهه، كما كانت فيها كتابات للحسن والحسين وكذا وجدت فيها رسائل النبي ﷺ كما هي، والتي أرسلها النبي ﷺ إلى السلاطين ورؤساء القبائل، وكتب الأصبغي وابن الأعرابي وسيبويه والفراء والكسائي في النحو واللغة، وكذلك وجدت فيها كتب سفيان بن عيينة والثوري والأوزاعي في الحديث النبوي الشريف³.

يقول العلامة ابن النديم أنه عرف، بفضل هذه المكتبة، أن مؤسس النحو هو أبو الأسود الدؤلي، فقد رأى رسالة في أربع أوراق الصينية والتي ابتدأت بما يلي: "فيها كلام في الفاعل والمفعول من أبي الأسود الدؤلي بخط يحيى بن يعمر"، وقد وقّع عليها بعض علماء النحو القدامى.

¹ يتيمة الدهر (ذكر سهل بن مرزبان)

² المصدر نفسه (الصاحب بن عباد)

³ كتاب الفهرست، ص 41

والمكتبة التي أقامها أبو جعفر أحمد بن عباس كانت تحتوي على أربعمئة ألف كتاب مجلّد¹. وما كان يحمله المسلمون من الرغبة في البحث عن الكتب القديمة والعناية بها لجدير بالاعتراف، فقد اعتاد الناس منذ القدم وخاصة لما تطوّرت العلوم والفنون في فارس قبل الإسلام، أن يصونوا الكتب بحيث تبقى لمدة طويلة فأمر بكتابتها على التوز وكان أقوى القشور، وعندما تجمّعت لديهم ثروة هائلة منها أقاموا مكتبة ضخمة في كهندز في أصفهان وجمعوها فيها، فكان أنسب موضع في فارس بسبب اعتدال الجو، ولو أن تلك المكتبة قد ذهب بها الدهر حتى وصول الإسلام إليها، لبث الراغبون فيها وخاصة مسؤولي أصفهان يبحثون عنها لشهرتها فيهم، فعثروا على شيء منها في أوقات مختلفة، فقد قال أبو معشر الفلكي: "قبل أيامنا بكثير قد انهدم جزء من هذا المبنى فانشكف منها كتب قديمة للغاية وكانت بالفارسية القديمة فقرأها من كان يعرفها" وقال ابن النديم: "وقد وجدت مؤلفات كثيرة أخرى في جانب آخر من المبنى في 350هـ، ولكن لم يستطع أحد قراءتها". ثم قال ابن النديم: "ما رأته عيناى هو أن ابن العميد أرسل الكثير من الكتب إلى بغداد في 340هـ تم اكتشافها من ثغور أصفهان موضوعة في صناديق. كانت هذه الكتب باليونانية وبما أنها كتبت على الجلد فقد تعفنت فتم تشميسها، لمدة ثم عادت إلى ما يرام فقرأها يوحنا وغيره ممن كان يعرف اليونانية وأخبرنا بما كانت تشتمل عليه"².

ولقد فاقت أسبانيا في إقامة المكتبات على فارس والعراق والشام فقد راج في قرطبة أن كل أمير كان يقيم مكتبة خاصة له، وكان يبذل قصارى جهده لكي تجمع في مكتبته كتب نادرة لا توجد في غير مكتبته، وكانت هذه الطريقة تعتبر جزءاً لا ينفك من الإمارة وكانوا يتنافسون ويتفاخرون بها، وقد انتشرت هذه الطريقة إلى حد أن الأمراء غير المثقفين أجبروا على اتباعها لكي ينالوا المكانة والسمعة، فقد نقل اليعقوبي قصة في تاريخ أسبانيا:

¹ نفع الطيب (طبعة مصر)، 308/2

² كتاب الفهرست، ص 241

"كان في ذلك الزمان عالم يسمى "الحضرمي" الذي كان يبحث عن كتاب منذ مدة مديدة، واتفق أنه كان يباع بالمزاد العلني ذات يوم فأحبّ الحضرمي أن يشتريه، ولكن كان هناك رجل يزيد في ثمنه حتى بلغ ثمن الكتاب أضعافًا مضاعفة، فسأله الحضرمي هل أنت أعرف بأهمية هذا الكتابين فردّ عليه الرجل: لا، لست بعالم به إلا أنه لا يوجد في مكتبي فوددت أن أشتريه كيفما أمكن ومهما بلغ ثمنه".

وقد بلغ تقدير الكتب في تلك الأزمنة حتى أن أبا علي القالي (ت 379هـ) كان يمتلك نسخة لجمهرة (أشعار) العرب كتبها الكاتب بيده والتي كان ثمنها ثلاثمائة مثقال ذهبًا ولكنه لم يحبّ أن يبعدها عن نفسه.

أول مكتبة عامة: ولو أن الكثير من المكتبات قد أقيمت في كل بقعة من بقاع العالم الإسلامي ولكننا لا نجد أثرًا لمكتبة عامة في القرن الثالث الهجري بل حتى في بداية القرن الرابع الهجري، فالمكتبات التي مضى ذكرها أنفًا كانت مكتبات شخصية فلعل أول من سنّ هذه الطريقة الجميلة كان سابور بن أردشير الذي بنى دارًا للعلم ببغداد في 382هـ وأوقف لها العديد من الكتب لقراءة العامة، ثم في 395هـ أقام الحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمي في مصر مكتبة ضخمة عامة.

دار العلم في مصر: هذه المكتبة التي ذكرها المؤرخون دائمًا بدار العلم قد أقيمت بكل شأن وأبهة، وحضر تدشينها العديد من القراء والمنجمين والأطباء ورأوا كتبها، وكان المبنى قد زين بكل أثاث كما أسدلت الستائر الثمينة على كل مدخل وباب، وقد نودي بالسماح العام بقراءة الكتب ونسخها وكتابتها، ولذا وفّرت أسباب الدراسة والنسخ من قبل المكتبة، كما قرّرت رواتب للعديد من الفقهاء والأطباء والمنطقيين والرياضيين لكي يتواجدوا فيها دائمًا ويطوّروا ثقافتهم، فذات مرة طلب الحاكم بأمر الله الناس في 403هـ للمناظرة وبعد قضاء وقت طويل معهم أنعم على كل منهم بالكسوة والعطايا، وفي 400هـ أوقفت لها بيوت ودكاكين لتحمل نفقاتها.

رواج المكتبات العامة: منذ ذلك العهد عمّ تقليد المكتبات العامة وأقيمت في كل إقليم إسلامي المئات بل الآلاف من المكتبات العامة، ومن أسباب كثرة المكتبات أن المدارس

والجامعات قد أقيمت بالتزامن معها، وأصبح ضروريًا أن تلحق بها مكتبة، فنظام الملك الذي بنى "نظامية بغداد" نادى بأن تقام مدرسة ومكتبة لكل عالم بارز في أي مكان من أماكن الدول الإسلامية¹، فأقيمت الآلاف من المدارس والمكتبات في زمنه وقد راجت هذه الطريقة كل البلاد الإسلامية. وبجانب المدارس جعلت المساجد تستخدم لهذا الغرض وأثر ذلك إلى الآن أن كل مسجد في القسطنطينية تلحق بها مكتبة.

الرد على السؤال الأول: وبعد ذكر تاريخ المكتبات الموجز لنرجع إلى الرد على الأسئلة التي أثارناها في بداية المقال فأهمها: كيف عامل المسلمون معالم الأمم الأجنبية؟ فالبروفيسور زخاؤ العالم ألماني في عصرنا والذي كتب مقدمة قيّمة لكتاب الهند للبيروني يقول فيها: "لم يعتن المسلمون بما مضى فما يقولونه عن المؤرخين القدامى يكون قريباً للأسطورة". هذا البروفيسور له مهارة تامة في العربية، ومعلوماته عن المسلمين ليست قليلة فلا نعتقد أنه ينكر عناية المسلمين بعلوم وكتب اليونان فلعل اعتراضه هذا موجّه إلى الهند وفارس وبابل.

تاريخ فارس العلمي: وللدرد على هذا السؤال يجب علينا أن نذكر تاريخ فارس العلمي، بإيجاز فما يبدو من الرسائل العلمية المعاصرة أن فارس قد تطوّرت فيها العلوم والفنون وبرز فيها أسباب المدنية منذ عصر جمشيد، في هذا العصر ألفت كتب الهيئة والهندسة والجغرافيا، ولو أن الضحّاك دمر سلطنة جمشيد ولكنه لم يمسّ التراث العلمي بضرر بل أسّس مدينة جديدة باسم "مشثري" جعل فيها اثني عشر قصرًا حسب عدد الأبراج وجمع فيها الكتب العلمية، ولو أنها عانت ثورات وتغييرات خطيرة منذ ذلك إلى عصر الإسكندر والتي بدورها أوجبت دمار هذا التراث العلمي، ولكنه بما أن المدنية والحضارة قد لزم رقيهما فكان يقوم تراث علمي مقام التراث العلمي الفاني، حتى جاء عصر الإسكندر اليوناني ولو أن مآثر هذا الملك العجيبة قد كفّرت مساوئه، ولكنه لا يخفى على المؤرخين أنه دمرّ جل التراث العلمي الفارسي وأشعل النار في كتبها، وكسر اللوحات الحجرية التي نقشت عليها التواريخ والأيام الشهيرة إلا أنه منّ عليها بأن أمر

¹ بدء النصره تاريخ آل سلجوق (طبعة أوربا)، ص 57

بترجمة ما استطاع من كتب الفارسية إلى اليونانية، وأرسلها إلى الإسكندرية، وبعد الإسكندر عمّت الفوضى في فارس لمدة طويلة ولم تكن هناك عناية بالعلوم والفنون حتى بدأ عصر الساسانيين فقام أردشير بابك بإنهاء الفوضى وإقامة سلطنة كبرى، ثم أحيى العلوم والفنون وأمر بجمع التراث العلمي من الهند والروم والصين وتبعه ولده سابور ثم أنوشيروان ممن طوّروا العلوم والفنون أفضل تطوير.

سيبدو من هذه الأخبار أنه لما دخل الإسلام أرض فارس كلما وجده من التراث العلمي كان تراث الملوك الساسانيين وندعي بأن المسلمين حاولوا جهودهم في صيانتها بكل حيطة.

ولسنا المسؤولين لو تدمر تراث بنفسه في بدء الفتح وأثناء فوضى زوال الحكومة ويمكن حدوث هذا فعلاً، ولنلاحظ هنا أنه في العصر (بدء الخلافة العباسية) الذي لم يعبا المسلمون بتدوين علومهم وفنونهم كيف نرجو منهم فيه أن يعتنوا بلغة وعلوم غيرهم، فقد توجه المسلمون بصورة منتظمة إلى الأعمال العلمية في عصر الخليفة المنصور وهذه هي الفترة التي ألفت فيها الكتب عن الحديث والفقه والتفسير، فهل نستدل على أفضال المسلمين العلمية بأكثر من أنهم كانوا يجهدون أنفسهم في جمع وترجمة خدمات الشعوب الأخرى العلمية في حين كانوا يرغبون في صيانة وتدوين علومهم الدينية.

فمن جهة دعا الخليفة المنصور الإمام مالكا وأمره بجمع الأحاديث وتأليف كتاب مستقل به ومن جهة أخرى أمر بترجمة "سليكين" وهو أهم تاريخ وأقدمه وأكثره تفصيلاً لفارس وأهاليها، وهو مهمّ عندهم كما يهتمّ الهندوس بـ"مهاباراتا".

مترجمو الكتب الفارسية: مرّت في المسلمين جماعة اشتغلت بترجمة الكتب الفارسية فحسب، وقد ذكر العلامة ابن النديم أبرزهم وهم الفضل بن نوبخت، وعبد الله بن المقفع، وموسى بن خالد، ويوسف بن خالد، وعلي بن زياد، والحسن بن سهل، وأحمد بن يحيى البلاذري وجبله بن سالم، وإسحاق بن يزيد، ومحمد بن الجهم البرمكي، وهشام بن القاسم، وموسى بن عيسى الكروي، وزادويه الأصفهاني، ومحمد بن بهرام، ومهرا بن مروان شاه، وعمر بن الفرخان.

ولم يبق فن من فنون فارس إلا وقد جمعت كتبه فترجمت إلى العربية.

العدد الخاص مجلة الهند

كتب علم التاريخ الفارسي: فمن هذه الكتب والتي تمت ترجمتها إلى العربية هي رستم وأسفنديار نامه، وبهرام نامه وشهزاد باپرويز وكارنامه نوشيروان، وتاج نامه، ودارا وبز زرین، وخدائ نامه، وبهرام ونرسي ونامه نوشيروان وسبكتگين.

كتب علم الأخلاق: وهي زاد وفرخ، وكتاب موبد موبدان، والحكم والآداب، ومجموعه أردشير نامه، وبداهو دين فرخ زاد.

كتب فن الحرب: وهي چوگان وگويء، وكتاب بهرام گور في فن الرماية، وكتاب مفصل عن حيل فتح الحصون، وقواعد جنگ وهذا الكتاب تم تأليفه في عهد أردشير و كان يحتوي على قوانين التجسس والمراقبة والهجوم.

وكذلك تمت ترجمة الكتب في الطب والبيطرة والفلسفة والمنطق وغيرها من العلوم.

أوامر وتوقيعات ملوك فارس: وبجانب الكتب تم توفير رسائل ملوك فارس وأوامرهم وتوقيعاتهم ثم ترجمت إلى العربية، فقد فصل كتاب الفهرست ذكر رسائل وأوامر أنوشيروان وهرمز بن أنوشيروان وأردشير بن موبد موبدان وبزرجمهر.

الرويات والقصص الفارسية: ولو أن المسلمين لم يكونوا مولعين بالرويات والقصص ولكنهم لم يرغبوا عنها، فالكتب التي ترجمت منها هي هزار داستان ويوسفاس وچند خسروا ومرمين وأفسانه وروزبه وشغال وخرس وسگ زمانه وشاه زمان ونمرود نامه.

ألف ليلة رواية فارسية أصلاً: ألف ليلة التي لم تعجب الناس رواية أكثر منها، والتي ترجمت إلى كافة لغات أوروبا هي ترجمة رواية فارسية تسمى "هزار أفسانه" وقد ألفت لهما بنت بهمن¹، وهذه من أقصى أمانة المسلمين أنهم لم يغيروا اسم الرواية وقاموا بترجمة العنوان القديم أي ألف ليلة، إلا أنهم أضافوا إليها كلمة "ليلة" فسموها بـ"ألف ليلة وليلة" لأنهم أضافوا إليها بعض القصص كما زادوها أسلوباً عربياً.

¹ راجع لألف ليلة: كتاب الفهرست، ص 304 ومروج الذهب للمسعودي (ذكر هياكل قديمة)

كتب مؤسسي الديانات الفارسية: وجدت كافة كتب مؤسسي الديانات الفارسية جنبًا إلى جنب الكتب الدينية الإسلامية مع أن معظمها كانت تخالف عقائد الإسلام، ولكنها ترجمت لكي يتم تحقيقها فماني الذي ادّعى النبوة في زمن سابور بن أردشير ترجمت كتبه السبعة إلى العربية بجانب 76 رسالة له ولأتباعه ترجمت إلى العربية أيضًا.

كتب السنسكريتية: لم يتخلفوا في عنايتهم بعلوم الهند وفنونها فقد بدأ علماء الهند يجتمعون في بلاط بغداد منذ عصر الخليفة المنصور حتى جعلت أسرة البرامكة طبييًا هندوسيًا مسؤولًا لبيمارستانها، فبفضل هؤلاء العلماء وثم بفضل العلماء المسلمين الذين سافروا إلى الهند لجمع إنتاجاتها العلمية جمعت معظم كتب السنسكريتية الرائعة في مكتبات بغداد كما ترجمت كتب علمائها من باكهر ورايه وسكبه وداهر وأمكر ورنكل وجيهر وأمدي وجاري ومانك وسالي ونوكسل وروسا وراي وكپل وبراهمر. كتب السنسكريتية هذه كانت متعلقة بالنجوم والطب والبيطرة وفن الحرب والأخلاق والفلسفة والدين والرواية والمسرحية، ونقدر على تسميتها وذكر عنوانها إلا أن هذه المقالة الموجزة لا يعنىها هذا التفصيل.

فقول بعض كتّاب أوربا بعد العثور على هذه الأخبار بـ"أن المسلمين لم يعتنوا بتراث الأجانب" ثبت باطلا إلا أن أحدًا يمكن أن يعترض على أنه لو صحّت هذه الأخبار فلم لا نعثر على تلك الكتب المترجمة؟ فالرد على هذا السؤال تتبعه قصة ملؤها المأساة.

أسباب دمار المكتبات: السبب الكبير في دمار المكتبات هو انقسام الحكومة الإسلامية إلى دول ودويلات ووجود الجديدة منها وزوال القديمة، فالدول التي برزت إثر ضعف الدولة العباسية قد أنتجت تراثًا علميًا هائلًا ولكنها و لما آلت إلى الزوال دفنت معها منتجاتها.

دمار مكتبة مصر: لقد دُمِرَت المكتبة المشهورة في مصر إثر دمار الدولة الفاطمية، و مما يؤسفنا أن صلاح الدين فاتح بيت المقدس الذي قضى على الفاطميين وقام مقامهم يحكم مصر لم يمنع الناس عن تدميرها، فقد ضاع العديد من كتبها لعدم العناية بها وما بقي منها لم تزل تباع على يدي سمسار يسيّ ابن صورة بثمن بخس، ونستثني منهم القاضي عبد

العدد الخاص مجلة الهند

الرحيم وزير صلاح الدين، الذي حاول جهده لصيانة الكتب قدر المستطاع، فالمدرسة التي أقامها في القاهرة أوقف لها حوالي مائة ألف كتاب والتي كان معظمها بل كلها مما كانت تمتلكها هذه المكتبة المدمرة.

تدمير التتار للمكتبات: ولو أن هذه الحملات قد نجا منها قدر ملموس من التراث العلمي ولكن فتنة التتار قد ذهبت بكل منها تقريباً، ولقد بالغ بعض مؤرخي بغداد أنه لما دمر التتار مكتبات بغداد وقاموا بإلقاء كتبها في دجلة تحوّلت مياهها إلى السواد، ولكن لا نشك في أن هذه الفتنة قد أبادت عددًا كبيرًا من الكتب.

لم يقتصر سيل التتار على بغداد بل مرّ بتركستان وماوراء النهر وخراسان وبلاد الجبل وفارس والعراق والجزيرة والشام مدمرًا تراثها العلمي.

مرصد هولوكو خان: كتب المؤرخ كتيبي في ترجمة المحقق الطوسي أن المرصد الذي بناه هولوكو خان بمراغة بإشارة من المحقق الطوسي، كان يحوي مكتبة وضع فيها ما سُلِبَ من كتب بغداد والشام والجزيرة وكان عددها يتجاوز أربعمئة ألف كتاب" فإن كان هذا عدد الكتب المتبقية فماذا يكون عدد الكتب التي تم تدميرها.

كانت هذه حالة الدول الإسلامية ولقد بقيت ثروة علمية ملموسة في أسبانيا بالرغم من الإطاحة بالحكومة، ولكن الثروة امتلكها النصارى الذين نالوا من الشهرة في تدميرها ما لم ينلها قوم غيرهم، فيعترف مؤرخو أوروبا علناً ويثبت من حديثهم أن هذه الثورة ذهبت بملايين من الكتب بل دُمِّرَتْ عمدًا.

ضياع الكتب القديمة: ولو أنه وجدت مكتبات كبرى في مصر والقسطنطينية على الرغم من هذه الثورات وسأكتب عنها بالتفصيل في أحوال رحلتي ولكن وللأسف الشديد فإن كتب القدامى التي يمكن بها تحقيق أصول الفن لا يوجد أغلبها فما نجده هو من إنتاجات الزمن الأخير أو كتب العصر الماضي التي تعتبر عادية. و المعروف أن الكتب التي توافق وذوق العامة تنال رواجًا أكثر وقبولاً وبالتالي تنتشر في كافة البلدان ولا تتأثر أبدا بزوال حكومة أو مدينة، لأن لها نسخًا عديدة توجد في كل مكان ولا يمكن إزالتها.

العدد الخاص مجلة الهند

ولو أن المسلمين برعوا في الفلسفة والعلوم القديمة ولكن تعليمها لم يكن رائجاً بل كان مقصوراً في نطاق خاص حتى أن الفلسفة لم تكن معروفة فيما بين الناس في أسبانيا في زمن كانت فيه على ذروة تطورها، فلم تكن توجد نسخ الكتب الفلسفية بالكثرة مما أسفر فعلاً عن اختفائها حينما آلت دور العلم الكبيرة إلى الزوال، ولذا ضاعت ترجمات كتب الشعوب الأخرى أيضاً. وليس هذا خاصاً بالفلسفة والعلوم القديمة بل كتب العلوم الإسلامية التي لم تكن توافق وذوق العامة والتي لم تنل القبول العام لدقة محتواها ضاعت أغلبها، والحقيقة أن هذه الكتب هي التي كانت أمهات العلم والفن ولقد رأيت العديد من الكتب في القسطنطينية ومصر والتي تعتبر مما مفخرة للمسلمين والتي لا توجد لها إلا نسخة أو نسختان في العالم فإن ضاعت هذه النسخ (لا قدر الله) لبادت أسماؤها من العالم للأبد وسألت أغلب أهالي القسطنطينية: "لم لا تطبعونها ليعم نفعها الناس" فردوا عليّ أنها لا أحد يطلبها في السوق. ونفس الحال هو مع الكتب الجيدة النادرة في الهند، لبيت الله يوفق قومي لإقامة مؤسسة مثل أوربا لنشرها وتعميم نفعها للناس حتى لا يضيع ما بقي من هذه الثروة الغالية.

رواج البيمارستانات في الحكم الإسلامي

- العلامة شبلي النعماني

ترجمة من الأردوية: د. هيفاء شاكري¹

تقدّر الأمم الآسيوية عروج دولة أو انحطاطها بفتوحاتها وقوتها العسكرية ولعل أوروبا كانت تؤمن بهذا الميزان قبل اليوم بقرنين، ولذا نرى أن كتب تلك الفترة تعني بأحداث الفتح ووقائع النزاع المحلي أكثر من عنايتها بأمور أخرى لدولة أو حكومة ولا نبزئ التواريخ الإسلامية من هذا النقص وعلى هذا فقد سمّت أوروبا اليوم تواريخ الإسلام بالمذبحة أو دكان الجزار (Butcher's Shop). ونتأسف على أسلوب الكتابة هذا أكثر من طعن أوروبا، فقد أخفى هذا الأسلوب كثيرًا من مآثر المسلمين ومحامدهم عن عيون الناس، فنؤمن في ضوء دلائل قوية للغاية أن الحكم الإسلامي كان نموذجًا للحكم الحضاري، فقد أقاموا أقسامًا خاصة لكل إدارة فعينوا وزيرًا لكل قسم أو سكرتيرًا وكانوا يمسخون الأراضي بعد كل ثلاثين سنة وكانوا يقومون بإصلاح أو تبديل في قسم الخراج طبقًا لنمو الأرض وصلاحها للزراعة، وقد أفردوا قسمًا للأشغال العامة التي كانت تحتوي على ترميم الشوارع والمعابر وتنظيف المدن والرعاية الصحية وما شابهها من الأمور. وبالجملة فالحكم الإسلامي كان يتصف بكل ما يقتضيه الحكم الحضاري، ولكننا اليوم عاجزون عن توفير التفاصيل لكل ذلك، وعجزنا هذا هو الذي يجرتنا إلى أن نوجّه الشكوى إلى تواريخنا القديمة.

وعلى كل حال فيناسبنا أن نضع موضوعات مختلفة لحضارة الحكم الإسلامي وثقافته فنكتب مقالات مسهبة عنها مهما أمكن لنا فإن نحجنا في هذا فسننشر مثل

¹ أستاذة مساعدة، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة المليية الإسلامية، نيودلهي.

العدد الخاص مجلة الهند

تلك المقالات في مجلتنا بين الحين والآخر وهكذا نستطيع تدوين تاريخ كامل لحضارة المسلمين وثقافتهم ثم نشره في صورة كتاب مستقل.

هذه المقالة تتعلق بفرع من أشغال العامة يتحدث عن رواج البيمارستانات في الحكم الإسلامي.

الحارث بن كلدة: الطبابة الفطرية توجد في كل قوم منذ أقدم الزمان وكانت موجودة في المجتمع العربي أيضًا منذ القدم، ولكن الطبابة العلمية التي تتطلب الكسب والتعلم نجد أثرها كذلك بين العرب منذ مدة مديدة، فقد رحل الحارث بن كلدة الذي كان من أهالي طائف قبل بعثة الرسول --- إلى فارس ليتعلم الطب ولما رجع لقبوه بـ"طبيب العرب". ونظرًا لفن الطب فقد وصل إلى بلاط أنوشيروان ثم جاء ولده النصر بن الحارث فاشتهر أكثر من والده وبفضله تطوّر فن الطب في المجتمع العربي حتى أنه لما هاجم عمر الفاروق فارس أمر أن يرافق الجيش العديد من الأطباء العرب.

ترك الأمير معاوية جزيرة العرب فجعل دمشق عاصمة حكمه واعتنى بأمور الدولة وأقام له بلاطًا على طريقة العجم كما عين طبيبًا نصرانيًا في بلاطه يسمى ابن أثال وكذا ارتبط بالبلاط العديد من الأطباء غيره.

أول بيمارستان: وبجانب سعة الحضارة اتسع نطاق هذا القسم وبرز في البلاط العديد من الأطباء والجراحين الذين كانوا يحترفون الطب في بيوتهم لأن البيمارستانات لم تنتشر حتى تلك الفترة فأول من بنى بيمارستانًا كان الخليفة الأموي الثالث الوليد بن عبد الملك. كان الوليد شغوفًا برفاهية العامة وله أعمال كثيرة في هذا المجال، فهو أول من أقام دارًا للضيوف وأحصى عدد كافة العمي والمعوقين في الخلافة فقرر لهم منحًا كما عين خدامًا لكل واحد منهم، وكذا قرر رواتب شهرية للمجذومين وحظر عليهم الخروج من بيوتهم، وهذه المناسبة وضع حجر أساس بيمارستان تم بناؤه في 88هـ وعين فيه العديد من الأطباء والجراحين¹.

¹ المقرئزي، 405/2

العدد الخاص مجلة الهند

وكانت فائدة وضع قسم الطب أنّ كثيراً من العلماء النصرانيين واليهود وصلوا إلى البلاط، الأمر الذي فتح الباب على مصراعيه للعثور على العلوم والفنون اليونانية لأن أروع كتب الطب وأجودها كانت باللغة اليونانية ولن يمكن أي تطوّر في المداواة وصنع الأدوية بدون ترجمتها العربية فقام ماسرجويه اليوناني بترجمة قرابادين أهرن من السريانية إلى العربية وصانها في المكتبة الملكية ولما جاء عصر عمر بن عبد العزيز أخرجها من المكتبة وعمّم نفعها بوضع نسخ عديدة لها ونشرها في البلاد¹.

وبعد قليل عمّت البيمارستانات كل أنحاء البلاد. وفي العهد العباسي اشتهر بيمارستان جنديسابور الذي كان جارجس مسؤولاً عنه. كان جارجس ماهراً للغة اليونانية ومجتهداً في الطب فقام بإعداد قرابادين جيد بالسريانية ليتم العمل عليه في البيمارستانات، ثم ترجمه حنين بن إسحاق إلى العربية. وفي 148هـ يؤس الخليفة العباسي المنصور بعدما أصابه المرض فأرسل إلى جارجس، فأقام جارجس ولده مقامه وحضر البلاط فشفي المنصور بمداواته فطلب منه المنصور أن يترجم كتب اليونانية إلى العربية. الطبيب الآخر في ذلك البيمارستان الشهير كان سابور بن سهل في عهد المتوكل بالله وتوفي في 255هـ. وقد أعدّ قراباديتاً مفصلاً يحتوي على 17 باباً فبقي هذا القرابادين معمولاً به في كافة البيمارستانات لقرون. وكذا كان ماسويه طبيباً شهيراً والذي فصل أخباره العلامة ابن أبي أصيبعة، خدم هذا البيمارستان لمدة 30 سنة واضعاً الأدوية وخادماً للمرضى.

دخول طريقة ويدك في العلاج: كان العلاج إلى بداية العصر العباسي يتم حسب الأصول اليونانية والفارسية، لكن شيئاً فشيئاً وبفضل البرامكة انضمت إليها أصول طريقة ويد.

وقد أرسل رئيس وزراء هارون الرشيد وعضد الدولة العباسية يحيى بن خالد البرمكي رجلاً إلى الهند لكي يجمع أدويتها وعقاقيرها فيأتي بها إلى بغداد² وكذا طلب يحيى أطباء الهند المشهورين إلى البلاط فلبّي دعوته منكه وصالح وابن دهن فقام منكه بترجمة

¹ عيون الأنبياء في طبقات الأطباء، 1/163

² فهرست ابن النديم، ص 345

العديد من كتب السنسكريتية الطبية إلى العربية، وعين ابن دهن مسؤولاً عن البيمارستان الذي بنته أسرة البرامكة في بغداد، ولو أن بغداد كانت تضحّ بالبيمارستانات ولكن بيمارستان البرامكة تميز بوجود مدير وطبيب هندوسي، ويمكن به أن نقدر عدم عصبيتنا نحن المسلمين وتقديرنا لدرجة العلماء والحكماء. وسوشورتا الذي كان أبرز حكماء الهند وأطبائها ألف كتاباً في الطب يحتوي على 10 أبواب فأمر يحيى منكه بترجمته إلى العربية¹ ولما تمت الترجمة أمر أن يعمل عليه كقرايين في البيمارستانات.

راتب المفتش العام للبيمارستان: بنى هارون الرشيد بيمارستاناً خاصاً وعين ماسويه طبيبه ومديره، وقد أقيم قسم عام أفرد للطب وجعل لكل بيمارستان طبيباً مسؤولاً، كما عين مفتش عام لكافة البيمارستانات والذي أعطي لقب "رئيس الأطباء"، فأول من أعطي هذا اللقب كان بختيشوع في 171 هـ ثم ولده جبريل في 175 هـ. كان راتب جبريل الشهري يبلغ قدره عشرة آلاف درهم كما كان يعطى علاوة شهرية قدرها خمسة آلاف درهم². هذا كان راتباً خاصاً بالمنصب وأما ما كان يدرّ عليه من البلاط وزبيدة وأسرة البرامكة فكان مبلغه مئآت ألف درهم الذي ذكر تفصيله العلامة ابن أبي أصيبعة ناقلاً من وثائق حساب جبريل. كان بختيشوع وجبريل نصرانيين، ولكنهما كان مكرّمين في بلاط هارون والمأمون إلى حد أنه كان الوزراء والأمراء يقدمون طلباتهم إلى الخليفة بواسطهم، وكان بختيشوع يضاهاى الخليفة في الملابس والمراكب والأثاث والعظمة والشأن.

وبالرغم من أن البيمارستانات قد عمّت كل أنحاء البلاد نتعجب أن مصر قد حرمت لمدة طويلة أي مبنى من هذا النوع فقد ذكر العلامة المقرئ بيمارستاناً لمغافر تم بناؤه بأمر من فتح بن خاقان وزير الخليفة المتوكل بالله ولكننا لا نجد أي تفصيل لتاريخ بنائه أو ما شابهه من الأمور وكتب في ذكر بيمارستان ابن طولون أنه لم يوجد أي بيمارستان في مصر قبل هذا. ولعل السبب وراء هذا هو أن مصر كانت مركزاً للطب قبل مجيء الإسلام

¹ الفهرست، ص 303

² الطبقات، ص 136 و173

العدد الخاص مجلة الهند

وقد برز فيها أطباء كبار كانوا يعتبرون أقرانًا للأطباء اليونانيين، وبفضل هؤلاء الحكماء راجت الصيدليات التي كان يداوى فيها المرضى فكأن دار كل حكيم كانت صيدلية وبیمارستانًا مستقلًا، ويمكن بل يغلب الظن أنها قد وجدت بها بيمارستانات مستقلة. وقد جعلت تبني البیمارستانات في عصر الوليد بعد مجيء الإسلام وعمت شيئًا فشيئًا كافة أنحاء الدولة الإسلامية وكان مديروها والمسؤولون عنها وأطبائها كلهم نصارى فلم تكن هناك حاجة إلى هدم البیمارستانات القديمة وبناء المباني الجديدة بدلها، وأيًا كان الأمر فلم يوجد أي بيمارستان إسلامي في مصر حتى عصر ابن طولون.

كان أحمد بن طولون عاملاً على مصر والمغرب والشام وبما أن الدولة العباسية كانت تعاني من الضعف يوميًا فقد أصبحت مصر كدولة مستقلة، ففي 261هـ وضع حجر أساس بيمارستان كبير ولما تم بناؤه وقف له أراضي وقدر مبلغ تكليفه 60 ألف دينار، والذي يعادل ثلاثة مائة ألف روبية، وكان يداوى فيه المريض بحيث تؤخذ ملبسه ونقوده وتودع لدى أمين مال البيمارستان. وكان يمنح لباسًا جديدًا وفراشًا، وكان يزوره الأطباء والجراحون كل صباح ومساءً ويصفون له قدر الدواء ويزيدن فيه أو ينقصون، فإذا شفي وقوي حتى يتمكن من أكل الخبز ومرق الدجاج ترد له ودائعه ويسمح له بالخروج من البيمارستان. وكان أحمد بن طولون يزور البيمارستان كل جمعة ويقوم بالتفتيش، ثم يعود كل مريض على حدة¹. وقد خصت غرف لمداواة المجانين وكانوا يعالجون بكل حيطة وعناية.

ندرة: قد ابتكر ابن طولون شيئًا في هذا البيمارستان بأنه بنى في 263هـ مسجدًا فخماً بجواره كلف مائة ألف دينار ثم بنى حجرة واسعة بجانبه مليئة بأشربة متنوعة وأدوية حاضرة وقرّر طبيبًا يحضره كل جمعة منذ أول وقت الصلاة حتى آخره فإن أصيب أحد بحالة طوارئ حمل إليه لمداواته.

البيمارستانات في عهد المقتدر بالله: طوّر المقتدر بالله هذا القسم فجدد أمورًا عديدة، فكان علي بن عيسى وزير الخليفة وكان راغبًا في رفاهية الشعب ومما اتفق أن

¹ كتاب الخطط والآثار، 405/2

العدد الخاص مجلة الهند

أوبئة عديدة قد انشرت في تلك الفترة، فأرسل علي مرارًا إلى سنان بن ثابت بن قرة الطبيب الصابئ الشهير والمفتش العام للبيمارستانات وأمر عديدة ووضع معامل ومصانع عديدة تابعة للبيمارستانات.

بيمارستان السجن: فأول ما فعل هو أنه أمر سنان بتخصيص أطباء لمداواة المرضى في السجن، لأنه لم يكن هناك أطباء لعلاج المرضى في السجن إلى تلك الفترة.

البيمارستانات المؤقتة: وكذا أقام صيدليات/بيمارستانات مؤقتة فعين أطباء كي يعالجوا في القرى التي لا يوجد بها أطباء بحيث يقيموا لأيام في كل قرية ويعالجوا المرضى، وكان مع هؤلاء الأطباء لوازم الصيدليات وكانوا يعالجون في القرى والمقاطعات.

بداية طريقة الاختبار: والشيء الجديد هو أن طريقة الاختبار قد بدأت، وذلك أن طبيبًا غير ماهر عالج مريضًا في 319هـ فمات بسببه المريض فلما بلغ الأمر الخليفة أمر بأن لا يسمح لأحد بممارسة الطب ما لم يمرّ بطريقة الامتحان.

الجراح والطبيب يحملان الشهادة: عيّن سنان بن ثابت ممتحنًا وقدم الآلاف من الأطباء الامتحان ولنقدّر سعة حدود بغداد وعظمة حضارتها أن 860 طبيبًا اجتازوا الامتحان فمنحوا الشهادة. مع أن من اعترف بفضلهم في هذا المجال وكانت مهارتهم معترفًا بها، لم يطلب منهم حضور الامتحان وكذلك لم يحضره من ارتبط بالبلاط، وكانت الشهادة تحمل صراحة نوع الامتحان ونوع المداواة كذلك.

وبجانب هذا النظام فقد أقام العديد من البيمارستانات الكبيرة ومنها ما أقامه على اسم أمه وكان يكلف سنويًا سبعة آلاف دينار مما يعادل 35 ألف روبية. أقيم هذا البيمارستان على شاطئ دجلة نظرًا للجوّ الملائم والمنظر الجميل. تم تدشينه في شهر محرم 306هـ وعيّن له العديد من الأطباء والجراحين على رواتب ملموسة، ونفس السنة أقام بيمارستانًا على اسمه والذي كان يكلف مائتي دينار شهريًا أي ألف روبية هندية¹.

¹ عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص 221-222 والمنتقى في أخبار أمّ القرى، ص 61

وفي 302هـ أقام علي بن عيسى الوزير بيمارستاناً على نفقة منه بمحلة الحربية وعيّن له طبيباً شهيراً اسمه أبو سعيد بن يعقوب، وفي 313هـ أقام ابن الفرات بيمارستاناً بجي درب المفضل وحمل ثابت بن سنان مسؤوليته¹. هذه هي البيمارستانات التي أقيمت في بغداد ذاتها، والتي قد جمعنا معلوماتها بقدر من التفصيل ولكن من الممكن أن معالم أخرى لا تحصى أقيمت من هذا النوع بفضل جود الإسلام مما لا نعثر على شيء من تفصيلها.

ولو أن بغداد كانت مليئة بالبيمارستانات إلا أن كثرة السكان تطّبت المزيد منها فأقام عضد الدولة بيمارستاناً آخر قال عنه المؤرخون أنه لم يوجد له نظير في العالم كله وذلك لأنه تميز بفخامة البناء، وكثرة الآلات، وترتيبه والجودة.

فيقول العلامة ابن خلكان: ليس في الدنيا مثل ترتيبه وأعدّ له من الآلات ما يقصر الشرح عن وصفه". كان عضد الدولة من أشهر ملوك العالم فهو أول حاكم في تاريخ الإسلام لقّب بالملك، ولم يذكر اسم أي خليفة في الخطب سوى الخلفاء العباسيين. وهو أول من ظفر بهذا الفخر من غير الخلفاء العباسيين، فكانت مملكته واسعاً نطاقها ومنظمة إدارتها. وكان يحب العلم من أعماق قلبه وكان يرغب في الأمور المتعلقة برفاهية الشعب فقام بتطوير قسم الرعاية الطبية تطويراً كبيراً فأقام البيمارستانات الجديدة في كل قرية ومقاطعة، كما قام بترميم القديم منها، والبيمارستان الكبير الذي ذكرناه آنفاً تم بناؤه في 368هـ فكان هذا البيمارستان كمثل جامعة طبية أعدت فيه الكثير من الآلات وعيّن العديد من الأطباء المشهورين لإلقاء المحاضرات كما وظّف أطباء معروفين من أقصى البلاد وأدناها. كان عددهم 50 في البداية ثم بعد انتخابهم تقلص إلى 24 طبيباً ومن أشهرهم ابن كبس وأبو يعقوب وابن كشكرايا وأبو عيسى وبنو حسنو.

ومن بين الجراحين الذين تألّفت أسماؤهم هما أبو الخير وأبو الحسن النفاح، وكان يرأس واضعي الضماد أبو الصلت الذي لم يكن له نظير في هذا الفن.

¹ الطبقات، ص 222

وقد شملهم الكخّالون وأشهرهم أبو النصر بن الرحلي كما ضمّهم الأساتذة الكبار من علماء وظائف الأعضاء وبالجملة فقد تم تعيين كبار وحذاق أطباء كل قسم طبي ليعالجوا المرضى كما ليلقوا المحاضرات وسنفضّل ذكر بعض منهم فيما بعد.

وقد برز ملوك وسلاطين مسلمون في القرن الرابع الهجري فبرزت على صفحات التاريخ حكومات ودول كبيرة مثل السامانية والسلجوقية والغزنوية والفاطمية والنورية والأيوبية والأتابكية وغيرها من السلالات الملكية. ولو أن هذا التقسيم قد أضرّ بالقوة الاجتماعية ولكن قسم رفاهية الشعب قد لقي تطورًا بالغًا وذلك لأن كل حكومة جديدة كانت تستخدم هذه الطريقة المفيدة لقبولها لزيادة شعبيتها، الأمر الذي طوّر الطب وبرز في كل مكان بيمارستان جديد، فلما سافر العلامة ابن جبير في القرن السادس الهجري إلى العراق والشام في رحلته لحج بيت الله الحرام، تحيّرت عيناه من كثرة البيمارستانات في بغداد والموصل وحران وحلب وحماة ودمشق فقام بذكر هذه البيمارستانات تارة بالتفصيل وأخرى بالإجمال. وفي نفس الفترة أكثر السلطان نور الدين والسلطان صلاح الدين تأسيس البيمارستانات في أنحاء البلاد التي حكما عليها، ونقوم هنا بذكر بعض منها:

النورية: أسّس نور الدين الزنكي هذا البيمارستان في دمشق؛ أسر نور الدين حاكمًا أوروبيًا في الحروب الصليبية فقدم مبلغًا هائلًا لملك أسره فحرّره نور الدين، وبهذا المبلغ أسّس نور الدين هذا البيمارستان، يمكن بهذا تقدير كلفة بناء البيمارستان. وصنع أبوابه العالية الجميلة مؤيد الدين الذي كان نجارًا كبيرًا والذي قرأ الأقليدس والمجسطي لأجل مهارته في النجارة¹.

وكان من تقاليد البيمارستانات إلى تلك الفترة أن الأمراء والأغنياء لم يسمح لهم بالعلاج فيها، ولكن وثيقة الوقف التي كتبها نور الدين جاء فيها "الأدوية النادرة التي لا توجد إلا في هذا البيمارستان يسوّى في استخدامها الأغنياء والفقراء". ولقد شاهده العلامة ابن جبير خلال رحلته فيكتب أن فيها العديد من المحررين والأطباء والخدّام، وسجل المرضى يكون لدى المحرر والذي يحوي تكاليف الدواء، وما يحتاجه المرضى

¹ عيون الأنبياء في طبقات الأطباء، ص 190

بجانب تفصيل أسمائهم. يعود الأطباء كل مريض في الصباح ويراقبون علاجهم وغذاءهم. فالكلفة اليومية حوالي مائة روبية" وكذا ذكر العلامة أن لدمشق بيمارستانًا آخر من هذا النوع ولكن الأخير جديد وعظيم كذلك.

لما دمر السلطان صلاح الدين حكومة الفاطميين، وجد قصرًا شامخًا من بين قصورهم والذي نسخ على جدرانه القرآن كله فلما رآه السلطان قال: هذا المكان يناسب البيمارستان فحوّل القصر بعد تصريف قليل إلى البيمارستان في 577هـ وعيّن له عديدًا من الأطباء والجراحين وعلماء الطبيعة والمشرفين عليه والعمّال والممرّضين¹.

وقد ذكر العلامة ابن جبير أن بيمارستان القاهرة هذا من مآثر صلاح الدين، إنه قصر فخم له حجرات وفي كل حجرة أسرة وعليها فرش منظّمة ووسائد، كما توجد فيه حجرة خاصة بالدواء، فيها صانع الدواء والكاتب، وكذلك قسم خاص بمداواة النساء وتم فيه تعيين النساء للعناية بهن. وأما مرضى الجنون فلهم أبنية خاصة لها ساحات واسعة، وفي نوافذها قضبان من الحديد ويشرف على البيمارستان سكرتير طبيب يتبعه خدّام يعودون المرضى صباح ومساءً، كما يقومون بزيادة أو نقص الدواء، ويأتي السلطان ذاته لتفتيش البيمارستان ويؤكّد على عيادة المرضى والعناية بهم. ويضيف أنه يوجد في القاهرة بيمارستان آخر من نفس الدرجة.

والبيمارستان الذي أقامه السلطان في الإسكندرية كان ممتازًا كذلك، وتميز بتعيين أطباء خواص لمن لا يودّ أن يتم علاجه مع عامة المرضى، فهؤلاء الأطباء كانوا يزورونهم في بيوتهم ويقومون بمداواتهم فيها. وكذلك تمتع من هذه السماح المسافرون والأجانب.

وبفضل نور الدين وصلاح الدين راجت البيمارستانات وانتشرت، ففي 663هـ أصيب الملك منصور قلاوون الذي كان ضابطًا عسكريًا في تلك الفترة، أصيب بالقولنج في إحدى رحلاته. كان مرضه شديدًا للغاية ولم تكن الأدوية الموصوفة توجد في أي مكان فطلبت من بيمارستان نور الدين، فلما شفي قلاوون زار البيمارستان، وأعجب به ونوى بناء بيمارستان أكبر من ذلك، فلما تولى الحكم في 678هـ، بدأ يبني البيمارستان، وكما

¹ المقرّبي، 407/2

نعلم أنه لم بين بيمارستان أفخم من هذا في أي دولة إسلامية سوى البيمارستان العضدي، بل كان يمتاز عن البيمارستان العضدي ببعض خصائصه.

كان بين قصور الفاطميين قصر واسع بناه ابن الخليفة العزيز بالله فلما زالت خلافته سيطر عليه السلطان صلاح الدين وكانت أسرته ترثه، فلما عزم قلاوون على بناء البيمارستان لم يجد مكانًا أنسب منه فاشتراه من صاحبه ووضع حجر أساس البيمارستان في 683هـ. وكان القصر يحتوي على أربع قاعات كبيرة وكان محيطه 10600 قدم، كما كان يجري فيه نهر يسقي من فيه، فلم يغيّر قلاوون القاعات، وأضاف إليها مباني جديدة. وكان يعمل فيه 300 أسير مع العمّال الآخرين كل يوم، وقد أمر كل بناء وعامل في مصر والقاهرة أن لا يعملوا إلا في هذا البيمارستان، كانت كل الأعمدة إما من المرمر أو الرخام، وكان قلاوون يأتي للمراقبة كل يوم، فاستغرق بناؤه 11 شهرًا متواصلة، يذكر السخاوي أن هذا البيمارستان يعدّ من أفخم مباني القاهرة وأشهرها، وقد وقف قلاوون عدة أراضٍ لتكلفتها، كان مبلغها السنوي مليون درهم، وقد جاء في وثيقة الوقف: هذا البيمارستان مسموح لكل غني وفقير، وملك ورعية ويسمح باستخدام الدواء حتى لمن لا يدخله.

ومما تم الالتزام به أنه كانت حجرة خاصة لكل مرض فكانت القاعات الأربع القديمة مخصصة لمن أصابه الحمى، كما كانت مبان خاصة لأمراض العين، ومرض الرعشة، ومرض الإسهال، وكذلك تم التفريق بين الرجال والنساء بالنسبة للأقسام، وهكذا كانت فيه حجرات خاصة لطبخ الطعام، وصناعة الأدوية، وحفظ سجلات المرضى، وإلقاء محاضرات الطب، وغيرها من الأشغال. ومن الممتع أن كل هذه الحجرات يبلغها الماء عن طريق النهر الجاري في القصر، وكان الماء يجري لأربع وعشرين ساعة.

وكان بجوار البيمارستان مدرسة كان يدرّس فيها فقهاء المذاهب الأربعة، وقد قسم البيمارستان إلى أقسام عديدة لكي يحسن التنظيم والتنسيق وقد عيّن لكل قسم سكرتيرًا. ولتقدير كثرة المرضى الزائرين له يرجى النظر في خمسمائة رطل من شراب الرمان التي كانت تصرف يوميًا علاوة على الأشربة العادية الأخرى.

وقد أقيمت بيمارستانات عديدة في مكة المعظمة والمدينة المنورة، فالبيمارستان الفخم الذي بناه الخليفة المستنصر في 628هـ بمكة قام بترميمه الحسن بن عجلان في 616هـ بتكلفة قدرها أربعون ألفاً، وكذا قام السلطان الظاهر بيبرس (ت 676هـ) بترميم بيمارستان المدينة المنورة القديم وأرسل من مصر طبيباً وكل نوع من المعجونات والأدوية. وكذلك وجدت بيمارستانات كثيرة في الهند، ولو نثق برواية المقرئ نجد في دلهي فقط سبعين بيمارستاناً في عصر السلطان محمد بن تغلق.

وكان من بين الاثني عشر أمراً أصدرها جهانغير حين توليه العرش في 1014هـ ما نصه: "يجب أن تبنى البيمارستانات في كل مدينة كبرى ويعين فيها الأطباء لمداواة المرضى ولينفق عليها من الأراضي الحكومية البحتة".

وهناك أمور تجب ملاحظتها بالنسبة لتاريخ البيمارستانات:

1. السبب الرئيسي لكثرة البيمارستانات أن البيمارستان الذي يبنى في عهد أي سلطان لا يمكن تدميره لأن البيمارستان والأراضي المتعلقة به كانت تأتي تحت الوقف، والوقف لا يسمح لأحد بالتصرف فيه، وأما السلطان الجديد الذي كان يتولى العرش فكان يحاول طوعاً أو كرهاً أن يزيد على ما وجد من الآثار.
2. لم يكن نوع من البيمارستانات إلا ووجد في الحكم الإسلامي ولقد ذكرنا آنفاً البيمارستانات المتحركة وبيمارستانات المساجد، وقد كان بيمارستان الجيش منسقاً و منظماً. وقد تم تنظيم الأطباء والأدوية في عصر الصحابة أنفسهم ولكن بيمارستان الجيش قد بادر به السلطان محمود، فقد كان بيمارستان جيش السلاجقة يحمل على مائتي إبل¹.
3. أن الأطباء الذين كانوا يعينون مفتشي البيمارستانات العام أو مشرفين عليها كانوا أساتذة مجتهدين للفن، فأبو بكر الرازي الذي يعتبر ركناً من أركان فن الطب والذي استفاد ابن سينا من مؤلفاته البالغ عددها مائتي كتاب، كان طبيباً في بيمارستان الري وكذا كان سعيد بن يعقوب الدمشقي الذي كان مسؤولاً عن بيمارستانات بغداد ومكة

¹ تاريخ سلجوقي

والمدينة المنورة كان طبيباً شهيراً. وقد قام بترجمة العديد من كتب اليونانية إلى العربية، وهكذا كان سنان بن ثابت الذي كان مفتشاً عاماً في عصر المقتدر بالله يعدّ ركناً من أركان فن الطب ولإثبات ما كتبنا يرجى الرجوع إلى أخباره المذكورة في عيون الأنباء في طبقات الأطباء.

كان يعمل في البيمارستان العضدي 24 طبيباً وكان كل طبيب ماهراً لفنه ونذكر فيما يلي أخبار بعض منهم بكل إيجاز:

أبو الحسن كشكرايا: كان حكيماً مشهوراً. كان يخدم بلاط سيف الدولة في أيامه الأولى، تميز من بين تلامذة سنان بن ثابت.

أبو الحسن كشكرايا: كان نصرانياً يعرف العديد من اللغات، قام بترجمة العديد من الكتب اليونانية إلى العربية.

أبو الفرج: كان حكيماً وفيلسوفاً نصرانياً كتب شروحاً وحواشي عديدة لكتب أرسطو وأبقراط وجالينوس، ذكره ابن سينا في مؤلفاته واعترف بفضلته في الفن. كان يلقي محاضرات في الطب بجانب مداواة المرضى. ذكر فهرس طويل لمؤلفاته في عيون الأنباء في طبقات الأطباء.

إبراهيم بن بكس: كان يعرف العديد من اللغات، قام بترجمة كتب اليونانية إلى العربية كما كان يلقي المحاضرات في الطب.

سعيد بن هبة الله: كان طبيباً للخليفة المستظهر بالله، من مؤلفاته المغني وكتاب الإقناع وغيرهما.

أمين الدولة بن تلميذ: كان حكيماً نصرانياً شهيراً يتضلع من السريانية والفارسية والعربية. عينه الخليفة مسؤولاً عن قسم شؤون الطب في بغداد وكان يحضر عنده كافة الأطباء كما كان يشرف على البيمارستان العضدي. خلف مؤلفات عديدة مفيدة.

4. وبجانب هذه البيمارستانات كانوا يلتزمون بإيصال الأدوية الجيدة فقد أقيم قسم لتفتيش ومراقبة الأدوية التي كان يبيعها العطّارون ومن كان يرأسها يسمى "رئيس الشابين" وعادة كان يعين في هذا المنصب أطباء ماهرون في فن النبات، ففي القرن

السابع الهجري عيّن في هذا المنصب ضياء بن بيطار (ت 646هـ) الذي كان ماهراً في هذا الفن إلى حدّ أنه لم يبرز من بين المسلمين من يضاهاه به، وقد حفظ عن ظهر قلب كل ما ألّف باليونانية من الكتب وما زيد فيه من قبل المسلمين، ليس هذا فحسب بل سافر إلى أقصى البلاد وبحث عن النباتات في اليونان وإيطاليا والجزائر والبحر المتوسط، وكان دائماً يأمر برسم صور النباتات والأعشاب بأيدي الرسامين الذين كانوا يرافقونه دائماً، وكان يضبط آثار أحوالها المختلفة. وقام بالكشف عن العديد من أخطاء وزلات اليونانيين كما اكتشف العديد من النباتات والعقاقير الجديدة التي لم يعثر عليها اليونان.

5. من كان يعيّن للأعمال المكروهة في البيمارستانات مثل الجراحة والكحل والفصد كان عادة ماهراً في فن الطب ولم يكن مثل أطبائنا في الهند الراهنة والذين لا يقترّبون من الجراحة والفصد، فالبيمارستان الذي أقامه السلطان صلاح الدين عيّن كخّاله القاضي نفيس الدين (ت 636هـ) الذي كان رئيس أطباء مصر كلها وكذا كان أبو الخير وأبو الحسن بن تفاح يقومان بالجراحة في البيمارستان العضدي كما عيّن الحكيم أبو الصلت لجبر العظام ووضع الضماد.

6. هذا تاريخ موجز للغاية للبيمارستانات الإسلامية ولقد تم توسيع هذا القسم في الحكم الإسلامي حتى ألّف العديد من الأطباء مثل أبي بكر الرازي وأمين الدولة بن تلميذ وأبي سعيد زاهد العلماء في أخبار البيمارستانات وتجاربهم فيها ولكن من الأسف أن تلك الكتب لا توجد اليوم في أي بقعة من بقاع العالم فليقتنع القراء بما وقّرناه لهم من المعلومات القليلة.

علم الميكانيكا والمسلمون

- العلامة شبلي النعماني

ترجمة من الأردوية: د. هيفاء شاكري¹

(ميكانيكا) كلمة يونانية، والتي تحوّلت في اللغة الإنجليزية إلى (Machine) وتعريبها في لغتنا الأردوية بـ"كل" وبالرغم من أن هذا العلم قد تطوّر إلى حد كبير إلا أنه قديم جداً. كان اليونانيون يحصلون عليه كعلم، وحينما تعلم المسلمون علوم اليونانيين وفنونهم لم يكتفوا بالحصول عليه بل طبقوه عملياً. ويعرف في اللغة العربية بعلم الحركات أو علم الحيل، ولكن الكلمة اليونانية مستعملة أيضاً بعد تغيير بسيط. إن كلمة "منجنيق" المستعملة بكثرة في اللغتين العربية والفارسية والتي أخطأ فيها علماء اللغة لدينا من ناحية الاشتقاق، هي في الأصل معرّبة عن ميكانيكا والفرق أنها لا تستعمل الآن بشكل عام إنما أطلقت على آلة خاصة.

بدأ هذا الفن لدى المسلمين عندما تمت ترجمة المؤلفات اليونانية في العصر العباسي وترجمت كتبه مع كتب العلوم والفنون الأخرى، والكتب التي استطعنا أن نحصل على أسمائها هي:

1. كتاب عمل الآلة التي تطرح البنادق لأرخميدس
2. كتاب الدائرة والدواليب لهرقل النجار
3. كتاب في الأشياء المتحركة من ذاتها لأيرن
4. كتاب آلة الزمر البوقي

¹ أستاذة مساعدة، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة المليية الإسلامية، نيودلهي.

5. كتاب آلة الزمر الريحي
6. كتاب الدواليب لمارطس
7. كتاب الأرغنون¹.
8. كتاب أيرن في الجرّ الثقيل

الكتاب الأول والأخير من الكتب السابقة موجودان إلى يومنا هذا في مكتبة المتحف البريطاني، ويحتوي الكتاب الأول على صور عديدة². استطاع المسلمون بعد الاطلاع على الكتب اليونانية أن يخترعوا أمورًا جديدة في هذا الفن ويؤلفوا كتبًا مستقلة وجديدة، وألف بنو موسى الذين كانوا فلاسفة البلاط لدى المأمون كتابًا لهذا الفن والذي اشتهر خطأ بكتاب الحيل، يعتبر هذا الكتاب ممتازًا من ناحية التحقيق والاختراع، وقد ذكر ابن النديم³ أنه يحتوي على وصف لعدد من الأعمال الميكانيكية كما يذكر ابن خلكان من القرن السابع الهجري أنه قرأ هذا الكتاب الذي يحتوي على عجائب ونواتر عديدة وهو أفضل كتاب لهذا العلم.

يكتب البروفيسور سيديو (Sediuat) وهو كاتب معروف من فرنسا في كتابه Histoiregenerato Desarabes (ص 249) الجزء الثاني: "ليست بنا حاجة أن نذكر أن علم الميكانيكا قد وصل إلى أوجه في عهد المسلمين".

ويكتب البروفيسور الفرنسي ليدان (Ledun) في كتابه Lacirilisati Undesarabes: "كان العرب يعلمون جيدًا علم الميكانيكا وخاصة الطريقة العملية". ونستطيع أن نحصل على الآلات التي اخترعوها حتى في يومنا هذا. وما كتبه المؤرخون القدامى عنهم (عن العرب) يدل على طول باعهم. شيء أكيد أنهم كانوا يمتلكون ساعات ذات الرقاص والتي كانت تختلف عن الساعات المائية وذلك ثابت ببيان بعض المؤلفين خاصة بيان طاليد (Tndeta) بنجامن الذي سافر إلى فلسطين في القرن الثاني عشر الميلادي وكتب تفاصيل ساعة مسجد دمشق⁴.

¹ راجع: كتاب الفهرست (طبعة أوربا)، ص 285

² راجع: فهرس الكتب العربية الموجودة في مكتبة المتحف البريطاني، ص 619

³ كتاب الفهرست، ص 285

⁴ وسنفضّل ساعة جدارية لمسجد مشق

إن أولى الاختراعات التي تذكر في مجال علم الميكانيكا هي الساعة التي أهداها الخليفة هارون الرشيد لشارليمان إمبراطور فرنسا. وقد ذكرها أغلب مؤرخي أوروبا وأيضًا البروفيسور سيديو كدليل على تطور علم الميكانيكا. وصف المؤرخون الساعة بأنها كانت تحتوي على اثني عشر بابًا صغيرًا، وبعد مرور ساعة كاملة من الزمن تفتح الأبواب على عدد الساعات التي مرّت وتسقط كرات مصنوعة من النحاس على صفيح معدني بعدد الساعات، فتصدر صوتًا. وتظل الأبواب مفتوحة حتى إذا اكتملت دورة اثني عشرة ساعة يخرج اثنا عشر فارسًا من الأبواب، ويقومون بدورة على سطح الساعة.

وقد أنكر السيد بامر وجود هذه الساعة على أساس أن المؤرخين العرب لا يذكرونها في كتاباتهم، لكن السيد بامر لا يدرك أن المؤرخين العرب صرفوا النظر عن الآلاف من الأحداث التي ثبتت من مصادر أخرى حتى أن المؤرخين لم يذكروا شيئًا عن سفراء شارليمان. هل ينكر السيد بامر ذلك أيضًا؟ وقد ذكر المؤرخون الأوروبيون هذه القصة بأسناد قوية جدًا. مثلًا قدّم البروفيسور سيديو دليل المؤلفات من قبل مارجني واجنارت، والأخير كان موجودًا في زمن الإمبراطور شارليمان.

إن من الغريب أن الهدايا التي أرسلها هارون الرشيد لشارليمان موجودة إلى الآن في معبد بايتون في فرنسا، ولكن الساعة غير موجودة. ويصف أحمد زكي المصري الذي زار أوروبا 1892م هذه العمارة فيقول: إن الشيء الممتع لسائح شرقي هي تلك الغرفة التي زينت جدرانها بصور شارليمان وهو يستقبل سفراء هارون الرشيد، ويد السفير تحمل مفاتيح بيت المقدس التي أرسلها هارون الرشيد هدية لشارليمان. توجد في الغرفة أيضًا ستارتان بقيمة 64 ألف روبية".

على كل حال، إن ثبت وجود هذه الساعة أو لا، لا نستطيع أن ننكر أنه تمت صناعة كثير من الساعات والآلات الميكانيكية في عهد المسلمين والتي نذكر بعضها في مقالتنا.

قد سافر العلامة ابن جبير إلى الشام والحجاز عام 578 للهجرة. وكتب في أحوال رحلته صفة ساعة في جامعة دمشق: بني في حائط هذه الصفة دائرة. وصورت فيها صورة الفلك، وجعلت فيها طاقات لطاف لها أبواب لطيفة: وفي الدائرة بازان من ذهب، في

طاسين من ذهب. ووراءهما بندقتان من شبيه لا يدركهما الناظر فعند مضي كل ساعة ينفتح فما البازين، وتقع منهما البندقتان وكلما سقطت بندقة انفتح باب من أبواب تلك الطاقات، والباب مذهب فيصير حينئذ مفضضاً. وإذا وقعت البندقتان في الطاسين تذهبان إلى موضعهما. ثم تطلع أقمار من ذهب في سماء لازوردية في ذلك الفلك مع طلوع الشمس الحقيقية، وتدور مع دورانها وتغيب مع غيبوبتها، فإذا جاء الليل فهناك أقمار طالعة من ضوء خلفها، كلما تكاملت ساعة تكامل ذلك الضوء في دائرة القمر، ثم تبتدىء في الدائرة الأخرى إلى انقضاء الليل الشمس، فتعلم بذلك أوقات الصلوات¹.

حينما بدأت صناعة الساعة كان من الممكن فقط معرفة أن ساعة من الزمن قد مرت ولم يكن بالإمكان معرفة عدد الساعات التي مرت، وقد راجت مثل هذه الساعات بين المسلمين أيضاً في بداية الأمر، أما في ساعة دمشق فكان من الممكن معرفة الأمرين بطريقتين مختلفتين، يعني أنه كان الإعلان عن مرور الساعة عن طريق صوت الكرات المعدنية التي كانت تسقط من أوفواه الصقور، ومعرفة عدد الساعات بعدد الأبواب، لأن الأبواب كانت تغلق تلقائياً بعد الساعات التي تمر.

وكانت في هذه الساعة طريقة أخرى لمعرفة الوقت ليلاً، وهي أن الدائرة التي كانت موجودة حول المحارديب كانت تحتوي على اثنتي عشرة حلقة مصنوعة من النحاس الأصفر، وكل حلقة تحتوي على زجاج من جهة الجدار، ووراء الزجاج توجد شمعة تتحرك بقوة الماء، وكانت تتحرك حسب الساعات أمام الحلقات، ويصبح لون الحلقة التي تكون الساعة أمامها أحمر، حتى تتحول كل الحلقات إلى اللون الأحمر حين يأتي الصباح².

المدرسة المشهورة التي انشأها الخليفة المستنصر بالله العباسي (ت640هـ) والتي كانت تسمى المستنصرية، جهزت لها ساعة عجيبة، وكانت صفتها أنها كانت تحتوي على

¹ رحلة ابن جبير (طبعة أوربا)، ص 271-273

² آثار البلاد للقزويني (طبعة ألمانيا لسنة 1848م)، ص 211

العدد الخاص مجلة الهند

حلقة من اللازورد مثل السماء، وفيها شمس تتحرك رويدًا رويدًا. وقد كتب العلامة الجوزي بعض الأشعار في مدح هذه الساعة:

تهدي إلى الطاعات ساعات الناس وبالنجم هم مهتدون
صور فيه فلـك داير والشمس تجري مالها من سكون
دائرة من الزور وحلت نقطة تبر فيه سر مصون

وهناك معلومات عن آلات أخرى مثل هذه غير الساعات. حصل السلطان عبد المؤمن وهو ملك مشهور من ملوك المغرب على مصحف من المصاحيف التي أمر الخليفة عثمان بن عفان بكتابتها وإرسالها إلى مصر والشام والبصرة والكوفة، وقد قدر المؤمن هذا المصحف كثيرًا وأمر بإنشاء صندوق، وقد وصفه العلامة المقرئ بقوله: صنع هذا الصندوق بطريقة عجيبة، حينما يفتح بالمفتاح يفتح على مصراعيه ويخرج منه صندوق صغير عليه مرفع موضوع على كرسي ويفتح هذا المرفع تلقائيًا بنفسه ويغلق الصندوق الصغير حينما يخرج المرفع والكرسي بشكل كامل وحينما يدار المفتاح بالاتجاه المعاكس يفتح الصندوق الصغير مرة أخرى ويعود المرفع والكرسي إلى أن يدخل الصندوق الكبير ويغلق¹.

ولكن من المؤسف أن هذا الفن لم يستخدم لأي عمل جليل أو كبير أو في الأعمال للنفع العام، وتوجد مؤلفات مستقلة للمسلمين في علم الجر الثقيل، لكننا لا نعلم أن المسلمين قد استخدموا الجر الثقيل في البنايات العظيمة التي أنشأوها في مختلف أرجاء العالم، هناك إشارات خفيفة في عهد الخليفة العباسي المتوكل بالله لكنها غير معينة ومشكوك فيها فلا نستطيع أن نذكرها في هذا الموقع.

¹ نفع الطيب (طبعة أوربا)، 405/1

رأي راديكالي عن إحياء العلوم العربية

- العلامة شبلي النعماني

ترجمة من الأردوية: د. هيفاء شاكري¹

ولقد فقدت الصبر بعد زمان فرفعت قلبي باسمه الرحمان

كتب سيد وهو نتاج التعليم الحديث ويسمى نفسه براديكالي، في المجلة الشهرية لعلي كره مقالة بعنوان "إحياء العلوم العربية" والسبب في هذه المقالة هي الحركة التي تهدف إلى نظم تعليم العلوم العربية في علي كره وقدّمت هذه الحركة من قبل بروفيسور إنكليزي ويقال أن الحكومة أيضاً أشارت بذلك.

خالف زعمائنا القوميون هذه الفكرة بكل جرأة وحرية وثبات وأثبتوا للعالم أنه في موضع ضروري حيث كان من المحتمل أن الشعب المسلم لا يضل فجأة بهذه الفكرة وعلى الناقد أن يسحبوا اعتراضهم بأن زعمائنا لا يستطيعون معارضة حركة لمسؤول إنكليزي.

لكن سبب المعارضة والذي أظهره أركان الكلية يعني نواب محسن الملك الشيخ نذير أحمد في مقالاتهم المؤثرة إلى ذلك الحين، كان فقط أنه لم يحن الوقت بعد بالسماح للمسلمين بالتوجه إلى أشياء أخرى غير التعليم الإنجليزي ولو لدقيقة واحدة.

ولو أن هذا الأمر لم يكن أقل استغراباً بأن الكلية التي يشتمل اسمها على كلمة "أورينتال" (شرقية) والتي تدعي بكتاباتها وخطبها أنها مركز التعليم القومي والديني للمسلمين، وتريد أن توسع دائرة مهامها إلى الشعب الإيراني، وخاصة إحياء العلوم الدينية هي أكبر خواص جامعاتها المقترحة، أن تعلن بكل صراحة عدم اعتنائها بالتعليم العربي، لأنه

¹ أستاذة مساعدة، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة المليية الإسلامية، نيودلهي.

كان من الممكن أن يكون هناك نظم للتعليم العربي حسب الحاجة دون الإضرار بالتعليم الإنكليزي، ولكن هؤلاء الأكابر لم يهاجموا العلوم العربية في نفسها، والسبب في ذلك ربما أن دراسة العلوم العربية (وكما يبين السيد الراديكالي) لا تخلق في الفطرة الحرية والشجاعة والحقيقة أن هؤلاء مرتبطون بالعلوم العربية.

لكن السيد الراديكالي نتاج التعليم الحديث لذلك تقدّم بكل حرية وشجاعة وكشف الستار عن السرّ بأن العلوم العربية ليست من الأهمية بمكان حتى يصرف الوقت على تعلمها، وبعضاً من الفقرات من مقالته كما يلي:

- إننا نختلف مع الرأي القائل بأنه توجد في العربية علوم تنير العقل وتجلي القلب وتتطهر الأفكار وترفع العزائم وتخلق الاستقلال في الفطرة.
- وكما نفهم بأن العرب كانوا دائماً جهلة ووحوشاً نصيبهم من التمدن والحضارة قليل، لذلك فإن وجود خزائن رائعة من العلوم والفنون في لغتهم أمر مستبعد (أمنا وصدّقنا)
- في الحالة التي يستشهد فيها سبط الرسول عطشان في كربلاء، تنتفح لحي الصحابة ويرمى في المسجد النبوي روث الخيول، كيف يمكن في هذه الحالة تدوين العلوم وتطويرها.
- مجموعة أشعار الجاهلية لا تشتمل إلا على قصص الحروب الداخلية بين العرب وإسالة الدماء أو مدح ووصف العنق الطويل للناقة وعود النخيل الشائك. ولا نجد في ذلك موضوعاً علمياً.
- ماذا يوجد في كلام الزمن الماضي غير مدح الخلفاء المترفين وعشيقاتهم ذوات الوجوه الجميلة ووصف للخمر والملحقات. وماذا يستفاد من قراءة هذا الشعر المشين والتافه إلا فساد الأخلاق؟

- يقال إن العرب تفوّقوا في علم التاريخ، إن هذه التواريخ ترجمت معظمها بإضافة حواش ومقدمات رائعة إلى اللغات الأوروبية وقراءتها أكثر فائدة من الكتب العربية الأصلية بكثير.

هذه كانت مقتبسات من مقالات السيد الراديكالي.

الأمر الأول الذي تجب ملاحظته هو أنه هل كان من الضروري أن يناقش السيد الراديكالي قضية إحياء العلوم العربية من هذه الناحية.

نسأل السيد الراديكالي وجميع معارضي العربية أنه إذا اعترفنا بأن العربية تحتوي على ذخائر علمية جيدة فهل كانوا يبيحون تعليمها، فقد قدّم السيد مارسين خطة تعليم العلم الحديث (Science) مع العربية، فهل وافق معارضو العربية على ذلك؟ هل العلوم أيضًا لا تستحق الالتفات إليها مثل العربية؟ والأمر الملحوظ هل يدرس أصحاب الجماعة الحديثة العلم لكونه علمًا؟ هل سنجد أي شخص في ساحة الكلية إذا لم يكن التعليم الإنكليزي وسيلة للوظائف الحكومية وهل تجد الذخائر العلمية للغة الإنكليزية لديهم قبولًا حتى بعد التخرج من الكلية.

إن كانت الحالة هذه فكان كافيًا أن يقال لإنكار خطة إحياء العربية بأن هدف حياتنا وتعليمنا هو الحصول على الوظيفة الحكومية ولا يمكن ذلك بالعلوم العربية. وكان هذا استدلالًا صائبًا لا يمكن لأحد إنكاره.

وإن كان السيد الراديكالي يهدف إلى التنقيص من شأن العلوم العربية وتحقيرها فكان عليه أن يختار لذلك عنوانًا مستقلًا وهذا لا يرتبط بقضية إحياء العلوم العربية.

من المحتمل أن السيد الراديكالي اعتقد أنه إذا ثبتت أهمية العلوم العربية فمن الممكن أن يتوجه إليها بعض الطلاب ولكننا نطمئن بأن الفرق الجديد فريق بعيد النظر وعملي وقد حدّد مساره ولا يمكن أن ينخدع بأن يتعلم العلم كونه علمًا.

والآن نتوجه إلى جمل السيد الراديكالي والتي سترأها بالنسبة للعلوم العربية.

ولكننا حائرون ماذا نتخذ من طريقة للاستدلال لمواجهتها؟ فإن علماء أوروبا الماهرين بالعربية والذين يعتبرون أصحاب الحق في الفصل في هذه القضية مثل البروفيسور سيديو والبروفيسور لبيان والبروفيسور رينان والبروفيسور مونك (المؤلف الفرنسي المعروف) والبروفيسور براؤن هنري لويس والبروفيسور زخاؤ (عالم العربية الألماني المعروف) وغيرهم يعتبرهم السيد الراديكالي بأنهم لا يمدحون العربية إلا بهدف تضليل المسلمين وعدم إيقاظهم من سباتهم وإذا قدّمنا أمثلة للكمال العلمي واختراعات المسلمين فإن المشكلة أن السيد الراديكالي لا يعرف العربية، وأما حاله في علم التاريخ فيظهر من قوله "لم يرتب القرآن إلى زمن الخليفة الأول والثاني".

إن حجر الأساس لاستدلال السيد الراديكالي هو "أن العرب شعب وحشي ولذلك من المستحيل وجود ذخيرة علمية في لغتهم" وإذا استسلمنا بكون العرب وحوشًا فذلك لا يؤيد الدعوى التي قدّمها، الأشخاص الذين جاءوا بالذخائر العلمية في العربية كانوا عجمًا، مثل الفارابي وابن سينا والرازي والغزالي والطوسي وقطب الدين الشيرازي وغيرهم. ولا أعتقد أن السيد الراديكالي سيلقب هؤلاء العجم بالوحشيين.

ألقى السيد رينان الذي يشتهر بكونه متعصبًا ضد الإسلام محاضرة في الأكاديمية الفرنسية وكان موضوعها "لا يمكن الجمع بين الإسلام والعلم".

اضطر في هذه المحاضرة إلى ذكر التحقيقات العلمية والفلسفية للمسلمين قال "نعم، الفلسفة موجودة في العربية ولكنها ليست عند العرب".

ولو أن رينان أنكر معرفة العرب بالفلسفة إلا أنه لم يستطع الإنكار أن العربية هي مخزن الفلسفة لكن السيد الراديكالي لا يؤيد وجود ذخيرة العلوم والفنون في العربية.

يقول السيد الراديكالي أنه لا يوجد لدى العرب أي ذخيرة تذكر في النثر، أما النظم فحاله أن نظم الجاهلية يقتصر على وصف العنق الطويل للناقة ووصف العشيقات ذوات الوجوه الجميلة في عصر الإسلام" وهذا القول يشبه قول الشيوخ القدامى عن أوروبا وعلومها وفنونها بأن هؤلاء لا يعرفون شيئًا إلا أن يصنعوا بعض الآلات مثل الحدادين والنجارين أو يقوموا ببعض القطع والتبش مثل الجراحين" يا للأسف:

ولقد رضيت عن الذي تبدييه لي فلقد علمت بأنك لا تميزن

كان من الممكن أن يكون هناك جانب ضعيف لتحقيق العرب في الفلسفة والعلوم والفنون لكن إنكار فصاحة العرب وبلاغتهم وشعرهم وعلمهم باللغة مثل من ينكر النور للشمس. إن حقيقة فن الشعر تعني وصف مناظر الطبيعة والعواطف الإنسانية بحيث تؤثر على القلوب كحالة أصلية لا توجد إلا في أشعار العرب، وكل شخص من بادية العرب كان يملك القدرة أن يؤثر بقوة كلامه على الجماعات ويوجهها حيث شاء. كان خلفاء بني أمية يحكمون في دمشق بكل شأن وأبهة لكنهم كانوا يرسلون أولادهم إلى البادية فقط لكي يتعلموا أسلوب الخطابة القوي واللغة السليمة بين سكان البادية، كل شعر من أشعار العرب كان يبعث الحماسة في الشعر، ولا يمكن لخطاب غليد استون أو بريك اليوم أن يؤثر كما استطاعت قصيدة واحدة لعمر بن كلثوم أن تحافظ على أصل الشرف والنبل لآلاف السنين في بني تغلب ولذلك كانت هذه القصيدة يحفظها كل طفل في القبيلة وأحد أشعارها:

إذا بلغ الفطام لنا صبي تخزله الجبابر ساجدينا

وافتخر العرب بأنما كانوا يقولونه في أشعارهم كان صدقاً ويفتخر العرب بأن مدح شخص يعتبر عاراً وخجلاً وعندما بدأ المدح في العصر اللاحق كان من اللازم أن لا يقال إلا الصديق والصواب، فعندما طلب ملك من شاعر أن يمدحه، قال له بكل وضوح "افعل حتى أقول". وعندما كافأ هرم بن سنان زهير بن أبي سلمى على قصيدة كان من عادة زهير إذا حصر المجلس أن يقول: عموا صباحاً غير هرم، وخيركم استثنيت" يعني أن السلام على الملك يعتبر تملقاً ولا يليق بشاعر العرب.

من المؤسف أن السيد الراديكالي وأصحابه لا يعرفون العربية، وإلا كان باستطاعتنا أن نريهم نماذج رفيعة المستوى من الشعر العربي والتي لا مثيل لها، من من شعوب آسيا يستطيع أن يصف مناظر الطبيعة مثل المراعي والجبال والأنهار والغابات وحرارة الصيف وبرودة الشتاء والأمطار والغيوم أو المشاعر الإنسانية مثل الحزن والألم والغضب والشدة والفخر والحماس والشجاعة والجرأة والذوق والحب غيرها مثلما فعل العرب؟

العدد الخاص مجلة الهند

نقدّم بعض الأمثلة من كتاب الحماسة كمثال في مجال الأخلاق فإذا كانت هذه الأشعار تعتبر نماذج جيدة فإننا مستعدون بأن نأتي ببحر من مثلها.

إذا ما أتت من صاحب لك زلة فكُن أنت محتالاً لزلته عذرا
وللكف عن شتم اللئيم تکرماً أضرّ له من شتمه حين يشتم
إن من الحلم ذلاً أنت عارفه والحلم عن قدرة فضل من الكرم
لهم جل مالي أن تتابع لي غنى وإن قلّ مالي لم أكفهم رفدا
وإني لعبد الضيف ما دام نازلاً وما شيمة لي غيرها تشبه العبداء
إننا لنرخص يوم الروع أنفسنا ولو نسام بها في الأمن أغلينا
إني لمن معشر أفنى أوائلهم قولُ الكمّاة ألا أين المحامونا
لو كان في الألف منا واحد فدعوا من فارس؟ خالهم إياه يعنوننا
إذ الكمّاة تنحّوا، أن يصيهم حدّ الطبّاة وصلناها بأيدينا
إذا المرء لم يدنس من اللوم عرضه فكل رداء يرتديه جميّل
تعيرنا أنّا قليل عديدنا فقلت لها إن الكرام قليل
تسيل على حدّ الطبّات نفوسنا وليست على غير الطبّات تسيل
إذا سيد منا خلا قام سيد قوول لما قال الكرام فعول
معوّدة أن تسلّ نصرالنا فتغمد حتى يستباح قبيل
يقول السيد الراديكالي إن التواريخ العربية ترجمت إلى اللغات الأوربية بحواش مفيدة
ومطالعاتها أكثر فائدة من الأصل العربي.

نسأل السيد الراديكالي ماذا يقصد بـ"اللغات الأوربية"؟ إن كان يقصد الإنكليزية فادعاه باطل، المؤلفون الإنكليزيين كلهم يعترفون بأن ثروة اللغة العربية باللغة

العدد الخاص مجلة الهند

الإنكليزية قليلة جدًا ولا يوجد فيها إلا بضعة كتب عادية ومتداولة، ندرج فيما يلي جدولًا يظهر تراجم التواريخ العربية إلى اللغات الأوربية ونصيب اللغة الإنكليزية من ذلك:

الرقم المسلسل	عنوان الكتاب	اللغة الهدف	سنة الطبع والمدينة
1.	تاريخ حمزة الأصفهاني	اللاتينية	ليبرغ، 1840م
2.	المسعودي	الفرنسية	باريس، 1877م
3.	أبو الفداء	اللاتينية	كانهينكن، 1894م
4.	تاريخ الدول الإسلامية	اللاتينية	البسلا، 1846م
5.	رسالة الإفادة والاعتبار	الفرنسية	باريس، 1810م
6.	سيرة السلطان صلاح الدين	اللاتينية	ليدن، 1855م
7.	تاريخ ابن خلكان	الإنجليزية	-----
8.	كتاب الاعتبار لأسامه بن منقذ	الفرنسية	-----
9.	تاريخ الكلبي	الألمانية	دستين فيلد، 1857م

وقد ترجم مختصر الدول والتاريخ المكين وابن البطريق إلى اللغات الأوربية أيضًا ولكن مؤلفهم كانوا مسيحيين لذلك لا نعدّها من مؤلفات المؤرخين العرب.

العدد الخاص مجلة الهند

وقد أصبح واضحًا من الجدول أنه لم يترجم إلى الإنكليزية إلا كتاب واحد والباقي ترجم إلى اللاتينية وغيرها. ما هي الطريقة التي يشير بها علينا السيد الراديكالي للاستفادة منها. هل يرضى بأن يفتح في علي كره قسم لتعليم اللاتينية والفرنسية إن كانت هذه هي النية فإننا نسحب مطالبتنا بتعليم العربية.

ولكن السؤال الحقيقي هو هل يمكن أن نقول على أساس الكتب المذكورة إن ثروة التاريخ العربي نقلت إلى اللغات الأوربية، ضُغّ التواريخ العربية النادرة وغير المطبوعة جانبًا، حتى الكتب المشهورة والمتداولة لم تترجم، الجميع يعرف ابن خلدون وابن الأثير والطبري، إلى أي لغة ترجمت كتبهم، وهل يمكن أن نقول بدون ترجمة هذه الكتب إن ثروة العربية نقلت إلى اللغات الأوربية، يبلغ عدد التواريخ العربية المذكورة في كشف الظنون ألف وثلاثمائة، وهل تغني ترجمة بضعة كتب تاريخية عن اللغة العربية.

الثروة الأصلية للتاريخ العربي والمتمثلة في مؤلفات المحدثين، لم تنتبه إليها أوربا حتى الآن، فما بالك بالمؤلفات الأخرى، أي كتاب من مئات الألوف من كتب الرجال والتراجم ترجم إلى اللغات الأوربية؟

طبعت كتب التاريخ العربي بكثرة في أوربا لكن ليست مترجمة وفضّلت أوربا قراءتها بلغتها الأصلية ولم تعمل برأي السيد الراديكالي بالاستفادة منها مترجمة.

يقول السيد الراديكالي "إن اللغة العربية لا تحتوي على معلومات تعلي الهمة وتمنح الثقة والحرية".

الحرية والاستقلال ميزة المعلومات التاريخية عندما تقرأ عن الحرية والاستقلال في تاريخ دولة من الدول فذلك يحرك المشاعر والتاريخ العربي مليء بهذه الأمثلة، الحرية سيطت من دم العرب ولا تستطيع أوربا حتى اليوم أن تقدّم أمثلة علو الهمة والشجاعة والاستقلال الموجودة في كل صفحة من صفحات التاريخ العربي.

وأعظم مثال للحرية من أن الصحابة رضوان الله عليهم وبالقدر الذي كانوا يحترمون به النبي ﷺ، كانوا يعبرون عن آرائهم بكل حرية لدرجة أننا نتردد في ذكرها الآن.

عندما حضرت هند (أم معاوية) إلى النبي ﷺ للدخول في الإسلام بايعها على عدم قتل الأولاد فقالت: يا محمد! إن ربيناهم صغارًا وقتلتهم كبارًا يوم بدر فأنت وهم أعلم".

الجميع يعلم عن شدة عمر وحزمه ولكن شخصًا عاديًا كان يخاطبه أمام الجمع كما لا يمكن أن يخاطب حتى صديقه. وقد قال خالد بن الوليد مفتخرًا أن ملكنا (عمر بن الخطاب) لا يميّز بيننا، إذا أخطأ نصلحه، وإذا سرق قطعنا يده وإن لم يعدل عزلناه.

عندما أعلن عامل معاوية على المدينة عن خلافة يزيد وقال إنها سنة أبي بكر وعمر، قام شخص وقال كذبت لا بل سنة كسرى وقيصر.

وهناك مآت الأمثلة التي تحرك مشاعر الحرية والاستقلال.

الحقيقة أن الجماعة التي تدرس فقط للحصول على الوظائف والتي اقتنعت بالوظيفة فقط بين أسباب المعاش الأخرى من تجارة وحرفة وصناعة، والتي لا تعرف من علوم وفنون أوروبا إلا الأمور السطحية، ولا تملك الذوق العلمي، واستخدمت كلمة التعليم العالي بطريقة خاطئة ماذا تستفيد من النقاش في وجود العلوم والفنون في العربية أو عدمها، وإن كانت توجد فما فائدتها لهذه الجماعة، إن النقطة التي لم ينتبه إليها مسؤولو الكلية هي أن الطريقة الحديثة استطاعت أن تلتفت إلى التعليم الإنكليزي فقط أولئك الذين يحتاجون إلى الوظائف، والأمراء والأغنياء الذين لا يحتاجون المعاش لا يعتنون بالإنكليزية، ولكن إن كان هناك التعليم العربية والديني بجانب التعليم الحديث لرأينا في ساحة الكية تذكارات الطبقة العليا الحاكمة.

وفي نهاية المطاف من الضروري أن أذكر أنه ليس من رأيي أن نبعد المسلمين عن التعليم الإنكليزي ونوجههم إلى العربية، طبعًا هذه عداوة في حق الشعب ولكن أن يدخل في هذا النقاش تحقير للعلوم العربية بغير سبب، وقول مسؤولي الكلية بأن لا يتوقع أحد منهم بأن يصرفوا ولو ذرة واحدة على التعليم العربية" ظلم وقول بجانب العدل، وهذا يظهر خبايا المشاعر في قلوبهم.

والقول بأن العربية ليست لغة ديننا وإن كانت فتكفي تلاوة القرآن قول عامي وخادع ودبلوماسية تافهة، قولوا بوضوح إننا لا نحتاج حتى إلى القرآن، أو يعترفوا بأن فهم

العدد الخاص مجلة الهند

القرآن لا يمكن إلا بالتعليم العالي للغة العربية، على كل فإن الطريقة التي اتبعت لمعارضة العربية قد تكون صحيحة إلى حدّ ما ولكن يصدق على ذلك قولنا:

ولينصّحون ولو بطور سيء

وتحقيق العربية أثبت أن الشعب قد وصل إلى آخر درجة من الذل والهوان لأن أي شعب لا يذل إلى أن يعتقد بنفسه أنه ذليل، وقد حصل شعبنا على هذه الدرجة.

استعراض كتاب:

- أ.د. غلام يحيى أنجم¹

عنوان الكتاب: مقالات شبلي في الإسلام والمستشرقين

الكاتب: العلامة شبلي النعماني الهندي

المتجمة والمرتبة: د. هيفاء شاكري

الناشر: روزورد بوكس، نيودلهي، الهند

سنة الطبع: فبراير، 2015م

عدد الصفحات: 109 صفحة

السعر: 300 روبية هندية

العلامة شبلي النعماني الهندي (1857-1914م) من أبرز أعلام الهند الذين أثروا أعمالاً خالدة عن الإسلام والمسلمين والآداب العربية والفارسية والأردوية. من أبرز أعماله "سيرة النبي" (بالأردوية) و"الفاروق" (بالأردوية) و"شعر العجم" (بالأردوية) و"الانتقاد على تاريخ التمدن الإسلامي" (بالعربية) و"الجزية" (بالعربية). وبصرف النظر عن مؤلفاته القيمة الرائعة فقد قام العلامة شبلي بكتابة مقالات جيدة يندر نظيرها في التراث العلمي الإسلامي ولو طبعت على حدة لعادلت كتيبات ورسائل علمية مادة وعلماً. ومن بين هذه المقالات "تراجم" مقالته الحافلة بالمعلومات البدائية عن خدمة العصور الإسلامية المختلفة في ترجمة التراث العلمي الأدبي الأجنبي ومقالته "مسلمانون

¹ رئيس، قسم الدراسات الإسلامية، جامعة همدر، نيودلهي

العدد الخاص مجلة الهند

كى كذشته تعليم" والتي تتحدث عن الأنشطة التعليمية في العهد الوسطى الإسلامية وقد جمعت هذه المقالات في مجموعة تحتوي على ثمانية مجلدات.

هذه المقالات، كما ذكرنا، تنطق عن الإسلام والمسلمين والآداب الأردوية والعربية والفارسية والقضايا العامة المتعلقة بالهند. ومن بين هذه المقالات ما كانت متعلقة بالاستشراق والمستشرقين وبما أوردوه من اعتراضات على الإسلام والمسلمين كما فيها ردود على الاعتراضات التي أثارها من تأثر بهؤلاء المستشرقين من المسلمين المثقفين الجدد. كانت هذه المقالات قيّمة رائعة وكان العالم العربي الإسلامي في حاجة شديدة إلى تعريبها لكي يستفاد منها الناطقون بالضاد. وعلى هذا فاختارت الدكتورة هيفاء شاكري والتي تدرّس في قسم اللغة العربية وآدابها بالجامعة المليية الإسلامية (نيو دلهي)، اختارت أربع مقالات من بين هذه المقالات الرائعة والتي تتحدث عن الاستشراق والمستشرقين وما أوردوه من شكوك واعتراضات على الإسلام والمسلمين كما فيها مقالة كتبت بقلم مسلم مثقف جديد تأثر بهؤلاء المستشرقين فاعترض على إحياء العلوم العربية فكأنه تشبّه بهم وانتهى إليهم فكرة ورأيًا.

فالمقالة الأولى هي عن الحريق الذي دمّر مكتبة الإسكندرية الشهيرة وأشعلها النصارى إلا أن المستشرقين اتهموا بها المسلمين، وأعلوا ذكر هذا الاتهام إلى حدّ قال المسلمون مثل قولهم أو لم يردّوا عليه فقام العلامة شبلي بدراسة نقدية لهذا الاتهام وردّ عليه ردًا علميًا فأثبت أن التهمة ترجع إلى من أثارها والمسلمون براء منها. هذه مقالة قيّمة يندر نظيرها في العالم العربي الإسلامي. ترجمت هذه المقالة إلى الإنجليزية كما قام بتلخيصها بالعربية الأستاذ محمد لطفي جمعة إلا أن ملخصه كان مليئًا بالأخطاء فقامت الدكتورة بترجمتها إلى العربية وأول مرة يستفيد منها الناطقون بالضاد مباشرة.

والمقالة الثانية هي عن رواج المكتبات في العصور الإسلامية. هذه المقالة أيضًا مهمّة وتتحدث عن تاريخ بداية المكتبة في العصور الإسلامية ومن خلالها تطورها فيها. يقول في بدايتها كاتبها العلامة شبلي:

"هذا تاريخ موجز للغاية للمكتبات الإسلامية، ولو أنّ أحدًا لا ينكر أن المسلمين كان شعارهم القومي ترتيب وصيانة الكتب والذخائر العلمية، وعلى هذا فلا نجد في تاريخ العالم نظيرًا لكثرة المكتبات ودور العلم المتواجدة في الحكم الإسلامي ولكن، بالرغم من ذلك، نتعجب من أنه لما يؤلف كتاب ولا مقالة في تاريخ هذه المكتبات وأخبارها فلما يكتب المسلمون أخبار وأوضاع مدينة في كتبهم الجغرافية فيشرحون مبانيها من كل نوع ولكنهم لا يذكرون حتى اسمها. وهذه هي الفكرة التي شجعتني على أن أكتب هذه المقالة ولو أنني أعتزف بأن المقالة يجب أن تكون مسهبة طبقًا لعنوانها ولكن الوقائع التي غفل عنها الأقدمون لا نكاد نجمع عنها سوى قليل من المعلومات فليقتنع قراؤنا على هذا القدر من المعلومات". (مقالات شبلي في الاستشراق والمستشرقين، ص 45)

والمقالة الثالثة عن البيمارستانات في الحكم الإسلامي. هذه المقالة دراسة مسهبة لبداية البيمارستانات في العهود الإسلامية واهتمام الخلفاء والأمراء المسلمين بها وكيف هي تطوّرت تطوّرًا ملموسًا في هذه العهود. ولنعلم أنه قد راج في العهد الإسلامي البيمارستان المؤقت والمتحرك كذلك.

والمقالة الرابعة عن دور المسلمين في تطوير علم الميكانيكا، يقول العلامة شبلي عن أصل هذه الكلمة:

"(ميكانيكا) كلمة يونانية، والتي تحوّلت في اللغة الإنجليزية إلى (Machine) وتعريبها في لغتنا الأردنية بـ"كل" وبالرغم من هذا العلم قد تطوّر إلى حد كبير إلا أنه قديم جدًا. كان اليونانيون يحصلون عليه كعلم، وحينما تعلم المسلمون علوم اليونانيين وفنونهم لم يكتفوا بالحصول عليه بل طبقوه عمليًا. ويعرف في اللغة العربية بعلم الحركات أو علم الحيل، ولكن الكلمة اليونانية مستعملة أيضًا بعد تغيير بسيط. إن كلمة "منجنيق" المستعملة بكسرة في اللغتين العربية والفارسية والتي أخطأ علماء اللغة لدينا من ناحية الاشتقاق، هي في الأصل معرّبة عن ميكانيكا والفرق أنها لا تسعمل الآن بشكل عام إنما أطلقت على آلة خاصة". (مقالات شبلي في الاستشراق والمستشرقين، ص 87)

ولو أن المسلمين قد أدوا خدمات عجيبة في هذا العلم إلا أنهم لم يستخدموه لعمل جليل أو كبير كما يقول العلامة شبلي:

"ولكن من المؤسف أن هذا الفن لم يستخدم لأي عمل جليل أو كبير أو في الأعمال للنفع العام وتوجد مؤلفات مستقلة للمسلمين في علم الجر الثقيل لكننا لا نعلم أن المسلمين قد استخدموا الجر الثقيل في البنايات العظيمة التي أنشأوها في مختلف أرجاء اعالم، هناك إشارات خفيفة في عهد الخليفة العباسي المتوكل بالله لكنها غير معيّنة ومشكوك فيها فلا نستطيع أن نذكرها في هذا الموقع". (مقالات شبلي في الاستشراق والمستشرقين، ص 93)

والمقالة الخامسة ذيلت بها الدكتور هيفاء لأنها تتعلق مباشرة بالموضوع إلا أنها كتبت للرد على اعتراضات كاتب مسلم متأثر بالمستشرقين على إحياء العلوم العربية. يبتدئ العلامة شبلي مقالته بما يلي:

"كتب سيد وهو نتاج التعليم الحديث ويسمى نفسه براديكالي، في المجلة الشهرية لعلي كره مقالة بعنوان "إحياء العلوم العربية" والسبب في هذه المقالة هي الحركة التي تهدف إلى نظم تعليم العلوم العربية في علي كره وقدمت هذه الحركة من قبل بروفيسور إنكليزي ويقال أن الحكومة أيضاً أشارت بذلك.

خالف زعمائنا القوميون هذه الفكرة بكل جرأة وحرية وثبات وأثبتوا للعالم أنه في موضع ضروري حيث كان من المحتمل أن الشعب المسلم لا يضل فجأة بهذه الفكرة وعلى الناقدين أن يسحبوا اعتراضهم بأن زعمائنا لا يستطيعون معارضة حركة لمسؤول إنكليزي". (مقالات شبلي في الاستشراق والمستشرقين، ص 94)

أثبت العلامة بدلائل علمية وبنماذج الأدب العربي أن إحيائه ضروري وأنه يفوق الأدب الإنكليزي مادة وقرراً.

الدكتورة هيفاء شاكري من الفتيات اللائي تعلّمن في الدول العربية فهلن من منهل العربية العذب واستنرن من بيئتها الخالصة فتصبغن بتراكيبها وأساليبها وتخلقن

العدد الخاص مجلة الهند

بأخلاق الناطقين بها، لغتها عربية سليمة بريئة عن الأخطاء والزلات التي يرتكبها من لم ينشأ ولم يتعرع في البيئة العربية الخالصة ولم يوفق الاستفادة المباشرة من علماء العرب. تقول الدكتورة عن هذه المجموعة:

"--- الحاجة كانت ماسة إلى ترجمة أجود مقالاته وبحوثه العلمية إلى اللغة العربية التي تتعلق بها هذه المقالات مباشرة، وقد أشار إليها العديد من الباحثين والكتّاب العالميين حتى أن بعض العرب حاول تلخيص بعض هذه المقالات والبحوث إلا أنهم أخطأوا لعدم معرفتهم باللغة الأردية التي كتبت فيها.

ونظرًا لهذا وذاك عازمت على أن أقوم بترجمة بعض هذه البحوث والمقالات العلمية إلى اللغة العربية لكي يستفيد منها العرب الذين لا يجيدون اللغة المصدر، ولو شجّعني القراء فسأقوم بترجمة مقالاته الأخرى التي لها علاقة مباشرة باللغة العربية ودراساتها.

اخترت خلال الترجمة مقالات العلامة شبلي النعماني المنشورة في المجلد السادس لمجموعة مقالاته والتي تتحدث عما أورده المستشرقون من اعتراضات وشكوك في خدمات الإسلام وأتباعه للعلم والفن كما تنطق عن خدمات المسلمين للتراث العلمي الأجنبي ودورهم في تطويره وتبليغه ذروة الكمال حتى لو رآه أصحابه لما عرفوه في صورته المتطورة.

هذه المجموعة المترجمة تحتوي على خمس مقالات بما فيها مقالته الرائعة عن حريق مكتبة الإسكندرية والتي تبرز لأول مرة للعالم العربي في شكلها التام، زدنا إليها مقالة بعنوان "رأي راديكالي عن إحياء العلوم العربية" ولو أن الرأي ليس لعالم مستشرق بل ضممنها إلى هذه المجموعة لتشيها بهذه المقالات مادة وهدفًا، والحق أنه يوجد بين الباحثين المسلمين من يفضل أن يتبع هؤلاء المستشرقين وعلى هذا فهم أولى بأن يسموا "مستشرقين" من أن ندعوهم "مسلمين". (مقالات شبلي في الإسلام والمستشرقين، ص 4-5)

اللهم ارفع ذكر هذه المجموعة في العالم العربي، وعمّم نفعها لكل من قرأها، ووفق المترجمة أن تقوم بنقل مقالات شبلي الأخرى إلى اللغة العربية.